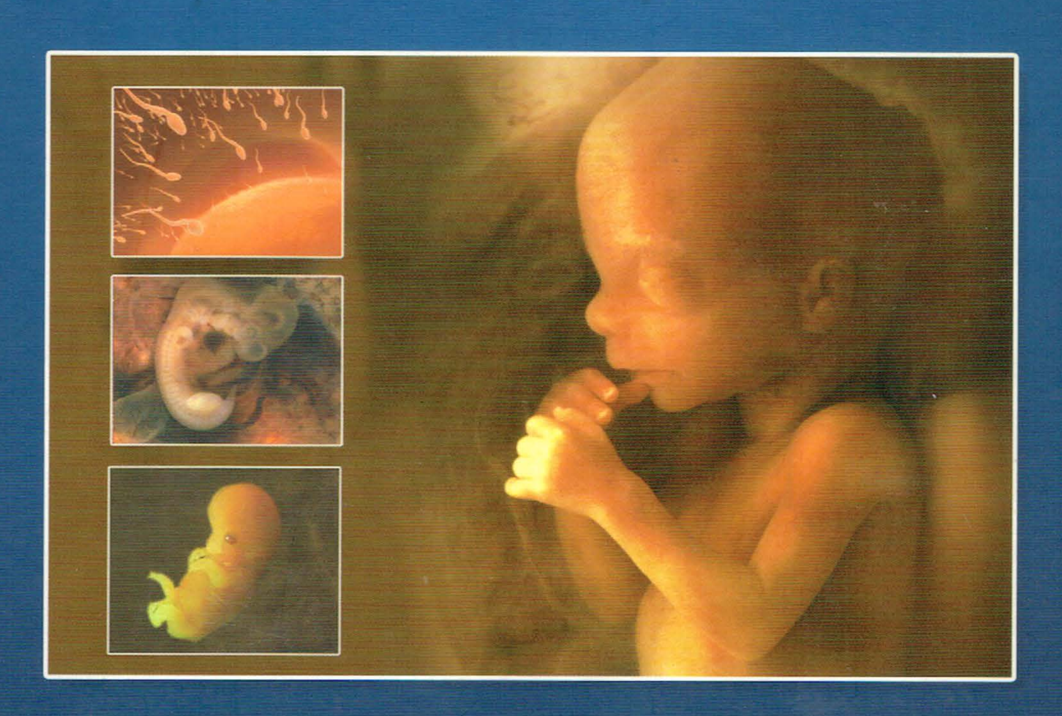
الدكتور زغلول راغب محمد النجار

من آيات الإعجاز العلمي



خلق الإنسان في القرآن الكريم



دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

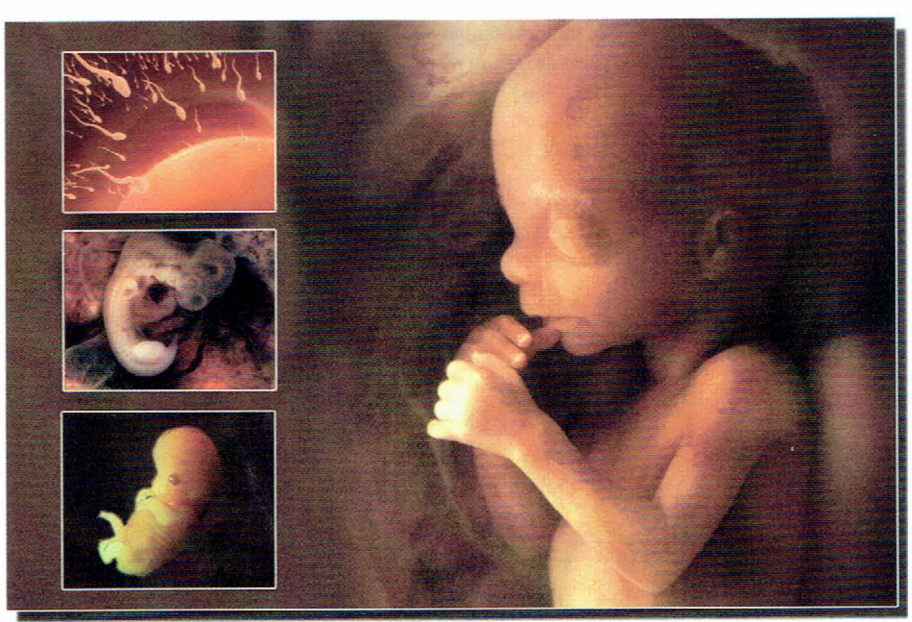
من آيات الإعجاز العلمي

خلق الإنسان

في القرآن الكريم

من آيات الإعجاز العلمي





دار المعرفة
بيروت لبنان

الإخراج الفني والصور العلمية : محمد ابراهيم فولادكار

ISBN 9953-85-138-7

الطبعة الأولى

1428هـ ـ 2008م



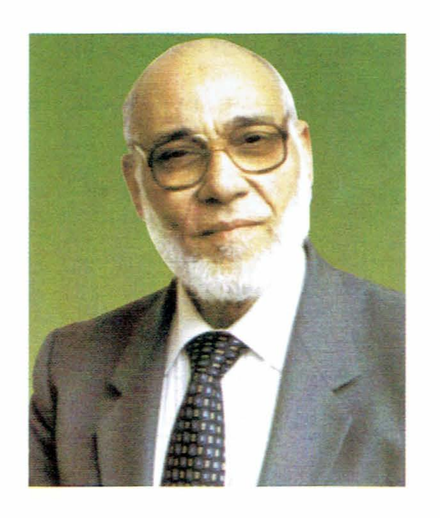


DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

جسر المطار ـ شارع البرجاوي ـ ص.ب: ٧٨٧٦ ـ هاتف: ٨٣٤٣٠١ ـ ٨٥٨٨٣٠ ـ فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت ـ لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858830, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
http//:www. marefah.com
E.mail: info@marefah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار



أ - التفاصيل الشخصية:

- أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- رئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ج.م.ع.
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- ولد الدكتور زغلول النجار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربيّة في 17 نوفمبر عام 1933م.

ب - المؤهلات العلمية:

- تعلم القرآن الكريم منذ الصغر في كتّاب القرية ثمّ على يد والده (رحمه الله تعالى).
- تخرج من جامعة القاهرة عام 1955 حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، وكان أول دفعته فمنحته الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.
- حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز/ بريطانيا عام 1963م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث المتقدمة فيما بعد درجة الدكتوراه، وتدرج في وظائف هيئة التدريس حتى حصل على درجة الأستاذية سنة 1972.

ج - الوظائف:

- عمل بشركة صحاري للبترول، وبالمركز القومي للبحوث بالقاهرة، وبمناجم

الفوسفات بوادي النيل، ومناجم الذهب بالبرامية - صحراء مصر الشرقية - وبمشروع الفحم بشبه جزيرة سيناء، وبكل من جامعات عين الشمس (القاهرة)، الملك سعود (الرياض)، ويلز (بريطانيا)، الكويت (الكويت)، قطر (الدوحة)، والملك فهد للبترول والمعادن (الظهران) وعمل أستاذاً زائراً بجامعة كاليفورنيا - لوس أنچيليس بالولايات المتحدة الأميركية - كما عمل مديراً لمعهد ماركفيلد للدراسات العليا ببريطانيا، ورئيساً للجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مصر.

د - الجوائز العلمية:

- منح جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وتم اختياره الشخصية الإسلامية الأولى على مستوى العالم لعام 1427هـ/ 2006م.
- منح جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية، ووسام العلوم والآداب والفنون الذهبي عن سنة 1426هـ/ 2005م.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي 1970م، وعام 1972م.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر الأحافير الدقيقة الكافية بكل من جنيف (سويسرا) 1967م، وروما (إيطاليا) سنة 1970م.
- حصل على درجة زمالة جامعة ويلز فيما بعد الدكتوراه - بريطانيا سنة 1963م.
- حصل على منحة روبرتسون للأبحاث فيما بعد الدكتوراه - جامعة ويلز - بريطانيا سنة 1963م.
- حصل على جائزة مصطفى بركة لعلوم الأرض - جامعة القاهرة سنة 1955م، وكان أول الحاصلين عليها.
- حصل على جائزة مسابقة التوجيهية، وزارة التربية والتعليم - مصر سنة 1951م، وكان ترتيبه الأول على مستوى الدولة.

هـ - الإنتاج العلمي:

- له أكثر من 150 بحثاً علمياً منشوراً وأكثر من خمسة وأربعين كتاباً.

- أشرف على أكثر من أربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، كما كان عضواً في لجان تحكيم العديد من الرسائل للحصول على هاتين الدرجتين العلميتين.

و - الأنشطة العلمية والثقافية:

- عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية المتخصصة.
- زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.
- شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.
- عضو سابق هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.
- مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.
- عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة وعضو مجلس إدارتها.
- عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام - لندن - بريطانيا.
- عمل مستشاراً علمياً لكل من مؤسسة روبرتسون للأبحاث العلمية (ويلز - بريطانيا)، ومستشارو النفط العرب (الكويت)، وشركة الزيت العربية (الخفجي - المملكة العربية السعودية)، وبنك دبي الإسلامي (دولة الإمارات العربية المتحدة).
- له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتين وخمسين مقالاً.



الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله الخالق البارئ المصور ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:7]، وأصلي وأسلم على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين: سيدنا محمد بن عبد الله الذي ختم الله - تعالى - ببعثته النبوات، وأكمل الرسالات، وأتم النعمة على عباده، ورضي لهم الإسلام ديناً، كما أصلي وأسلم على آل رسول الله وصحبه، وعلى جميع من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين «اللّهم آمين».

وبعد:

فمن الثابت أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، من قبل ألف وأربعمائة سنة، والذي حفظه الله - تعالى - على هذا المدى الطويل في نفس لغة وحيه «اللغة العربية» تحقيقاً للوعد الذي قطعه على ذاته العلية فقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:9] ويأتي هذا الوعد الإلٰهي بحفظ القرآن الكريم تحقيقاً للعدل الإلٰهي الذي حكم به ربنا - وهو خير الحاكمين - فقال:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:15]

لأنه لما كان سيدنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - هو خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد اقتضى العدل الإلٰهي حفظ الرسالة الخاتمة التي أنزلت إليه حفظاً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة الله على خلقه أجمعين، ومصدر الهداية الربانية لهم إلى يوم الدين.

وهذه الهداية الربانية هي الإسلام العظيم الذي علمه الله ﷻ لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أوحى به إلى مائة وعشرين ألف نبي من أنبيائه، وحمله لثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً اصطفاهم من بين هذا العدد الكبير من الأنبياء، ثم ختمه بالقرآن الكريم وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وعلى ذلك فإن ربنا - تبارك وتعالى - لا يرتضي من عباده ديناً سوى الإسلام ولذلك قال - عز من قائل - :

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

[آل عمران: 19]

وقال - وقوله الحق - :

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

[آل عمران:85]

والدين هو بيان من الله - تعالى - للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط، عجز الإنسان عجزاً كاملاً عن وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، التي تمثل ركائز الدين، وكل ما هو خارج عن ذلك ترك لاجتهاد الناس أفراداً وجماعات. والعقيدة إيمان بعدد من الغيوب المطلقة التي لا سبيل للإنسان في الوصول إليها إلا ببيان من الله - تعالى - وتشمل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبما في هذا اليوم الآخر من أهوال البعث، والحشر، والعرض الأكبر أمام الخالق ﷻ ، وأهوال الحساب والجزاء والميزان والصراط، ثم الخلود في الجنة أبداً أو في النار أبداً. والعبادة بمفهومها اللغوي هي قمة الخضوع لله بالطاعة، ولا توجد طاعة بغير أوامر، فإذا لم يتلق الإنسان أوامر من الله - تعالى - توضح له كيف يعبد ربه وخالقه ورازقه، فإنه لا يجدي في ذلك أي ابتداع، لأن الله - تعالى - يحب أن يعبد بما أمر.

أما مكارم الأخلاق، ونبل المعاملات فهي ضوابط للسلوك البشري، وكل من الواقع المعاش، ووقائع التاريخ يؤكد عجز الإنسان عن وضع ضوابط صحيحة لنفسه في أي من هذين المجالين، على الرغم من أن الله - تعالى - قد فطر الناس جميعاً على حب مكارم الأخلاق، ومن هنا كانت ضرورة الدين، وذلك لأن الإنسان لا يمكنه أن يحيا حياة سوية على هذه الأرض بغير دين، والدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

وإذا سلمنا بهذه المقدمات ظهرت لنا العلامة الفارقة التي يمكن لنا أن نميز بها بين دين صحيح ودين مختلق. وهذه العلامة هي دقة حفظ الوحي السماوي الذي أنزل به الدين، والوحي السماوي الوحيد المحفوظ بين أيدي الناس اليوم هو القرآن الكريم.

وركائز الدين في القرآن الكريم مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه «اللغة العربية»، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم مصدر الهداية الربانية للخلق أجمعين إلى يوم الدين.

وبما أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، المحفوظ بصفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، فلا بد وأن يكون مغايراً لكلام البشر، فهو ليس بالشعر، ولا بالنثر، ولكنه نمط فريد من الصياغة العربية، لم تعرفه العرب من قبل، جاء يتحداهم وهم في قمة الفصاحة والبلاغة وحسن البيان أن يأتوا بشيء من مثله، وعجزوا عن ذلك، ومن هنا جاء القول بالإعجاز البياني النظمي اللغوي للقرآن الكريم.

ومع تسليم أساطين اللغة العربية بهذا الجانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، بمعنى عجز البشر كلهم، بل عجز الإنس والجن - فرادى ومجتمعين - عن الإتيان بشيء من مثل القرآن الكريم في روعة بيانه، وجمال نظمه، أو في صدق محتواه ودقة كل إشارة فيه، ومع تسليمنا بالإعجاز البياني للقرآن الكريم إلا أننا نؤمن بأن البيان والنظم هما وعاء لمحتوى، وأن المحتوى أهم من الوعاء، ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. وكل قضية من هذه القضايا تمثل جانباً من جوانب الإعجاز في كتاب الله - بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء من مثله - وقد أفاض الكتاب في بيان كل من الإعجاز البياني والنظمي والإعجاز العقدي، والتعبدي، والأخلاقي، والتشريعي في القرآن الكريم، ولكنهم لم يوفوا بقية جوانب الإعجاز في القرآن الكريم حقها بعد بالقدر اللازم لذلك.

فبالإضافة إلى ركائز الدين فإننا نجد القرآن الكريم يضم أكثر من ألف آية قرآنية صريحة تتحدث عن عملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان، وتشير إلى بديع صنع الله في ذلك، وفي العديد من أشياء الكون، وسننه، وظواهره، مما يتناول تحت مسمى «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم».

وهناك «الإعجاز التاريخي»، و«النفسي»، و«التربوي»، و«الاقتصادي»

و«الاجتماعي»، و«الإداري»، و«الرقمي»، و«الإنبائي»، وغير ذلك من صور الإعجاز في كتاب الله - تعالى - ، ويتجسد هذا الإعجاز من كل حرف، وكلمة، وآية، وسورة، وفي القرآن كله من أوله إلى آخره، ولذلك وصَفَه سيد الخلق ﷺ بقوله الشريف: «**إن هذا القرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد**».

وفي زمن الفتن الذي نعيشه يتعرض الإسلام والمسلمون كما يتعرض كل من القرآن الكريم والرسول الخاتم الذي تلقى الوحي به لهجمة شرسة من كل قوى الشر في العالم الذي يحكمه الكفر والشرك والضلال. ولم يبق بيد المسلمين من وسائل يتصدون بها لهذه الهجمة الشرسة إلا إبراز ما في كتاب الله من حقائق علمية، وإشارات كونية دقيقة صيغت صياغة محكمة في إيجاز مع شمول، وصحة في المضمون، وسبق لجميع المعارف المكتسبة في الإشارة إلى العديد من حقائق الوجود بعدد متطاول من القرون في زمن لم يتوفر لأهله أي من وسائل الكشف عن مثل هذه الحقائق العلمية وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون وظواهره والذي يتناول تحت مسمى «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» هو من أنسب أساليب الدعوة إلى دين الله في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، تثبيتاً للمؤمنين على إيمانهم، ودعوة لغيرهم بالأسلوب الوحيد الذي يفهمونه، وذلك لأن الإشارات الكونية في كتاب الله - تعالى - لا يمكن لنا فهمها فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها - على أهمية ذلك - بل لا بد من إضافة الأبعاد العلمية لمضمون الآية الكريمة حتى تفهم دلالاتها فهماً صحيحاً، ثم نطلق من هذا الفهم الصحيح إلى إثبات سبق القرآن الكريم لجميع المعارف المكتسبة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون.

هذا وقد صدرت لي هذه الموسوعة المعنونة باسم «آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» في خمسة مجلدات هي: السماء، الأرض، الحيوان والإنسان في القرآن الكريم (في مجلدين). وبين يدي القارئ الكريم المجلد الرابع من هذه السلسلة بعنوان: «خلق الإنسان في القرآن الكريم».

وقضية الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان من القضايا الغيبية التي لم يشهدها أي منا، والتي لا تخضع لأدوات العلوم المكتسبة بطريقة مباشرة وذلك انطلاقاً من قول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: 51].

ولكن من رحمة الله - تعالى - بعباده أنه أبقى لنا في أنفسنا، وفي كل من صخور الأرض وصفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان على الوصول إلى تصور ما عن عملية الخلق ولذلك يأمرنا بالتدبر في هذه العملية الغيبية بقوله العزيز:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20].

وقوله - عز من قائل -:

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 20، 21].

وقوله:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 190-191].

ويبقى ما يستخلصه الإنسان من شواهد في مجال خلق الأنفس والآفاق في دوائر الفروض والنظريات التي تعتمد صياغتها على خلفية واضعيها من الإيمان أو الكفر، والتوحيد أو الشرك، والجدية أو الهزل، ومع تعدد هذه الفروض والنظريات يبقى للمسلم نور من الله - تعالى - في آية قرآنية كريمة، أو في حديث صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة إليها في كتاب الله أو في أقوال رسول الله ﷺ.

ومن هذه القضايا الشائكة أمام الإنسان قضية خلقه، والقضية ذات شقين: أولهما خلق أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وثانيهما تسلسل ذريتهما بالتكاثر الذي يدرس في علم الأجنة البشرية، والتي وصف القرآن الكريم مراحلها بدقة فاقت جميع المعطيات العلمية في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وهي مراحل لا يمكن أن ترى بالعين

المجردة، ووصف القرآن الكريم لها وصفاً يبلغ من الدقة والشمول والكمال ما لم تبلغه جميع المعارف المكتسبة، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة أمية لم تتوفر للناس فيها أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف يعتبر من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله.

وبالنسبة إلى خلق أبوينا آدم وحواء عليهما السلام يؤكد القرآن الكريم على أنهما كانا آخر ما خلق الله - تعالى - من صورة الحياة الأرضية، وأنهما خُلِقَا خَلْقاً خاصاً من الطين، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:7].

ويقول - عز من قائل -:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص:71]

ويقول - وهو أصدق القائلين - :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:12].

وعلى الرغم من هذا البيان الإلٰهي القاطع من الله الذي خلق إلا أن الشيطان قد وسوس للإنسان منذ الأزل - ولا يزال - من أجل التشكيك في قضية الخلق، فزين له فكرة التطور العضوي التي ادعى بها الملاحدة بلا دليل قاطع عدداً من الادعاءات التي كان منها: عشوائية الخلق الأول، وعشوائية تدرج الحياة الأرضية مع الزمن، ومحاولة ربط الإنسان بسلاسل الحيوان السابقة في وجودها عليه، وذلك كله من أجل التخلص من حقيقة الخلق، والتنكر للخالق سبحانه وتعالى على الرغم من نقص السجل الأحفوري لبقايا الحياة القديمة في صخور الأرض نقصاً معيباً.

ولكن النظرة الفاحصة لتركيب وبناء كل من جزيء الحمض الأميني، والجزيء البروتيني اللذين تنبني منهما الخلية الحية، وإلى شدة تعقيد بناء كل من الخلية الحية وما تحتويه من عضيات ومن شيفرة وراثية يؤكد حقيقة الخلق وعظمة الخالق، وينفي كل ادعاء باطل خلاف ذلك مما ساد في ظل الحضارة المادية المعاصرة من انحرافات.

كذلك فإن الدقة الفائقة في تتابع الحياة الأرضية عبر ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة، والدور الذي لعبته كل مرحلة من مراحل تلك التتابعات في تهيئة مختلف بيئات الأرض

لاستقبال المرحلة التالية ينفي العشوائية والصدفة ويؤكد دقة التصميم والقصد من أجل تهيئة الأرض لاستقبال خلق الإنسان، ذلك المخلوق المكرم الذي فضله خالقه على كثير مما خلق تفضيلاً.

ثم إن في تميز الإنسان عن جميع صور الخلق السابقة لوجوده، والمعاصرة له، في دقة بناء جسده، وتناسق أبعاده، وانتصاب قامته، وحجم جمجمته، وقدرات كل من عقله وقلبه، ومهارات يديه، وطاقته على سرعة اكتساب المعارف والفنون وتعليمها وروعة بيانه ونطقه، وقدرته على الإمساك بالقلم، وعلى الانفعال والشعور والتعبير، وعلى إدراك الذات، وقوة الذاكرة، وغير ذلك من الملكات المميزة يؤكد على حقيقة الخلق الخاص للإنسان، وينفي محاولة ربطه بسلاسل الحيوانات السابقة على وجوده، مع تشابه في بعض الصفات لأن الخالق سبحانه وتعالى واحد.

والقرآن الكريم يؤكد أن الله - تعالى - خلق أبانا آدم عليه السلام بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

1 - ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص:71 – 74].

2 - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31].

3 - ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

4 - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: 1–4].

5 - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4].

أما عن وصف القرآن الكريم لمراحل الجنين في الإنسان فقد سبق به جميع المعارف

المكتسبة بأكثر من أحد عشر قرناً، على الرغم من أن القضية شغلت بال الإنسان منذ القدم، وحاولت كل الحضارات القديمة إيجاد تفسير لها، إلا أن ذلك بقي ضرباً من الحدس والتخمين حتى نسب أبو قراط «460 - 322 ق.م» تكوّن الجنين إلى اختلاط دم الحيض بماء الرجل. وتابعه في ذلك أرسطو «384 - 322 ق.م». وظل هذا الفهم الخاطئ سائداً حتى تم اختراع المجهر في مطلع القرن السابع عشر الميلادي فساعد في دراسة الأجنة، إلا أن التصورات بقيت بدائية بسيطة خاطئة إلى الحد الذي تصور فيه عالم مثل مالبيجي في أواخر القرن السابع عشر الميلادي «1675م» أن بيضة الدجاجة تحوي فرخاً كامل النمو بحجم متقزم جداً لا يكاد يرى، ثم ينمو بمختلف أبعاده حتى مرحلة الفقس.

وحتى في وجود المجهر لم تكتشف نطفة الرجل إلا في العقود المتأخرة من القرن السابع عشر الميلادي «1677م» دون معرفة دورها في عملية تكوين الجنين الذي ظلت صورته المتقزمة بكامل أعضائه وأجهزته في رأس النطفة الذكرية ينمو في رحم أمه إلى الحجم الكامل للحميل سائدة حتى سنة «1759م» حين نادى عدد من العلماء بضرورة نمو الجنين بواسطة تمايز أجزاء معينة في الحيمن المندفع مع ماء الرجل أو في دم الحيض على خلاف بينهم في ذلك. ولم يكتشف تكون الجنين من اتحاد مائي الرجل والمرأة إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي «1775م». وكان القرآن الكريم قد نزل بهذه الحقيقة من قبل ذلك بأكثر من أحد عشر قرناً في عشرات الآيات التي منها قول ربنا - تبارك وتعالى - :

1 - ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم:45، 46].

2 - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36-40].

3 - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

وليس هذا فقط بل إن بييضة الأنثى لم تكتشف إلا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي «Von Baer, 1827» أي بعد مائة وخمسين عاماً من اكتشاف نطفة الرجل

«الحيمن». ولم يدرك العلماء الأوروبيون أن كلاً من البييضة والحيمن هي من ضمن خلايا جسم الإنسان إلا في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي «1839م»، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المفاهيم البدائية المغلوطة عن تكون الجنين تسود مفاهيم أغلب الناس وإلى وقت غير بعيد.

من هذا الاستعراض يتضح سبق القرآن الكريم بأكثر من أحد عشر قرناً لجميع المعارف المكتسبة في التأكيد على حقيقة أن الجنين يخلق من التقاء مائي الرجل والمرأة، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم الحق في القرن السابع الميلادي غير الله الخالق سبحانه وتعالى، وهذا القرن لم يكن زمن علم أو تقنية بأي مقياس من المقاييس. وليس هذا فقط، بل إن القرآن الكريم وصف مراحل الجنين البشري بأوصاف، وسماها بتسميات تبلغ من الدقة والشمول والإحاطة والكمال ما لم تبلغه المعارف المكتسبة حتى في زمن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه. فالأوصاف القرآنية لمراحل الجنين في الإنسان [وهي: النطفة، النطفة الأمشاج «المختلطة»، العلقة، المضغة «المخلقة وغير المخلقة» خلق العظام فكسوتها باللحم، ثمّ إنشائه خلقاً آخر] تفوق وصف علماء الأجنة اليوم لهذه المراحل والذي لا يتعدى تحديد كل مرحلة بعمرها منذ لحظة الإخصاب بعدد الأيام أو الأسابيع أو الشهور والفرق بين الوصفين واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، خاصة إذا علمنا أن المراحل الأولى للجنين البشري تبلغ من الضآلة والدقة ما يجعل رؤيتها بالعين المجردة أمراً مستحيلاً في زمن لم يكن للإنسان أي من وسائل التكبير أو التصوير أو الفحص المتوفرة اليوم. وحتى إذا نزلت مرحلة من هذه المراحل في حالة السقط فإنها تنزل غارقة في بحر من الدماء والأشلاء يجعل من إدراكها بالعين المجردة أمراً مستحيلاً، من هنا كان وصف القرآن الكريم لمراحل الجنين في الإنسان من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في هذا الكتاب العزيز الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، ومن أبلغ الشهادات بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه «اللغة العربية»، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة الله على خلقه إلى يوم الدين، وشاهداً للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه رغم إنكار المنكرين وجحود الجاحدين.

انطلاقاً من كل ما سبق فقد خصصنا الجزء الراهن من سلسلة «من آيات الإعجاز

العلمي في القرآن الكريم» لمناقشة عدد من الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بقضيتي خلق أبينا آدم عليه السلام ووصف مراحل الجنين في الإنسان، واللتين جمعتا تحت عنوان «خلق الإنسان في القرآن الكريم» لأن كلاً من العمليتين يندرج تحت بند الخلق بما في ذلك الخلق الأول ثم إعادته إلى يوم الدين.

أما باقي الآيات المتعلقة بهذا المخلوق المكرم فقد جمعناها في المجلد الخامس من هذه السلسلة المباركة بإذن الله تحت عنوان «الإنسان في القرآن الكريم: من الميلاد إلى البعث» وتشمل بقية الإشارات القرآنية إلى هذا المخلوق الكريم، لأن هذا الكتاب العزيز قد أنزله الله - تعالى - هداية للإنسان، ولذلك كان هذا المخلوق العاقل، المكلف، المكرم هو محور هذه الهداية الربانية وهدفها.

وقد جاءت الإشارة إلى الإنسان في القرآن الكريم في أكثر من ثمانمائة وإحدى وثلاثين موضعاً بصيغ مختلفة نوجزها فيما يلي:

1 - إحدى وتسعين مرة «91» بلفظ «إنسان»، وخمس مرات«5» بلفظ «أناس»، ومرة واحدة بكل من الألفاظ الثلاثة «أناسي» و«إنسياً»، و«مستأنسين». ولفظة «إنسان» تطلق على كلٍّ من الرجل والمرأة، لأن المرأة يقال أنها إنسان ولا يقال لها إنسانة.

وفي تعريف مدلول اللفظ قيل: أن الإنسان سمي بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام لها إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، لا يمكنه أن يقوم منفرداً بجميع أسبابه فلا قوام لبعضهم إلا ببعض.

وقيل أن «الإنسان» سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه، أو لأنه يتميز بكثرة نسيانه.

و«الإنس» هم البشر الذين هم خلاف «الجن»، والواحد «إِنْسِيٌّ» و«أَنَسِيٌّ»، والجمع «أَنَاسِيُّ». وتصغير إنسان «أنيسيان»؛ و«الأُنَاسُ» بالضم لغة في «الناس»، وهو الأصل.

يقال: «استأنس» بفلان و«تَأَنَّسَ» به بمعنى واحد لأن «الأنس» خلاف النفور. و«الإنسي» منسوب إلى «الإنس»، ويقال ذلك لمن كثر «أنسه»، ولكل ما «يؤنس» به. «والأنيس» و«المؤانس» كل ما «يؤنس» به. يقال ما بالدار «أنيس» أي: أحد. ويقال: «آنسه» بالمد أي: أبصره، و«آنس» منه رشداً أي: علمه، و«آنس» الصوت: سمعه. و«الإيناس» خلاف الإيحاش، وكذا التأنيس. وكانت العرب تسمي يوم الخميس

«مؤنساً»، و«الأَنَسُ» بفتحتين لغة في «الأُنْسِ» وهو ضد الوحشة، وهو مصدر «أَنِسَ» به «يأنِسُ» «أُنْسًا» أو«أَنِسَهُ».

وبأسلوب الاستعارة يعبر بلفظة «الإنسي» من كل شيء على ما يلي الإنسان منه، أي القريب منه، ويعبر بلفظة «الوحشي» على كل ما يلي الجانب الآخر منه، أي البعيد عنه.

2 - في واحد وأربعين ومائتين «241» من مواضع القرآن الكريم جاءت الإشارة إلى مجموع «الأناسي» بتعبير «الناس».

3 - وفي سبعة وثلاثين «37» موضعاً من كتاب الله جاءت الإشارة إلى الإنسان في القرآن الكريم بتعبير «بشر» وتصاريفه.

4 - وفي خمسة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم جاءت الإشارة إلى أبي البشر «آدم» عليه السلام وإلى ذريته بتعبير «بني آدم».

5 - وفي سبعة وخمسين«57» مرة جاءت الإشارة إلى الإنسان في القرآن الكريم بتعبير «رجل» وتصاريفه.

6 - وفي أحد عشر موضعاً «11» من القرآن الكريم جاءت الإشارة إلى الإنسان بتعبير «المرء» وتصاريفه.

7 - وفي ستة وعشرين موضعاً «26» من كتاب الله جاءت الإشارة إلى أنثى الإنسان بتعبير «امرأة» وتصاريفها.

8 - وفي تسعة وخمسين مرة «59» جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى أنثى الإنسان بتعبيري «النساء» و«النسوة» وتصاريفهما.

9 - وفي خمسة وتسعين ومائتين «295» من مواضع القرآن الكريم جاءت الإشارة إلى الإنسان بتعبير «النفس» وتصاريفها.

ومن مجموع هذه الإشارات القرآنية البالغ إحدى وثلاثين وثمانمائة اخترنا ثلاثين منها تتعلق بجوانب خلق أبوينا آدم وحواء عليهما السلام أي بخلق الإنسان الأول، أو بوصف مراحل الجنين في الإنسان أي بإعادة الخلق إلى يوم الدين.

وهذه الإشارات القرآنية الكريمة تحسم العديد من القضايا الخلافية بين علماء عصرنا الذين غرقت غالبيتهم في بحر الماديات المدركة الملموسة، حتى نسوا الله الخالق سبحانه وتعالى، ونسوا رسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ونسوا مصيرهم من بعدها، وأضلهم

الشيطان بالمعارف العلمية التي اكتسبوها وداروا بها في دوائر المادة والطاقة فقط منعزلين عن رؤية الحكمة من ورائها فضلوا وأضلوا.

هذه الإشارات القرآنية الكريمة من الله الخالق - جل وعلا - تحسم قضية الخلق الخاص للإنسان، وتؤكد أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وتخرج إنسان اليوم من المتاهات التي أدخلته الحضارة المادية المعاصرة فيها، وهي حضارة انطلقت أصلاً بعد صراع مرير بين الكنيسة الغربية ورجال العلم، وانتهت بانتصار العلم الذي أخذ موقفاً معادياً للدين، منكراً للغيب، دافناً نفسه في ماديات الأشياء المدركة الملموسة، وعازلاً نفسه عزلاً كاملاً عن استشراف الحكمة من وراء كل أمر من أمورها، فضلّ وأضل على الرغم من المنجزات العلمية والتقنية المبهرة التي حققها.

وجهل الإنسان المعاصر بالدين الصحيح أفقده العديد من الحقائق المتعلقة بذاته، ومنها حقيقة أنه عبد مخلوق بيدي خالق عظيم له من صفات الألوهية، والربوبية، والخالقية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن صفات الكمال والجلال والجمال، ومن طلاقة القدرة والعلم والحكمة ما أبدع به جميع خلقه.

وهذا الخالق العظيم خلق الإنسان واستخلفه في الأرض وحدد له رسالته في الحياة الدنيا: عبداً لله، مطالباً بعبادة الله - تعالى - بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، والمحافظة على مختلف بيئاتها، وإقامة شرع الله وعدله عليها.

ولما كانت هذه الحقائق مما لا يخضع لإدراك الإنسان كان محتاجاً دوماً إلى الهداية الربانية عن طريق وحي السماء أي إلى الدين، ولما كان الإله واحداً - بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد - كانت هدايته للبشرية واحدة هي التي علمها لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه وعلمها آدم لزوجه ولبنيه وأحفاده، ثم أنزل الله - تعالى - هدايته لخلقه على مائة وعشرين ألف من أنبيائه، اصطفى منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، كان خاتمهم أجمعين سيد الأولين والآخرين: سيدنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - ولذلك تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة حفظاً مطلقاً حتى تبقى حجة الله على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وشاهدة بالنبوة وبالرسالة لخاتم الأنبياء والمرسلين.

من هنا كانت أهمية استعراض آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم بشقيها : خلق الإنسان الأول، وتكرار الخلق ببث ذريته بعملية التناسل إلى يوم الدين، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾

[السجدة:6 – 8] .

ويقول - عز من قائل - :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [صَ: 71 – 74] .

ويقول ربنا - وهو أصدق القائلين - :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: 5] .

ويقول الخالق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 – 14] .

وهكذا يحسم القرآن الكريم قضية خلق الإنسان بكلام الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يدع ثغرة لشيطان من شياطين الأرض لينفذ منها إلى قلوب وعقول الناس من أجل إفسادها، وعلى علماء المسلمين أن ينطلقوا من كلام الله الخالق البارئ المصور ليثبتوا للعالم كله صدق كل كلمة وحرف وإشارة في القرآن الكريم، ويؤكدوا على حقيقة الخلق، وقد بدأت

دراسات كل من الخلية الحية، والشيفرة الوراثية، وعلم الأحياء الجزيئي، وعلم الكيمياء الأحيائية، وعلم الهندسة الوراثية تدعم حقيقة الخلق وتقف من ورائها.

وكذلك بدأت علوم الفلك في التأكيد على حاجة الكون إلى مرجعية في خارجه، أي خارج نطق المكان والزمان، والمادة والطاقة، والإسلام العظيم يؤكد على تنزيه الخالق سبحانه وتعالى عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ولا يعرف الإنسان من صفات خالقه إلا ما وصف به ذاته العلية في محكم كتابه بقوله العزيز:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

والإنسان مفطور على الإيمان بخالقه، ولكنه إذا لم يجد الدين الصحيح فإنه يملأ حاجته الداخلية إلى التدين بأي معتقد ينشئه عليه أبواه، أو يتلقاه من مجتمعه، وحينئذ يضلّ الإنسان ضلالاً بعيداً، وينعكس هذا الضلال على فهمه لرسالته في الحياة الدنيا، ولمصيره من بعدها، كما ينعكس على استنتاجاته الكلية، وفي مقدمتها قضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان، نظراً لقصور العلوم المكتسبة عن الوصول في هذه القضايا إلى الحقيقة الكاملة.

من هنا كانت أهمية إبراز ما جاء في القرآن الكريم عن خلق أبوينا آدم وحواء عليهما السلام في أول الأمر، وعن إعادة هذا الخلق وتكراره عن طريق ذراريهما، إلى يوم الدين، مما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، كما يشهد للقرآن الكريم بأنه حق مطلق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة.

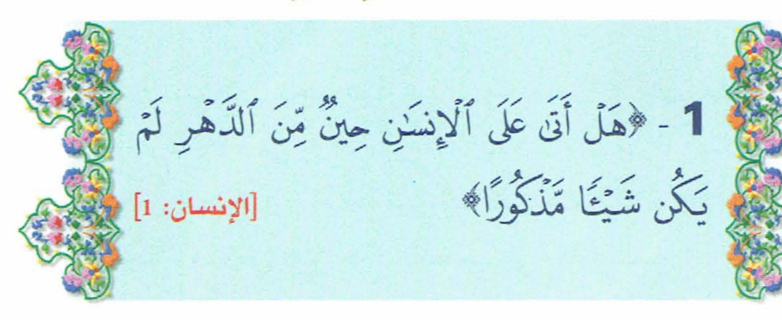
وآيات خلق الإنسان في القرآن الكريم لا يمكن فهمها في إطار اللغة وحدها - على ضرورة ذلك وأهميته - بل لا بد من إضافة الحقائق العلمية المكتسبة من أجل فهم دلالة هذه الآيات فهماً صحيحاً، ثم الانتقال من هذا الفهم الصحيح إلى إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى العديد من حقائق هذه القضية، والذي يتعامل معه تحت مسمى «الإعجاز العلمي للقرآن الكريم». وقد اجتهدت في إبراز هذا الجانب في ثلاثين نصاً من نصوص هذا الكتاب العزيز، على أمل مواصلة العمل مع بقية النصوص إن شاء الله - تعالى - فإن أصبت فيما قصدت فبفضل الله وتوفيقه وهدايته، وإن قصرت في ذلك

فأسأله سبحانه وتعالى المغفرة، والعون على جبر ذلك التقصير، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين «اللَّهم آمين» وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

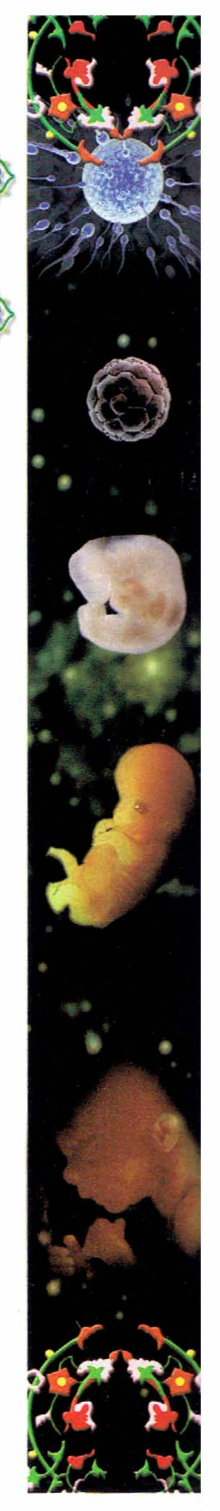
الفقير إلى عفو ربه
زغلول راغب محمد النجار



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



1 - ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة «الإنسان»، والإجماع على أنها سورة مدنية، وإن كان سياقها سياقاً مكياً، ولا يوجد ما يمنع من ترابط السياقين المكي والمدني في السورة الواحدة.

وعدد الآيات في سورة الإنسان واحد وثلاثون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالحديث عن الإنسان ونشأته، ورسالته، وخلقه، مؤكدة أنه آخر ما خلق الله - تعالى - على الأرض، وأنه خلق للابتلاء، وأعطي الاستعداد لشكر الله - تعالى - أو الكفر به.

وأجملت السورة الكريمة جزاء الكافرين، وفصلت جزاء الأبرار المؤمنين، ووجهت الخطاب إلى رسول الله ﷺ مؤكدة أن الله - تعالى - هو الذي اصطفاه للنبوة والرسالة، وأنزل إليه القرآن تنزيلاً، وأمره بالصبر لحكم الله، وعدم الطاعة لأي من الآثمين أو الكفار، كما أمره بذكر الله كثيراً بكرة وأصيلاً، وبالسجود له طويلاً بالليل وتسبيحه وحمده، وأنذرت السورة الكريمة من يحبون الدنيا ويذرون الآخرة أهوالَ الانتقال منها إلى الآخرة، مؤكدة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم وأحسن خلقتهم ثم كفروا به، وأن الله على إفنائهم واستبدالهم بغيرهم لقدير، وأمرت بالاتعاظ بالقرآن الكريم، وبما جاء فيه من آيات الذكر الحكيم، وعلقت ذلك بمشيئة الله، وانطلاقاً من إحاطة علمه وكمال

حكمته، وأنه - تعالى - يدخل من يشاء في رحمته، ويخرج من يشاء منها، وأنه قد أعد للظالمين عذاباً أليماً.

وسورة الإنسان في مجموعها خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى هذا المخلوق المكرم الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه البيان، وأسجد له الملائكة، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وبالرغم من ذلك كفر أغلب الناس به أو أشركوا في عبادته ما لم ينزل به سلطاناً، ومن هنا جاء التحذير في هذه السورة الكريمة من الخروج على منهج الله، وجاءت الدعوة إلى اتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه، وإدراك حكمته في الإنعام والابتلاء على حد سواء.

وتبدأ سورة الإنسان بقول ربنا - تبارك اسمه -:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: 1-3].

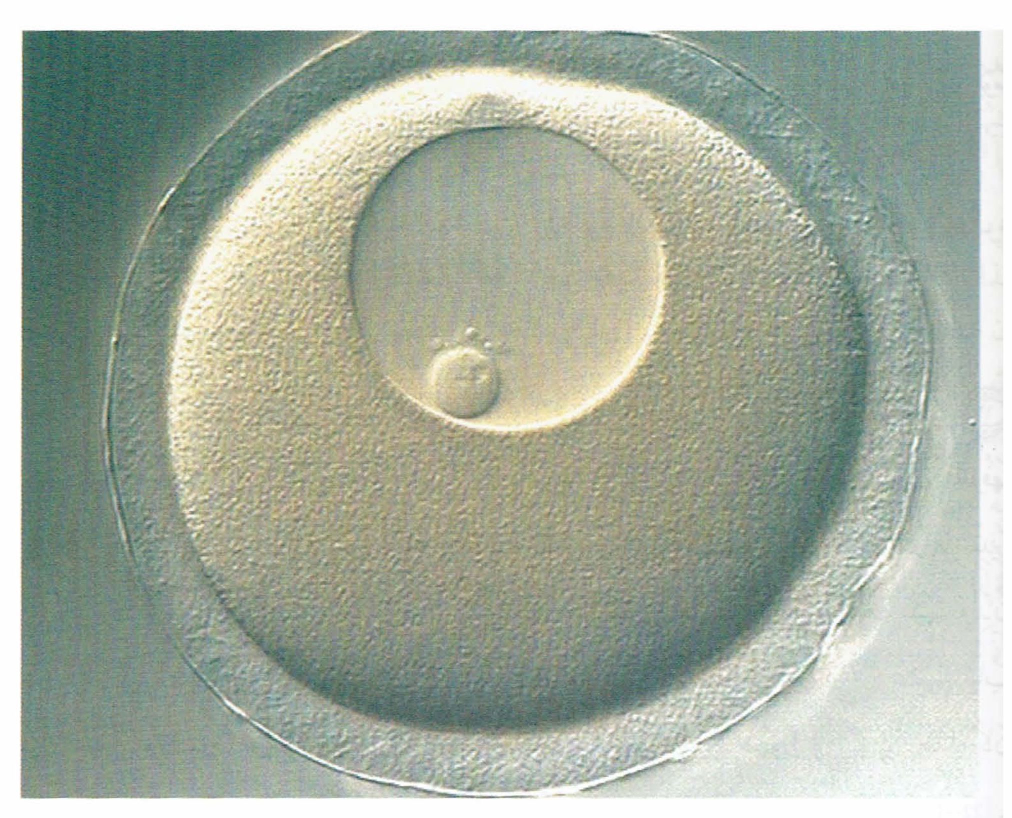
و(هل) حرف استفهام، لكنها هنا حرف تأكيد بمعنى (قد)، و(الحين) طائفة محدودة من الزمان الممتد، و(الدهر) يطلق على كل زمان طويل غير معين، وعلى مدة العالم كله.

و(النطفة الأمشاج) أي المختلطة هي اللقيحة (**zygote**) المكونة من إخصاب نطفة المرأة (البييضة) بواسطة نطفة الرجل (الحيمن)، و(الابتلاء) هو الاختبار بالتكاليف حتى يثبت الإنسان جدارته بالجنة أو استحقاقه للنيران، وقد زوده الله - تعالى - بملكات الاختيار بين الشكر لله أو الكفر به.

وبعد ذلك تنتقل السورة الكريمة إلى إجمال جزاء الكافرين ثم إلى تفصيل جزاء الأبرار المؤمنين فتقول:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: 4-6].

و(السلاسل) بها يقادون، و(الأغلال) بها يقيدون من أيديهم وتجمع أيديهم بها إلى



صورة لنطفة أمشاج (مختلطة) أو لقيحة.

أعناقهم، و(السعير) النار المستعرة، وهو تصوير لما سوف ينال الكافرين من مهانة وإذلال في يوم القيامة.

وفي المقابل تتحدث الآيات عن شيء من نعيم الأبرار من المؤمنين الشاكرين لأنعم الله سبحانه وتعالى و(الأبرار) جمع (البر)، وهو المطيع المتوسع في فعل الخيرات. و(الكافور) في الدنيا طيب فيه بياض وبرودة، و(كافور) الآخرة غيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: «كل ما ذكر في القرآن الكريم مما في الجنة.. ليس له في الدنيا شبيه إلا في الاسم».

وبعد ذلك تعرض الآيات في سورة الإنسان لجانب من صفات المؤمنين الأبرار وتزيد من وصف النعيم الذي وعدهم به رب العالمين فتقول:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا

وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان:7-10].

والشر (المستطير) أي: العذاب المنتشر، و(اليوم العبوس القمطرير) شديد الهول، عظيم الأمر، تعبس فيه الوجوه وتقطب الجباه من شدة كراهيته وطول البلاء فيه.

وتعاود الآيات الحديث عن جزاء المؤمنين الأبرار في جنات النعيم فتقول:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: 11-22].

و(**النضرة**) هي الحسن والبهجة في الوجوه، و(**السرور**) محله القلب، و(**الزمهرير**) هو البرد الشديد، وفي الحديث: «**إن هواء الجنة سجسج لا حر ولا برد**»، والسجسج هو الظل الممتد ما بين الفجر وطلوع الشمس، و(**دانية**) أي قريبة بمعنى أن الظلال قريبة منهم، زيادة في تنعيمهم. و﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي يسر لهم قطف ثمارها تيسيراً كبيراً، بمعنى جعل قطف ثمار الجنة أمراً في غاية السهولة واليسر لهم، وذلك أيضاً من قبيل تكريم الله سبحانه وتعالى لهم.

ويطوف عليهم سقاة بأوعية شراب من فضة جعلت شفافة حتى يرى ما بداخلها من شراب قدره الساقون تقديراً على وفاق ما يشتهي الشاربون دون أدنى زيادة أو نقصان. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الجنة شيء إلا أعطيتم في الدنيا شبيهه إلا قوارير من فضة. و(**السلسبيل**) هو السلس في الانسياغ، الممتع في المذاق.

و(**الولدان المخلدون**) الدائمون على ما هم عليه من النداوة والبهاء، والحسن والصفاء، وإشراق الوجوه، والانبثاث في المجالس، حتى ليحسبهم من يراهم حبات

الدر المنثور. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ...﴾ يعني هناك في الجنة ﴿... رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ...﴾ أي على أهل الجنة ثياب مخضرة من سندس (وهو ما رق من الديباج؛ أي الحرير)، و(**إستبرق**) وهو ما غلظ منه أي من (**الحرير**)، وجعل في أيديهم أساور من فضة، ﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي بالغاً غاية الطهر، وفوق هذا النعيم يسمع أهل الجنة من يقول لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي أن هذا النعيم المقيم أعد لكم جزاء لأعمالكم في الدنيا، وكان سعيكم فيها محموداً عند الله - تعالى - مرضياً عنه ومقبولاً منه سبحانه وتعالى.

ثم تتجه الآيات في سورة الإنسان بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يقول له فيه ربنا وربه - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

[الإنسان:23-26].

والأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ هو أمر لكل مسلم ومسلمة أن يقبل على كتاب الله يتدارس آياته في تدرج، فيطبق ما فيها من أوامر، ويجتنب ما فيها من نواهٍ، وبذلك يتعلم العلم والعمل معاً، ثم ينطلق مبلغاً عن الله وعن رسوله بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي، لا يخرجه عن ذلك سفه السفهاء، ولا تطاول الضالين من الكفار والمشركين، ومن العصاة التائهين في ضلالات هذه الحياة، وعليه أن يصبر كما صبر رسول الله ﷺ وأن يتجنب إثم الآثمين، وكفر الكفار والمشركين، ولا يطيعهم في أمر أبداً، وأن يداوم على ذكر الله - تعالى - في جميع الأوقات، مع المحافظة على الصلوات في أوقاتها من الفجر إلى العشاء، وعلى التهجد طويلاً من الليل بنافلة من الصلاة والذكر.

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك عن غالبية أهل الأرض من الكفار والمشركين، والطغاة المتجبرين، والظلمة الجائرين الصائلين الذين أعمتهم الدنيا ببريقها الزائف، فأنستهم الآخرة بأهوالها ومخاطرها وكربها، فلا يعملون لها حساباً حتى يفاجأوا بأهوالها فيندموا أشد الندم حين لا يجدي الندم، ولا ينفع البكاء ولا العويل، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان:27،28].

﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أي: وأحكمنا خلقهم، و(الأسر) هو الخلق، ومن بلاغة القرآن الكريم أنه لم يكرر لفظة الخلق فجاء بالبديل ولذلك لم يقل: نحن خلقناهم وأحكمنا خلقهم ولكنه قال: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ...﴾ والآية الكريمة هي من قبيل الامتنان على العباد أن الله - تعالى - هو الذي خلقهم، وأحسن هذا الخلق وأحكمه، ثم يكفر العباد بخالقهم أو يشركون به أحد خلقه، أو يتنكرون لأنعمه فيملأون الأرض ظلماً وجوراً واستعلاء وتجبراً وفساداً وتجاوزاً لحدود الله - تعالى-.

وتختتم سورة الإنسان بإعلان من الله ﷻ بأن الآيات التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة هي موعظة بالغة من الله - تبارك اسمه - فمن شاء أن يتعظ بها، ويتخذ ما جاء فيها من هداية وسيلة يتقرب بها إلى خالقه فله ذلك، ومن شاء الإعراض عن ذلك فله ما شاء، وما يختار الإنسان شيئاً إلا وفق مشيئة الله - تعالى- وحسب إرادته لأنه - تعالى - هو العليم الحكيم، مع وجود دائرة الإرادة الشخصية والحرية الكاملة فيها لكل فرد منا، ولذلك تختتم سورة الإنسان بقول ربنا - تبارك وتعالى- :

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾﴾

[الإنسان: 29-31].

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الإنسان»:

1 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو خالق الإنسان، وخالق كل شيء، وأن خلق الإنسان كان آخر ما خلق الله ﷻ على الأرض، وأن خلقه وتكاثره بعد الخلق الأول يتم بالنطفة المختلطة من الأبوين مما يشهد للخالق - تبارك اسمه - بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

2 - اليقين بحتمية اليوم الآخر وأهواله وشدائده، وبضرورة الجزاء فيه إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، والتسليم بكل ما جاء في القرآن الكريم من وصف لكل من الجنة والنار.

3 - التصديق بأن الله - تعالى - هو الذي نزل القرآن الكريم تنزيلاً على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وأنه سبحانه وتعالى نزله تذكرة وهداية لخلقه في القضايا التي يعلم - بعلمه المحيط - عجز الإنسان عن الوصول فيها إلى أي تصورات صحيحة كقضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وهي صلب الدين الذي لم يفرضه الله - تبارك اسمه - على أحد، بل ترك الخيار فيه مفتوحاً أمام كل الناس: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

4 - التسليم بأن الله - تعالى - قادر على إفناء خلقه، وعلى استبدالهم بغيرهم، وأن ذلك على الله يسير.

5 - الإيمان بأن الإرادة البشرية داخلة في دائرة قدر الله ومشيئته، لأن الله - تعالى - هو العليم الحكيم، الذي يدخل من يشاء في رحمته، وأعد للظالمين عذاباً أليماً.

من القضايا التعبدية في سورة «الإنسان»:

1 - ضرورة الوفاء بالنذور، والحرص على إطعام المسكين واليتيم والأسير طلباً لمرضاة الله.

2 - المحافظة على الصلوات المفروضة، وعلى أداء النوافل ومنها قيام الليل، ومداومة ذكر الله وتسبيحه وتمجيده.

3 - ضرورة الصبر لحكم الله في الالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، والقيام بواجب التبليغ عنه وعن رسوله ﷺ والصبر على جفوة الكفار والمشركين وصلافتهم، وعلى بذاءة الآثمين وقلة أدبهم وعدم استحيائهم من الله - تعالى - والحرص على عدم الانحدار إلى مستوياتهم.

من الإشارات الكونية في سورة «الإنسان»:

1 - تأكيد أن حيناً من الدهر قد انقضى ولم يكن للإنسان وجود يذكر إلا في علم الله - تعالى - وفي ذلك إشارة إلى قصر فترة وجود الإنسان على الأرض بالنسبة إلى غيره من المخلوقات، والعلوم المكتسبة تثبت أخيراً أن الأرض قد عمرت بالحياة قبل خلق الإنسان بآماد طويلة.

2 - الإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة مختلطة أو لقيحة (**Zygote**) وهو ما لم تصل إليه العلوم المكتسبة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

3 - تقديم السمع على البصر في هذه الآية القرآنية الكريمة، وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم، والدراسات المكتسبة أخيراً في مجال العلوم الطبية تؤكد تقدم مراكز السمع على مراكز البصر في مخ الإنسان.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى مناقشة خاصة بها، ولذلك سوف أركز هنا على النقطة الأولى في القائمة السابقة والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

من أقوال المفسرين في تفسير قوله - تعالى -:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «... يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه.. ثم بين ذلك فقال جل جلاله: ﴿... إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ...﴾ [الإنسان: 2] أي أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعض....».

وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما يلي: «﴿هَلۡ﴾ قد ﴿أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ آدم ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أربعون سنة ﴿لَمۡ يَكُن﴾ فيه، ﴿شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ كان فيه مصوراً من طين لا يذكر، أو المراد بالإنسان الجنس، وبالحين مدة الحمل».

وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: «هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير، ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئاً من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة، وسلطت عليه النور، وجعلته شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً؟ إنها إيحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام، وهي إيحاءات رفيقة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى: واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء، يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان.. كيف تراه كان؟ والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بدهور وأزمان طوال...

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني، وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله، والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة، المقدر أمرها في علم الله قبل أن تكون! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل!.

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود، وتعده لدوره، وتعد له دوره، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله، وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكناً وميسوراً، وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة، ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير!».

وإيحاءات كثيرة وتأملات شتى، يطلقها هذا النص في الضمير.. ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير، في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير.

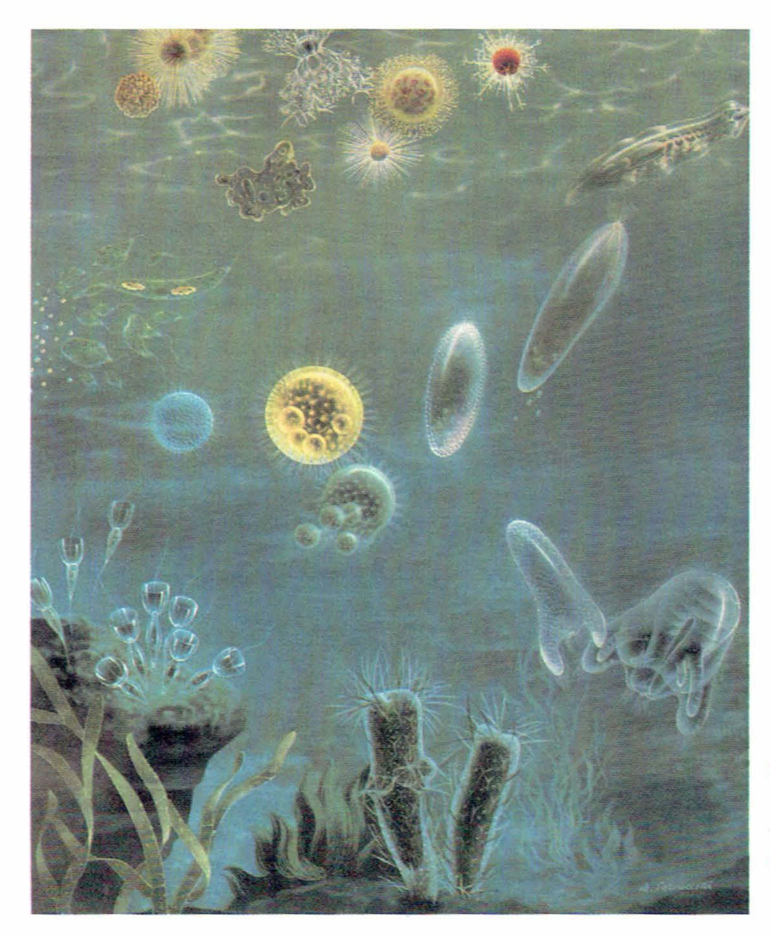
فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا...﴾ [الإنسان: 2]

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن - رحم الله كاتبها - ما نصه: ﴿هَلْ أَتَىٰ...﴾ أي قد أتى على نوع الإنسان.. والمراد بنو آدم ﴿... حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ...﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد غير المحدود. والدهر: يطلق على كل زمان طويل غير معين، وعلى مدة العالم كله ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا...﴾ بالإنسانية، بل كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه:

«قد مضى على الإنسان حينٌ من الزمان قبل أن ينفخ فيه الروح، لم يكن شيئاً يذكر باسمه، ولا يعرف ما يراد منه».

وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه: «﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي كان في العدم، لم يكن له ذكر ولا وجود.. قال المفسرون ﴿هَلْ أَتَىٰ...﴾ بمعنى قد أتى... والمراد بالإنسان الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه...، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئاً منسياً لا يفطن له، وكان في العدم جرثومة في صلب أبيه، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومر عليه حين من



رسومات تخطيطية للحياة البدائية في بحار العصر الكمبري قبل خمسمائة مليون سنة.

الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وإنشاءه بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد....».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أثبتت دراسات علوم الأرض والفضاء أننا نحيا في كون يقدر عمره بأكثر من عشرة آلاف مليون سنة، وعلى أرض يقدر عمرها بأكثر من أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، وإن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة مضت، وقد وجد هذا الأثر على هيئة جزيئات لمركبات عضوية متحفرة تشبه العديد من الخلايا الحية المعاصرة، وقد اكتشفت هذه البقايا في صخور جزيرة جرينلاند في سنة 1978م بواسطة سيرل بونامبروما (Cyril Ponnamperuma) الأستاذ بجامعة ميريلاند الأمريكية.

وقد أدى هذا الكشف إلى اعتبار الفترة من4,6 بليون سنة مضت إلى 3,8 بليون سنة مضت وقدرها 800 مليون سنة فترة إعداد الأرض لاستقبال الحياة ويطلق عليها اسم زمان أو أبد انعدام الحياة (The Azoic Eon).

وتلا ذلك اكتشاف أحافير لكائنات وحيدة الخلية تشبه البكتيريا في صخور يرجع عمرها إلى نحو ثلاثة بلايين ونصف البليون سنة في جنوب غربي أستراليا. وبالمثل تم اكتشاف عدد من الأحافير لكائنات وحيدة الخلية شبيهة بالطحالب والبكتيريا المعاصرة وذلك في تتابع من الصخور الرسوبية غير المتحولة يعرف باسم متكون شجرة التين (The Fig Tree Formation) وذلك في جنوب أفريقيا.

ثم تم اكتشاف بقايا للطحالب الخضراء المزرقة (Blue-green Algae) في روديسيا في صخور جيرية يرجع عمرها إلى (2,7 بليون) سنة، وتم اكتشاف بقايا مشابهة في منطقة أنتاريو (كندا) في صخور يرجع عمرها إلى (1,9 بليون) سنة.

وبالمثل تم اكتشاف العديد من أحافير الطحالب والبكتيريا والفطريات في صخور من الصوان الكربوني في وسط أستراليا قدر عمرها بألف مليون سنة مضت.

وهذه الكائنات تصنف تحت أمة واحدة تعرف باسم أمة أوليات الأنوية (Domain Prokaryota) وتحت مملكة واحدة هي مملكة البدائيات (Kingdom Monera) وتشمل البكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة، وأفرادها بسيطة التركيب، ويتكون الفرد منها من خلية واحدة، أو من عدد من الخلايا، ولكن هذه الخلايا لا تتمايز إلى أنسجة، ولا إلى أعضاء، مهما تعددت الخلايا، ولكنها قد تتفرع إلى عدة أفرع. وهذه الكائنات ليست لها نواة محددة، ولكن تنتشر محتويات النواة في سائل الخلية دون أن تتركز على هيئة الصبغيات.

ووجدت بقايا أول خلية ذات نواة محددة (Domain Eukaryota) في صخور يرجع عمرها إلى نحو 1,4 بليون سنة في شرقي ولاية كاليفورنيا الأمريكية والكائنات وحيدة الخلية وذات النوى المحددة المحاطة بغشاء نووي يفصلها عن سائل الخلية (السيتوبلازم) تصنف في عدد من الممالك الخاصة منها مملكة الطلائعيات (Kingdom Protista) وتضم العديد من الكائنات البسيطة مثل السوطيات، والطحالب، والجرثوميات أو البوغيات (Sporozoa) والهدبيات (Ciliata) وغيرها. ومنها مملكة الفطريات (Kingdom Fungi).



رسم تخطيطي لأوائل الحياة النباتية الأرضية في مطلع العصر السيليوري منذ حوالي 400 مليون سنة.

أما مملكة النباتات والحيوانات (Kingdom Plantae and Kingdom Animalia) فلم تزدهر إلا بعد ذلك، فمملكة الحيوانات التي تضم أكثر من عشرين قبيلة قد وجدت أولى بقاياها في صخور يقدر عمرها المطلق بنحو (700 مليون) سنة مضت. وبناء على ذلك تعتبر الفترة من (3,8 بليون) سنة مضت إلى (700 مليون) سنة مضت زماناً خاصاً يعرف باسم زمان أو أبد الحياة المستترة (The Cryprozoic Eon) وقد دام لأكثر من ثلاثة بلايين سنة (3,1 بليون سنة)، واعتبرت الفترة من (700 مليون سنة) إلى اليوم زماناً آخر يعرف باسم زمان أو أبد الحياة الظاهرة (The Phanerozoic Eon) ازداد فيه تنوع وأعداد مختلف صور الحياة النباتية والحيوانية بالتدريج حتى وصلت إلى صورتها الحالية. فتعددت صور النباتات من الطحالب، إلى الحزازيات، إلى ذيل الحصانيات، إلى السراخس، ثم النخيليات، والمخروطيات (الصنوبريات)، إلى النباتات المزهرة. وقد خلقت أول النباتات الأرضية منذ نحو (400 مليون) سنة في مطلع العصر السيليوري، وبقيت الحياة في المياه لأغلب تاريخ الأرض.

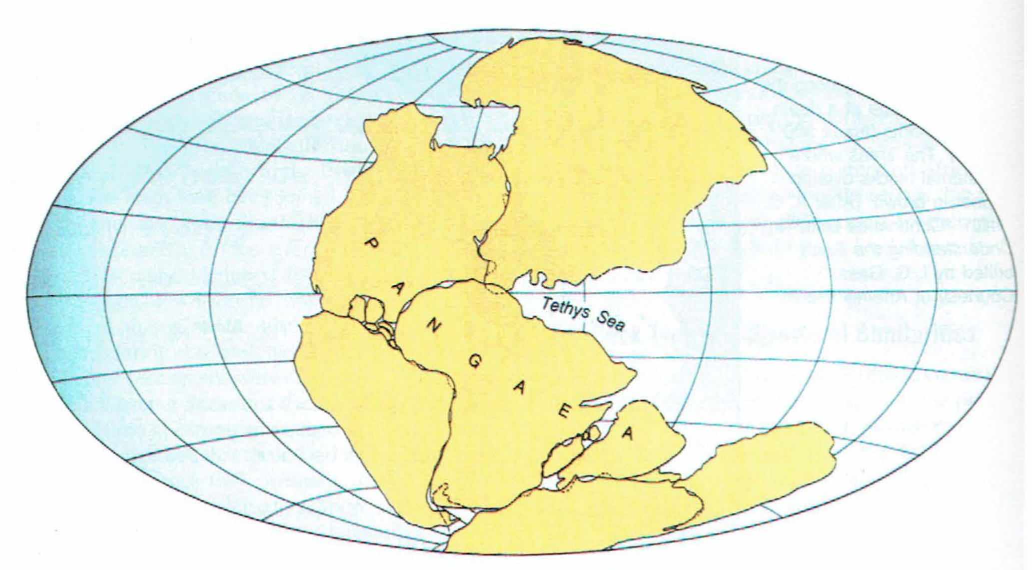
وتنوعت مجموعات الحياة الحيوانية غير الفقارية لتشمل أكثر من عشرين قبيلة

متمايزة، وخلقت طلائع الأسماك، ثم البرمائيات، ثم الزواحف، ثم الطيور، ثم الحيوانات اللبونة (ذات الأثداء أو الثدييات) وتنوع خلقها تنوعاً مذهلاً حتى خلقت الثدييات المشيمية (**Placental Mammals**) وكان منها آكلات الحشرات، والخفاشيات، والحافريات (ذوات الحوافر) ومنها الخيول، والغزلان، والماشية، وغيرها، والمفترسات (**Carnivora**) والقوارض (**Rodentia**) والخرطوميات من مثل الفيلة، والحيتان والدلافين، والرئيسيات ومنها القردة (القرود العادية، الشمبانزي والغوريللا، وغيرها)، بينما لا يتعدى أقدم أثر للإنسان على الأرض مائة ألف سنة.

من هذا الاستعراض تتضح ومضة الإعجاز العلمي في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:1].

فقد أثبتت العلوم المكتسبة أن عمر الإنسان على الأرض لا يتعدى مائة ألف سنة وهو ما يمثل واحداً من خمسين ألفاً من عمرها، وأن خلق الأحياء الأخرى قد سبق خلق الإنسان بقرابة الأربعة بلايين من السنين، وإذا قارنا هذه الحقيقة القرآنية التي أنزلت من قبل ألف وأربعمائة سنة بما ذكره القس الإنجيلي الإيرلندي جيمس أشر (**James Ussher**) كبير أساقفة أرماغ (**Archbishop of Armagh**) والذي عاش في الفترة من 1581م إلى



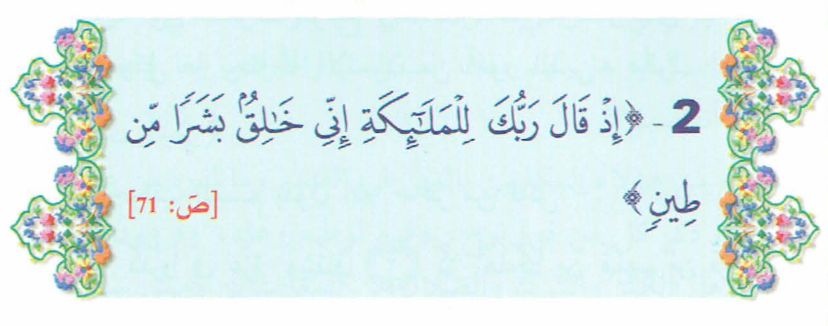
صورة للكرة الأرضية قبل حوالي مائتي مليون سنة
واليابسة ملتحمة في قارة واحدة هي القارة الأم أو أم القارات (Pangaea).

1656م والذي أعلن في سنة 1625م أن الأرض قد خلقت في تمام الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 4004 قبل الميلاد بناء على تحليله لتتابع الأحداث في العهدين القديم والجديد، أدركنا فضل القرآن الكريم على غيره من الكتب، خاصة أن هذا التاريخ قد ظل مثبتاً في معظم كتب العهدين القديم والجديد حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أي لقرابة الثلاثمائة سنة، وهي صورة من الخطإ البشري الذي يدمغ العهدين القديم والجديد بأنها من صناعة البشر.

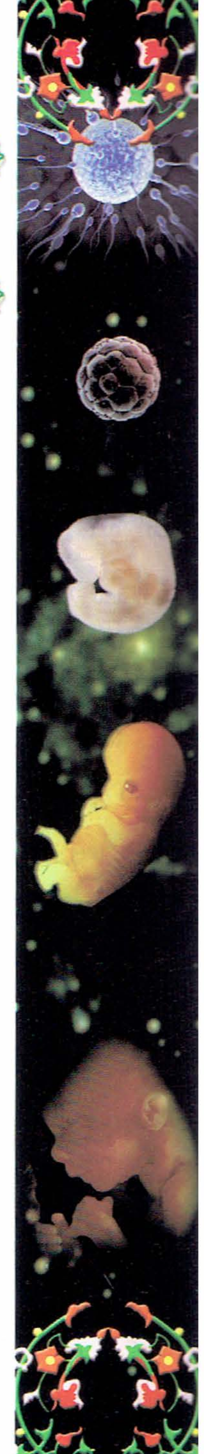
فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي ختم الله - تعالى - ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، ولذلك تعهد بحفظ رسالته فحفظت في نفس لغة وحيها وحفظت حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله.
فالحمد لله ثم الحمد لله وأشرف الصلاة وأزكى السلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



2 - ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ [صٓ: 71]



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في الخمس الأخير من «سورة صٓ»، وهي سورة مكية وعدد آياتها (88) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيس حول ركائز العقيدة الإسلامية، وفي مقدمتها توحيد الله الخالق سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وتبدأ هذه السورة الكريمة بالحرف الهجائي المفرد (صٓ) والذي سميت باسمه السورة، وهذه المقطعات من الحروف الهجائية التي استفتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم عرفت باسم **الفواتح الهجائية**، وقيل فيها أنها إما رموز إلى كلمات أو معان أو أعداد في صلب السورة، أو أنها أسماء للسور التي جاءت في مطالعها، أو هي أسلوب من أساليب تحدي العرب، وهم في قمة من قمم الفصاحة والبلاغة وحسن البيان أن يأتوا بقرآن مثله وقد نزل بلغتهم أو أن يأتوا بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يستطيع عاقل أن يتقدم ليقول أنه استطاع كتابة سورة من مثل سور القرآن الكريم.

كذلك قيل في هذه المقطعات أنها وسيلة من وسائل قرع الأسماع وإيقاظ العقول والقلوب لتلقِّي كلام الله - تعالى -. وقيل فيها أنها من الأدلة على صدق رسول الله ﷺ لنطقه بأسماء الحروف - وهو الأمي - والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، وقيل فيها أنها تشمل ذلك كله، وغيره مما لا يعلمه إلا الله - تعالى -.

وبعد هذا الاستفتاح يقسم ربنا - تبارك اسمه - وهو الغني عن القسم بـ(القرآن ذي الذكر) أي: ذي الشرف الرفيع والمكانة السامقة، والذي فيه كل حق وهداية وتذكير وموعظة، وكل ما يحتاجه الإنسان من أمور الدين، فيقول - عز من قائل -: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ [صٓ: 1].

ويأتي جواب القسم بقول الله - عز من قائل -:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِى ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِى شَكّٖ مِّن ذِكۡرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِى ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾ [صٓ: 2-11].

وتشير هذه الآيات الكريمة إلى أن الكفار والمشركين كانوا في القديم - ولا يزالون في العصر الحديث وسوف يبقون إلى يوم الدين - وهم في استكبار على اتباع الحق، وفي محاربة لأهله، دون اعتبار بهلاك الكافرين والمشركين والمتشككين من قبلهم، وهؤلاء الكافرون كانوا ولا يزالون وسوف يبقون إلى يوم الدين في إصرار على الكفر بالله أو الشرك به - سبحانه -، وعلى التشكيك في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وعلى الطعن في ربانية القرآن الكريم، وفي حقائق الدين الخاتم: ومنها البعث والحساب والجنة والنار، إلى حد استعجال عذاب الآخرة في الدنيا قبل يوم الحساب، وهم بعد لم يذوقوا ألوان هذا العذاب، ولو ذاقوا طرفاً منه وهم حتماً ذائقوه - إن شاء الله تعالى - ما تطاولوا هذا التطاول الكاذب وهم ليسوا من عقاب الله - تعالى - ببعيد!!

وهذه الصورة من صور فُجْرِ الكافرين في محاربتهم للحق مستمرة عبر التاريخ وستبقى تستعر من عصر إلى عصر حتى يوم الدين، ومن صور استكبار أهل الكفر والشرك والضلال، وغفلتهم وتعنتهم ما تبثه بعض الفضائيات المأجورة اليوم باسم الدين والدين منها براء وهي في الحقيقة ليست إلا أبواقاً للشيطان.

وفي الرد على كفار قريش، (وعلى أمثالهم في كل زمان ومكان) تسأل الآيات في سورة «صٓ» هذا السؤال التوبيخي التقريعي فتقول: هل عند هؤلاء الضالين خزائن رحمة رب العالمين العزيز الوهاب؟ أم هل لهم ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وهم لا يملكون نفساً واحداً من أنفاسهم؟.

وفي استعراض لنماذج من هؤلاء المكذبين بالدين في القديم وما لقوه من عذاب أليم في الدنيا قبل الآخرة جاء ذكر كل من قوم نوح، وقوم لوط، وعاد، وفرعون، وثمود، وأصحاب الأيكة ليعتبر أهل الكفر والشرك والضلال من المعاصرين وممن سوف يأتون من بعدهم إلى يوم الدين..!!.

وفي هذا السياق أيضاً جاء ذكر عدد من أنبياء الله - تعالى - منهم: آدم، وإبراهيم، وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب، واليسع، وذو الكفل، وداود، وسليمان، وأيوب - على نبينا وعليهم أجمعين من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم -.

ثم استعرضت الآيات جانباً مما أغدق الله ﷻ به من فضل على كل من عبديه داود وسليمان، وما أصاب كلاً منهما من شيء من الضعف البشري، وما تدارك كلاً منهما من رحمة الله - تعالى - حتى استغفر وتاب وأناب إلى خالقه، وما كان من قبول الله - تعالى - لتوبة كل منهما وإنابته. ويبدو والله - تعالى - أعلى وأعلم أن الحكمة من كل ذلك هي ألّا يفتن أحد من الخلق بما وهب الله - سبحانه - هذين العبدين النبيين من نعم غير عادية فيشرك بهما مع الله أو يعبدهما من دونه كما فعل الكثيرون من الضالين في القديم والحديث ولا يزالون يفعلون، ثم يتطاولون على أهل التوحيد الخالص، والإيمان الصادق كما تتطاول الجرذان المذعورة المستترة خلف بعض فضائيات الضلال وخلف بعض شاشات شبكة المعلومات الدولية المشبوهة اليوم.

وجاءت قصة نبي الله داود - على نبينا وعليه السلام - تجسيداً لابتلاء الله - تعالى - للصالحين من عباده، وتطهيراً لهم وتكفيراً عن خطاياهم مهما كانت قليلة، وتزكية لنفوسهم، ورفعاً لدرجاتهم عند ربهم، ونموذجاً لصبر الأنبياء على البلاء حتى يكشفه عنهم رب العالمين، ويقتدي بهم الأمثل فالأمثل من عباد الله الصالحين.

وجاء هذا القصص تثبيتاً لخاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وتثبيتاً للمؤمنين به من بعده في كل زمان ومكان، وذلك في وجه ما لقيه ﷺ ويلقاه المؤمنون من تكذيب الكفار والمشركين، والملاحدة الساقطين، والظلمة

المتجبرين في كل أرض، وفي كل حين. كما جاء هذا القصص تأكيداً له ﷺ وللمؤمنين به من بعده في كل زمان ومكان أن النصر مع الصبر، وأن التمكين في الأرض، والرعاية، والتوفيق، والفضل كله من الله - تعالى - الذي تعهد دوماً بنصرة عباده المؤمنين.

وتعاود الآيات في «سورة صٓ» تعظيم القرآن الكريم بقول الحق - تبارك وتعالى - موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صٓ: 29].

ثم تصور هذه السورة المباركة مشهداً من مشاهد الآخرة فيه جانب مما ينتظر المتّقين من نعيم مقيم، وجانب مناقض مما ينتظر الكفار والمشركين من عذاب مهين وتخاصم في النار مشين، أياً كانت مكانتهم في الدنيا، ومهما استكبروا وعلوا فيها، ومهما تطاولوا على الله - تعالى - وعلى رسوله الكريم، وتجبروا على المستضعفين من خلق الله في الأرض.

وتعاود السورة الكريمة التأكيد على وحدانية الله - الذي تنزه عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة والولد - فتقول موجهة الخطاب إلى رسول الله ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [صٓ: 65-70].

ثم تعرض «سورة صٓ» لقصة خلق أبينا آدم عليه السلام فتقول:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [صٓ: 71-76].

وتختتم السورة الكريمة بالإشارة إلى أمر الله - تعالى - بطرد إبليس اللعين من الجنة ومن رحمة الله ورضوانه كما سوف يحرم منها أبالسة الأرض من الجن والإنس إن شاء

الله - تعالى -، وتذكر الآيات كذلك تهديد إبليس اللعين بغواية أهل الأرض أجمعين فتقول:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ (٨٨)﴾

[ص: 77-88] .

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «صٓ»:

1 - الإيمان بأنه ما من إلٰه إلا الله - تعالى -، الواحد القهار، العزيز الغفار، الوهاب الرزاق، المنزه عن جميع صفات خلقه، والذي لا تنتهي خزائن رحمته، والذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا حاجة له إلى الصاحبة أو الولد.

2 - التسليم بأن القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم الذي أكمل به الدين، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين، وتعهد بحفظه إلى يوم الدين، وأنه كتاب مبارك كريم، لا يدرك قدره إلا أولو العقل السليم، والفكر القويم.

3 - اليقين بأن الله - تعالى - أنزل هدايته للبشرية بالوحي إلى سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين، وأن هذه السلسلة المباركة ختمت ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأن الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله بغير تفريق ولا تمييز هو من صميم الدين، وأن تكذيب أي من رسل الله الصادقين يستوجب العقاب من الله - تعالى - في الدنيا قبل الآخرة.

4 - التسليم بأنه ما على رسل الله أجمعين إلا البلاغ المبين، ولذلك وصف الله - تعالى - خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بأنه نذير مبين.

5 - التصديق بقصص القرآن الكريم، وبكل ما أصاب الكفار والمشركين من الأمم السابقة من عذاب، وبما سوف يصيب كفار ومشركي وظلمة اليوم والغد إلى يوم الدين من عذاب في الدنيا قبل الآخرة إن شاء الله رب العالمين.

6 - الإيمان بالآخرة وبكل ما رواه القرآن الكريم من أحداثها الغيبية بدءاً بالبعث والحساب، وانتهاء بالخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

7 - اليقين بأن الله - تعالى - سوف يملأ جهنم بأبالسة الجن والإنس، وبجميع من تبعهم من الكافرين والمشركين المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ والمتطاولين على مقامه الشريف كذباً وزوراً وبهتاناً طمعاً في شيء من حطام الدنيا الفانية.

8 - التصديق بكل المعجزات التي أجراها الله - تعالى - على أيدي أنبيائه ورسله، كما جاء وصفها في القرآن الكريم.

9 - التسليم بوصف القرآن الكريم للجنة ونعيمها، وللنار وجحيمها، وبجميع الأحداث المستقبلية التي ذكرها انطلاقاً من اليقين بأن الله - تعالى - يرى الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد، لأنه خالق كل من المكان والزمان الذي يحد بهما حركات وسكنات خلقه، وهي لا تحد الله - تعالى -، لأن المخلوق لا يحد خالقه أبداً.

10 - اليقين بأن رزق الله - تعالى - لا ينفد أبداً، وأنه - سبحانه - هو الرزاق ذو القوة المتين.

11 - الإيمان الكامل بحقيقة خلق الإنسان من طين كما أوردها القرآن الكريم، على الرغم من انبهار عدد من الكتاب والدارسين بفكرة التطور العضوي، وعلى الرغم من محاولات إحياء الادعاء القديم بوجود أكثر من آدم واحد، أو بوجود بشر عاقلين قبل أبينا آدم عليه السلام وهي ادعاءات تفتقر إلى الدليل العلمي الصحيح وإلى البيان الشرعي الصريح.

من الإشارات الكونية في سورة «صٓ»:

1 - الإشارة إلى وجود حيز فاصل بين السمٰوات والأرض، والعلوم المكتسبة تؤكد أن الغلاف الغازي للأرض مكون من اختلاط غازات اندفعت ولا تزال تندفع من داخل الأرض عبر فوهات البراكين مع المادة التي تملأ المسافات بين أجرام السماء، وعلى ذلك فإن هذا النطاق البيني يمثل تركيباً مغايراً لكل من الأرض والسماء، ولعل هذا هو المقصود بتعبير البينية الفاصلة للأرض عن السماء (**السمٰوات والأرض وما بينهما**) وهو تعبير ورد عشرين مرة في القرآن الكريم منها مرتان في هذه السورة المباركة.

2 - تأكيد (**خلق السمٰوات والأرض وما بينهما بالحق**) أي بالقوانين المنضبطة، والسنن الحاكمة الدقيقة التي تعكس شيئاً من صفات الخالق العظيم، وتنفي كل الادعاءات الباطلة بالعشوائية أو المصادفة.

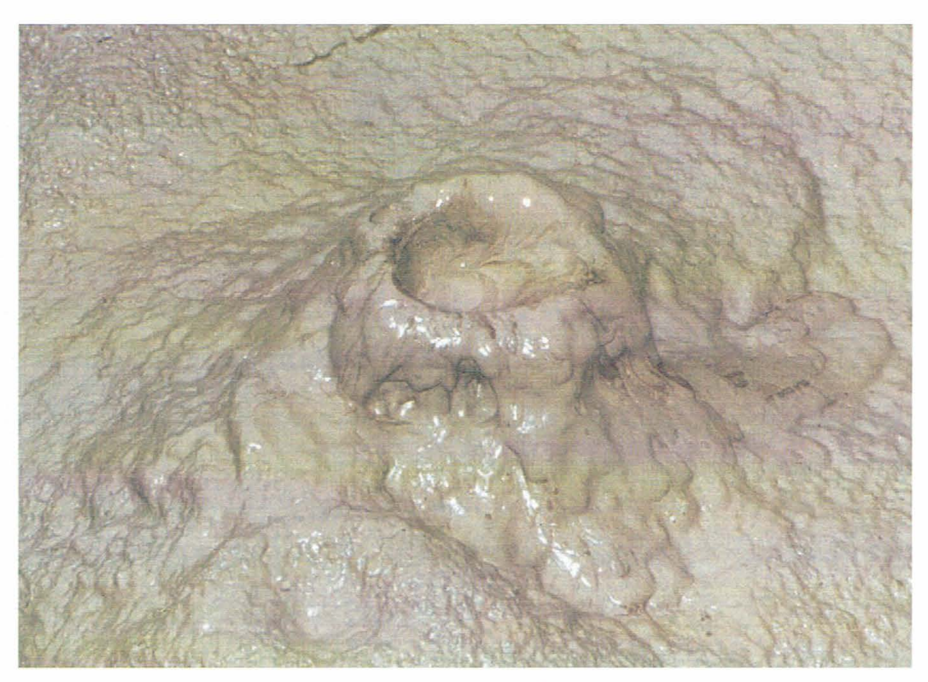
3 - الإشارة إلى حقيقة **خلق الإنسان من طين**، والتركيب الكيميائي لجسمه يؤكد ذلك، واغتذاؤه على عناصر مستمدة من طين الأرض بواسطة النباتات، أو مختزنة في أجساد حيوانات تتغذى على النباتات تضيف التأكيد على ذلك، ومرور جسد الإنسان في مراحل تحلله بعد وفاته بمرحلة طينية قبل أن يجف ويتوارى في تراب الأرض مما يزيد ذلك تأكيداً.

4 - ذكر (**التسبيح بواسطة كل من الجبال والطير**)، والعلوم المكتسبة تقترب اليوم من التأكيد على أن كل مخلوق من مخلوقات الله غير المكلفة مثل الجمادات، والنباتات، والحيوانات له قدر من الإدراك الخاص به، والذي يتلاءم مع مستواه، ويعينه في التعرف على خالقه، وفي المداومة على عبادته وحمده وتسبيحه بلغة لا يدركها إلا أصحاب الأرواح الصافية، والقلوب العامرة بحب الله - تعالى - وحب خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

5 - وصف الخيل بتعبير (**الصافنات الجياد**)، وعلوم سلوك الحيوان تؤكد أن الخيل من الحيوانات المتميزة بشيء من الخيلاء والاعتداد بالنفس والاعتزاز بنعم الله تعالى عليها، ولذلك (**تصفن**) أي: تقف على ثلاثة أرجل وعلى حافر الرجل الرابعة، وجاء الوصف بالتأنيث لأن الأنثى هي الزعيمة الآمرة الناهية في قطيع الخيل.

ووصفت الآيات كيفية تعامل نبي الله سليمان عليه السلام مع الخيل بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33] وعلم سلوك الحيوان يؤكد أن من أفضل وسائل ترويض الخيل والتآلف معها هو المسح بكل من سيقانها وأعناقها لأنها من أكثر مواطن الإحساس إرهافاً فيها.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثالثة من القائمة السابقة والمتعلقة بخلق أبينا آدم عليه السلام من طين والتي جاءت في الآية الحادية والسبعين من «سورة صٓ»، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.



صورة لطين الأرض الذي خلق منه الإنسان.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71].

● أورد ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «هذه القضية ذكرها الله - تبارك وتعالى - في سورة البقرة، وفي أول الأعراف، وفي سورة الحجر، والإسراء، والكهف، وهاهنا، وهي أن الله تعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من طين..».

● وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما مختصره: «لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين، كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين، فمن الطين كل عناصرها، فيما عدا سر الحياة.. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر، وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنساناً من الطين كل عناصر جسده، فهو من مادة الأرض، ومن عناصرها تكوّن، وهو يستحيل إلى تلك

العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلٰهي المجهول، وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التي حددت خط سيره في هذه الحياة. . . .».

مراحل خلق آدم عليه السلام في الكتاب والسنة:

جاء ذكر خلق أبينا آدم عليه السلام وخلق نسله من بعده في العديد من آي القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ومن ذلك نختار الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التالية:

أولاً: خلق آدم عليه السلام من تراب:

1 - ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

2 - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5].

3 - ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].



تراب الأرض: خلق منه الإنسان وإليه يعود.

4 - ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: 11] .

5 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: 67] .

ثانياً: خلق آدم عليه السلام **من طين، أي بإضافة الماء إلى التراب فصار طيناً :**

1 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2] .

2 - ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12] .

3 - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61] .

4 - ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7] .

5 - ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 71-76] .

ثالثاً: خلق آدم عليه السلام **من سلالة من طين،** أي باختيار ما يناسب من خلاصة الطين لخلق آدم عليه السلام :

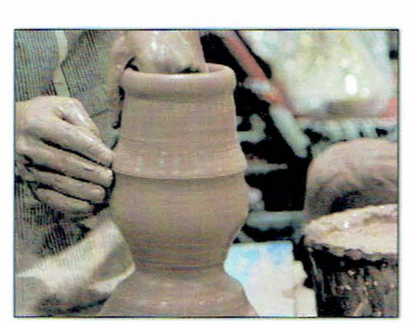
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] .

رابعاً: خلق آدم عليه السلام **من طين لازب،** بالجفاف النسبي للطين حتى أصبح لازباً أي ملتصقاً بعضه ببعض:

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾

[الصافات: 11] .

خامساً: خلق آدم عليه السلام **من صلصال من حمإٍ مسنون،** وهي مرحلة جفاف الطين حتى اسودَّ وأنتن وأصبح صلصالاً من حمإٍ مسنون:



صورة لطين الأرض الذي خلق من مثله الإنسان تشكل منه الأواني الفخارية .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 26–33].

سادساً: خلق آدم عليه السلام **من صلصال كالفخار**، وهي مرحلة تيبس الطين على هيئة صلصال كالفخار:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14].

سابعاً: الإشارة إلى خلق الإنسان من الأرض:

جاءت الإشارات القرآنية العديدة إلى خلق الإنسان من الأرض وذلك من مثل قوله - تعالى -:

- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55].
- ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17،18].
- ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: 32].

ثامناً: للتأكيد على أن بني آدم جميعاً كانوا في صلب أبيهم لحظة خلقه جاء قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

[الأعراف: 172].

- ولتفسير ذلك قال رسول الله ﷺ «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع**

الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»[1].

● كذلك قال رسول الله ﷺ أن الله - تعالى - خلق آدم يوم الجمعة وفي رواية أخرى: في آخر ساعة من يوم الجمعة، مما يؤكد على أن خلقه كان خلقاً خاصاً بالأمر الإلهي كن فيكون.

تاسعاً: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾ [السجدة: 9]

وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

[السجدة: 7-9].

ونسبة الروح إلى الله - تعالى - هي من قبيل التشريف لآدم عليه السلام، لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه، ومنها التجزيء، والتبعيض، والتنسيب إلى أب وأم أو إلى صاحبة أو ولد. والروح التي نفخت في آدم هي من جنس ما استأثر الله بعلمه لقوله - تعالى -:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[الإسراء: 85].

● وللتأكيد على أن الخلق عملية مغايرة للتسوية والتصوير جاء قول ربنا - جلّت قدرته -:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: 6-8].

وفي الحديث الذي أخرجه كل من الأئمة الكبار البخاري ومسلم وأحمد عن كل من

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: في السنة، باب: في القدر (الحديث: 4693)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (الحديث: 2955)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (الحديث: 4/ 400).

أبي حاتم وأبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته**»[1].

والضمير في كلمة (صورته) يعود على الأخ المضروب، لا على الله - تعالى - لأن الله - سبحانه - لا يشبهه أحد من خلقه. وإن كان كل من اليهود والنصارى والمشركين والوثنيين في كل عصر قد اعتقدوا خطأً أن الله - تعالى - قد خلق آدم على هيئة الذات الإلهية، والله الخالق البارىء المصور منزه عن الشبيه، والشريك، والمنازع، والصاحبة والولد، ومنزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

خلق الإنسان من طين:

يتضح من هذا الاستعراض السريع لقضية خلق الإنسان في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة أن الإنسان مخلوق مكرم، خلقه ربنا - تبارك وتعالى - في أحسن تقويم، وسواه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه الأسماء كلها، وفضله على كثير من خلقه، وحَمَّله أمانة الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة عدل الله فيها، وعبادة خالقه بما أمر. والإنسان هو المخلوق المتميز بالعقل والذكاء، وبالقدرة على كسب المعارف وتعليمها، وعلى كسب المهارات وتطبيقها، وعلى التفكير والإبداع، وعلى الشعور والانفعال، وعلى البيان المنطقي المرتب، والتعبير عن الذات وعن المشاعر بدقة ووضوح، ومن ثم كان الإنسان مكلفاً بمسؤولية الاستخلاف في الأرض، ومحاسباً على أقواله وأعماله ومختلف نشاطاته فيها.

والإنسان توازن دقيق بين المادة والروح، وميزانه في ضبط هذا التوازن هو عقله الذي يعينه على تحصيل المعارف المكتسبة من تفهم للقوانين الحاكمة للكون ولسنن الله فيه، وتوظيفٍ لذلك كله في عمارة الأرض، وفي التعرف على الخالق العظيم من خلال التعرف على خلقه، وتلقي هدايته الربانية في الأمور التي لا يقوى على وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل ركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، فيخضع لخالقه بالطاعة والعبادة بما أمر، وبالالتزام بمكارم الأخلاق وطيب المعاملات حتى يتحقق له الارتقاء في معراج الله إلى أعلى الدرجات، والوصول إلى رضاء الله وهي الغاية من وجوده في الأرض.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 327) و (الحديث: 2/ 347).



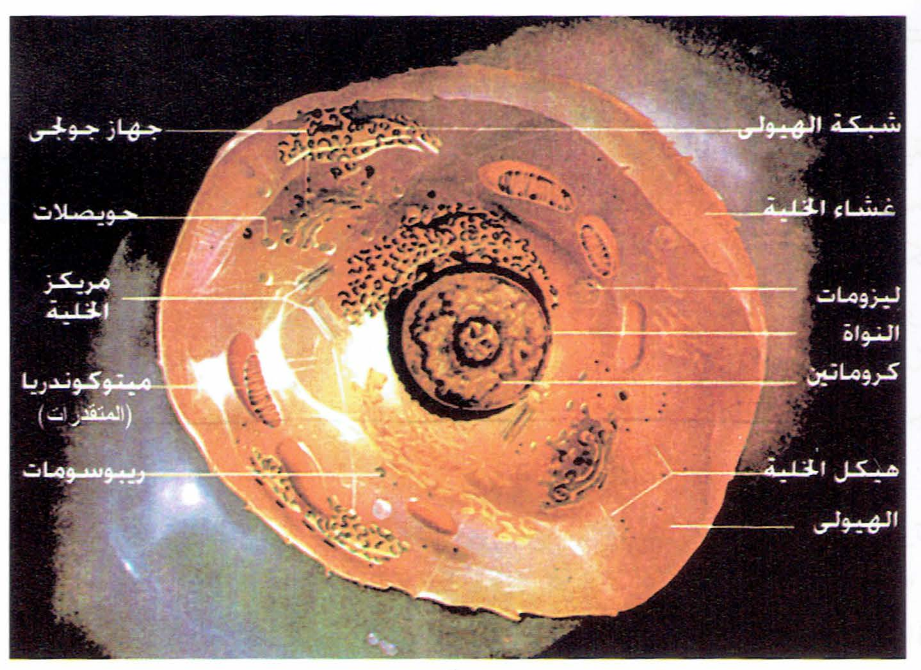
صورة ترمز إلى صلة الإنسان بطين الأرض.

والإنسان بالإضافة إلى روحه وعقله هو جسد مادي من عناصر الأرض، ولذلك فهو خاضع لقوانين المادة ولسنن الله فيها. وهذا الجسد الإنساني يتكون أساساً من **الماء (54% إلى أكثر من70%)** بالإضافة إلى قدر من **المواد البروتينية (من11% إلى17%) والدهون (14% إلى26%)** وعدد من **العناصر والمركبات غير العضوية (5% إلى6%)** وتشمل الكالسيوم، الفوسفور، الكبريت، البوتاسيوم، الصوديوم، الكلور، الماغنيسيوم وآثار طفيفة من كل من اليود والفلور، والبروم والحديد والنحاس، والمنجنيز، والزنك، والكروم، والكوبالت، والنيكل، والموليبدينوم، والقصدير، والفاناديوم، والسيليكون، والألومنيوم وكلها من عناصر الأرض. ولو اختلفت نسب بناء جسم الإنسان قليلاً ما استقام بناؤه، وحتى شوارد العناصر التي توجد بنسب في حدود الآحاد من الألف في المائة فإن أقل خلل في نسبها بالزيادة أو النقصان في جسم الإنسان قد يؤدي إلى اعتلاله أو إفنائه.

ويتكون جسم الإنسان من ألف مليون مليون خلية حية في المتوسط، وهي خلايا

متخصصة تتنوع بتنوع وظائفها، وتنتظم كل مجموعة متخصصة من تلك الخلايا في أنسجة متخصصة، ثم في أعضاء متخصصة، ثم في أجهزة ونظم متخصصة تتعاون كلها في خدمة هذا الكيان المبهر في دقة بنائه. والعلماء يعجزون اليوم عن إدراك كيفية تعرف الخلايا المتخصصة على بعضها البعض لبناء الأنسجة المتخصصة، ولا معرفة كيفية تعرف الأنسجة المتخصصة على بعضها البعض، ولا توافق الأجهزة المختلفة لبناء هذا الجسد الدقيق البناء والمحكم الأداء، ولكنه تدبير الخالق العظيم.

والخلية الحية التي لا يتعدى قطرها في المتوسط 0،03 من الميليمتر ولا يتعدى وزنها جزءاً من مليار جزء من الجرام تعتبر بناءً فائق التعقيد في البناء، وفائق الكفاءة في الأداء، فبناء الخلية الحية يفوق في تعقيده جميع المصانع التي أقامها الإنسان، بل التي فكر في إقامتها ولم يتمكن من ذلك بعد. فالخلية البشرية لها جدار حي يتبادل مع الخلايا الحية المحيطة كلاً من الغازات والعناصر التي تحتاجها الخلية أو تريد التخلص منها. ولها سائل خاص يعرف باسم الهيولى (**السيتوبلازم**)، ولها نواة تمثل مركز التحكم في الخلية (عقل الخلية)، ويغلف النواة غشاء خاص يسمح بتبادل المعلومات والبروتينات النووية مع هيولى الخلية، بدقة وإحكام بالغين.



رسم تخطيطي يوضح مقطعاً في الخلية الحيوانية الحية.

وللخلية جسيمات حية متناهية الضآلة في الحجم تعوم في سائل الخلية وتعرف باسم **العضيات (Organelles)**، ومنها **مولدات الطاقة أو المتقدرات (Mitochondria)**، **ومراكز تصنيع البروتينات أو الريباسات (Ribosomes)** وغيرها، ويحيط بالخلية الحية **غشاء خلوي** له كفاءة عالية في المحافظة على كيان الخلية كوحدة مستقلة دون عزلها عما حولها من الخلايا التي تتعايش معها في تفاعل حيوي كامل.

وفي داخل النواة توجد **الشيفرة الوراثية** المكونة من **الصبغيات** على هيئة شبكة صبغية تحمل **نوية واحدة**، وعدد الصبغيات محدد في كل نوع من أنواع الحياة، وهي تحمل الصفات الوراثية كما تحمل مراكز توجيه صنع البروتينات المختلفة التي يحتاجها الجسم. وتستطيع الخلية الحية على ضآلة حجمها إنتاج ثمانين ألف صنف من البروتينات يكفي الجسم منها ألف بروتين أساسي، ويعجز الإنسان بجميع إمكاناته العلمية والتقنية الراهنة عن إنتاج هذا العدد من البروتينات في الزمن الذي تنتجه الخلية الحية.

ويختلف بناء الجزيء البروتيني باختلاف عمله، فهناك بروتينات خاصة لكل من الغضاريف، والعضلات، والأوعية الدموية، والأنسجة الرئوية، وبروتينات خاصة كذلك لكل من الجلد والشعر، والدم وتجلطه، وهناك الإنزيمات والهرمونات المختلفة، وغيرها من المركبات الكيميائية والفيتامينات المختلفة التي يحتاجها الجسم وتنتجها الخلية حسب الحاجة بدقة وكفاءة بالغين.

هذه العجالة تؤكد أن تكوّن خلية حية واحدة من أكثر من مائة تريليون خلية حية في المتوسط في جسم الفرد الواحد منا، لا يمكن أن يتم بعشوائية أو بمصادفة، بل يحتاج إلى تقدير الخالق البارىء المصور ﷻ، وليس هذا فقط لأن العلم يجزم بأن تكوين جزيء بروتيني واحد من بلايين الجزئيات المكونة للخلية الحية بمحض الصدفة هو أمر مستحيل، بل إن تكوين جزيء واحد من بلايين جزيئات الأحماض الأمينية المكونة للجزيء البروتيني لا يمكن أن يتم إلا بتقدير مسبق وتدبير حكيم، فالمصادفة لا تجدي في إنتاجه أبداً.

وإذا قرر العلم التجريبي ذلك، فلا مفر من الاعتراف بحقيقة الخلق، وتدبير الخالق ﷻ وعليه فإن الخالق العظيم إذا قال: ﴿... إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ فإن المخلوقين من العقلاء المكلفين لا يملكون التمحك في تفسير ذلك مهما توافرت المشاهدات، لأنهم لم يشهدوا خلق أنفُسهم، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿مَآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: 51].

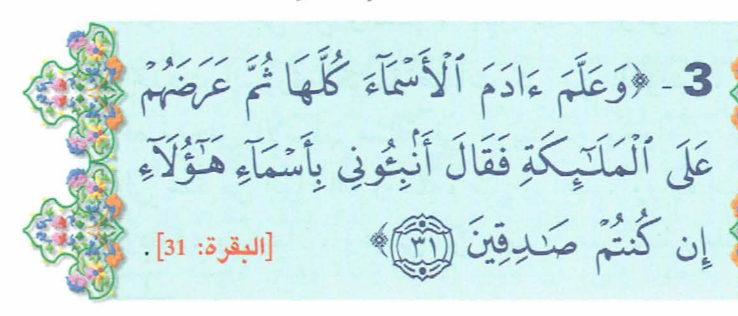
ومع إيماننا بالأمر الإلٰهي: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20].

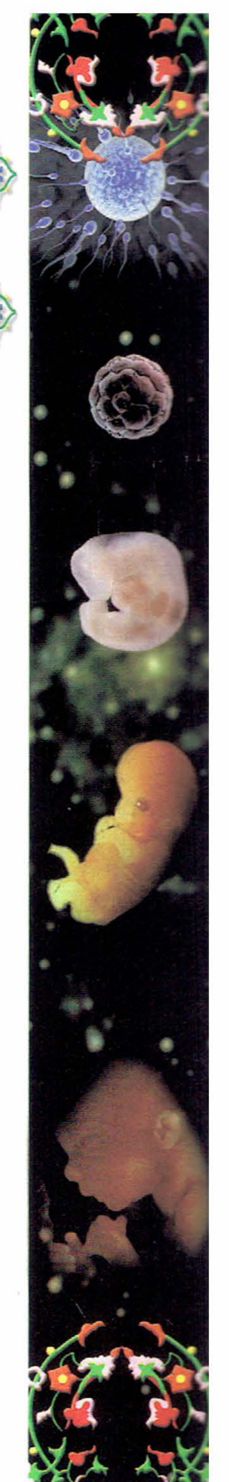
فإننا نؤمن أيضاً بأن ندرة شواهد الخلق وتناثرها يجعل من مناقشتها بمعزل عن الهداية الربانية مضيعة للوقت والجهد دون أدنى طائل، وهنا يتضح دور كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في تجلية مثل هذه الأمور الغيبية والتي تشغل بال الإنسان قلّت ثقافته أو زادت.

فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذا النص القرآني الكريم جاء في الربع الأول من سورة «البقرة»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها 286 بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا - تبارك وتعالى - على يدي نبيه موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - حين تعرض شخص من أتباعه للقتل ولم يعرف القاتل، فأوحى إليه الله - تعالى - أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله ثم يموت؛ وذلك إحقاقاً للحق، وشهادة لله - تعالى - بالقدرة على إحياء الموتى. ومن مزايا هذه السورة المباركة أن رسول الله ﷺ قد أوصى بقراءتها في البيوت فقال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»(1).

وقال - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - أيضاً: «**اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولايستطيعها البطلة** (أي السحرة)»(2).

ويدور المحور الرئيس لسورة البقرة حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق والمعاملات، بالإضافة إلى عدد من ركائز

---

(1) أخرجه مسلم والترمذي.

(2) رواه مسلم.

العقيدة الإسلامية وفي مقدمتها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتنزيه الخالق ﷻ عن كل وصف لا يليق بجلاله وعن جميع صفات خلقه.

كذلك حددت السورة الكريمة صفات كلٍ من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، وسجّلت قصة خلق الإنسان ممثلة في أبوينا آدم وحواء - عليهما من الله السلام - وأشارت إلى عدد من أنبياء الله ورسله، مثل إبراهيم، وولده إسماعيل، وحفيده يعقوب، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى ابن مريم - على نبينا وعليهم أجمعين أفضل السلام وأزكى التسليم.

وتناولت سورة البقرة أهل الكتاب بإسهاب وصل إلى أكثر من ثلث السورة، وخُتمت بإقرار حقيقة الإيمان، وبدعاء إلى الله - تعالى - يهز القلب والروح والعقل معاً.

ويمكن إيجاز أهم معطيات سورة البقرة فيما يلي:

أولاً: ركائز العقيدة الإسلامية في سورة البقرة:

1 - الإيمان بالقرآن الكريم آخر الكتب السماوية التي أنزلها الله - تعالى - بالحق، والتصديق بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وقد تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة المحتواة في هذين المصدرين من مصادر الهداية الربانية في ذات اللغة التي أوحيت بها - اللغة العربية - وحفظها على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وإلى قيام الساعة؛ تحقيقاً للوعد الإلٰهي الذي قطعه ربنا - تبارك وتعالى - على ذاته العلية، فقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ونظراً لهذا الحفظ الدقيق للقرآن الكريم بصفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، كان معجزاً في كل أمر من أموره، وبذلك تحدى الله - تعالى - الجن والإنس متعاضدين أن يأتوا بسورة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يستطيع أحد من العقلاء أن يجابهه.

2 - الإيمان بالغيب الذي أنزله ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ انطلاقاً من الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ومن الإيمان بملائكته، وبجميع كتبه ورسله، بغير تمييز ولا تفريق، وباليوم الآخر الذي ترجع فيه كل الخلائق إلى الله خالقها، والإيمان بالخلود في الآخرة إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

3 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن من خلقه السمٰوات السبع والأرضين السبع، وأنه - تعالى - أحيا الخلق من العدم، وأنه سوف يميتهم فرداً فرداً، ثم يحييهم بعثاً واحداً ليعودوا إلى بارئهم ﷻ الذي يعلم غيب السمٰوات والأرض، فيحاسبهم ويجازيهم وهو الرحمٰن الرحيم، وأنه - تعالى - شديد العقاب، وقد وصف ذاته العلية بقوله - عز من قائل -: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

4 - الإيمان بوحدة الجنس البشري، وبانتهاء نسبه إلى أبوينا: آدم وحواء - عليهما من الله السلام - ومن هنا كان وجوب العمل على نبذ جميع أشكال العصبيات العرقية والدينية والاجتماعية، وتلك التي يمكن أن تبنى على أي أساس آخر.

5 - الإيمان بأن الله - تعالى - قد علم آدم الأسماء كلها، وبذلك يكون الإنسان قد بدأ وجوده عالماً عابداً، وليس جاهلاً كافراً كما يدعي أصحاب الدراسات الوضعية في علم الإنسان.

6 - الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله - تعالى - بالإسلام الصافي، والتوحيد الخالص لجلاله، وقد تكاملت رسالاتهم جميعاً في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي بعثه الله - تعالى - بالحق بشيراً ونذيراً للعالمين إلى يوم الدين.

7 - الإيمان بتنزيه الله - تعالى - عن كل وصف لا يليق بجلاله، واليقين بأن الشرك من أبشع صور الكفر بالله، وأن من الكفر بالله كذلك منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أو السعي في خرابها.

8 - الإيمان بأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأنه يأمر بالسوء والفحشاء، ويغري العباد بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، ومن هنا كانت مخالفته ورفضه من الأمور الواجبة على كل مسلم ومسلمة؛ اعتصاماً بحبل الله المتين، ونجاة من وساوس هذا اللعين، وللتأكيد على ذلك عرضت السورة الكريمة لقصة الشيطان مع أبوينا آدم وحواء عليهما السلام حتى تم إخراجهما من الجنة بوسوسته وغوايته، ثم توبتهما، وقبول الله - تعالى - تلك التوبة، وأن ذنب هذه المعصية لا يطول أحداً من ذريتهما أبداً؛ لأن ذلك يتنافى مع العدل الإلهي

المطلق الذي قرره ربنا بقوله - عز من قائل -: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: 38-39].

9 - الإيمان بأن دين الله - وهو الإسلام - مبني على السماحة واليسر، وعلى رفع الحرج عن الخلق، وأن من أصوله الثابتة أنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

10 - الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، وبضرورة الخوف من فجائيتها وأهوالها، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

ثانياً: من أسس العبادة في سورة البقرة:

1 - إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، والالتزام بآداب كل عبادة من هذه العبادات، والإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى الخلق بصفة عامة، واليقين بأن ذلك كله كان من متطلبات العبادة في كل الشرائع السماوية السابقة، وكلها كانت إسلاماً لله.

2 - الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ردعاً للمعتدين والغاصبين والمتجبرين، فالقتال مشروع في الإسلام لدفع الظالمين المغيرين على أراضي المسلمين، المعتدين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ومقدساتهم ودينهم؛ وذلك صوناً لكرامة الإنسان، وإقامة لعدل الله في الأرض، وإعزازاً للدين الذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه.

3 - التوجه بالدعاء إلى الله - تعالى - وحده في الأوقات المفضلة مع الالتزام بآداب الدعاء.

4 - مراعاة حرمة الأشهر الحرم وتوقيرها، وإقامة السنن التي شرعها لنا الله - تعالى - ورسوله ﷺ فيها.

5 - التزام تقوى الله - تعالى - في كل حال.

ثالثاً: من مكارم الأخلاق التي دعت إليها سورة البقرة:

1 - الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

2 - الوفاء بالعهود والمواثيق.

3 - الشجاعة والإقدام وحب الاستشهاد في سبيل الله.

4 - الجرأة في مناصرة الحق، وإعلان الرأي، وعدم كتمان الشهادة.

5 - الجود والكرم والإنفاق في سبيل الله.

6 - الحرص على العمل الصالح، وقول المعروف، والعفو عن الناس.

7 - المبالغة في بر الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وإلى الناس كافة دون منٍّ أو أذى.

8 - تجنب المال الحرام بكافة صوره وأشكاله، ومن أبرز أشكاله: الربا، والرشوة، والسرقة، والغش، وغير ذلك من صور التحايل الباطل على الكسب الحرام.

رابعاً: من التشريعات الإسلامية في سورة البقرة:

1 - فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة المسلمة من الخِطْبة إلى الزواج، وتعرضت للحالات الطارئة، مثل الطلاق، والمتعة، والرضاعة، والعدة وغيرها، وأمرت باعتزال النساء في المحيض، ونهت عن نكاح المشركات والمشركين حتى يؤمنوا.

2 - عددت هذه السورة الكريمة المحرمات من الطعام، مثل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهلَّ به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، كما حرمت كلاً من الخمر والميسر.

3 - وشرعت القصاص في القتلى حماية للمجتمعات الإنسانية من انحراف المنحرفين وإجرام المجرمين.

4 - وحضت على كتابة الوصية قبل الموت، وحرمت وجرمت تبديلها أو إخفاءها.

5 - وحرمت أكل أموال الناس بالباطل.

6 - ووضعت ضوابط للتعامل بالديْن.

7 - وحرمت التعامل بالربا تحريماً قاطعاً.

8 - وحضَّت على رعاية اليتيم حتى يبلغ أشده، وحددت ضوابط الإنفاق في سبيل الله.

9 - وحرمت إنكار أي معلوم من الدين بالضرورة.

خامساً: من القصص القرآني في سورة البقرة:

جاء في سورة البقرة ذكر عدد من أنبياء الله ورسله، كما جاءت الإشارة إلى عدد من الأحداث للاعتبار بها وأخذ الدروس منها، ونوجز ذلك فيما يلي:

1 - قصة أبوينا آدم وحواء - عليهما من الله السلام -.

2 - قصة بني إسرائيل مع فرعون مصر وخروجهم منها مع نبي الله موسى عليه السلام وعبور موسى بهم البحر، وتفجير الأرض لهم بالماء الزلال، وعصيانهم من بعد ذلك كله، وارتدادهم إلى عبادة العجل، وصعقهم ثم إحياؤهم، ومسخ الذين اعتدوا منهم في السبت إلى قردة وخنازير، ثم كفرهم بآيات الله، وقتلهم للأنبياء بغير حق، وعصيانهم لأوامر الله واعتدائهم على حدوده، ورفع الطور فوقهم تهديداً لهم وتخويفاً، وقصتهم مع القتيل، وأمر الله لهم أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا القتيل ببعضها فيبعثه الله - تعالى - حتى يخبر عن قاتله ثم يموت، وقصتهم مع كلٍ من طالوت وجالوت وداود عليه السلام.

3 - قصص بعض أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى وهارون، وذلك من أمثال كلٍ من داود وسليمان عليهما السلام.

4 - قصة نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما من الله السلام - ورفعهما لقواعد الكعبة المشرفة، ودعوتهما إلى الله - تعالى - أن يبعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مكة المكرمة، وحوار إبراهيم عليه السلام مع نمرود بن كنعان - أول من ادعى الربوبية كذباً وبهتاناً -.

5 - قصة نبي الله يعقوب عليه السلام مع بنيه إذ حضره الموت.

6 - حادثة تحويل القبلة.

7 - قصة نبي الله عيسى ابن مريم عليهما السلام واقتتال أتباعه من بعده، واختلافهم فيما بينهم، وانقسامهم من بعد ما جاءتهم البينات.

8 - قصة الرجل الصالح عزير الذي مر على بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر ﴿... قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259].

سادساً: من الإشارات الكونية في سورة البقرة:

جاء في هذه السورة المباركة عدد كبير من الإشارات الكونية نوجزها فيما يلي:

1 - التفرقة الدقيقة بين الضياء والنور - وهما أمران متمايزان - والمقابلة بين الظلمات والنور.

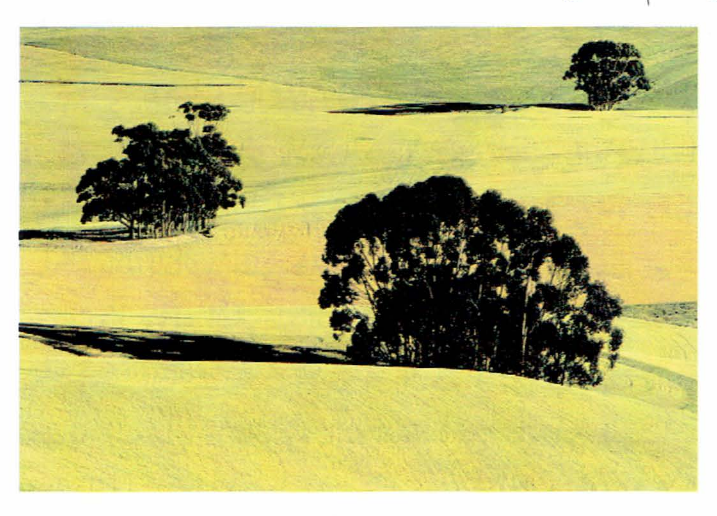
2 - تقديم حاسة السمع وذكرها بالإفراد على حاسة الإبصار، وإيرادها بالجمع. وثبت علمياً أن مراكز السمع تتقدم مراكز البصر في مخ الإنسان، وأن حاسة السمع تسبق حاسة البصر نضجاً في مراحل خلق الإنسان، وأن الإنسان لا يسمع في اللحظة الواحدة أكثر من كلمة واحدة بينما يبصر بالعينين أشياء كثيرة.

3 - وصف التلازم الدقيق بين هطول المطر الغزير وبين كلٍ من الظلمات والرعد والبرق والصواعق.

4 - الإشارة إلى إمكانية خطف البصر بواسطة البرق.

5 - ذكر المراحل المتتالية في إعداد الأرض لعمارتها بالإنسان، ومن ذلك تمهيد سطحها، وبناء السماء من حولها، وإنزال الماء عليها، وإخراج الثمرات منها رزقاً للعباد، وإحياء الأرض بعد موتها، وبث كل دابة فيها.

6 - الإشارة إلى البعوضة وما فوقها من الخلق، وهي من أبسط الحشرات المعروفة لنا، ولكنها تبلغ في روعة بناء جسدها، وتأهيله لوظائفها ما يشهد للإلٰه الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق.



تمهيد الأرض وإنزال المطر وإخراج الثمرات
صور من تهيئة الأرض لاستقبال الإنسان عليها.

7 - التأكيد على أن الله - تعالى - قد علَّم أبانا آدم عليه السلام الأسماء كلها.

8 - ذكر معجزات فلق البحر لنبي الله موسى عليه السلام ونجاته ومن معه، وهلاك فرعون وجنده، وكذلك تفجير اثنتي عشرة عيناً مائية بضربة من عصى موسى - على نبينا وعليه من الله السلام - وواحدة على الأقل من تلك العيون لا تزال موجودة اليوم على طول صدع أرضي واحد بالمنطقة الشرقية من خليج السويس، تعرف اليوم باسم عيون موسى.

9 - الإشارة إلى بعض أمراض القلوب، ومنها الخوف، والوسوسة، والشك، والاكتئاب، وقد أثبتت الدراسات النفسية أنها حقائق علمية لم تكن معروفة وقت تنزل القرآن الكريم، ووصف قسوة قلوب اليهود بأنها أشد من الحجارة؛ لأن من الحجارة ما يلين بتفجرها بالأنهار، أو بتشققها وخروج الماء منها، أو بهبوطها من خشية الله - تعالى - وقلوب اليهود لا تلين أبداً، وهي حقيقة أثبتها التاريخ.

10 - الحديث عن المشرق الحقيقي والمغرب الحقيقي للأرض، مما يشير إلى وجود شمال وجنوب حقيقيين للأرض - وهو صحيح - كما يشير إلى وسطيتها من الكون، وهي من الحقائق القرآنية التي لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها.

11 - الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض بالحق، وإلى اختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.

12 - الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهي حقائق لم تدرك بشيء من التفصيل إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

13 - وصف الأهِلّة بأنها مواقيت للناس والحج.

14 - الإشارة إلى أذى المحيض، والنصيحة باعتزال النساء في فترة المحيض، وقد أثبتت الدراسات الطبية صحة ذلك.

15 - التأكيد على ما في كلٍ من الخمر والميسر من آثام تفوق أية منافع يمكن أن تُجتنى من وراء الخوض في آثامهما، والتجارب الإنسانية تؤكد ذلك وتشهد عليه.

16 - التأكيد على حقيقة أن الجنة - أي الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض - بالربوة المرتفعة (عن كل من الهضاب والسهول المحيطة بها) إذا أصابها وابل - أي مطر غزير - آتت أكلها ضعفين؛ لأن احتمال إغراقها بماء المطر

الغزير غير وارد لسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه نظراً لارتفاعها فوق أعلى منسوب للسهول المحيطة بها.

وفي حالة عدم هطول المطر الغزير فإن الطل - أي رذاذ المطر الخفيف - أو الندى يكفيها لري نباتاتها، وطيب ثمارها، ووفرة عطائها. والمقصود بذلك أن الجنة بالربوة العالية تزكو وتزدهر وتثمر وتجود بعطائها سواء كَثُرَ المطر عليها أو قَلّ. وقد وصفت سورة البقرة إنفاق الصالحين من عباد الله، الذين لا يبغون من وراء إنفاقهم إلا مرضاة الله والثبات على الحق بأنه يزكو عند الله ويطيب - زاد قدره أم قل - تماماً كما يزكو عطاء الجنة بالربوة العالية - زاد المطر عليها أو قل.

من أقوال المفسرين في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: 31].

ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: هذا مقام ذكر الله - تعالى - فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم - تعالى - بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فُضل به عليهم في العلم، فقال - تعالى -: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: 31] والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها، وصفاتها، وأفعالها... (انتهى قول المفسر).

وجاء في الظلال - رحم الله كاتبه برحمته الواسعة - ما مختصره: ها نحن أولاء - بعين البصيرة في ومضات الاستشراف - نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى.. ها نحن أولاء نشهد طرفاً من ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة، سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء المحسوسة، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان على الأرض، ندرك قيمتها حين نتصور الصعوبة الكبرى، لو لم يوهب الإنسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، والمشقة في التفاهم والتعامل.. إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة، وإن الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات... (انتهى قول المفسر).

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى ضرورة لتكراره.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

يؤكد هذا النص القرآني الكريم على أن الإنسان - ممثلاً في شخص أبينا آدم - عليه السلام - خلق مؤمناً عالماً عابداً، ولم يخلق كافراً جاحداً جاهلاً كما يدعي أغلب المشتغلين بدراسات علم الإنسان (Anthropology)، وهذه حقيقة لم تبدأ المعارف المكتسبة في التوصل إليها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، بعد سقوط كل الفروض الزائفة التي افترضها الإنسان في الحضارة المادية المعاصرة للهروب من الإيمان بالخالق ﷻ والتسليم بحقيقة الخلق، وذلك مثل نظريات التطور العضوي، والتطور العقلي، والتطور اللغوي والبياني، وهي كلها من الفرضيات والنظريات التي أُدخلت على الفكر الإنساني في زمان البعد عن الله أو الشرك به أو التشكك في حقيقة وجوده، وكما أسقطتها النتائج الكلية في دراسات حديثة، مثل دراسات علم الأجنة، وعلوم الوراثة وقراءة الشيفرة الوراثية للإنسان، وعلم الكيمياء الحيوية، وعلوم الحياة الجزيئية وغيرها، فإن دراسات اللغة قد أبطلت كل الدعاوى الزائفة على أن الإنسان تعلَّم النطق من أصوات الحيوانات وأصوات بعض الظواهر الطبيعية التي هابها في بادئ الأمر فعبدها وتعرف على الله من خلال عبادته لها، وفيما يلي عرض موجز لكيفية هدم المعطيات الكلية للعلوم لهذه الفروض والنظريات في زمن الحضارة المادية المعاصرة:

أولاً: مقدمة لازمة:

من المسلَّمات أن الإنسان لم يشهد خلق نفسه ولا خلق مختلف صور الحياة من حوله، ولا خلق الكون الذي يحتويه ويحتويها، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

وفي نفس الوقت يأمرنا ربنا ﷻ بالتفكر في الخلق، وذلك في آيات عديدة منها قوله - تعالى -:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

وقد جاء ذكر كلمة الخلق بمشتقاتها المختلفة في مائتين واثنتين وخمسين (252) موضعاً من كتاب الله؛ تأكيداً على حقيقة عملية الخلق بكلام الخالق ﷻ ومن أدرى بالخليقة من خالقها؟.

الجمع بين هذه الآيات القرآنية الكريمة وأشباهها كثير في كتاب الله يشير إلى حقيقة أنه على الرغم من أن عملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان قد تمت في غيبة الإنسان، إلا أن الله - تعالى - من رحمته بعباده أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان - بحسه المحدود وقدراته المحدودة - على الوصول إلى تصور ما عن عملية الخلق، وعلى وضع النظريات المفسرة لها. وتتعدد هذه النظريات بتعدد خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم - وللمسلم وحده - نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة أو حديث نبوي شريف مرفوع إلى رسول الله ﷺ يعينه على حسن الاختيار بين النظريات المطروحة، فيرقى بإحداها إلى مقام الحقيقة - لا لأن العلوم المكتسبة قد وصلت فيها إلى ذلك - وهو فوق إمكاناتها - ولكن لمجرد وجود إشارة لتلك النظرية في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

ثانياً: من الأخطاء الرئيسة في نظرية التطور العضوي:

على الرغم من عدم كمال السجل المتوافر لدى علماء الأحياء القديمة عن تلك الحياة، والنقص الهائل في البقايا المحفوظة عنها في صخور الأرض، أو ما يعرف باسم السجل الأحفوري، فإن هذا السجل قد أثبت بجلاء أن أرضنا قد عُمِّرت بموجات متتابعة من صور الحياة بدأت قليلة في العدد، وبسيطة في البناء والتركيب، ثم تزايدت عدداً، وتعقدت بناءً وتركيباً عبر فترة قدرت بنحو الأربعة بلايين من السنين (3,8 بليون سنة) حتى وصلت إلى مستوى الحياة الأرضية الحالي التي توَّجها الله ﷻ بخلق الإنسان.

وهذه الملاحظة العلمية الصحيحة استخدمتها الحضارة المادية المعاصرة في محاولة يائسة لنفي عملية الخلق، والتنكر للخالق ﷻ وبنوا هذا الاستنتاج الخاطئ على عدد من الفرضيات الضالة المبنية على أساس من الفكر المادي المهيمن على عقول الغالبية الساحقة من أهل الأرض في ظل الحضارة المادية المسيطرة. ومن هذه الفرضيات الخاطئة ما يلي:

1 - الادعاء الباطل بعشوائية بدء الحياة على الأرض:

يدعي أصحاب هذه الفرضية أن تدرج عمارة الأرض بأنماط من صور الحياة التي ازدادت في العدد وفي تعقيد البناء مع الزمن عبر فترة زمنية تقدر بحوالي أربعة بلايين من السنين (3,8 بليون سنة) قد يوحي بإمكانية ابتداء الحياة بعملية ذاتية محضة غير خارجة عن

العشوائية والصدفة، وذلك بتفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض، مما نتج عنه تكون أعداد من الأحماض الأمينية التي تجمعت بمحض الصدفة أيضاً وارتبطت جزيئاتها وتشابكت بواسطة الروابط الصحيحة عن طريق التجربة والخطأ لتكون عدداً من الجزيئات البروتينية العملاقة التي تجمعت - بالتجربة والخطأ أيضاً - حتى كونت جسد أول خلية حية.

وبدأت هذه الخلية الحية في الانقسام بالتتابع لتعطي ملايين الأنواع المختلفة من صور الحياة التي مثَّل كلٌ منها ببلايين الأفراد عبر تاريخ الأرض الطويل حتى يومنا هذا.

وهذا افتراض ساذج ترفضه كل الملاحظات العلمية الدقيقة على بناء كلٍ من الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية والخلية الحية، وكل منها على قدر من التعقيد في البناء، والضوابط المحددة لكيفيات الترابط مع بعضها البعض، مما ينفي إمكانية تكوينها بمحض الصدفة نفياً قاطعاً، خاصة إذا علمنا أن بناء الخلية الحية والأنشطة التي تقوم بها يفوق كل ما بناه الإنسان من مصانع، بل يفوق كل ما طمح إلى إنشائه ولم يتمكن من تحقيقه بعد.

2 - الادعاء الباطل بعشوائية التدرج في تتابع الحياة:

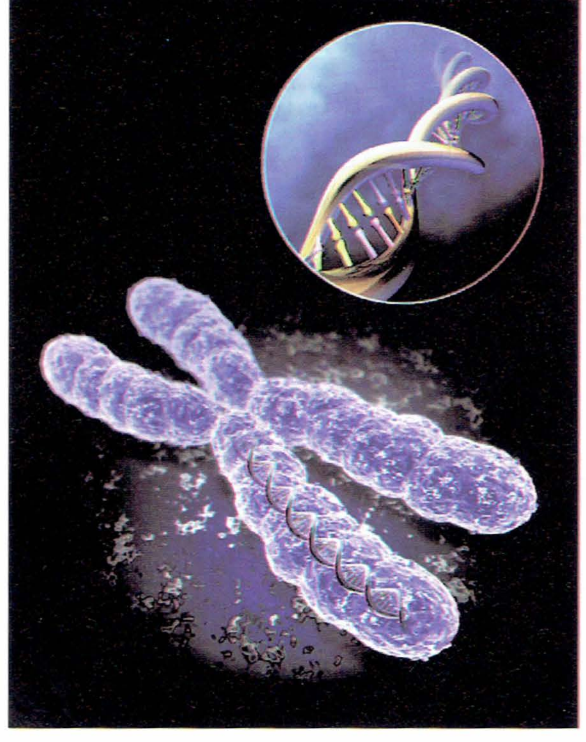
يدعي أنصار نظرية التطور العضوي أن عمليات الانقسام المتسلسل للخلية الحية الأولى أعطت هذا العدد الهائل من مختلف صور الحياة نتيجة لتفاعلها مع البيئة بشيء من العشوائية والصدفة، ولكن الكشوف العلمية الحديثة تؤكد أن عملية انقسام الخلية الحية تتم حسب برامج محددة تحملها الشيفرة الوراثية في نواة الخلية الحية، وهذه الشيفرة على قدر من التعقيد في البناء والإحكام في الأداء ينفي الصدفة نفياً قاطعاً، ويضاف إلى ذلك أن كل نوع من أنواع الحياة له شيفرته الوراثية الخاصة به، والتي تحملها أعداد محددة من الصبغيات - حاملات المورثات - مما ينفي أي إمكانية للعشوائية أو الصدفة، وينفيها كذلك وجود العديد من حالات الاندثار المفاجئ والظهور المفاجئ لمجموعات من أنواع الحياة الأرضية، وينفيها أيضاً الأدوار المحددة لكل نوع من أنواع الحياة في كل مرحلة من مراحل تاريخ الأرض الطويل، مثل تهيئة الظروف البيئية لاستقبال المجموعات اللاحقة في تكامل عجيب.

3 - الادعاء الباطل بأن الإنسان منبثق عن الحياة الحيوانية السابقة لوجوده:

تفترض نظرية التطور العضوي وجود الحياة بعملية ذاتية عشوائية بمحض الصدفة، كما تفترض تطورها بنفس العشوائية لتعطي ملايين الأنواع وأعداداً لا تحصى من الأفراد

لكل نوع، وأن الإنسان هو النهاية الخاتمة لهذه العملية التطورية.

ولما أثبتت العلوم المكتسبة إفلاس الفرضين الأولين، أثبتت كذلك إفلاس الاستنتاجات القائمة عليهما، وتؤكد ذلك أن الصفات التشريحية والوراثية الخاصة بجسم الإنسان وحدها تميزه عن جميع المخلوقات السابقة على وجوده، فإذا أضفنا إلى ذلك ذكاء الإنسان، وقدرته على الإدراك والشعور والانفعال والتعبير والنطق بالكلام المنطقي المرتب، وعلى اكتساب المعارف وتعلمها، واكتساب المهارات وتوريثها، وغير ذلك من القدرات التي اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات المدركة، ومن أبرزها التسلسل الوراثي للإنسان والذي ينتهي بنسبه إلى أب واحد وأم واحدة هما أبوانا آدم وحواء عليهما السلام واللذان يصفهما ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز:



شريط الشيفرة الوراثية المتواجدة في نواة الخلية والمتوارثة من صلب آدم عليه السلام تنفي نفياً قاطعاً عشوائية الخلق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

وبذلك تنهار محاولة ربط الإنسان بالخلق الحيواني من قبله، وإذا انهار هذا الادعاء انهارت كل الافتراضات المرتبطة به، مثل الافتراض الخاطئ بأن الإنسان اكتسب اللغة عن طريق تقليده لأصوات الحيوان، وهو وهم زائف تدفعه آيات القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كما تدمغه دراسات اللغات ذاتها لارتباطها ببعضها البعض ارتباطاً يردها إلى أصل واحد.

ثالثاً: من الأخطاء الرئيسة في نظرية نشأة اللغة:

انطلاقاً من الإيمان بفرية ظهور الحياة الأرضية بشيء من العشوائية والصدفة، والتي أشاعتها الحضارة المادية المعاصرة التي تنكرت لله ولدينه ولأنبيائه ورسله، بنيت فرية أخرى، وهي الادعاء الباطل بأن الإنسان الأول لم تكن له قدرة على الكلام، ولم تكن له لغة يتكلم بها مع غيره سوى الإشارات، وفي ذلك كتب مايكل كورباليس في كتابه المُعَنْوَن في نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم.

Michael C. Corballis (2002):

From Hand to Mouth: the origins of language, Princeton University Press.

ما ترجمته: «وأنا أزعم أن اللغة في معظم هذه الفترة كانت إشارية في الدرجة الأولى، على الرغم من أن الأصوات أخذت تتخللها بصورة متزايدة. إن الكلام المبين تطلب تغييرات واسعة في الجهاز الصوتي وفي السيطرة اللهائية على كلٍ من إنتاج الصوت والتنفس، وتدل الشواهد على أن ذلك لم يكتمل حتى مرحلة متأخرة نسبياً في تطور جنس الهومو **Homo**.

وفي الحقيقة أن هذه التغييرات قد لا تكون اكتملت حتى في النياندرشال **Neanderthal Man**.

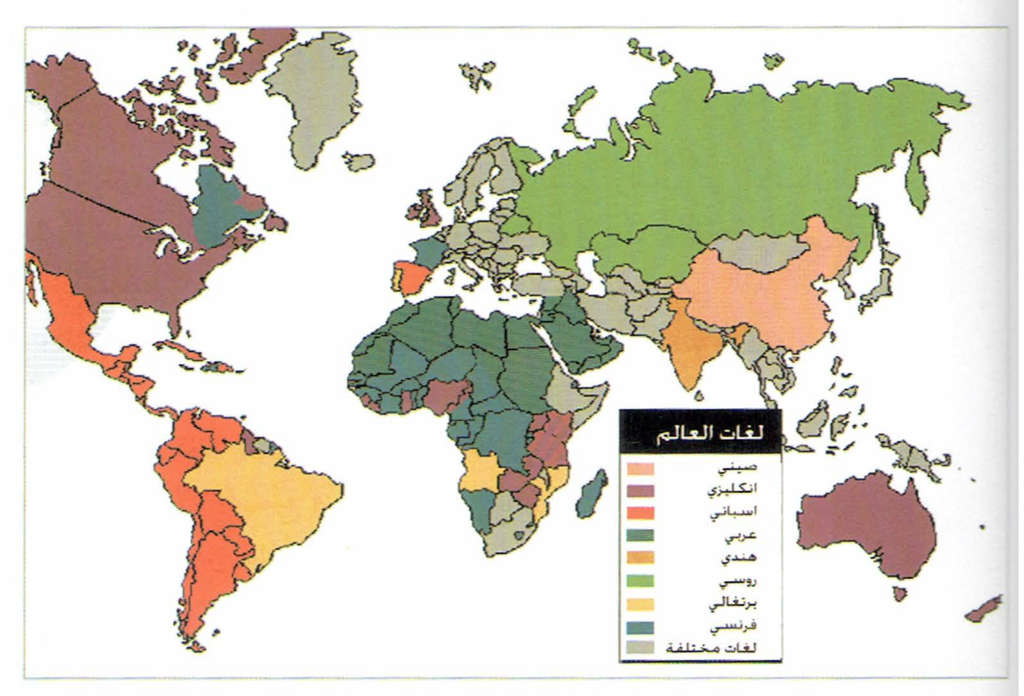
منذ 35 ألف سنة مضت، على الرغم من أن هذا الادعاء يبقى موضع جدل ونقاش، وقد لا تكون التكيفات الضرورية لإنتاج الأصوات بشكل مبين قد انتخبت للحلول محل الإشارات، وإنما لتكون تتويجاً لها، فبعض الإشارات كان بلا شك إشارات بواسطة الوجه (وجهياً) مثل لغة اليوم الإشارية.

وقد يكون إصدار الأصوات قد



الإنسان القديم - نياندرشال.

خدم جزئياً - في نشأة اللغة - لكونه إضافة إلى إشارات الوجه والفم (واليدين)، وجعل الإشارات غير المنظورة لكلٍ من اللسان والتجويف الفمي مسموعة. واللغة بالطبع - حتى لغة اليوم - نادراً ما تكون صوتية خالصة . . .».



رسم بياني لخريطة العالم تبين توزيع اللغات على الأرض

ويضيف ما ترجمته: «. . . إلا أننا نستطيع أن ننقل معظم الرسائل بالصوت وحده، والتكيفات الضرورية لذلك كانت قائمة قبل أن يكتشف أجدادنا أنها ممكنة، تماماً مثل التكيفات التي كانت لازمة للكتابة، إذ كانت قائمة قبل أن يخط الكتَّاب الأوائل مخطوطاتهم أو رسائلهم. واختراع الكلام قد يعود إلى (50) ألف سنة مضت».

وهذا التضارب في تحقيق قضية غيبية غيبة كاملة كقضية نشأة اللغة سببه الانخداع بفكرة التطور العضوي التي دحضتها الكشوف العلمية مؤخراً في كلٍ من علم الوراثة وعلم الخلية الحية وعلم الحياة الجزيئي.

ويدحض هذه الفرية الجديدة عن نشأة اللغة التقارب بين اللغات المختلفة في العديد من الألفاظ، خاصة بين اللغات القديمة، وقد ثبت أن أكثر من خمسين في المائة من

ألفاظ كلٍ من اللغة العبرية واللغة السريانية عربية الأصل، مما ينتهي بلغات الأرض جميعها - والتي يقدر عددها بأكثر من خمسة آلاف لغة ولهجة - إلى أصل واحد متمثل في اللغة العربية، وهذا الاستنتاج يؤيده مع قول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه:
﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 1-4].

وهذا يبرز كذلك جانب الإعجاز في قول ربنا سبحانه وتعالى:
﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا...﴾ [البقرة: 31].

وإن تعقيد كلٍ من الجهاز العصبي وأجهزة السمع والنطق في الإنسان ينفي أية إمكانية لتعلم الإنسان النطق باللغة بعشوائية أو صدفة، بل هو التقدير الإلٰهي الدقيق، والهبة الربانية العظمى بتعليم أبينا آدم عليه السلام أم اللغات كلها، وهي اللغة العربية.

ولذلك سمي (الإعراب) (إعراباً) لتبينه وإيضاحه، وكان من معاني (العربية) الإبانة والإيضاح.

ومنه قوله: كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبي حين يعرب - أي حين ينطق ويتكلم - أن يقول: لا إله إلا الله سبع مرات.

ومنه باب خاص من أحاديث رسول الله ﷺ في مناقب فضل العرب جاء فيه ما يلي:

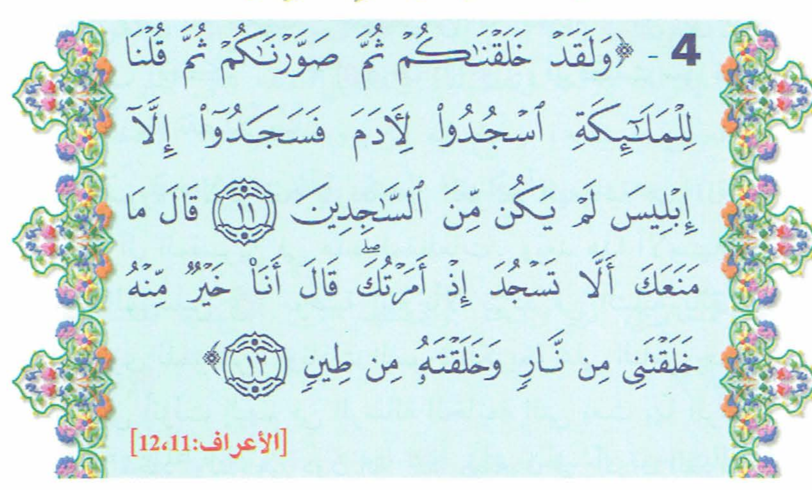
عن سلمان رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا سلمان! لا تبغضني فتفارق ديني**»، قلت: يا رسول الله! كيف أبغضك وبك هدانا الله، قال: «**تبغض العرب فتبغضني**» (الترمذي).

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي**» (قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حصين بن عمر الأحمسي عن مخارق، وليس حصين عند أهل الحديث بذاك القوي).

من ذلك يتضح فضل العربية على جميع لغات الأرض، وأنها كانت لغة أبينا آدم عليه السلام التي ألهمه الله سبحانه وتعالى النطق بها، وعلمه أسماء كل شيء بمسمياتها، وأن بقية لغات الأرض انبثقت منها، ولذلك أنزل ربنا - تبارك وتعالى - هدايته الخاتمة للبشرية كلها بها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي العربي العدنان، والصلاة والسلام عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



4 - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12)﴾

[الأعراف:11،12]

هاتان الآيتان القرآنيتان الكريمتان جاءتا في أوائل سورة «الأعراف»، وهي سورة مكية، وآياتها (206) بعد البسملة، وهي ثاني أطول سور القرآن الكريم بعد البقرة، وأطول السور المكية على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى الأعراف وهي أسوار مضروبة بين كل من الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما.

ويدور المحور الرئيس لسورة «الأعراف» حول الركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية والتي لخصتها في ردود أربعة من رسل الله سبحانه وتعالى على أقوامهم وهم: نوح، وهود، وصالح، وشعيب - على نبينا وعليهم من الله السلام - وذلك بالمنطق السديد الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بقول كل واحد منهم لقومه:

﴿... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾

[الأعراف: 59].

وقد أتبع كل واحد من هؤلاء الأنبياء تلك النصيحة الغالية بتحذير شديد من مغبَّة الخروج عليها أو الحيود عنها، أو بتقريع صاعق للخارجين فعلاً عليها، وذلك من مثل قول نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ...﴾ [الأعراف: 59]،

وقول نبي الله هود عليه السلام لقومه: ﴿... أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65]. ومن مثل قول كل من نبي الله صالح ونبي الله شعيب - عليهما من الله السلام - كل إلى قومه: ﴿... قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [الأعراف:73-85]. وقد فصَّلت سورة «الأعراف» قصص هؤلاء الأنبياء الأربعة تفصيلاً بيِّناً.

وتبدأ سورة «الأعراف» بأربعة من الفواتح الهجائية هي (ا ل م ص)، وقد سبق لنا تفصيل أقوال المفسرين في هذه المقطعات. وبعد هذا الاستهلال خاطبت الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ موصية إياه بألا يتردد في التبليغ بالقرآن الكريم والإنذار به، وجعله ذكرى للمؤمنين. ونادت السورة الكريمة على الناس جميعاً بضرورة اتباع الهداية الربانية التي أنزلت إليهم في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ، محذرة إياهم من اتخاذ أولياء من دون الله سبحانه وتعالى فيقعون في أدران الشرك وأوحاله وظلماته، لأن الناس قليلاً ما يتذكرون إلا بعد فوات الأوان، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: 4-7].

ثم ذكَّرت الآيات بموقف الحساب يوم القيامة وبمصائر كل من المفلحين والخاسرين فتقول:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: 8،9].

وأشارت الآيات إلى فضل الله - تعالى - على عباده بتمكينهم في الأرض مما يستوجب الحمد والشكر، وذلك بتذليلها وتسخير كل شيء فيها لهم. ثم شرعت السورة الكريمة في استعراض قصة البشرية ممثَّلة في خلق أبينا آدم عليه السلام، وفي صلبه جميع نسله فرداً فرداً إلى يوم الدين وكل منهم معروف لخالقه سبحانه وتعالى باسمه وصفاته المميزة له، وأمر الله - تعالى - الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولجنسه ولنسله ﴿... فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

وخلق الله ﷻ من آدم زوجه ليسكن إليها، وليكون له منها النسل إلى يوم الدين.

وسجود الملائكة لأبينا آدم عليه السلام لم يكن إلا طاعة لأمر الله ﷻ، وتكريماً لآدم الذي أراد الله - تعالى - إكرامه ورفعه وتفضيله، وتفضيل نسله على كثير ممن خلق تفضيلاً، لذلك خلقه - تعالى - بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكته، وخلق زوجه منه، وأسكنهما الجنة، وأثبت في محكم كتابه قوله العزيز:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

وصوَّرت الآيات بعد ذلك حقد الشيطان على أبينا آدم عليه السلام وتآمره عليه وعلى ذريته من بعده وتوعُّده لهما فطرده الله - تعالى - من الجنة، وأمهله حين طلب النظرة إلى يوم البعث لحكمة إلٰهية.

وقد ابتُلِيَ أبوانا آدم وحواء بالاختبار الذي أخرجهما من الجنة، ثم تاب الله ﷻ عليهما، وأهبطهما إلى الأرض لتبدأ بهما رحلة الحياة والموت وبذريتهما إلى يوم القيامة، ومن بعد ذلك البعث، والنشور، والحشر، والحساب، والجزاء بالخلود، إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وفي سياق هذه السورة المباركة يأتي تحذير الله ﷻ لعباده من الشيطان وجنوده وأعوانه وفتنه ودسائسه، ويوصيهم ربهم بما يحفظهم من كل ذلك، ويُحِلُّ لهم ربهم الطيبات، ويُحَرِّم عليهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق وذلك من مثل الشرك بالله - تعالى - أو الكفر به، أو التقوُّل عليه بغير علم، أو التكذيب بآياته ورسله، خاصة بالرسول الخاتم وبالرسالة الخاتمة، أو بظلم العباد والجور على حقوقهم وغير ذلك من الاعتقادات الفاسدة، والسلوكيات الهابطة التي تؤدي بصاحبها إلى جهنم وبئس المصير..!!

ثم تنتقل الآيات إلى استعراض موقف من مواقف يوم القيامة وأهل الجنة في الجنة، وأهل النار قد ألقوا فيها، وأهل الأعراف على الأسوار الفاصلة بينهما، وتستمر الآيات في ذكر شيء من أفضال الله ﷻ على عباده - وما أكثرها - وتخلص إلى الدعوة

بالالتجاء دوماً إلى الله - تعالى - بالدعاء والضراعة سراً بخشوع وخضوع تامَّين لأنه ﷻ لا يحب المتشدِّقين برفع الأصوات في الدعاء رياءً وتظاهراً، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

[الأعراف: 55،56].

ومن قبيل التثبيت لرسول الله ﷺ، ومن أجل تعليم أتباعه من بعده عرضت سورة «الأعراف» لقصص عدد من المرسلين، وتفاعل أقوامهم معهم، وجزاء هؤلاء الأقوام، وفي ذلك ما يؤكد على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء.

وفي سياق هذا القصص القرآني فصَّلت سورة الأعراف قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، عارضة أخذ الله - تعالى - آل فرعون بالسنين والآفات ثم إغراق فرعون وجنده.

كذلك أكدت الآيات في هذه السورة المباركة انحراف بني إسرائيل عن منهج الله، بعبادتهم العجل، ثم صلفهم بطلب رؤية الله جهرة، ودك الجبل بهم عقاباً على ذلك الصلف، وتنزيل الألواح على موسى، وصعق قومه في الميقات الثاني، وعصيانهم عن دخول القرية، وتحايلهم من أجل الصيد في يوم السبت وقد كان ذلك محرَّماً عليهم، ونَتْقَ الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، ومسخ الفاسقين الظالمين منهم قردة وخنازير، والقرار الإلٰهي ببعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة، وتشريدهم في الأرض، عقاباً لهم على إجرامهم وإفسادهم وظلمهم، وتحريفهم كلام الله ﷻ عن مواضعه.

وتتابع الآيات في سورة «الأعراف» الإشارة إلى الرسالة الخاتمة وذلك في الرد على نبي الله موسى عليه السلام وهو يتضرع إلى الله - تعالى - ألا يهلكه بما فعل السفهاء من قومه. ثم تأتي البشرى الإلٰهية بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وتأمره الآيات بالإعلان عن عالمية رسالته السماوية الخاتمة وذلك بالأمر الإلٰهي إليه الذي نصه:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿...وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158] .

وتؤكد سورة «الأعراف» حقيقة العهد الذي أخذه ربنا - تبارك وتعالى - على جميع بني آدم وهم في عالم الذر في أصلاب آبائهم وأشهدهم على أنه لا إله إلا الله، وأنه لا رب ولا معبود سواه فتقول:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172] .

وتضرب هذه السورة الكريمة مثلاً للذي آتاه الله - تعالى - آياته فكذَّب بها، وانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين فأصبح كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، وتؤكد أن الهداية هي من الله ﷻ ، وتدعو إلى استخدام الحواس التي وهبها ربنا - تبارك وتعالى - للإنسان إلى أبعد مدى ممكن، وتَحضُّ المؤمنين على ذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبمقاطعة الذين يلحدون في أسمائه مقاطعة كاملة.

وتؤكد الآيات في هذه السورة المباركة دور خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأنه النذير المبين للكفار والمشركين، والشاهد البشير للمؤمنين الصالحين، وتدعو إلى النظر في ملكوت السمٰوات والأرض وما خلق الله من شيء غيرهما، وتحذِّر من اقتراب الأجل، ومن فجائية الساعة التي عِلْمُها عند الله وحده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وتذكر الآيات على لسان الرسول الخاتم ﷺ أنه لا يملك النفع والضر ولا يعلم الغيب إلا الله، وتنهى عن الشرك بالله ﷻ ، وتأمر بمكارم الأخلاق وبحسن الاستماع إلى القرآن الكريم إذا قرئ، وبذكر الله في النفس تضرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول وذلك بالغُدُوِّ والآصال تشبُّهاً بملائكة الله ﷻ الذين لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون، ومن هنا تختتم هذه السورة الكريمة بسجدة من سجدات التلاوة، تأكيداً على توحيد الله ﷻ والخضوع له وحده بالطاعة والعبادة، كما بدأت بتوحيده، وبالتأكيد على تفرُّده - سبحانه - بالألوهية، والربوبية، والخالقية، وبالتأكيد على صدق الوحي بالقرآن الكريم، وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الأعراف»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، وبالإسلام ديناً واحداً، أنزله الله - تعالى - على عدد كبير من الأنبياء والمرسلين (120,000 نبي، 315 - 317 رسول)، وأتمَّه في بعثة الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ.

2 - التصديق بالقرآن الكريم: وحياً خاتماً من رب العالمين، محفوظاً بحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

3 - اليقين بأن الله - تعالى - الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته مُنزَّه عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة والولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله سبحانه وتعالى منزَّه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه.

4 - التصديق بجميع صُوَر العذاب الدنيوي الذي أنزله الله - تعالى - بالكفار والمشركين والعصاة المتمردين من الأمم السابقة.

5 - الإيمان بحتمية البعث بعد الموت، وبضرورة الحساب والجزاء في الآخرة، واليقين بالجنة والنار وبما في كل منهما من صور الجزاء التي أوضحها القرآن الكريم، وفسرتها سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

6 - الخضوع لله - تعالى - بالعبادة والطاعة، والمواظبة على تسبيحه وتحميده وتمجيده وشكره على كل نعمة أنعم بها على عباده، ومداومة ذكره بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، تضرُّعاً وخفية ودون الجهر من القول.

7 - اليقين بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، وهو - تعالى - رب كل شيء ومليكه، وبأن الإنسان مخلوق مكرَّم ما دام خاضعاً بالطاعة والعبادة لله تعالى، وما دام مستقيماً على المنهج الذي وضعه له الله، ومتأسياً بسنة رسول الله ﷺ.

8 - التصديق بمحاولة الشيطان غواية أبوينا آدم وحواء عليهما السلام عند بدء خلقهما، وبأنهما تابا إلى الله - تعالى - وأنابا، وأن الله سبحانه وتعالى قد قبل توبتهما، وأن أحداً من ذريتهما لا يحمل شيئاً من وزرهما الذي غفره الله ﷻ لهما بواسع رحمته.

9 - اليقين بأن الشرك بالله كفر به، وكذلك التقوُّل على الله سبحانه وتعالى بما لم ينزِّل به

سلطاناً، وبأن الخوض في الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفي الإثم والبغي بغير الحق خروج على أوامر الله ومنهجه، وكذلك الإسراف والإفساد في الأرض.

10 - الإيمان بأن كلاً من الأجل والرزق والشقاء والسعادة، وأرض الموت والدفن، كل ذلك محدد سلفاً لكل فرد من قبل خروجه إلى مسرح الحياة، وعليه فإن المسلم لا يخشى على الرزق، ولا يخاف الأجل، ومن ثم لا يجبن بسبب ذلك أبداً.

11 - التسليم بأن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هو بشير ونذير مبين للناس أجمعين إلى يوم الدين، وأن ذِكْرَه العَطِر قد جاء في كتب الأولين من الأنبياء والمرسلين، وأن إنكار نبوته أو التنكر لرسالته هو من الكفر بالله، والكفر يحبط الأعمال في الدنيا والآخرة ويردي معتنقه في نار الجحيم.

من الدلالات اللغوية:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ...﴾ [الأعراف: 11].

(الواو) من حروف العطف، تجمع بين الشيئين ولا تدل على الترتيب. و(اللام) من حروف الزيادة، وهي هنا للتأكيد. و(قد) - بالتخفيف - حرف لا يدخل إلا على الأفعال، خاصة الفعل الماضي لإثبات سبقه لفعل ماض آخر، والنحويون يقولون أنه يمكن أن يكون للتوقع، والحقيقة أنه إذا دخل على فعل ماضٍ فإنه يدخل على كل فعل متجدد، وذلك من مثل قوله - تعالى -:

- ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ [آل عمران: 164].
- ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ...﴾ [الفتح: 18].
- ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا...﴾ [آل عمران: 13].

وإذا دخل الحرف (قد) على الحاضر أو المستقبل من الفعل فإن ذلك الفعل يكون في حالة دون حالة وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: 63]. أي: الذين قد يتسللون أحياناً فيما علم الله سبحانه وتعالى. ولا يصح استخدام الحرف (قد) في الأوصاف الذاتية لله - تعالى - وذلك لأن صفات الله الباقي لا تنقضي أبداً لأنه خالق كل من الزمان والمكان والمادة والطاقة ليحد بها مخلوقاته، والمخلوق لا يحد

خالقه أبداً، ولذلك فالله - تعالى - فوق كل من المكان والزمان والمادة والطاقة، وهو - سبحانه - مغاير لخلقه مغايرة تامة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

أما عن الفعل (خلقناكم) فأصل (الخلق) هو الإبداع والتقدير الدقيق المستقيم، ويستعمل في التعبير عن الإبداع للشيء على غير مثال سابق أي: من غير أصل ولا احتذاء، وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ [الأنعام: 73]. أي أبدعهما على غير مثال سابق بدلالة وصفه لذاته العلية بصفة: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ...﴾ [البقرة: 117].

ويستعمل الفعل (خلق) في التعبير عن إيجاد شيء من شيء آخر وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿... ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

و(الخلق) الذي يقصد به الإبداع (أي الإيجاد من العدم على غير مثال سابق) لا يكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولذلك وصف ذاته العلية بـ (الخالق) و(الخلّاق)، وفرّق بين الخالق والمخلوق بقوله العزيز:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17].

وفعل (الخلق) لا يستخدم في حق المخلوقين إلا على وجهين أحدهما يعني التقدير لشيء من شيء آخر، والثاني في التعبير عن الكذب ويسمى (الاختلاق) بمعنى الافتراء، وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ ...﴾ [العنكبوت: 17].

أما قوله - تعالى -: ﴿... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] فمعناه أحسن المقدرين لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو خالق كل شيء، وغيره لا يخلق وإن استطاع التقدير أو استطاع تحويل شيء عن شيء آخر.

ولفظة (الخلق) تقال في معنى (المخلوق)، ولفظتا (الخَلْقُ) و(الخُلُقُ) في الأصل واحد ولكن خصت لفظة (الخَلْقُ) بالهيئات والأشكال المدركة بالبصر، وخصت لفظة (الخُلُق) بالسجايا المدركة بالبصيرة أي (الأخلاق)، و(الخَلَاقُ) هو ما يكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه، و(الخليقة) و(الخلائق) هم خلق الله، و(الخِلْقَةُ) هي الفطرة. يقال:

فلان (خليق) بكذا أي: جدير به، كأنه مخلوق فيه ذلك أو كأنه مجبول بفطرته على ذلك، أي: مدعو إليه بالفطرة، و(الخَلاَقُ) هو النصيب، و(الخَلُوقُ) ضرب من الطيب.

(صَوَّر) هذا الفعل معناه: صنع (صورة)، و(الصورة) هي الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة التي خص بها كل مخلوق؛ أو هي الهيئة التي يوجد عليها الشيء، ومنها المحسوس الذي يدركه كل من الخاصة والعامة بالمعاينة والمشاهدة الحسية وذلك من مثل الصور المادية الملموسة المجسمة لكل من الإنسان والحيوان والنبات والجماد، ومنها الصور المستنتجة، غير المدركة بالحس كالصور الضمنية التي اختص الإنسان بها من مثل ما وهبه الله - تعالى - من قدرات الذكاء، والإدراك، والمشاعر، والأحاسيس، والانفعال، والتعبير والقدرة على كسب العلم والمهارات وتعليمهما، وغير ذلك من



صورة حقيقية لجنين بشري.

المعاني التي اختص الله سبحانه وتعالى بها الإنسان. وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين الصورتين بقول ربنا - تبارك وتعالى - :

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

- ﴿... وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ...﴾ [غافر: 64].

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: 7،8].

ووصف ربنا - تبارك وتعالى - ذاته بالمصوِّر فقال - عز من قائل -:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ...﴾ [الحشر: 24].

وجمع (الصورة): (الصُّور) بضم الصاد وكسرها. يقال (صوَّره) (تصويراً) (فتصور)، وتصوَّرت الشيء: توهمت (صُورتَه) (فتُصُوِّر) لي، و(التَّصاوير) هي: التماثيل.

و(السجود) أصله الخضوع والتطامن والتذلل لله - تعالى - وعبادته بما أمر، ومنه سجود الصلاة وهو وضع الجبهة على الأرض، وهناك السجود الإرادي الاختياري للمخلوقات المكلفة ذات الإرادة الحرة كالإنس والجن، والسجود الفطري التسخيري وهو للمخلوقات غير المكلفة.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: إدراك حقيقة قوانين الوراثة التي تردُّ الناس جميعاً إلى أب واحد:

فالخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددها مُوجَّه إلى الناس كافة بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ...﴾ [الأعراف: 11].

وتؤكده الآية السابقة مباشرة والتي يقول فيها الحق جل جلاله :

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

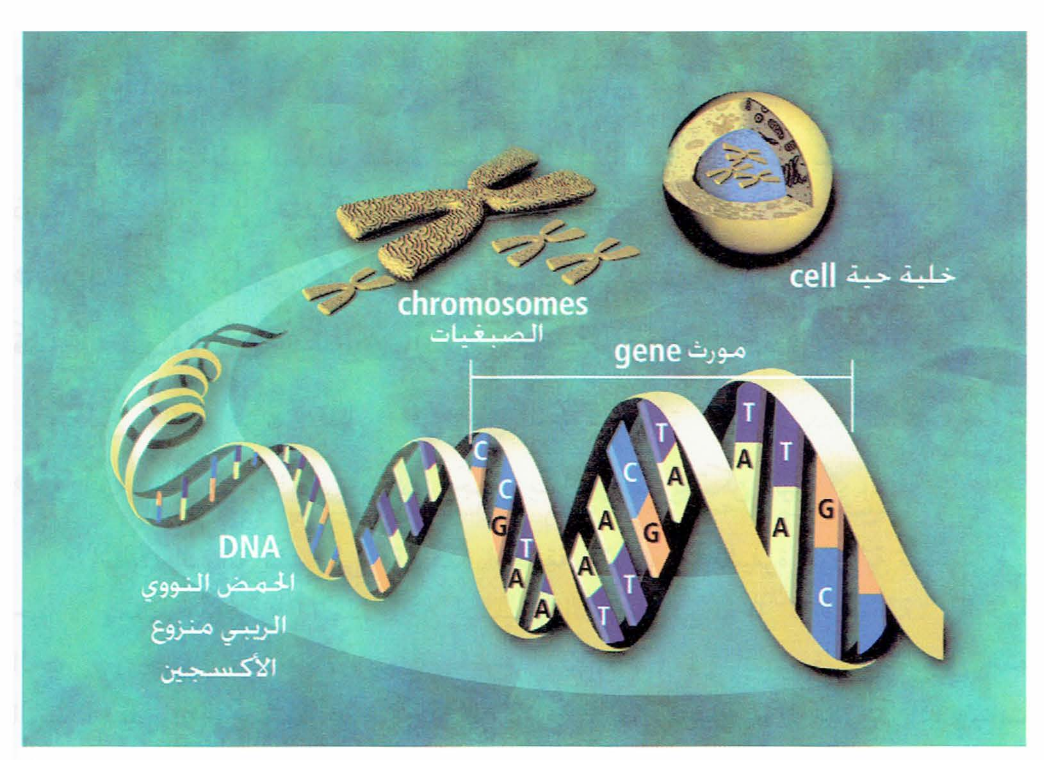
ولكن تكملة الآية الحادية عشرة تتحدث عن أبينا آدم عليه السلام مما يشير إلى حقيقة أن ذريته جميعاً كانوا في صلبه لحظة خلقه بدليل قوله - تعالى - في نفس السورة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وبدليل قوله - عز من قائل - في نفس السورة أيضاً:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ [الأعراف: 189].

ودراسات الوراثة تشير إلى دقة هذه الحقيقة القرآنية، فالشيفرة الوراثية تتكدّس في حيِّز لا يتعدى واحداً من المليون من الميليمتر المكعب في داخل نواة الخلية، والخلية الحية في جسم الإنسان لا يتعدى قطرها (0,03مم) في المتوسط، وتحتوي هذه الشيفرة على 46 جسيماً صبغياً يتكوَّن كل منها من تجمعات لعدد من البروتينات والحمض النووي، المشكّلة في هيئة لفائف مزدوجة الجانب لافة حول محور وهمي على هيئة حلزونية تعرف باسم لفائف الحلزون المزدوج للحمض النووي الريبي غير المؤكسد (Double Helix DNA Strands or Templets). ويبلغ سمك جدار هذه اللفيفة (1/ 50 مليون مم)، ويبلغ قطرها (1/ 500,000مم)، ويصل طولها إذا فردت إلى قرابة المترين، وتحمل كل واحدة منها ما يزيد على الأربعمائة مليون قاعدة كيميائية (404,347,800× 46 صبغي = 18,6 بليون قاعدة كيميائية) مرتبة ترتيباً محكماً دقيقاً، لو اختلت قاعدة واحدة منها عن مكانها فإن هذا البناء ينهار تماماً أو يُشَوَّه. ويقسم كل صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة (Markers) إلى عدد من المورثات (Genes) تنتشر على مسافات محددة من بعضها البعض، ويحمل كل منها عدداً من الأوامر لإنتاج كل من الأحماض الأمينية والإنزيمات والهرمونات والمضادات الحيوية وغيرها من البروتينات اللازمة لبناء مختلف خلايا الجسم، كما يتحكَّم كل مورث في عدد من صفات وأنشطة الجسم بما يميزه عن غيره من البشر. وقد وهب الله تعالى الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان القدرة على إنتاج أكثر من ثمانين ألف نوع من أنواع البروتينات اللازمة لبناء جسمه والتي تحضر بأوامر من الشيفرة الوراثية داخل جسيمات ميكروسكوبية خاصة من عضيات الخلية الحية تعرف باسم الريباسات (Ribosomes).



يوضح صبغيات الخلية الحية، ولفائف الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (.D.N.A) التي تكون الصبغيات وما تحمله من مورثات (جينات).

وتحتوي كل خلية من خلايا جسم الإنسان على (46) صبغياً موزعة في (23) زوجاً منها (22) زوجاً مهمتها الانقسام المتكرر لبناء مختلف خلايا الجسم، وزوج واحد من هذه الصبغيات للتناسل يتكوَّن من صبغيين متماثلين في الأنثى (**XX**) وغير متماثلين في الذكر(**XY**). وفي الوقت الذي يتم فيه انقسام الخلايا الجسدية انقساماً طولياً يعرف باسم الانقسام الفتيلي (**Mitosis**) يحافظ على عدد الصبغيات في كل خليتين وليدتين بالانقسام، فقد شاءت إرادة الخالق العظيم أن تتكوَّن الخلايا التناسلية من الخلايا الجسدية بانقسام انتصافي (**Meiosis**) ليعطي لكل خلية تناسلية نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية، حتى إذا ما اتحدت خليتان تناسليتان إحداهما من الأب والأخرى من الأم تكامل عدد الصبغيات المحدد للنوع في النطفة الأمشاج (المختلطة).

ويبدأ تخلُّق جنين الإنسان من اندماج نطفتي الزوج والزوجة لتكوين النطفة الأمشاج التي تنشط في الانقسام فتكرر ذاتها لمرات عديدة مكونة التويتة (**Morula**) التي تتحوَّل

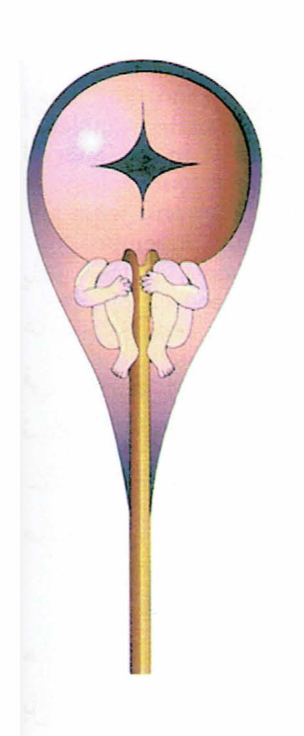
إلى الكرة الأرومية بمزيد من الانقسام ثم تنغرس ببطانة الرحم لتنمو في عدد من الأطوار المحددة حتى يتم الوضع.

وبالرجوع بعمليات انقسام الخلايا التناسلية إلى الوراء مع الزمن فإن نسل أبينا آدم كله يلتقي في صلبه لحظة خلقه، (بالبلايين التي تملأ جنبات أرض اليوم، والبلايين التي عاشت من قبل وماتت، وتلك التي سوف تخلق إلى قيام الساعة) ومن هنا فإن الخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددها كما هو موجه إلى أبينا آدم عليه السلام موجه إلى جميع نسله إلى قيام الساعة. وعلى ذلك فإن المقصود بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ هو خلق آدم عليه السلام من طين ثم إكرامه بنفخة الروح فيه، وخلق جميع ذريته في صلبه لحظة خلقه.

وقوانين الوراثة لم تُدرَك تفاصيلها إلا في أوائل القرنِ العشرين، والإشارة إليها في هذه الآية الكريمة وأمثالها مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ثانياً: الإشارة إلى تقدير صفات الجنين في بطن أمه عبر مراحل متتالية بوصف التصوير:

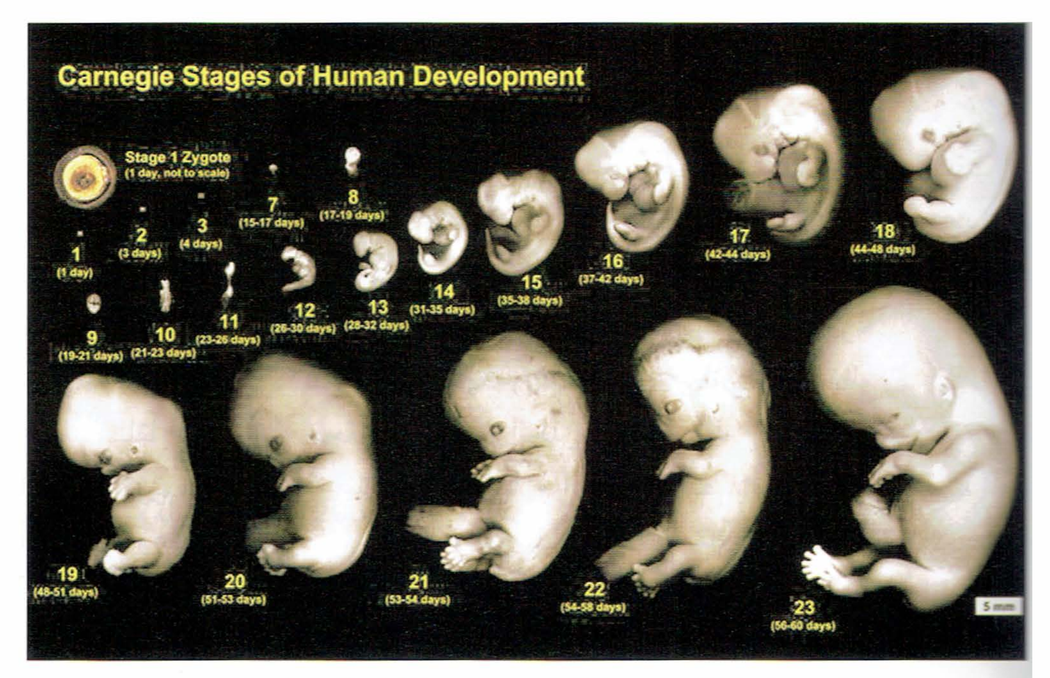
وذلك انطلاقاً من قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: قدَّرنا صفاتكم الوراثية تقديراً كاملاً وأنتم في عالم الذر في صلب أبيكم آدم عليه السلام حتى يكون كل فرد منكم على صورته، ووضعنا الأوامر بذلك في الشيفرة الوراثية الخاصة بكل منكم حتى يخرج إلى الحياة على الصورة التي حددناها له، وقد جاء ذلك في وقت سيادة الخرافات والأساطير عن خلق الجنين كاملاً بصورة مصغرة في ماء الرجل والتي سادت حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي (1694م)، أو في ماء المرأة كما ساد حتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادي (1745م) واستمرار المعارك بين أنصار كل من هاتين الأسطورتين حتى ثبت دور كل من الذكر والأنثى في تكوين الجنين وذلك في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يتم الإجماع على ذلك إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ وكان القرآن الكريم قد نزل من قبل أربعة عشر قرناً مؤكداً هذه الحقيقة، وواصفاً مراحل خلق الجنين البشري بدقة وشمول يفتقر إليهما العلم الحديث، وأجمل ذلك في التعبير القرآني ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الذي جاء في الآية الكريمة التي نحن بصددها.



صورة موجودة في متحف اللوفر (مدينة باريس) رسمها هارتسوكر (Hartsoeker) في سنة 1694م (الموافق 1105هـ) للحيمن بواسطة المجهر، ويتخيل وجود إنسان كامل النمو، متناهي الضآلة في الحجم عند رأس الحيمن.

فربنا - تبارك وتعالى - قد قدَّر صفات كل فرد من بني آدم في علمه الأزلي، وضمَّن صلب أبينا آدم عليه السلام تلك الصفات لحظة خلقه، وأظهرها في الوقت الذي حدَّده لظهورها على هيئة شيفرة مبرمجة نصفها في صلب الأب الموعود، ونصفها الآخر في صلب الأم المحددة، فإذا التقيا في زواج تكاملت الصفات المحددة في **النطفة الأمشاج** المحددة التي تستقر في الرحم فتمر بعدد من المراحل المقدَّرة بدقة فائقة (**العلقة، المضغة**، وفيها تنفخ الروح، **ثم تخلق العظام وتكسى لحماً**، ثم ينشأ **الجنين خَلْقاً آخر**) ومن الأمور المبهرة حقاً في تلك المراحل الاختيار الدقيق لنطفة محددة من بلايين النطف التي يهبها الخالق العظيم للزوج لتلتقي مع بييضة محددة من بين آلاف البييضات التي يهبها الله - تعالى - للزوجة لتتخلَّق منهما نطفة أمشاج محددة الصفات مسبقاً في علم الله الحكيم الخبير.

ثم الانقسامات السريعة **للنطفة الأمشاج** لتكوين **التويتة** ثم **الكرة الأرومية** التي هيأها الله - تعالى - بعدد من الخلايا الآكلة التي تحفر لها طريقاً في بطانة الرحم فتنغرس فيه وتتشبث به لكي تتغذى على دم الأم بعد نفاد غذائها فتأخذ **طور العلقة، ثم يظهر الشريط الأولي** على سطحها فتتخلق كل خلايا وأنسجة وأعضاء وأجهزة الجسم من الخلايا



يوضح مراحل تخلق جنين الإنسان من اليوم الأول لإخصاب البييضة
وتكوين النطفة الأمشاج إلى اليوم الستين من عمره.

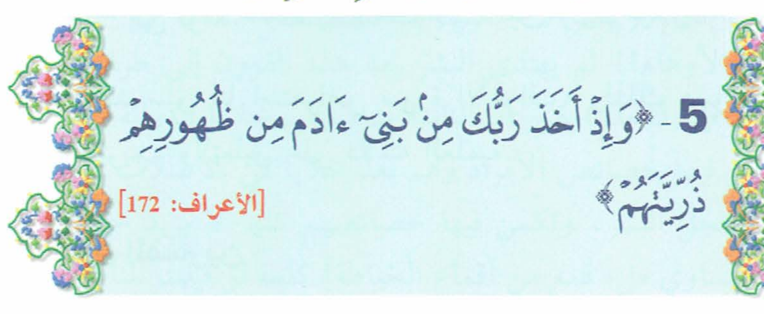
الجذعية للكرة الأرومية والتي وهبها الخالق العظيم قدرات فائقة على التشكُّل والتكيُّف لكل عضو حسب وقت ظهوره، وهو ما وصفه الخالق ﷻ بقوله العزيز: ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ على مستوى الصفات المحددة في المورِّثات وهو أمر مقدر سلفاً، ثم على مستوى الخلايا والأنسجة والأعضاء يتم عبر الأطوار المتتالية التي حددها القرآن الكريم بدقة بالغة قبل أن تصل العلوم المكتسبة إلى معرفة شيء عنها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

والجنين البشري لا يبدأ في اكتساب الملامح الإنسانية إلا بعد نفخ الروح فيه بنهاية الأسبوع السادس، وتبقى المرحلة إلى وضع الجنين (بنهاية الأسبوع الثامن والثلاثين) مرحلة للنمو والتكامل في بناء الأعضاء والأجهزة المختلفة. وهذه الأطوار من النطفة الأمشاج إلى اكتمال نمو الجنين هي مرحلة التصوير التي قدَّرها الخالق ﷻ في الشيفرة الوراثية التي كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام والتي فردها الله - تعالى - بعملية الانقسام، وأطلقها إلى حيِّز الوجود عند لحظة تخلق كل فرد من بني آدم.

هذه الحقائق العلمية عن مراحل الجنين في الإنسان والتي لا يتعدى طول بعضها أجزاء من المليمتر لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في القرن العشرين، وتفصيل القرآن الكريم لها من قبل أربعة عشر قرناً في زمن لم تتوافر فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف العلمي لمِمَّا يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً: كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ القرآن الكريم حفظاً مطلقاً حتى يبقى حجة على جميع الخلق إلى يوم الدين، فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والصلاة والسلام على أنبياء الله أجمعين، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمين الذي ختم الله ببعثته النبوات، ليكون رسول الله للناس كافة، وبه أكمل الدين - وأتم النعم - فالحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



5 - ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172]

هذا النص القرآني الكريم جاء في الخمس الأخير من سورة الأعراف، وهي سورة مكية، وآياتها (206) بعد البسملة، وهي من طوال سور القرآن الكريم، وأطول السور المكية على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى (الأعراف)، وهي أسوار مضروبة بين الجنة والنار للحيلولة بين أهليهما، تكريماً وتنعيماً لأهل الجنة في الجنة، وإذلالاً وتعذيباً لأهل النار وهم فيها يصلون الجحيم.

ويدور المحور الرئيس لسورة الأعراف حول قضية العقيدة الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل السور المكية. وقد أبرزت عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، والتحذير من الشرك بجلاله في وصايا عدد من الأنبياء والمرسلين لأقوامهم بالقول السديد الذي سجله القرآن الكريم لهم حيث قال كل واحد منهم لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: 59].

وقد ترددت هذه النصيحة المباركة أربع مرات في ثنايا سورة الأعراف على لسان كل من أنبياء الله: نوح، هود، صالح، وشعيب - على نبينا وعليهم وعلى أنبياء الله جميعاً من الله السلام -، وأتبعت هذه النصيحة المباركة في كل مرة بتحذير شديد، أو تقريع وتوبيخ للمخالفين لها، وذلك من مثل قول نبي الله نوح - عليه السلام - لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعرَاف: 59]، وقول نبي الله هود

- عليه السلام - لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65]، وقول كل من نبي الله صالح، ونبي الله شعيب - عليهما السلام - إلى قومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 73، 85].

هذا وقد سبق لنا استعراض سورة الأعراف، ولذلك فسوف أركز هنا على تفسير النص الكريم، والتعليق على دلالته العلمية.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: الآية 172].

ذكر صاحب «الظلال» - رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم - كلاماً رائعاً يضيق الحيز المتاح هنا عن سرده، ولكن نختصره في الأسطر القليلة التالية:

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد على طريقة القرآن الغالبة أوإنه لمشهد فريد - مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172]؟ فتعترف له - سبحانه - بالربوبية، وتُقِرُّ له - سبحانه - بالعبودية، وتشهد له - سبحانه - بالوحدانية؛ وهي منثورة كالذر؛ مجموعة في قبضة الخالق العظيم!! إنه مشهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصوراتها المأثورة!! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته!! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطَب خطاب العقلاء - بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع - وهي تستجيب استجابة العقلاء، فتعترف وتقر وتشهد؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب! وإن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد، وهو يتمثل الذر السابح، وفي كل خلية حياة، وفي كل خلية استعداد كامن، وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول، ويقطع على نفسه العهد والميثاق قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم!! لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة

العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود.. عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام!! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة، فإذا (العلم) يقرر أن الناسلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل (الإنسان) وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بَعْدُ خلايا في الأصلاب.. أن هذه الناسلات التي تحفظ سجل البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة! كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال! وصدق الله العظيم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: الآية 53]. أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: «مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة.. فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى». وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس، وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت... على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة.. فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده.. أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها. قال ابن كثير في التفسير: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد... وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك. قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: الآية 172] ولم يقل: من آدم.. ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره.. ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن... ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له.. حالاً... فدل على أن الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا تقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾.

وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة لاستعراضه.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: الآية 172]:

يدل هذا النص الكريم على أن الله - تعالى - قد وضع لبني آدم قانون التزاوج، وسنّ

له مؤسسة الأسرة من أجل إعمار الأرض إلى قيام الساعة، وجعل للوراثة قوانين ضابطة، وأجهزة، وأنسجة، وخلايا متخصصة.

ولما كان خلق كلٍّ من أبينا آدم - عليه السلام - وأمنا حواء - عليها رضوان الله - قد تم بمعجزة لا تستطيع المعارف المكتسبة تفسيرها، لأنها تمت بأمر من الله - تعالى - بـ(كُن فيكون)، والمعجزات خوارق للقوانين والسنن الدنيوية فلا تستطيع العلوم المكتسبة تفسيرها، ولما كانت قوانين الوراثة سنةٌ من سُنن الدنيا قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172] ولم يقل: من آدم، فإن جميع ذرية آدم - عليه السلام - من أول أبنائه وبناته وحتى قيام الساعة كانوا في صلبه لحظة خلقه، ثم أخرجهم الله - تعالى - من صلب هذا الإنسان الأول، وأشهدهم على حقيقة الربوبية لله الخالق، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة لجلاله إلى الصاحبة والولد، فهذه حاجة المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وبعد أن أقر جميع بني آدم - وهم في عالم الذر - بحقيقة الربوبية قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية 172] أو قال الخلق من بني آدم أجمعون: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: الآية 172]، وأكمل الملائكة بقية الآية الكريمة.

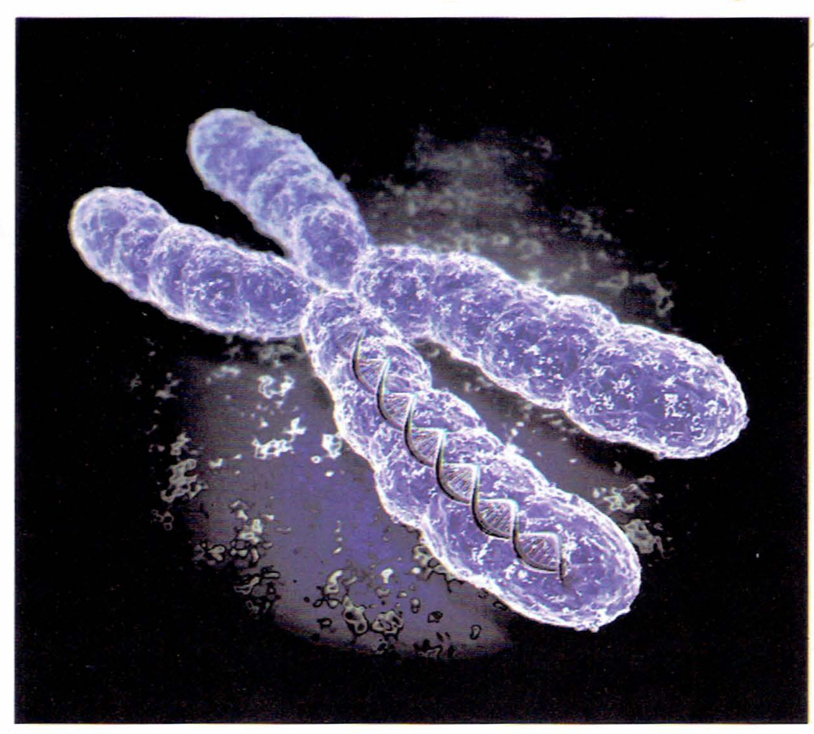
والذي يفهم معنى الألوهية يدرك أن الله - تعالى - قادر على كل شيء، وأن أمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية 82].

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172]:

ثبت علمياً أن غدد التناسل في كل من الذكر والأنثى تنبت أول ما تنبت في موضع محدد بين العمود الفقري وضلوع القفص الصدري لجنين الإنسان، وذلك قبل نزول تلك الغدد إلى مواضعها المخصصة لها من جسم الجنين، وتبقى هذه الغدد تتغذى بالدم والأعصاب من نفس مواضع نشأتها، فكأن جميع خلايا التناسل التي تتخلق في تلك الغدد قد تخلقت أصلاً من مواضع نشأة تلك الغدد، ولذلك قال - تعالى - في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5 - 7].

وقال في النص الذي نحن بصدده من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172].

وهذا سبق علمي لجميع المعارف المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرناً، فلم يتوصل الإنسان إلى معرفة قوانين الوراثة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حين توصل مندل (Gregor J.Mende 1869) إلى معرفة أن الصفات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء في الكائنات الحية التي تتكاثر بالتزاوج عبر عدد من العوامل المتناهية في ضآلة الحجم، والتي عرفت فيما بعد باسم «المورثات» (Genes)، يتقاسم الوالدان إضافتها إلى جنينهما في كل مرة ينجبان. ثم أثبت (مورجان) في أوائل القرن العشرين (T.H. Morgan, 1926) أن المورثات هي أجزاء حقيقية من جسيمات خيطية متناهية الدقة تتواجد داخل نواة الخلية الحية، وتعرف باسم الصبغيات أو الأجسام الصبغية (Chromosomes) وذلك لقدرتها على اكتساب لون الصبغة التي تصبغ بها الخلية الحية بدراستها أكثر من بقية أجزاء تلك الخلية. ومن خلال دراسته للصبغيات اكتشف (مورجان) الصبغي المختص بالتكاثر، واقترح عملية التخطيط الوراثي للكائنات الحية.



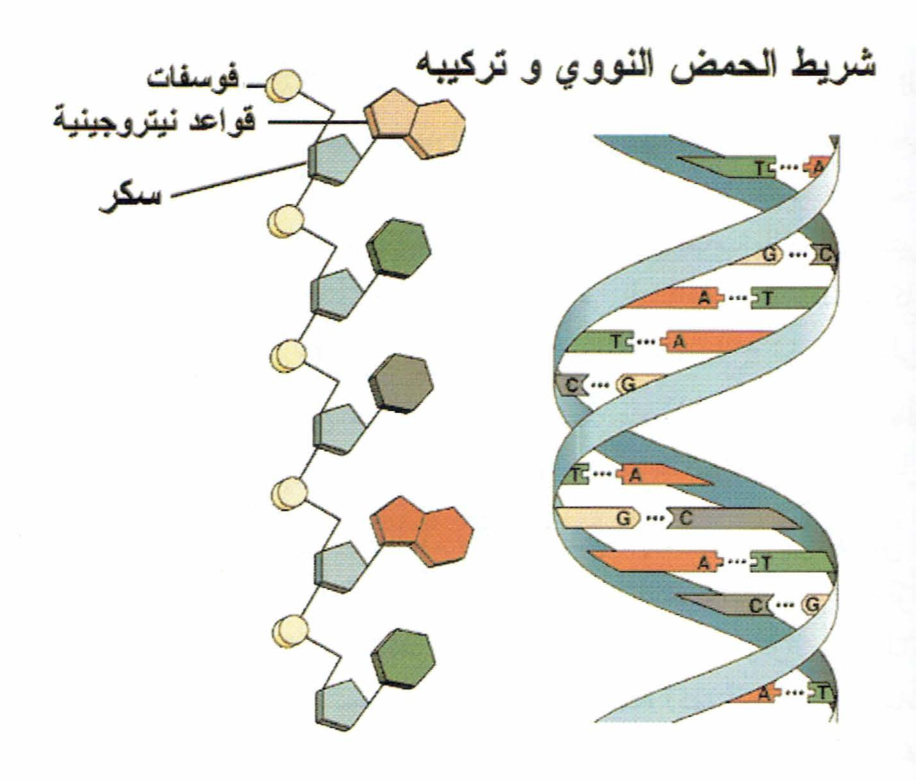
الأجسام الصبغية تتألف من جسيمات خيطية

وباكتشاف دور الصبغي المختص بالتكاثر في تكوين الأجنة بعملية الإخصاب، وباحتواء خلايا التكاثر على نصف عدد الصبغيات التي تحملها الخلايا الجسدية تأكيد على سنة التزاوج والإنجاب من أجل إعمار الأرض بالأحياء إلى أن يشاء الله - تعالى -. وبانقسام خلايا التكاثر على ملايين الخلايا في حياة الفرد الواحد من بني آدم، وبالعودة بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن فإن الناس - الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا من قبل عصرنا الراهن وماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة - يلتقون جميعاً في شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام، وهذه الشيفرة يطلق عليها علماء الأجنة اسم «بِرْكَة الوراثة» (The Genetic Pool). وهذه البركة الوراثية الأولى توزعت - بمشيئة الله تعالى، وعلمه وقدرته - بين أبوينا آدم وحواء عليهما السلام - ثم بين أبنائهما إلى يوم الدين، ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: الآية 172].

ويؤكد ذلك تشابه التركيب الكيميائي للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (Deoxyribonucleic Acid or DNA) الذي تنبني منه الصبغيات وتكتب به الشيفرة الوراثية بنسبة 99,9% في جميع البشر، واختلافهم في 0,01% فقط، ومن طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق أن يعطي الخالق سبحانه وتعالى لكل فرد من بني آدم بصمة وراثية خاصة به، تميزه عن غيره، من هذا القدر الضئيل جداً من الاختلاف في تركيب الحمض النووي الريبي غير المؤكسد.

ومن طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق كذلك أن يتكون جزيء الحمض النووي الريبي غير المؤكسد من لفائف متناهية الدقة في الحجم وفي روعة البناء، حيث تترتب جزيئاته على هيئة سلسلتين ملتحمتين في الوسط تتكونان من أربع قواعد نيتروجينية فقط على هيئة سلميات ترتكز على جدارين من جزيئات السكر والفوسفات. وتلتف السلسلتان حول محور وهمي على هيئة حلزونية مطوية طياً شديداً تعرف باسم «الرقائق الحلزونية المزدوجة للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (Double Helix DNA Strands) ويبلغ قطر هذا الحلزون واحد من نصف المليون من المليمتر، ويبلغ حجمه وهو مكدس على ذاته واحداً من المليون من المليمتر المكعب، ويبلغ سمك جداره واحداً من خمسين مليوناً من المليمتر.

شريط الحمض النووي و تركيبه



ثالثاً: في قوله – تعالى –: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: الآية 172]:

هذا الحمض الذي تكتب به الشيفرة الوراثية (والذي يكون الصبغيات) أعطاه الخالق ﷻ القدرة على الانقسام لتكرار ذاته، ولو عدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن فلا بد من التقاء جميع الشيفرات الوراثية لبني آدم قاطبة إلى قيام الساعة في شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم وزعها الله – تعالى – بينه وبين زوجه أمنا حواء – عليها السلام –، وتوزعت الشيفرات الوراثية بعد ذلك بين بني آدم إلى يوم الدين. وعلى ذلك فإن خلق كل فرد منا مقدر سلفاً في نطفتين إحداهما من أبيه والأخرى من أمه، وأن هذا التقدير يمتد ماضياً ليتصل بالشيفرات الوراثية للأجداد والجدات حتى يصل إلى أبوينا آدم وحواء – عليهما رضوان الله – كما يمتد مستقبلاً إلى أن يشاء الله – تعالى –. وهذا يعني أن كل فرد من بني آدم كان موجوداً في الشيفرة الوراثية لهذا الإنسان الأول لحظة خلقه، وأن الله – تعالى – قد أشهده على حقيقة تفرد الخالق سبحانه بالربوبية والألوهية والخالقية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وقد شهد بذلك، وشهدت عليه الملائكة.

وهذه الشيفرة المبرمجة بدقة بالغة، وإحكام فائق، والمطوية في داخل نواة الخلية الحية بحجم لا يدرك بالعين المجردة، سواء كان ذلك في النطفة الذكرية (أي الحيمن) أو في النطفة الأنثوية (أي البييضة) وقد خص الخالق ﷻ كلًّا منهما بنصف عدد الصبغيات المحدد لنوع الإنسان، وذلك حتى يكتمل عدد الصبغيات بالتقاء النطفتين في النطفة الأمشاج (أي المختلطة) فتأتي الأجنة على قدر من التشابه والاختلاف مع كل من الأبوين وأسلافهما إلى أبوينا آدم وحواء - عليهما السلام -، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية 172].

وتأتي المعارف المكتسبة في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه لتؤكد على أن كل شيء في هذا الوجود من مختلف صور المادة والطاقة، من الغازات، والسوائل، والجوامد، ومن الأحياء النباتية والحيوانية والإنسية له قدر من الوعي، والإدراك، والذاكرة، والشعور بالانفعال والتعبير، وقد تحقق ذلك في تجارب الماء (كما أثبت الياباني ماسارو إيموتو (Massaru Emmotto) وفي حالات كل من النبات والحيوان، كما أثبت علماء سلوك الأحياء (Plant and Animal Behaviour).



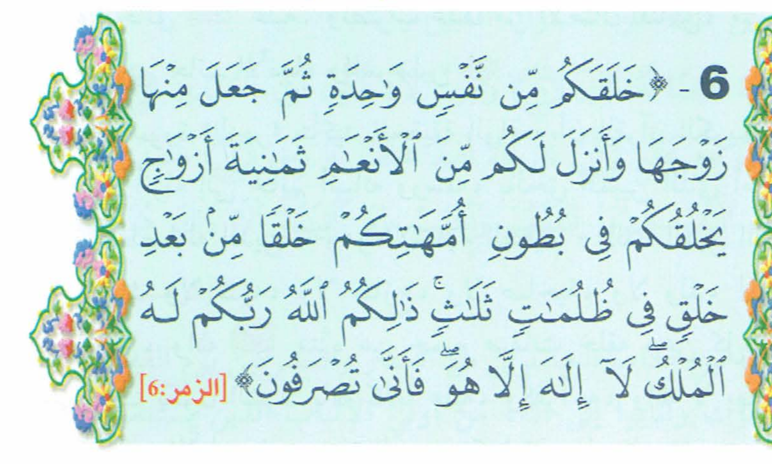
وقد سبق القرآن الكريم كل هؤلاء بقول ربنا - تبارك وتعالى - عن ذاته العلية: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

وعلى ذلك فإن أخذ العهد على جميع بني آدم وهم في عالم الذر بالإيمان بربوبية الخالق ﷻ وألوهيته، وخالقيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه قد تم كما أخبر عنه الله - تعالى - في النص القرآني الكريم الذي نحن بصدده، ولا يجوز تأويله إلى غير ذلك مما ذهب عدد من المفسرين، لأن الله - تعالى - على كل شيء قدير، ولذلك قال - وقوله الحق -: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

والحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآية الكريمة كل المعارف المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرناً تشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة أخرى في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً كي يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين بأنه كلام الله الخالق وحجته على عباده، وشاهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



6 - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر:6]

هذه الآية الكريمة جاءت في الثمن الأول من سورة «الزُّمر»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (75) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى أن الناس في يوم القيامة سوف يقسمون إلى زُمَر من أهل الجنة، وزمر من أهل النار، أي إلى جماعات جماعات، فيساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، ويساق الذين كفروا إلى جهنم زمراً.

ويدور المحور الرئيس لهذه السورة الكريمة حول قضية العقيدة ومنها فضل القرآن الكريم على غيره من الكتب، وتعظيم التوحيد لله - تعالى - والأمر به، ونفي الشرك عنه سبحانه وتعالى، والنهي عن الوقوع فيه والتأكيد أن الشرك يحبط الأعمال، ويجعل الواقع في وحله من الخاسرين في الدنيا والآخرة. كما تركِّز السورة الكريمة على حقيقة الآخرة، وتصوِّر لنا عدداً من مشاهدها، مؤكدة أن الله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء من عباده المكلفين.

وتمتدح السورة المؤمنين بالله - تعالى - وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتذكر طرفاً من إكرام الله - تعالى - لهم، وتذم الكفار والمشركين، وتذكر طرفاً من عقابهم. وتشير إلى شيء من طبائع النفس الإنسانية، وتُلَمِّح إلى عدد من الآيات الكونية الدالة

على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والشاهدة على حتمية البعث وضرورته، وقدرة الخالق ﷻ عليه. وتضرب عدداً من الأمثال للناس، مُوَجِّهة الخطاب بين الحين والآخر إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وتبدأ سورة «الزمر» بتأكيد الحقيقة الواقعة أن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم، أنزله إلى خاتم أنبيائه ورسله، بالحق المبين الذي أمره بعبادة الله - تعالى - وحده مخلصاً له الدين - وهو الإسلام العظيم - ذلك الدين الخالص لله تعالى وحده، بغير شريك ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله ﷻ منزَّه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وعلى ذلك يكون الشرك بالله كذباً عليه، وكُفراً به، والله لا يهدي من هو كاذب كفَّار، ولذلك تنفي الآيات في سورة الزمر - كما تنفي في غيرها من سور القرآن الكريم - كل دعاوى المبطلين بنسبة الولد إليه - تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً -.

ثم تستعرض سورة «الزمر» عدداً من الآيات الكونية الشاهدة لله - تعالى - بأنه خالق الكون، وإلٰهه، وربه، ومليكه؛ مؤكدة أن الله - تعالى - يرضى من عباده الشكر على نعمه، ولا يرضى منهم الكفر، فإن كفروا فإن الله - تعالى - غني عن العالمين. وتقرر السورة الكريمة أن نفساً لا تحمل إثم أخرى، مؤكدة أن الله - تعالى - سوف يرجع الجميع إليه، فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: 7] أي بما تكنُّه القلوب التي في الصدور.

وتعرض الآيات لشيء من أحوال النفس الإنسانية مقارنة بين حال كل من الكافرين والمشركين وبين الذين يرجون رحمة الله ويحذرون الآخرة، فيجتهدون في العبادة آناء الليل وأطراف النهار، وتقرر أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

ثم توجِّه الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يطالب الذين آمنوا من عباد الله بتقوى الله، مؤكِّداً أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأنه لا يجوز للمؤمن بالله أن يقبل الظلم أبداً، فأرض الله واسعة، وأن الصبر على مجاهدة الظلم والظالمين من أعظم القربات إلى رب العالمين، وأن الصابرين يُوَفَّوْن أجورهم بغير حساب، وفي ذلك تقول الآيات آمرة إياه أن يعلن للناس بأنه يعبد الله - تعالى - مخلصاً له الدين وأنه

أمر لأن يكون أول المسلمين». وأنه يخاف عذاب يوم عظيم، وأن للناس أن يعبدوا ما يشاءون من دون الله ولكن ذلك هو الخسران المبين.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)﴾ [الزمر: 11-15].

وتعاود الآيات المقارنة بين عذاب الخاسرين من الكفار والمشركين يوم القيامة، وبين نعيم الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله، من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، مؤكدة أن الذي شرح الله صدره للإسلام فأصبح على نور من ربه يختلف حاله تماماً عن الذين أعرضوا عن دين الله، فَضَلُّوا ضلالاً بعيداً، وأصبحت قلوبهم قاسية إلى الحد الذي لا يحرِّكها ذكر الله، ولا النظر في آياته العديدة في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم.

ثم تعاود الآيات إبراز قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

وتقارن سورة الزمر للمرة الثالثة بين مصائر الصالحين والطالحين يوم القيامة، كما تشير إلى عقاب المكذبين من الأمم السابقة بالخزي في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، وتضرب للناس الأمثال بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [الزمر: 27، 28].

ومن هذه الأمثال - ولله المثل الأعلى - تشبيه المُشْرِك برجل مملوك لعدد من الشركاء المتنازعين فيه، وتشبيه المُوَحِّد لله برجل ملكيته خالصة لفرد واحد، وواضح الأمر أنهما

لا يستويان مثلاً، فالحمد لله - تعالى - الذي أقام الحجَّة على عباده وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وتخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بحقائق الموت والبعث والحساب، والخطاب لأمته أيضاً، وللناس أجمعين وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى - له - صلوات الله وسلامه عليه -:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾

[الزمر: 30، 31].

وتقرِّر الآيات أن من كذب على الله فنسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو كذب بالحق الذي أوحاه الله - تعالى - إلى أنبيائه ورسله، والذي أتمه، وأكمله، وحفظه في بعثة خاتمهم أجمعين فإنه قد ظلم نفسه لأن مثواه سيكون في جهنم وبئس المصير وهي مثوى الكافرين، أما الذين صدقوا الله - تعالى - وصدقوا بما أنزله على خاتم أنبيائه ورسله فأولئك هم المتقون، المحسنون الذين لهم عند ربهم ما يشاؤون.

وتؤكِّد سورة «الزمر» أن الله - تعالى - هو الذي يكفي خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ويكفي المؤمنين برسالته من بعده كل ما يواجهون من تَحدِّيات الكفار والمشركين، فكفار قريش ومشركوها كانوا يتوعدون رسول الله ﷺ بأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله، فدمَّرها الله - تعالى - ودمَّرهم. والله يهدي من يشاء من عباده المكلفين ممن قد اختار الهداية على الضلالة، ويضل من يشاء ممن قد اختار الضلالة على الهدى، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (٣٧)﴾ [الزمر: 36، 37].

وفي النهي عن الشرك والتحقير من شأنه مرة أخرى، تخاطب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: 38-40] .

وفي التأكيد مرة ثالثة على قدر القرآن الكريم عند رب العالمين، وقدرته على هداية الخلق أجمعين تُعاود الآيات توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: 41] .

وتنعي الآيات على المشركين اتخاذهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله، وهم يعلمون حق العلم أن هؤلاء الشفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، ولذلك تؤكد أن الشفاعة لله وحده، لا ينالها أحد إلا برضاه، وهو وحده الذي له ملك السمٰوات والأرض، وهو الذي سوف يُرْجِع الخلق جميعهم إليه فيحاسبهم على أعمالهم.

وتنتقد الآيات المشركين لأنهم إذا ذُكِرَ الله وحده - دون ذكر الذين أشركوهم في عبادته زوراً وبهتاناً - انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر شركاؤهم الذين أشركوهم في عبادة الله بغير حق فإنهم لكفرهم يستبشرون، وفي ذلك يأمر القرآن الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يقول:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: 46] .

وتعاود الآيات التحذير من الظلم بمختلف أبعاده، وأشكاله، وصوره ومنها ظلم النفس بإغراقها في دياجير المعاصي ومن أشنعها الكفر بالله أو الشرك به، وظلم الآخرين باغتيالهم، أو اغتيال حقوقهم، أو ممتلكاتهم، أو أعراضهم، أو حرياتهم وفي ذلك يحذِّر الحق - تبارك وتعالى - الواقعين في الظلم من سوء العاقبة فيقول - عز من قائل -:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: 47،48].

وتتحدث الآيات مرة ثانية عن جانب من جوانب النفس الإنسانية فتقول:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: 49–52].

وتحذِّر الآيات من قنوط الذين أسرفوا في المعاصي من رحمة الله، ومن التكذيب بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم ﷺ، ومن الاستكبار على الحق، وتدعو إلى سرعة التوبة والإنابة إلى الله وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى - موجِّهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

[الزمر: 53–59].

وتعرض الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة يقول فيه الحق - تبارك وتعالى-:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى

﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ [الزمر: 60،61].

ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه من الصفات ما لا يليق بجلاله (من أمثال الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد) هؤلاء سوف يأتون يوم القيامة ووجوههم مسودة من الكذب على الله في الدنيا، ثم يلقون في نار جهنم وبئس مثوى المكذبين بالحق، المتكبرين على الله - تعالى - ورسله، والمتعالين على أتباع الحق وجنده، بينما ينجي الله الذين اتقوه في الدنيا بفوزهم بالجنة، لا يمسهم السوء ولا يغشاهم شيء من الحزن الذي يغشى الكفار والمشركين في يوم الفزع الأكبر.

ثم تؤكد الآيات أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل، وأن له - وحده - تصريف أمور السمٰوات والأرض، ولذلك فإن الكافرين بالله وآياته المنظورة والمقروءة هم بالقطع الخاسرون في الدنيا والآخرة.

وتعاود الآيات لوم المشركين على شركهم واستنكار ذلك منهم، وتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: 64-66].

وتؤكِّد الآيات أن الذين كفروا بالله - تعالى - أو أشركوا به لم يعظِّموه التعظيم الذي يليق بجلاله، وأنهم سوف يرون جانباً من قدر الألوهية في يوم القيامة، والأرض جميعاً قبضته، والسمٰوات مطويات بيمينه ﷻ.

وبعد ذلك تشير الآيات إلى نفخة الصور، وما يتبعها من موت جميع مَن في السمٰوات والأرض إلا مَن شاء الله، ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا الجميع قائمون من قبورهم، وفي هذا اليوم - يوم الفزع الأكبر، وكل واحد منتظر مصيره - تشرق الأرض بنور ربها، ويوضع الكتاب، ويحضر النبيون والشهداء ليشهدوا على أممهم، فيفصل الله بين الخلائق بالحق، ويعطي كل نفس حقها جزاء ما عملت «وهم لا يظلمون»، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: 67–70].

ثم تصوِّر الآيات أحوال الخلائق في ختام الحساب الإلٰهي بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: 71–74].

وتختتم سورة «الزمر» بتصوير مشهد آخر من مشاهد يوم الحساب يجسِّد الخشوع لله يقول فيه الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: 75].

من ركائز العقيدة في سورة «الزمر»:

1 - الإيمان بأن القرآن الكريم هو كلام الله العزيز الحكيم الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، أنزله بالحق قرآناً عربياً غير ذي عوج - يدعو إلى عبادة الله - تعالى - وحده بما أمر بإخلاص وتجرد تامَّين (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع،

ولا صاحبة، ولا ولد)، وتنزيهه ﷻ عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، لأنه - تعالى شأنه - لا يقبل من عباده إلا التوحيد الخالص لذاته العلية، والشكر الدائم على نعمه العديدة.

2 - اليقين بأن الشرك بالله - تعالى - كفر به، وأن المشركين قد يتمتعون قليلاً في الدنيا، ثم هم في الآخرة من أصحاب النار، وعلى الذين يدعون لله ﷻ ولداً بغير علم، ولا هدى، ولا سلطان مبين، أن ينزهوا الله الواحد القهار عن ذلك اللغو لأن الولد من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه.

وعلى الذين اتخذوا من دون الله أولياء - يعبدونهم من دون الله - بدعوى أنهم يقربونهم إلى الله زُلفى أن يعلموا كذب هذا الادعاء، وخطورة هذا الافتراء على الله - تعالى - الذي سوف يحكم بينهم يوم القيامة، وهو - سبحانه - لا يهدي من هو كاذب كَفَّار، وإن من كذب على الله، وكذب بالحق إذ جاءه قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً.

3 - التسليم بأن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، ولكنهم إن كفروا فالله غني عنهم، وإن آمنوا وشكروا فالله - تعالى شأنه - يرضى ذلك منهم، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الخلق جميعاً راجعون إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون، وأنه عليم بذات الصدور وأنه - تعالى - هو الغفور الرحيم الذي لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

4 - الإيمان بأن من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وأن الكفار والمشركين من أصحاب القلوب القاسية في ضلال مبين. وأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

5 - اليقين بأن كل بني آدم خطّاؤون، وأن خير الخطّائين التوّابون، وأن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأن لهم في الآخرة الأجر العظيم فإن تعرضوا لشيء من الابتلاء أو الإيذاء فإن عليهم بالصبر لأن الصابرين يُوَفَّون أجورهم بغير حساب.

6 - التسليم بأن الرزق من الله - تعالى - وإنه هو الذي يبسطه لمن يشاء ويقدر. وبأن الموت حق على العباد، وكذلك البعث والنشور، وأن للآخرة نفختين: نفخة الصعق التي يُصعق بها من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ونفخة البعث التي إذا نفخت بعث بها كل ميت ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

7 - الإيمان بكل ما جاء بالسورة الكريمة من عذاب أهل النار، ونعيم أهل الجنة، وبكل صور العذاب التي أنزلها ربنا - تبارك وتعالى - بالعاصين المكذبين من أبناء الأمم السابقة، وبأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه.

من الإشارات الكونية في سورة «الزمر»:

في سياق الاستشهاد على طلاقة القدرة الإلٰهية في إبداع الخلق، والاستدلال من ذلك على وحدانية الخالق ﷻ وعلى حتمية البعث وإمكانيته وضرورته جاء في سورة «الزمر» عدد من الإشارات إلى الكون وبعض مُكَوِّناته وظواهره يمكن إيجازها فيما يلي:

1 - وصف عملية خلق السمٰوات والأرض بأنها تمَّت بالحق أي حسب قوانين وسنن منضبطة تشهد لخالقها بأنه الحق ﷻ: [الزمر: 5].

2 - الإشارة الضمنية الرقيقة إلى كروية الأرض، وإلى دورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى جريها في مدارها حول الشمس وجري كل من الشمس والقمر - وبالتالي كل أجرام السماء - إلى أجل مسمى، مما يشير إلى حتمية الآخرة: [الزمر: 5].

3 - التأكيد على خلق البشر كلهم من نفس واحدة هي نفس أبينا آدم عليه السلام التي خلق منها زوجها (أمنا حواء عليها السلام): [الزمر: 6].

4 - ذكر إنزال ثمانية أزواج من الأنعام، أو من النعم، والإنزال هنا قد يشير إلى إنزال الشيفرة الوراثية الخاصة بكل منها أو الأمر الإلٰهي بخلقها: [الزمر: 6].

5 - الإشارة إلى خلق جنين الإنسان على مراحل، خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث: [الزمر: 6].

6 - التأكيد على عدم مساواة الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الذين يتدبَّرون ويفهمون ويتذكَّرون هم أولو الألباب والنهى: [الزمر: 6].

7 - الإشارة إلى أن أصل الماء تحت سطح الأرض هو ماء المطر الذي يسلكه ربنا - تبارك وتعالى - ينابيع في الأرض، ثم يُخْرج به زروعاً مختلفة الأنواع والألوان، ثم بعد النضج ييبس الزرع ويجف بعد نضَارته، ويصفر لونه، ثم يتحطم ويصبح فُتاتاً مُتكسِّراً، إشارة إلى دورة الحياة والموت في كل شيء: [الزمر: 6].

8 - الإشارة إلى مفارقة النفس للجسد في حالتي النوم والممات، ثم يُعاد إرسالها للنائم لحظة يقظته، وإمساكها عن جسد الميت لحظة وفاته: [الزمر: 42].

9 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه على كل شيء وكيل: [الزمر: 62].

10 - الإشارة إلى أن الأرض سوف تكون في قبضة الخالق سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأن السمٰوات سوف تكون مطويات بيمينه إشارة إلى أنه - تعالى - رب كل شيء ومليكه، وأنه صاحب الإرادة المطلقة في خلقه، وأنه سبحانه وتعالى فوق كل من المكان والزمان وجميع خلقه: [الزمر: 67].

11 - التأكيد على أن الأرض في الآخرة سوف تشرق بنور ربها كما أشرقت أرض الدنيا بنوره سبحانه وتعالى: [الزمر: 69].

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقاط الثالثة إلى الخامسة في القائمة السابقة والتي جاءت في الآية السادسة من سورة «الزمر»، ولكن قبل الشروع في ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية المباركة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6].

أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام، من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين.

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «.. وخلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ [النساء: 1]».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجاً عند اجتماعهما، فهي ثمانية في مجموعها... والتعبير بأنه

إنزال لها من عند الله يعبر عن تسخيرها للإنسان، فهذا التسخير منزل من عند الله. منزل من عليائه إلى عالم البشر ومأذون لهم فيه من عنده تعالى... ثم أضاف: وحين يتأمل الإنسان في نفسه، نفسه هذه التي لم يخلقها، والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصُّه الله عليه، وهي نفس واحدة، ذات طبيعة واحدة، وذات خصائص واحدة، خصائص تميِّزها عن بقيه الخلائق، كما أنها تجمع كل أفرادها في إطار تلك الخصائص. فالنفس الإنسانية واحدة في جميع الملايين المُنبثِّين في الأرض في جميع الأجيال وفي جميع البقاع.

وزوجها كذلك منها، فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية - رغم كل اختلاف في تفصيلات هذه الخصائص - مما يشي بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن البشري (الذكر والأنثى)، ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقّيها».

﴿... يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ...﴾

[الزمر: 6]

● ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما مختصره: «أي قدركم في بطون أمهاتكم (خلقاً من بعد خلق) يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، وقوله - جل وعلا -: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6] يعني ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن...»، كذا قال ابن عباس ومجاهد.

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «.. من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية. ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾: ظلمة الكيس الذي يغلِّف الجنين، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس، وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم...».

● وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيراً) ما نصه: «يخلقكم في بطون أمهاتكم طوراً من بعد طور في ظلمات ثلاث، هي ظلمة البطن، والرحم والمشيمة...».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «تنشأ البويضة في أحد مبيضي المرأة، حتى

إذا اكتمل نضجها انطلقت منه فيتلقفها أحد بوقي فالوب، ثم تمضي في قناة فالوب في طريقها إلى الرحم فلا تصله إلا بعد بضعة أيام قد يقدر لها في أثنائها أن يخصبها الحيوان المنوي من الرجل فتبدأ تواً مراحل تطورها المبكرة، وفي الرحم يمضي الجنين بقية مدة الحمل حيث يكوِّن لنفسه فيها غلافين: السلي (Chorion) ويسهم جزء منه في تكوين المشيمة. والرهل (Amnion) الذي يحيط بالجنين إحاطة مباشرة.

وقد اختلفت الآراء في تحديد الظلمات الثلاث في هذه الآية الكريمة فمن ذلك أنها:

(1) البطن، والرحم، والمشيمة (ويقصد بها ما يغلف الجنين بصفة عامة).

أو أنها هي:

(2) الرحم، والسلى، والرهل. أو أنها هي: (3) البطن، والظهر، والرحم. أو أنها هي: (4) المبيض، وقناة فالوب، والرحم. وأضافوا قولهم:

«والظاهر أن الرأي الأخير هو الأرجح لأنها ثلاث متفرقات في أماكن مختلفة. أما الآراء الأخرى فإنها تشير في الواقع إلى ظلمة واحدة في مكان واحد تحيط به طبقات متعددة. ولعل الخالق العظيم قد أشار في كتابه إلى هذه الحقيقة العلمية في زمن لم يكن الناس قد اكتشفوا فيه بويضة الثدييات ومسلكها ذاك في أجسام الإناث بعيداً عن العيون».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لرأي كل من الإمامين ابن كثير وسيد قطب - عليهما من الله الرحمات - ولا أرى حاجة إلى تكرار سرده هنا، وإن كنت أختلف مع تفسير خبراء المنتخب لأن الخلق يتم في داخل الرحم، والجنين محاط بأغشيته التي تحدث الظلمة الأولى، والأغشية محاطة بجدار الرحم الذي يحدث الظلمة الثانية، والرحم محاط بالبدن الذي يحدث الظلمة الثالثة. ومراحل الخلق المتتالية من النطفة الأمشاج إلى العلقة، فالمضغة، فالعظام، ثم اللحم، ثم النشأة الأخرى كل ذلك يتم في داخل الرحم، ومراحل النطف الذكرية والأنثوية السابقة على لحظة الإخصاب لا تدخل في هذه المراحل وإن اعتبرت مقدمات لها.

- وذكر بقية المفسرين كلاماً مشابهاً لا أرى حاجة إلى تكرار سرده.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

في قوله - تعالى -: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ...﴾.

في وقت ساد الاعتقاد بأن الجنين البشري يتخلق من دم الحيض وحده أو من ماء الرجل وحده نزل القرآن الكريم بالتأكيد على اشتراك خلايا التكاثر الذكرية والأنثوية في تكوين الجنين وذلك في العديد من الآيات نختار منها قول ربنا - تبارك وتعالى -:

1 - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا...﴾ [الحج: 5].

2 - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)﴾ [المؤمنون: 12-14].

3 - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [غافر: 67].

4 - ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)﴾ [النجم: 45،46].

5 - ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39)﴾ [القيامة: 36-39].

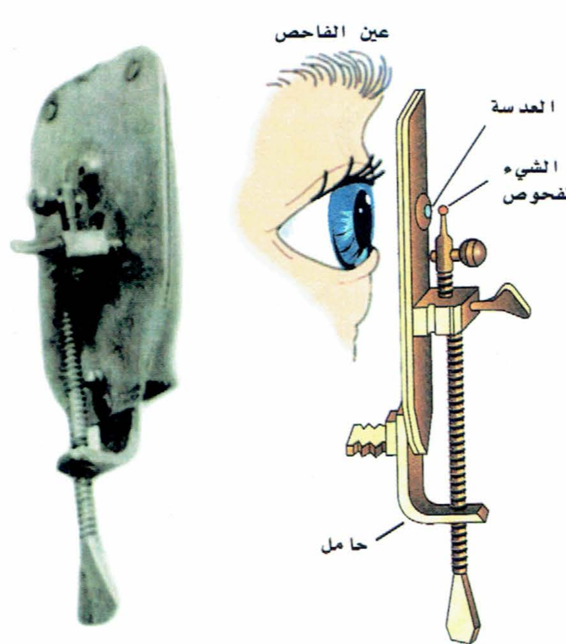
6 - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

7 - ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: 19].

وتنزَّل القرآن الكريم بهذا الحق المبين، وبهذا الوصف الدقيق، الكامل، الشامل لأطوار الجنين في الإنسان، وهي أطوار لا تتعدى في معظمها أجزاء من المليمتر إلى ميليمترات قليلة في الطول، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي زمن لم يكن متوافراً فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف مما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق.

وظل الناس - أغلب الناس - على تصوراتهم الخاطئة التي منها أن الجنين يتخلق من دم الحيض كتخلق ذاتي تلقائي سابق التشكيل للإنسان الكامل الهيئة الذي يبدأ في صورة مصغرة جداً لا تكاد تُرى، ثم يزداد في الحجم بمرور الوقت حتى يكتمل نمو الجنين. وظلت هذه التصورات المنطلقة من الخيال الجامح سائدة عند أغلب أهل الأرض إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي حين أمكن للهولندي «أنتون فان ليو فين هويك»

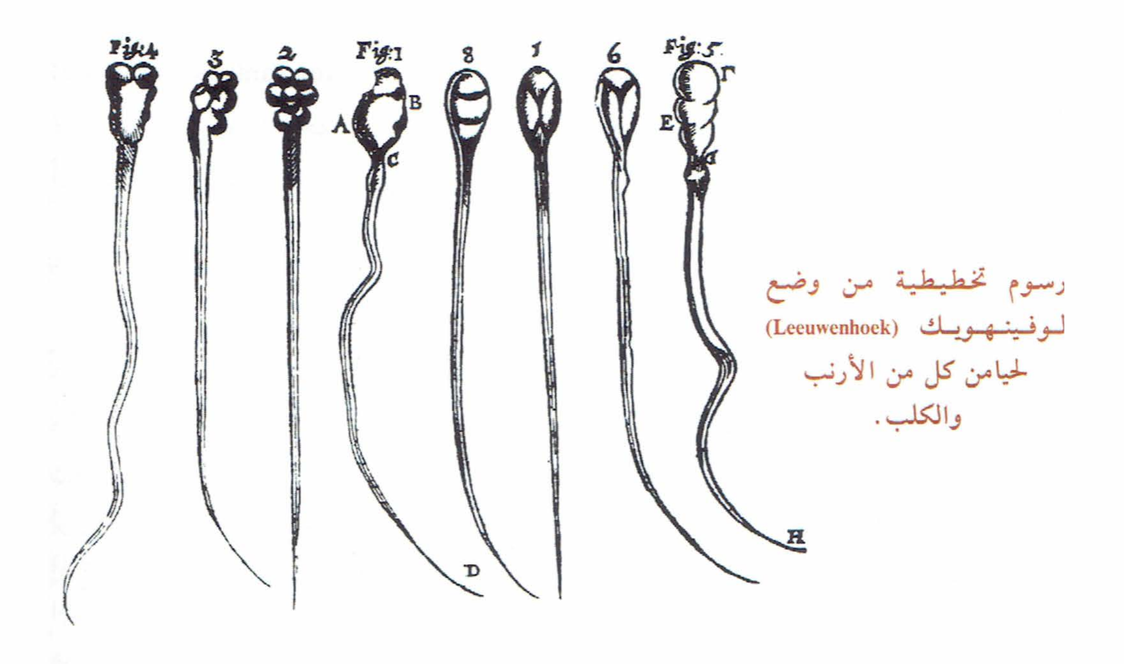
(Anton VanLeeu Wenhoek) وزميله «هام» (Hamm) من رؤية الحيمن (الحيوان المنوي) لأول مرة بواسطة المجهر وذلك في سنة (1677م) وبعد ذلك بقرنين من الزمان (أي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) تمت رؤية بييضة الثدييات لأول مرة.



شكل يوضح المجهر البدائي الذي استخدمه لوفينهويك في أواخر القرن السابع عشر الميلادي فاكتشف الحيمن، وبجوار صورة المجهر رسم تخطيطي يُوضح طريقة استخدام هذا المجهر، حيث كان الجسم يوضع أمام العدسة على الحامل القصير ويتم تعديل وضع الجسم أمام العدسة بواسطة اللولب.

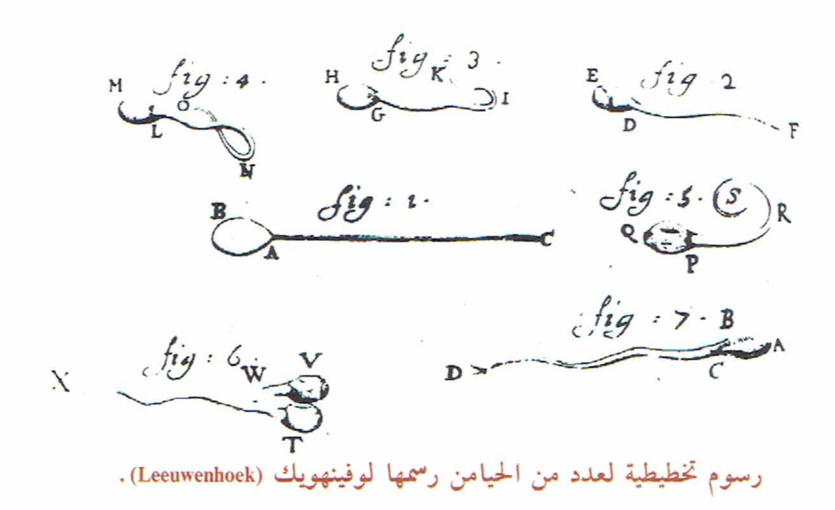
ومع تطور الأجهزة العلمية خلال القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين تطور علم الأجنة تطوراً مذهلاً، وكان في كل خطوة يخطوها يثبت صدق كل ما جاء في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من أن جنين الإنسان ينتج من اتحاد واندماج النطفتين الذكرية والأنثوية ليكوِّنا معاً النطفة الأمشاج (المختلطة) التي يُقدَّر فيها خلق الجنين بتقدير من الله - تعالى - وأن هذه النطفة الأمشاج تتخلق منها الأجنة في بطون الأمهات عبر عدد من الأطوار المتتالية التي عجز العلم المكتسب عن تسميتها، واكتفى بالتعبير عنها بعدد الأيام من أعمارها، وسماها القرآن الكريم بأسماء النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، فالعظام، فكسوة العظام باللحم، ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

في قوله - تعالى -: ﴿...خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ...﴾ [الزمر: 6].



رسوم تخطيطية من وضع لوفينهويك (Leeuwenhoek) لحيامن كل من الأرنب والكلب.

في الوقت الذي ساد غالبية الناس الاعتقاد الخاطئ بتخلُّق الإنسان تخلُّقاً ذاتياً تلقائياً سابق التشكيل، كامل الهيئة، في صورة مصغرة جداً لا تكاد ترى، ثم يزداد في الحجم بمرور الوقت حتى يكتمل نمو الجنين، جاء القرآن الكريم بإثبات الخلق على مراحل متتالية عبَّر عنها بقول ربنا - تبارك وتعالى - خلقاً من بعد خلق وفصل هذه المراحل في سبع مراحل متتالية أثبتتها الدراسات العلمية في العقود القليلة الماضية وسماها القرآن الكريم بأسمائها المحددة التالية:



رسوم تخطيطية لعدد من الحيامن رسمها لوفينهويك (Leeuwenhoek).

1 - **طور النطفة**: وهي في اللغة تعبير عن القليل من الماء الذي يعدل قطرة إلى بضع قطرات، واستخدمها القرآن الكريم للتعبير عن خلية التكاثر (**Gamete**) سواء كانت مذكرة (**Sperm**) أو مؤنثة (**Ovum**).



صورة حقيقية مكبرة للكيسة الأرومية (Blastocyst) في عمر ثمانية أيام
وتحتوي على حوالي مائتي خلية، ويبلغ طول قطرها حوالي (1) مليمتر (0,04) من البوصة.

2 - طور النطفة الأمشاج: وهي في اللغة: المختلطة، والنطفة مفرد، وأمشاج جمع مشيج، واستخدم الجمع للتعبير عن خلط أكثر من شيئين لأن الذي يختلط فيها ليس مجرد خليتي التكاثر الذكرية والأنثوية، ولكن ما بداخل كل واحدة منهما من مكونات وأهمها الشفرة الوراثية التي تشمل في الخلية العادية الواحدة من الخلايا البشرية 18,6 بليون جزيء كيميائي من القواعد النيتروچينية والسكر والفوسفات وتحمل نصف هذا العدد كل خلية من خلايا التكاثر.

يكتمل عدد كل من الصبغيات وما تحمله من جزيئات كيميائية تكتب الشيفرة الوراثية للجنين عبر التقدير الإلٰهي الذي يعبر عنه في لغة العلم باسم: برمجة المورثات أو البرمجة الجينية (**Genetic Programming**).

فبعد ساعات من إخصاب البييضة (وبها 23 صبغياً) بالحيوان المنوي (وبه نفس العدد) يكتمل عدد الصبغيات المحدد للنوع البشري (46 صبغياً في23 زوجاً)، وفي أثناء عملية الاختلاط تلك تتحدد الصفات التي يرثها الجنين من الأبوين وتعرف باسم الصفات السائدة (**Dominant Characters**) وهي التي سوف تظهر عليه بعد اكتمال نموه، كما تتنحى صفات أخرى تعرف باسم الصفات المستترة أو المتنحية (**Recessive Characters**) والتي قد تظهر في الأجيال التالية، وذلك لأن كل صفة من الصفات تورث مرتين، مرة من جانب الأب والأجداد من جهته، ومرة من جانب الأم والأجداد من جهتها، فتسود إحداهما وتتنحى الصفة الأخرى بتقدير من الله - تعالى -، وبذلك يتم تقدير صفات الجنين في مرحلة النطفة الأمشاج (**Zygote**) ولذلك قال - تعالى -:


﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

[عبس: 17-19].

وهذا التقدير يمتد عبر القرون ليتصل بالأجداد العلا إلى أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام. ومن المعجز حقاً أن يشير المصطفى ﷺ إلى تلك الحقيقة من قبل أن يُعرف شيء عن قوانين الوراثة بأكثر من اثني عشر قرناً، فقد أخرج كل من ابن جرير وابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً فقال له: «**ما ولد لك؟**» قال الرجل: يا رسول الله ما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية. قال ﷺ: «**فمن يشبه؟**» قال الرجل: يا رسول الله من عسى

أن يشبه؟ إما أباه وإما أمه. فقال الرسول (صلوات الله وسلامه عليه): «**مه.. لا تقولن هكذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم... أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى**: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾» [الانفطار: 8] **قال: أي شكَّلك**». وتعبير النطفة الأمشاج هو أول تعبير علمي دقيق عن تخلُّق الجنين باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، وهي حقيقة لم يعرفها العلم المكتسب إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (1775 م/ 1186هـ).

ويتضمن التقدير الذي يحدث عند عملية الإخصاب تحديد الجنس ذكراً كان أم أنثى وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45،46].

وبعد إتمام عملية التقدير تبدأ النطفة الأمشاج بالانقسام السريع إلى خلايا أصغر فأصغر حتى تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا الأرومية تعرف باسم التويتة (**Morula**). ثم تتمايز التويتة إلى طبقة خارجية وأخرى داخلية مكونة ما يعرف باسم الكيسة الأرومية (**Blastocyst**) التي تبدأ في الانغراس بجدار الرحم في اليوم السادس من تاريخ الإخصاب، وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الغرس أو الحرث (**Implantation**) وتستغرق أسبوعاً كاملاً إلى اليوم الرابع عشر حتى يتم انغراس الكيسة الأرومية في جدار الرحم فتنتقل من طور النطفة إلى طور العلقة.

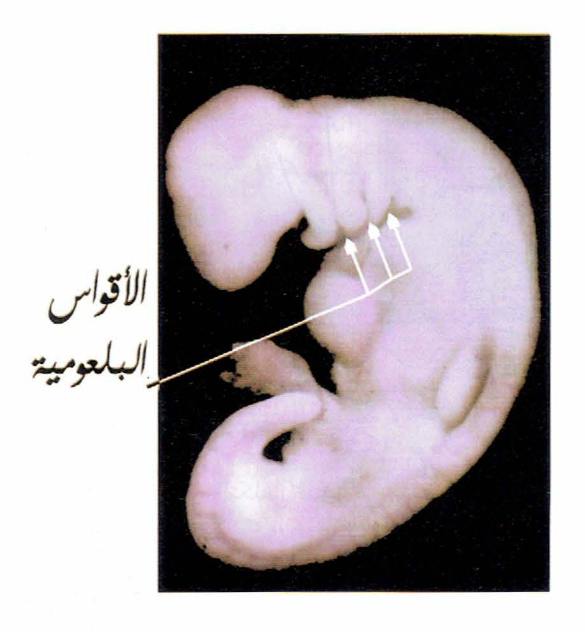
3 - **طور العلقة**: بمجرد إتمام تعليق الكيسة الأرومية بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري، يبدأ طور العلقة (من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين) وذلك باطراد النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكوين الأجهزة واستطالة الجنين ليأخذ شكل دودة العلق (**Leech**) في شكلها، وفي تعلقها بجدار الرحم (تماماً كما تتعلق الدودة بجسم العائل الذي تتطفل عليه)، وفي تغذيته على دم الأم (تماماً كما تتغذى دودة العلق على دم الحيوان الذي تتعلق به)، وعلى ذلك فإن التعبير القرآني عن هذه المرحلة (بالعلقة) يعتبر سبقاً علمياً معجزاً في زمن لم تتوفر أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف لطور يتراوح طوله بين 0,7 من المليمتر و3,5 ميليمتر.

4 - **طور المضغة**: ببدء ظهور عدد من فلقات الكتل البدنية (**Somites**) على جسم العلقة تبدأ بفلقة واحدة في منتصف الأسبوع الرابع من عمر الجنين وتنتهي إلى حوالي



(أ) صورة حقيقية للكيسة الأرومية تنغرس في بطانة الرحم بواسطة عدد من الخلايا القاضمة.
(ب) صورة للخلايا القاضمة تمتد من الكيسة الأرومية لتنغرس في بطانة الرحم.
(ج) رسم تخطيطي لانغراس الكيسة الأرومية في جدار الرحم.

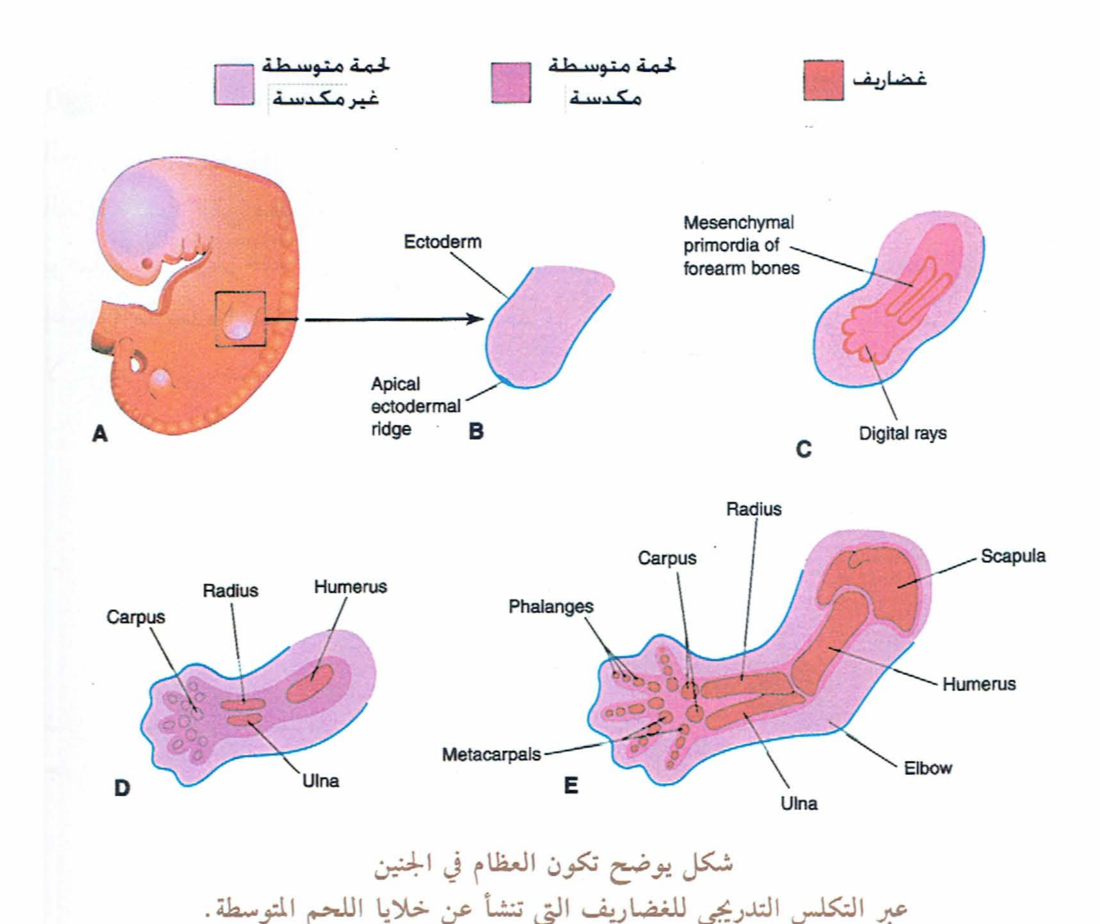
40-45 فلقة. في بدايات الأسبوع الخامس تنتقل (العلقة) إلى طور (المضغة) لأن الجنين يبدو فيها كأنه قطعة صغيرة من اللحم الممضوغ الذي بقيت عليه طبعات أسنان الماضغ كما تبقى مطبوعة على قطعة من العلك الممضوغ. ومن هنا كان السبق القرآني بوصف هذه المرحلة التي لا يتعدى طولها في نهاية عمرها (1 سم) باسم (المضغة) إعجازاً ما بعده إعجاز حيث لم يكن لأحد من الخلق إدراك لذلك في زمن الوحي، ولا لأكثر من اثني عشر قرناً من بعده.



شكل يوضح ظهور الأقواس البلعومية في جنين عمره 28 يوماً في طور المضغة.

5 - **طور العظام**: في خلال الأسبوع السابع من عمر الجنين يبدأ انتشار الهيكل العظمي في جسم الجنين، وذلك بالتكلس التدريجي للغضاريف التي تم تكونها في مرحلة المضغة حول عدد من المنابت العضوية، وبتكون العظام يبدأ الجنين (الذي يتراوح طوله بين14 و20مم) في اكتساب استقامة جذعه، وبروز أطراف أصابعه، وظهور حويصلات مخه. ووصف القرآن الكريم لتخلُّق العظام في مرحلة ما بعد المضغة سبق علمي معجز حيث لم يكن لأحد من الخلق إلمام بتلك الحقيقة قبل القرن العشرين.

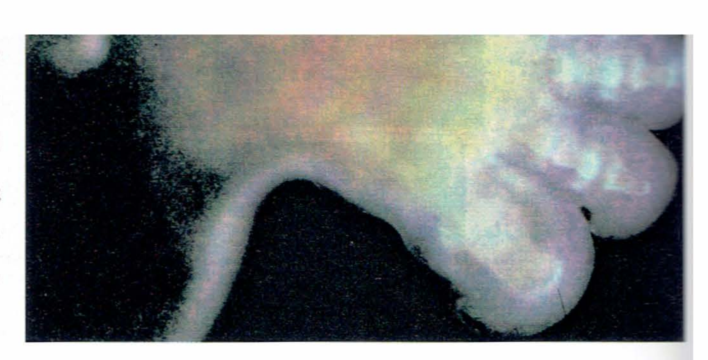
6 - **طور كسوة العظام باللحم**: في خلال الأسبوع الثامن من عمر الجنين تبدأ عملية



شكل يوضح تكون العظام في الجنين
عبر التكلس التدريجي للغضاريف التي تنشأ عن خلايا اللحم المتوسطة.

كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) ويكون طول الجنين في هذه المرحلة بين (22 مم و31 مم) وتنشأ خلايا العضلات عادة من الطبقة المتوسطة للمضغة، وتخرج من بين فلقاتها، ولذلك تنشأ مجزأة، وتنتقل بعيداً عن منطقة الفلقات الجسدية ثم تنمو وتتصل مع بعضها البعض مكونة أعداداً من الخيوط والألياف والأنابيب العضلية التي تنتظم بالتدريج في حزم مميزة تكسو العظام وتتصل بأغشيتها مكونة ما يعرف باسم النسيج العضلي للظهر والبطن والأطراف، ويزود كل قسم منها بفرع من العصب الشوكي، وسبق القرآن بذلك من الأمور المعجزة حقاً.

7 - **طور التنشئة**: بدءاً من الأسبوع التاسع من عمر الجنين إلى نهاية فترة الحمل تأخذ صفاته الجسدية في التمايز بتكامل خلق كل أعضاء وأجهزة الجسم التي تنشط للعمل مع بعضها البعض في تناسق عجيب.



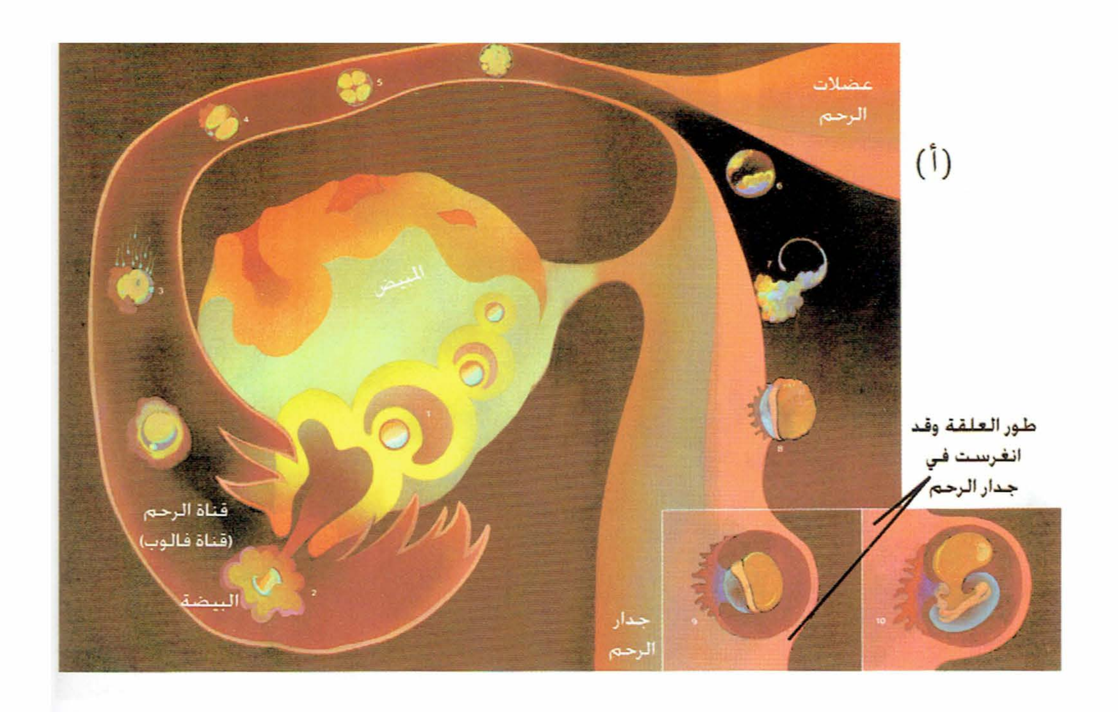
صورة حقيقية لأصابع اليدين والرِّجلين وقد ظهرت العظام الغضروفية فيها وبدأ اللحم يكسوها في الأسبوع الثامن من عمر الجنين البشري أي في نهاية مرحلة التسوية.

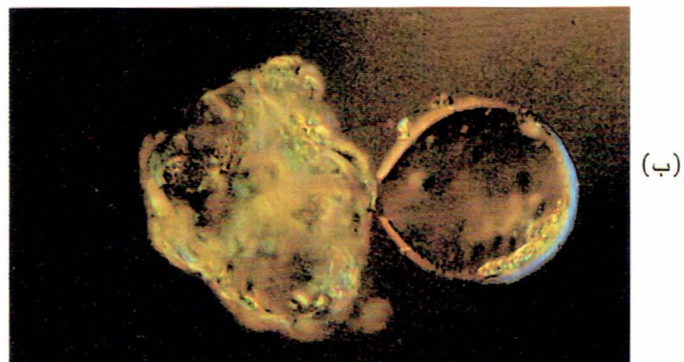
وفي هذه المرحلة يبدأ نمو الجنين ببطء حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، ثم تتسارع معدلات النمو في الحجم، والتغير في الشكل فتتحرك العينان إلى مقدمة الوجه، وتنتقل الأذنان من الرقبة إلى الرأس، ويستطيل الساقان بشكل ملحوظ، ويتراوح طول الجنين بين 33 مم و500 مم.

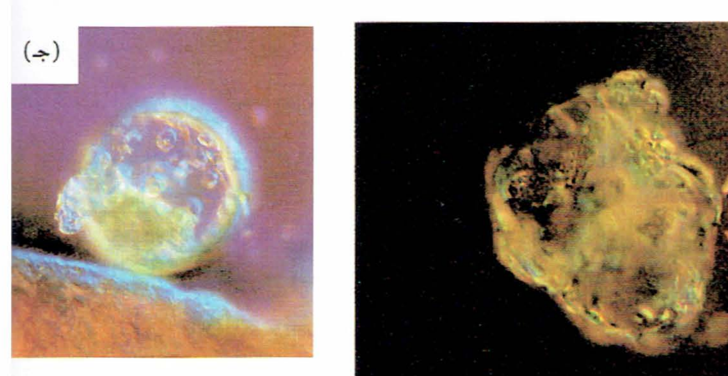
وهذه المراحل السبع المتتالية في خلق الجنين تؤكدها الدراسات الحديثة، ولا تميزها إلا بأيام العمر، مع عجزها عن إعطائها مسمياتها الدقيقة، وسبق القرآن الكريم بوصف هذه المراحل وترتيبها بهذه الدقة الفائقة في غيبة كل وسائل التكبير والتصوير والكشف، من قبل أربعة عشر قرناً مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة.

في قوله - تعالى -: ﴿... فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ...﴾ [الزمر: 6].

يحاط الجنين في داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما



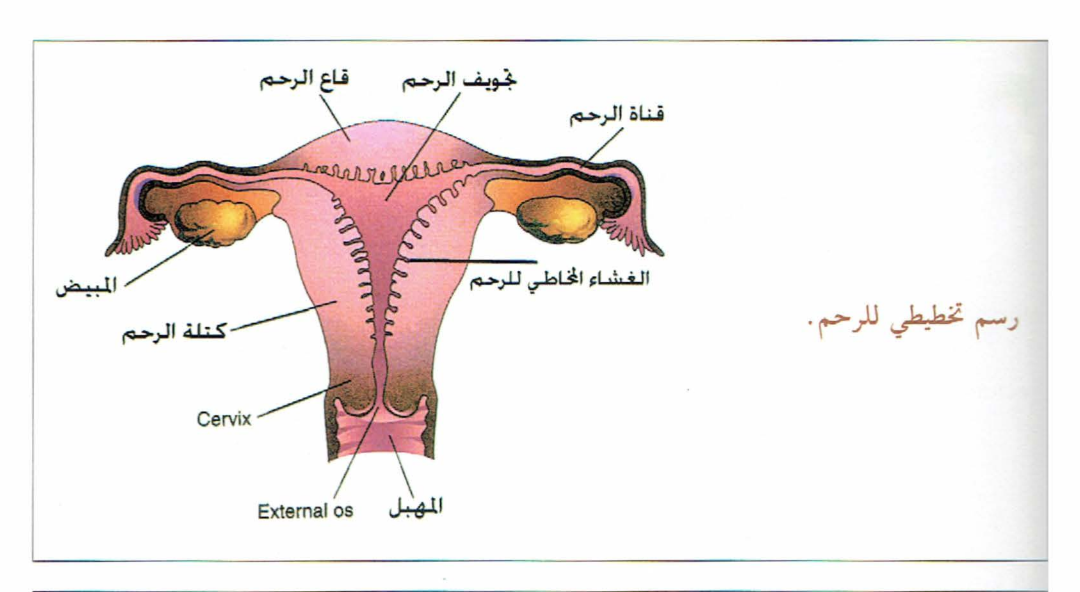




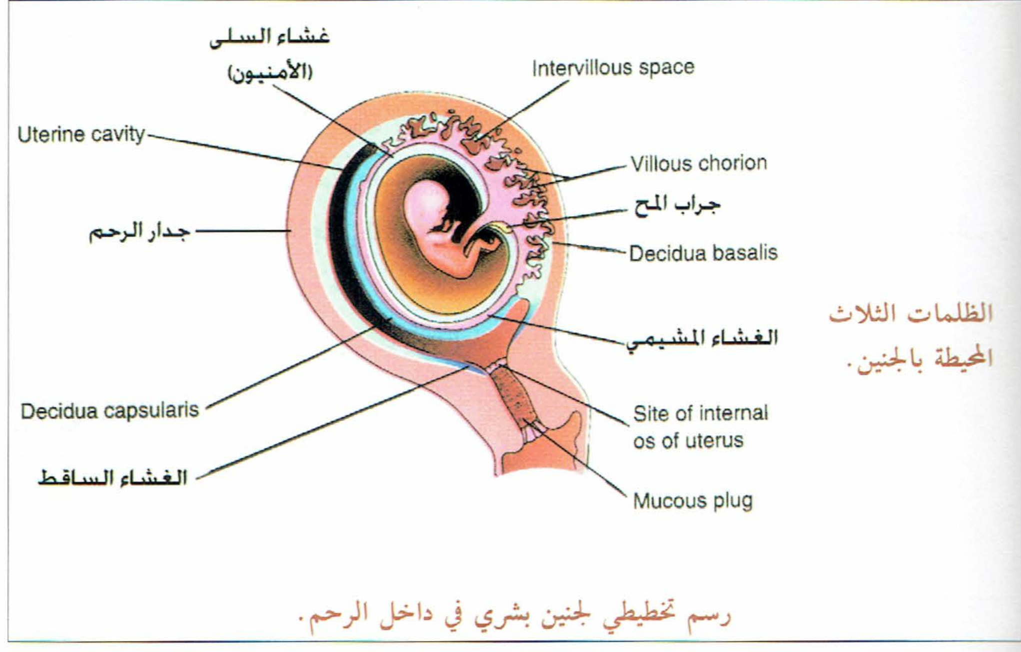
(أ) يوضح مراحل حركة البييضة من لحظة خروجها من المبيض ثم إخصابها في قناة الرحم (قناة فالوب) بواسطة الحيمن المقدر لها، وتكون النطفة المختلطة (الأمشاج) التي تنغرس في جدار الرحم ليبدأ الجنين في مراحل نموه المتتابعة حتى لحظة الميلاد.

(ب) البييضة تتخلى عن غشائها الشفاف بعد أن تهتدي إلى موضع مناسب لانغراسها في بطانة جدار الرحم.

(جـ) البييضة العارية تبدأ بعملية الانغراس في بطانة جدار الرحم..



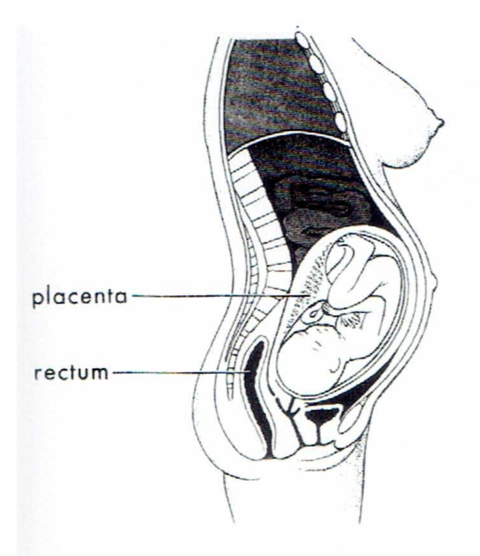
رسم تخطيطي للرحم.



الظلمات الثلاث المحيطة بالجنين.

رسم تخطيطي لجنين بشري في داخل الرحم.

يلي: غشاء السلي أو الرهل (**Amnion**)، والغشاء المشيمي (**Chorion**)، **والغشاء الساقط** (**Decidua**)، وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة فتجعله في ظلمة شاملة هي **الظلمة الأولى. ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم**، وهو جدار سميك يتكوَّن من ثلاث طبقات تحدث **الظلمة الثانية** حول الجنين وأغشيته.



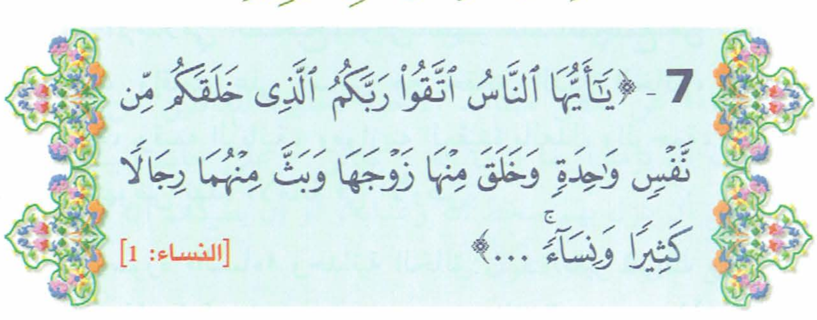
رسم تخطيطي يوضح الظلمات الثلاث التي تكتنف الجنين في بطن أمه.

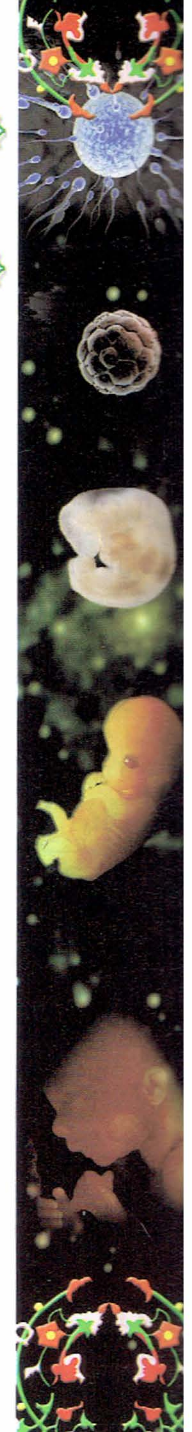
والرحم المحتوي على الجنين وأغشيته في ظلمتين متتاليتين يقع في وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كل من البطن والظهر. وكلاهما يحدث **الظلمة الثالثة** تصديقاً لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ...﴾ [الزمر: 6].

وما كان أحد من الخلق يعلم بهذه الظلمات الثلاث في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها مما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بهذا الحفظ إلى ما شاء الله - تعالى - حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذا النص القرآني الكريم جاء في مطلع سورة «النساء»، وهي سورة مدنية وعدد آياتها مائة وست وسبعون (176) بعد البسملة، وهي ثاني أطول سور القرآن الكريم بعد سورة «البقرة»، وقد سميت بهذا الاسم لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بالنساء.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضايا التشريع لكل من المرأة، والأسرة، والبيت، والمجتمع، والدولة بعلاقاتها الداخلية والخارجية. ومن أبرز هذه القضايا أحكام الميراث التي فصلتها السورة الكريمة تفصيلاً لا يقبل الزيادة.

ويأمر ربنا - تبارك وتعالى - في سورة «النساء» بالإحسان في كل شيء، وبالتراحم، والتكافل، والتسامح، والتناصح، وبالأمانة والعدل، وَبِرِّ الوالدين، وإكرام ذوي القربى واليتامى والمساكين، وبالجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، وبالتواصي على حماية المجتمعات الإنسانية من المظالم، والفواحش، والفتن، وحماية كل ضعيف في المجتمع من مثل الإناث واليتامى.

ونبَّهت سورة «النساء» إلى العديد من ركائز العقيدة الإسلامية، وحذرت من انصراف أهل الكتاب عما أُنزِل عليهم، وأشارت إلى تحريفهم لأديانهم وكتبهم ولتوجيهات أنبيائهم، وحذَّرت من أخطائهم وأخطاء حلفائهم من المنافقين.

ودعت السورة الكريمة إلى حسن تربية الفرد المسلم، وإلى المجاهدة من أجل إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح، وإلى تطهير هذا المجتمع من رواسب الجاهلية القديمة والجديدة، وإقامته على أساس من حقائق الدين الخاتم، ومن ضوابطه الأخلاقية والسلوكية، وقيمه الربانية، وموازينه المقيدة بالعدل والرحمة، وتكاليفه الشرعية اللازمة لحسن النهوض بهذه الأمانة في الأرض.

وتقرر سورة «النساء» وحدانية الخالق ﷻ (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، كما تؤكد وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، ووحدة الجنس البشري الذي ينتهي نسبه إلى أبوينا آدم وحواء - عليهما من الله السلام - واللذين خلقا خلقاً خاصاً على غير مثال سابق، ولذلك يرتبط كل الناس بوشيجة الرحم وهي وشيجة مقدسة عند رب العالمين، لا يتجاوزها إلا معتد أثيم، وعقابه من الله - تعالى - في الدنيا شديد وفي الآخرة أشد، ومن هنا تدعو سورة «النساء» إلى احترام هذه الوشيجة التي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى - في مطلع هذه السورة المباركة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وانطلاقاً من هذا الأمر الإلهي تؤكد السورة الكريمة ضرورة قيام المجتمع الإنساني على قاعدة الأسرة التي يحاول الغرب اليوم تدميرها، وعلى إحياء الضمير الإنساني الذي قتلته السلوكيات المادية الجائرة، والهابطة إلى ما دون الحيوانية العجماء.

وتدعو سورة «النساء» إلى ربط المخلوقين بخالقهم عن طريق الدين الصحيح الذي أنزله الله - تعالى - على فترة من الرسل، وأتمه، وأكمله، وحفظه في رسالته الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ، وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الناس: أفراداً وأسراً ومجتمعات بهذا الدين الخاتم الذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه.

ويأمر ربنا - تبارك وتعالى - في سورة «النساء» عباده المؤمنين بأن يخلصوا ولاءهم لقيادتهم المؤمنة، الخاضعة بالطاعة التامة لله ولرسوله، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله من أجل مقاومة الظلم والقهر والطغيان، ومن أجل إقامة عدل الله في الأرض، ووعد

بأعظم الأجر على ذلك، كما أمر بالهجرة في سبيل الله، وعدم الرضوخ لذل الجبابرة من الحُكَّام الجائرين، ووعد بالفتح في ذلك السبيل فتحاً مبيناً.

وتتحدث سورة «النساء» عن بعض مشاهد الآخرة تحذيراً للغافلين عن أهوالها. وتنادي على أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل الله - تعالى - على خاتم أنبيائه ورسله مُصَدِّقاً لما معهم، من قبل أن ينزل بهم سخط الله وعذابه، أو أن يطردهم الله - تعالى - من رحمته، وتُحذِّرهم من الشرك بالله فتقول:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116].

وعرضت سورة «النساء» لجانب من جوانب طغيان اليهود، وكفرهم بالله - تعالى -، وتحدِّيهم لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فتقول موجِّهة الخطاب إليه:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ

﴿ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

[النساء: 153–161].

وتخاطب السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ممتدحة القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166]. وتعاود التأكيد على ذلك بقوله - عز من قائل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174].

كما تمتدح خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وتتوعد الكافرين ببعثته الشريفة وذلك بقول ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 170].

وتدعو سورة النساء أهل الكتاب إلى عدم المغالاة في الدين فتقول:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: 171–173].

وتختتم سورة «النساء» باستكمال الضوابط الشرعية لقضية الميراث والتي بدأت بالآيتين (11، 12) وختمت بالآية رقم (176) من هذه السورة الكريمة.

من التشريعات الإسلامية في سورة «النساء»:

1 - ضرورة تقوى الله - تعالى - وعبادته بما أمر، ومداومة استغفاره والتوبة إليه، والأمر بطاعته ﷻ، وطاعة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وطاعة أولي الأمر من المسلمين

الصالحين، وضرورة الرجوع إلى حكم الله - تعالى - وحكم الرسول الخاتم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - عند الاختلاف في الرأي، وحتمية معاداة الشيطان والتحذير من اتخاذه ولياً لأن في ذلك الخسران المبين.

2 - الأمر بالمحافظة على المال العام والخاص، وعدم تسليمه للسفهاء، والمحافظة بشكل أدق على مال اليتيم، وعلى حقوق الضعفاء في المجتمع، وعلى أموال الآخرين وحقوقهم بصفة عامة، والتحذير من مَغَبَّة الاعتداء عليها.

3 - تأكيد حقوق الزوجات، والأمر بمعاشرتهن بالمعروف، وإعطائهن كافة حقوقهن، ومن حقوقهن المهر الذي هو عطية خالصة لهن، وليس لأحد الحق في شيء منه إلا أن يَطِبْنَ نفساً بالتنازل عنه أو عن شيء منه، ومن حقوقهن أن لهن على الرجال حق الصون، والرعاية، والقيام بشؤونهن بما أعطى الله - تعالى - الرجال من صفات وقدرات، وبما كلفهم من تكاليف.

4 - تحديد المحرمات من «النساء»، ووضع الضوابط الصحيحة لاستقامة حياة الأسرة، والقوانين المنظمة لها، والنهي عن تمنّي المسلم أو المسلمة أن يكون في غير جنسه، لأن لكلٍّ دوراً ملائماً لفطرته، ولاستعداداته، لأن بالجنسين معاً يكتمل المجتمع وتستقيم أموره، وتكون استمرارية الجنس البشري إلى ما شاء الله - تعالى -. ولكل فرد نصيب مما اكتسب، وعليه أن يسأل الله العلي القدير من فضله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [النساء: 32].

5 - الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وإلى ذوي القربى واليتامى، وإلى الجار ذي القربى، والجار الجنب، وإلى الصاحب بالجنب، وابن السبيل، والأمر كذلك باحترام العهود والمواثيق، وبأداء الأمانات إلى أهلها، وبِرَدِّ التحية، والحُكْمِ بين الناس بالعدل وبالهجرة في سبيل الله كلما لزم الأمر.

6 - النهي عن الاختيال والفخر، وعن التباهي والكِبَر، وعن تزكية النفس، وعن افتراء الكذب على الله، وعن الجهر بالسوء في القول إلا من ظُلم، وعن البخل والدعوة إليه أو الأمر به، والنهي كذلك عن بذل المال رئاء الناس، وعن النفاق أو موالاة المنافقين أو المشركين أو الكافرين، وعن قبول الاستذلال أو الرضوخ له، وعن تعاطي المسكرات وعن الاقتراب من مواطن الفاحشة أو العمل على إشاعتها بين الناس.

7 - التقيد بأوامر الله - تعالى - في توزيع الميراث.

8 - تفصيل شروط الطهارة، وهي أوسع كثيراً من مجرد نظافة البدن.

9 - الأمر بتدبر آيات القرآن الكريم، والتفقه في الدين.

10 - التأكيد على الصلاة وعلى إقامتها في مواقيتها، وتشريع صلاة المسافر، وصلاة المقاتل (صلاة الحرب أو صلاة الخوف).

11 - النهي عن قتل المؤمن إلا خطأً، وتفصيل أحكام القتل الخطأ ودياته، والنهي كذلك عن التواجد في مجالس يُستهزأ فيها بآيات الله أو ينال من قدسيتها.

12 - الأمر بالقتال في سبيل الله دون خشية أولياء الشيطان، والإشادة بفضل المجاهدين على القاعدين لقول ربنا - تبارك وتعالى - وقوله الحق -:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76].

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «النساء»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، واليقين بأنه - تعالى شأنه - رقيب على عباده، حسيب عليهم، عادل بينهم، لا يظلم مثقال ذرة، وأنه - سبحانه - محيط بكل شيء، توّاب رحيم، عليم حكيم، غفور ودود، غنيٌّ حميد، قدير وكيل، سميع بصير، شاكر كريم، إلى غير ذلك مما وصف به ذاته العلية من الصفات التي تليق بجلاله.

2 - اليقين بأن الجنة حق وأن النار حق، وأنها إما جنة أبداً، أو نار أبداً.

3 - التسليم بأن الله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن هنا كان الخطاب المتكرر في هذه السورة الكريمة للذين أشركوا من أهل الكتاب تحذيراً لهم وتنبيهاً وتذكيراً لعلهم يستيقظون من غفلتهم.

4 - وجوب طاعة الله ﷻ وطاعة جميع أنبيائه ورسله، وعلى رأسهم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

5 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزَّل بالحق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والمحفوظ بحفظ الله - تعالى - في نفس لغته - اللغة العربية - إلى قيام الساعة.

6 - الإيمان بوحدة رسالة السماء لوحدانية مرسلها، وبالأخوة بين الأنبياء لوحدة المصدر الذي تلقوا الوحي عنه وهو الله - تعالى -، واليقين بصدق بعثة الرسول الخاتم ﷺ الذي تكاملت في رسالته كل الرسالات السابقة، ولذلك تعهَّد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها فحفظت لأنه ليس من بعده - صلوات الله وسلامه عليه - من نبي ولا رسول، وقد أوكل حفظ الرسالات السابقة لأصحابها فَضَيَّعوها، وربنا - تبارك وتعالى - من طلاقة عدله يقول: ﴿. . . وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

7 - التسليم بأن الموت حق على جميع العباد، وبأن متاع الدنيا قليل، وأن الآخرة خير لمن اتقى، وأن الشيطان للإنسان عدو مبين، وأن مخالفته ومعاداته طوق النجاة للصالحين من عباد الله، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والإيمان الجازم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141].

8 - التصديق بأن أهل الكتاب قد حَرَّفوا دينهم، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وتحولوا إلى طائفة من المنافقين والكافرين، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وأن حُكمَ الله في الكافرين أوضحته سورة «النساء» بقول ربنا - تبارك وتعالى -.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: 150،151].

9 - اليقين بأن الله - تعالى - قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة هي نفس أبينا آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها (أمّنا حواء عليها رضوان الله)، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، ومحاولة إنكار ذلك أو التطاول عليه بادعاء خلقه سابقة من البشر أو من غيره إنكار لطلاقة القدرة الإلٰهية التي لا تحدُّها حدود، وإنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وحكم ذلك معروف عند أهل العلم.

من الإشارات الكونية في سورة «النساء»:

1 - الإشارة إلى خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، خلقها الله - تعالى - من طين، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، والمكتشفات الحديثة في علوم الوراثة تدعم ذلك وتؤيده.

2 - الأمر بتقوى الله ﷻ في الأرحام لأنها مصانع الخلق، وصونها وحمايتها وتكريمها صون للإنسانية جمعاء ضد العبث المستهتر الذي تحاول الفلسفات الغربية المتهالكة فرضه على العالم بالقوة، وكل من علم الأَجِنَّة، وعلوم الأمراض تؤكد حكمة أمر الله في ذلك.

3 - العلوم المكتسبة في قمة من قممها اليوم تؤكد الحكمة من تشريع المحرمات من النساء حالة حالة.

4 - التلميح إلى ضآلة حجم الذرة بضرب المثل بها في الصغر.

5 - الإشارة إلى أن جلد الإنسان إذا أزيل بالاحتراق أو بغيره فإن الإنسان لا يشعر بالألم وهي حقيقة لم تدركها العلوم المكتسبة إلا مؤخراً.

6 - السبق بالإشارة إلى غواية الشيطان للإنسان بمحاولة تغيير خلق الله بما يعرف اليوم باسم العبث بالشيفرات الوراثية للإنسان تحت مسمى الهندسة الوراثية أو الاستنساخ [النساء: 118-120].

7 - الإشارة إلى عدد كبير من أنبياء الله السابقين وأممهم، والكشوف الأثرية تؤكِّد صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به في هذا الصدد.

8 - التأكيد على أن لله ﷻ ما في السمٰوات وما في الأرض.

9 - ذكر جوانب من قصص اليهود - قاتلهم الله - من مثل طلبهم رؤية الله جهرة وما أصابهم على أثره من الصعق، وعبادتهم العجل، ونقضهم مواثيقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وادعائهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم - وما قتلوه يقيناً -. وكل من التاريخ والكشوف الأثرية تؤكد صدق ما تم تحقيقه من هذه الوقائع.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأولى من القائمة السابقة والتي تشير إلى خلق الناس جميعاً من نفس واحدة هي نفس أبينا آدم عليه السلام، وأن الله - تعالى - خلق منها زوجها (أمنا حواء عليها السلام) وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ . . .﴾ [النساء: 1].

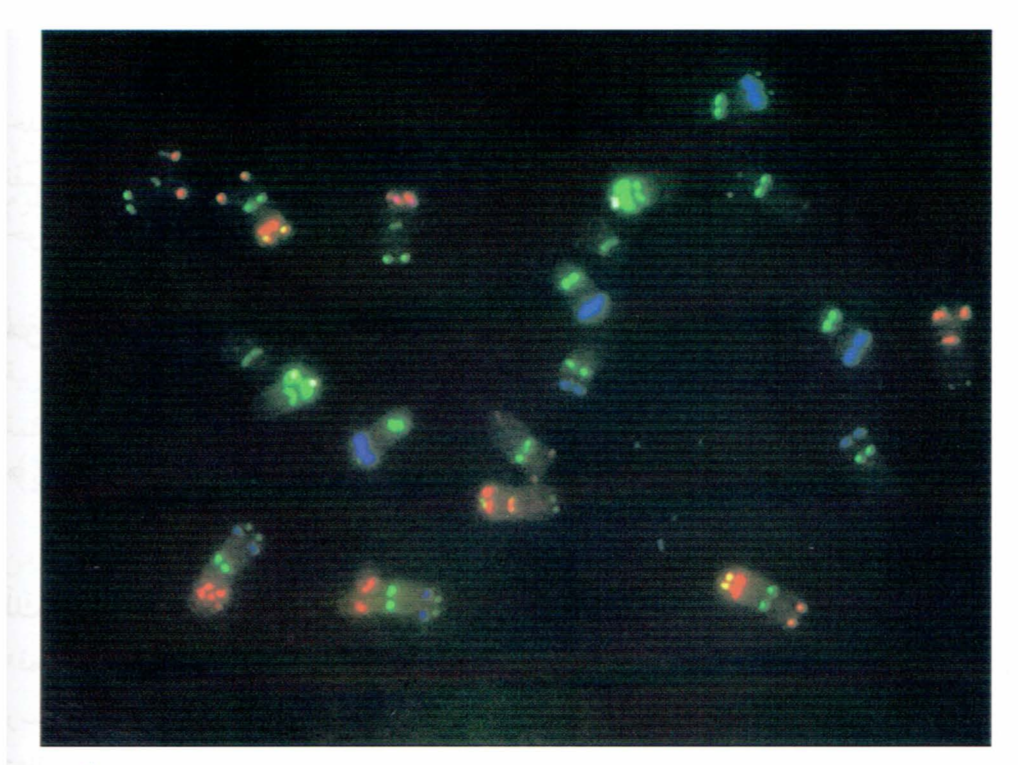
أخرج كل من ابن جرير وابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً فقال له: «**ما وُلِدَ لَكَ؟**» قال الرجل: يا رسول الله ما عسى أن يولد لي؟ إما غلاماً وإما جارية! قال ﷺ: «**فمن يشبه؟**» قال الرجل: يا رسول الله من عسى أن يشبه؟ إما أباه وإما أمه، فقال رسول الله ﷺ: «مه... **لا تقولنَّ هذا، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم.. أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى:** ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ قال: **أي شكَّلك؟**»(1).

هذه الحقيقة - حقيقة توارث الصفات إلى الأب الأول للإنسانية - لم تبدأ العلوم المكتسبة في إدراك شيء منها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كما أوضحنا ذلك سابقاً، حين وضع النمساوي جريجور مندل (**Gregor Mendel**) في سنة 1866م تصوُّراً بدائياً لقوانين الوراثة التي استخلص منها أن انتقال الصفات الوراثية من جيل إلى آخر يتم عبر عدد من العوامل المتناهية في ضآلة الحجم عرفت فيما بعد باسم **حاملات الوراثة أو الناسلات أو المورثات** (**Genes**). وافترض مندل أن كل صفة تُحدَّد بواسطة زوج من المورثات المتقابلة أحدهما مستمد من الأب، والآخر من الأم. وقد يكون هذان المورثان متماثلين أو غير متماثلين.

وبقيت هذه المورثات إلى أوائل القرن العشرين مجرد رموز غامضة تستخدم في

---

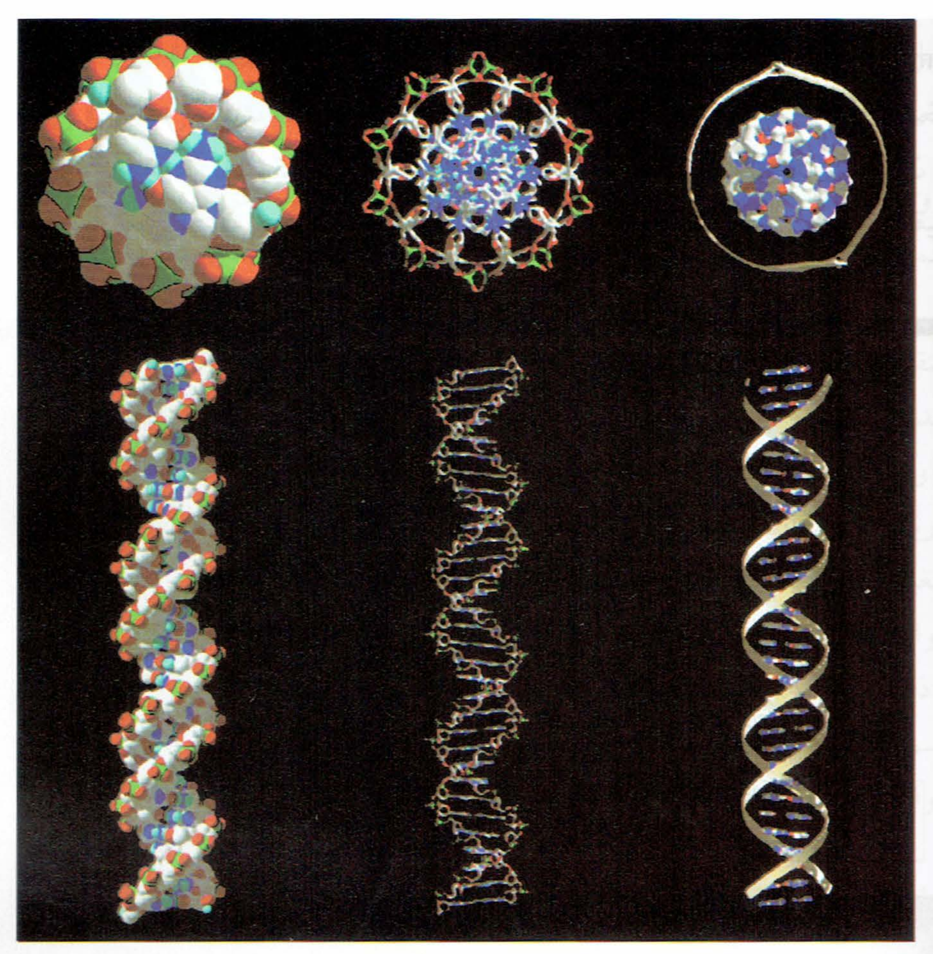
(1) أخرجه الطبراني في: «المعجم الكبير» (الحديث: 5/ 72)، وأخرجه «ابن كثير في تفسيره» (8/ 365).



صورة للصبغيات في خلية بشرية توضح عدد الصبغيات (46) في ثلاثة وعشرين (23) زوجاً منها زوج واحد للتكاثر والباقي للنمو، وزوج التكاثر أحدها (Y) الذكري وهو الأقصر واللامع، والآخر (X) وهو الأطول والأكبر حجماً ولكنه لا يحمل أي قدر من اللمعان.

محاولات تفسير عمليات التنوع في الخلق حتى استطاع الأمريكي توماس هنت مورجان (Thomas Hunt Morgan) في سنة 1912م إثبات أن المورثات لها وجود فعلي على جسيمات خيطية دقيقة متناهية في ضآلة الحجم توجد بداخل نواة الخلية الحية وتعرف باسم **الجسيمات الصبغية أو الصبغيات** (Chromosomes) لقدرتها الفائقة على اكتساب الصبغة التي تُضاف إلى الخلية الحية والتلوُّن بها.

ومن خلال دراسته للصبغيات في خلايا جسم الإنسان تعرَّف (مورجان) على **الصبغي المختص بالتكاثر** (Reproduction Chromosome)، واقترح فكرة التخطيط الوراثي للكائنات الحية بمعنى رسم خرائط تفصيلية للصبغيات ولما تحمله من المورثات، وقد ثبت بالدراسة أنه من الممكن لأزواج مختلفة من المورثات المتقابلة على الصبغي الواحد أن تحدد نفس الصفة وبذلك تعطي أنماطاً وراثية وشكلية عديدة، وقد تكون السيادة

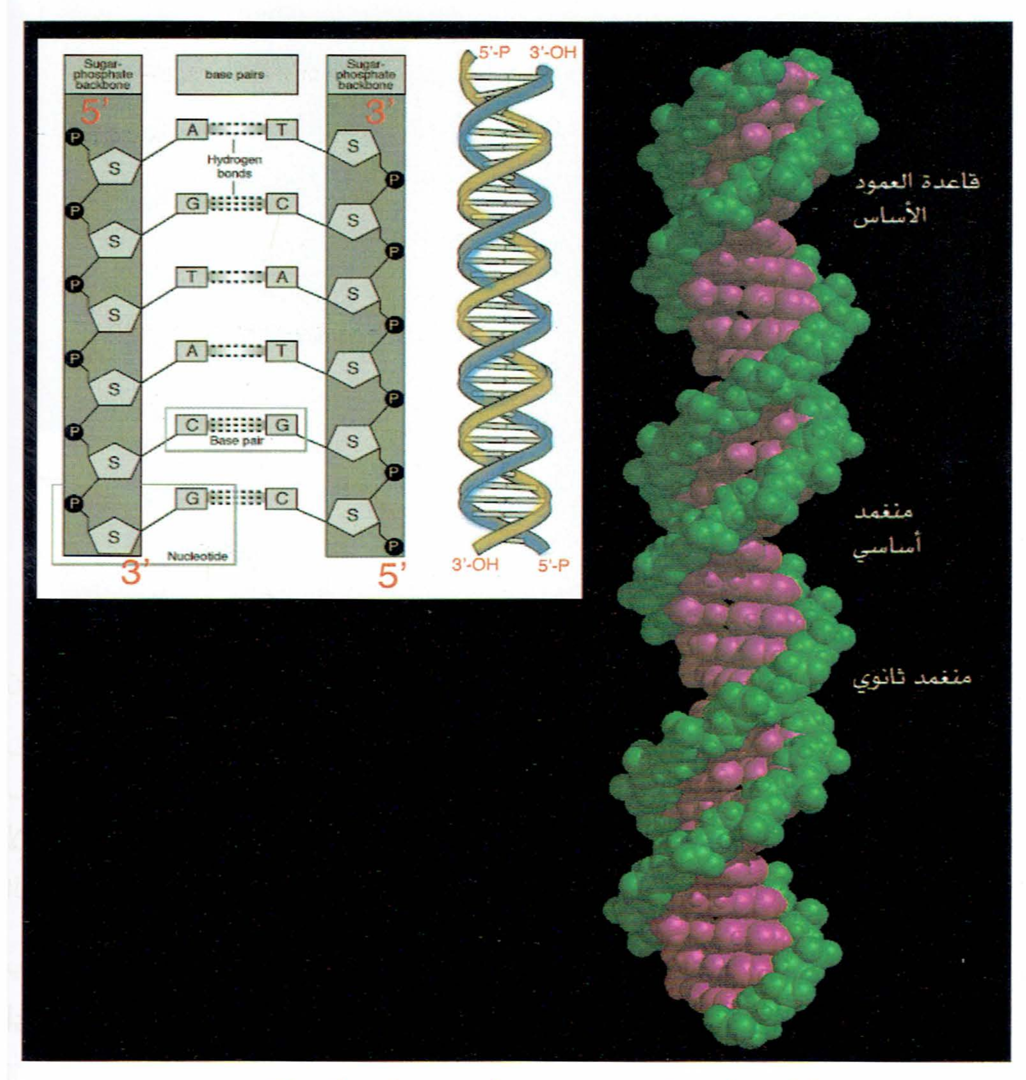


رسوم تخطيطية لتركيب جزيء الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (D.N.A)
الذي تكتب به الشيفرة الوراثية على الصبغيات.

لأكثر من مورث واحد، كما قد تتفاعل عدة مورثات لإنتاج أنماط شكلية متعددة تتدرج الصفات فيها تدرُّجاً كَمّياً لكل صفة.

وقد ثبت أيضاً بدراسات الوراثة أن عدد الصبغيات محدَّد للنوع بمعنى أن لكل نوع من أنواع الحياة عدداً محدداً من هذه الصبغيات يميِّزه عن غيره من المخلوقات، فالخلايا العادية بجسم الإنسان تمتاز بثلاثة وعشرين زوجاً من الصبغيات، 22 منها جسدية وزوج واحد تكاثري. والحُيُود عن هذا العدد المحدَّد للصبغيات يسبب اختلالات جسدية متفاوتة قد تصل إلى الموت أو إلى العديد من الأمراض والتشوُّهات الخِلْقية.

في سنة 1955م تمكن كل من الأمريكي جيمس واطسون (**James Watson**) والبريطاني فرانسيس كريك (**Francis Crick**) من التعرُّف على التركيب الجزيئي للحمض النووي الريبي منقوص الأوكسجين (**Deoxyribonucleic Acid or DNA**) الذي تتكوَّن منه الصبغيات، والذي تُكتب بمكوناته الشيفرة الوراثية، وهو مركب كيميائي شديد التعقيد،



رسم توضيحي لتركيب الصبغيات من عدد من النويدات التي تتكون كل نويدة منها من زوج من القواعد النيتروجينية يستند على جدار من زوجين من جزيئات السكر والفوسفور، زوج منهما في كل جهة تكون الجدارين.

وقابل للتكسر كيميائياً ليعطي حمض الفوسفوريك، وعدداً من السكريات والقواعد النيتروچينية.

ويتكوَّن كل صبغي من شريط مزدوج الجدار مكون من جزيئات السكر والفوسفور بسلميات فاصلة من الجزيئات النيتروجينية على هيئة السلم الخشبي، وهذا الشريط لافّ على ذاته على هيئة الحلزون المزدوج، والمركَّب من جزيء من الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين أي غير المؤكسد (Double Helix Molecule DNA) والمرتبط بأعداد من البروتينات. وتقاس أبعاد هذا الحلزون بالأجزاء من الميكرون (والميكرون يساوي جزءاً من ألف جزء من الميليمتر)، ولكن إذا تم فرده فإن طوله يصل إلى حوالي الأربعة سنتيمترات بمعنى أنه إذا تم فرد أشرطة الحمض النووي في الستة والأربعين صبغياً الموجودة في نواة خلية واحدة من الخلايا البانية لجسم الإنسان، وتم رصُّها بجوار بعضها البعض فإن طولها يبلغ حوالي المترين (4 سم× 46 صبغياً=1,84م). وإذا تم ذلك لمجموع الصبغيات الموجودة في ألف مليون مليون خلية في المتوسط توجد في جسم الفرد الواحد من البشر فإن طولها يزيد على المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي مائة وخمسين مليون كيلو متر أضعافاً كثيرة.

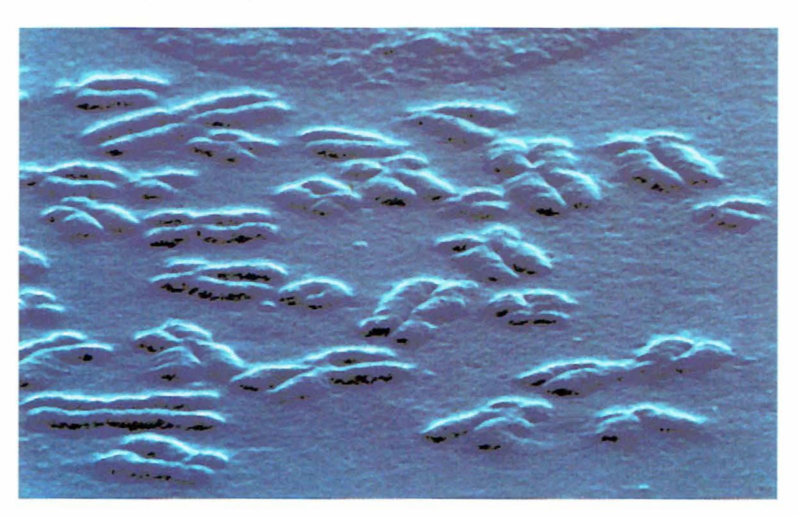
ويقسم كل صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية يحمل كل منها عدداً من المورثات. وتكتب هذه المورثات بعدد من الشفَيْرات (Codons) يتكوَّن كل منها من ثلاث نويدات (Nucleotides)، وتتكوَّن كل نويدة من زوج من القواعد النيتروچينية (A Pair of Nitrogenous Bases or Base Pairs) المرتبطة برباط وسطي دقيق، وتستند كل قاعدة نيتروچينية في جهتها الخارجية إلى جزيئين أحدهما من السكر والآخر من الفوسفات، في نظام مُحْكَم دقيق تكوّن فيه جزيئات السكر والفوسفات جدارين متقابلين تنتشر بينهما القواعد النيتروچينية على هيئة درجات السلم الخشبي في علاقات تبادلية منضبطة تحدد الصفات الوراثية للكائن الحي، وهذه القواعد النيتروچينية هي أربع قواعد فقط تكتب الشيفرة الوراثية بتبادلاتها لجميع بني آدم من البلايين التي عاشت وماتت، ومن البلايين التي تملأ جنبات الأرض اليوم، وممن سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة. ولكل فرد بصمته الوراثية المميِّزة، وصفاته الشخصية المحددة التي لا تتكرر في غيره؛ وعلى ذلك فكل إنسان في العالم فريد في صفاته الجسدية المنظورة وغير

المنظورة وفي صفاته الداخلية غير المنظورة من مثل صفاته الفيزيائية، والكيميائية، والعقلية، والنفسية، والصحية، وغير ذلك من الصفات.

وتعتبر النويدات هي الحروف التي تكتب بها كلمات الشفيرة الوراثية (**DNA Codon**)، وتعتبر الأخيرة هي الكلمات التي تكتب بها جمل الناسلات أو حاملات الوراثة (**Genes**) والتي أطلق عليها أخيراً اسم الوحدة الوظيفية الوراثية (**Cistron**).

وتشير دراسات علم الوراثة إلى أننا إذا عدنا بعملية الانقسام في الجسيمات الصبغية إلى الوراء مع الزمن، فإن الصبغيات في أجساد أكثر من ستة مليارات من البشر الذين يعمرون الأرض اليوم، وبلايين الصبغيات التي كانت في أجساد من عمروا الأرض من قبلنا، والتي ستبني أجساد من سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، كل ذلك كان متجمعاً في شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب رجل واحد هو أبونا آدم عليه السلام الذي خلقت منه زوجه أمنا حواء - عليها رضوان الله - وبث ربنا - تبارك وتعالى - من هذا الزوج البشري الأول باستمرار عملية التزاوج رجالاً كثيراً ونساء ولذلك قال - عز من قائل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ. . .﴾ [النساء: 1].

أما هذه النفس الواحدة التي لم يشهد خلقها أيٌّ من الناس فيصف ربنا - تبارك وتعالى - لنا خلقها على مراحل ﴿مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59، الكهف: 37، الحج: 5،



صورة لعدد من الصبغيات في أزواج.

الروم: 20، فاطر: 11، وغافر: 67]؛ و﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2، الأعراف: 12، السجدة: 7، ص: 71-76، الإسراء: 61]؛ و﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]؛ و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11]؛ و﴿مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾ [الحجر: 26، 28، 33]؛ و﴿مِن صَلۡصَٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14]؛ و﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: 61، طه: 55، النجم: 32، نوح: 17، 18].

وفي شرح ذلك قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»(1).

وهذه النصوص من القرآن الكريم والسنة المطهرة نصوص قطعية الثبوت، وقطعية الدلالة، وإنكارها إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وحكم ذلك معروف عند أهل الشرع.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾:

كان لا بد لهذين الزوجين الأولين اللذين أنجبا هذه البلايين من الأناسي أن يكون خلقهما خلقاً خاصاً بمعجزة تشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة في إبداعه للخلق، وكما كان خلق أبينا آدم من تراب أمراً معجزاً للغاية، فإن خلق أمنا حواء من ضلع أبينا آدم عليه السلام لا يقل إعجازاً عن ذلك، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإذا ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها، استمتعت بها وفيها عوج**»(2).

وفي التأكيد على حقيقة الأم الأولى للجنس البشري ذَكَر روي ليمون في كتابه المعنون «الأمم المندثرة» (**Lemon, Roy R. 1993: Vanished Worlds**) أن الدراسات الحديثة في علم الأحياء الجزيئي قد أثبتت أنه يمكن تتبع السلالات الإحيائية بواسطة الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين في بعض عضيات خلية البييضة المعروفة باسم

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (الحديث: 4693)، حديث حسن صحيح، وأخرجه كل من الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، والإمامين أبي داود والترمذي عن عوف الأعرابي. وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (الحديث: 2955).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء (الحديث: 3631).

المتقدرات (Mitochondria)، وهي عضيات غشائية التكوين، شديدة الضآلة في الحجم، عظيمة الفائدة، تسبح في سائل الخلية، وتقوم بتحويل غذاء الخلية إلى طاقة تحتاجها في نشاطاتها المختلفة، ومحتوى المتقدرات من الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين والمعروف باسم (The Mitochondrial DNA) لا يُوَرَّث إلا من الأم فقط، وبطريقة مباشرة حيث لا يدخل في عملية اختلاط مورثات الأبوين أثناء تكوُّن النطفة الأمشاج، وبذلك يمكن تتبُّع نسب جميع الإناث اللائي يملأن جنبات الأرض اليوم، واللائي جئن من قبلنا، واللائي سوف يأتين من بعدنا حتى قيام الساعة إلى أم واحدة هي أمنا حواء عليها السلام من خلال قطيرات الحمض النووي المتقدري الموجودة في خلاياهن.

وعلى الرغم من أن الله - تعالى - قد ترك لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان بحسه المحدود وقدرات عقله المحدودة على الوصول إلى تصوُّر ما عن عملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، إلا أن هذه التصورات إذا لم تأخذ ما جاء في كتاب الله الخالق سبحانه وتعالى وفي سنة رسوله ﷺ عن قضايا الخلق مأخذ الجد، ووظفته في تفسير الشواهد الحسية المتروكة لنا توظيفاً راشداً، فإن الإنسان يضع نفسه في نفق مظلم لا خروج له منه أبداً، وذلك لأن عملية الخلق لم يشهدها أيٌّ من البشر، وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصوُّر صحيح أبداً بدون الهداية الربانية المحفوظة في كتاب الله (القرآن الكريم) وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

وإرجاع الناس جميعاً إلى أب واحد هو آدم عليه السلام وأم واحدة هي حواء (عليها رضوان الله) من حقائق الخلق التي نادى بها القرآن الكريم ودعت إليها السنة النبوية المطهرة من قبل أربعة عشر قرناً، وأثبتتها علوم الوراثة أخيراً بما لا يرقى إليه شك.

وعبر القرنين الماضيين حاولت جماعات من الكفار والمشركين، والملاحدة الدهريين ومن فُتِن بهم - للأسف الشديد - من بعض أبناء المسلمين حاولوا تجاهل هذه الحقيقة القرآنية أو إنكارها والانتكاس بها إلى فرضية التطوُّر العضوي عبر تصوُّر خلق مرحلي بين أبينا آدم عليه السلام وما قبله من حيوانات، وهي فرضية قد تجاوزها العلم تماماً اليوم.

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾.

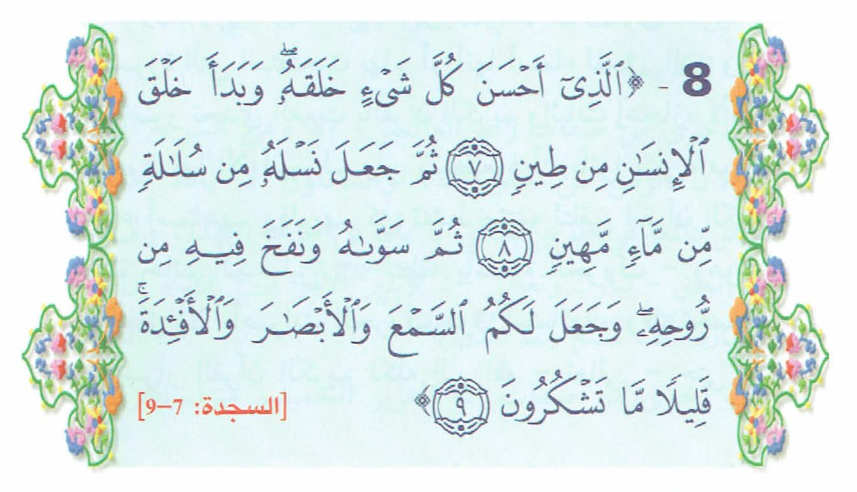
ويبقى تأكيد كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لحقيقة خلق آدم عليه السلام من

تراب، وخلق زوجه منه، والتأكيد على أن الله - تعالى - بث منهما رجالاً كثيراً ونساء وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة؛ يبقى سبقاً علمياً لم تتلمس العلوم المكتسبة طريقها إليه إلا في القرنين الميلاديين العشرين والحادي والعشرين. وهذا السبق العلمي يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق ﷻ الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد وتعهد بهذا الحفظ الكامل إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها تحقيقاً لوعده ﷻ الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - فقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وهذا السبق العلمي في كتاب الله يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



هذه الآيات الكريمة جاءت في نهاية الربع الأول من سورة «**السجدة**»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (30) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى سجود المؤمنين لله الخالق البارىء المصور، وتسبيحهم بحمده، وخضوعهم لجلاله بالطاعة والعبادة كلما ذكّروا بآياته المقروءة في محكم كتابه، أو المبثوثة في صفحات كونه، أو في خلق الإنسان وأطواره، أو في ما وصفه القرآن الكريم من مشاهد الآخرة وأهوالها. وبالسورة سجدة تلاوة بعد الآية الخامسة عشر منها.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول ركائز العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتوحيد هذا الخالق العظيم وتنزيهه - جل شأنه - عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والتصديق برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبمعجزته الكبرى وهي القرآن العظيم، الذي أوحاه الله - تعالى - إليه هداية للناس أجمعين، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه حفظاً مطلقاً حتى يكون حجة على الخلق كافة إلى يوم الدين.

وتبدأ السورة الكريمة بالحروف المقطعة الثلاثة ﴿الٓمٓ﴾ والتي

جاءت في مطلع ستٍّ من سور القرآن الكريم. والفواتح الهجائية افتتحت بها تسع وعشرون سورة قرآنية كريمة، وقد قيل فيها أنها رموز إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة متعلقة بالسورة التي استفتحت بها، أو أنها أسماء للسور التي وردت في أوائلها، أو أنها صورة من صور تحدي العرب بالقرآن الكريم وإثبات إعجازه لأنه لم يجاوز حروف لغتهم التي يتكلمون بها إلا أنهم لم ولن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثله، أو هي وسيلة من وسائل قرع أسماعهم وقلوبهم كي تنشط وتتنبه لتلقي القرآن الكريم، أو أنها شهادة على صدق نبوة خاتم المرسلين ﷺ لنطقه بأسماء الحروف - وهو الأمي - لأن الأمي لا يستطيع النطق إلا بأصوات الحروف دون أسمائها، وقد تجمع بين ذلك كله، أو تبقى سراً من أسرار القرآن الكريم نكله إلى الله - تعالى - حتى يفتح على أي من عباده بتفسيرها.

وبعد هذا الافتتاح للسورة الكريمة يأتي التأكيد القاطع على أن القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين بلا أدنى شك أو ريبة، ويأتي هذا الحكم الإلٰهي دفعاً لما ادعاه كفار قريش، وادعاه أو يدعيه كل كافر من بعدهم إلى يوم الدين بدعوى أن القرآن الكريم هو من صناعة سيدنا محمد ﷺ، وهو الذي شاء الله - تعالى - أن يجعله أمياً لا يقرأ ولا يكتب حتى يبطل هذه الحجة العاجزة في رفض الدين كما أنزله ربنا - جلت قدرته -، وأكمله، وأتمه، في آخر رسالاته لهداية خلقه أجمعين من لحظة الوحي به وحتى قيام الساعة. وترسيخاً لربانية القرآن الكريم يقول ربنا - وهو خير القائلين -:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

[السجدة: 1-3].

ثم تعرض الآيات لشيء من صفات رب العالمين الذي أنزل القرآن بالحق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ومنها أنه - تعالى - هو الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام (أي ست مراحل متتالية) ثم استوى على العرش (استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل). وتوجه الآيات الخطاب إلى مشركي قريش خاصة، وإلى الناس عامة بأن ليس لهم من دون الله من ولي ولا شفيع يتولى أمورهم في الدنيا أو يمنعهم من عذابه في الآخرة، أو يشفع لهم عنده إلا بإذنه، لأن الله - تعالى - هو الذي يرعى خلقه في الدنيا، ويحاسب عباده في الآخرة، ولذلك تضيف الآيات هذا السؤال التوبيخي: ﴿أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: 4]؟ أي: أفلا تتذكرون هذه الحقائق فتؤمنون بالله، وبملائكته، وكتبه ورسله، وبخاتمهم أجمعين، وبالكتاب الذي أوحي إلى هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ألا وهو القرآن الكريم؟

ثم تأتي الآيات بصفة أخرى من صفات رب العالمين، ألا وهي السرعة الفائقة التي يدبر بها أمور الكون، لأن الزمن من خلق الله، والمخلوق لا يحد خالقه أبداً، والمخلوق غير المكلف هو دائماً في طوع الخالق لا يألُ في طاعته جهداً، ولا يعصي له أمراً. . ، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5].

وتؤكد الآيات جوانب أخرى من صفات الله العزيز الحميد، منزل القرآن المجيد فتقول:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

[السجدة: 6-9].

وتندد الآيات بالمكذبين بالبعث والنشور الذين يرددون مقولتهم الساذجة: أئذا متنا وتحللت لحومنا وعظامنا إلى تراب اختلط بتراب الأرض حتى غاب فيه، ولم يتميز عنه، هل يمكن أن يعاد خلقنا من جديد؟ وهو استبعاد للبعث، واستهزاء بإمكانية وقوعه ولذلك ختمت الآية بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة: 10].

وترد عليهم الآيات بتأكيد حقيقة الموت والبعث فتقول (موجهة الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ):

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11].

وبعد ذلك تناولت الآيات جانباً مما سوف يكون فيه المجرمون يوم القيامة من الذل والهوان، والحسرة والندم فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

ويرد عليهم الحق - تبارك وتعالى - بقوله - عز من قائل -:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 13-14].

ثم تستعرض الآيات حال السعداء من المؤمنين بآيات الله فتقول:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: 15-19].

وبالمقابل تصف الآيات حال الفاسقين فتقول:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: 20-22].

والعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة.

ثم يأخذ سياق سورة «السجدة» جولة جديدة مع نبي الله موسى ورسالته إلى قومه، مشيرة إلى التوراة الأصلية التي أنزلها الله - تعالى - هداية لبني إسرائيل بعد أن كانوا قد ضلوا ضلالاً بعيداً، مؤكدة التقاء صاحب القرآن الكريم مع صاحب التوراة على الأصل الواحد، والعقيدة الثابتة التي تدعو إلى توحيد الله - تعالى - توحيداً مطلقاً فوق جميع خلقه، وتنزيهه عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ومؤكدة كذلك اصطفاء الصابرين الموقنين من عباد الله المؤمنين الصالحين في كل عصر ليكونوا أئمة لأقوامهم، ممكنين في الأرض، مع بيان الصفات

اللازمة لذلك ومنها التعرض بالدعوة لدين الله، واليقين بآياته، والصبر على تكاليف ذلك، وفي هذا المعنى يقول رب العزة والجلال مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة: 23-25].

وأما ارتداد بني إسرائيل عن دينهم، وتحريفهم لكتبهم، وقتلهم لأنبيائهم وللصالحين من عباد الله فهو تأكيد على كفرهم بالله ودافع شيطاني لتآمرهم على دينه وخلقه تماماً كما يفعلون اليوم على أرض فلسطين، والتاريخ يعيد نفسه وأمرهم في ذلك متروك إلى الله - تعالى - يحكم فيه يوم القيامة وهو أعدل الحاكمين.

ثم يأخذ السياق القرآني في سورة «السجدة» كلاً من الكفار والمشركين المكذبين بالبعث، أو بالدين الخاتم، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في جولة مع مصارع الغابرين فيقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26].

وتستشهد السورة المباركة على كمال قدرة الله على البعث بإعادة إنبات الأرض الجُرُزِ التي قطع نباتها بالرعي الجائر، أو جف ويبس واندثر لانقطاع الماء عنها، فإذا ساق الله - تعالى - إليها الماء فإنها تخضر بعد جفاف وقحولة وتزدهر بمختلف أنواع الحشائش والزروع والأشجار والثمار فيأكل الناس، وتأكل أنعامهم منها. وتتساءل الآية الكريمة هذا التساؤل التقريعي: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: 27] أي: أفلا يبصرون أن الذي يخرج النبتة من بين تراب الأرض قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم؟ والقرآن الكريم دوماً يشبه بعث الأموات من قبورهم بإنبات النبات من بذوره، ورسول الله ﷺ يقول: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب**»[1].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7341).

ويقول: «**ما بين النفختين أربعون... ثم يُنْزِل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

وتختتم سورة «السجدة» بتهديد من الله - تعالى - للكفار والمشركين، وبتوجيه لرسول الله ﷺ ولكل داعية إلى الإسلام العظيم من بعده أن يُعْرِض عن هؤلاء الجاهلين الذين هم من جهلهم وظلمهم لأنفسهم يستعجلون بالعذاب الذي يوعدون، ويستهجنون ثقة المسلمين بنصر الله، وبالفتح الذي وعدهم سبحانه وتعالى على الكفار والمشركين الذين كانوا يستعجلون هذا الفتح تكذيباً له واستهزاء به، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[السجدة: 28-30].

أي أعرض يا محمد عن الكفار والمشركين، وأعرضوا عنهم يا أتباع محمد إلى يوم الدين، ولا تبالوا بهم، وانتظروا ما سوف يحل بهم من عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة، فإنهم متربصون بكم، ومنتظرون ما يحل بكم من حوادث الزمان.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿... وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141].

ويقول: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

من ركائز العقيدة في سورة «السجدة»:

1 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو رب العالمين، رب هذا الكون ومليكه، خالقه، ومبدعه، ومدبر أمره (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبطلاقة قدرته التي لا حدود لها.

2 - اليقين بأن القرآن الكريم هو كتاب حق لا ريب فيه، أنزله رب العالمين على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هداية للناس أجمعين إلى يوم الدين.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ذكر البعث والصور (الحديث: 4743).

3 - التسليم بأن الله - تعالى - هو خالق السمٰوات والأرض وما بينهما، عالم الغيب والشهادة، العزيز الرحيم ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

4 - الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى جعل نسل الإنسان من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل السمع والأبصار والأفئدة نعماً من عنده على عباده تستوجب منهم الشكر للخالق العليم الحكيم ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9].

5 - اليقين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبالوحي الذي تلقاه للتبليغ عن رب العالمين.

6 - التسليم بأن المؤمنين والكافرين لا يستوون أبداً، وأن الصالحين والفاسقين لا يستوون أبداً، وأن الذين يعملون الصالحات والمفسدين في الأرض لا يستوون أبداً، وأن مقيمي عدل الله في الأرض والظالمين للخلق لا يستوون أبداً، ولذلك أخذ الحق - تبارك وتعالى - العهد على ذاته العلية بعقاب كل كافر ومشرك وفاسق ومفسد وظالم فقال - عز من قائل -: . . . ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: 13].

7 - اليقين بحقيقة البعث بعد الموت وبحتميته، وبضرورة الرجعة إلى الله - تعالى - ليُكافأ أهل الخير والصلاح بالخلود في الجنة أبداً، وليجازى أهل الكفر والشرك والضلال بالخلود في النار إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى.

من ركائز العبادة في سورة «السجدة»:

1 - ضرورة الشكر لله - تعالى - على كل حاسة وقدرة ونعمة وهبها للإنسان.

2 - السجود لله - تعالى - والتسبيح بحمده فور تذكير المسلم بآيات الله المقروءة في محكم كتابه أو المنظورة في الكون، أو في النفس الإنسانية ومراحل نموها، أو في مشاهد الآخرة التي أخبر القرآن الكريم عنها.

3 - تحاشي كلاً من الكبر في النفس، والاستكبار على الخلق لأن الله سبحانه وتعالى يبغضه.

4 - تجافي الجنوب عن المضاجع لأداء سنة قيام الليل، وللتوجه إلى الله - جل شأنه -

بالدعاء في جوف الليل خوفاً وطمعاً، وهذه الساعات (من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر) هي من ساعات الإجابة التي لا يرد فيها الدعاء.

5 - الحرص على الإنفاق مما رزق الله - تعالى - في سبيله ومن أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض.

6 - النهي عن الفسوق والعصيان، وعن الظلم والطغيان، وعن الإجرام والإفساد في الأرض، والاعتبار بهلاك العاصين من الأمم السابقة.

من الإشارات الكونية في سورة «السجدة»:

1 - الإشارة إلى خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام (أي ست مراحل متتالية) يحاول العلم المكتسب اليوم تفسيرها (السجدة: 4).

2 - الإيحاء بوسطية الأرض من السمٰوات، وهو ما لا يقوى علم الفلك اليوم على إدراكه.

3 - الإشارة إلى وجود سرعات كونية فائقة (تفوق سرعة الضوء) قبل أن يدرك الإنسان سرعة الضوء بقرون طويلة (السجدة: 5).

4 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7].

5 - إثبات أن الله سبحانه وتعالى قد جعل نسل الإنسان ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ [السجدة: 8، 9].

6 - الإشارة إلى أن الخالق العظيم قد جعل للناس من وسائل الحس والإدراك السمع والأبصار والأفئدة ليتمتعوا بها وباستخداماتها المختلفة في الدنيا، لعلهم أن يكونوا من الشاكرين. وتقديم السمع على الأبصار في هذه الآية الكريمة، وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم فيه إلماح إلى سبق تكوّن حاسة السمع لتكون حاسة الإبصار في مراحل تكون الجنين في الإنسان. [السجدة: 9].

7 - وصف الذات الإلٰهية بتعبير (رب العالمين) وهو تعبير يشمل عالمي الغيب والشهادة، وعالمي الدنيا والآخرة، وعالمي الإنس والجن، وغير ذلك من العوالم التي نجهلها.

8 - تشبيه بعث الموتى من قبورهم في يوم القيامة بإخراج النبات من الأرض في هذه السورة المباركة، وفي غيرها من سور القرآن الكريم، وقد بدأت البحوث العلمية في قضية عجب الذنب (وهو نهاية العصعص) بالإشارة إلى إمكانية ذلك [السجدة: 27].

9 - الدقة العلمية الشديدة في اختيار لفظ (الجُرُز) في قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ [السجدة: 27]. لأن (الجَرْز) في اللغة هو القطع، و(الأرض الجُرُز) هي التي قطع نباتها بالرعي الجائر أو الحش الجائر، أو التي يبس نباتها وجف واندثر لانقطاع الماء عنها، ولكن تبقى الأرض صالحة للزراعة بتربتها ومخزونها من بقايا الحياة النباتية والحيوانية المدفونة فيها، ولا يقال للأرض التي لا تنبت كالسباخ مثلاً (أرض جرز) لأن تربتها غير صالحة للإنبات أصلاً، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون قد نما فيها غطاء خضري ثم اجتث بالقطع، أو يبس واندثر بسبب الجفاف لندرة الماء الصالح للري.

وكل قضية من هذه القضايا التسع السابقة تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقاط من الرابعة إلى السادسة منها والتي جاء ذكرها في الآيات السابعة إلى التاسعة من سورة «السجدة»، ولكن قبل الوصول إلى ذلك لا بد من استجلاء آراء عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآيات الثلاث.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: 7-9].

- ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «يقول تعالى مخبراً أنه هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، قال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: أحسن خلق كل شيء... ثم لما ذكر - تعالى - خلق السمٰوات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال - تعالى -: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين...».

- وجاء في الظلال (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما مختصره: «... ومن

إحسانه في الخلق بدء خلق هذا الإنسان من طين. فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بداءة، وكان في المرحلة الأولى. ولم يحدد عدد الأطوار التي تلت مرحلة الطين ولا مداها ولا زمنها، فالباب فيها مفتوح لأي تحقيق صحيح...».

من الدلالات اللغوية للآيات الكريمة:

(**خلق**): الخلق هو التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، أي على غير مثال سابق، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

و(الخلق) أيضاً هو إيجاد شيء من شيء آخر، ويكون لله - تعالى - ولغيره من خلقه المكلفين، ويكون للماديات المحسوسة، كما يكون للمعنويات غير المدركة كخلق الكلام بمعنى الكذب والافتراء على الله - سبحانه - وعلى الناس ويسمى (الاختلاق).

ولفظة (**الخلق**) بفتح الخاء وضمها و(**الخليقة**) و(**الخلائق**) تستخدم في معنى (**المخلوقين**)، وكما خص (الخَلْق) بالهيئات والأشكال والصور المُدْرَكَة بالبصر، خص (**الخُلُق**) وجمعه (**الأخلاق**) بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، و(**الخَلاق**) النصيب أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه. ويقال: فلان (**خليق**) بكذا، أي: جدير به، كأنه (**مخلوق**) فيه ذلك، أو هو مجبول عليه بالفطرة، أو مدعو إليه من جهة الخلق، لأن (**الخليقة**) هي الفطرة التي فطر الله - تعالى - الخلق عليها.

و(النسل) هو الولد لكونه ناسلاً عن أبويه، و(التناسل) هو التوالد.

يقال: (نَسَلَ) (ينسل) (**نَسْلاً**) و(**نَسَلاناً**) أي: توالد توالداً لأن أصل النسل هو انفصال شيء عن شيء آخر، ولذلك يقال لما سقط من الشعر (**نِسَالة**)، ويستخدم هذا التعبير أيضاً لما ينحات من ريش الطيور ووبر الجمال وصوف الأغنام فيقال: (**أنسلت**) الإبل إذا حان وبرها أن ينزل.

ويأتي الفعل (**نسل**) (**ينسل**) (**نسلاناً**) بمعنى عدا وأسرع وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96]، وقوله - عز من قائل -: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51].

أما (**السلالة**) فهي ما (**استل**) من الشيء واستخرج منه بهدوء، بمعنى خلاصته. يقال: (**سَلَلْت**) هذا الشيء من ذاك أي: استخرجته منه (**فانسلَّ**) فأصبح (**سلالة**) منه، أو (**مسلولاً**) عنه.

أما (**الماء المهين**) فالمقصود به هنا هو **ماء التناسل** (**المني**) من كلٍّ من الرجل والمرأة. و(**المهين**) لغة هو المبتذل الذي لا يعتنى ولا يؤبه به، والحقير والضعيف، والقليل، ولعل المقصود هنا في وصف الماء (**المهين**) هو القلة، وإن كانت بقية المعاني لا تستثنى، لأنه يقال (**امتهنت**) الشيء أي: ابتذلته لحقارته، و(**الماهن**) هو الخادم الذي (**يمهن**) القوم (**مهنة**) أي: يخدمهم خدمة.

و(**الهوان**) على وجهين: أحدهما يشير إلى تذلل الإنسان في نفسه تواضعاً وخشية لله بما لا يلحق بالمرء من غضاضة فيمدح به، وذلك من قبيل قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، وقول نبينا ﷺ: «**حُرِّم على النار كل هَيِّنٍ لَيِّنٍ**»[1].

والثاني أن يكون (**الهوان**) أمام جهة متسلطة مستبدة مستخفة، فيذم هذا الموقف الذليل، ويذم صاحبه. كذلك يقال: (**هان**) الأمر أي: سهل وتيسّر.

من ضرورات تدبر قضايا الخلق والبعث:

من القضايا الغائبة عن علم الإنسان غيبة مطلقة قضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق السمٰوات والأرض، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وقد جاء الفعل (خلق) بمشتقاته في القرآن الكريم في اثنين وخمسين (52) موضعاً.

وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

ومن هذه القضايا الغيبية غيبة كاملة كذلك: قضايا الإفناء، والبعث، وفي ذلك يقول ربنا - جل شأنه -: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

ويقول - عز من قائل -: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: 51-53].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

ويقول ﷻ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: 41-44].

وقد جاء الفعل (**بعث**) بمشتقاته في سبعة وستين (67) موضعاً من القرآن الكريم منها (27) مرة بمعنى أرسل أو الإرسال والخروج، و(3) مرات بمعنى الإيقاظ من النوم، و(37) مرة بمعنى الإحياء من الموت.

كذلك جاء الفعل (**خرج**) بمشتقاته بمعنى البعث (11) مرة، وجاء الفعل (**ينسلون**) مرة واحدة بمعنى الخروج من القبور، وجاء الفعل (**نشر**) بمشتقاته (7) مرات بمعنى البعث.

وعلى الرغم من هذه الغيبة المطلقة لكلٍّ من قضايا الخلق والبعث، إلا أن الله - تعالى - يطالبنا في محكم كتابه بالنظر والتأمل والتفكر فيها فيقول - عز من قائل -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19-20].

والجمع بين هذه الآيات [الكهف: 51، النمل: 65، يس: 51، 53، ق: 41، 44، والعنكبوت: 19، 20]، وبين العديد من غيرها يوضح لنا أنه على الرغم من غيبة عمليات الخلق والبعث غيبة كاملة عن مشاهدة الإنسان، إلا أن الله - تعالى - قد أبقى لنا من الشواهد الحسية في أجسادنا وفي الأرض من تحت أقدامنا، وفي السماء من حولنا، ما يمكن أن يعين الإنسان بحسه المحدود وقدراته المحدودة على أن يصل إلى تصورات لها، ولكيفيات حدوثها، ولكن هذه التصورات لا يمكن أن تكون صحيحة إلا مع الإيمان الراسخ بأن الله ﷻ هو: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 102]، وأنه - تعالى - ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24]، وأنه - جل شأنه - هو ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: 86، يس: 81]؛ والوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظاً بحفظ الله في نفس لغة وحيه على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله هو «القرآن الكريم»، ومن هنا يستحيل فهم قضايا الخلق والإفناء والبعث بمعزل عن الإيمان بهذا الوحي السماوي الخاتم، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وبما جاء به من الدين الخاتم المهيمن على كل الرسالات والمتمم لها، وفي هذا الدين الخاتم تبيان كيفيات الخلق والإفناء والبعث بصورة كلية شاملة، وهي في نفس الوقت دقيقة وفاصلة.

ولكن إذا اقتصر الإنسان في نظرته إلى هذه القضايا على مشاهداته المادية وحدها دون إيمان بالخلق والخالق سبحانه وتعالى فإنه يتوه عن الحقيقة، ويضل ضلالاً بعيداً، ويدخل نفقاً مظلماً لا نهاية له كما حدث في طروح نظرية التطور العضوي، والتي حرصت على وضع الطبيعة مكان الله الخالق في كل شيء...!!

من الأخطاء الرئيسة في نظرية التطور العضوي

على الرغم من عدم كمال السجل المتوفر لبقايا الحياة القديمة في صخور الأرض (السجل الأحفوري) إلا أنه أثبت بجلاء أن أرضنا قد عمرتها موجات من الحياة التي بدأت قليلة في العدد وبسيطة في التركيب، ثم أخذت في التزايد في كل من العدد وتعقيد البناء عبر فترة تقدر بنحو الأربعة بلايين من السنين (3,8 بليون سنة) حتى وصلت إلى مستوى الحياة الأرضية الحالي، ولكن هذه الملاحظة الصحيحة استخدمت في ظل الحضارة المادية المعاصرة لنفي الخلق، وإنكار الخالق سبحانه وتعالى بناءً على عدد من الاستنتاجات الخاطئة التي منها ما يلي:

(1) الافتراض الخاطىء بعشوائية الخلق الأول:

يدعي هذا الافتراض أنه إذا كانت الحياة قد تدرجت زيادة في العدد وتعقيداً في البناء عبر هذه الفترة الزمنية الطويلة، فلا بد وأنها بدأت ذاتياً بمحض الصدفة من مواد غير حية دون تخطيط مسبق، بواسطة تفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض الذي أدى إلى تكوين عدد من الأحماض الأمينية التي تجمعت بمحض الصدفة، وارتبطت جزيئاتها وتشابكت تشابكاً صحيحاً بمحض الصدفة أيضاً لتكون عدداً من الجزيئات البروتينية العملاقة التي تجمعت فوق بعضها البعض بطريقة عشوائية كذلك لتبني جسد أول خلية حية، وبتواصل عمليات الانقسام المتتابعة استطاعت هذه الخلية الحية أن تعطي ملايين الأنواع المختلفة للحياة والتي مُثِّل كل نوع منها بأعداد لا تكاد أن تحصى من الأفراد. وهذا الافتراض الساذج ترفضه كل الملاحظات العلمية الدقيقة لأسباب كثيرة. ومن أبسط هذه الأسباب أن كلاً من الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية التي تنبني منها الخلايا الحية هي على قدر من التعقيد في البناء، ولها من الضوابط المحددة لكيفيات الترابط مع بعضها البعض ما ينفي إمكانية تكوّنها بمحض الصدفة. هذا بالإضافة إلى كون الخلية الحية المفردة تفوق في تعقيد بنائها كل ما استطاع الإنسان أن يبنيه من مصانع، فضلاً عن كل

ما فكر فيه دون أن يتمكن من إنشائه، مما ينفي كل أحلام العشوائية والصدفة في إنتاج جزيء واحد من جزيئات الأحماض الأمينية، أو جزيء بروتيني واحد، فضلاً عن خلية حية واحدة في طول عمر الكون وأضعافه.

(2) الافتراض الخاطىء بعشوائية التدرج في الخلق:

تفترض نظرية التطور العضوي أن عمليات الانقسام المتسلسل للخلية الحية الأولى كي تعطي هذا العدد الهائل من الخلق المتنوع تنوعاً مذهلًا قد تمت كذلك بمحض العشوائية والصدفة، والكشوف العلمية الحديثة تؤكد أن عمليات انقسام الخلية الحية لا تتم دون وجود أوامر داخلية من الشيفرة الوراثية في نواة الخلية، وهي بناء أكثر تعقيداً من جميع ما يمكن أن يتخيله عقل الإنسان من نظم، وإن كل نوع من أنواع الحياة له شيفرته الوراثية الخاصة به، والتي تحملها أعداد محددة من الصبغيات (حاملات الوراثة)، وعلى ذلك فلا يمكن أن تتم عمليات الانقسام والتكاثر بطريقة عفوية، وبالتالي لا يمكن أن تتم عملية إعمار الأرض بأنماط متدرجة من صور الحياة بطريقة عشوائية.

وينفي العشوائية والصدفة كذلك وجود العديد من حالات الاندثار المفاجىء لمجموعات الحياة الأرضية، والظهور المفاجئ لمجموعات أخرى دون أية مراحل متوسطة، وتنفيه كذلك الأدوار التي لعبتها مجموعات الحياة في كل مرحلة من مراحل تاريخ الأرض الطويل في تهيئة ظروفها البيئية لاستقبال المجموعات اللاحقة في شيء من التكامل الدقيق والمعجز حقاً، وذلك من مثل سبق الحياة المائية للحياة على اليابسة، وسبق الحياة النباتية للحياة الحيوانية بصفة عامة، وعلى اليابسة بصفة خاصة مما يؤكد التدبير والقصد في الخلق، وينفي أية إمكانية للعشوائية أو الصدفة.

(3) الادعاء الباطل بربط الإنسان بالحياة الحيوانية السابقة على وجوده:

تفترض نظرية التطور العضوي أنه إذا كانت الحياة قد وجدت بعملية ذاتية عشوائية بمحض الصدفة، وتطورت كذلك بنفس الأسلوب لتعطي ملايين الأنواع، وأعداداً لا تحصى من الأفراد لكل نوع، فما الذي يمنع الإنسان من أن يكون النهاية الحتمية لهذه العملية التطورية المحضة كما يدعون؟

وإذا انهار الافتراضان الأولان للنظرية انهار هذا الادعاء الباطل أيضاً، ويعين على

انهياره أن كلاً من الصفات التشريحية الخاصة بجسم الإنسان والتي أشرنا إليها في مقام سابق، والمميزات والملكات الضمنية والمعنوية المميزة التي خص الخالق ﷻ بها هذا المخلوق المكرم ومنها: الذكاء الملحوظ، والقدرات المتعددة على الإدراك، والشعور، والانفعال، والتعبير، والتعلم، والتعليم بمعنى القدرة على اكتساب المعارف والمهارات وعلى تعليمها للآخرين، والقدرة على النطق بالكلام المنطقي المرتب، وعلى غير ذلك من المهارات التي وهبها الله - تعالى - للإنسان. كذلك فإن الصفات الوراثية الخاصة والتسلسل الجيني للإنسان وكل منهما ينتهي بجميع أفراد الجنس البشري الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا وماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، تنتهي بكل هؤلاء إلى شيفرة وراثية واحدة استمدت من أب واحد هو أبونا آدم عليه السلام، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة:

أولاً: في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: 7].

ومن الحقائق العلمية في الآية الثامنة من سورة السجدة ما يلي:

1 - إن التناسل ضرورة لبقاء النوع:

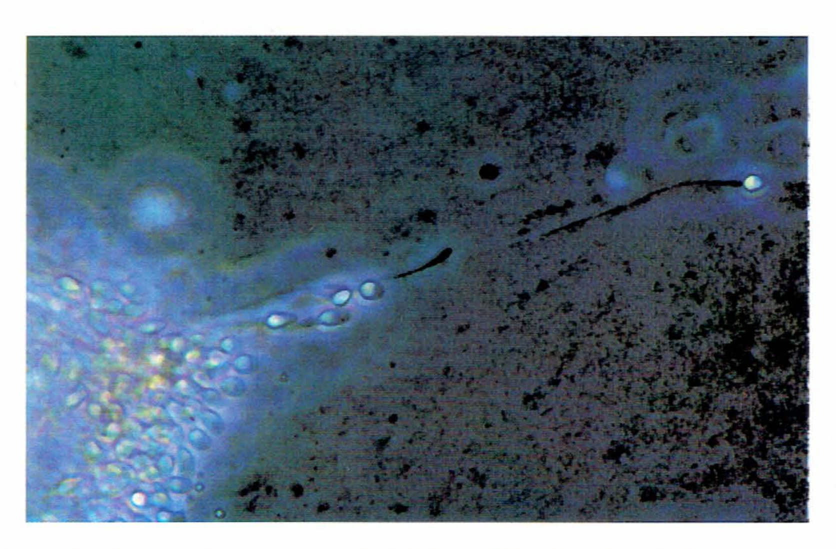
فالإنسان الذي بدأ الله - تعالى - خلقه من طين ووضع لنسله نظاماً يبدأ من سلالة من ماء مهين، فإن هذا الخلق ونظام النسل لممّا يشهد لله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والوحدانية. والنسل هو الولد، والسلالة هي الخلاصة أي ما استل من الشيء واستخرج منه بهدوء، والمقصود بالماء هو ماء التناسل (المني) من كل من الرجل والمرأة، والمهين هو القليل أو الضعيف الذي لا يؤبه به.

والتناسل سنة الله في الخلق من أجل بقاء النوع إلى أن يشاء الله - تعالى - ولذلك قال ربنا - تعالى شأنه - ما نصه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1].

وقال - تبارك اسمه -:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾ [الفرقان: 54].



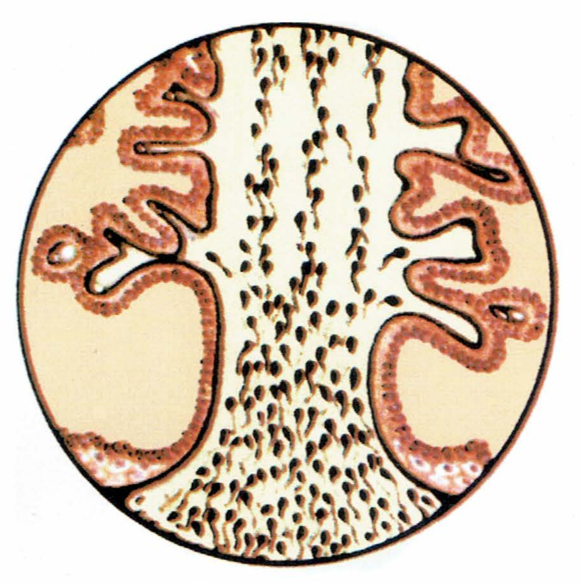
صورة حقيقية للخلايا التناسلية الذكرية (الحيامن) تزدحم عند المادة المخاطية (Mucus) المبطنة لعنق الرحم، والتي تيسر مرور الحيامن فيه.

وقال - عز من قائل -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

ولكي يتم التناسل والتنوع في الخلق شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تحتوي الخلايا التناسلية (كل من الحيمن والبييضة) على نصف عدد الصبغيات الموجودة في الخلية

الجسدية حتى يتكامل العدد بالتزاوج، فيأتي الأبناء والأحفاد على قدر من التشابه مع الوالدين اللذين ينتهي نسب كلٍّ منهما إلى آدم عليه السلام، وعلى قدر من الاختلاف والتباين عنهما، في ظاهرة تعرف باسم «**التنوع في الوحدة**» تجعل كل فرد من بني آدم متميزاً عن غيره في صفاته الجسدية والنفسية مهما تكن درجة القرابة بينه وبين هذا الغير. وعوامل الوراثة والاصطفاء تعمل في خفاء، ولذلك وصفها ربنا - تبارك وتعالى - بوصف (سلالة) أي: القليل الذي يستل من الكثير في صمت وخفية، والذي له من الصفات ما يجعله خلاصة، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:



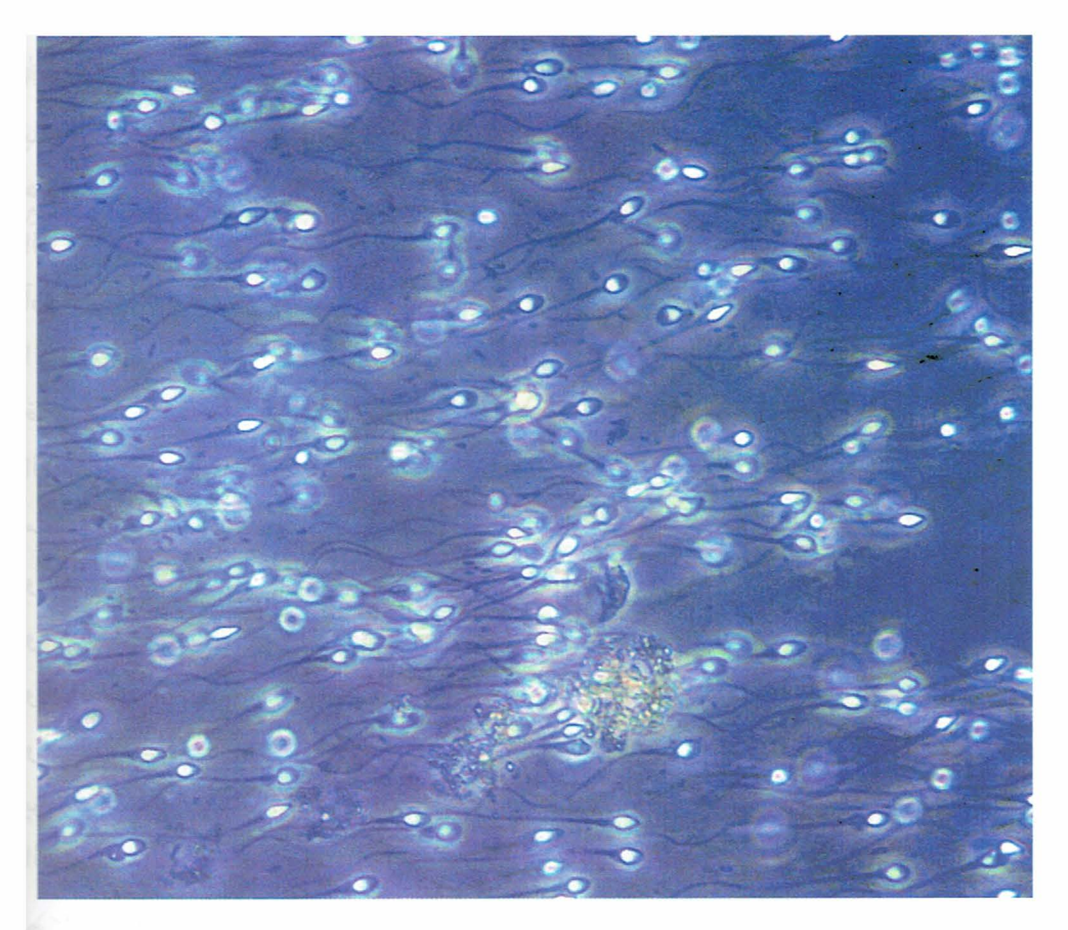
رسم تخطيطي يوضح ازدحام الخلايا التناسلية الذكرية (الحيامن) عند فوهة الرحم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

وقال - عز من قائل -:

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: 20-23].

2 - إن عملية التناسل تتم بواسطة خلاصة من ماء كلٍّ من الرجل والمرأة: فمن الثابت علمياً أن من بين مائتي مليون إلى ثلاثمائة مليون نطفة (حيمن) تنطلق في دفقة المني الواحدة من الزوج لا يصل إلى البييضة المنتظرة في الثلث الأخير من الرحم سوى خمسمائة فقط، ولا يفلح في إتمام عملية إخصاب البييضة سوى نطفة واحدة (حيمن واحد) قَدَّرت له الإرادة الإلٰهية النجاح في اختراق جدار البييضة السميك، فتلتقي نواتا



صورة حقيقية لدفقة من ماء الرجل (المني) وفيه تتحرك الحيامن بسرعات متفاوتة.

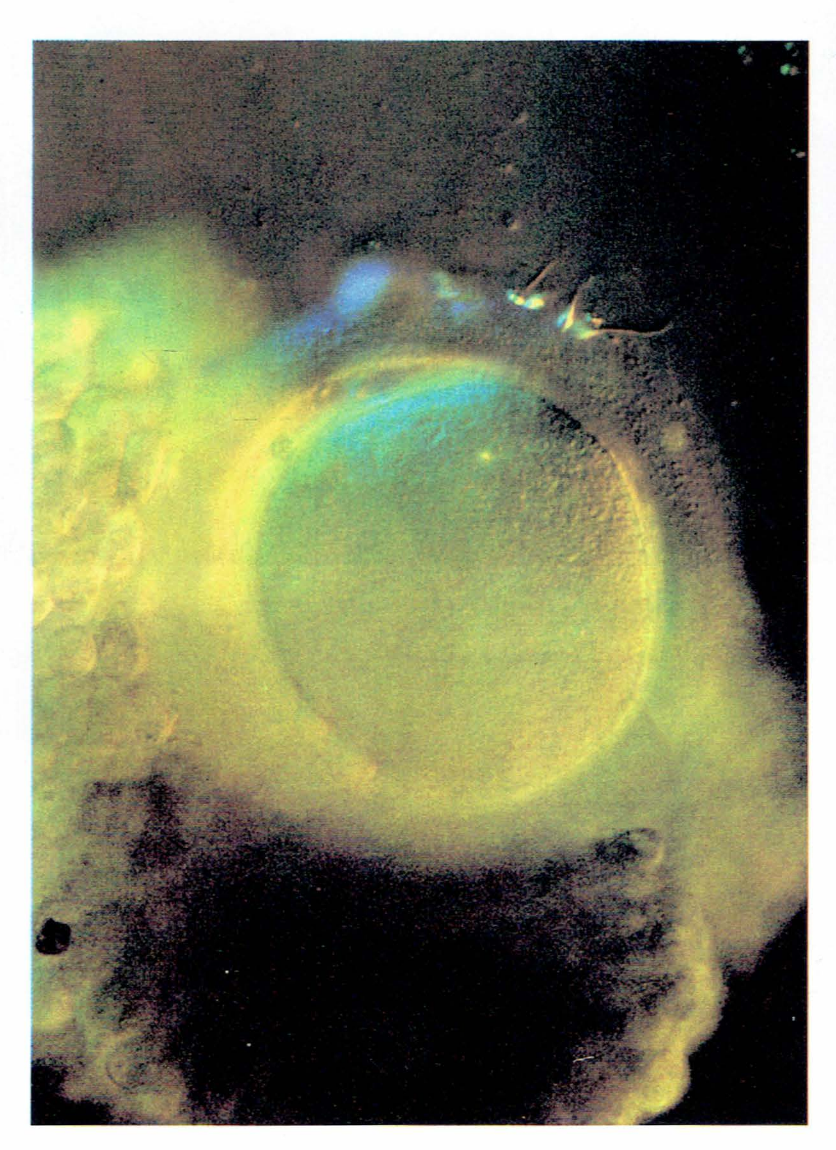
النطفتين لتكوين **النطفة الأمشاج (المختلطة)** التي يكتمل فيها عدد الصبغيات المحدد للنوع.

ولذلك قال - تعالى -:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

ولفظة نطفة مفردة، بينما لفظة أمشاج جاءت بصيغة الجمع لأنها عبارة عن خلية واحدة بداخلها أخلاط من الصفات الوراثية لأسلاف وأحفاد هذا الجنين من لدن أبينا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة.

وبمجرد إخصاب البييضة تبدأ في سلسلة من التغيرات السريعة أولها زيادة سمك جدارها أضعافاً عديدة حتى تحول دون دخول حيمن آخر مهما حاول، وخلع ما كان يزينها من تاج لامع، والبدء في عمليات الانقسام لتتحول إلى تجمع خلوي صغير يشبه ثمرة التوت الصغيرة (**التويتة**) التي ما تلبث أن تنغرس في جدار الرحم على هيئة **دودة**



صورة حقيقية للبييضة وسط الماء الذي يرافقها، ويحيط بها عدد من الخلايا المغذية، وأعداد من الحيامن، ويبدو بداخلها الجسم القطبي الأول على يسار الجانب العلوي من غشائها.



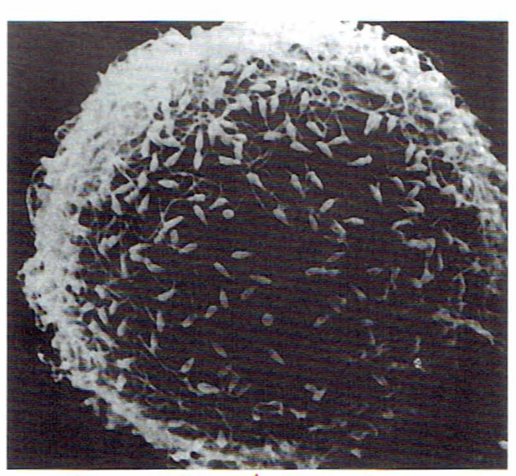
صورة حقيقية لاثنين من خلايا التكاثر الذكرية (الحيامن)
يحاول كل واحد منهما اختراق الغشاء الشفاف للبييضة الأنثوية من أجل إخصابها.

العلق فتتغذى على دم الأم حتى تصل العلقة إلى طور **المضغة**، ثم تخلق **العظام** ويتم كسوتها **لحماً**، ثم تُنْشَأ خَلْقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

أما إذا لم يحدث الإخصاب فإن البييضة سرعان ما تموت ويطردها الرحم مع دم الحيض، وتبدأ الغدة النخامية مرة أخرى في إرسال الهرمونات المنشطة للحويصلات في داخل أحد المبيضين، حتى تنمو حويصلة جديدة وبداخلها بييضة جديدة، لتلقى مصيرها إما بالإخصاب والعودة للانغراس في جدار الرحم أو الطرد في بحر من دم الحيض، **وفي هذه الدورة المعجزة جعل الله - تعالى - تناسل الإنسان من أجل بقاء نوعه إلى أن يشاء الله - تعالى -.**

وفي عملية الإخصاب يحتاج كل من الحيمن الفائز والبييضة إلى فترة من التمكين تستغرق عدة ساعات يحدث خلالها عدد من التغيرات المهمة التي تشمل انفصال القلنسوة التي تغطي رأس الحيمن عند تماسه بالطبقة الشفافة التي تحيط بالبييضة، كما تدور البييضة ومن حولها الحيامن سبع دورات بعكس اتجاه عقرب الساعة قبل أن تختار الإرادة الإلٰهية الحيمن المحدد لإخصاب البييضة بدقة فائقة **حتى لا تتكرر صفات فردين من أفراد البشر بالتمام مهما تكن صلات القربى بينهما حتى التوائم.**

وكما أن اختيار الحيمن الفائز لإتمام عملية الإخصاب يتم بدقة فائقة من بين مئات الملايين التي تنطلق في الدفقة الواحدة من ماء الرجل، فإن جسد المرأة يفرز بييضة واحدة في كل شهر من لحظة البلوغ إلى سن اليأس، وبذلك تتراوح فترة التناسل عند المرأة بين (30 – 40) سنة وعلى ذلك فإن مجموع ما يفرزه مبيضا المرأة لا يكاد يتجاوز أربعمائة بييضة على مدى عمرها التناسلي ولا يكاد يصل إلى مرحلة الإخصاب أكثر من بضع آحاد منها؛ بينما يحوي كل مبيض من مبيضي الأنثى على ستة بلايين بييضة أولية وهي لا تزال في بطن أمها، ثم يموت أغلب هذه البييضات قبل خروجها إلى الدنيا، ويستمر عدد البييضات في التناقص إلى حوالي ثلاثين ألفاً في سن المحيض، يهلك منه قبل الزواج آلاف كثيرة حتى لا يكاد يبقى أكثر من (300 – 400) بييضة على مدى عمر الأنثى التناسلي، ولا يحظى بالإخصاب فيها إلا آحاد قليلة.



صورة حقيقية بواسطة المجهر الإليكتروني الكاسح لإحدى البييضات (الخلية التكاثرية الأنثوية) وقد تجمعت على سطحها الحيامن (الخلايا التكاثرية الذكرية).

ويحسب أنه في مقابل كل بييضة يفرزها أحد مبيضي الزوجة فإن خصيتي الزوج تفرزان أكثر من بليون حيمن لأن أغلبها يهلك في طريقه إلى البييضة في رحلة تستغرق ما بين (6) ساعات و(24) ساعة، وليس هذا فقط بل لا بد أن يتزامن وصول الحيامن مع خروج البييضة من أحد المبيضين لأنها لا تعيش لأكثر من (24) ساعة، ولا تكاد فترة خصوبتها تتعدى نصف هذه المدة.



صورة حقيقية لداخل قناة فالوب توضح كيف يبطن جدارها الداخلي بالشجيرات التي تساعد البيضة على الاندفاع فيها حتى تتمكن من الوصول إلى الرحم والانغراس في بطانته الداخلية.

وهذا الانتخاب من كل من ماء الرجل وماء المرأة لخَّصته الآية الكريمة التي نحن بصددها في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

وفي قوله - سبحانه -:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

[الشورى: 49،50].

وفي ذلك أيضاً قال المصطفى ﷺ: **«ما من كل الماء يكون الولد.. وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء»**[1].

وهذه حقائق علمية لم تدرك إلا في القرن العشرين، وورودها في كتاب الله وفي سنة

---

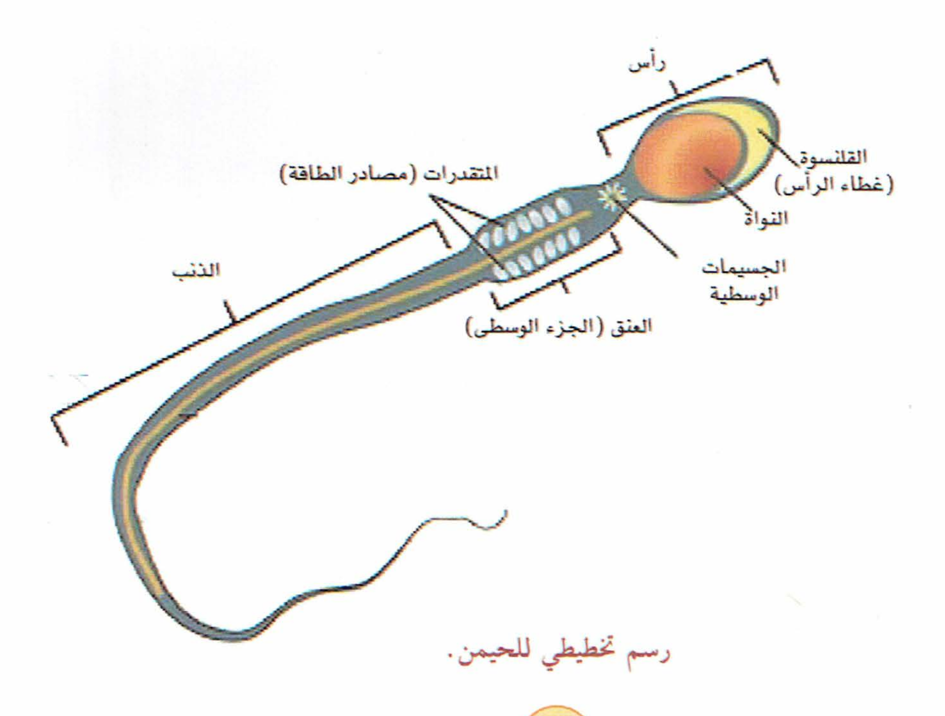
(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).

خاتم أنبيائه ورسله منذ أكثر من أربعة عشر قرناً لممّا يقطع بربانية القرآن الكريم وبنبوة سيد الأنبياء والمرسلين الذي تلقاه ﷺ.

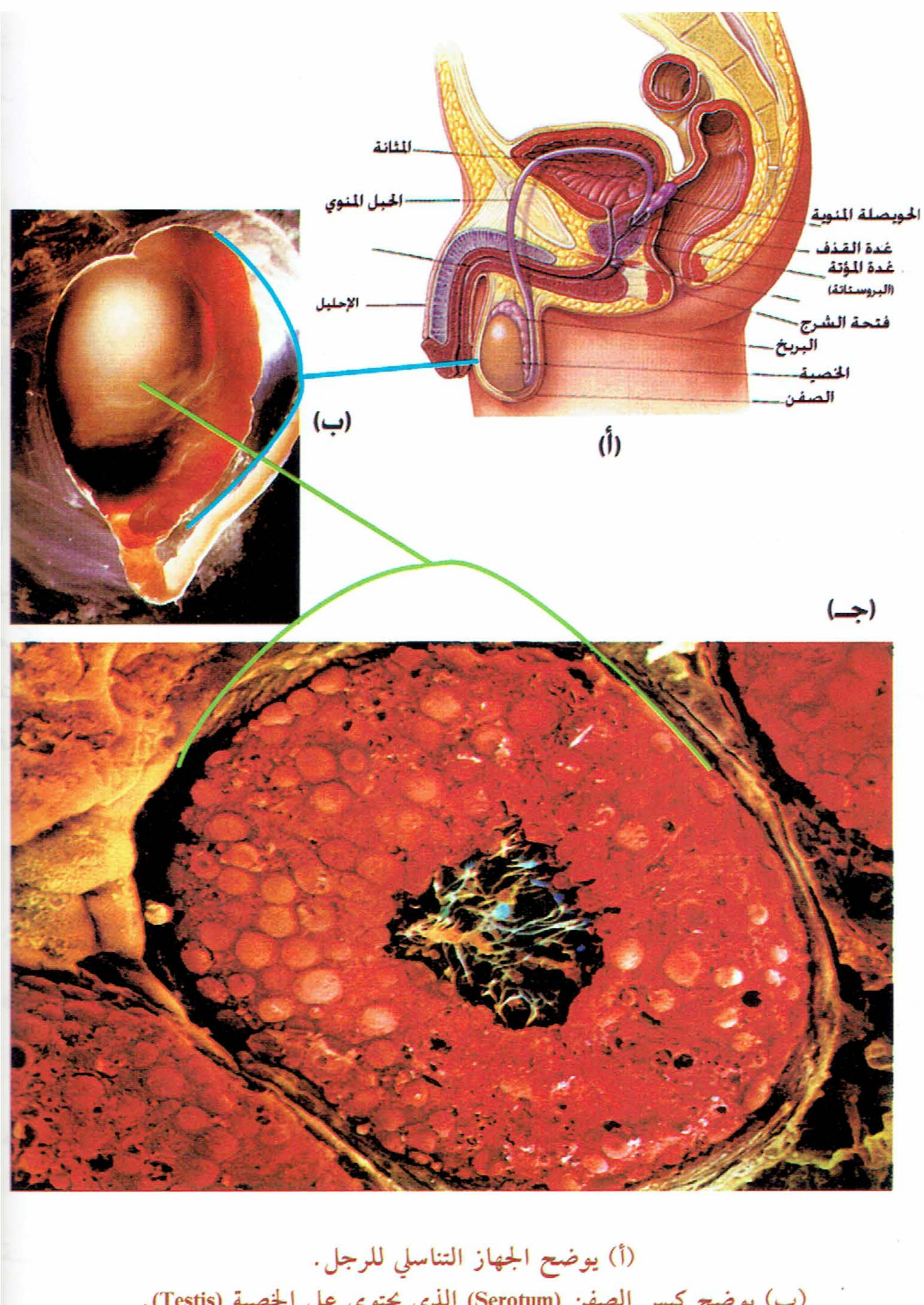
3 - وصف المني بأنه ماء مهين:

والماء المهين هو ماء التناسل (المني) من كل من الرجل والمرأة، ومن معاني (المهين): القليل وهو كذلك، ومن معانيه: المبتذل الضعيف الذي لا يُؤْبَهُ به، وهو كذلك إلا إذا استخدم فيما خلقه الله - تعالى - له من إبقاء النسل والمحافظة عليه، أما إذا استخدم في غير ذلك فهو أمر حقير مبتذل لا يعتنى به، ولذلك وضع مع الجهاز البولي في وحدة واحدة تعرف باسم «**الجهاز البولي التناسلي**».

وماء الرجل أبيض، ويحوي العديد من العناصر التي تساعد على إتمام عملية الإخصاب بالإضافة إلى ملايين الحيامن، وهي كائنات في غاية ضآلة الحجم ولذلك ينطبق عليها وصف «**الماء المهين**»، وكل حيمن له رأس مدبب لا يزيد طوله على 5 ميكرونات، وعنق ضئيل يحمل مصادر الطاقة، وذيل طويل يتحرك بواسطته بسرعة مليمترين في الثانية. والرأس يحوي 23 صبغياً تحمل أسرار الصفات الوراثية، وتحميه قلنسوة مصمتة. وهذه الحيامن منها الطويل نسبياً والقصير، والقوي والضعيف،



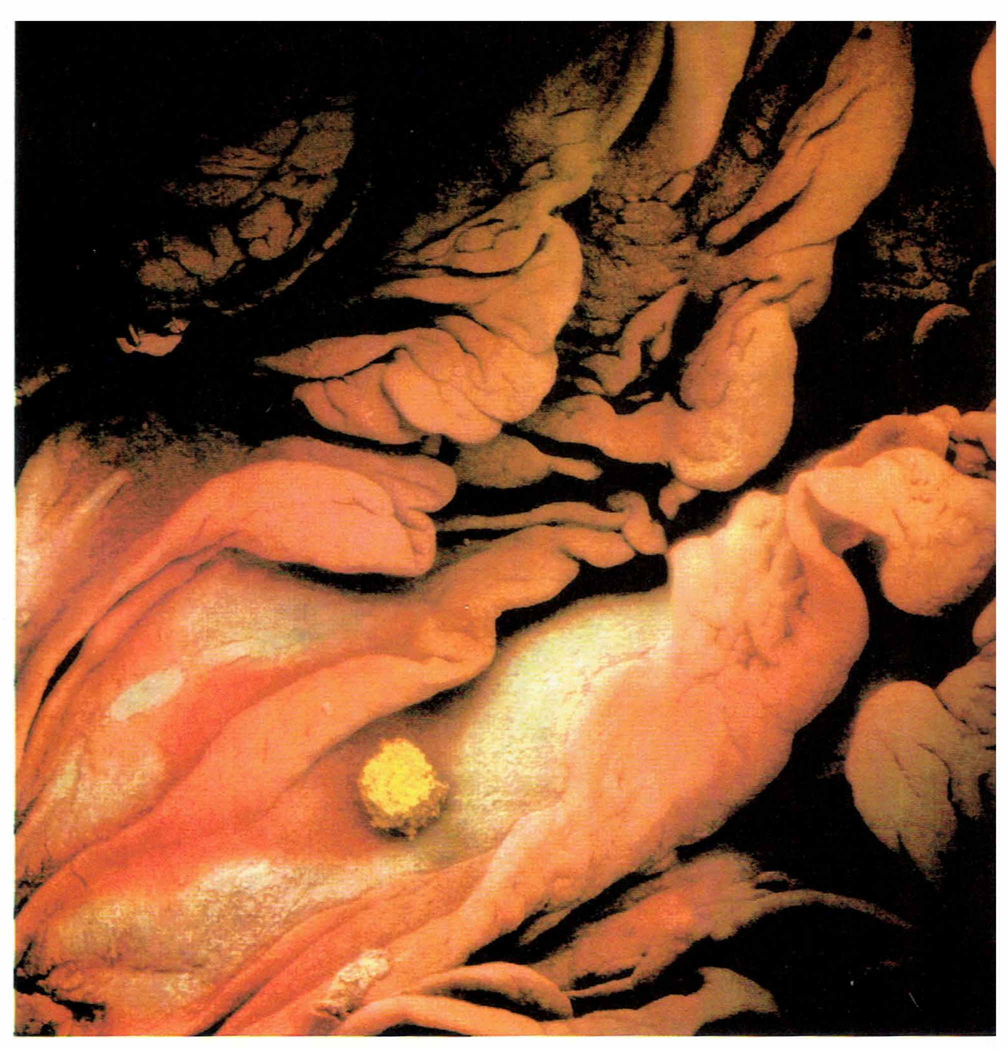
رسم تخطيطي للحيمن.



(أ) يوضح الجهاز التناسلي للرجل.

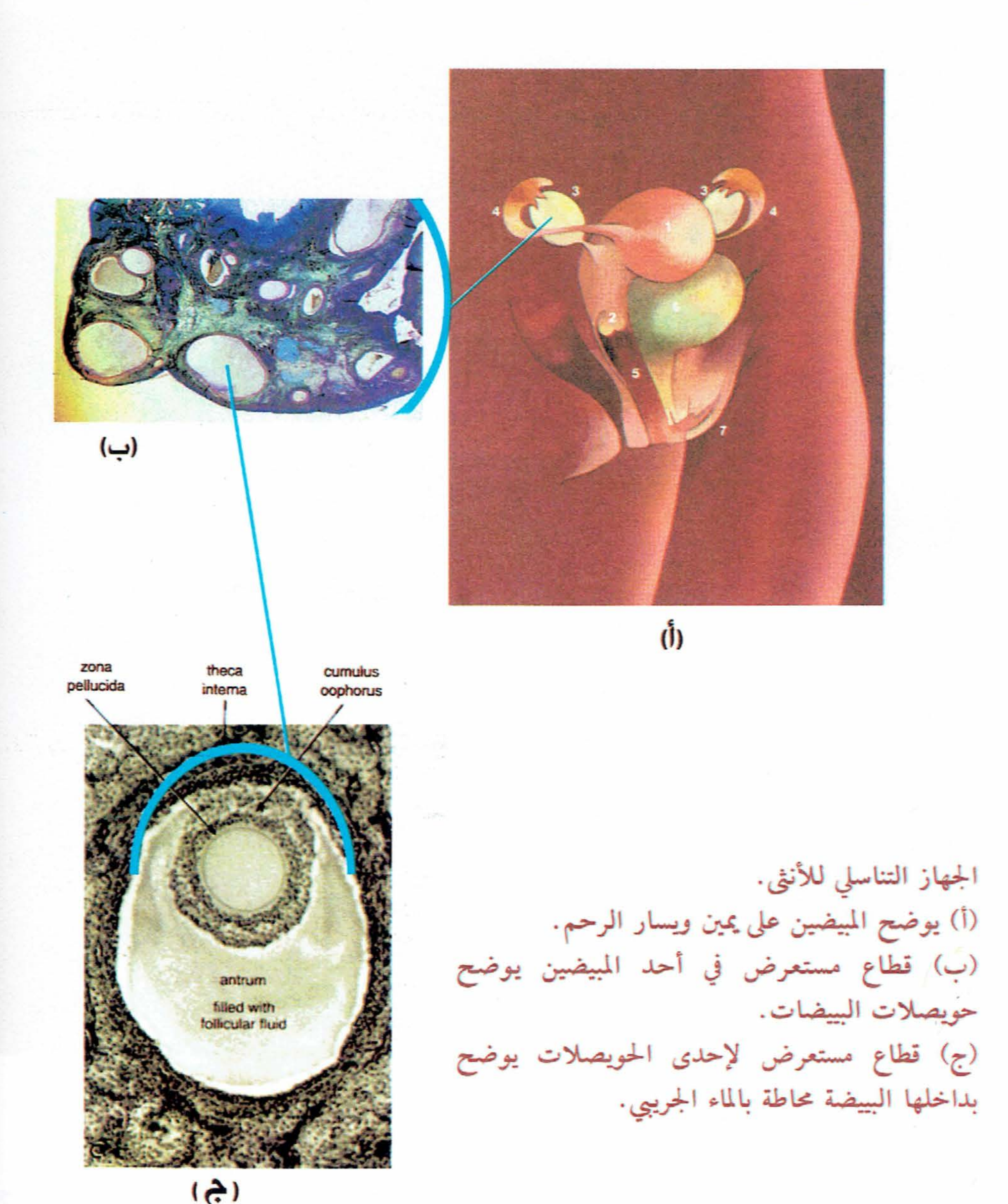
(ب) يوضح كيس الصفن (Serotum) الذي يحتوي على الخصية (Testis).

(ج) قطاع مستعرض في إحدى قنوات المني وبداخلها أطوار مختلفة من الحيامن أولها بالطبقة الخارجية (أسلاف الحيامن) وأكثرها نضجاً في تجويف هذه القناة الدقيقة (أو القنية).



صورة حقيقية للبييضة وهي تشق طريقها إلى الرحم عبر قناة فالوب
وهي محاطة بعدد من الخلايا المغذية الصفراء اللون.
وتبقى البييضة في الثلث الأخير من القناة لمدة يوم إلى يومين (24-48ساعة)
في انتظار الحيمن الذي قدر الله - تعالى - له أن يخصبها إن كان قد قدر لها ذلك.

وماء المرأة **أصفر** ويتدفق من حويصلة تعرف باسم «حويصلة جراف» عند انفجارها لتخرج منها البييضة إلى بوق قناة الرحم. والبييضة يبلغ قطرها مائتي ميكرون وهي بذلك تعتبر أكبر خلية في جسم الأنثى إذ أن معظم خلايا الجسم لا تتعدى أطوال أقطارها بضعة ميكرونات قليلة.



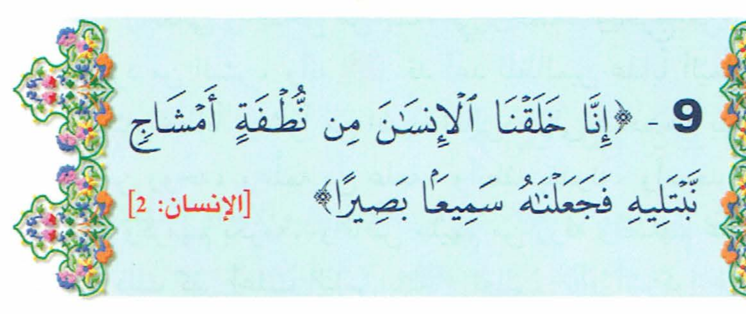
الجهاز التناسلي للأنثى.
(أ) يوضح المبيضين على يمين ويسار الرحم.
(ب) قطاع مستعرض في أحد المبيضين يوضح حويصلات البييضات.
(ج) قطاع مستعرض لإحدى الحويصلات يوضح بداخلها البييضة محاطة بالماء الجريبي.

وماء المرأة يحمل البييضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيامن، وهو يتدفق كما يتدفق ماء الرجل، وينطبق عليه أيضاً وصف السلالة من ماء مهين لقلته ولهلاك أعداد هائلة من البييضات قبل وبعد كل عملية إخصاب. ويضاف إلى ذلك ما تفرزه بطانة الرحم من سوائل تعين على إتمام عملية الإخصاب.

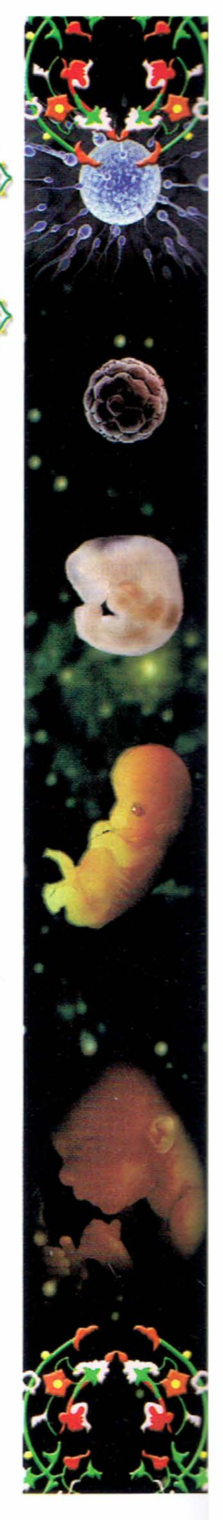
هذه الحقائق عن (الماء المهين) لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وورودها في القرآن الكريم وفي أحاديث رسول الله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً لممّا يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها حتى يبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، وشاهداً للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



9 - ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مقدمات سورة «الإنسان»، وهي سورة مدنية، وآياتها إحدى وثلاثون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالحديث عن الإنسان ونشأته ورسالته في هذه الحياة، مؤكدة أنه خلق للابتلاء، وأعطي حرية الاختيار بين الشكر لله - تعالى - أو الكفر بنعمائه، وهذا هو قمة ابتلائه والذي على أساسه يكون مصيره في الآخرة خلوداً في الجنة ونعيمها، أو خلوداً في النار وجحيمها.

وقد أجملت سورة الإنسان جزاء الكافرين، وفصلت جزاء المؤمنين، موجهة الخطاب إلى النبي والرسول الخاتم - صلوات الله وسلامه عليه - مؤكدة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي اصطفاه للنبوة والرسالة، ونزل إليه القرآن الكريم تنزيلاً، وأمره بالصبر لحكم الله، وحذره من طاعة الآثمين من المشركين والكفار، ووجهه إلى ذكر الله كثيراً بكرة وأصيلاً، وبالسجود له بالليل طويلاً، وبتسبيحه وحمده والثناء عليه.

كذلك أنذرت سورة الإنسان من يبالغون في حب الدنيا - وهي الحياة العاجلة، القصيرة المنتهية حتماً بالموت - ويذرون أهوال الانتقال منها إلى الآخرة التي تصفها السورة الكريمة بأنها يوم ثقيل، مؤكدة أن الله - تعالى - هو خالقهم وخالق كل شيء، الذي أحسن خلقتهم كما أحسن كل شيء خلقه، ثم كفروا بأنعم الله عليهم، وهو القادر على إفنائهم واستبدالهم بغيرهم. وتأمر سورة الإنسان بضرورة الاتعاظ بالقرآن الكريم، وبما فيه من آيات الذكر الحكيم، وعلقت

ذلك الاتعاظ بمشيئة الله الخالق ﷻ انطلاقاً من إحاطة علمه، وكمال حكمته، وغلبة إرادته فهو - تعالى - يدخل من يشاء في رحمته، ويخرج من يشاء منها لما يعلمه من نوايا كل فرد من البشر، وأنه ﷻ قد أعد للظالمين عذاباً أليماً. وعلى ذلك فإن سورة الإنسان تمثل خطاباً مباشراً من الله - تعالى - إلى عباده من بني آدم الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه من علمه، وأنطقه بقدرته، وأسجد له ملائكته، وخلق نسله من صلبه، وكرمهم بكرمه، وأفاض عليهم من رزقه وفضلهم على كثير من خلقه، وعلى الرغم من ذلك كفر أغلب الناس بالله - تعالى - أو أشركوا غيره في عبادته، ومن هنا جاء الخطاب إلى الإنسان في هذه السورة الكريمة مُحذِّراً من الخروج على منهج الله، ناصحاً باتقاء عذابه، وباليقظة لحقيقة ابتلائه، وإلى إدراك عظيم حكمته في الإنعام والابتلاء على حد سواء. وتبدأ سورة الإنسان بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

و(هل) حرف استفهام، ولكنها هنا حرف تأكيد بمعنى (قد)، و(الحين) طائفة محدودة من الزمن الممتد، ولفظة (الدهر) تطلق على كل زمن طويل غير معين، وعلى مدة العالم كله. وقد أثبتت الدراسات العلمية أخيراً أن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى قرابة الأربعة آلاف مليون سنة (3،8 بليون سنة)، بينما أقدم أثر للإنسان لا يرجع لأكثر من مائة ألف سنة مضت، مما يؤكد أن الأرض قد عُمِّرت بمختلف أمم الحياة التي ازدهرت لعدة آلاف من ملايين السنين ولم يكن للإنسان فيها وجود، وهنا تأتي روعة التعبير القرآني:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

ثم تذكر السورة الكريمة الإنسان بحقيقة خلقه من نطفة مختلطة من ماءي أبيه وأمه، وهي حقيقة لم تدركها العلوم المكتسبة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

و(النطفة الأمشاج) - أي المختلطة - هي اللقيحة المكونة من إخصاب نطفة المرأة - البييضة - بواسطة نطفة الرجل - الحيمن - و(الابتلاء) هو الاختبار بالتكاليف حتى

يثبت الإنسان جدارته بالجنة أو استحقاقه للنار، وقد زوده الله - تعالى - بملكات الاختيار بين الشكر لله أو الكفر بنعمائه، ومن هذه الملكات العقل والحس والضمير، ولذلك قال ربنا سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3] .

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى إجمال جزاء كلٍ من الكافرين والأبرار المؤمنين فتقول:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: 4-6] .

و(السلاسل) بها يقاد الكافرون. و(الأغلال) بها يقيدون من أيديهم وتجمع أيديهم بها إلى أعناقهم. و(السعير) النار المستعرة، والآية الكريمة تصور ما سوف ينال الكافرين من مهانة وإذلال في الآخرة. وفي المقابل تتحدث الآيتان التاليتان عن شيء من نعيم الأبرار من المؤمنين بالله، الشاكرين لأنعمه. و(الأبرار) جمع (بَر)، وهو المطيع المتوسع في فعل الخيرات. و(الكافور) في الدنيا هو طيب فيه بياض وبرودة، يستخرج من شجر يحمل نفس الاسم. أما (كافور) الآخرة فهو غيب لا يعلمه إلا الله - تعالى - وذلك لقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : كل ما ذكر في القرآن الكريم مما في الجنة ليس له في الدنيا شبيه إلا في الاسم. وفي وصف جانب من أخلاق المؤمنين الأبرار ووصف شيء من النعيم الذي وعدهم به رب العالمين تقول الآيات في سورة الإنسان:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: 7-10] .

والشر المستطير هو العذاب المنتشر. و(اليوم العبوس القمطرير) هو شديد الهول، عظيم الأمر، تعبس فيه الوجوه، وتقطب الجباه من شدة الخوف من أهواله وتعاظم البلاء فيه. وتعاود الآيات إلى الحديث عن جزاء المؤمنين الأبرار في جنات النعيم فتقول:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا

تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: 11-22].

و(النضرة) هي الحسن والبهجة في الوجوه. و(السرور) ضد الهم، وهو شعور بالرضا والسعادة يدركه القلب. و(الزمهرير) هو شدة البرد، وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن أبي شيبة: «**إن هواء الجنة سجسج لا حر ولا برد**». و (السجسج) هو الظل الممتد ما بين الفجر وطلوع الشمس. و(دانية) أي قريبة بمعنى أن الظلال قريبة منهم، مظللة عليهم، وذلك زيادة في تنعيمهم. و﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: 14] أي يسر لهم قطف ثمارها تيسيراً كبيراً بمعنى أن قطف ثمار الجنة جعل لأهلها أمراً ميسوراً في غاية السهولة، وذلك أيضاً من قبيل تكريمهم وتنعيمهم، ومن قبيل هذا التكريم أيضاً أن يطوف عليهم سقاة بأوعية شراب من فضة جعلت شفافة بقدرة الله - تعالى - حتى يرى ما بداخلها من شراب قدره الساقون تقديراً وفق ما يشتهي الشاربون من أهل الجنة دون أدنى زيادة أو نقصان، وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء إلا أعطيتم في الدنيا شبيهه إلا ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 16]. و(السلسبيل) هو السلس في الانسياغ، الممتع في المذاق. و(الولدان المخلدون) أي الدائمون على ما هم عليه من النضارة والبهاء، والذين ينبثون في مجالس أهل الجنة حتى ليتصورهم من يراهم من أهلها كأنهم حبات من الدر المنثور. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ [الإنسان: 19-20] أي هناك في الجنة ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20] تعظيماً لقدر هذا النعيم، وتعبيراً عن ضخامة الملك الذي يهبه الله - تعالى - لكل واحد من أهل الجنة. ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: 21] أي على كل واحد من أهل الجنة ثياب خضراء من السندس، وهو ما رق من الحرير - الديباج - و(إستبرق) وهو ما غلظ منه. ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21] أي جعل في أيديهم أساور من فضة حلية لهم. ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21] أي شراباً بالغاً غاية الطهر. وفوق كل هذا النعيم يسمع أهل الجنة من يردد على مسامعهم قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: 22] أي أن هذا

النعيم المقيم قد أعد لكم جزاءً لصالح أعمالكم في الدنيا، وكان سعيكم فيها محموداً عند الله، مرضياً عنه ومقبولاً منه.

وبعد هذه الإفاضة في وصف أهل الجنة والنعيم الذي أعده الله - تعالى - لهم فيها تتجه الآيات بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يقول له فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان: 23-26].

وهذه الأوامر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ هي أوامر إلى كل مسلم ومسلمة أن يُقبل على كتاب الله تلاوةً وتدبراً ومدارسةً متأنية حتى يفهموا ما فيها من أوامر فيطبقوها، وما فيها من نواه فيجتنبوها، ثم ينطلقوا مبلغين عن الله ورسوله بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي، لا يخرجهم عن ذلك سفه السفهاء من الكفار والمشركين أو من العصاة الضالين التائهين في متاهات الحياة الدنيا.

وعلى الدعاة إلى دين الله أن يصبروا كما صبر رسول الله ﷺ وأن يتجنبوا إثم الآثمين، وكفر الكفار والمشركين، وألا يطيعوهم في أمر أبداً، وأن يداوموا في جميع الأوقات على ذكر الله - تعالى - وتسبيحه وتمجيده وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، مثل نسبة الشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة والولد لذاته العلية؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والخالق منزه عن جميع صفات خلقه، وعلى المسلمين أن يحافظوا على الصلوات في أوقاتها من الفجر إلى العشاء، وعلى التهجد طويلاً من الليل بنافلة من الصلاة أو الذكر.

وبعد هذا الخطاب الرباني الموجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وإلى كل مؤمن به وبرسالته، يتجه الحديث في ختام سورة الإنسان إلى الحديث عن غالبية أهل الأرض من الكفار والمشركين، والظَّلَمَة الطغاة المتجبرين الذين أعمتهم الدنيا ببريقها الزائف، فأنستهم حتمية الآخرة وأهوالها وكروبها حتى يفاجأوا بحقيقتها، فيندموا أشد الندم حين لا يجدي ذلك ولا ينفع، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: 27-28].

و(العاجلة) هي الحياة الدنيا، والتركيز عليها ينسي المُنشغِل بها عن الآخرة وأهوالها. و(شد الأسر) هو إحكام الخلق وإتقانه، وعلى الرغم من ذلك يكفر العباد بخالقهم أو يشركون به أحد خلقه، ويتنكرون لأنعمه ولذلك قال - تعالى - إنه قادر على استبدالهم بغيرهم إذا شاء.

وتختتم سورة الإنسان بإعلان من الله - تعالى - بأن الآيات التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة هي موعظة بالغة منه، فمن شاء اتعظ بها واتخذ ما جاء فيها من أسباب الهداية وسيلة يتقرب بها إلى خالقه، ومن شاء أعرض عنها وعما جاء فيها من أسباب الهداية، والإنسان لا يختار شيئاً إلا وفق علم الله - تعالى - وإرادته وهو العليم الحكيم، مع وجود دائرة الإرادة الشخصية لكل فرد من بني آدم يمارس فيها قراره بحرية كاملة وفي ذلك يقول ربنا - تبارك اسمه -:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

[الإنسان: 29-31].

من ركائز العقيدة في سورة «الإنسان»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، هو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق الإنسان وخالق كل شيء، الذي خلق الإنسان من نطفة مختلطة من ماءي الأب والأم فجعله سميعاً بصيراً.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - قد وهب الإنسان مطلق الإرادة وحرية الاختيار، وهداه إلى طريق الحق بواسطة الوحي، وترك له أن يختار الشكر لله على نعمائه أو الكفر بها.

3 - التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم عن الآخرة وأهوالها، وعن الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها؛ لأن هذه من الغيوب المطلقة التي لا سبيل للإنسان في الوصول إليها إلا عن طريق وحي السماء.

4 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو الذي نزل القرآن الكريم تنزيلاً على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ليكون تذكرة وهداية للعالمين في أمر الدين بركائزه الأربع الأساسية - العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات - لأن الله - تعالى - يعلم بعلمه المحيط عجز الإنسان عن الوصول إلى تصورات صحيحة في هذه القضايا بجهده منفرداً مهما أوتي من أسباب الذكاء والفطنة، ولذلك حفظ القرآن الكريم في لغة وحيه إلى أن تقوم الساعة. وقد ترك ربنا ﷻ الخيار مفتوحاً أمام الإنسان بين الإيمان والكفر، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وعلى أساس من هذا الاختيار سيكون المصير في الآخرة إما في الجنة أو في النار.

5 - التصديق بضرورة الصبر على قضاء الله وقدره، وعلى الاجتهاد في عبادته وذكره، وعلى مخالفة الآثمين من الكفار والمشركين مخالفة تامة.

6 - التسليم بأن الله ﷻ قادر على إفناء خلقه، وعلى استبدالهم بغيرهم، وأن ذلك على الله يسير.

7 - اليقين بأن الإرادة البشرية داخلة في دائرة قدر الله ومشيئته، وهو العليم الحكيم الذي يدخل من يشاء في رحمته، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً.

من القضايا التعبدية في سورة «الإنسان»:

1 - ضرورة الوفاء بالنذور، والحرص على إطعام المساكين واليتامى والأسرى طلباً لمرضاة الله، وهذا الأمر من الله - تعالى - يوضح الفارق بين دين سماوي خالص ودين وضعي محرف، ففي الوقت الذي يأمر القرآن الكريم بإطعام الأسير دهس الصهاينة المجرمون آلاف الأسرى المصريين تحت سيور دباباتهم، كما دهست دبابات الأمريكان الغازين لأرض كلٍ من العراق وأفغانستان آلاف المدنيين.

2 - الأمر بالمحافظة على الصلوات المفروضة، وعلى أداء النوافل، ومنها قيام الليل، ومداومة ذكر الله وتسبيحه وتمجيده وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله.

3 - ضرورة الصبر لحكم الله - تعالى - ولقضائه وقدره، والالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، والقيام بواجب التبليغ عنه وعن رسوله ﷺ والصبر على فجور الكفار والمشركين وصلافتهم وفحشهم، وعلى بذاءة الآثمين وقلة أدبهم، وانعدام حيائهم، والحرص على عدم الانحدار إلى مستوياتهم المنحطة وأساليبهم المتدنية.

من الإشارات الكونية في سورة «الإنسان»:

1 - تأكيد أن حيناً من الدهر قد انقضى ولم يكن للإنسان وجود يذكر إلا في علم الله - تعالى - والعلوم المكتسبة تشير إلى أن أقدم أثر للحياة على الأرض يصل إلى نحو الأربعة بلايين من السنين (3,8 بليون سنة)، بينما أقدم أثر للإنسان عليها لا يتعدى المائة ألف سنة.

2 - الإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة أمشاج (مختلطة من ماءي الأب والأم)، وهي حقيقة لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

3 - تقديم السمع على البصر في هذه الآية التي نحن بصددها، وفي العديد غيرها من آيات القرآن الكريم.

والعلوم المكتسبة تثبت تقدم مراكز السمع على مراكز الإبصار في مخ الإنسان، وسبق استخدام حاسة السمع عند كلٍ من الحميل والوليد لحاسة البصر. وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أركز هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة والمتعلقة بخلق الإنسان من نطفة أمشاج.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: ثم بين ذلك فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2] أي أخلاط، والمَشِجُ والمَشِيجُ، الشيء المختلط بعضه في بعض. قال ابن عباس: يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال. وقال عكرمة ومجاهد: الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، وقوله - تعالى -: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره، كقوله جل جلاله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الجنس ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط أي: من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف، والجملة مستأنفة، أو حال مقدرة أي: مريدين ابتلاءه حين تأهله. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ بسبب ذلك ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾.

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن رحمه الله ما نصه: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ من مني، وهو ماء الرجل وماء المرأة، ممتزج أحدهما بالآخر، كما قال - تعالى - : ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ أي أخلاط بمعنى مختلط ممتزج من الماءين، أو من عناصر شتى. يقال: مَشَجَ بينهما - من باب ضَرَبَ - خلط ومزج، وهو جمع مُشَج كَسُبَت، أو مَشِج كَكَتِف، أو مشيج كنصير. وقيل: مختلطة. وأمشاج مفرد جاء على أفعال كأعشار في قولهم: برمة أعشار، أي متكسرة. ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ مبتلين له، أي مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف حتى يتأهل لذلك. ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من الاستماع للآيات التنزيلية، والنظر في الآيات التكوينية.

وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة جزاء ما قدم - ما نصه: «. . .والأمشاج: الأخلاط. وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح. وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة، والتي يمثلها ما يسمونه علمياً (الجينات)، وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً، وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان لا جنين أي حيوان آخر، كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة، ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى، خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خلق ليُبتَلَى ويمتحن ويختبر، والله - سبحانه - يعلم ما هو، وما اختباره، وما ثمرة اختباره، ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود، وأن تتبعه آثاره المقدرة، وأن يجزي وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه،ومن ثم جعله سميعاً بصيراً، أي زوده بوسائل الإدراك ليستطيع التلقي والاستجابة، وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار، وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدرها، وهي خلقته من نطفة أمشاج كانت وراءها حكمة، وكان وراءها قصد، ولم تكن فلتة، كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره، ومن ثم وُهِبَ الاستعداد للتلقي والاستجابة، والمعرفة والاختيار، وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة بمقدار».

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم - جزاهم الله خيراً - ما نصه: إنا خلقنا الإنسان من نطفة ذات عناصر شتى، مختبرين له بالتكاليف فيما بعد، فجعلناه ذا سمع وذا بصر ليسمع الآيات ويرى الدلائل».

وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبه خيراً - ما نصه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين - وهو المني - الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة - البويضة الأنثوية - فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب. قال ابن عباس: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلٰهية، لننظر أيشكر أم يكفر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟. ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم. قال الإمام الفخر: أعطاه - تعالى - ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال - تعالى - حاكياً عن سؤال إبراهيم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: 42]؟، وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها».

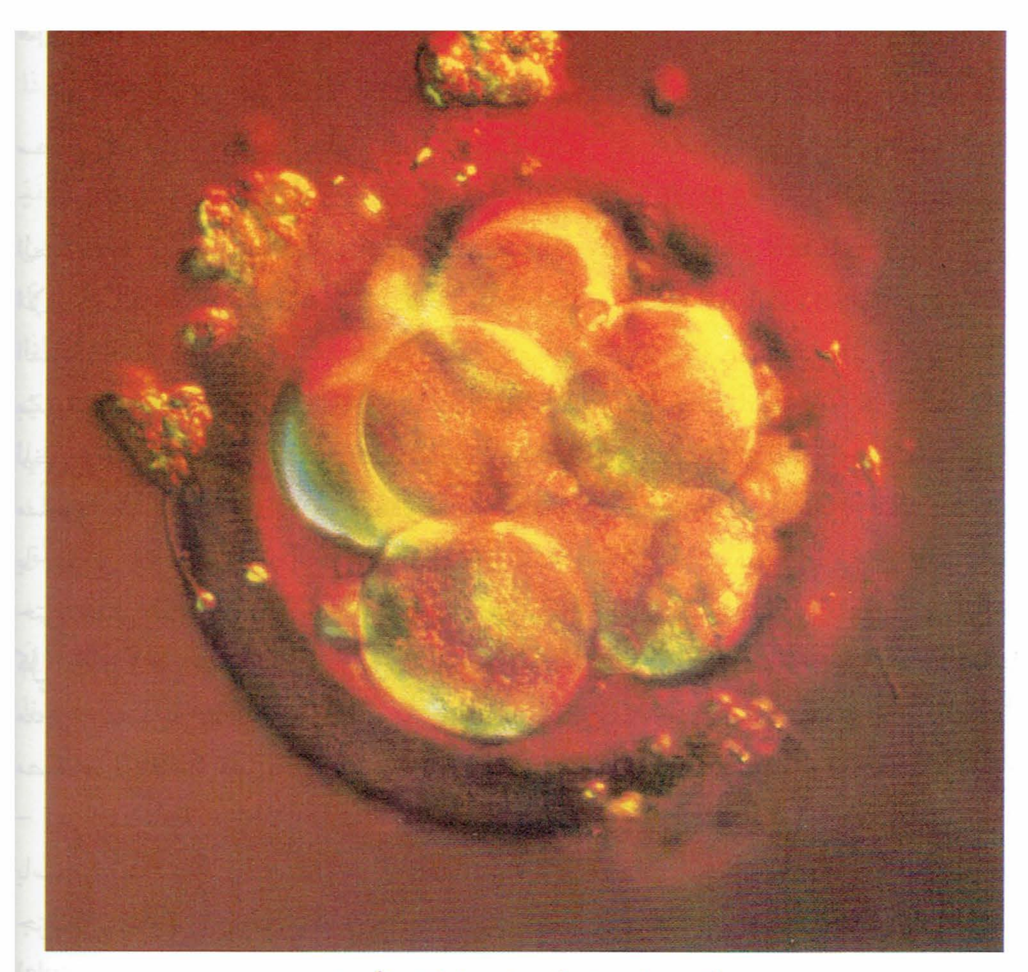


صورة للحيمن (الحيوان المنوي) يتجه نحو البييضة في محاولة لإخصابها.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

على الرغم من أن قضية تكون الأجنة قد شغلت بال الإنسان منذ أن وطأت قدماه سطح الأرض، إلا أن العلوم المكتسبة لم تصل إلى معرفة دور كلٍ من نطفة الرجل - الحيمن - ونطفة المرأة - البييضة - في ذلك التكون إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد مجاهدة استغرقت عشرات القرون ومئات من العلماء، ومن هنا فإن الإشارة القرآنية إلى خلق الإنسان من نطفة أمشاج - أي مختلطة - وفي أوائل القرن السابع الميلادي يعتبر سبقاً علمياً يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، كما يشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، ويشهد له بذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي. قال: فجاء حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟، فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي من كلٍ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**» (مسند الإمام أحمد بن حنبل)، والحديث مذكرة تفسيرية واضحة الدلالة للآية القرآنية الكريمة التي نحن بصددها وذلك لأن مصطلح (النطفة) كما يطلق على الحيمن يطلق على البييضة، ومصطلح النطفة (الأمشاج) - أي المختلطة - يطلق على اتحاد هاتين النطفتين وتكوين النطفة المخصبة التي تعرف باسم اللقيحة (Fertilized Ovum or Zygote) التي تستمر في الانقسام حتى تنغرس انغراساً جزئياً ثم كاملاً في بطانة جدار الرحم، فتعرف حينئذ باسم الأرومة الجرثومية المنغرسة (Implanted Blastula)، أو مرحلة العلقة (Leech-like stage). والنطفة لغةً هي الماء الصافي قلَّ أو كَثُرَ، والجمع (نِطَاف) و(نُطُف)، ويعبر بها عن ماء التكاثر - التناسل - ويُكنَّى عن اللؤلؤة بـ (النطفة)، وليلة (نَطُوف) يجيء فيها المطر حتى الصباح، و(الناطف) السائل من المائعات، ويقال: فلان (ميطف) المعروف أي: يندى به، و(النطف) الدلو واحدته (نطفة)، و(نطفان) الماء سيلانه، وقد (نَطَفَ) (يَنْطُف) (بضم الطاء وكسرها) أي يسيل. يقال: (نَطَفَت) آذان الماشية و(تَنَطَّفَت) أي: ابتلت بالماء فقطرت.

وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجل من الأنصار تَنْطُفُ لحيته من وضوئه.



أقسام البييضة المخصبة - النطفة الأمشاج

استعراض تاريخي لتطور علم الأجنة:

ما من شك في أن قضية تكوّن الأجنة قد شغلت بال الإنسان منذ اللحظات الأولى لوجوده، وحاول تفسيرها بتصورات متعددة وجدت إشارات إليها في معظم الحضارات القديمة، كما دوّنت محاولات لمنع الحمل في الحضارة المصرية القديمة يعود تاريخها إلى حوالي (2000) سنة قبل الميلاد.

وفي الحضارة الهندية القديمة وجدت إشارات إلى كيفية تكون الجنين يعود تاريخها إلى (1416) سنة قبل الميلاد، ويعزى ذلك إلى اختلاط دم حيض المرأة بماء الرجل.



صورة للنطفة المخصبة (نطفة أمشاج) وهي تنغرس في جدار الرحم لتبدأ مرحلة العلقة.

وفي الحضارة اليونانية القديمة كتب أبو قراط (**Hippocrates**) الذي عاش في الفترة من حوالي (460) ق. م إلى (377) ق. م عن تكون أجنة الدجاج وشبه ذلك بتكون أجنة الإنسان.

وخلفه أرسطو (**Aristotle**) الذي عاش في الفترة من حوالي (384) ق. م. إلى (322) ق. م. ونادى بتكون الجنين من كتلة غير مشكلة من بذرة وروح مغذية، وبأن جميع الأعضاء تنتج من دم الحيض عند اختلاطه بماء الرجل.

أما جالين (**Galen**) الذي عاش في حوالي (130 م إلى 201 م)، فقد كتب كتاباً عن تكون الجنين وصف فيه كلاً مما يعرف اليوم باسم المشيمة، والغشاء المشيمي، وغشاء

السلي - الرحل - ولم يدون شيء يذكر عن تكون الجنين في الفترة من القرن الثالث إلى القرن السادس عشر الميلاديين، وإن كانت هناك بعض المحاولات البدائية في العصور الوسطى لا نعرف منها سوى أعمال قسطنطين الأفريقي (**Constantinus Africanus**) الذي عاش في الفترة من (1020 م إلى1087 م)، وكتب كتاباً باللاتينية بعنوان «طبيعة الإنسان» (**De Humana Natura**) اعتمد فيه على كثير من المراجع العربية والرومانية واليونانية، وحاول فيه الربط بين تطور الجنين في مراحله المتتابعة وبين الكواكب التي تظهر في الأفق مع كل شهر من أشهر الحمل.

أما في عصر النهضة فقد كتب في موضوع تكوّن الأجنة كثيرون، كان منهم ليوناردو دافنشي (**Leonardo da Vinci**) الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي، والذي رسم أشكالاً عديدة للرحم أثناء الحمل، وقام بقياسات لحجم الجنين في المراحل السابقة على ولادته.

وكان منهم فابريشيوس (**Fabricius**) الذي عاش في الفترة (من1537 م إلى1619 م)، وكتب موسوعتين في علم الأجنة، وقدم رسوماً للجنين في عدد من مراحله، وكان منهم وليام هارفي (**William Harvey**) الذي عاش في الفترة (من1578 م إلى1657 م)، ونُشِرَ في سنة (1651 م) كتاباً بعنوان «التخلق الحيواني» (**Odeneratione Animalium**) اعتمد فيه على كثير من المراجع العربية، واقترح أن بذرة الرجل - الحيمن - إذا دخلت الرحم تحولت إلى ما يشبه البيضة التي ينتج منها الجنين. ولما عجز عن رؤية مراحل ذلك اقترح أن الأجنة تفرزها أرحام الإناث.

وكان تصميم المجهر في سنة (1609 م) بواسطة الهولندي (**Z. Janssen**) فتحاً في مجال العلوم المكتسبة - بصفة عامة - وفي مجال علم الأجنة - بصفة خاصة - والمجاهر الأولى كانت بدائية للغاية، إلا أنها قد ساعدت الكثيرين من أمثال دي جراف (**De Graaf**) في سنة (1672 م) على اكتشاف جريب البييضة دون أن يعرف ماهيته، ولكنه يسمى اليوم باسمه، (**Graafian Follicle**) وساعدت مالبيجي (**Malpighi**) في سنة (1675 م) على رؤية بعض مراحل الأجنة في بيض الدجاج المخصب، وظن أن البيضة تحتوي فرخاً كامل النمو في هيئة متقزمة.

وفي سنة (1677م) تمكن كلٌ من هام (Hamm) وليوفينهويك (Leeuwenhoek) من اكتشاف نطفة الرجل - الحيمن - وذلك باستخدام مجهر محسن، وذلك دون معرفة دوره في عملية تكوين الجنين، ظناً منهما بأن رأس الحيمن يحتوي إنساناً كامل النمو في هيئة متقزمة جداً ينمو إلى حجم الحميل في رحم الأم.

وظلت هذه الخرافة سائدة بين علماء الأجنة حتى رفضها العالم الألماني وولف (Casper Friedrich Wolff) في سنة (1759 م)، والذي اقترح نظرية التآصل الفوقي أو السطحي (Epigenesis)، والتي تنادي بأن نمو الجنين يتم بواسطة نمو وتمايز خلايا خاصة.

وعلى الرغم من ذلك بقيت خرافة الإنسان السابق التكوين والتقزم في رأس الحيمن سائدة حتى سنة (1775 م)، حتى ألغاها سباللنزاني (Spallanzani) الذي أثبت أن الجنين يتكون عن طريق التقاء مائي الرجل والمرأة.

في سنة (1817 م) اكتشف العالم الألماني باندر (Heinrich Christian Pander) الطبقات الثلاث من الخلايا الجرثومية (Germ cells) التي تنتج عن انقسام النطفة المختلطة (الأمشاج) أو اللقيحة (Zygote).

وفي سنة (1827 م) وصف فون باير (Von Baer) الخلية البيضية (Oocyte)، وذلك بعد مائة وخمسين عاماً من اكتشاف الحيمن، (Sperm) ولاحظ عملية انقسام اللقيحة، (Zygote) وتعرف على كيفية تكون الأنسجة والأعضاء المختلفة، وإلى هذا التاريخ لم يكن معروفاً أن كلاً من الحيمن والبييضة من خلايا الجسم حتى تقدم كلٌ من شليدن (Schleiden) وشفان (Schwann) بنظرية الخلية (The cell theory) في سنة (1839 م).

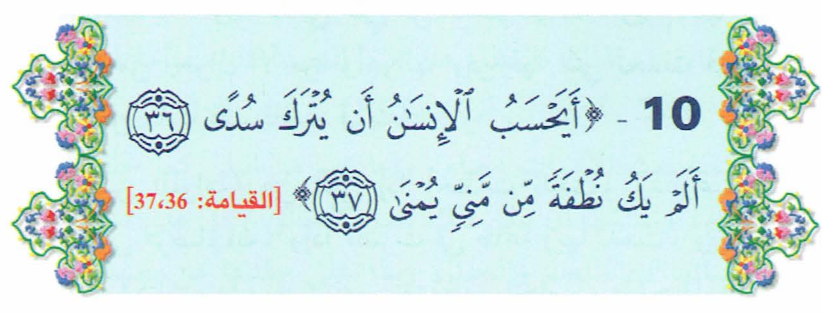
من هذا الاستعراض يتضح سبق القرآن الكريم لجميع المعارف المكتسبة في التأكيد على أن جنين الإنسان يخلق من كلٍ من ماء الرجل وماء المرأة - النطفة الأمشاج أي المختلطة - وذلك بأكثر من اثني عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا العلم في القرن السابع الميلادي غير الله الخالق، مما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -

وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى أن يشاء الله.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن الذي حفظه الله سبحانه وتعالى ليبقى حجة على جميع الناس إلى يوم الدين، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين، فختم ببعثته النبوات، وأتم الرسالات، ونشر نور الهداية في الأرض، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ونسأل الله أن يجزيه خير ما جازى به نبياً عن أمته، وصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في ختام سورة القيامة، وهي سورة مكية، وآياتها أربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لحديثها عن الآخرة وأهوالها، وعن عدد من علاماتها، ومن الأحداث الكبرى المصاحبة لها: من لحظة الاحتضار، إلى أهوال البعث والحساب والجزاء.

ويصاحب ذلك تذكير من الله - تعالى - بشيء من طبائع النفس الإنسانية، وميلها إلى التكاسل عن طاعة بارئها، وإلى الإقبال على الدنيا ومفاتنها، وإلى نسيان الآخرة وتجاهلها، إن لم يكن إنكارها والكفر بها، ومن هنا كان امتداح ربنا - تبارك وتعالى - للنفس اللوامة.

وترد سورة القيامة على المشككين في حقيقة البعث، شارحة دوافعهم الخفية إلى هذا التشكيك، مؤكدة فجيعتهم لحظة مفاجأتهم بوقوعه، ومشيرة إلى انقسام الناس يومئذ إلى سعداء وأشقياء، ومذكرة الإنسان بأصله وبحقيقة رسالته في الحياة الدنيا، وبحتمية رجوعه إلى خالقه سبحانه وتعالى ومستشهدة على ذلك كله بنشأة الإنسان الأولى في هذه الحياة الدنيا.

وتبدأ سورة القيامة بقول ربنا - تبارك اسمه -:



[القيامة: 1-2].

ولا إما صلة لتوكيد القسم في الحالتين، وإما نافية للجنس، لأن نفي القسم في اللغة العربية توكيد له - والله تعالى غني عن القسم لعباده - ويوم القيامة هو يوم البعث، ويطلق على كثير من أحوال الآخرة وأهوالها ونوازلها التي تحدث مابين الدنيا والآخرة، وفي الأثر: «من مات فقد قامت قيامته».

و(النفس اللوامة) هي التي إذا أخطأت ندمت، وسارعت إلى التوبة والاستغفار والعودة إلى مرضاة الله، وإذا قصرت في طاعة ربها ندمت، وبادرت بوفاء العبادة حقها، وإلى الاستكثار منها، فهي نفس متيقظة، تحاسب صاحبها قبل أن يحاسب، ووصفها الحسن البصري رضي الله عنه بقوله: إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه.

والنفس اللوامة يحبها الله - تعالى - حتى ليقسم بها كما أقسم بيوم القيامة على تعاظم هوله، ويقابلها بالنفس الفاجرة التي تسول لصاحبها الخروج على أوامر الله، والخوض في نواهيه، ولذلك تحاول إقناعه بإنكار الآخرة وما فيها من بعث وحشر، وحساب وجزاء. وجواب القسم محذوف وتقديره: أن القيامة واقعة لا محالة، وأن الخلق ليبعثن جميعاً، وليحاسبن وليكافأن على ما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ويدل على جواب القسم ما جاء بعد القسم من آيات يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: 3-4].

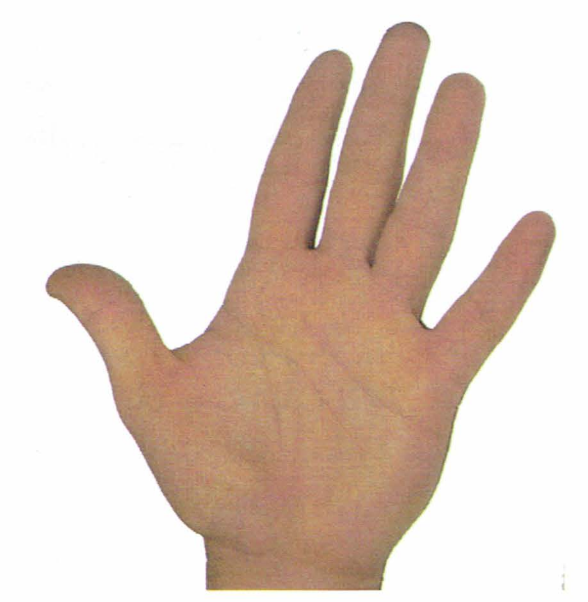
وهو استفهام تقريعي توبيخي لكل إنسان كافر بالبعث، ومن مآسي هؤلاء البشر الغافلين أنهم يقيسون على الله - تعالى - بمقاييسهم المحدودة، العاجزة، القاصرة، ولا يعلمون أن الله - تعالى - على كل شيء قدير وأن قدرته - تعالى - لا تحدها حدود، لأنه هو رب هذا الكون ومليكه، خالقه ومبدعه، ومدبر أمره، والمتصرف فيه بعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التي يصفها القرآن الكريم بأنها بين الكاف والنون فيقول:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 82-83].

والذين يقيسون على الله - تعالى - بمقاييس البشر - في القديم والحديث - يستصعبون عملية البعث بعد أن رمت الأجساد وتحللت، ونخرت العظام وبليت، واندثر

ذلك وتفرق في تراب الأرض وثراها، وخصت العظام بالذكر هنا لأنها هي الهيكل الصلب الذي يحمل اللحم (العضلات والجلد) ويعطي للإنسان قوامه المنصوب الذي يميزه عن غيره من المخلوقات، ولذلك فالعظام هنا تعني الجسد كله منفوخة فيه الروح. وهاتان الآيتان الكريمتان: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: 3-4]. تؤكدان حتمية بعث الأموات أحياء، وإعادتهم من البلى كما خلقهم الله - تعالى - أول مرة من العدم، وتستشهدان على ذلك بقدرة الخالق سبحانه وتعالى على تسوية البنان بسلمياتها الصغيرة، وبكسائها من اللحم والجلد، وبما على جلدها من بصمات مميزة لصاحبها، حيث إنها لا تتطابق في شخصين أبداً، ولا في التوائم المتماثلة، ولا في أصبعين من مكونات اليد الواحدة أو القدم الواحدة أبداً، والبنان هي الأصابع أو أطراف الأصابع، ومفردها بنانة، وهذه الأشكال المميزة لكل فرد من بني آدم، بل لكل أصبع من أصابع يديه وقدميه لها من الثبات طيلة حياته (إلا في ازدياد حجمها مع نمو الجسم) ما يجعلها إحدى علاماته الجسدية المميزة له.

وتسوية البنان بكل هذه التفاصيل، لم يثبت القدرة الإلٰهية على بعث الأموات بتفاصيل صفاتهم الجسدية إلى أدق دقائقها، وهذا لا يعجز الخالق العظيم الذي أبدع خلق الإنسان وخلق ما حوله من آفاق تتسع إلى نهاية لا يعلمها إلا هو.

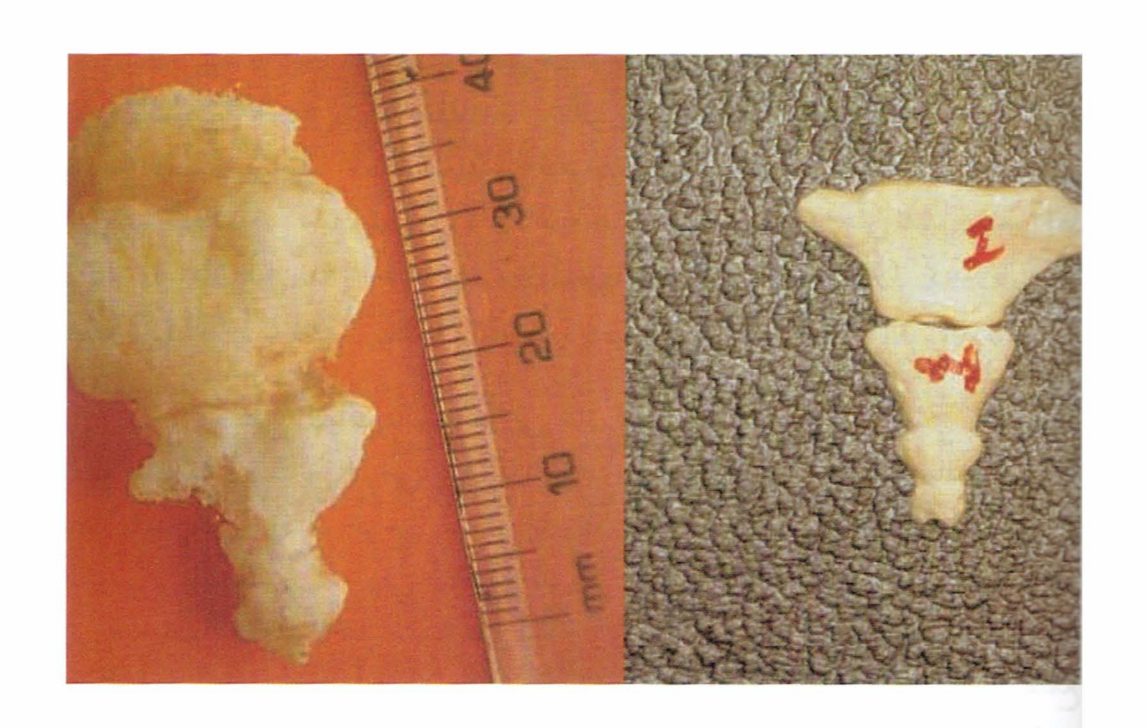


ماذا يحدث للجسد بعد وفاة الإنسان؟

بعد وفاة الإنسان ودفن جسده في تراب الأرض يبدأ هذا الجسد في التحلل بعملية معاكسة لعملية بنائه التي بدأت أصلاً من تراب الأرض الذي ارتوى بالماء فأصبح طيناً، وأذاب الماء من هذا الطين ما قبل الذوبان فيه من عناصر الأرض ومركباتها حتى تمايزت من بين

حبات هذا الطين سلالة مذابة في الماء (سلالة من طين)، وبتبخير المحاليل المذيبة لتلك السلالة جزئياً ترسبت بعض العناصر والمركبات بين حبيبات المعادن الصلصالية فأصبح الطين (طيناً لازباً) أي: لاصقاً بعضه ببعض. وبجفاف هذا الطين اللازب أصبح (صلصالاً من حمإ مسنون) أي: أسود منتن، ثم زاد جفافه فأصبح (صلصالاً كالفخار)، ثم نفخ الله - تعالى - فيه من روحه فأصبح إنساناً (هو آدم أبو البشر)، ومن آدم خلقت زوجه حواء عليها السلام بمعجزة أمر بها الله - تعالى -. ثم تسلسل نسل آدم منه ومن زوجه حواء عليهما السلام من شفرتيهما الوراثية اللتين خلقهما الله - تعالى - وخلق فيهما جميع نسليهما، وتغذى هذا النسل ونمت أجساده على عناصر الأرض التي يمتصها النبات مع عصارته الغذائية من طين الأرض، ثم بواسطة ما يأخذه النبات الأخضر من طاقة الشمس، وما يمتصه من غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو، وبما وهبه الخالق سبحانه وتعالى من قدرات يحول بها ذلك كله إلى كربوهيدرات، وبروتينات، وزيوت، ودهون تتركز في ثمار ومحاصيل النباتات التي يحيا عليها الإنسان، وما يباح له أكله من الحيوان، وأصل ذلك كله من تراب الأرض. ثم إذا مات ابن آدم، وغادرت روحه جسده، فإن هذا الجسد يبدأ في اليبوس والتخشب حتى يصير كالتمثال الحجري أو (صلصال كالفخار)، وبعد دفنه يبدأ في التحلل التدريجي الذي تقوم به البكتيريا والفيروسات، والفطريات والطحالب التي تعايشت مع الجسد في حياته، والتي توجد في جو وتربة القبر الذي يدفن فيه، فيتغير لونه، وتنتن رائحته (أي تفسد) حتى يصير ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26]، ثم يتحول إلى ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11] بفقد جزء من محتواه المائي، وبفقد كل مائه يتحول إلى تراب يغيب في تراب الأرض فيما عدا فضلة واحدة سماها رسول الله ﷺ باسم عجب الذنب ووصفها بأنها عظمة في حجم حبة الخردل توجد في نهاية العصعص، وأنها لا تبلى أبداً، وأن الإنسان يبعث منها في يوم القيامة بعد إنزال مطر خاص فينبته الله منها كما ينبت البقلة من بذرتها، وقد أيدت الدراسات المختبرية صدق هذا الوصف النبوي الشريف بأن عجب الذنب لا يبلى أبداً. وتؤكد الآيات في سورة القيامة أن من الدوافع النفسية إلى إنكار البعث محاولة خداع النفس من أجل الإغراق في الشهوات المحرمة، والمضي قدماً في الفجور دون وازع من ضمير أو رادع من حساب أو عقاب، وفي ذلك تقول الآيات: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: 5-6].

وللتأكيد على حتمية الآخرة تسارع الآيات إلى استعراض عدد من مشاهدها المرعبة



صورة لعظمة عجب الذنب التي
لا تبلى وهي بحجم حبة الخردل.

المذهلة فتقول: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: 7-15].

فمن مشاهد الآخرة خطف الأبصار وشدة شخوصها، وسرعة تقلبها كتقلب البرق وخطفه، وخسوف القمر وطمس نوره، ثم ابتلاع الشمس له كإشارة إلى بدايات تهدم النظام الكوني بأمر من الله - تعالى -.

وفي وسط ذهول الناس من فجائية هذه الأحداث وتسارع وقعها يتساءل الإنسان المرعوب، المرتاع، الفزع، الذي أنكر القيامة وسخر من وقوعها، ثم فوجئ بوقوعها وبأهوالها فيقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: 10] فيرد عليه الحق - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: 11] و(كلا) لفظة ردع وزجر وإبطال لقول القائل، و(الوزر) الملجأ

الذي يلتجأ إليه من جبل أو حصن أو غيرهما، بمعني أنه لا ملجأ من الله - تعالى - إلا إليه، فالمصير والمنتهى إليه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 12] حين يواجه الإنسان بصحيفة أعماله كاملة غير منقوصة: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] وهو حين تعرض عليه أعماله، وتشهد عليه جوارحه يصبح شاهداً على نفسه، بصيراً بما كان منها، فلا تقبل منه الأعذار مهما حاول، ولذلك تقول الآيات: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ [القيامة: 14-15].

وبعد ذلك تنتقل الآيات بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي كان يجهد نفسه الشريفة في متابعة الوحي بالقرآن الكريم من جبريل عليه السلام في لهفة بالغة حتى لا يتفلت منه شيء، فنزل الوحي مطمئناً إياه بأن الله - تعالى - قد تكفل بجمع القرآن الكريم في قلب النبي ﷺ وفي صحائفه على مر الزمان، وفي قلوب الحفاظ عبر التاريخ إلى قيام الساعة، كما تكفل بتثبيته على لسانه ﷺ قراءة صحيحة وعلى ألسنة الراغبين في حفظه من أبناء وبنات أمة الإسلام، فما كان على رسول الله ﷺ إلا أن يستمع لجبريل عليه السلام وهو يقرأ عليه القرآن الكريم فإذا ما أتم قراءته طبع الله - تعالى - ما قرئ في قلب خاتم أنبيائه ورسله، وأجراه على لسانه فقرأ مثلما قرأ جبريل تماماً. كذلك تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بتفهيم من يشاء من عباده دلالة آيات كتابه العزيز ولذلك قال - عز من قائل - موجهاً الخطاب إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة: 16-19].
وبعد ذلك تنتقل الآيات بالخطاب إلى الناس كافة منتقدة حبهم للدنيا وانشغالهم بها إلى الحد الذي قد ينسي الكثيرين منهم حتمية رجوعهم إلى الله - تعالى -، بل قد يدفع بالبعض إلى إنكار الآخرة فتقول: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾ [القيامة: 20-21]. وفجأة تنتقل الآيات إلى مصائر الخلائق في الآخرة بين وجوه تعلوها النضرة والصفاء والبشر، ناعمة بالنظر إلى ربها، ومستبشرة بحسن مصيرها، ووجوه كالحة ذليلة مستيقنة بداهية تقصم ظهورها، وفي ذلك تقول الآيات: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة: 22-25]. وفجأة كذلك تنتقل بنا الآيات إلى مشهد الاحتضار، وشدة سكرات الموت، وحشرجة الصدر، وبلوغ الروح إلى الحلقوم، لعل الناس يستيقظون من غفلتهم ليعلموا خطورة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، ويتنبهوا إلى حتمية الموت الذي يصرع الجبابرة كما يصرع المساكين، ويقهر المتسلطين كما يقهر

المستضعفين، ولا حيلة لأحد من الخلق فيه أبداً فتقول: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ **[القيامة: 26-36]**.

ثم تستشهد الآيات بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة في خلق الإنسان من نطفة إذا تمنى، ثم جعله علقة بطول أجزاء قليلة من المليمتر، ومن هذه العلقة خلق الإنسان بأعضاء جسده المختلفة، وأجهزته المتعددة، وأنسجته وخلاياه التي يصل عددها إلى ألف تريليون خلية في المتوسط تتعاون في خدمة هذا المخلوق المكرم بجنسيه الذكر والأنثى طيلة حياة كل منهما وإلى لحظة مماته، ولذلك ختمت هذه السورة المباركة بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ **[القيامة: 36-40]**.

وعلى كل سامع لهذا الختام المنطقي الرائع أن يقول كما أوصانا نبينا ﷺ: «**بلى هو سبحانه قادر على أن يحيي الموتى، وأنا على ذلكم من الشاهدين**».

من ركائز العقيدة في سورة القيامة:

1 - الإيمان بيوم القيامة وبكل ما سوف يحدث فيه من أحداث جسام وصفها القرآن الكريم.

2 - التسليم بقيمة (النفس اللوامة) في إصلاح سلوك صاحبها وإيقاظ ضميره، وإسعافه بالتوبة إلى الله - تعالى - من أخطائه كلما أخطأ، وإلى شحذ همته لمزيد من الطاعة وعمل الخير كلما هبطت همته في ذلك.

3 - التصديق بحقيقة البعث، بل بحتميته وضرورته، وبشهادة الخلق الأول على إمكانية وقوعه.

4 - اليقين بأن من الدوافع النفسية لإنكار البعث عند الكافرين الرغبة في مخالفة أوامر الله - تعالى - دون تأنيب من الضمير، والخوض في المعاصي إلى حد الفجور دون مخافة الحساب والجزاء.

5 - التسليم بأن من أوائل أحداث تدمير الكون هي حادثة ابتلاع الشمس للقمر.

6 - الإيمان بأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

7 - اليقين بأن جميع أعمال وأقوال الإنسان مدونة عليه، وأنه سوف ينبأ في يوم الحساب بما قدم وأخر، وأنه سيكون شاهداً على نفسه في ذلك اليوم، ولن تقبل منه أعذار عن أخطائه.

8 - التصديق بأن الله - تعالى - قد تكفل بطبع القرآن الكريم في قلب خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وفي قلوب الحفاظ المجتهدين من الذكور والإناث إلى قيام الساعة، كما تكفل بجمعه وحفظه بمختلف صور الحفظ المادي حفظاً كاملاً بنفس لغة وحيه - اللغة العربية - إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، وتكفل بتيسير تلاوته، وبيان معانيه لمن يشاء من عباده.

9 - التسليم بأن حب الدنيا هو جزء من هوى النفس البشرية، والعاقل من قاوم تلك النزعة حتى يحيا حياته في توازن واعتدال لا ينسيه الآخرة.

10 - الإيمان بأن الناس سوف ينقسمون في الآخرة إلى سعداء وأشقياء، وأن السعداء هم الذين يوظفون دنياهم من أجل الفوز في أخراهم، بينما الأشقياء هم الذين ضحوا بأخراهم من أجل دنياهم.

11 - اليقين بأن الموت حق على جميع العباد وأن أحداً لا يملك للمحتضر شيئاً.

12 - التصديق بأن الإعراض عن دين الله وتكذيب رسله، والتقصير في أداء العبادات المفروضة وأولها الصلاة، وإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، وفي مقدمته الغيوب التي نزل بها وحي السماء، والتعالي والاختيال والتكبر على خلق الله، كل ذلك من مبررات تحقق وعيد الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، وعند الموت والبعث والحساب والجزاء.

13 - الإيمان بأن للإنسان رسالة محددة في هذه الحياة هي عبادة الله - تعالى - بما أمر، وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

14 - اليقين بأن الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى قادر حقاً على أن يحيي الموتى، وأن الخلق الأول شاهد على إمكانية البعث.

من الإشارات الكونية في سورة القيامة:

1 - نفي أزلية العالم بالتأكيد على حتمية الآخرة، والعلوم المكتسبة تؤكد ذلك وتدعمه.

2 - التأكيد على عدد من جوانب النفس الإنسانية وطبائعها، والدراسات المتأخرة في علم النفس تدعم ذلك وتؤيده.

3 - الإشارة إلى دقة تسوية البنان في الإنسان.

4 - التأكيد على أن ابتلاع الشمس للقمر من أوائل أحداث انهدام الكون، والعلوم المكتسبة تسجل ابتعاد القمر عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، مما يشير إلى حتمية وقوع ذلك الحدث بسنن وقوانين الآخرة التي هي مغايرة لسنن الدنيا وقوانينها مغايرة كاملة.

5 - الإشارة إلى حفظ القرآن الكريم بوعد من الله - تعالى -، وحفظه على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية في نفس لغة الوحي التي أنزل بها - اللغة العربية - دون زيادة حرف واحد أو نقصان حرف واحد لم يؤكد ذلك ويدعمه.

6 - التأكيد على حقيقة الموت، وعلى عجز جميع المخلوقين عن دفعه.

7 - وصف بعض صفات الكفار والمشركين وصفاً دقيقاً يتحقق في واقع الحياة.

8 - الإشارة إلى خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى ووصف بعض مراحل الجنين.

9 - الإشارة إلى حتمية البعث، وبقاء عجب الذنب دون أن يُبلى يؤكد ذلك. وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الثامنة من القائمة السابقة والتي تقرر خلق الإنسان من نطفة من مني يُمنى.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

تؤكد هذه الآية الكريمة أن الإنسان لم يخلق عبثاً، بل له رسالة محددة في هذه الحياة لها قصد وغاية، ومن ورائها حكمة بالغة، وأن الحياة الدنيا ما هي إلا فسحة من الزمن يهبها الخالق سبحانه وتعالى لكل مخلوق عاقل مكلف ليثبت في نهايتها جدارته بالجنة ونعيمها، أو استحقاقه للنار وجحيمها، والإنسان ليس له بعد حياته الدنيا إلا الموت، ثم حياة البرزخ

وحساب القبر، ثم البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وتنزل القرآن الكريم بالتأكيد على أن الإنسان لن يترك سدى، فيه إشارة إلى تلك الرسالة بعد أن كانت الغالبية الساحقة من أهل الأرض قد نسيتها، فغرقت في بحور من دعاوى الكفر والشرك والإلحاد من أمثال الوثنيات المتعددة، والخرافات الموغلة في الخيال، والأساطير المفتراة بغير حساب، والهواجس الظنية البعيدة كل البعد عن الواقع مما دفع بغالبية الناس إلى متاهات من الضلال والفساد، في العلاقات، والسلوك، والاعتقاد، أضرت بالبشرية أضراراً بالغة.

في هذا الجو الخانق أنزل القرآن الكريم هداية من الله - الخالق - للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط أن الإنسان لا يمكنه الوصول فيها إلى تصور صحيح أبداً من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وهي تشكل ركائز الدين، كما تحدد للإنسان رسالته في هذه الحياة: عبداً لله، يعبده - تعالى - بما أمر، ومستخلفاً في الأرض يعمرها ويسعى جاهداً لإقامة عدل الله فيها. وعلى أساس من نجاحه أو فشله في تحقيق هذه الرسالة سيكون جزاؤه العادل في الآخرة.

ونحن نرى الموت حقيقة قائمة في حياتنا، لا حيود عنها، ولا مهرب منها..!!، ونرى الأدلة المادية الملموسة على حتمية فناء الكون بكل ما فيه ومن فيه، ظاهرة جلية، كما تشير العلوم المكتسبة إلى إمكانية البعث، والمنطق السوي يدعم حتميته وضرورته ليكافأ المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فكم من مسيء يفلت من عقاب الدنيا، وكم من محسن لا يلقى في الدنيا جزاء، لذلك قال ربنا - تبارك وتعالى - أن الإنسان لن يترك سدى.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 37].

(النطفة) في اللغة العربية هي الماء الصافي، قل أو كثر والجمع (نطاف)؛ و(نطفان) الماء سيلانه، وقد (نطف، ينطف) بضم الطاء وكسرها؛ أي: سال يسيل. ويكنى عن اللؤلؤة بـ (النطفة)، و(النطف) الدلو؛ وليلة (نطوف) يجيء فيها المطر حتى الصباح، و(الناطف) السائل من المائعات الحلوة. يقال فلان (ينطف) بالمعروف أي يندي به فهو (منطف) المعروف.

أما القرآن الكريم فقد أورد لفظة (نطفة) اثنتي عشرة مرة بمعنى الخلية التناسلية (خلية التكاثر) التي يتخلق منها الإنسان على النحو التالي:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4].

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: 5].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: 12-13].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر: 11].

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45-46].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 37].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: 17-19].

وعلى ذلك فإن الغالب في معنى (النطفة) هو الخلية التناسلية (**Gamete**) سواء كانت من الرجل أو من المرأة، و(النطفة الأمشاج) هي اللقيحة (**Zygote**) الناتجة عن اندماج نطفتي الرجل والمرأة.

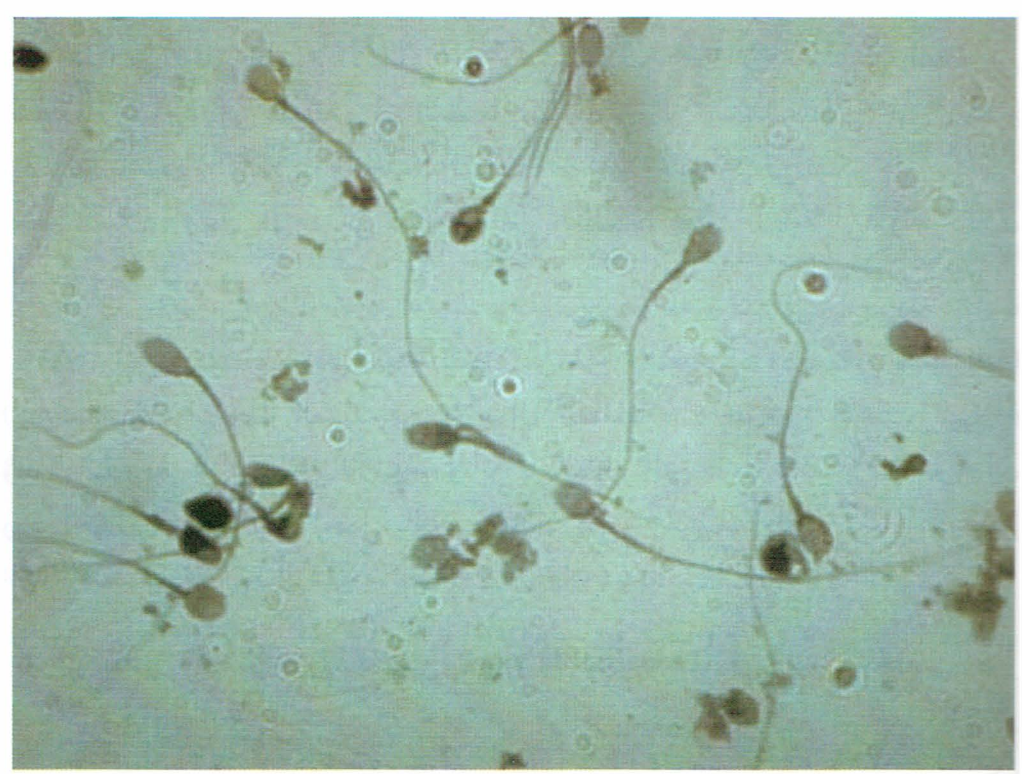
و(المني) في اللغة هو التقدير، يقال: (منى) لك (الماني)؛ أي: قدر لك المقدر و(المني) هو السائل أو السوائل الحاملة للنطف التي قدرت بها الحياة. وهذه اللفظة جاءت بتصريفاتها المختلفة أربع مرات في كتاب الله المجيد على النحو التالي: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45-46]. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 58-59]. ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: 37-39].



خُلق الإنسان من تراب الأرض.

و(الإمناء) هو إفراغ السوائل الحاملة للخلايا التناسلية في مكانها الصحيح حتى تتم عملية الإخصاب، أو هو الإخصاب ذاته، وهو من تقدير الخالق الحكيم ﷻ، أو هو إنتاج النطف ثم إخصابها، ويتم ذلك بتقدير من الله - تعالى - ليعطي لكل فرد من بني آدم شيفرة وراثية تميزه عن غيره من الخلق، وتعطي ذلك لكل فرد من نسله إلى قيام الساعة.

ومن (المني) بمعنى التقدير جاءت لفظة (المنية) وهي الأجل المقدر للكائن الحي بالموت، وجمعها (المنايا) و(المنون)؛ يقال: (مني) له أي: قدر له وذلك لأن الموت مقدر على كل حي و(المنية) واحدة (المني)، و(الأمنية) واحدة (الأماني) وجمعها (أمان) و(أمانيّ) بالتخفيف والتشديد.



في أواخر القرن السابع عشر الميلادي اكتشفت نطفة الرجل وذلك بواسطة المجهر.
ولكن دون معرفة دورها في عملية الإخصاب.

إدراك العلوم المكتسبة لحقيقة النطفة:

مما لا شك فيه أن الإنسان قد شغل بقضية التناسل منذ أن وطئت قدماه الأرض. فمنذ أكثر من ثمانية قرون وجدت بعض الكتابات عن تكون الجنين في الحضارات القديمة من مثل الحضارة المصرية القديمة، والحضارة الهندية القديمة، ولكنها كانت في مجموعها مشوبة بالتخمين والظن، وظل الحال كذلك إلى الحضارة اليونانية القديمة حين اقترح أبوقراط (من حوالي 460 ق.م. إلى حوالي 377ق.م.) دراسة الأجنة في بيض الطيور. وتبعه أرسطو (من حوالي384 ق.م. إلى حوالي322 ق.م.) الذي نادى بتكون الجنين من اختلاط دم الحيض مع ماء الرجل، وتلاه جالن (من حوالي130 - 201 م) وتكلم عن تغذية الحميل والأغشية المحيطة به.

وفي الفترة من 610م إلى 632م أنزل الله - تعالى - القرآن الكريم متضمناً وصفاً

دقيقاً لمراحل تخلق الجنين الإنساني في ترتيب محكم غاية الإحكام: من النطفة إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة، ثم المضغة (المخلقة وغير المخلقة) إلى خلق العظام وكسوتها باللحم (العضلات والجلد)، ثم إنشاء الحميل خلقاً آخر في تشكل متواصل إلى لحظة الميلاد. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل العالم لا يعرف النطفة إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي.

في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي قام قسطنطين الأفريقي **(Africanus Constantinus)** بترجمة العديد من الأعمال المتعلقة بالأجنة من اللغات اليونانية والرومانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، وتأثراً بالأساطير التي كانت شائعة في زمانه حاول ربط أحوال الجنين أثناء الحمل بالنجوم والكواكب، وهي محاولة لا أساس لها من العلوم الصحيحة.

وفي عصر النهضة حاول دافنشي **(Leonardo da Vinci)** في القرن الخامس عشر الميلادي قياس أبعاد الحميل في عدد من مراحل نموه المتأخرة، ثم تبعه كل من جيرولامو فابريشيوس **(Girolamo Fabricius)** ووليام هارفي **(William Harvey)** في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين اللذين ناديا بأن الجنين يفرزه الرحم.

وبعد اختراع المجهر فتحت آفاق جديدة أمام علماء الأجنة على الرغم من بساطة الأجهزة في أول الأمر فوصف الهولندي دي جراف **(Regnier de Graff)** حويصلة البييضة دون معرفة دورها في تخلق الجنين وذلك في سنة 1672م وبعد ذلك بثلاث سنوات وصف مالبيجي **(Marcello Malpighi)** جنين الدجاجة على أنه صورة مصغرة للدجاجة.

ولم تكتشف نطفة الرجل (الحيمن) إلا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي حينما استخدم كل من هام وزميله ليوفينهويك في سنة 1677م **(Hammand Leeuwenhoek)** مجهراً محسناً، ولكن دون فهم لدور هذه النطفة في عملية الإخصاب، حيث تصوروا هذا الحيمن حاملاً في رأسه إنساناً متقزماً مكتمل النمو في هيئة متناهية الضآلة في الأبعاد يزداد تدريجياً إلى حجم الطفل الكامل النمو في رحم الأم، وتبعهما في ذلك كل من هارتسويكر **(Hartsoeker)** في سنة 1694م، وبفون **(Buffon)** في سنة 1749م.

في سنة 1759م رفض وولف (Caspar Friedrich Wolff) فكرة الخلق الكامل للوليد في رأس نطفة الرجل. ولم تنته هذه الخرافة إلا في سنة 1775م حين أثبت سبالنزاني (Spallanzani) دور كل من نطفتي الرجل والمرأة في تخلق الجنين، وكان كل من القرآن الكريم وأقوال رسول الله ﷺ قد أكدا هذه الحقيقة من قبل ألف سنة، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده: «أن يهودياً مر برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي. فقال اليهودي: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: **يا يهودي! من كل يخلق: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**».

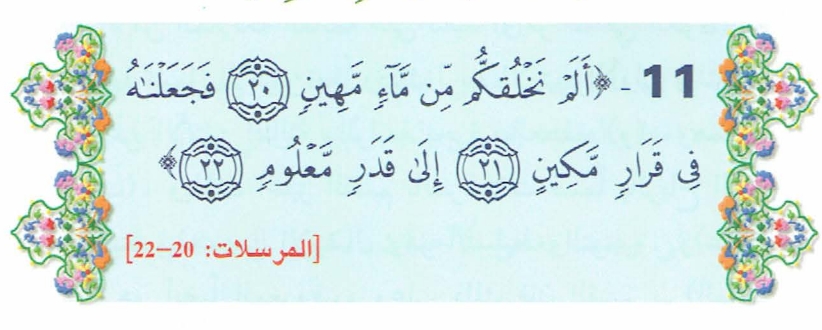
وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13].

في سنة (1817 م) اكتشف باندر (H.C.Pander) تكوّن جسم الجنين من ثلاث طبقات، وبعد ذلك بعشر سنوات وصف فون باير(Von Baer) في سنة 1827م الخلية البييضية الناضجة (Oocyte) في رحم أنثى الكلب بعد اكتشاف الحيمن بحوالي مائة وخمسين سنة. في سنة 1839م قدم كل من الألمانيين شليدن وشفان (Schleiden and Schwann) مفهوم الخلية على أنها هي وحدة بناء أجساد الكائنات الحية، وحتى بعد هذا الاكتشاف فإن العلوم المكتسبة لم تدرك أن النطف من الخلايا إلا في أواخر القرن التاسع عشر (1859م)، ولم تعرف عملية الإخصاب إلا بعد أن شاهدها كل من هيرتويج (Hertwig) في سنة 1875م، وفان بنيدين (Van Beneden) في سنة 1883م، ولم يتم التأكد من ذلك إلا في أوائل القرن العشرين.

من هذا الاستعراض التاريخي السريع يتضح أن تسجيل القرآن الكريم لحقيقة أن الإنسان (لم يك سوى نطفة من مني يمنى) هو سبق علمي حقيقي يشهد لهذا الكتاب المجيد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه حفظاً كاملاً وذلك لأن القرآن الكريم هو رسالة الله الخاتمة لهداية خلقه، ولما لم يكن من بعدها رسالة أخرى تعهد ﷻ بحفظها حفظاً كاملاً في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) فحفظها على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وتعهد بهذا الحفظ إلى أن يشاء الله.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي والرسول الخاتم، والحمد لله على هدايتنا إلى اتباعه والتأسي به، ونسأله - تعالى - أن يثبتنا على هذا الحق حتى نلقاه وهو راض عنا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





هذه الآيات القرآنية الأربع جاءت في نهاية النصف الأول من سورة المرسلات وهي سورة مكية، وآياتها خمسون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالقسم بالمرسلات وهي الرياح اللطيفة. وكطبيعة السور المكية يدور المحور الرئيس لسورة المرسلات حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها الأساسية الإيمان بالبعث بعد الموت وبما يواكبه من حساب وجزاء وخلود في الآخرة إما في الجنة ونعيمها للمؤمنين المتقين أو في النار وجحيمها للمكذبين المجرمين. وقد شددت سورة المرسلات النكير على منكري البعث، وهددتهم بالويل والثبور، وعظائم الأمور، مقابل كبرهم وعنادهم، والساعة آتية لا محالة، والبعث واقع لا فرار منه، ولا فكاك عنه.

استعراض سريع لسورة المرسلات:

تبدأ سورة المرسلات بقسم من الله - تعالى - وهو الغني عن القسم لعباده - بخمسة أشياء عظيمة من خلقه تأكيداً على ما فيها من شهادة له بطلاقة القدرة وعظيم الصنعة وإبداع الخلق، وبالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه؛ بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، وفي ذلك تقول الآيات: ﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَالْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات: 1-6].

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأمور الخمسة المقسم بها هل هي من الظواهر الكونية، أم من الملائكة القائمة على تنفيذ أوامر الله في الكون، أم تشمل الأمرين معاً؟ والظاهر أنها تشمل الأمرين معاً وذلك لربط الآيتين الأولى والثانية بحرف العطف (ف)، وفصلهما عن الآيتين الثالثة والرابعة بحرف العطف (و)، وهما مربوطتان أيضاً بحرف العطف (ف)، وبذلك اعتبر القسم بالمرسلات قسماً بالرياح التي يرسلها ربنا - تبارك وتعالى - بتصريفه، من الإرسال وهو التسليط والتوجيه. و(عرفاً) أي متتابعة متلاحقة و(العرف) هو أيضاً المعروف، وعلى ذلك فإن القسم بـ (المرسلات عرفاً) هو قسم بالرياح المتتابعة التي يرسلها ربنا - تبارك وتعالى - بالخير، ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ والعطف بالفاء هنا يشير إلى أنه من عطف الصفات، والعاصفات هي الرياح فائقة الشدة التي تصل في شدتها إلى مستوى العاصفة أو الإعصار، وبذلك يكون القسم بالرياح اللطيفة المتتابعة (أي النسيم)، كما يكون بالعواصف المدمرة والأعاصير وكلها من تصريف الله ﷻ ومتحركة بإرادته، وأمره، وحكمته. أما القسم الثاني فقد جاء بالملائكة، وهم من أعظم خلق الله قوة، وأكثرهم التزاماً بطاعته وعبادته وحمده وتسبيحه وتمجيده، وجاء وصف الملائكة بتعبير (الناشرات) لنشرهن أجنحتهن في الفضاء الكوني، أو لنشرهن الهداية الربانية بالوحي إلى أنبياء الله ورسله بما يحيي النفوس التي أماتتها العقائد الفاسدة من الكفر والشرك وغيرها من صور الضياع التي تجعل كثيراً من الأحياء كأنهم موتى.

وكذلك الإضافة بوصف (الفارقات فرقاً) فإنها تعود أيضاً على الملائكة الذين جعلهم الله - تعالى - بما يرسلهم به من أنوار الوحي السماوي - وسيلة للتفريق بين الحق والباطل، في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط عجز الإنسان عن وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة، والعبادة والأخلاق، والمعاملات، وهي تشكل ركائز الدين. ويؤكد هذا المعنى الوصف الذي جاء في الآية الخامسة والتي تقول: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: 5] أي: اللاتي تلقين الذكر إلى أنبياء الله ورسله ليبلغوه إلى الناس ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ [المرسلات: 6] أي: إعذاراً إلى الله وإنذاراً منه ﷻ، أو إعذاراً إلى الخلق بمعنى إزالة لأعذار الخلق عند الله، وتخويفاً من عقابه عند عصيان أوامره، وإن كان بعض المفسرين قد جعل الأوصاف الخمسة كلها للرياح، ومنهم من جعلها كلها للملائكة، ومنهم من غاير بينها كما أسلفنا. فقد قيل في (الناشرات) إنها

الرياح التي تنشر السحاب وتسوقه إلى حيث أراد الله. ويأتي جواب القسم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: 7].

أي بحق كل ما أقسمت به إن ما وعدتم به من قيام الساعة وما يصاحبها من البعث، والحشر، والحساب، والجزاء، والخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً كل ذلك لواقع لا محالة.

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى وصف بعض الأحداث الكبرى المصاحبة لقيام الساعة فتقول:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: 8-15].

وطمس النجوم يعني ذهاب ضوئها في لحظات احتضارها، وانفراج السماء أي تشققها بزوال القوى الماسكة بأطرافها وبأجرامها، ونسف الجبال يعني زوالها باقتلاعها من جذورها وتذريتها في الهواء، والتوقيت للرسل بوقت محدد وهو يوم الفصل بينهم وبين الخلائق من الذين كذبوهم في الدنيا، وتطاولوا عليهم، وأساءوا إليهم وحاربوهم، ومن الذين آمنوا بهم ونصروهم وأيدوهم، أو حملوا لواء دعوتهم من بعدهم بإخلاص وتجرد لله - تعالى -، وقد أجل ربنا - تبارك وتعالى - ذلك كله إلى يوم الحساب الذي سماه باسم (يوم الفصل) وتهويلاً لشأن هذا اليوم تسأل الآيات رسول الله ﷺ كما تسأل كل مؤمن برسالته فتقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات: 14-15] أي هلاك وعذاب شديد في هذا اليوم للذين كذبوا به، واستهانوا بأمره، وقد تكررت هذه الآية في سورة المرسلات عشر مرات، عقب كل آية كذب بها الجاحدون من الكفار والمشركين، تأكيداً على أن هذا الويل سوف ينال كل واحد منهم على قدر تكذيبه بما أنزل الله - تعالى - من علم، بمعنى إذا حصل كل ذلك وقع ما كنتم توعدون. ثم تنتقل الآيات لعرض مصارع الغابرين من المجرمين المكذبين بالدين وكل من تابعهم فتقول:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات: 16-19].

والاستفهام هنا للتقرير، استدلالاً على إمكان البعث قياساً على هلاك جميع المشركين الذين عاشوا قبل عصر النبوة المحمدية وبعده، وقياساً على موت الأحياء من الخلق، فالذي خلق الخلق من العدم وقرر الموت على كل مخلوق قادر على بعث من أماتهم، وعلى إعادة خلق السموات والأرض بعد تدمير كل شيء. ويفضي ذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث من قبل العديد من الكافرين من خلق الله المكلفين.

وفي التأكيد على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان، ومن منطلق الاستفهام التوبيخي التقريعي للكفار والمشركين تذكرهم الآيات في سورة المرسلات بطلاقة القدرة الإلٰهية وبتواضع نشأة الإنسان فتقول:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾ [المرسلات: 20-24]

و(الماء المهين) هو ماء التناسل، و(القرار المكين) هو رحم الأم، و(القدر المعلوم) هو مدة الحمل من لحظة تخلق الجنين إلى ولادته، بتقدير محكم دقيق يشهد للخالق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة، ومن هنا جاء التعليق بأن الذي لا يرى في خلقه شهادة على ذلك، ويكذب به فإن تهديده بهلاك يوم القيامة وأهواله وعذابه وبحتميته أمر واجب. ثم تنتقل الآيات إلى الإشادة بعدد آخر من نعم الله العديدة على عباده فتقول:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات: 25-28]

و(كفات) اسم للشيء الذي (يكفت) فيه، أي يجمع ويضم فيه، والأرض تضم كلاً من الأحياء والأموات ولذلك وصفت بالكفات، مما يشير إلى قدرة الله البالغة بجعل الأرض كوكباً صالحاً لحياة الإنسان، وصالحاً لدفن أمواته، وفي ذلك تأكيد على أن مصير كل حي إلى تراب الأرض الذي خلق منه ابتداء مما يؤكد حتمية البعث منه. و(الرواسي الشامخات) هي الجبال المرتفعة التي جعلها الله - تعالى - مرسية للأرض ككل بالتقليل من ترنحها في دورانها حول محورها، وإلا ما كانت صالحة للعمران، ومرسية لألواح الغلاف الصخري للأرض الحاملة للقارات والمفصولة عن بعضها بشبكة من الصدوع، والمتحركة باستمرار تباعداً عن بعضها البعض أو تصادماً عبر شبكة

الصدوع الفاصلة، ولولا سلاسل الجبال لكانت هذه الحركات على قدر من العنف لا يسمح للحياة على ظهر هذا الكوكب بأن تتواجد. والربط بين (الرواسي الشامخات) وإنزال (الماء الفرات) أي العذب هو ربط معجز لأن ارتطام السحب بالجبال - خاصة الطباقية منها - والمحملة ببخار الماء (والمعروفة باسم المزن) هو من الأسباب الأساسية لنزول ماء المطر، وهو أنقى صور الماء الطبيعي على وجه الأرض. وبعد ذلك تعرض الآيات لموقف من مواقف المكذبين في يوم الحساب حيث يقال لهم:

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرسلات: 30-40].

أي تنطلق بهم ملائكة العذاب قسراً إلى جهنم التي كانوا يكذبون بها، وأعيد الأمر بالانطلاق تأكيدا على التوبيخ، والتقريع والإهانة، والدفع. وأريد بالظل دخان جهنم لكثافته، ووصف بذلك تهكماً واستهزاء بهم لتمنيهم ظلاً يأوون إلى برده وسط نيران جهنم الحامية دون جدوى. و (الشعب) جمع شعبة وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، و(ظل ذي ثلاث شعب) أي ذي ثلاث طوائف من الدخان لكثرته وشدة انضغاطه أثناء خروجه من النار، أو ذي ثلاث درجات من الشدة، (لا ظليل) أي لا ظل حقيقي له، ولا يدفع عنهم شيئاً من شدة حرارة اللهب. والضمير في (إنها) يعود إلى جهنم (ترمي بشرر كالقصر) هو ما يتطاير من نار جهنم في كل جهة، كل (شرارة) منها تشبه القصر (وهو البناء المرتفع) في ضخامته، أو (القصرة) وهي كتل الخشب الكبيرة التي توقد للتدفئة في الشتاء. و (الجمالات الصفر) هي جمع (جمالة) وهي الطائفة من الجمال (الإبل) السود، وقيل لها (صفر) لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، وبذلك شبهت الآيات الشرر الذي ينفصل عن نار جهنم في ضخامته بالقصر (أو القصرة)، وفي اندفاعه وتتابعه بالإبل السود المائلة إلى الصفرة المندفعة في تزاحم وتدافع واضطراب. وتتحدث الآيات بأن المكذبين لا يستطيعون النطق في يوم الفصل من هول المفاجأة، (ولا يؤذن لهم) في الاعتذار والتنصل من جرائمهم إمعاناً في إذلالهم فلا يعتذرون عما أجرموا في حق الله بالكفر أو الشرك به في الحياة الدنيا. ولذلك تخاطب الآيات هؤلاء الكفار والمشركين

بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي جمع كل الخلائق من الأولين والآخرين. ومن قبيل التوبيخ والتعجيز تقول الآيات للكفار والمشركين: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المرسلات: 39-40].

والكيد قد يكون الحيلة لاتقاء العذاب في يوم القيامة، كما قد يكون ما يكيد به الكفار والمشركون لرسول الله ﷺ ولكل من الإسلام والمسلمين في الدنيا، والمعنيان مقبولان بحسب السياق، وإن كان المعنى الأول أولى بدلالة الآية التالية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 40] وبالمقابل تنتقل الآيات إلى الحديث عن جزاء المتقين المحسنين في يوم الحساب فتقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات: 41-44].

و(الظلال) هنا ظلال الأشجار والقصور للترفيه والتنعيم والتكريم، و(العيون) عيون ماء ولبن وعسل وخمر، و(فواكه) جمع فاكهة وهي ما يتفكه به ويتنعم، (مما يشتهون) أي أن الفاكهة بعض من نعم الله - تعالى - عليهم، وهي مضمومة إلى ملاذّ أخرى مما اشتهوه، ومقولة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 43]، يقصد بها المزيد من تكريمهم بعرض أطايب الطعام والشراب عليهم مع الدعاء لهم بالهناء بتناوله جزاء لأعمالهم الصالحة في الدنيا، ويؤكد لهم الله - جل شأنه - بأن هذه هي سنته في جزاء المحسنين من خلقه فيقول: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: 44] وهي جملة تقال لكل متق من العباد يصل إلى نعيم الجنة، وقد تكون موجهة للمكذبين بعد أن وصف لهم ما ينعم به المتقون، بمعنى: إنا كذلك نجزي المحسنين دون أمثالكم أيها المكذبون المسيئون الخاطئون.

وتعاود سورة المرسلات توجيه الحديث مرة أخرى إلى المكذبين بالدين فتقول:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المرسلات: 45-49].

والآيات تكرر من تأكيد الويل (أي الهلاك) للمكذبين في يوم الدين، ومن قبيل الإمهال والإنذار في الدنيا تقول لهم: إن متاع الدنيا قليل فكلوا وتمتعوا في الحياة الدنيا

ثم مأواكم جهنم وبئس المصير في الآخرة جزاء إجرامكم بالكفر أو الشرك أو التكذيب بالدين. وتختتم سورة المرسلات بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: 50] بمعنى: إن لم يؤمن المكذبون بهذا القرآن الكريم - وهو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظة حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية - فبأي حديث بعده يؤمنون؟ والاستفهام استنكاري، تعجبي، تقريعي لكل من يستمع إلى الحق الجلي في القرآن الكريم ولا يؤمن به.

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة المرسلات:

1 - الإيمان بأن الله - تعالى - هو الذي يصرف الرياح بعلمه، وحكمته، وإرادته، ويرسل الملائكة بوحيه إلى أنبيائه ورسله من أجل تحقيق الهداية لخلقه.

2 - التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم من علامات الآخرة من مثل طمس النجوم، وانفراج السماء، ونسف الجبال، وغيرها.

3 - التسليم بحقيقة الوحي والنبوة والرسالة، وبأن الرسل سوف يجمعون في يوم الفصل بين الخلائق ليسألوا كل عن أمته.

4 - الإيمان بأهوال يوم الفصل كما عرضها القرآن الكريم، وبأن المكذبين بالدين سوف يتعرضون للهلاك والدمار في هذا اليوم العصيب.

5 - التصديق بهلاك المكذبين، الذين كذبوا ببعثة الرسول الخاتم، وأجرموا في الدنيا وأفسدوا فيها فالهلاك مآلهم جميعاً.

6 - اليقين بطلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان من ماء مهين، ورعايته في رحم أمه لحظة بلحظة لفترة محددة حتى مولده، وخلق الأرض وتهيئتها لسكنى الأحياء ولدفن الأموات، وتثبيتها وإرسائها بالجبال التي تلعب دوراً هاماً في إنزال المطر بأمر من الله مما يشهد للخالق سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية والخالقية.

7 - التصديق بكل ما جاء بالقرآن الكريم من وصف لعذاب المكذبين بالدين في نار جهنم، ووصف لتكريم وتنعيم المؤمنين العاملين، المتقين المحسنين في روضات الجنة.

8 - الإيمان بأن القرآن الكريم من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، والذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه إلى يوم الدين؛ فإن لم يؤمن عقلاء الناس به فبأي حديث بعده يؤمنون؟

وقد دل على ذلك تردد الآية الكريمة: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 40] عشر مرات في هذه السورة المباركة.

من الإشارات الكونية في سورة المرسلات:

1 - الإشارة إلى شدة الرياح من الهواء الخفيف (أي النسيم العليل) إلى العواصف والأعاصير.

2 - وصف نهاية النجوم بالطمس، ونهاية السماء بالانفراج والتشقق، ونهاية الجبال بالنسف.

3 - الإشارة إلى الموت كسنّة من سنن الله الكونية، وكصورة من صور الاستئصال والإهلاك للكفار والمشركين المكذبين برسالات الله وبرسله.

4 - الإشارة إلى خلق الإنسان من السوائل التناسلية، ووصف تلك السوائل بالماء المهين، ووصف كل من الرحم والغدد التناسلية بالقرار المكين، ووصف مدة الحمل بالقدر المعلوم.

5 - وصف الأرض بأنها مهيأة لاحتواء الإنسان حياً وميتاً.

6 - وصف الجبال بأنها رواسي شامخات، وربطها بإنزال ماء المطر بأمر من الله - تعالى - نتيجة لاصطدام السحب بها.

7 - وصف ماء المطر بأنه ماء فرات أي شديد العذوبة، والدراسات التحليلية تؤكد أن أنقى صورة طبيعية للماء على الأرض هو ماء المطر.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الرابعة من القائمة السابقة والتي تتحدث عن خلق الإنسان من ماء مهين، وعلى جعله في قرار مكين إلى قدر معلوم.

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: 20].

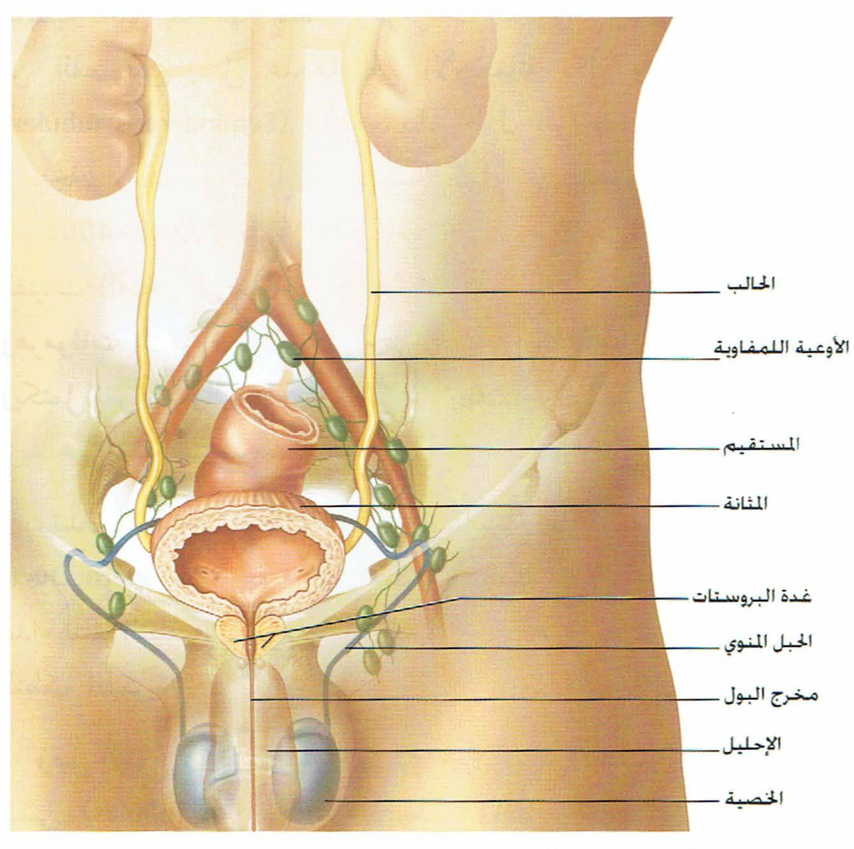
المهين في اللغة هو الضعيف، المبتذل الحقير، ووصف ماء التناسل بهذا الوصف ربما كان لارتباط الجهازين التناسلي والبولي ببعضهما ارتباطاً يجعل منهما جهازاً واحداً.

ويتكون الجهاز البولي التناسلي (The Urogenital System) من :

(1) أعضاء الجهاز البولي (The Urinary Organs) التي تقوم على استخلاص البول من الدم، وتخزينه تخزيناً مؤقتاً، وإخراجه.

(2) وأعضاء التكاثر أو التناسل (The Reproductive Or Genital Organs) التي تنمو - في غالبيتها - من نفس الأنسجة الجنينية (The Embryonic Tissues) التي تنمو منها أعضاء الجهاز البولي، وتظل مرتبطة معها بنفس العلاقات الوثيقة التي بدأت بها طوال مراحل الحياة، ومن هنا كان جمع الجهازين البولي والتناسلي في جهاز واحد يطلق عليه اسم الجهاز البولي - التناسلي.

وتشمل الأعضاء البولية كلاً من الكليتين وتقومان بنزع البول من الدم، والحالبين



رسم تخطيطي للجهاز البولي - التناسلي للذكر البشري.

(Ureters) ويحملان البول من الكليتين إلى المثانة. (Urinary Bladder) حيث يخزن فيها تخزيناً مؤقتاً، والإحليل (Urethra) الذي يخرج البول عبره إلى خارج الجسم. والإحليل في الذكر يخرج من المثانة إلى الموثة البروستاتة (Prostate) حيث يتصل بقنوات الغدد التناسلية فتصبح بقيته (وهي الجزء الأطول منه) مساراً طبيعياً لكل من البول والسائل المنوي (المني)، ومن هنا كان وصف القرآن الكريم هذا السائل بوصف الماء المهين.

أما في الأنثى فيمثل الإحليل بجزء قصير يمتد من المثانة إلى فوهة الإحليل (Urethral Orifice) وهي فتحة في مقدمة المهبل.

ويتكون الجهاز التناسلي في الذكر من الخصيتين وأغلفتهما (كيس الصفن)، وقنواتهما، وحويصلاتهما المنوية (The Seminal Vesicles)، والموثة (Prostate)، وغدد الإحليل البصلية، والإحليل، والأعضاء الخارجية وأغلفتها. والخصية (Testis) هي غدة تناسلية تخلق بداخلها النطف وهرمونات الذكورة. وتتكون الخصية من مجموعة هائلة من الفصوص يصل عددها إلى الأربعمائة بكل واحد منها ثلاث قنيات منوية (Seminiferous Tubules) دقيقة، يبلغ طول الواحدة منها حوالي نصف متر، وهي متعرجة، وملتفة حول ذاتها ومكدسة بطول كلي للفصوص الأربعمائة يصل إلى ستمائة متر (400×3×2/ 1 متر= 600م) في حيز لا يزيد عن20 سم^3 (4×5، 2×2 سم) وهذه القنيات (تصغير قنوات) قد وهبها الله ﷻ القدرة على إفراز كلٍّ من النطف الذكرية وهرمونات الذكورة والدفع بها إلى البربخ (Epididymis) الذي تخزن فيه تلك النطف ويكتمل نموها. والبربخ عبارة عن قناة بطول حوالي ستة أمتار لافة على ذاتها في حيز لا يزيد على ستة سنتيمترات مكعبة في أعلى الخصية من الخلف.

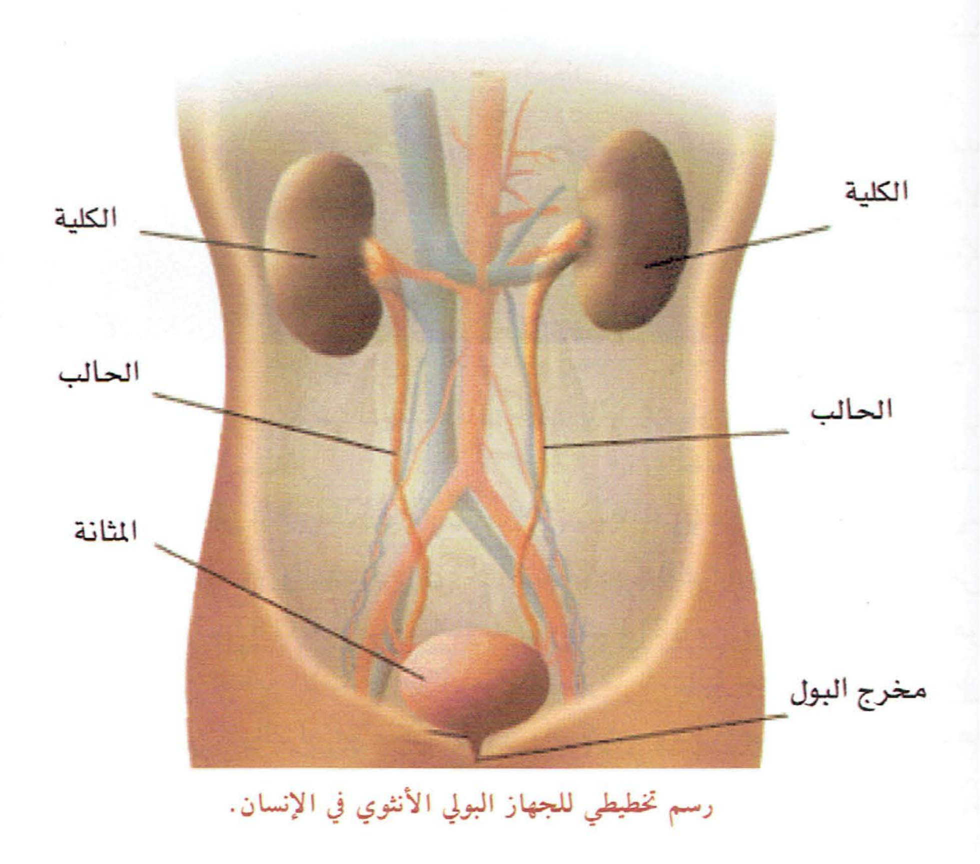
وتندفع الحيامن (النطف الذكرية) من البربخ عبر قناة تعرف باسم «قناة النطف الذكرية» (The Sperm Duct) حتى تلتقي بقناة الحويصلة المنوية (The Seminal Vesicle) التي تفرز غذاء تلك النطف، وتفرغ ما بها في الإحليل عبر الموثة التي تفرز بدورها سوائل تنشط النطف الذكرية.

وقبل البلوغ (11-13 سنة) تمتلئ جدر قنيات النطف الذكرية التي تعرف باسم قنيات المني (Seminiferous Tubules) بخلايا تحمل العدد الكامل من الصبغيات المميزة للإنسان (46 صبغياً) تعرف باسم الخلايا الضعفانية (Diploid Cells) التي تتكاثر

بالانقسام الفتيلي (Mitosis Division) وتعرف باسم بذور النطف الذكرية (The Spermatogonia).

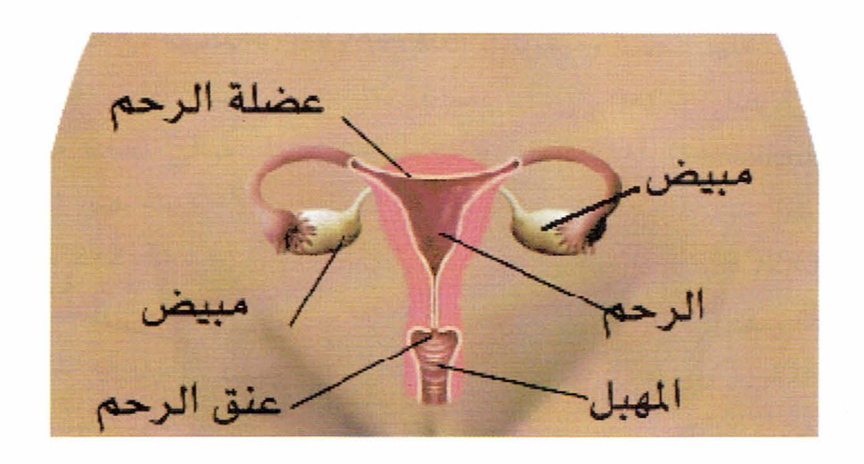
وعند البلوغ تقوم بعض هذه الخلايا بالانقسام الانتصافي (Meiosis Division) لإنتاج النطف الذكرية التي يحمل كل منها نصف عدد الصبغيات المميزة لخلايا الإنسان (أي23 صبغياً) والتي تمر بمراحل الخلايا النطفية الأولية (The Primary Spermatocytes)، ثم الخلايا النطفية الثانوية (The Secondary Spermatocytes)، ثم بمرحلة أرومة النطفة الذكرية (The Spermatid) ، ومنها تتكون النطف الذكرية (Sperms) التي لا يتعدى عمرها 72 ساعة في المتوسط.

ويتكون السائل المنوي (المني) من النطف الذكرية ومجموع السوائل المتكونة في كل من البربخ والحويصلة المنوية والموثة، والتي يفرزها عدد من الغدد الصغيرة حول مجرى البول تدعى غدد كوبر (وهو اسم مكتشفها).



رسم تخطيطي للجهاز البولي الأنثوي في الإنسان.

وفي الأنثى يتكون الجهاز التناسلي من المبيضين، وأنابيب الرحم، والرحم، والمهبل، والأعضاء الخارجية، والغدد الدهليزية العظمى، وغدد الثديين، وعندما تقترب حويصلة النطفة الأنثوية (البييضة) الناضجة من حافة المبيض تنفجر ويندلق ماؤها الأصفر الذي يدفع بالبييضة إلى بوق قناة الرحم حتى تلتقي بالنطف الذكرية فيخصبها أحدها بإذن الله تعالى. وماء البييضة يحملها تماماً كما يحمل ماء الرجل النطف الذكرية، وكلاهما - على روعة تكوينه - لا يعدو أن يكون ماء مهيناً كما وصفه القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة، وذلك نابع أساساً من ارتباط الجهازين التناسلي والبولي في كلٍ من الذكر والأنثى، ولأن هذا الماء يراق ويسفح، ويهان ولا يكرم حتى يشاء الله -تعالى- لجزء منه القيام بالدور الذي خلق من أجله وهو التكاثر.



رسم تخطيطي للجهاز التناسلي الأنثوي في الإنسان.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ **[المرسلات: 21]**.

يذهب كلٌّ من الأطباء والمفسرين إلى أن المقصود بـ (القرار المكين) في كل من الآيتين الكريمتين رقم (13) من سورة المؤمنون ورقم (21) من سورة المرسلات هو الرحم الذي يحتضن النطفة الأمشاج طوال مراحل نموها المتتالية حتى تولد طفلاً كامل الخلقة سوي التكوين. والقرار هو محل القرور والمكث، ومكين صفة للقرارة ومعناها حصين.

والرحم عضو عضلي أجوف سميك الجدار يقع في منتصف جسم الأنثى فوق كل من المثانة والجزء العلوي من المهبل، كمثري الشكل في ثلثيه العلويين، وأسطواني في ثلثه الأسفل، ويضيق قليلاً عند نهايته السفلى التي تمتد إلى الجزء العلوي من فراغ المهبل، مما يساعد على تثبيت الرحم في موضعه. ويتكون جدار الرحم من طبقات ثلاث: خارجية رقيقة من مادة بريتونية، ووسطى ثخينة مكونة من مواد عضلية في ثلاث طبقات، وداخلية غشائية. ويحاط عنق الرحم والجزء العلوي من المهبل بنسيج خلوي ضام يربط الرحم بكلٍّ من المهبل والمثانة.

كذلك يمسك بالرحم في موضعه مجموعة من الأربطة والصفاقات المتعددة التي تثبته في مكانه، وفي نفس الوقت تسمح له بالاتساع التدريجي في مراحل الحمل المتتالية ليتضاعف حجمه في مراحله المتأخرة إلى ثلاثة آلاف ضعف حجمه قبل الحمل، وعلى الرغم من ذلك يبقى الرحم مثبتاً بأربطته في مكانه من تجويف البطن. والرحم محمي كذلك بعظام الحوض وهي من أقوى أجزاء الهيكل العظمي للمرأة، وهو أيضاً مثبت تثبيتاً محكماً بعضلات كلٍّ من الحوض والعجان (**Perineum**).

ويذهب الأستاذ الدكتور كريم حسنين إلى أن مدلول التعبير القرآني (قرار مكين) هو غدد التناسل في الإنسان (**Gonads**) وهما الخصيتان في الذكر (**Testes**) والمبيضان في الأنثى (**Ovaries**) على اعتبار أن غدد التناسل هي مستقر النطف ومنبعها في جسد الإنسان، وأن الضمير في (جعلناه) يعود على (الماء المهين)، وأن لفظة (قرار) لغوياً هو مستقر ومصدر للماء، والمعنى الأول أولى بالاتباع مع إمكانية قبول المعنى الثاني واليقين بأن خلق الله - تعالى - مقدر بدقة بالغة سواء في غدد التناسل أو في الرحم أو في غيرهما من أجزاء جسم الإنسان. ويدعم ذلك قول ربنا - تبارك وتعالى - في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ **[المؤمنون: 13]**، والضمير في (جعلناه) هنا يعود على الإنسان وقوله - تعالى - ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ **[الحج: 5]**.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ **[المرسلات: 22-23]**.

في اللغة العربية (قدر) الشيء مبلغه (وهو بسكون الدال وفتحها) و(قدر) الله و(قدره) عظمته، قال - تعالى -: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ **[الزمر: 67]** أي ما عظموه حق تعظيمه. و(القدر) و(القدر) أيضاً هو ما يقدره الله - تعالى - من القضاء، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ **[الأحزاب: 38]**، و(القدر) كذلك هو وقت الشيء (المقدر) له والمكان (المقدر)

له، قال - تعالى -: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22]. ويقال: لي عليه (مقدرة) بكسر الدال وفتحها أي (قدرة)، ورجل ذو (مقدرة) بضم الدال أي ذو يسار، أما (المقدرة) بفتح الدال فهي من القضاء والقدر. ويقال: (قدر) على الشيء (قدرة) و(قدراناً) بضم القاف، كما يقال: (قدر) (يقدر) (قدرة) أي استطاع.

ويقال: (قدّر) الشيء (قدره) (تقديراً) و(مقداراً) من التقدير وهو تبيين كمية الشيء، أو من إعطاء القدرة، يقال: قدرني الله على كذا أي قواني عليه.

ويقال: (قدر) الشيء فـ (انقدر) أي: جاء علي (المقدار)، و(قدر) علي عياله أي: ضيق عليهم بمعنى قتر وذلك من مثل قوله - تعالى -: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الطلاق: 7] أي ضاق عليه رزقه. ويقال: (استقدر الله خيراً)، و(تقدر) له الشيء أي تهيأ له، و(الاقتدار) على الشيء هو (القدرة) عليه. و(القدرة) إذا وصف بها الإنسان فهي اسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف بها الله - تعالى - فهي (القدرة المطلقة) على كل شيء، التي ينتفي بها العجز من كل وجه، و(القدير) هو الفاعل لما يشاء على (قدر) ما تقتضي الحكمة، فلا يصح أن يوصف غير الله - تعالى - بـ (القدير)، و(المقتدر) يقاربه، لكن قد يوصف به البشر.

و(تقدير) الله الأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة، قال - تعالى -: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]، وقال - عز من قائل -: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] وقال - وقوله الحق -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] و(التقدير) من الإنسان على وجهين أحدهما: التفكر في الأمر بتعقل وروية وذلك محمود، والثاني: أن يكون بحسب التمني والشهوة وذلك مذموم، وفيه يقول - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ [المدثر: 18-19].

ونفهم من قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: 22] أي: ألم نجعل عملية خلق الواحد منكم في رحم أمه عملية مؤخرة مؤجلة إلى وقت معلوم قدره الله - تعالى - له، بمقدار محدد من الزمن وهو فترة الحمل (وأقلها ستة أشهر قمرية أي حوالي 177 يوماً، وأكثرها تسعة أشهر قمرية أي حوالي 266 يوماً في المتوسط)، ومنكم من يكمل هذه المدة، ومنكم من لا يكملها، فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم من بطون أمهاتكم أطفالاً كاملي الخلقة، أسوياء التكوين أو غير ذلك. ونفهم من قول ربنا - جل شأنه -:

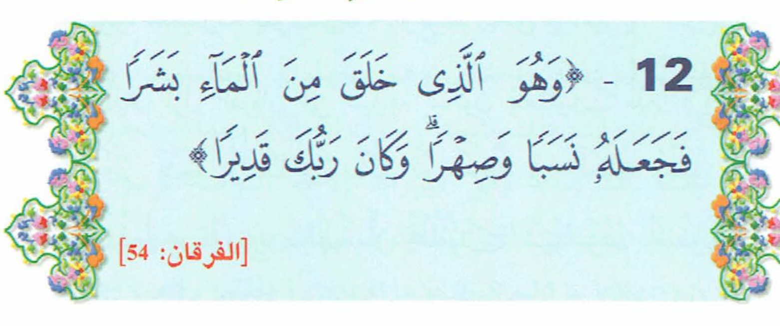
﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] أن الله - تعالى - يصف لنا طلاقة قدرته في إبداعه لخلقه وهذه الآية الكريمة تقرأ بتخفيف الدال في قوله - تعالى -: (فقدرنا) كما تقرأ بتشديدها (فقدّرنا)، والكلمة بالتخفيف تأتي من (القدرة) بمعنى فقدرنا على ذلك (فنعم القادرون) عليه نحن، قدرة مطلقة بلا حدود.

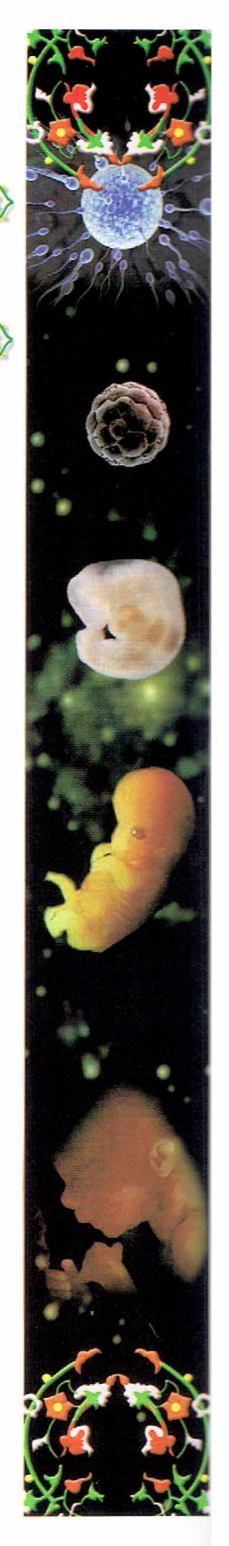
والكلمة بالتشديد (فقدّرنا) تأتي من (التقدير) أي تقدير الخلق والتصوير تقديراً محكماً في مراحل متتالية من النطفة الأمشاج إلى العلقة فالمضغة، فالعظام، فكسوة العظام باللحم (العضلات والجلد)، ثم إنشاؤه خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، ثم قدرنا الوقت الذي يولد فيه، وكان تقديرنا أفضل تقدير وأحكمه فشهد ذلك التقدير للخالق ﷻ بطلاقة القدرة وإحكام الخلق ومن هنا قال رب العالمين - وهو أصدق القائلين -: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] و(القادرون) اسم فاعل من (قدر) لأن القدرة الإلٰهية لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالثناء والتقدير. فمن كمال القدرة شمولية التقدير. والتأكيد على خلق الإنسان من ماء التناسل، ووصفه بأنه ماء مهين أي: ضعيف، مبتذل، حقير، وارتباطه بالجهاز البولي يؤكد ذلك، وضعف النطف فيه يدعمه كذلك، ووصف أي من غدد التناسل أو الرحم أو كل منهما بالقرار المكين، وتحديد المدة (إلى قدر معلوم) يشهد للخالق بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة وإبداع الخلق.

كل ذلك من المعارف السابقة بأكثر من اثني عشر قرناً للعلوم المكتسبة في علم الأجنة، ومما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظاً كاملاً على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى ما شاء، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين: سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذه الآية الكريمة جاءت في الثلث الأخير من «سورة الفرقان»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (77) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم (الفرقان) وهو اسم من أسماء القرآن الكريم لكونه فارقاً بين الحق والباطل.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها تنزيه الله - تعالى - عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن غير ذلك من صفات المخلوقين لأن الله ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

وتبدأ سورة «الفرقان» بتمجيد الله - تعالى - وتعظيمه، وبتأكيد أنه هو الذي أنزل القرآن الكريم على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وجعله فارقاً بين الحق والباطل، كما جعله نذيراً للعالمين إلى يوم الدين، بعد أن ضيعت كل صور الوحي السابقة، وحُرِّف ما بقي من بعضها من ذكريات تحريفاً أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة كل العجز عن هداية أتباعها. وتنعي الآيات في سورة «الفرقان» على الكفار والمشركين إنكارهم لهذه الحقيقة القائمة، وتطاولهم الكاذب على الذات الإلٰهية بادعاء الولد أو الشريك لله، أو بنفي الخلق وافتراض العشوائية والصدفة، وتطاولهم كذلك على كتاب الله الخاتم، وعلى خاتم أنبياء الله ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليه

وعليهم أجمعين - كما تنعي عليهم إنكارهم للدين الحق، وترد عليهم في مطلع هذه السورة المباركة بقول ربنا - وقوله الحق -:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: 1-6].

كذلك تنعي الآيات في سورة الفرقان على كلٍّ من الكفار والمشركين اعتراضهم على بشرية خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وتكذيبهم بالآخرة وقد أعد الله - تعالى - للمكذبين بها نار جهنم سعيراً، وتقارن الآيات بين تعذيب هؤلاء المكذبين في النار، ونعيم الصالحين المتقين في جنات الخلد، وتحاور المشركين والذين أشركوا بهم، مؤكدة بشرية جميع أنبياء الله ورسله. وتعرض السورة الكريمة لتطاول الكفار والمشركين بطلب الرسالة السماوية من الملائكة مباشرة، أو طلب رؤية الله - تعالى - جهرة حتى يؤمنوا به، وكلها صور من صلف الكافرين الذين عموا عن فهم مدلولات الألوهية الحقة والنبوة الصادقة والرسالة السماوية الصحيحة وطبيعة كلٍّ من الملائكة والوحي.

وللرد على هذا التطاول تعرض الآيات في سورة «الفرقان» لشيء من مشاهد الآخرة، وأهوالها، ونعيمها، وأصحاب الجنة مكرمون منعمون، وأصحاب النار أذلاء فزعون مهانون، يعضون أصابع الندم على ما فرطوا في حياتهم الدنيا وهم يحشرون على وجوههم إلى نار جهنم صاغرين.

ويشكو رسول الله ﷺ إلى ربه هجر قومه للقرآن الكريم (كما يهجرونه في هذه الأيام)، وتؤكِّد الآيات أن كل نبي من أنبياء الله كان له من يعاديه من المجرمين، وأن الله - تعالى - هو الهادي وهو النصير.

ومن تطاول الكفار والمشركين على القرآن الكريم كان اعتراضهم على تنزله منجماً، مفرقاً، مفصلاً (سورة سورة، أو آية آية، أو بضع آيات بضع آيات) بينما كان كل من الكتب السماوية السابقة قد أنزل دفعة واحدة. وهم يجهلون الحكمة من ذلك جهلاً كاملاً. وتؤكد الآيات أن من مبررات ذلك تثبيت رسول الله ﷺ بسماعه لجبريل عليه السلام يرتل القرآن ترتيلاً طيلة بعثته الشريفة، ومن مبرراته إتاحة الفرصة لرسول الله ﷺ ولصحابته الكرام من حوله أن يحفظوا القرآن الكريم بالتدريج وأن يفهموا أوامر الله - تعالى - فيها فيطبقوها، ويفهموا نواهيه فيجتنبوها فيتعلموا العلم والعمل معاً.

وتصور السورة الكريمة جانباً من مصارع المكذبين في عدد من الأمم السابقة من أمثال قوم لوط وقوم فرعون، وقوم نوح، وقبيلتي عاد وثمود، وأصحاب الرَّسِّ وما بين هؤلاء من قرون كثيرة. وتشير إلى شيء من مصائرهم يوم القيامة، وندمهم على ما فرطوا من حقوق الله وحقوق عباده، وعلى انصرافهم عن اتباع الرسول الخاتم وهديه ﷺ، وتوليهم لأهل الكفر والشرك والضلال انطلاقاً وراء غواية الشيطان، وغواية الغاوين من بني الإنسان، وانسياقاً وراء هوى النفس الذي يعمي ويصم عن رؤية الحق، وعن الاستماع إلى حجيته ومنطقه، فيهوي ذلك بالإنسان إلى ما دون مستوى البهائم بكثير.

وتذكر سورة «الفرقان» لسيدنا محمد ﷺ أن جميع من سبقوه من الأنبياء والمرسلين قد جوبهوا بعداوة شديدة من أهل الكفر والشرك والضلال، وتوصيه بالصبر والمصابرة وبمجاهدة الكفار والمشركين بما في القرآن الكريم من حق واضح. كما توصيه ﷺ بالتوكل على الحي الذي لا يموت، وبالتسبيح بحمده، مؤكدة له أن دوره هو دور البشير النذير للناس جميعاً، مقررة أن من صلف الكفار والمشركين وضلالهم في القديم والحديث أنهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، تطاولاً على الذات الإلٰهية، وإنكاراً لوحدانية الخالق العظيم، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾

[الفرقان: 60].

وفي مقارنة بيّنة تنتقل الآيات في الخمس الأخير من سورة «الفرقان» إلى استعراض عدد من صفات عباد الرحمٰن ليستبين الفارق بين صفاتهم وصفات الكفار والمشركين، مؤكدة جزاء الصالحين بالخلود في جنات النعيم في حفاوة وتكريم من رب العالمين ومن

ملائكته المطهرين، وجزاء الكفار والمشركين بالخلود في نار الجحيم في ذلة ومهانة بالغين. وتختم السورة الكريمة بتأكيد هوان البشرية على الله - تعالى - لولا تلك الطائفة القليلة من عباده الصالحين الذين يعرفون حق الله على العباد فيؤدّونه، ومنه الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة والدعاء طلباً لرحمته ورضوانه، وتنزيهه - تعالى - عن كل وصف لا يليق بجلاله. أما الغالبية الكافرة أو المشركة أو الظالمة المتجبرة فسوف يلقون غياً في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة، لأن الله - تعالى - قد تعهد - وعهده نافذ - أن يجزيهم بسوء أعمالهم جزاءً عادلاً ملزماً.

من ركائز العقيدة في سورة «الفرقان»:

1 - اليقين بوحدانية الله - تعالى - الذي له ملك السمٰوات والأرض والذي يعلم السر والجهر، وتنزيهه - سبحانه - عن الصاحبة والولد، وعن الشريك والشبيه والمنازع، والإيمان بأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأنه - تعالى - هو الغفور الرحيم، البصير، الهادي، النصير، وأن الإنسان طالما عاش محبوساً في قوالب الطين الأرضية لا يمكنه رؤية الله سبحانه وتعالى.

2 - التصديق بالآخرة وأهوالها، وبكل ما روى القرآن الكريم من أحداثها، وبالجنة ونعيمها، وبالنار وجحيمها - حمانا الله تعالى منها -.

3 - التسليم بأن الشيطان للإنسان عدو مبين.

4 - الإيمان بأنبياء الله جميعاً دون أدنى تفريق، وبكل ما أرسلوا به وما رواه القرآن الكريم من قصصهم.

من التوجيهات التعبدية في سورة «الفرقان»:

1 - النصح بقيام الليل والأمر بتدبر القرآن الكريم بالإضافة إلى عبادة الله - تعالى - بما أمر.

2 - تحريم جميع الكبائر التي حَرَّمها الله، ومنها الشرك بالله - تعالى -، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنا.

3 - النهي عن شهادة الزور.

4 - الأمر بعدم الخوض في اللغو.

5 - الأمر بالتوبة عن المعاصي، وبالحرص على الأعمال الصالحة، وبالتوسط بين التقتير والإسراف، وبالتواضع والتسامح.

من الإشارات الكونية في سورة «الفرقان»:

1 - إثبات أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، ومقدره وفق علمه وحكمته وقدرته.

2 - التأكيد على أن تشقق السماء بالغمام هو من بدايات تهدم النظام الكوني في الآخرة.

3 - الإشارة بكل من ظاهرتي مد الظل وقبضه، واختلاف الليل والنهار إلى حقيقة كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

4 - تأكيد تخصيص الليل للنوم والراحة، والاسترخاء والعبادة، واسترجاع النشاط، وتخصيص النهار لعمارة الأرض وإقامة العدل والجري وراء المعايش.

5 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي ينزل من السماء ماءً طهوراً ليحيي به أرضاً ميتة، ويسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيَّ كثيراً.

6 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً.

7 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً.

8 - ذكر أن الله سبحانه وتعالى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام (أي ست مراحل متتالية) يحاول العلم المكتسب اليوم استجلاءها.

9 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى مناقشة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السابعة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الرابعة والخمسين من سورة «الفرقان»، وقبل الدخول إلى ذلك أرى ضرورة الاستعراض السريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «.. أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال - تعالى -: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «.. فمن هذا الماء يتخلق الجنين: ذكراً فهو نسب، وأنثى فهو صهر، بما أنه موضع للصهر. وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء. فمن خلية واحدة (من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل) تتحد ببويضة المرأة في الرحم، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب.. الإنسان.. أعجب الكائنات الحية على الإطلاق.. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾... وها هي ذي القدرة تكشف عن طرف منها في هذا العجب العجاب!»

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

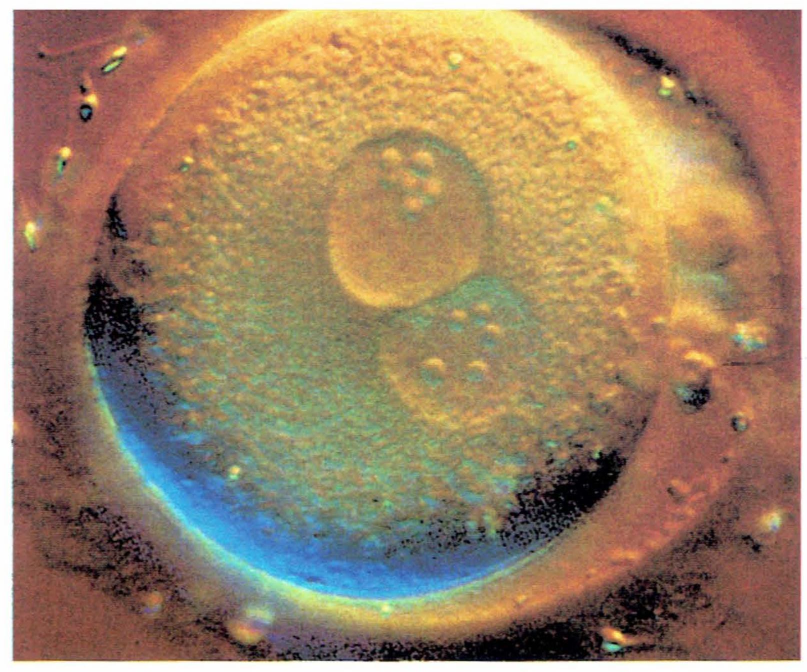
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

● يتضح أن المقصود بلفظة الماء هنا هو ماء التناسل من كل من الزوج والزوجة، كما جاء في عدد آخر من آيات القرآن الكريم من مثل قول ربنا عز وجل:

1 - ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7-9].

2 - ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: 20-23].

3 - ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: 5-10].



صورة حقيقية مكبرة للنطفة الأمشاج (المختلطة) الناتجة عن إتمام عملية إخصاب البييضة بالحيمن المقدر لها. وتقترب نواة الحيمن (وبها 23 صبغياً) من نواة البييضة (وبها 23 صبغياً كذلك) للاندماج الكامل بينهما وإكمال عدد الصبغيات إلى (46) وهو العدد المحدد للإنسان.

● وإن كان هذا التحديد لا ينفي صلة ماء التناسل بالماء عامة الذي هو أصل كل حيّ، وذلك لقول ربنا - عز من قائل -:

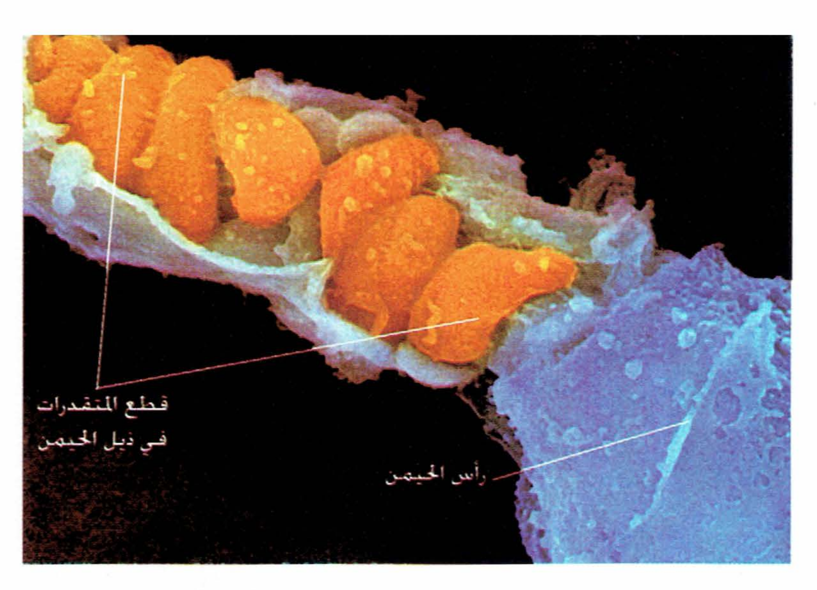
1 - ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

2 - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: 45].

● وروى الأئمة أحمد، والبيهقي، والحاكم وغيرهم من رواة الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كل شيء خلق من الماء**»(1).

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 323) و(الحديث: 2/ 493)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 160).



صورة مكبرة للحيمن توضح قطع المتقدرات (الميتوكوندريا) خلف رأس الحيمن، وهي مولدات الطاقة اللازمة لحركته، (المقدرة بألف ضربة بذيله لكي يقطع مسافة سنتيمتر واحد من المسافة بين قناة الرحم وعنقه والمقدرة بحوالي 15-18سم).

● وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاء حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي من كل يخلق: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»[1].

● ويعتبر **(ماء التكاثر)** من أكثر مخلوقات الله إبهاراً للعلماء وذلك لتناهي مكوناته في الصغر، وتعاظمها في دقة البناء، وحسن الأداء مما يشهد للخالق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة وإحكام الخلق.

فماء التكاثر عند الرجل هو سائل أبيض، لزج، مليء بالنطاف الذكرية (**Sperms**) التي يتراوح عددها بين المائتي مليون والثلاثمائة مليون نطفة في الدفقة الواحدة التي يتراوح حجمها بين الثلاثين والستين من الميليمترات المكعبة. وهذه النطاف المقدرة بمئات

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).

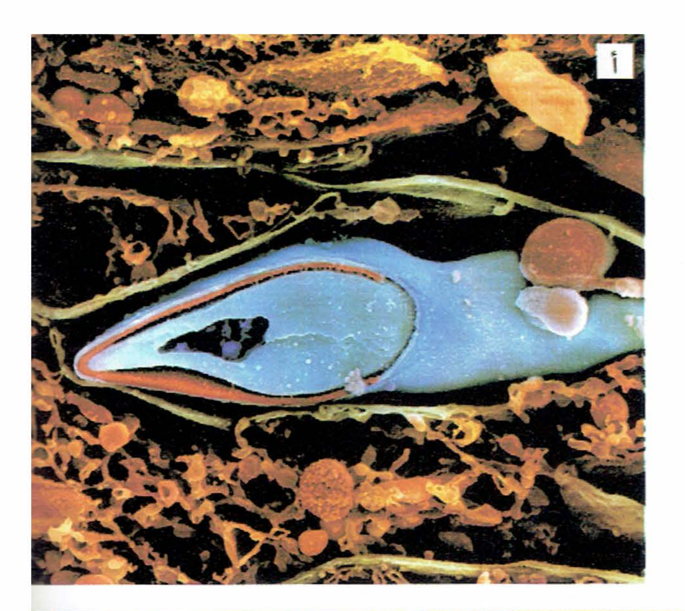
الملايين تسبح في محاليل من المواد المذابة التي تشكل الغذاء لتلك النطاف، ومن هذه المواد المذابة في تلك المحاليل ما يقوم بمعادلة الوسط الحامضي في الرحم حماية للنطاف الواصلة إليه، ومنها ما يُعين على إتمام عملية الإخصاب من مثل مركبات «**البروستاجلاندين**» (**Prostaglandin**) التي تلعب دوراً هاماً في إحداث تقلصات الرحم التي تساعد على نقل نطاف الزوج إلى مواقع الإخصاب في قناة الرحم.

ونطفة الرجل (الحيمن) كائن متناه في ضآلة الحجم يتكوّن من رأس مدبب صغير يتراوح طوله بين 0,003 من الميليمتر و0,005 من الميليمتر، وعنق دقيق لا يكاد أن يدرك يقوم بتحويل غذاء الحيمن إلى طاقة تعينه على الحركة، وذيل في حدود 0,1 من الميليمتر في الطول على هيئة السوط الذي يتحرك الحيمن بواسطته بالضرب به يمنة ويسرة كالمجداف في ماء التكاثر.

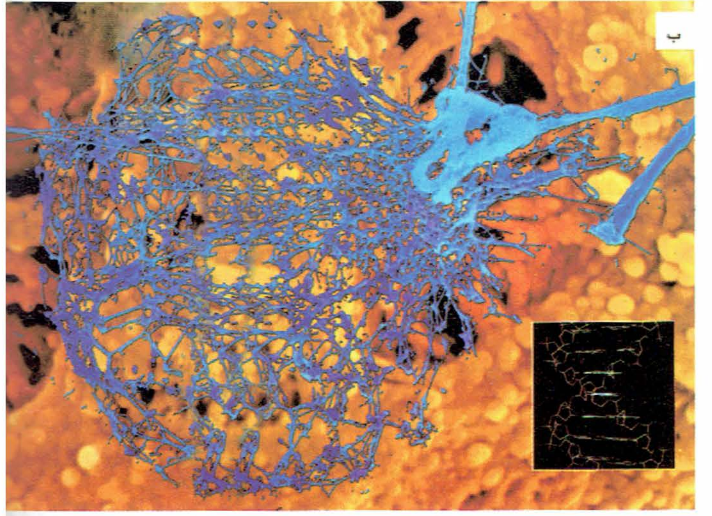
ويحتوي رأس نطفة الرجل (الحيمن) على نواتها وبها نصف عدد الصبغيات المحددة للبشر إذ تحتوي على 23 صبغياً فقط (والعدد المحدد للبشر من الصبغيات هو 46). ويتغطى رأس الحيمن بقلنسوة واقية تحميه من المخاطر التي يمكن أن يمر بها في رحلته إلى قناة الرحم حيث يمكن له الالتقاء بنطفة المرأة (البييضة) وإخصابها بإذن الله - تعالى -.

والصبغيات في كل من رأس الحيمن ونواة البييضة تشغل حيزاً لا يزيد على واحد من نصف المليون من الميليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت فإن طولها يصل إلى المتر في كل منهما، ويحتوي 9,3 بليون قاعدة كيميائية في كل من الحيمن والبييضة بمجموع 18,6 بليون قاعدة كيميائية مرتبة ترتيباً في غاية الدقة والإحكام ليكون لفائف من حلزونات الحمض النووي الريبي المنزوع الأوكسجين والمعروف بال (د. ن. ا. **DNA**) والتي تحمل نصف صفات الجنين في الحيمن، والنصف الآخر في البييضة.

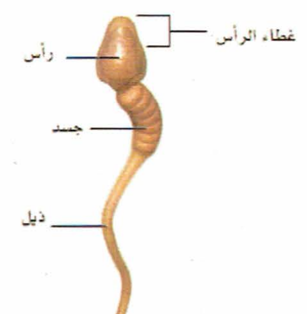
والعنق الدقيق للحيمن يختزن مصادر الطاقة في عضيات (جسيمات عضوية شديدة الدقة) تعرف باسم المتقدرات (**Mitochondria**) أعطاها الله - تعالى - القدرة على تحويل السكريات إلى الطاقة التي تحتاجها النطفة في أثناء رحلتها الطويلة، ويبقى الذيل (السوط) بحركاته المختلفة وسيلة توجيه جيدة للنطفة في سباحتها بسرعات تقدر بحوالي الميليمترين في الثانية الواحدة عبر بحر من سوائل التكاثر المختلطة في الرحم وقناته،



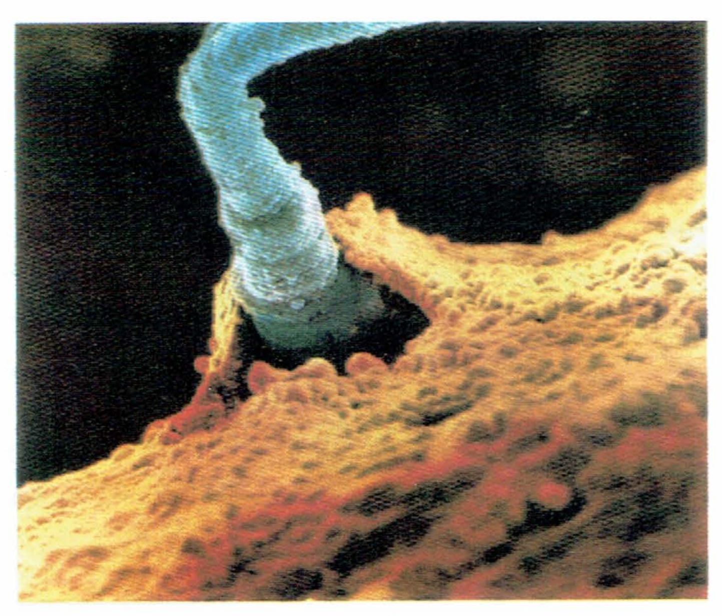
صورة حقيقية مكبرة لرأس الحيمن (باللون الأزرق) محاطاً بالقلنسوة (باللون الأحمر)، وبداخله تتركز المادة الوراثية محمولة على 23 زوجاً من الصبغيات (باللون البنفسجي).



صورة مكبرة للشبكة الملونة (الكروماتينية) الحاملة للصبغيات.



رسم تخطيطي يبين شكل الحيمن الذكري.



صورة لحيمن يخترق برأسه جدار البييضة لتلقيحها .

حتى يصل واحد من ملايين الحيامن إلى البييضة في قناة الرحم، فيخترقها إذا قدر له ذلك، وحينئذ تحدث تغيرات سريعة في غشاء البييضة تمنع دخول حيمن (حوين منوي) آخر، وبذلك تتكون **النطفة الأمشاج أو اللاقحة (Zygote)** من جزء من ماء التكاثر للرجل وجزء من ماء التكاثر للمرأة، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ : **«ما من كل الماء يكون الولد»**(1) .

وباتحاد الصبغيات القادمة من نطفة الرجل مع صبغيات البييضة تتحدد **الصفات السائدة** التي سوف تظهر على الجنين في مستقبل حياته، كما تتحدد **الصفات المستترة (المتنحية)** التي قد تظهر في الأجيال التالية، ولعل هذا هو المقصود بالتقدير الذي ذكره الحق - تبارك وتعالى - في محكم كتابه فقال:

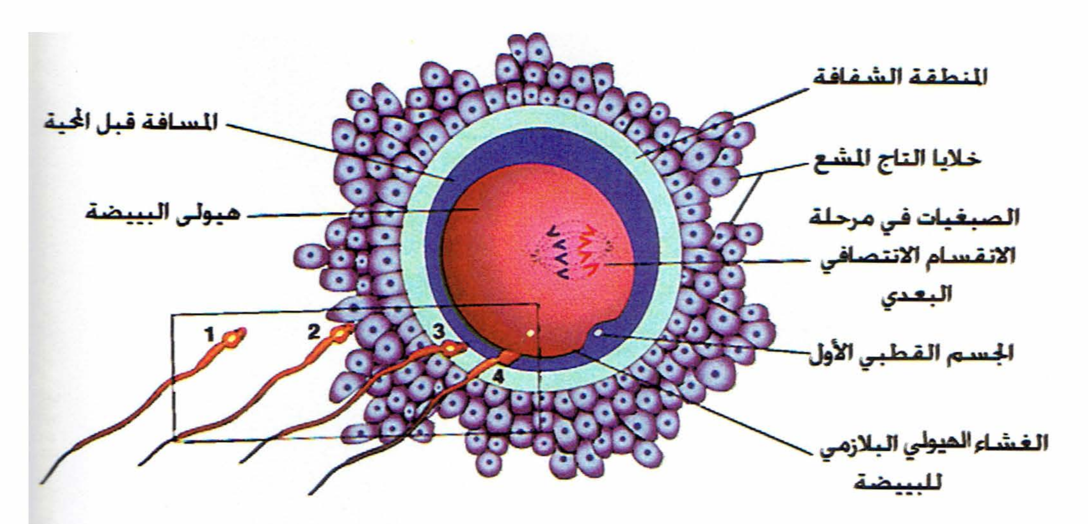


﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾

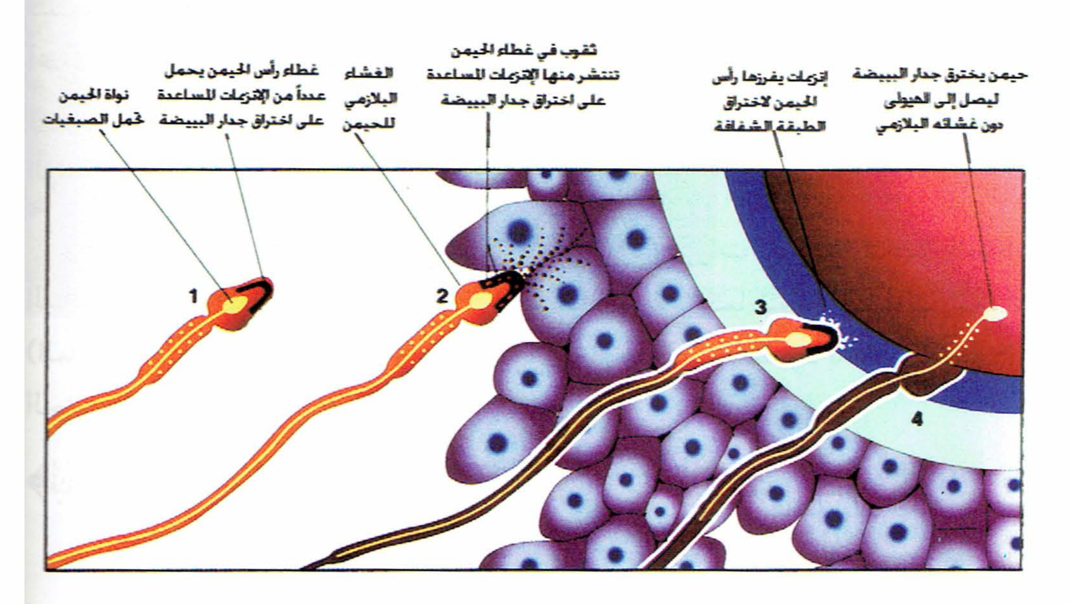
[عبس: 17-19] .

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).



رسم تخطيطي للبييضة وحولها عدد من الحيامن تحاول اختراق جدارها
ولا تسمح إلا لواحد منها قدره الله - تعالى - لها.



رسم تخطيطي لمراحل إخصاب البييضة بواسطة حيمن واحد
ومحاولة بقية الحيامن دون جدوى.

ويتضمن هذا التقدير فيما يتضمن تحديد جنس الجنين، فإذا كان الحيمن الذي قدر له إخصاب البييضة يحمل الصبغي (Y) كان الجنين ذكراً بإذن الله، وإذا كان يحمل الصبغي (X) كان الجنين أنثى بإذن الله، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45،46].

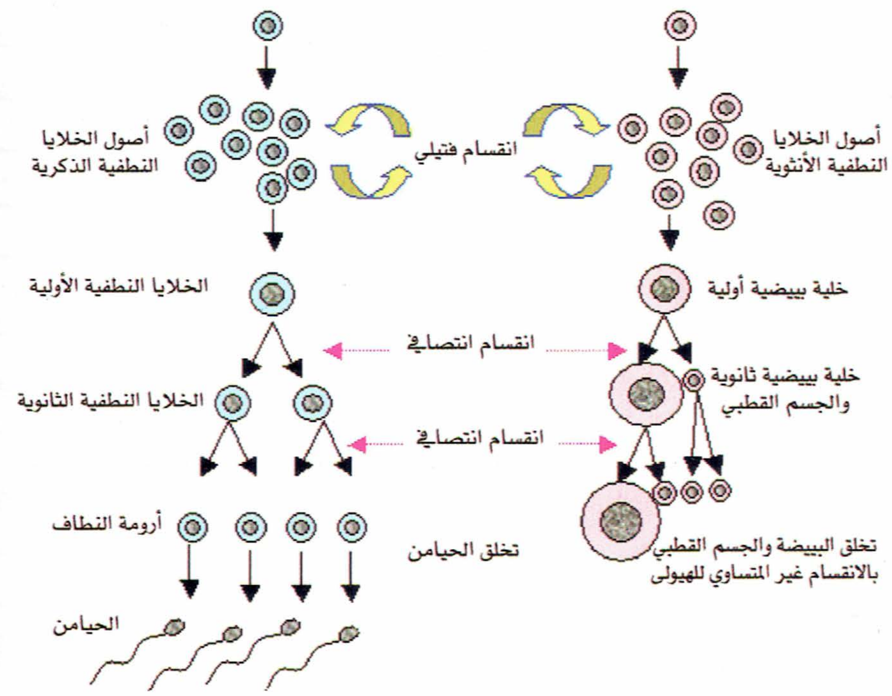
وفي اليوم الخامس من عمر **النطفة الأمشاج** تكون قد قامت بعدد من الانقسامات حتى أصبحت تشبه ثمرة التوت الصغيرة ولذلك تعرف باسم **التويتة** (**Morula**)، ثم تنشطر إلى نصفين مكونة **الكيسة الأرومية** (**Blastocyst**) وفي اليوم السادس تنغرس في بطانة الرحم بواسطة خلايا تنشأ منها وتتعلق بها في جدار الرحم ثم تتحول بعد ذلك إلى المشيمة، وتتحول **الكيسة الأرومية** إلى طور **العلقة**، ثم **المضغة**، ثم **العظام**، ثم **اللحم** وهي **أطوار مرحلة التخليق وتستمر من الأسبوع الثاني حتى نهاية الأسبوع الثامن من عمر الجنين**، وأهم ما يميز مرحلة التخليق هذه هو التكاثر السريع، والنشاط المتنامي في تكوين أجهزة الجسم المختلفة، وفي الأسبوع السابع يصل الجنين إلى صورة متميزة نتيجة لاستكمال بناء الهيكل العظمي، والبدء في كسوته بالعضلات (اللحم والجلد) مع بداية الأسبوع الثامن إلى آخر فترة الحمل. **ومنذ نهاية الأسبوع الثامن تبدأ الصفات البشرية في الظهور على الجنين** حيث تكون العظام قد كسيت بالعضلات (اللحم) وتكون العضلات قد كساها الجلد، وتكون جميع أعضاء الجسم قد تمايزت وبدأت في العمل.

وتبدأ مرحلة النشأة في الأسبوع التاسع حين تتباطأ معدلات النمو حتى بداية الأسبوع الثاني عشر ثم تتسارع حتى نهاية فترة الحمل (في حدود الأسبوع الثامن والثلاثين). **وتعتبر نهاية طور كساء العظام باللحم هي الحد الفاصل بين مرحلتي الجنين والحميل.**

والحيامن يزداد نشاطها عندما تصل إلى الرحم خاصة عند الاقتراب من سطح البييضة السميك نسبياً، وكل من البييضة والحيوانات المنوية من حولها تدور سبع دورات قبل إتمام عملية الإخصاب في حركة معاكسة لاتجاه حركة عقارب الساعة، ومشابهة للطواف حول الكعبة المشرفة، والبييضة تقدم المواد الهيولية (السيتوبلازمية) التي تكون الكتلة الابتدائية للنطفة الأمشاج والغذاء الكافي لها إلى أن تنشب في جدار الرحم ويتم انغراسها فيه فتتحول إلى طور العلقة التي تتغذى على دم الأم حتى تمام مدة الحمل

مروراً بالأطوار المتتابعة التي ذكرناها آنفاً، ومن هنا كانت الحكمة الإلٰهية في جعل قطر البييضة أربعين مرة ضعف طول الحيمن.

والغدة التناسلية الذكرية عبارة عن بناء في غاية التعقيد ودقة الأحكام حيث تتكون من عدد من **الأنابيب الدقيقة واللافة على بعضها تعرف باسم الأنابيب الدقيقة (الأنيبيبات الناقلة للنطاف الذكرية (Seminiferous Tubules)**، وهذه الأنابيب الدقيقة محاطة بأغشية بينية تفرز أعداداً من الهرمونات التي من أهمها هرمون أندروجين **(Androgen)**، وهي على الرغم من دقتها الشديدة فإنها تتكون من عدة طبقات متراكبة من أنواع مختلفة من الخلايا أهمها **الخلايا المولدة المعروفة باسم الحويصلات المنوية الابتدائية (Primary Spermatocysts)** التي تبطن تلك الأنابيب الدقيقة مكونة طبقتها الداخلية والتي أعطاها الله - تعالى - القدرة على إفراز الحيامن بالانقسام المنصف **(Meiosis)** لتكون أربع خلايا متساوية الحجم تعرف باسم **«أرومة النطاف» (Spermatids)**، وهذه تتحول بالتدريج إلى حيامن ذات أسواط بعد فقدان معظم الهيولى (السيتوبلازم) الذي كان بداخلها عبر ما



رسم تخطيطي يوضح كيفية تخلق خلايا التكاثر في كل من الأنثى (يمين الشكل) والذكر (يسار الشكل). بالانقسام الفتيلي أولاً لأصول الخلايا النطفية ثم بتكرار الانقسام الانتصافي مرتين.

يعرف باسم **الخلايا النطفية** (Spermatocytes)، وترتحل هذه النطاف الذكرية عبر الأنابيب الدقيقة الحاملة لها حتى تصل إلى منطقة تجمع لها في أعلى الغدة التناسلية (الخصية) تعرف باسم «**البربخ**» (Epididymis) وهي قناة لافة على ذاتها يصل طولها إذا فردت إلى ما بين الأربعة والستة أمتار فتختزن فيها الحيامن إلى حين خروجها منها.

ومن العجيب أنه بمجرد تكوّن جيل من النطاف فإن خلايا مولدة جديدة تتكون لتعويضها، وبذلك فإن **عملية** «**الإنطاف**» أي «**إنتاج النطاف**» (Spermatogenesis) هي عملية مستمرة باستمرار حياة الرجل، وتتم في غدتين تناسليتين تحفظان في كيس خارج عن الجسم يعرف باسم الصفن مهمته حفظ هاتين الغدتين في درجة حرارة مناسبة لا تتعدى السبع درجات مئوية على الرغم من أن درجة حرارة جسم الإنسان هي في حدود (37) درجة مئوية، ويتم التبريد بواسطة خلايا إفراز العرق، بالإضافة إلى عدد من العضلات التي تضبط مسافة هذه الغدد التكاثرية من الجسم بما لا يرفع درجة حرارتها عن الحد المناسب لحياة الحيامن بداخلها.

ويندفع ماء التكاثر في الأنثى من غدتين تناسليتين تعرفان باسم المبيضين تتكون فيهما البييضات على هيئة **خلايا بييضية أولية** (Primary Oocytes) يحاط كل منها بغلاف يعرف باسم **الجريب** (follicle)، وتقوم هذه الخلايا بالانقسام المنصف الأول لتكوين خليتين مختلفتين في الحجم، الكبيرة منهما تسمى باسم «**الخلية البييضية الثانوية**» (Secondary Oocyte)، والصغيرة منهما تعرف باسم «**الجسم القطبي الأول**» (The First Polar Body)، ثم تبدأ الخلية البيضية الثانوية بدورها في الانقسام المنصف لتكوّن خليتين مختلفتين حجماً كذلك، الكبيرة منهما تسمى «**الطليعة البيضية**» (Ootid) والصغيرة منهما تعرف باسم **الجسم القطبي الثاني** (The Second Polar Body) وبعد ذلك تستمر الطليعة البيضية في النمو حتى تكوّن **البييضة الكاملة** (Ovum) التي تختزن معظم السائل الخلوي (السيتوبلازم أو الهيولى) للخلية البيضية الأولية ومحتواها من الصبغيات المحمولة في النواة.

ويصل قطر البييضة إلى (0,2) من المليمتر أي أربعين مرة ضعف طول الحيوان المنوي لأنها هي التي تقدم المواد الهيولية (السيتوبلازمية) التي تكون أغلب مادة النطفة الأمشاج، كما تقدم الغذاء الكافي للنواة المختلطة (نواة النطفة الأمشاج) المتكونة

بداخلها حتى تنشب في جدار الرحم وتنغرس فيه مكونة طور العلقة التي تتغذى على دم الأم. وماء المرأة سائل أصفر لزج يشمل بالإضافة إلى البييضة العديد من المركبات والعناصر التي تشارك في إتمام عملية الإخصاب من مثل الإنزيمات التي تفرزها بطانة الرحم وقناته، والتي تعمل على إذابة القلنسوة المغطية لرأس الحيوان المنوي والمكونة من البروتين السكري عند تماسّه بالمنطقة الشفافة من جدار البييضة حتى يصبح قادراً على إخصابها، كما تعمل على إزالة الخلايا المحيطة بالبييضة وكشف غطائها الواقي أمام الحيوان المنوي. وتحتاج هاتان النطفتان لبضع ساعات حتى تتمكنا من إتمام عملية الاتحاد التي يتبعها عدد من التغيرات الحيوية والوظائفية والتشريحية. وباتحاد الصبغيات الموجودة في هاتين النطفتين يكتمل عددها المحدد للنوع البشري (46 صبغياً) نصفها من الحيوان المنوي والنصف الآخر من البييضة. فتجتمع على هيئة أزواج لتكون نواة النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج) أو البويضة الملقحة [اللاقحة (Zygote)] التي تشكل البناء الأولي للجنين، وبعد ذلك تحدث تغيرات سريعة في غشاء البييضة لمنع دخول بقية الحيوانات المنوية إلى داخلها.

وبينما يستطيع الرجل إفراز ملايين الحيوانات المنوية في كل يوم من عمره البالغ، أي من سن البلوغ إلى سن الشيخوخة المتأخرة، فإن المرأة لا تفرز إلا بييضة واحدة في كل شهر من البلوغ إلى سن اليأس (Menopause) والذي يأتي للمرأة في منتصف عمرها (بين الأربعين والخمسين سنة)، وبذلك يكون مجموع ما تفرزه المرأة من بييضات طوال حياتها لا يكاد يتعدى الخمسمائة، وما ينجح من هذه في الوصول إلى مرحلة الإخصاب لا يكاد يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة إلا في بعض الحالات القليلة. وفي مقابل كل بييضة يفرزها جسد المرأة فإن جسد الرجل يفرز أكثر من بليون حيوان منوي يهلك معظمها في رحلة الوصول إلى البييضة، والتي بمجرد تكونها فإن المبيضين يفرزان عدداً من الهرمونات مثل هرمون الأستروجين (Estrogen)، وهرمون البروجيستيرون (Progesterone) أو الهرمون المهيىء للحمل، وهرمونات أخرى عديدة مثل هرمون HCGT.

● ونظراً لقلة ما ينجح من نطف كل من الرجل والمرأة في الوصول إلى مرحلة الإخصاب قال رب العالمين:

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

والسلالة في اللغة العربية هي كل ما يستل (أي يخرج في رفق) من شيء آخر.

● وقال رسول الله ﷺ: «**ما من كل الماء يكون الولد**»(1).

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ يعقوب على بنيه، إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل، قال ﷺ: «**هاتوا**» قالوا: خبرنا كيف تؤنث المرأة، وكيف تذكر؟ قال: «**يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت**»(2).

● وفي رواية لمسلم قال النبي ﷺ: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله**»(3).

● وروى البخاري قول النبي ﷺ: «**وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**»(4).

وهذه القضايا تقع من علم الأجنة في الصميم، وعرضها بهذه الدقة العلمية الشاملة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة لمِمَّا يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).
(2) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب، صفة مني الرجل...
(3) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: صفة مني الرجل (الحديث: 714).
(4) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته (الحديث: 3329).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



13 - ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: 45-47]

هذه الآيات الكريمة جاءت في بداية الربع الأخير من «سورة النجم»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها اثنتان وستون (62) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم (النجم) لاستهلالها بقسم من الله - تعالى - يقول فيه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1].

وربنا - تبارك وتعالى - غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية بصيغة القسم كان في ذلك تنبيهاً لنا بأهمية المقسوم عليه وهو هنا: «النجم إذا هوى». وفي تفسير ذلك قال بعض المفسرين: هو جبريل عليه السلام في أول نزوله بالوحي، وقال آخرون: هو القرآن الكريم، أو هو: الثريا إذا سقطت مع الفجر، أو: هي الشهب إذا رجمت بها الشياطين التي تحاول استراق السمع على أهل السماء، أو: هي نجوم السماء على إطلاقها عند انفجارها وانتهاء أجلها.

ومع تسليمنا بأن نص الآية يحتمل كل ذلك - اتساقاً مع طبيعة الآيات الكونية في القرآن الكريم - إلا أن إشارة هذه الآية إلى إحدى الظواهر الكونية المهمة التي تتحول فيها النجوم في نهاية دورة حياتها إلى الدخان الكوني بالانفجار هي - عندي - أبلغ تفسير.

وبعد هذا القسم الرباني العظيم «**بالنجم إذا هوى**» يأتي جواب القسم تأكيداً من الله - تعالى - على صدق نبوة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وصدق الوحي الذي جاءه، وبلَّغ به عن ربه سبحانه وتعالى في

استقامة واعتدال تامين، وأمانة بالغة هيَّأه لها الله - تعالى - كما هيأها له. وفي جواب القسم تأكيد على وقوع معجزة الإسراء والمعراج التي كرَّم الله - تعالى - بها خاتم أنبيائه ورسله تكريماً لم ينله أحد من قبل ولا من بعد. وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ (٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ (١٣) عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ (١٥) إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ (١٨)﴾ [النجم: 1-18].

وسِدرة المنتهى شجرة في السماء السابعة، وإليها ينتهي كل ما يُعْرَجُ به من الأرض فيقبض منها، وينتهي كل ما يُهْبَطُ به من فوقها فيفيضُ منها.

وإجماع المفسرين على أن هذه الآيات الكريمة تصف لقاء جبريل عليه السلام بخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ثم تتابع الآيات في «سورة النجم» باستنكار شرك المشركين، وعبادتهم الأصنام والأوثان بدعوى أنها تقرِّبهم إلى الله - تعالى - زلفى، وتنعي عليهم تطاولهم على الذات الإلٰهية بنسبة الملائكة زوراً إليه - سبحانه - وهم من خلقه، واعتبارهم إناثاً - وهو خوض بغير حق في أمور غائبة عنهم غيبة كاملة - وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ (٢١) تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ (٢٣)﴾ [النجم: 19-23].

وكانت هذه الأصنام والأوثان الثلاثة ضمن عدد كبير من الطواغيت التي اتخذها مشركو العرب بيوتاً تُعظَّم ويُنحر عندها، وتُهدى إليها الهدايا، ويُطاف بها كما يُطاف حول الكعبة تماماً، مع إدراكهم فضل الكعبة المشرَّفة على أصنامهم وأوثانهم، بصفتها

أول بيت وضع للناس في الأرض، وقد حرَّم الله - تعالى - بلدتها يوم خلق السمٰوات والأرض.

وقد تهدمت الكعبة وبنيت عدة مرات ثم رفع قواعد البيت كل من نبي الله إبراهيم وولده البكر نبي الله إسماعيل (على نبينا وعليهما من الله - تعالى - أفضل الصلاة وأزكى التسليم).

وتستمر الآيات في استنكار شرك المشركين فتقول:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: 24-28].

وتؤكد هذه الآيات أنَّ الإنسان لا يحصل على كل ما يتمناه، لأن أمر كل من الدنيا والآخرة هو بيد الله رب العالمين، واهب النعم، ومُجري الخيرات، وتتساءل الآيات: إذا كان الملائكة المُقرَّبون لا يملكون الشفاعة إلا بإذن من الله - تعالى - لمن يشاء ويرضى منهم، فكيف يتخيَّل المشركون إمكانية شفاعة أصنامهم وأوثانهم وأندادهم التي زعموها بغير دليل، وأشركوها في عبادة الله سبحانه وتعالى، أو عبدوها من دونه...؟؟ وتعتب الآيات على هؤلاء المشركين جورهم وانحرافهم وغرورهم باختيارهم الذكور لأنفسهم، وادّعاء الأنوثة للملائكة، ونسبتهم - زوراً وبهتاناً - إلى الله، وهو - سبحانه - المنزَّه عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله - تعالى - مُغايِر لجميع خلقه. وهذه الادعاءات الباطلة من الكفار والمشركين نابعة من ظنهم السيئ، والظن لا يُغني من الحق شيئاً.

وبعد ذلك تنطق الآيات بأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والأمر إليه ينسحب على جميع المؤمنين برسالته من بعده، ويتضمن الأمر الإلٰهي ضرورة الإعراض عن الجاهلين من الكفار والمشركين، وعن جميع الذين تَوَلَّوا عن ذكر الله - تعالى -، وأغرقوا أنفسهم إلى الآذان في الحياة الدنيا فَضَلُّوا عن سبيل الله، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: 29، 30].

وتعاود الآيات في سورة النجم التأكيد على أن الله - تعالى - هو رب كل شيء ومليكه، وهو - سبحانه - الحكم العدل الذي يجازي كلاً بعمله، ويعفو عن صغائر الذنوب ويغفرها، ويستر فاعليها إذا تابوا وأقلعوا عنها، لأن رحمة الله واسعة، ومغفرته عظيمة، وهو سبحانه وتعالى أعلم بخلقه من علم خلقه بأنفسهم، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: 31،32].

وبذلك ينتهي الشوط الأول من سورة النجم، ويأتي الشوط الثاني على هيئة عدد من التساؤلات التقريرية، التقريعية، التوبيخية لكل كافر، ومشرك، ومُتشكِّك، محذرة إياهم من التولي عن طاعة الله، أو الإقلال منها، أو الانقطاع عنها، ومثبتة عدداً من الحقائق الدينية، والكونية، والصفات الإنسانية، والأحداث التاريخية، ومنذرة بفجائية الآخرة فتقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: 33-58].

وتختتم سورة النجم بخطاب إلى كفار ومشركي قريش، والخطاب مُوجَّه إلى كل كافر ومشرك ومُتشكِّك في بعثة النبي الخاتم في زمانهم ومن بعدهم حتى قيام الساعة، وهذا الخطاب الإلهي يستنكر تكذيب المكذبين للقرآن الكريم، كما يستنكر استهانتهم بالأمر،

وأخذهم إياه بغير مأخذ الجد، ويأمر كل مستمع لهذه الآيات بالسجود لله - تعالى - طاعة وعبادة، في خشية وخضوع وانكسار وخشوع فتقول معاتبة أهل الكفر والشرك والضلال:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: 59–62].

من ركائز العقيدة في سورة «النجم»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والله تعالى منزَّه عن جميع صفات خلقه). واليقين بأن لله الآخرة والأولى، وأن إليه منتهى كل شيء، وأنه.. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: 30]»، وأن له - سبحانه وتعالى - ما في السمٰوات وما في الأرض.. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]»، وأنه - تعالى - واسع المغفرة، وأنّه أعلم بخلقه إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجِنَّة في بطون أمهاتهم.

2 - الإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر.

3 - التصديق بنبوة النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وبرسالته التي خُتمت بها رسالات السماء، ولذلك تعهَّد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها فحُفِظت على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وإلى أن يرث الله - تعالى- الأرض ومن عليها.

4 - إنكار شرك المشركين بالله - تعالى -، والإصرار على مجانبتهم في أمور الدين.

5 - الإيمان بالغيب المطلق، والتوقُّف عن الخوض فيه بغير ما أنزل الله - تعالى - وما تكلَّم به خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وذلك لعجز الإنسان عن الوصول إليه عجزاً كاملاً.

6 - التسليم بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى ﴿..خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

7 - التصديق بمعجزة الإسراء والمعراج، وبكل ما ذكره المصطفى ﷺ عنها.

8 - اليقين بأنَّ شفاعة الملائكة لا تُغني شيئاً ﴿...إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

9 - الإيمان بحقيقة البعث والحساب والجنة والنار، وبالحكم الإلٰهي: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

10 - التصديق بما وقع للكفار والمشركين في الأمم السابقة من صُوَر العذاب الذي سجّله القرآن الكريم، وأثبته خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

11 - الإيمان بأن الله - تعالى - مُستحِق للشكر على نِعَمه العديدة، وللحذر من نُذُره الشديدة، والاستعانة به على كل أمر، ومن أخطر الأمور أهوال الآخرة التي ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، وأنه - تعالى - مستحق للخضوع له وحده بالعبادة، وبالسجود في خشوع وخضوع وطاعة.

من الأوامر التعبدية والسلوكية في سورة «النجم»:

1 - النهي عن اتباع الظن، وما تهوى الأنفس، لأن ذلك لا يغني من الحق شيئاً.

2 - الأمر بالمداومة على عبادة الله - تعالى - بما أمر، وبفعل الصالحات واجتناب السيئات.

3 - النهي عن مصاحبة الذين تولوا عن ذكر الله، وغرقوا إلى آذانهم في أمور الحياة الدنيا، ونسوا أو تناسوا حقيقة الآخرة، وحتمية الحساب، وعدل الجزاء.

4 - النهي عن تزكية النفس التي يعلم الله - تعالى - دفينة مكنونها وتفاصيل خفاياها.

5 - النهي كذلك عن البخل، وعن استغلال الآخرين، وعن المماراة بآلاء الله، وعن جحود نِعَمه العديدة على جميع خلقه.

من الإشارات الكونية في سورة «النجم»:

1 - الإشارة إلى موت النجوم بانفجارها ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

2 - الرمز إلى ضخامة الكون بوصف الأفق بتعبير ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾.

3 - وصف البصر بأنه يزيغ ويطغى، والإشارة إلى أن الله - تعالى - قد ميَّز الإنسان بالقدرة على التعبير بالضحك والبكاء.

4 - ذكر (الآخرة والأولى) مما يؤكد حتمية فناء الكون وإعادة خلقه، كما يؤكد حقيقة

الغيب الذي تجري البحوث العلمية وراءه في محاولة لكشفه، والغيب غيبان: «مرحلي» يمكن للإنسان الوصول إليه بشيء من الاجتهاد، و«غيب مطلق» لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا ببيان من الله - تعالى -.

5 - التأكيد على إنشاء الإنسان من الأرض، وعلى خلقه في مراحل جنينية متتابعة في بطن أمه.

6 - إثبات حقيقة خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمْنَى، وهو سبق لكل المعارف العلمية التي لم تُدرِك هذه الحقيقة إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (1186 هـ/ 1775 م).

7 - التأكيد على حتمية البعث، وعلى أن الله - تعالى - الذي أنشا النشأة الأولى قد تعهَّد بالنشأة الأخرى.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطتين الأخيرتين في القائمة السابقة واللتين جاء ذكرهما في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: 45-47].

وقبل البدء في ذلك أرى لزاماً عليَّ استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآيات الثلاث الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: 45-47].

كقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: 36-37] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «.... أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الأخرى يوم القيامة».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «... والنشأة الأخرى غيب، ولكن عليه من النشأة الأولى دليل. دليل على إمكان الوقوع، فالذي خلق

الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمْنَى، قادر - ولا شك - على إعادة الخلق من عظام ورفات.. ودليل على حكمة الوقوع.. هذا التدبير الخفي الذي يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكراً أو أنثى.. هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التي لا يتم فيها شيء كامل، ولا يجد المُحْسِن جزاء إحسانه كاملاً، ولا المسيء جزاء إساءته كاملاً كذلك، لأن في حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه. فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة، ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى...».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

غيبية النشأة الأولى - الخلق:

إن عملية النشأة الأولى (أو الخلق) بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان تُعتبر من الأمور الغيبية التي لم يشهدها أي من المخلوقات المُكلَّفة: الإنس أو الجن، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

وعلى الرغم من ذلك فإن الله - تعالى - يطالب كل إنسان سوي بالنظر في أمر الخلق بمعيار العقل فيقول - عز من قائل -:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19، 20].

والجمع بين هذه الآيات يشير إلى أنه على الرغم من الطبيعة الغيبية لعملية الخلق إلا أن الله - تعالى - من رحمته بنا قد أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان - بقدراته المحدودة- على فهم كيفية الخلق إذا آمن بالخالق العظيم. وتجاوز هذه الحقيقة أو إغفالها يمكن أن يدفع بالإنسان في أنفاق من الظلام لا خروج له منها مهما كان بيده من الشواهد الحسية.

وإذا كان هذا هو الحال في النشأة الأولى (أو الخلق) على الرغم من معايشتنا لتجدُّده في حياتنا كل لحظة، فإن الغيبة المطلقة للنشأة الأخرى (أو البعث) تكون أشد بالنسبة للإنسان، لولا إثبات الله - تعالى - لحتميتها، وأمره لعباده بقياسها على النشأة الأولى.

وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

1 - ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4].

2 - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: 6،7].

3 - ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: 11].

4 - ويكرر ذلك في نفس السورة بقوله العزيز:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: 27].

5 - ويعجب القرآن الكريم من استبعاد الكافرين لعملية البعث فيقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله - ﷺ -:

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: 48،49].

6 - ويتكرر المعنى في نفس السورة معتبراً إنكار البعث كُفراً بالله تعالى فتقول:

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 98].

7 - ويستشهد ربنا - تبارك وتعالى- بالنشأة الأولى على حتمية النشأة الأخرى فيقول - عز من قائل -:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 77-79].

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة الثلاث:

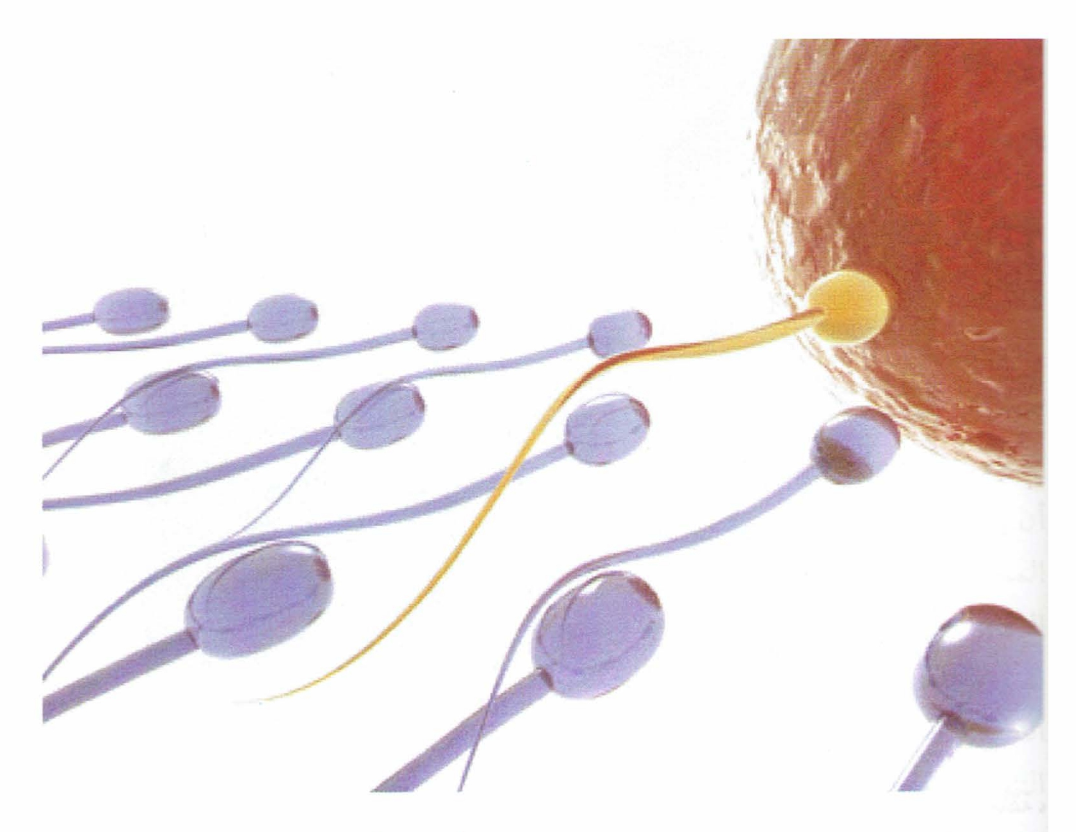
أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: 45]

تشير هذه الآية الكريمة إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في جعل الزوجية سنة من سنن الحياة الدنيا ليبقى ربنا - تبارك وتعالى - متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، ولتبقى الزوجية في كل من الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، ومختلف صور الطاقة وسيلة من وسائل استمرار الخلق وتجدده وتنوعه إلى ما شاء الله - تعالى -، وشاهداً على وحدة الأصل في الخلق الأول الذي ينطق بحقيقة الخلق ويشير إلى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

والنموذج الجلي لخلق الزوجين الذكر والأنثى يتضح في الأحياء من الإنسان إلى الحيوان والنبات حيث تملك الأنثى في كل مجموعة من هذه المجموعات الحية أجهزة تناسلية يعرف الواحد فيها باسم المبيض (Ovary) وهذه الأجهزة وهبها الله - تعالى - قدرة فائقة على إفراز خلايا التكاثر الأنثوية المعروفة باسم البييضة (أي البيضة الصغيرة) أو (Ovum = Egg)، وفي المقابل يملك الذكر أجهزة تناسلية مناظرة تعرف الواحدة منها باسم الخصية (Testis) أعطاها الله سبحانه وتعالى قدرة خارقة على إنتاج خلايا التكاثر الذكرية المعروفة باسم الحيوانات المنوية أو الحيامن (Sperms) [مفردها حيمن (Sperm)]، وتجمع كل من الخلايا التناسلية الأنثوية والذكرية تحت مسمى النطاف جمع نطفة (Gamete)، وباتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية تتكون النطفة الأمشاج أو المختلطة (Zygote) وتعرف في العربية باسم «اللقيحة».

ومبيض الزهرة في النباتات المزهرة يعرف باسم المتاع (Gynoecium) كما يعرف مجموع الخلايا الذكرية باسم الطلع (Androecium) ويتركب من عدد من الأسدية (Stamena)، تتركب كل سداة منها من خيط (Filament) يحمل في نهايته المتك (Anther) الذي يحمل حبوب اللقاح.

والخلايا التناسلية في كل من الإنسان والحيوان والنبات تمثل على تناهيها في ضآلة الحجم ينبوع الحياة ومصدر تنوعها الذي يستمر بها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد عبر الحياة الدنيا كلها حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، ولذلك قال ربنا - وهو أحكم القائلين - ممتناً على خلقه أجمعين:



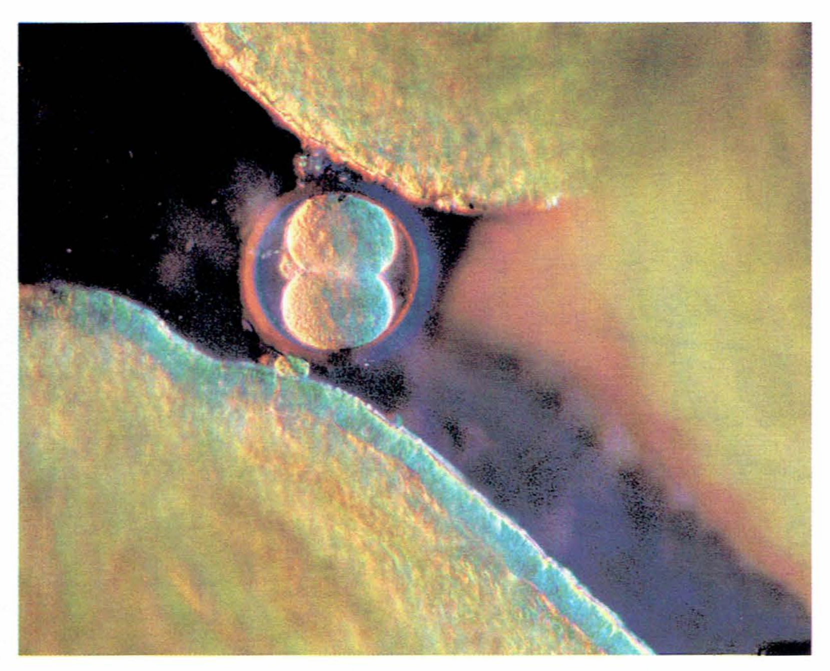
رسم تخطيطي يوضح محاولة إخصاب البييضة (النطفة الأنثوية) بأحد الحيامن (النطف الذكرية).

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: 45].

وتأكيد القرآن الكريم على الزوجية في كل شيء سبق علمي لم يصل إليه علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: 46].

والمقصود بالنطفة هنا خلية التكاثر الأنثوية (البييضة)، وبقوله تعالى: ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي إذا أخصبها الحيوان المنوي، ويحدث إخصاب البييضة بحيوان منوي واحد فينتج عن ذلك النطفة الأمشاج (**Zygote**) التي تبدأ في الانقسام إلى خلايا أصغر فأصغر تعرف باسم القسيمات الأرومية (**Blastomeres**)، ثم تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا تشبه حبة التوت الصغيرة جداً ولذلك تعرف باسم التويتة (**Morula**)، ثم تنشطر التويتة مكونة الكتلة



صورة حقيقية للنطفة الأمشاج في داخل قناة الرحم وقد بدأت في الانقسام الفتيلي إلى خليتين.

الأرومية (Blastocyst) التي تنغرس في جدار الرحم لتكون المراحل التالية من **العلقة**، **والمضغة**، **وخلق العظام**، **ثم كسوتها لحماً** (عضلات وجلداً) ثم **النشأة الأخرى** حتى **الجنين الكامل**.

وبسبب انفراد حيوان منوي واحد بإخصاب البييضة قال المصطفى ﷺ: «**ما من كل الماء يكون الولد**»[1].

ولما كانت كل خلية من الخلايا التناسلية تحمل نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية والمحدد لنوعها، كان في سنّة التزاوج آية من آيات الخالق سبحانه وتعالى في إبداعه لخلقه، وذلك لأنه باتحاد الخليتين التناسليتين الذكرية والأنثوية لتكوين النطفة الأمشاج يكتمل عدد الصبغيات المحدد للنوع. ويحدث التنوع في الصفات بين الوالدين والأبناء الذي يثري الحياة ويجعلها أكثر بهجة، ويشهد للخالق بطلاقة القدرة التي أتقنت ما يتم في داخل تلك النطفة الأمشاج حتى يخرج الإنسان أو الحيوان أو النبات إلى الحياة خلقاً جديداً مشابهاً لأسلافه في بعض الصفات، ومختلفاً في البعض الآخر.

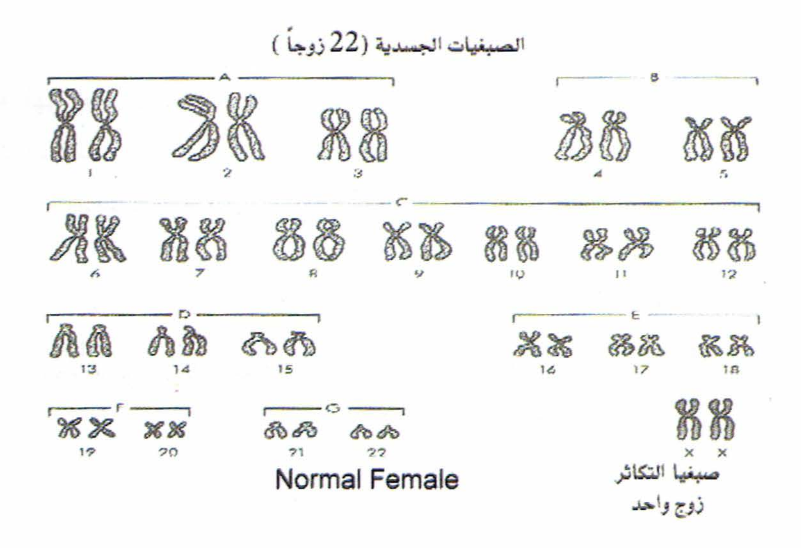
---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).

وفي الإنسان تحتوي الخلية الجسدية على (46) صبغياً مرتبة في (23) زوجاً كل منها يتماثل في الشكل، ويختلف في التركيب، وهذا العدد ثابت في خلايا كل من الذكر والأنثى وإن اختلفا في الصبغيات المحددة للجنس، فالخلية الجسدية الذكرية تحمل (44) صبغياً جسدياً بالإضافة إلى صبغيين جنسيين غير متشابهين أحدهما مذكر **(Y)** والآخر مؤنث **(X)**.

وبنفس التركيب تحمل الخلية الجسدية الأنثوية (44) صبغياً جسدياً بالإضافة إلى صبغيين جنسيين ولكنهما في هذه الحالة متشابهان ومؤنثان هما **(X)**، **(X)**.

وفي انقسام الخلايا الجسدية لتكرار ذاتها فإنها تنقسم انقساماً فتيلياً **(Mitosis)** بمعنى أن ينقسم كل صبغي انقساماً بالطول ليكرر ذاته وذلك من أجل المحافظة على نفس العدد المحدد للنوع من الصبغيات في كل خلية جسدية، ولكن في حالة الانقسام لتكوين خلايا التكاثر فإن الخلية الجسدية تنقسم انقساماً انتصافياً **(Meiosis)** يعطي لكل خلية تناسلية نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية، وذلك لكي يتكامل عدد الصبغيات باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، فيتواصل الناس ويتعارفون ويتقاربون بالتزاوج، ويتحقق هذا التنوع العجيب في صفات الخلق بازدياد دائرة التناسل حتى يرث الله - تعالى - الأرض



رسوم تخطيطية للصبغيات في خلية جسدية لأنثى بشرية طبيعية.

ومن عليها، ويثبت للناس وحدة الأصل مع هذا التنوع العريض فيتآخون ولا يتنافرون، ويتحابون ولا يتقاتلون، ولذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بهذه الحقيقة الكونية فيقول:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45،46].

وتحتوي النطفة الذكرية في الإنسان على (23) صبغياً على نوعين هما:

(أ) (22) صبغياً جسدياً + الصبغي المذكر (Y). أو (ب) (22) صبغياً جسدياً + الصبغي المؤنث (X).

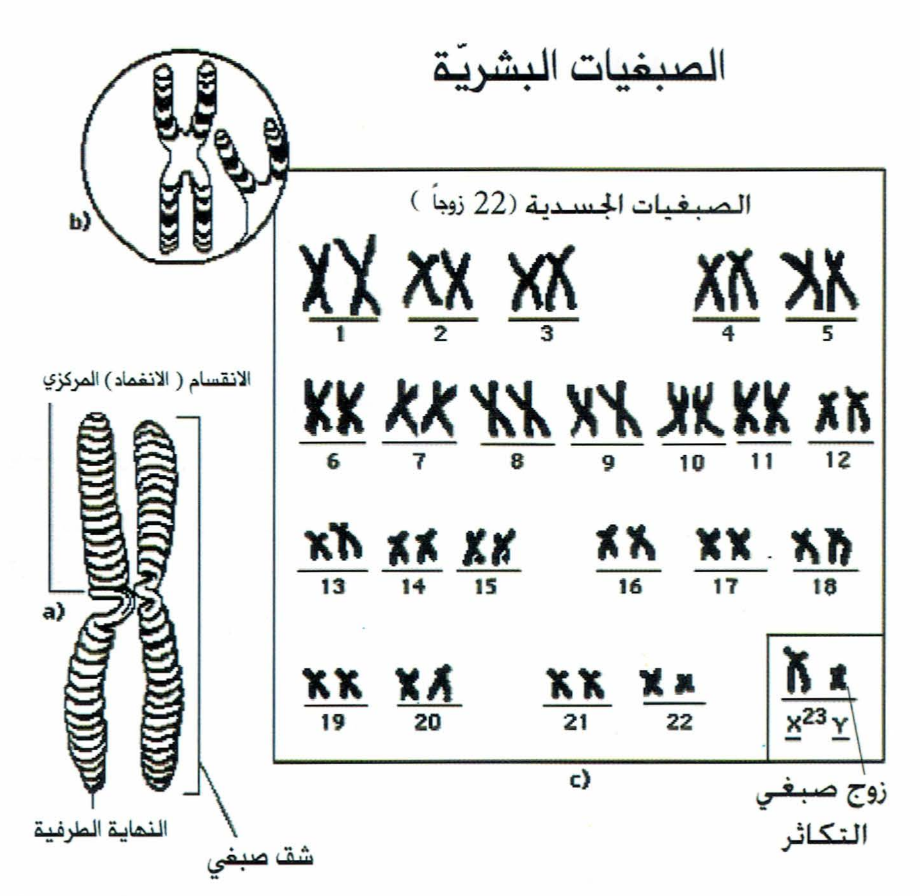
أما النطفة الأنثوية (البييضة) فهي على شكل واحد يحمل دائماً (22) صبغياً جسدياً + الصبغي المؤنث (X).

فإذا قام حيوان منوي مما يحمل الصفة المذكرة (Y) بإخصاب البييضة جاء الجنين ذكراً بإذن الله تعالى (44 صبغياً جسدياً بالإضافة إلى صبغيين جنسين أحدهما مذكر والآخر مؤنث (X + Y).

بينما إذا تم إخصاب البييضة بحيوان منوي يحمل الصفة المؤنثة المزدوجة (X + X) جاء الجنين أنثى بإذن الله الخالق ﷻ (44 صبغياً جسدياً بالإضافة إلى صبغيين أنثويين X + X). وهذه الأزواج الثلاثة والعشرون من الصبغيات يتشابه اثنان وعشرون منها في الشكل هي الصبغيات الحاملة للصفات الجسدية، ويختلف عنها الزوج الحامل للصفات الجنسية فهو إما أن يكون (X,X) في خلية الأنثى أو (Y,X) في خلية الذكر. ونصف هذه الصفات مستمد من الأب وأسلافه، والنصف الآخر مستمد من الأم وأسلافها. ويتحقق هذا التنوع العجيب في الخلق الذي نشأ من أصل واحد بعمليات متتابعة من انشطار الصبغيات ثم اتحادها فيما بينها والذي يعرف في علوم الوراثة باسم عملية التصالب (Cross Over = Chismata) وفيها يحدث أثناء عملية الانقسام التنصيفي الأول للخلية الوراثية المخصبة (النطفة للأمشاج) تبادل بعض المورثات بين كل صبغيين من الصبغيات الزوجية المتماثلة في الشكل حتى يتحقق هذا التنوع الدقيق بين الآباء والأبناء.

وبهذه العملية يصبح لكل صفة من صفات الإنسان زوج من حاملات الوراثة أحدها مستمد من الأب وأسلافه، والآخر مستمد من الأم وأسلافها، والحامل الوراثي الأقوى هو الذي يسود وتعرف صفته باسم الصفة السائدة (The Dominant Character) بينما يستتر الحامل الوراثي الأضعف ويتنحى مرحلياً ليظهر في أجيال تالية ولذلك تعرف

الصبغيات البشريّة



رسومات تخطيطية للصبغيات في خلية بشرية لذكر طبيعي، مع تكبير لأحد الصبغيات من أجل توضيح أجزائه.

الصفة التي يحملها باسم الصفة المستترة أو المتنحية (Recessive Character)، وبهذا التفاعل المحكم الدقيق تتنوع صفات الأبناء عن بعضهم البعض وعن والديهم وأسلافهم تنوعاً عظيماً يشهد للإله الخالق بطلاقة القدرة وببديع الصنعة وإحكام الخلق.

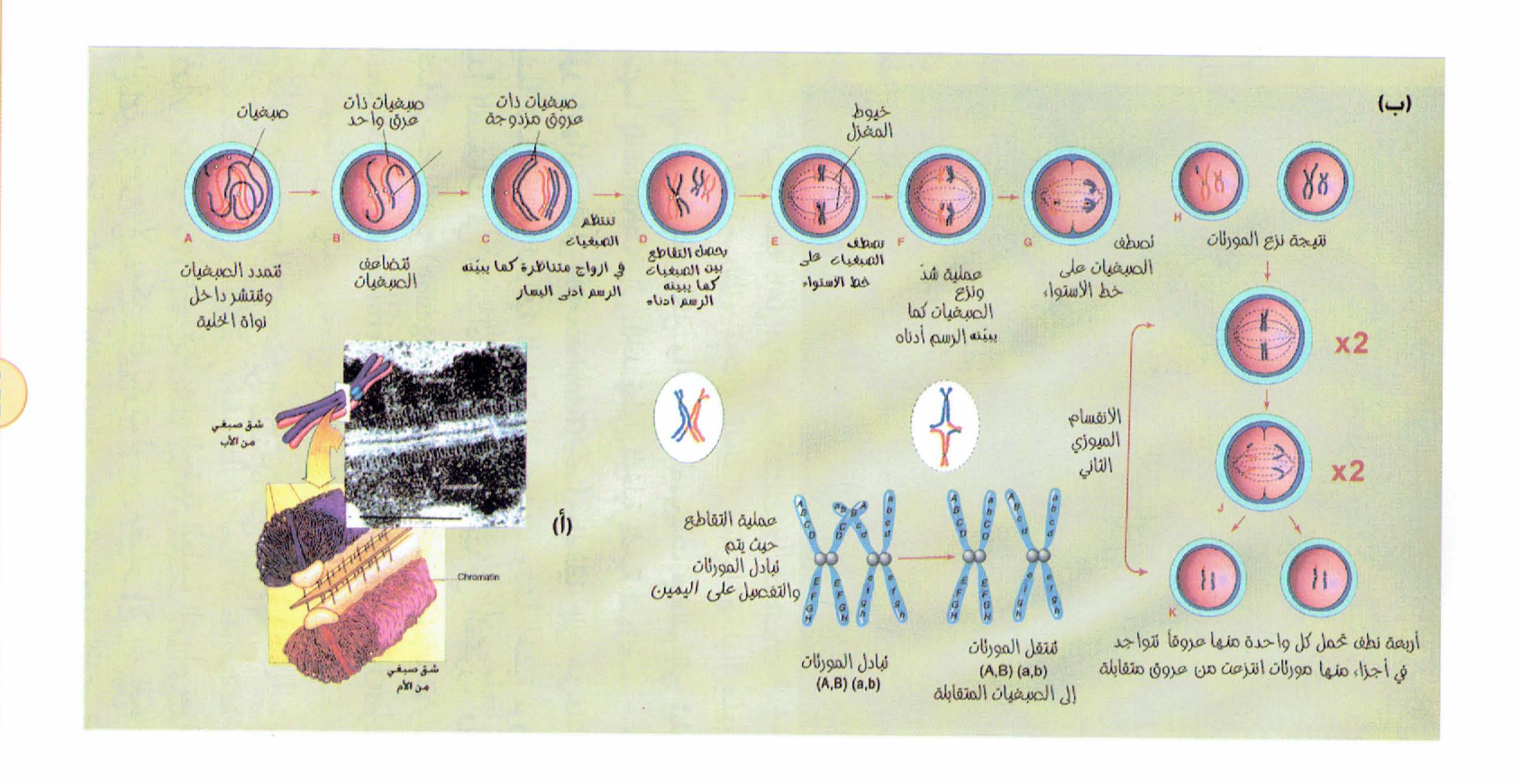
عملية الانقسام الانتصافي للخلايا:

والذي يتتبع عملية الانقسام الانتصافي (Meiosis) في داخل الخلية الحية الجسدية من أجل تكوين خلايا التكاثر يدرك مدى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، ورعاية الخالق العليم الحكيم لخلقه، وفي ذلك تتجهز الخلية الحية للانقسام الانتصافي الأول (Meiosis-1) بتكدس المادة الصبغية (Chromatin) في داخل النواة، والتفافها على ذاتها،

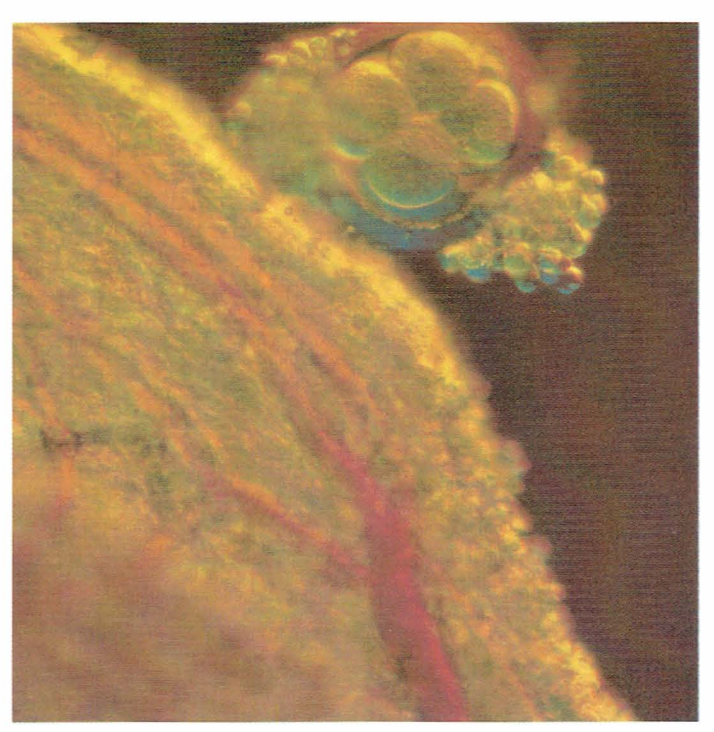
وانقسامها إلى الصبغيات، وحينئذ تختفي النويات (Nucleoli) من داخل النواة، ويتحلل جدار النواة، وتبدأ الصبغيات المتشابهة في التقارب من بعضها البعض حتى تتشابك (Synapsis) وتبدأ في تبادل وحدات من الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين (DNA) الذي تكتب به الصفات الوراثية على طول الجسيمات الصبغية أو الصبغيات، وتعرف هذه المرحلة باسم **الطور التمهيدي الأول** (Prophase-I). وفي المرحلة التالية تتحرك الصبغيات المتشابكة إلى قطبي الخلية حيث يظهر جهاز من خيوط مغزلية الشكل حول محور الخلية، وتعرف هذه المرحلة باسم **الطور البعدي الأول** (Metaphase-I) أو باسم **الطور الاستوائي**.

وبعد ذلك تبدأ الصبغيات المتشابكة في الانفصال، ويتحرك كل زوج منها إلى أحد أطراف الخلية في قطبين متقابلين، ويبقى كل واحد من هذه الصبغيات **مكوناً من شقين صبغيين** (Two Chromatids)، وتعرف هذه المرحلة باسم **التمايز أو العزل** (Segregation)، وبذلك ينفصل شقا كل زوج من الصبغيات المتشابهة في عملية تسمى باسم **إعادة التصنيف المستقل للصبغيات** وتعرف هذه المرحلة باسم **مرحلة الانفصال أو طور الصعود الأول** (Anaphase-I) وفي المرحلة التالية تبدأ الصبغيات في فك الارتباط والالتفاف حول ذواتها، وتتحول إلى خيوط دقيقة في مجموعتين منفصلتين على هيئة قطبين متقابلين، ويبدأ الغشاء النووي في التكون حول كل تجمع للصبغيات عند قطبي الخلية، وتبدأ **النويات** (Nucleoli) في الظهور، وينفصل كل تجمع صبغي مع ما يحيطه من سوائل الخلية وعضياتها على هيئة خلية منفصلة وذلك بتقدير من الخالق ﷻ وبما وهب الخلية الحية من طاقة حركية تعرف باسم **الطاقة الحركية للخلية الحية** (Cytokinesis) ويسمى هذا الطور الذي انقسمت فيه الخلية الجسدية الواحدة انقساماً انتصافياً لتكون خليتين تناسليتين بكل منهما نصف عدد الصبغيات المحدد للنوع باسم **الطور النهائي الأول** (Telophase-I).

ثم تتكرر عملية الانقسام الانتصافي لكل من الخليتين الناتجتين في مرحلة ثانية (Meiosis-II) لها طور ابتدائي يعرف باسم **الطور الابتدائي الثاني** (Prophase-II)، **وطور بعدي ثاني** (Metaphase-II) تتشابك فيه الصبغيات **بقسيماتها المركزية** (Centromeres) **إلى الجهاز المغزلي**، ويتحرك كل شق صبغي من كل واحد من الصبغيات كوحدة مستقلة إلى أحد قطبي الخلية في **طور الانفصال الثاني** (Anaphase-II



صور توضح كيفية الاتصال بين زوجين من الصبغيات في مرحلة التصالب (Synapsis) ليتم العبور بين أجزاء المادة الوراثية في الطور التمهيدي الأول. مع رسوم تخطيطية توضح هذه العملية ونموذج ثلاثي الأبعاد لعملية الانتظام في أزواج متناظرة (Homologs).



صورة للنطفة داخل الرحم وقد انقسمت إلى عدة أقسام.

وذلك بانفصال القسيمة الوسطى لكل واحد من الصبغيات فينقسم إلى شقين **يتحرك كل شق صبغي منهما (Chromatid)** إلى أحد قطبي الخلية الحية.

وفي **الطور النهائي الثاني (Telophase-II)** تصل الخلية إلى مرحلة التوقف عن الانقسام، بينما تبدأ الطاقة الحركية للخلية في التزايد، وتبدأ أغشية نووية جديدة في التكون، وتبدأ الصبغيات في الانفراد، كما تبدأ النويات في الظهور، ويختفي الجهاز المغزلي، وتبدأ مرحلة التمايز (Segregation)، ومرحلة نضج الخلايا الأربع الناتجة إلى **نطف (Gametes)** إما ذكرية **(Sperm cells)** أو أنثوية **(Ovae = Egg cells)** ولذلك قال ربنا - وقوله الحق -:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45،46].

والسبق القرآني من قبل أربعة عشر قرناً بهذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا منذ أقل من قرن واحد من الزمن، لا يمكن أن يكون له من مصدر إلا الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته

العلية، في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً حتى يكون شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، تحقيقاً للعدل الإلهي الذي قدره ربنا - تبارك وتعالى - بقوله العزيز: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15] وذلك لأن الكتب السماوية السابقة جميعها قد وُكِّل حفظها إلى أصحابها فضيعوها، وعرضوا ما بقي منها من ذكريات إلى قدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها.

وليست المظالم التي تضج بها الأرض في مختلف جنباتها اليوم إلّا نتاج الجهل بالدين الحق، والابتعاد عن منهج الله، واتباع الهوى والمعتقدات المنحرفة التي اتخذها أغلب أهل الأرض ديناً لهم، والدين يجب أن يكون صناعة ربانية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية، والدين الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ وحيه هو الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ. والذي حفظ في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم -، بهذه الهداية الربانية الكاملة والتامة والناسخة لما قبلها من رسالات، والحمد لله على حفظ القرآن الكريم، وحفظ السنة النبوية المطهرة في نفس لغة الوحي - اللغة العربية - بصفائهما الرباني، وإشراقاتهما النورانية وما فيهما من حق بدأت العلوم المكتسبة في التعرف عليه، والوصول إليه، والحمد لله كثيراً في كل وقت وفي كل حين.

ثالثاً: السبق العلمي بالإشارة إلى خلايا التكاثر:

في الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الجنين يتولد من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، وأنه يخلق خلقاً كاملاً من هذا الدم أو هذا الماء دفعة واحدة على هيئة متناهية الضآلة في الحجم ثم يزداد في الحجم بالتدريج حتى يصل إلى الحجم الكامل للجنين كما نادى بذلك أرسطو ومدرسته ومن تبعهم من أبناء الحضارات التالية لهم... نزل القرآن الكريم مؤكداً حقيقة الخلايا التناسلية، ودورها في عملية التكاثر، وفي تشكيل جنس الجنين بقدرة الله ومشيئته، ومؤكداً كذلك أن خلق الإنسان يتم في عدد من الأطوار المتتابعة التي أولها النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة ثم خلق العظام وكسوتها لحماً، ثم إنشاءه خلقاً آخر حتى لحظة الميلاد.

النطفة في اللغة العربية وفي العلم:

(**النُّطفة**) في اللغة العربية هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة، وسميت صغار اللؤلؤ (النطف) تشبيهاً لها بقطرات الماء، ويقال: (نَطَفَ) الرجل (يَنْطِفُ) (نَطْفاً) و(نِطَفَاناً) بمعنى تقاطر منه الماء، بعد وضوئه أو غسله و(النطفة) أيضاً هي القليل من الماء الصافي، و(نِطْفان) الماء تقاطره وسيلانه، ويقال ليلة (نُطُوف) أي باتت تمطر حتى الصباح.

و(النَّطف) الدلو، والواحدة منه (نَطْفة). ويقال: فلان (مُنْطف) المعروف أي: دائمه، وفلان (يَنْطِفُ) بخير أي: يندى به.

واستعير هذا المصطلح للتعبير عن خلية التكاثر **(Gamete)** التي تندفق مع كل من ماء الرجل وماء المرأة، أي سواء كانت النطفة مذكرة أو مؤنثة، وجمع النطفة (نِطَف) و(نِطَاف).

ولفظة (**نطفة**) جاءت بمعنى خلية التكاثر في اثنتي عشرة آية من آيات القرآن الكريم هي (النحل: 4، الكهف: 37، الحج: 5، المؤمنون: 14 -13، فاطر: 11، يسٓ: 77، غافر: 67، النجم: 46، القيامة: 37، الإنسان: 2، وعبس: 19).

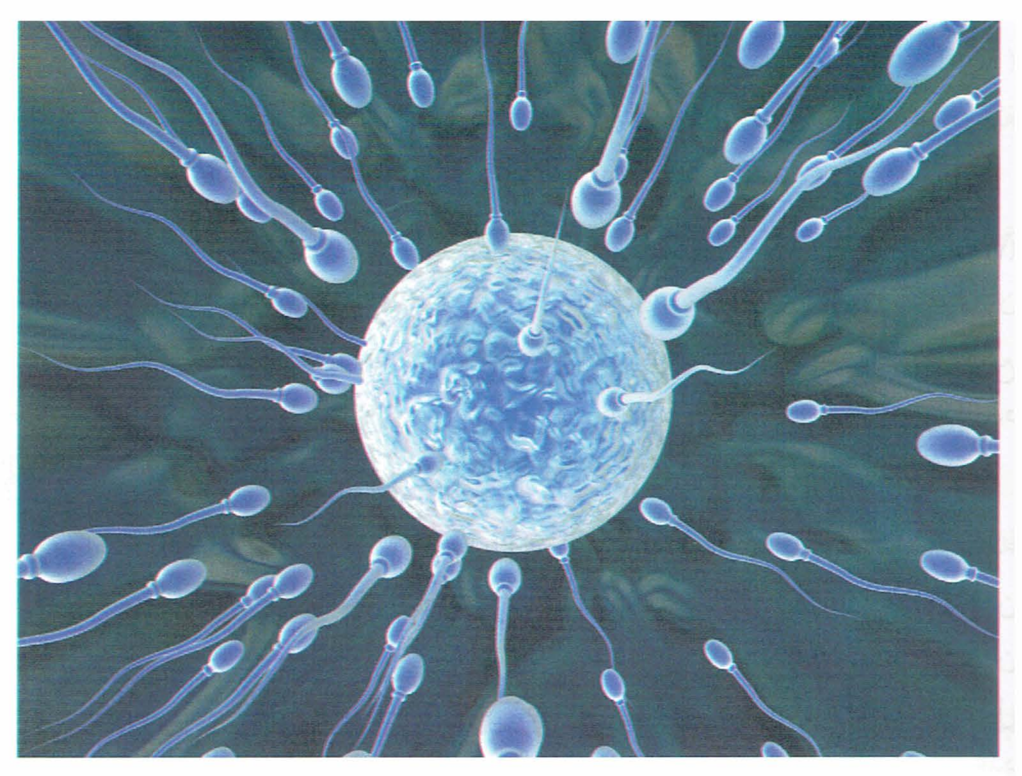
وقد سمى القرآن الكريم اتحاد الخليتين التكاثريتين: الذكرية والأنثوية باسم (**النطفة الأمشاج**) أي المختلطة، وهو أول تعبير علمي دقيق عن عملية تخلق الجنين باتحاد نطفتي الرجل والمرأة.

وتأكيداً لهذا المعنى أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاء اليهودي حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي من كلٍّ يخلق: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»[1].

ولم يصل العلم المكتسب إلى كشف هذه الحقيقة إلا بعد انقضاء أكثر من أحد عشر قرناً من تنزّل القرآن الكريم (في نحو سنة 1186هـ/ 1775م) حين ثبت دور كلٍّ من

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).



الحيامن التي تهاجم البييضة حتى يتمكن أحدها من إخصابها بإذن الله.

البييضة والحيوان المنوي في عملية تكون الجنين البشري. ولم تكتشف بييضة الثدييات إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

كما أن نظرية الخلية بمعنى أن الجسد مكون من مجموعات من الخلايا ومنتجاتها لم تتبلور إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (سنة1839 م) مما أدى إلى الفهم الصحيح بأن الجنين ينمو من خلية واحدة هي النطفة الأمشاج أي المختلطة **(Zygote)**، وفي سنة1858 م أعلن فيرتشاو **(Virchow)** أن كل الخلايا تنشأ من خلايا سابقة عليها، وفي سنة 1865 م وضع مبدأ الوراثة على يد جريجور مندل **(Gregor Mendel)**، وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة (أي في سنة 1878م) اكتشف فلمنج **(Flemming)** الصبغيات واقترح إمكانية أن يكون لها دور في عملية الإخصاب، وفي سنة 1883 م لاحظ فون بنيدين **(Von Beneden)** أن خلايا التكاثر الناضجة تحمل عدداً من الصبغيات أقل مما تحمله الخلايا الجسدية، ووصف جانباً من عملية الانقسام الانتصافي للخلية **(Meiosis)** التي يتناقص بها عدد الصبغيات في الخلية التناسلية إلى النصف.

في سنة 1902 م أعلن كل من ساتون (Sutton) وبوفيري (Boveri) (مستقلاً عن الآخر) أن سلوك الصبغيات أثناء تكون خلايا التكاثر وإخصابها يتفق تماماً مع مبادئ علم الوراثة التي سبق لمندل (Mendel) اكتشافها في عالم النبات (سنة1865م).

وكانت أولى الملاحظات المهمة على الصبغيات البشرية ما قام به ويني وارتر (Wini warter) في سنة 1912 م الذي أشار إلى أن عدد الصبغيات في الخلية الجسدية للإنسان هو (47) وصححه بينتر (Painter) إلى (48)، وظل هذا الرقم مقبولًا على نطاق واسع حتى سنة1956 م حين أثبت كل من تيو (Tio) وليفان (Levan) أن الرقم الصحيح لعدد الصبغيات في الخلية الجسدية لجنين الإنسان هو (46).

وفي سنة 1959م أثبت لوجين وأعوانه (Lejeune et al 1959) أن الخلايا الجسدية عند الأطفال المصابين بمرض المنغولية (Mongolism) تحتوي على (47) صبغياً، وثبت من ذلك أن الحيود عن العدد الثابت للصبغيات في الخلايا الجسدية هو تعبير عن عدد من الأمراض الموروثة عند الأطفال حديثي الولادة، والتي قد تتسبب في موت الجنين قبل ولادته، كما ثبت أن 8% من فشل عملية الإخصاب هو ناتج عن بعض الحيود في عدد الصبغيات.

وسَبْقُ كلٍّ من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى خلايا التكاثر الأنثوية والذكرية، وإلى تكون الجنين باتحادهما لمما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

رابعاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: 47].

أحاديث رسول الله ﷺ تشرح كيفية البعث:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:

1 - **«كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب»**[1].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7341).

2 - «**وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

3 - «**إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة**» قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجب الذنب**»»[2].

وأخرج الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

- «**كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب**»[3].

وأخرج الإمام ابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

- «**يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه**» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**مثل حبة خردل منه ينشأ**»[4].

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

- «**ما بين النفختين أربعون... ثم ينزِّل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[5].

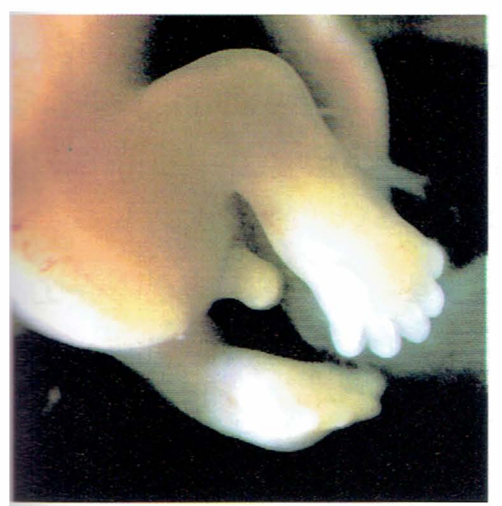
قالوا: أربعون يوماً؟ قال أبو هريرة: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، أي أن أبا هريرة أبى أن يحدد الأربعين هل هي يوم أو شهر أو سنة، وقد جاءت الأربعون سنة مفصَّلة في قول للإمام النووي.

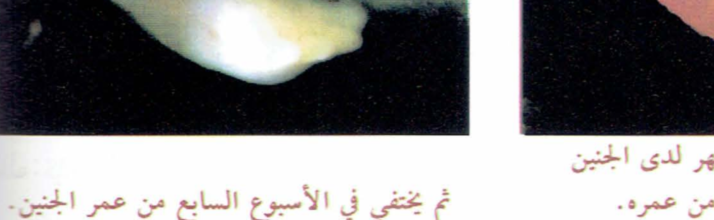
اكتشاف عجب الذنب في بدايات الثلث الثاني من القرن العشرين:

في محاولة لدراسة التطور الجنيني للبرمائيات لاحظ أحد العلماء الألمان واسمه «هانز سبيمان» (**Hans Spemann**) في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين أنه بمجرد إخصاب

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: (يوم ينفخ في الصور) (الحديث: 4935)، وأخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7340).
(2) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث: 7342).
(3) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: ذكر البعث والصور (الحديث: 4743).
(4) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 28).
(5) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: (يوم ينفخ في الصور)، الحديث: (4935).

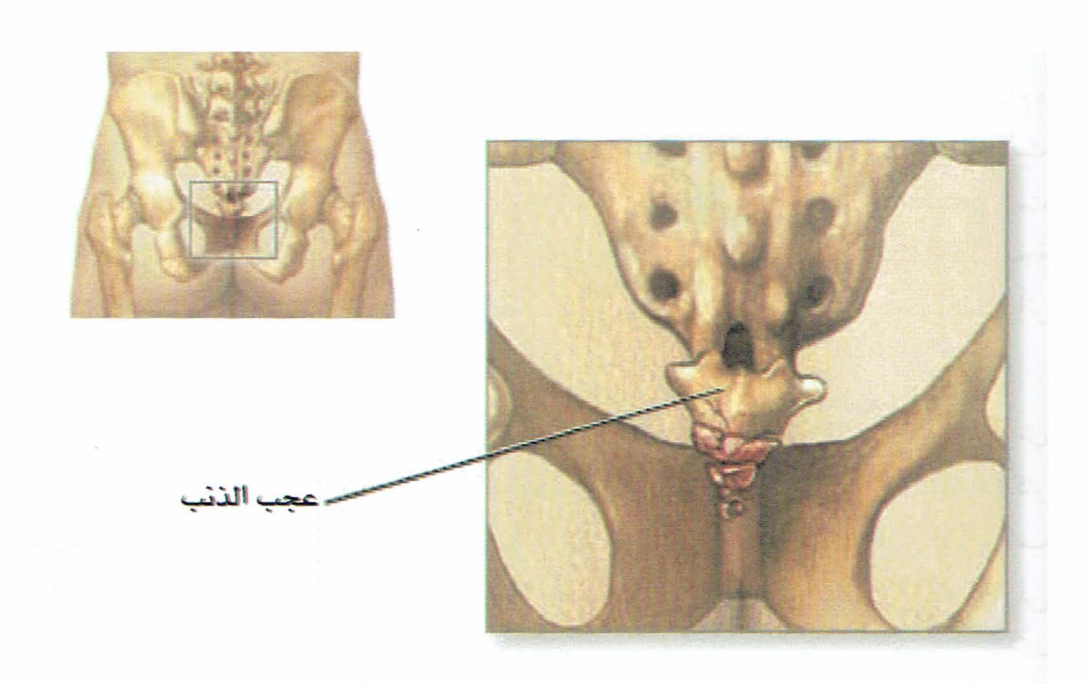




صورة حقيقية لذنب يظهر لدى الجنين في الأسبوع الرابع من عمره.

ثم يختفي في الأسبوع السابع من عمر الجنين.

البييضة تبدأ النطفة الأمشاج (الزيجوت) في الانقسام عدة مرات حتى تتحول إلى قرص من الخلايا مُكوَّن من طبقتين: فوقية تسمى (Epiplast)، وتحتيــة تسمى (Hypoplast)، وهذا القرص لا يبدو له أي قدر من التمايز حتى يظهر على طبقته الفوقية خيط دقيق سماه **الخيط الأولي أو الابتدائي** (The Primary or the Primitive Streak) له عقدة في نهايته الأمامية سماها العقدة الأولية (The Primary or the Primitive Knot or Node) **فيحدد** موضع ظهورهما مقدمة الجنين من مؤخرته، ثم يبدأ هذا الخيط والعقدة الأوَّلَيْن في تنظيم عمليات تخلق جميع أعضاء وأجهزة الجنين بتحرُّك خلايا الطبقة الفوقية في اتجاه كل من الخيط والعقدة الأوَّلَيْن فتدخل تلك الخلايا وتنغرس فيهما فيشكلانها حسب وظيفة كل منها، ويوجهانها إلى موضع كل منها من جسم الجنين، وأول ما يتكوَّن الخلايا العصبية التي ينبني منها الجهاز العصبي للجنين وذلك بمرور خلايا الطبقة الفوقية عبر العقدة الأَوَّلِيَّة. وبعد تمام نمو جميع أجهزة الجسم ينسحب الشريط الأوَّلي ليختزن في نهاية العمود الفقري (العصعص). وقد اندهش سبيمان ومعاونوه بظاهرة تخلق جميع أجهزة الجنين من خلال مرور الخلايا الأولية عبر هذا الخيط والعقدة الابتدائيين اللذين أطلق عليهما اسم «**المنظم الأول**» (**The Primary Organizer**). وفي محاولة لاستجلاء طبيعة ذلك المنظم الأول قام بقطعه وزرعه في جنين آخر فنتج عنه نمو جنين ثانوي غير الجنين المضيف، وعلى محور مغاير لمحوره.



رسمان يوضحان الفقرة الأخيرة في العصعص «عجب الذنب».

وفي سنة (1931م) قام «هانز سبيمان» ومعاونوه وكان من أبرزهم (هيلد مانجولد) (**Hilde Mangold**) بسحق الشريط الأولي وزرعه في جنين من أَجِنَّة البرمائيات، فنما على محور جنيني آخر على هيئة جنين ثانوي غير الجنين المضيف مما يشير إلى أن هذا المنظم الأولي لم يتأثر بالسحق. ثم قام سبيمان ومعاونوه بغلي المنظم الأول وزرعه في جنين آخر فنما على محور جنيني آخر مما يشير إلى عدم تأثره بالغلي.

وفي سنة (1935 م) مُنِح «سبيمان» جائزة نوبل في العلوم تقديراً لاكتشافه «**المنظم الأول**»، وإثبات دور ذلك المنظم في تشكل جميع خلايا، وأنسجة، وأعضاء، وأجهزة الجسم، ثم إثبات حقيقة أنه لا يبلى أبداً، فأثبت بذلك دقة أحاديث «**عجب الذنب**» التي ذكرها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً، وهو على غير علم بها.

وبعد سبعين عاماً من تجارب «هانز سبيمان» ومعاونوه قام الأخ اليمني الدكتور عثمان

جيلان في رمضان سنة 1424هـ (2003م) بأخذ فقرتين من خمسة عصاعص للأغنام، وقام بإحراقها باستخدام مسدس غاز فوق أحجار لمدة عشر دقائق حتى تفحمت بالكامل، ثم بفحصها بواسطة عدد من المختصين بعلم الأنسجة في جامعة صنعاء ثبت أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالحرق وإن احترقت جميع العضلات، والأنسجة الدهنية وخلايا النخاع الموجودة فيها والمحيطة بها، أما خلايا عظمة العصعص فلم تتأثر بالحرق على الإطلاق.

من هذا الاستعراض يتضح أن الحديث النبوي الشريف عن «**عجب الذنب**» (والذي جاء بروايات متعددة، وأخرجه أغلب أئمة السنة) قد سبق كل المعارف الإنسانية بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، وجاءت تجارب العلماء مؤكِّدة ما ذكره المصطفى ﷺ مِن أن «**عجب الذنب**» يخلق منه جميع خلايا، وأنسجة، وأعضاء، وأجهزة جسم الجنين، وأنه لا يبلى أبداً بجميع الوسائل المُتاحة للإنسان، مما يرشحه للإنبات في يوم البعث كما أكَّد المصطفى ﷺ.

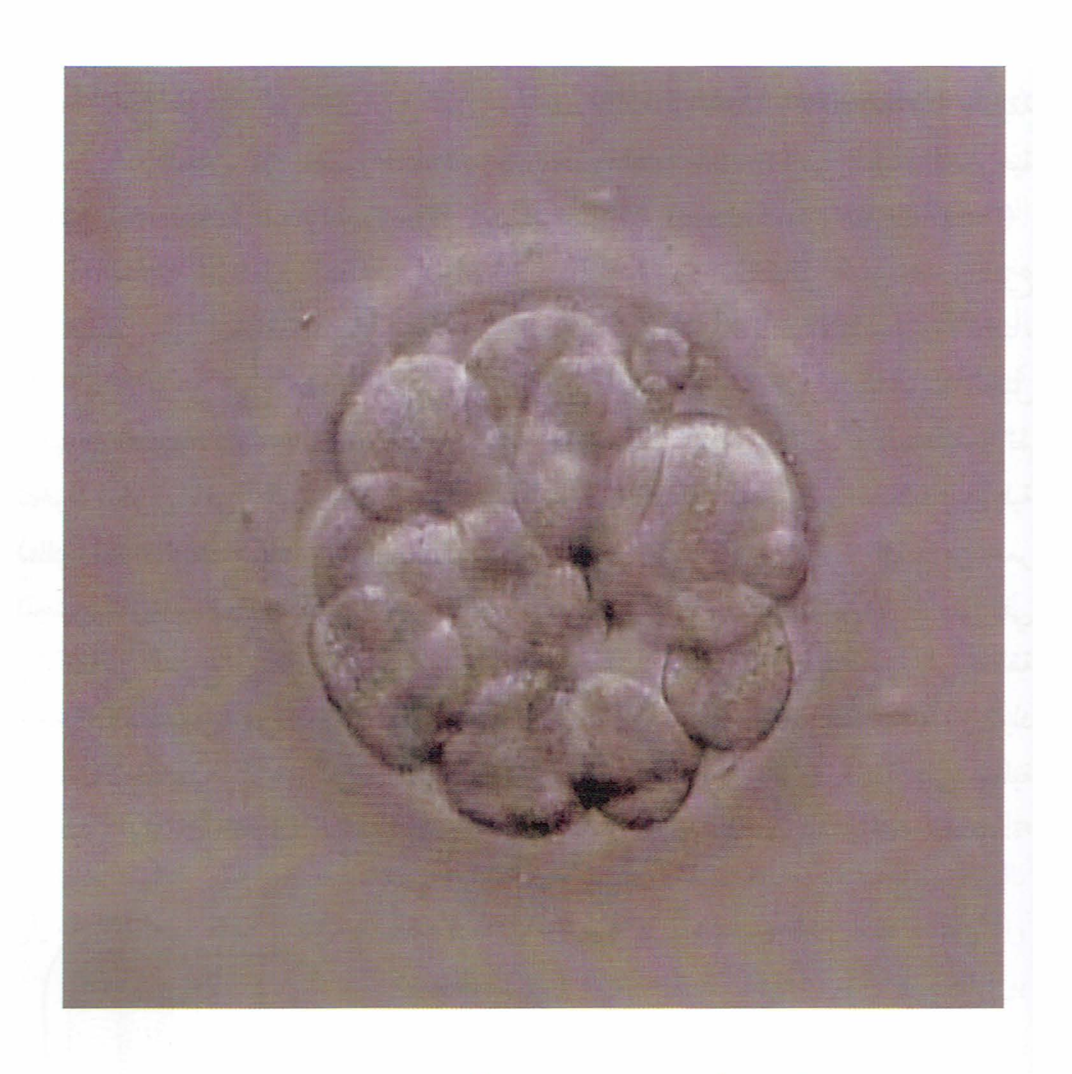
عجب الذنب في الإنسان:

بتطبيق ملاحظات «سبيمان» ومدرسته في مجال دراسة الجنين الإنساني اتضح لعلماء الأجنة كما أورد الدكتور «كيث مور» (**Keith L. Moore**) في كتابه «الإنسان النامي» (**The Developing Human**). ما يلي:

1 - تتكوَّن النطفة الأمشاج بمجرد إخصاب خلية التكاثر الأنثوية (البييضة) بالحيوان المنوي (خلية التكاثر الذكرية).

2 - تبدأ النطفة المختلطة هذه في الانقسام إلى خلايا أصغر فأصغر تعرف باسم «**القسيمات الجرثومية أو الأرومية**» (**Blastomeres**) حتى تتحول بعد أربعة أيام إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم «**التويتة**» (**Morula**) لشبهها الكبير بثمرة التوت الصغيرة.

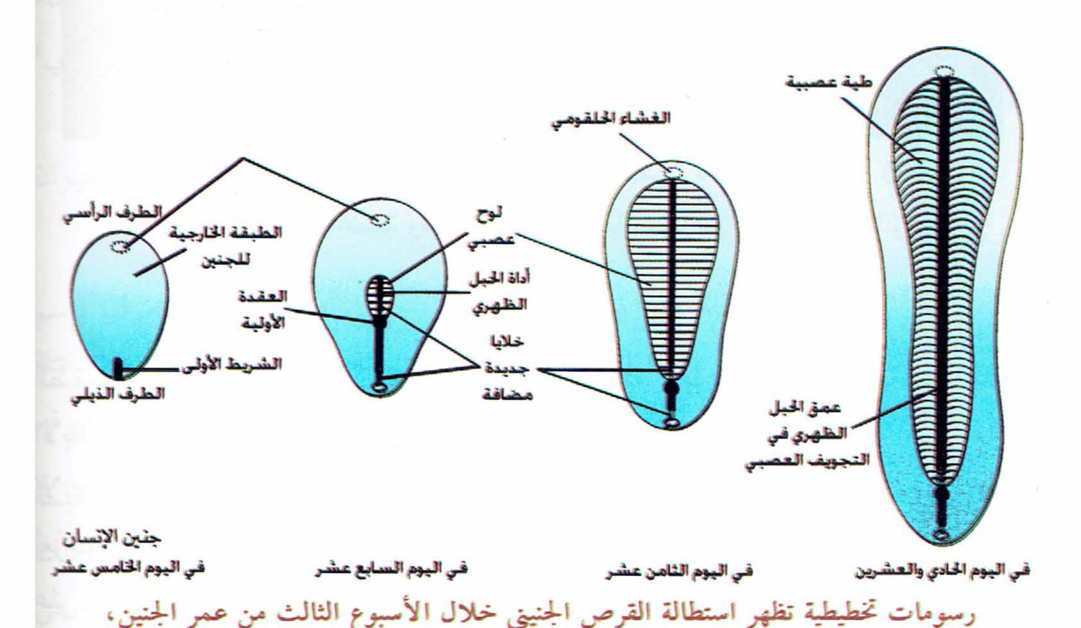
3 - في اليوم الخامس تنشطر التويتة إلى نصفين مُكَوِّنة ما يُعرف باسم «**الكيسة الأرومية**» (**Blastocyst**) التي تبدأ في الانغراس بجدار الرحم في اليوم السادس وذلك بواسطة عدد من الخلايا الرابطة التي تنشأ منها، وتتعلق بها في جدار الرحم متحولة إلى **طور العلقة**، وتتحول الخلايا الرابطة بجدار الرحم إلى المشيمة.



صورة حقيقية للنطفة المخصبة وقد انقسمت إلى أقسام مضاعفة تعرف باسم «التويتة».

4 - في حوالي اليوم الخامس عشر من عمر النطفة الأمشاج تبدأ حزمة من خلايا الطبقة العليا للقرص الجنيني في الترتيب على هيئة خط طولي يُعرَف باسم «**الشريط الابتدائي أو الأولي**» (**The Primary or Primitive Streak**)، وباستطالة هذا الشريط الابتدائي بإضافة خلايا جديدة عند نهايته الخلفية، تتضخم نهايته الأمامية على هيئة ما يُعرَف باسم «**العقدة الابتدائية**» (**The Primitive Knot or Node**) وفي نفس الوقت يتكوَّن على الشريط الأولي انخفاض أولي ضيق (**A Narrow Primitive Groove**) يستمر إلى حفرة ضئيلة في العقدة الابتدائية تعرف باسم «**الحفرة الابتدائية**» (**The Primitive Pit**).

5 - في حوالى اليوم السادس عشر من عمر النطفة الأمشاج (**Zygot**) تبدأ **الطبقة الوسطى من الخلايا في الظهور** (**The Intraembryonic Mesoderm**) بين **الطبقة الخارجية للجنين** (**The Embryonic Ectoderm**) وطبقته الداخلية (**The Embryonic Endoderm**). وهذه الخلايا الوسطى أعطاها الخالق ﷻ القدرة على التكاثر السريع، والتنوع والتخصص إلى مختلف أنواع الخلايا، والهجرة لتكوين مختلف الأنسجة والأعضاء والأجهزة. ومن تنوع هذه الخلايا تَحرُّكها من العقدة الأولية لتكوين **بدايات الحبل الظهري** (**Notochordal Process**) الذي ينشأ عنه الجهاز العصبي بتفرعاته المختلفة، ثم تتحرك لتكوين باقي أجهزة الجسم. **ويستمر الشريط الابتدائي في تكوين الخلايا الوسطية** (**Intraembryonic Mesodermal Cells**) **بنشاط واضح حتى نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين تقريباً**، ثم يبدأ إفراز هذه الخلايا في التباطؤ، ويبدأ الشريط الأولي في الانكماش السريع في الحجم حتى يتضاءل إلى حَيِّز لا يكاد يُدرك وينسحب إلى **منطقة العجز (العصعص) من الجنين** (**The Sacrococcygeal Region of the Embryo**). ويدرك علماء الأَجِنَّة أن خلايا الشريط الأولي قد وهبها الخالق ﷻ قدرات فائقة على عملية التخليق ولذلك تعرف باسم «**خلايا الشريط الأولي ذات القدرات المتعددة**»



رسومات تخطيطية تظهر استطالة القرص الجنيني خلال الأسبوع الثالث من عمر الجنين، واستطالة الشريط الأولي من جراء تراكم الخلايا فيه، ثم انسحابه إلى نهاية العمود الفقري.

(Pleuripotent Primitive Streak Cells)، ويَتضح ذلك من حقيقة أن هذه الخلايا الخاصة إذا تعرضت لبعض المؤثرات من مثل الإشعاع فإنها تنمو على هيئة أعداد من الأورام المسخية (Teratoma) المحتوية على أنسجة مختلفة، وفي بعض الأحيان على أعضاء مختلفة مما يؤكد قدرتها على الإنبات بإذن الله - تعالى - في يوم البعث كما ذكر المصطفى ﷺ في حديثه الشريف الذي قال فيه: «.. **ثم ينزِّل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[1].

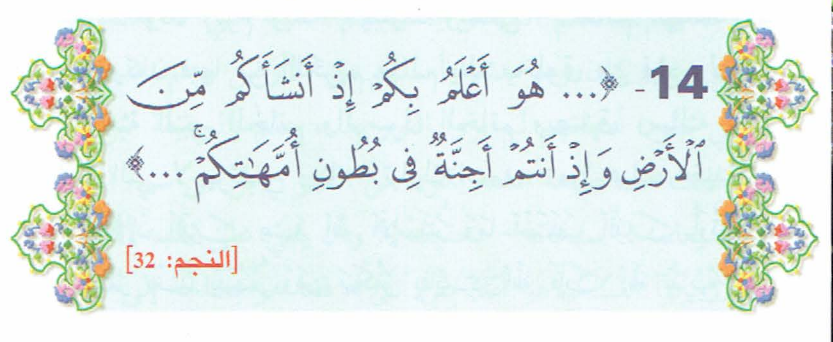
وفي ذلك قال - تعالى -: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: 47].

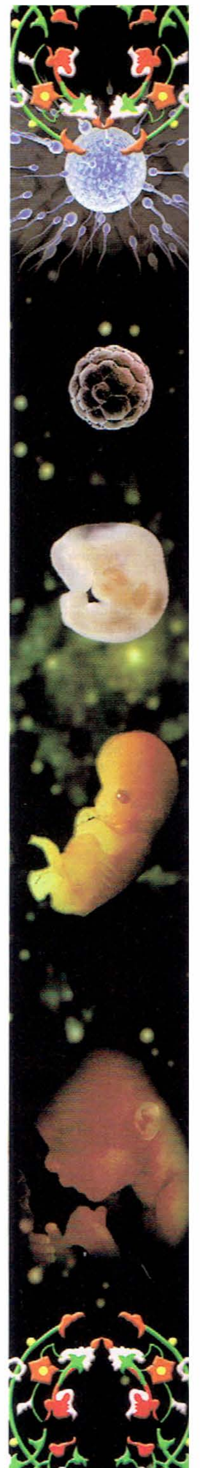
هذا السبق العلمي في كلٍّ من كتاب الله وأحاديث خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لَمِمّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحَفِظَه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وحتى قيام الساعة ليبقى حجة على الخلق كافة، وشاهداً عليهم أجمعين. وهذا السبق العلمي يشهد لله الخالق بالألوهية والربوبية والوحدانية والخالقية وبطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، كما يشهد لسيدنا محمد ﷺ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان دوماً موصولاً بالوحي ومعلَّماً مِن قِبَل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(1) تقدم تخريجه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذا النص القرآني الكريم جاء في بداية النصف الثاني من سورة «النجم» وهي سورة مكية وعدد آياتها (62) بعد البسملة وفي ختامها سجدة من سجدات التلاوة. وقد أخرج كلٌّ من الأئمة البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي أن سورة «النجم» هي أول سورة أنزلت فيها سجدة تلاوة. وقد سميت السورة بهذا الاسم (النجم) لاستهلالها بقسم من الله - تعالى وهو الغني عن القسم لعباده - يقول فيه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

ويدور المحور الرئيس لهذه السورة الكريمة حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية وفي مقدمتها الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يشاركه أحد في ملكه، ولا ينازعه أحد في سلطانه، وهو المنزه عن الصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وإن هذا الإله الخالق البارئ المصور خلق الموت والحياة ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية كذلك: الإيمان بحقيقة الوحي من الله - تعالى - إلى سلسلة من الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم ربنا - تبارك وتعالى - من خلقه بعلمه، والذين ختمهم ببعثة خاتم أنبيائه ورسله، سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الذي أوحى إليه ربه هدايته الخاتمة للبشرية كلها عبر سيدنا جبريل عليه السلام،

وتعهد بحفظها في نفس لغة وحيها حفظاً مطلقاً حتى تكون شاهدة على جميع الخلق إلى يوم الدين. وقد أكرم ربنا - تبارك وتعالى - خاتم أنبيائه ورسله بمعجزة الإسراء والمعراج وكان فيها من التكريم ما لم ينله مخلوق من قبل ولا من بعد، ومن هنا كان الإيمان ببعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم وبصدق رسالته ركيزة من ركائز العقيدة الإسلامية التي لا يرتضي ربنا - تبارك اسمه - من عباده عقيدة سواها فقال - عز من قائل -: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].

هذا وقد سبق أن استعرضنا «سورة النجم» وما جاء بها من كل من ركائز العقيدة والعبارة والسلوك والإشارات الكونية، ولذلك نركز هنا على الآية القرآنية الكريمة رقم (32) من «سورة النجم»، وقبل الوصول إلى ذلك أرى ضرورة الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32].

- ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: ... «أي أعلم بأعمالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم وتقع منكم حين أنشأ أباكم من الأرض واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به: رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد...».

- وذكر القرطبي رحمه الله ما مختصره: «هو أعلم بكم من أنفسكم ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعني أباكم آدم من الطين، وخرج اللفظ على الجمع، قال الترمذي أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض وكنا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذرو النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صلبها على اختلاف الهيئات منهم كالدر يتلألأ وبعضهم أنور من بعض وبعضهم أسود كالحممة وبعضهم أشد سواداً من بعض فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي جنيناً لاجتنانه واستتاره».

وجاء في «الظلال» - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «.... فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم، العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة التي لا يعلمونها هم ولا يعرفها إلا الذي خلقهم. علم كان وهو ينشئ أصلهم من الأرض وهم بعد في عالم الغيب، وكان وهم أجنة في بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد، علم بالحقيقة قبل الظاهر وبالطبيعة قبل العمل ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو - بل من سوء الأدب - أن يعرفه إنسان بنفسه أو أن يعلمه - سبحانه - بحقيقته!! وأن يثني على نفسه أمامه يقول له: أنا كذا وأنا كذا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فما هو بحاجة إلى أن تدلّوه على أنفسكم ولا أن تزينوا له أعمالكم فعنده العلم الكامل وعنده الميزان الدقيق وجزاؤه العدل وقوله الفصل وإليه يرجع الأمر كله».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿...هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾:

تَرِدُ لفظة (الأرض) في القرآن الكريم بمعانٍ ثلاثة هي:

الكوكب بأجمعه إذا جاءت (الأرض) في مقابلة السماء أو أي من أجرامها، ألواح الغلاف الصخري للأرض المكونة لكتل القارات التي نحيا عليها؛ وقطاع التربة الذي يغطي الصخور القارية.

وقطاع التربة مستمد أصلاً من تجوية وتعرية صخور قشرة الأرض والأخيرة مستمدة من تمايز الصهير الموجود في نطاق الضعف الأرضي تحت الغلاف الصخري للأرض مباشرة وذلك بالتبلور التدريجي نتيجة للتبرد والتجمد وكله من مادة الأرض.

فإذا قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿... إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ...﴾ كان هذا حقاً مطلقاً. وقد فسَّر المصطفى ﷺ ذلك بقوله الشريف:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك»[1].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (الحديث: 4693)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (الحديث: 2955).

فلفظة (الأرض) في كل من هذه الآية القرآنية الكريمة والحديث النبوي الشريف تشير إلى قطاع التربة الذي هو مستمد من الأرض، وذلك لقول الحق - تبارك وتعالى - في خلق الإنسان:

1 - أنه - تعالى - **خلقه من تراب**: [آل عمران: 30، الكهف: 37، الحج: 5، الروم: 20، فاطر: 11، غافر: 67].

2 - وأن خلقه كان ﴿مِن طِينٍ﴾ (وهو التراب المعجون بالماء): [الأنعام: 2، الأعراف: 12، السجدة: 7، صٓ: 71، 76، الإسراء: 61].

3 - و﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (أي الخلاصة المنتزعة من الطين برفق) [المؤمنون: 13].

4 - و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (أي لاصق بعضه ببعض). [الصافات: 11].

5 - و﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (أي أسود منتن): [الحجر: 26، 28].

6 - و﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14].

7 - و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 61، طه: 55، النجم: 32، نوح: 17، 18].

8 - و﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الفرقان: 54].

9 - و﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20].

10 - و﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6].

11 - ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

وهذه كلها مراحل متتالية في الخلق، والمراحل السبع الأولى منها (**من تراب، من طين، من سلالة من طين، من طين لازب، من صلصال من حمإ مسنون، ومن صلصال كالفخار، ومن الأرض**) تنطبق على خلق أبينا آدم عليه السلام، ومنه خلق الله تعالى أمنا حواء عليها السلام بمعجزة لا تقل عن معجزة خلق آدم من تراب الأرض، كما تنطبق على جميع نسله من بعده إلى يوم الدين، وقد كانوا جميعاً في صلبه لحظة خلقه. ويخرجون بالتتابع من أصلاب أسلافهم فيتغذون على ثمار الأرض وتنمو أجسادهم من عناصرها.

ومنذ خلق الله - تعالى - هذا الزوج الأول من البشر سلسل نسلهما إلى يومنا الراهن وسوف يستمر إلى قيام الساعة إن شاء الله - تعالى - بعملية التزاوج التي تحاول المعارف المكتسبة تفسيرها (على ما فيها من غيوب كثيرة)، وهذه تنطبق عليها المراحل من (8) إلى (11) في التسلسل السابق، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وعلم الوراثة الحديث يرد بلايين البشر الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، وكذلك البلايين الذين عاشوا من قبل وماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، يرد هؤلاء جميعاً إلى شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وقد ظلت هذه الشيفرة في الانقسام ولا تزال مما يفسر ردها أصل واحد جمع فيه ربنا - تبارك وتعالى - الخلق كله وفي ذلك يقول:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].
- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 6].
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

والخطاب هنا للبشرية جمعاء مما يؤكد على أننا كُنّا جميعاً في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى - ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النجم: 32]، والإنشاء من الأرض كما يشمل أبا البشر وذريته جميعاً في صلبه لحظة خلقه ينسحب على كل فرد من نسله إلى يوم الدين للأسباب التالية:

1 - إن شيفرته الوراثية مستمدة من شيفرة أبيه آدم عليه السلام وهو مخلوق أصلاً من تراب الأرض.

2 - إن الخليتين التناسليتين المكونتين للنطفة الأمشاج مستمدتين من جسدي والديه وهما مستمدان أصلاً من سلالة آدم المخلوق من تراب الأرض، وقد تغذيتا بغذاء مستمد من عناصر الأرض.

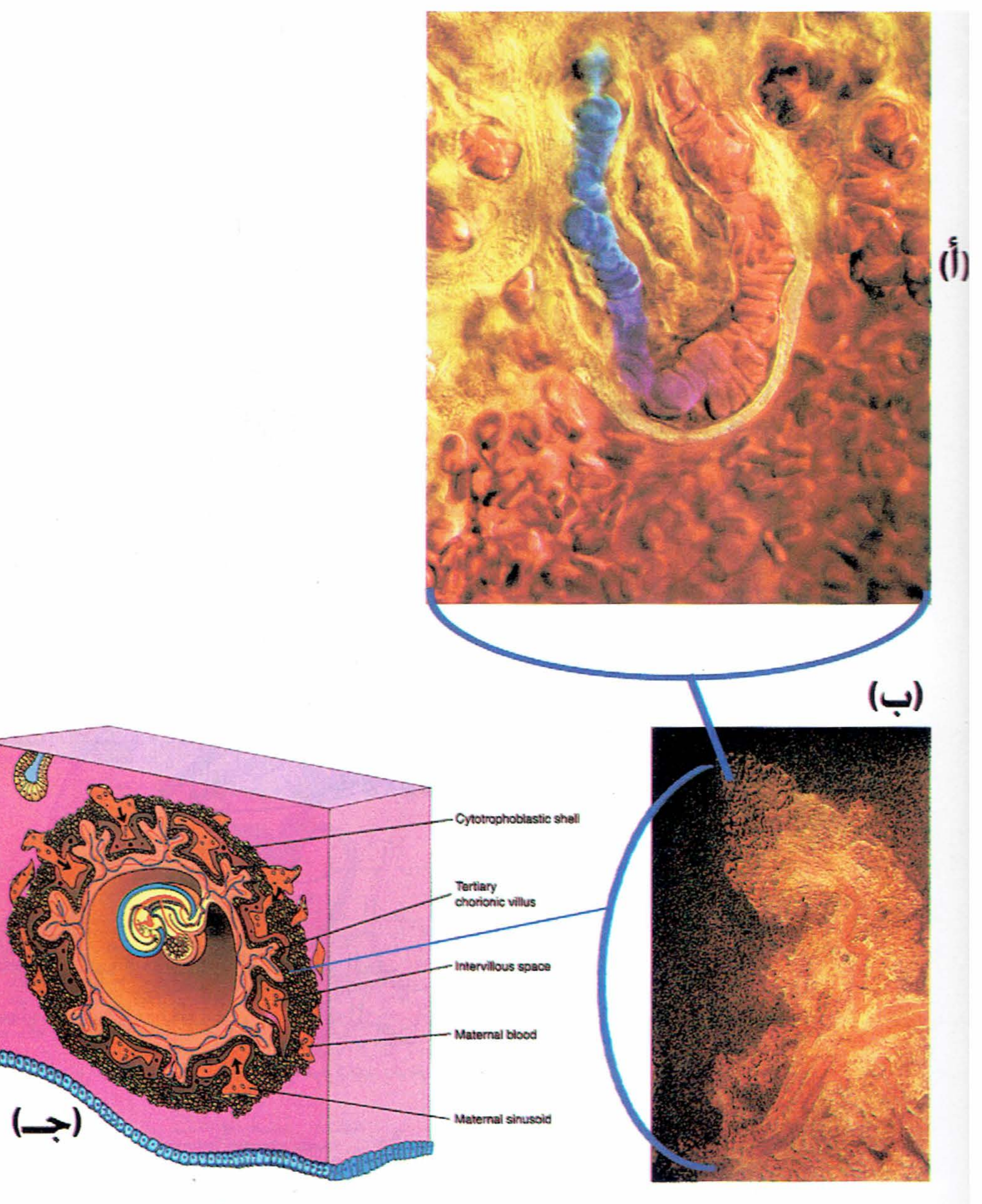
3 - بمجرد انغراس الخلية الأرومية (النطفة الأمشاج المنقسمة أقساماً عديدة) في جدار الرحم فإنها تبدأ في الاعتماد على دم الأم وهو مستمد أصلاً من غذائها المستمد من عناصر الأرض. ويستمر الحال كذلك في جميع المراحل الجنينية (العلقة، المضغة، العظام، كسوة العظام لحماً، مرحلة النشأة خلقاً آخر، إلى طور المخاض) والجنين ينمو جسده على حساب دم أمه المستمد من غذائها، وغذاؤها مستمد أصلاً من عناصر الأرض.

4 - طوال مرحلة الرضاعة والوليد يحيى على لبن أمه، أو لبن مرضعة أخرى أرضعته، أو على ألبان الحيوانات وكل ذلك مستمد أصلاً من عناصر الأرض عن طريق طعام الأم أو المرضعة أو ألبان البهائم المتغذية على نبات الأرض.

5 - بعد الفطام يبدأ الطفل في التغذية المباشرة على نباتات الأرض وثمارها، وعلى ألبان الأنعام ومنتجاتها وهي تتغذى بنبات الأرض وكل ذلك مستمد من عناصر الأرض الموجودة في تربتها ومائها وهوائها.

وعلى ذلك فإن في قول ربنا - تبارك وتعالى - ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: 32] عدداً من الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده مما يشهد للقرآن بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

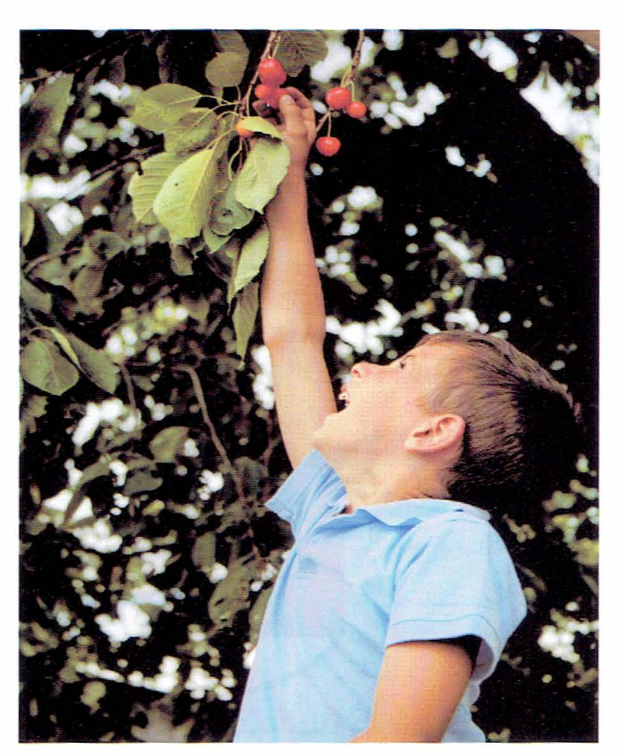
والتشابه الكبير في التركيب الكيميائي بين التربة الزراعية، وأديم الأرض وجسم الإنسان أصبح من الأمور المؤكدة، مع غلبة الماء على جسم الإنسان وتركيز عدد من العناصر التي أهمها الكربون، والنيتروجين، والفوسفور، والكالسيوم، وعلم الأجنة الحديث يؤكد ضخامة الأحداث التي تتم أثناء تكون الجنين في بطن الأم والتي لا يمكن لها أن تتكامل بغير هداية ربانية، ومن هنا كانت الومضة الإعجازية في قول ربنا - تبارك



(أ) صورة حقيقية لإحدى الخمائل في رحم أنثى بشرية، والخميلة محاطة بدم الأم الذي يتغذى عليه الجنين بواسطة المشيمة المنغرسة في جدار الرحم. وفي الصورة تكبير لأحد الشعيرات الدموية على هيئة حرف (u) وترى دماء الجنين باللون الأزرق، وبعد أكسدته بواسطة أكسجين الأم يتحول لونه إلى الأحمر.

(ب) صورة حقيقية لخملات المشيمة تنغرس في بطانة الرحم.

(ج) رسم تخطيطي لقطاع في رحم أنثى بشرية يحمل جنيناً يتغذى على دماء وأكسجين الأم بواسطة خملات المشيمة المنغرسة في بطانة جدار الرحم.

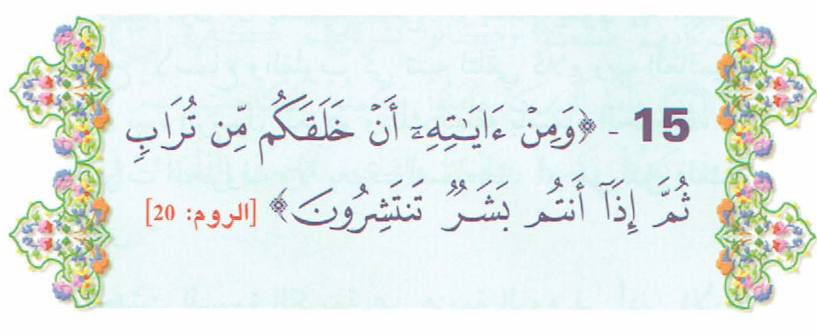


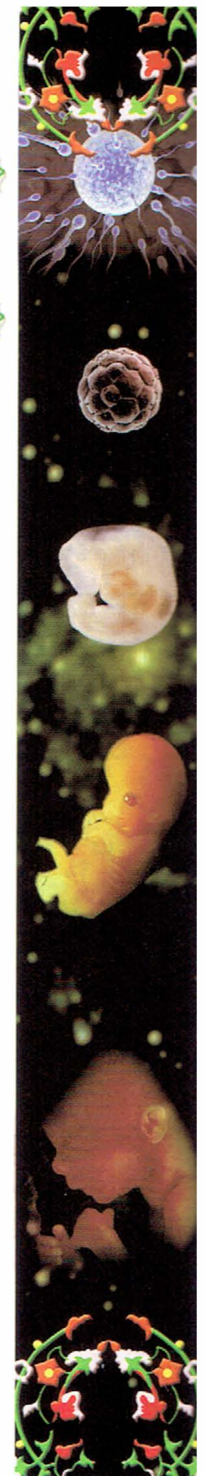
صورة لطفل يلتقط ثمرة من إحدى الأشجار
للتعبير عن علاقة الإنسان بالأرض عن طريق الغذاء.

وتعالى -: ﴿... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ...﴾ [النجم: 32]. وهذا يؤكد على دقة التعبيرات القرآنية الكريمة التي تصف مراحل الجنين البشري بشمول وكمال لم يصله العلم الحديث؛ مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي الخاتم الذي تلقَّاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذه الآية الكريمة جاءت في ختام الثلث الأول من سورة «الروم»، وهي سورة مكية، وآياتها ستون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالإنباء المستقبلي بحدث وقع بعد نزولها بحوالي تسع سنوات، وهو حدث انتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم أمام الجيوش الفارسية قبل نزول السورة بعدة سنوات، وهذا الخبر من صور الإعجاز الإنبائي للقرآن الكريم. ويدور المحور الرئيس للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية شأنها في ذلك شأن كل السور المكية.

وقد استهلت سورة الروم بالحروف المقطعة الثلاثة (ألم) التي تكررت في مطلع ست من سور القرآن الكريم، وهي: (البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة).

والفواتح الهجائية جاءت في مطلع تسع وعشرين سورة قرآنية، وهي من أسرار هذا الكتاب العزيز، وقد قيل فيها إنها رموز إلى كلمات أو معان أو أعداد معينة وردت في السورة التي استهلت بها، أو إنها من صور القسم الذي أقسم به الله - تعالى - وهو الغني عن القسم أو هي من أسمائه الحسنى، أو من الإشارات إلى عدد من صفاته العلا، أو هي أسماء للسور التي جاءت في مطالعها، أو هي من وسائل تحدي العرب بالقرآن الكريم وقد نزل بلغتهم أن يأتوا

بقرآن مثله، أو بعشر سور من مثله، أو حتى بسورة واحدة من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يستطيع عاقل أن يتقدم ليقول إنه استطاع ذلك، أو إنها مجرد وسائط لقرع الأسماع والقلوب كي تتنبه لتلقّي كلام رب العالمين، أو هي من الشهادات على صدق نبوة الرسول الكريم وذلك لنطقه بأسماء الحروف، وهو ﷺ الأمي، والأمي ينطق بأصوات الحروف ولا يعرف أسماءها، أو هي كل ذلك وغيره مما لا يعلمه إلا الله - تعالى -.

وقد تحدثت السورة الكريمة عن هزيمة الروم في أدنى الأرض وهي منطقة «حوض وادي عربة/ البحر الميت/ وادي الأردن/ بحيرة طبرية»، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن هذه المنطقة هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً عن مستوى سطح البحر، وهي في الوقت نفسه أقرب البلاد إلى أرض شبه الجزيرة العربية، وأخبرت السورة الكريمة بأنهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، وأكدت أن الأمر لله - تعالى - من قبل ومن بعد، كما أكدت فرح المسلمين بذلك باعتبار الروم من بقايا أهل الكتاب، والفرس كانوا من الوثنيين. وكانت هذه الآيات أيضاً بشرى بانتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى التي تزامنت مع انتصار الروم.

وللتأكيد على حقيقة أن النصر من الله - تعالى - يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: 4-7].

وللتنديد بعدم اعتبار الناس بإبداع الخلق في أنفسهم، وفي السمٰوات والأرض وما بينهما من حولهم، ولشجب إنكار المنكرين للآخرة، وعدم اتعاظهم بمصائر الذين كانوا من قبلهم من الأمم، والذين لم يؤمنوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات، فكذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. جاء الخطاب في هذه السورة المباركة لكفار ومشركي قريش وللكفار والمشركين اليوم وإلى يوم الدين، مؤكداً على حتمية البعث وعلى مصائر كل من المؤمنين والكفار والمشركين في يوم القيامة ولذلك تشير الآيات في سورة الروم إلى تكرار الخلق أمام أعين الناس دون الاعتبار فتقول:

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: 11–16].

وتأمر الآيات بتسبيح الله - تعالى - وحمده في المساء والصباح، وفي العشاء والظهيرة وفي كل وقت، كما يسبحه أهل السمٰوات والأرض من الخلق غير المكلف في كل وقت وفي كل حين دون أدنى فتور.

وتستشهد الآيات في سورة «الروم» على حتمية وكيفية البعث بإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، وبإحياء الأرض بعد موتها، وبخلق الناس من تراب الأرض، وجعل كل واحد من الزوجين للآخر سكناً قائماً على المودة والرحمة، وجعل ذلك من الآيات المستحقة للتفكر والاعتبار.

كما جعل في خلق السمٰوات والأرض، وانتظام حركاتهما وقيامهما بأمر الله، وفي اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وفي منامهم بالليل وابتغائهم من فضل الله بالنهار، وفي حدوث كل من الرعد والبرق، وإنزال الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها، ثم في حتمية البعث بعد الموت، وفي خضوع كل المخلوقات لجلال الله، وعبوديتهم له، وفي قدرته على بدء الخلق وإعادته جعل في ذلك كله آيات للعالمين الذين يسمعون ويعقلون.

وتضرب الآيات مثلاً على استنكار النفس الإنسانية للشرك بين الناس، وعلى ذلك فإنها يجب أن تكون له أشد استنكاراً في حق الله - تعالى - وتقول:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: 29].

وتأمر الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ومن بعده كل مؤمن به - بأن يقيم وجهه

للإسلام الحنيف الذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه، لأنه دين الفطرة التي فطر الناس عليها، والتي لا تبديل لها، وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ذلك. وتأمر المسلمين بالإنابة إلى الله - تعالى - وتقواه، كما تأمرهم بإقامة الصلاة، وبالحذر من الوقوع في دنس الشرك بالله ولذلك تقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [الروم: 30-32].

وأشارت سورة «الروم» إلى شيء من طبائع النفس البشرية فتقول:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم: 33-36].

وتؤكد السورة الكريمة أن الله - تعالى - هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وتأمر بإيتاء ذي القربى حقه والمسكين وابن السبيل، وتحرم الربا، وتحض على أداء الزكاة، وتؤكد أن الله - تعالى - هو الخلاق، الرزاق، المحيي، المميت، وأن الذين أشرك المشركون بهم لا يستطيعون عمل شيء من ذلك فتعالى الله عما يشركون.

وتشير الآيات إلى ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وأن الله - تعالى - سوف يعاقبهم على ذلك ليذيقهم بعض الذين عملوا لعلهم يرجعون، وتأمر بالسير في الأرض للاعتبار بما حدث للأمم المشركة السابقة فتقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42].

وتؤكد السورة الكريمة مرة ثانية لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ولجميع من آمن به إلى يوم الدين - ضرورة الاستقامة على الإسلام العظيم من قبل أن تأتي الآخرة فتصدع به كل الخلائق ثم يجزي كل بعمله فتقول:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم: 43–45].

وتذكر سورة «الروم» أن تصريف الرياح من دلالات طلاقة القدرة الإلٰهية المستوجبة لشكر الناس، وتعاود التذكير بعقاب المكذبين من مجرمي الأمم السابقة الذين كذبوا رسل الله فانتقم الله – تعالى – منهم، وانتصر للمؤمنين، مؤكدة أن ذلك كان حقاً على الله سبحانه وتعالى في كل زمان ومكان.

وتفصل السورة الكريمة في وصف «السحاب الطباقي» وإنزال المطر منه فيستبشر بذلك العباد بعد أن كانوا من اليائسين وتستشهد على إمكانية إحياء الموتى بإحياء الأرض بعد موتها بمجرد إنزال الماء عليها، وتقارن بين الرياح المبشرة بالخير والمطر وبين ريح العقاب المصفرة. وتشبه الآيات في سورة الروم إعراض الكفار والمشركين عن الاستماع إلى رسالة الله الخاتمة بعجز الموتى والصم عن الاستماع إلى الدعاء، وبعجز العمي الغارقين في الضلال عن رؤية الحق. وفي ذلك تقول مخاطبة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 52–53].

وتذكّر الآيات الناس بأن الله – تعالى – قد خلقهم من ضعف، ثم جعل لهم من بعد الضعف قوة ثم جعل من بعد القوة ضعفاً وشيبة، حتى لا يغتر أحد بشبابه، وتؤكد أن الله سبحانه وتعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

وفي تقرير مرحلية الدنيا وفتنة الناس بها، وغفلتهم عن الآخرة، ونسيانهم لحتمية وقوعها، ثم مفاجأتهم بها في يوم القيامة تقول الآيات في سورة الروم:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: 55–57].

وتنتهي السورة الكريمة بخطاب موجَّه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ومن بعده إلى كل المؤمنين برسالته - يؤكد كفر الكافرين وضرورة الصبر على استخفافهم بدعوته الشريفة، والاطمئنان إلى أن وعد الله حق، وهو واقع لا محالة وفي ذلك تقول:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: 58–60].

وكثر الاستشهاد في ثنايا هذه السورة المباركة بالعديد من الآيات الكونية على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، وعلى حتمية الإفناء والبعث.

من ركائز العقيدة في سورة «الروم»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، وبأنه - تعالى - صاحب الأمر من قبل ومن بعد في كل شيء وبأنه على كل شيء قدير، وبأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وبأن النصر منه وحده، ينصر من يشاء وهو القوي العزيز، وأنه هو العليم القدير، وأن له من في السمٰوات والأرض كل له قانتون، وبأن وعده الحق الذي لا يخلف، وبأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

2 - التسليم بأن الغالبية العظمى من الناس ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: 7].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: 8].

3 - التصديق بجميع أنبياء الله ورسله، وبخاتمهم أجمعين دون أدنى تمييز أو تفريق - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

4 - اليقين بأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده، وأن جميع الخلائق راجعون إلى الله

- تعالى - في يوم محدد لا يعلمه إلا هو، واليقين بحقيقة الآخرة وما فيها من بعث ونشور، وحساب، وجنة ونار، وبأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سوف يخلدون في جنات النعيم يحبرون، وأن الذين كفروا أو أشركوا بالله - تعالى - أو كذبوا بآياته أو بالآخرة أو بخاتم أنبيائه ورسله، سوف يخلدون في النار إلى أبد الآبدين، وهم في العذاب محضرون.

5 - الإيمان بضرورة تنزيه الله - تعالى - عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الادعاء الباطل عليه بالشريك، أو الشبيه، أو المنازع، أو الصاحبة أو الولد، وكلها من صفات المخلوقين، والله - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه.

6 - التسليم بأن عمليتي الخلق والبعث مناظرة تماماً لإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ولإحياء الأرض بعد موتها بمجرد نزول الماء عليها في دنيا الناس، والتسليم كذلك بأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء، وأنه هو العليم القدير.

7 - التصديق بأن الذين يتبعون أهواءهم بغير علم يضلهم الله، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأن الله - تعالى - يطبع على قلوب الذين لا يعلمون، وأن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً قد انحرفوا عن دين الله ومنهجه.

8 - اليقين بأن الإسلام هو دين الله الذي أنزله على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله وحفظه في رسالته الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأن هذا الدين هو الفطرة التي فطر الله الخلائق عليها، وأنه لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

9 - الإيمان بأن لكل من ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقاً منحهم إياها الله - تعالى - لا يجوز التقصير في أدائها، وبأن (الربا) الذي يربو في أموال الناس لا يربو عند الله، وأن صدقات التطوع التي تدفع في سبيل الله طلباً لمرضاته هي التي تستحق مضاعفة الحسنات من الله - تعالى -.

10 - التسليم بأن الله سبحانه وتعالى هو خالقنا، ورازقنا، ومميتنا ومحيينا، ولا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا الله، ومن هنا كانت جريمة الشرك بالله مساوية للكفر، والله - تعالى - لا يحب الكافرين.

من ركائز العبادة في سورة «الروم»:

1 - الأمر بتسبيح الله وتمجيده وحمده عقب كل صلاة، في المساء والصباح، وعشياً، وعند الظهيرة.

2 - التوجيه بالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى -، والرجوع إليه، وإخلاص العمل له، وتقواه.

3 - الأمر بالمحافظة على الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإقامة الوجه للدين حنيفاً، وإيتاء ذي القربى حقه، والمسكين، وابن السبيل.

4 - تحريم الربا بكل أشكاله وصوره وهيئاته تحريماً قاطعاً.

5 - الأمر بعمل الصالحات، والتحذير من الإجرام والإفساد في الأرض.

من الإشارات الكونية في سورة «الروم»:

1 - وصف أرض المعركة التي هزمت فيها جيوش الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) أمام جيوش الفرس بوصف (**أدنى الأرض**) بمعنى أخفض الأرض أو أقربها أو بالمعنيين معاً، والمعركة الفاصلة في هذا الصراع دارت رحاها في أغوار وادي عربة/ البحر الميت/ وادي الأردن/ بحيرة طبرية، والدراسات الحديثة أثبتت أنها أخفض بقاع اليابسة على الإطلاق، وهي في نفس الوقت أقربها إلى شبه الجزيرة العربية.

2 - الإخبار المستقبلي بغلبة الروم على الفرس بعد بضع سنين من هذه الهزيمة المنكرة، التي وقعت في حدود سنة 615م، والبضع في اللغة العربية هو بين الثلاث والتسع، وقد غلب الروم الفرس في حدود سنة 624م أي بعد تسع سنوات بالضبط.

3 - الإشارة إلى أن خلق السمٰوات والأرض قد تم بالحق وأجل مسمى، والعلوم المكتسبة تشير إلى حقيقة ذلك.

4 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وعلى أن الخلق جميعاً راجعون إلى الله.

5 - إثبات أن الله ﷻ هو الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها، وأن هكذا سيكون بعث الخلائق من قبورهم في يوم القيامة.

6 - التأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - خلق الناس من تراب الأرض ثم إذا هم بشر ينتشرون، وهذه الحقيقة من أعظم الدلائل على طلاقة قدرته.

7 - الإشارة إلى خلق الإنسان (كخلق غيره من سائر المخلوقات) في زوجية تامة من نوعه، وجعل هذه الزوجية سكناً قائماً على المودة والرحمة بين الزوجين.

8 - وصف اختلاف ألسنة وألوان الناس مع رجوعهم جميعاً في الأصل إلى أب واحد وأم واحدة بأنه آية من آيات الله، ومن الدلالات الواضحة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق.

9 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - قد جعل الليل سكناً، والنهار معاشاً وعلى الرغم من ذلك فإنه أعطى الإنسان القدرة على النوم بالنهار لضرورة، كما جعل من الخلائق ما ينام دوماً بالليل، وما ينام دوماً بالنهار، وهي آية من آيات الله - تعالى -.

10 - الربط بين ظواهر البرق وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد موتها، وهو ما وصلت إليه العلوم المكتسبة بعد مجاهدات استغرقت مئات العلماء وعشرات القرون من الزمن.

11 - التأكيد على قيام كل من السماء والأرض بأمر الله، وعلى إخراج الخلائق من الأرض في يوم البعث بدعوته، وأن ذلك مما يشهد لله - تعالى - (الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) بطلاقة القدرة على كل من الخلق والبعث.

12 - التأكيد على أن لله من في السمٰوات والأرض كل له قانتون، وأنه لا تبديل لخلق الله.

13 - إثبات فساد النظام الاقتصادي الربوي فساداً كاملاً.

14 - الربط بين الفساد المادي والمعنوي في سلوكيات الناس وبين انعكاسات ذلك على الفساد البيئي في البر والبحر، وأن ذلك ليذيقهم الله - تعالى - بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

15 - الإشارة إلى إرسال الرياح مبشرات برحمة من الله وفضله، وعلاقة ذلك بجريان الفلك بأمر الله.

16 - وصف السحاب الطباقي، وطرائق تكونه، وكيفيات إنزال المطر منه، وذلك بدقة علمية بالغة.

17 - المقابلة الدقيقة بين إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها، وإحياء الموتى في يوم البعث (كل من عجب ذنبه بعد إنزال ماء خاص من السماء كما أخبر المصطفى ﷺ في أحاديثه الصحيحة).

18 - ذكر المراحل المتعاقبة في حياة الإنسان من ضعف في مراحل الطفولة، إلى شباب وقوة في مراحل الفتوة، ثم إلى ضعف وشيبة في مراحل الشيخوخة حتى يعتبر الناس ولا يفتنوا في مراحل الشباب بقوتهم البدنية.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة السادسة في القائمة السابقة والتي جاء ذكرها في الآية العشرين من سورة «الروم»، وقبل البدء في ذلك أرى لازماً علي الرجوع إلى أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: «يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تطور فكان علقة ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير...».

● وجاء في الظلال - رحم الله صاحبها برحمته الواسعة - ما مختصره: «والتراب ميت ساكن، ومنه نشأ الإنسان... ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين. للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك، وذلك بعد قوله: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: 27] تنسيقاً للعرض على طريقة القرآن، وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة، وإيحاء كذلك بالصلة

الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التي يعيشون عليها، والتي يلتقون بها في أصل تكوينهم، وفي النواميس التي تحكمها وتحكمهم في نطاق الوجود الكبير. والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك جليل القدر... نقلة تثير التأمل في صنع الله، وتستجيش الضمير للحمد والتسبيح لله، وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم».

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: تشابه التركيب الكيميائي لجسم الإنسان وتراب الأرض:

أثبت التحليل الكيميائي لجسم الإنسان أنه يتكون أساساً من الماء (54% إلى أكثر من70%) بالإضافة إلى نسبة من الدهون (من14% إلى26%)، والبروتينات (من11% إلى17%)، والكربوهيدرات (في حدود1%) وعدد من العناصر والمركبات غير العضوية (تتراوح نسبتها بين5% و6%). وبرد كل ذلك إلى عناصره الأولية يتضح أن جسم الإنسان يتكون من العناصر التالية:

الأوكسجين 65%	الكربون 18%
الهيدروجين 10%	النيتروجين 3%
الكالسيوم 1,4%	الفوسفور 0,7%
الكبريت 0,2%	البوتاسيوم 0,18%
الصوديوم 0,10%	الكلور 0,10%
المغنيسيوم 0,045%	عناصر نادرة 0,014%

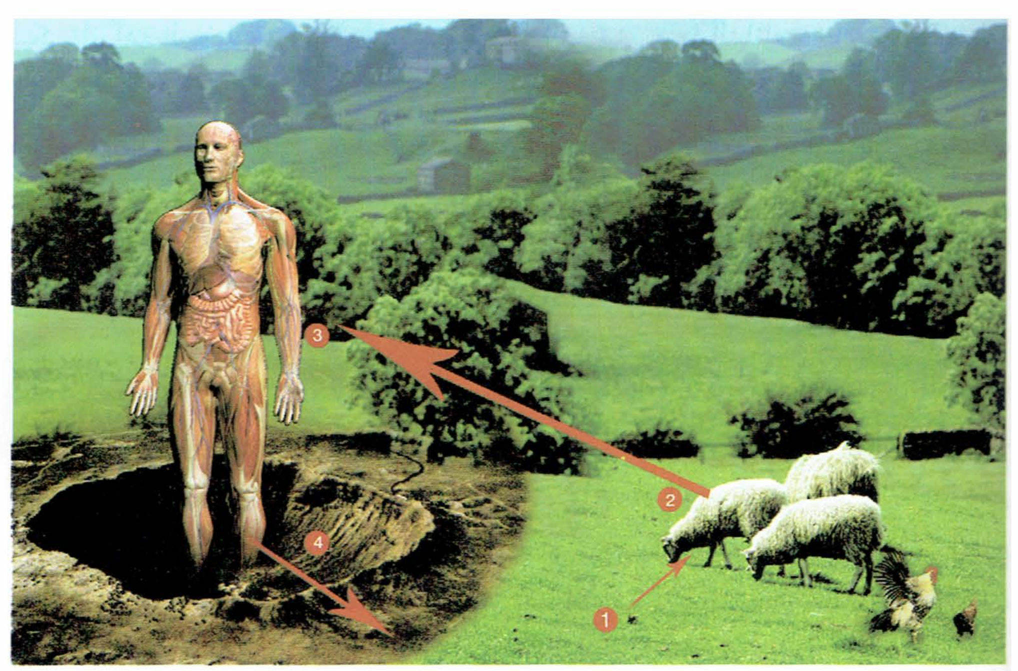
وتشمل العناصر النادرة كلاً من:

اليود	الكروم	المنجنيز
الفلور	الكوبالت	الزنك
البروم	النيكل	السيليكون
الحديد	الموليبدينوم	الفاناديوم
النحاس	القصدير	والألومنيوم

وهذا التركيب يشبه في مجموعه التركيب الكيميائي لتراب الأرض المختلط بالماء (أي الطين)، وإن تكوّن تراب الأرض أصلاً في غالبيته من المعادن الصلصالية التي تتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم المميأة، وتشمل عدداً من المعادن التي تزيد على العشرة، والتي تختلف عن بعضها البعض باختلاف نسب التميؤ، ونسب كل من السيليكون والألومنيوم، ونسب بعض الشوارد من مثل المغنيسيوم، البوتاسيوم، وغيرها.

كذلك يختلط مع المعادن الصلصالية نسب متفاوتة من حبات الرمل (ثاني أكسيد السيليكون أو المرو) ومعادن الفلسبار، والميكا، وأكاسيد الحديد، وبعض دقائق المعادن الثقيلة، بالإضافة إلى شيء من الرماد البركاني، ودقائق الأملاح المندفعة من مياه البحار، والجير (الكلس)، ودقائق الكربون والرماد الناتجة عن مختلف عمليات الاحتراق، وحبوب اللقاح والبكتيريا، وغيرهما من البقايا الدقيقة للأحياء، وبعض آثار الغبار الكوني، وغبار الشهب، وغيرها.

وتراب الأرض من الرواسب الفتاتية الناعمة جداً حيث تقل أطوال أقطار حبيباتها عن (1/ 256 من الميليمتر) وإن اختلطت بها بعض حبيبات الغرين (1/ 16 من الميليمتر إلى 1/ 256 من الميليمتر)، وبعض حبيبات الرمل (1/ 4 من الميليمتر إلى 1/ 16 من الميليمتر). ونظراً للمسامية العالية للتراب، وللطبيعة الصفائحية لمعادنه فإن أسطح الصفائح الترابية والمسام الفاصلة بينها تمتلىء بأيونات العناصر المختلفة وبالبقايا الدقيقة للأحياء، بالإضافة إلى الماء والهواء، فتجعل من هذا الخليط في تركيبه الكيميائي ما يشبه التركيب الكيميائي لجسم الإنسان. فإذا قال ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]. انطبق ذلك على خلق أبينا آدم عليه السلام من تراب الأرض، كما ينطبق على خلق نسله من بعده وذلك لأن جميع بني آدم من عهده إلى اليوم وحتى قيام الساعة كانوا في صلبه لحظة خلقه، وينطبق الخلق من تراب أيضاً على كل واحد من بني آدم بشخصه وذلك لنموه وهو في بطن أمه على دمها المستمد من الغذاء الذي تأكله وهو مستمد أصلاً من تراب الأرض، ثم لنموه من بعد ميلاده على لبن أمه المستمد من غذائها وهو مستمد كذلك من تراب الأرض، ثم لنموه من بعد فطامه إلى وفاته على ما يتناول من طعام، وهو مستمد أصلاً من تراب الأرض، فإذا قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: 20].



صورة توضح دور التربة في بناء الكائنات الحية ثم عودة أجساد تلك الكائنات إلى تراب الأرض في دورة شديدة الإحكام.

انطبق ذلك على جميع الخلق من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى آخر واحد من نسله عند قيام الساعة.

ثانياً: كيف يكون نمو جسم الإنسان مستمداً من تراب الأرض؟!

يقتات الإنسان على كل من النبات والمباح من منتجات وذبائح الحيوان، والنبات أعطاه الله - تعالى - القدرة على امتصاص ماء الأرض وما يحمله من عناصر ومركبات، وتحليله بواسطة الطاقة المستمدة من أشعة الشمس إلى عناصره الأولية وأهمها الأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، والإيدروجين وغيره من عناصر ماء الأرض (العصارة الغذائية للنبات) التي يحتفظ بها. كذلك يمتص النبات من الجو ثاني أكسيد الكربون ويحلله إلى الكربون الذي يحتفظ به، والأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، ثم يقوم النبات بربط ما احتفظ به من كل من الإيدروجين والكربون وعناصر الأرض الأخرى (التي أعطى الله - تعالى - لكل نوع من أنواع النبات القدرة على اختيارها بخصوصية

وكفاءة عالية) بعدد من الروابط الكيميائية على هيئة سلاسل من الكربوهيدرات (من أمثال السكر بأنواعه المختلفة، والنشا، والسيليولوز) التي تبني منها النباتات خلاياها المختلفة (المكونة لجذورها، وجذوعها، وفروعها، وأوراقها، وزهورها، وثمارها، أو غلالها ومحاصيلها الأخرى) التي يحيا عليها كل من الحيوان والإنسان وبذلك تنبني مختلف خلاياهما من تراب الأرض. كذلك يتغذى كل من الإنسان والحيوان على بعض الحيوانات ومنتجاتها، وأجسادها مبنية أصلاً من تراب الأرض، ويتحول ذلك إلى خلايا أجساد كل من الحيوان والإنسان الحي وتعود مادتها أصلاً إلى تراب الأرض.

من هنا كانت حكمة الخالق العظيم في خلق النبات قبل خلق كل من الحيوان والإنسان، وكانت حكمته البالغة بجعل الإنسان آخر المخلوقات وجوداً، وذلك لاعتماد الإنسان في غذائه على كل من النبات والحيوان، واعتماد الحيوان في غذائه أساساً على النبات، وإن كانت الضواري من الحيوان يأكل بعضها بعضاً، ولا يأكل إلا لحوم الحيوان. ثم بوفاته وتحلل جسده يعود إلى تراب الأرض، فسلسلة الطعام تبدأ من تراب الأرض وتنتهي إليه ولذلك قال ربنا سبحانه وتعالى:

- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]
- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55]
- ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]
- ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17-18]
- ولذلك أيضاً أخرج الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»[1].

ثالثاً: إن خلايا التكاثر في الإنسان مستمدة من غذائه، وغذاؤه مستمد من تراب الأرض:

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.



اختلاف ألوان البشر وأشكالهم باختلاف كل من الشيفرة الوراثية والبيئة.

جعل الله سبحانه وتعالى تكاثر الإنسان عن طريق التزاوج بين ذكر وأنثى حيث تتلاقح نطفة الأب مع نطفة الأم حتى يتم إخصابها، وكلاهما أصلاً من خلايا الجسد التي تنقسم بطريقة خاصة وتنمو عن طريق التغذية المستمدة أصلاً من تراب الأرض.

وتكوُّن هذه النطاف، وتسلسلها من الأصل الواحد (آدم عليه السلام) وحتى قيام الساعة هو من أعظم الدلائل على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق. والتقاء نطفة الرجل مع نطفة المرأة في نطفة مختلطة يسميها القرآن الكريم باسم **النطفة الأمشاج**، يخلق منها الجنين فتعطي هذا التنوع البديع في الخلق من أصل واحد خلق من تراب الأرض هو من الآيات الناطقة بالشهادة للخالق سبحانه وتعالى بكمال العلم والحكمة، وطلاقة القدرة، وتعاظم إتقان الصنعة، وهي من صفات الألوهية، والربوبية ومن دلائل الوحدانية المطلقة للإلٰه الخالق فوق جميع خلقه الذين خلقهم في زوجية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان). وباستمرار التناسل من الأصل الواحد للإنسان الذي خلقه الله - تعالى - ابتداء من التراب، وباستمرار تغذية ذلك الإنسان، ونموه وتكوّن جميع خلايا جسده ومنها خلايا التكاثر من تراب الأرض انتشر الجنس البشري على وجه الأرض في كل من المكان والزمان حتى وصل عدد سكان الأرض اليوم إلى أكثر من ستة مليارات نسمة، هذا عدا المليارات التي عاشت وماتت، والمليارات التي سوف تأتي من بعدنا إلى قيام

الساعة، وكلها جاءت من صلب رجل واحد هو آدم عليه السلام الذي خلقه الله - تعالى - من تراب، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20].

والآية الكريمة كما تنطبق على البشرية كلها وهي في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، تنطبق على تناسل الناس من بعده إلى اليوم، وما يخرج من أصلابهم من ذريات إلى يوم الدين، وهي حقائق لم تصل إلى علم الإنسان إلا بعد تطور علم الوراثة الإنسانية في القرن العشرين، وورودها في كتاب أنزل على نبي أمي، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين من قبل أربعة عشر قرناً لمما يقطع بأن هذا الكتاب لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ المطلق حتى يكون القرآن الكريم حجة على الناس جميعاً إلى يوم الدين.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي بعثه الله - تعالى - رحمة للعالمين، وصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

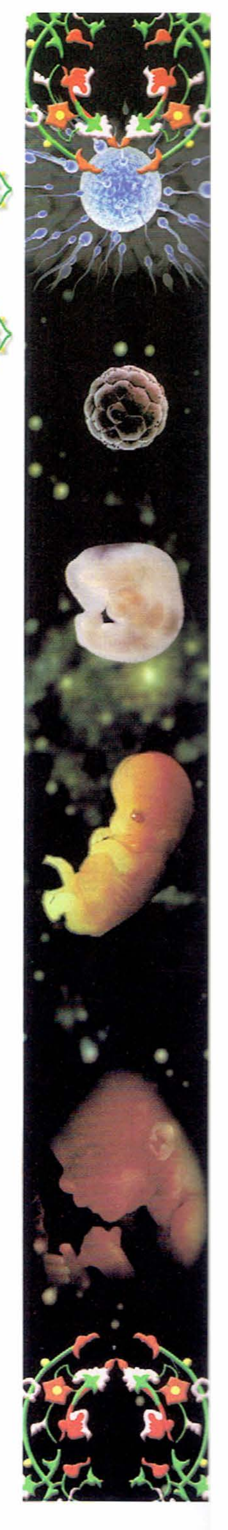


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



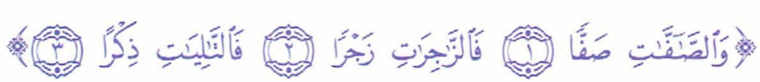
16 - ﴿... إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾

[الصافات: 11]



هذا النص القرآني المعجز جاء في أوائل سورة «الصافات»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (182) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بقسم بالملائكة الأطهار الذين لا ينفكون بفطرتهم عن عبادة الله - تعالى -، ويصطفون في طاعته بأفضل مما يصطف كثير من عباد الله المكلفين في الصلاة. وقد يكون القسم هنا بطوائف لا نعلمها من خلق الله غير الملائكة. ويدور المحور الرئيس للسورة حول **العقيدة الإسلامية**، وفي سبيل الدعوة إليها استشهدت بعدد من أشياء الكون وظواهره في الاستدلال على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق، والشاهدة لله - تعالى - بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم بقدرته على البعث.

وتستهل سورة الصافات بقسم من الله - تعالى - بملائكته الكرام، وبعدد من الوظائف التي أمروا بها، والله ﷻ غني عن القسم لعباده، ولكن له أن يقسم بما يشاء تأكيداً لأهمية المقسم به وتنويهاً بعظم شأنه، فأقسم - تعالى - بالملائكة، أو بطوائف من خلقه غير الملائكة لها صفة الصف بانتظام، والزجر بقوة، والتلاوة ذكراً لله - تعالى - وتسبيحاً بحمده وتمجيداً لجلاله فقال - عز من قائل -:



﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾

[الصافات: 1-3].

ثم يأتي جواب القسم بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ [الصافات: 4-5].

وفي هاتين الآيتين الكريمتين تأكيد لوحدانية الخالق ﷻ، وتنزيه لجلاله عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وتعظيم لذاته لأنه رب هذا الكون ومليكه، وخالقه ومبدعه وحافظه وصاحب الأمر والنهي فيه. والآيتان قرار إلٰهي حاسم يقضي على كل جذور الكفر والشرك والضلال ينتزعها انتزاعاً من العقول والقلوب التي عششت فيها الانحرافات العقدية والفكرية، وما أكثرها في تاريخ البشرية، وما أظهرها في زمن الفتن التي تظلل الأرض وأهلها في هذه الأيام..!!

وتتطرَّق سورة الصافات إلى محاولات مردة الجن وشياطينهم لاستراق السمع على أهل السماء، مؤكِّدة أن الله - تعالى - قد سخَّر الشهب الثاقبة لتتبُّعهم ودحرهم، وقد توعدهم بعذاب شديد في الدنيا قبل الآخرة.

ثم يتوجه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالأمر الإلٰهي أن يسأل منكري البعث، المستبعدين لإمكانية وقوعه أن ينظروا إلى خلق السمٰوات والأرض، وإلى زينة السماء الدنيا بالأجرام المختلفة ومنها النجوم والكواكب، وأن يقارنوا بين خلقها بأبعادها الشاسعة المذهلة، وأعمارها المتطاولة، فيدركوا أن خلقها أكبر من خلقهم، وقد خلقهم الله - تعالى - من طين لازب، وحدَّهم بحدود أماكنهم وأعمارهم، وهي لا تقارن أبداً بتعاظم أبعاد الجزء المدرك من الكون، ولا بتقادم عمره. وتشهد أبعاد الكون وصفاته بأن الذي أبدعه بهذه الصفات قادر على بعث من خلقهم من طين لازب، وعلى بعث آبائهم الأولين وهم أذلاء صاغرون.

وفجأة تنتقل سورة «الصافات» لاستعراض موقف من مواقف الآخرة، وقد أطلقت نفخة البعث فإذا بجميع من كانوا ينكرونه في الدنيا، ويسخرون من إمكانية وقوعه، إذا بهم يخرجون من قبورهم فزعين مشدوهين مذعورين وهم يصيحون:

﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: 20].

فيجابون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: 21-24].

وتستطرد الآيات في استكمال عرض هذا المشهد الرهيب، والكفار والمشركون، والعصاة والظالمون عاجزون كل العجز، وكل من المشركين الذين اتَّبعوا غير طريق الله، وأنكروا بعثة الرسول الخاتم ﷺ، والذين اتُّبعوا من شركائهم يتلاومون بلا فائدة، ويتبادلون الاتهامات بالتضليل والغواية دون جدوى، ويأتيهم الحكم الإلٰهي القاطع فيخرسهم أجمعين، وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الصافات: 33-39].

وفي قول الحق - تبارك وتعالى - عن خاتم أنبيائه ورسله:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: 37].

تأييد من الله - تعالى - لسيدنا محمد ﷺ، وتأكيد على حقيقة نبوته، وشهادة بصدق رسالته، وبرهان على وحدة رسالة الدين، وعلى الأخوة بين الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين -. وهذا النص القرآني الكريم هو في الوقت نفسه رد إلٰهي جازم على الذين كذبوا بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم -، وحكم رباني قاطع بالكفر والضلال على الذين تطاولوا على شخصه الكريم في القديم والحديث بألسنتهم البذيئة، وأقلامهم الرخيصة، كالذين يتسترون اليوم وراء شاشات بعض القنوات المأجورة وخلف شاشات الشبكة العنكبوتية كخفافيش الظلام ينفثون فيها أحقادهم المريضة، وأضغانهم البغيضة، وأفكارهم السقيمة، وجهلهم الفاضح باللغة العربية، وبقواعد الدين ليهاجموا الإسلام العظيم، ونبيه الكريم، وعلماءه ورموزه بأفحش الأساليب وأبعدها عن أدب الحوار، وصاحب الحجة لا يفحش في الخطاب أبداً، وفحشهم دليل فشلهم وشعورهم بالنقص الشديد، وبالعجز الكامل عن الرد على ما يواجهون من اتهامات في صميم عقيدتهم المصطنعة وفي حجية ما بأيديهم من كتب مزورة.

وتقارن الآيات في سورة «الصافات» بين إكرام الله - تعالى - لعباده الموحدين

بتنعيمهم في جنات الخلد، وبالفوز العظيم برضاه ﷻ، وبين ما يلقاه كل من الكفار والمشركين، المكذبين ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من ضياع في الدنيا، وخزي وعذاب في الآخرة، وتصورهم الآيات وهم يصطلون بنار جهنم وجحيمها، ويأكلون من زقومها وينزل عليهم شوب من حميم.

وتستمر الآيات في تأكيد ضلال أكثر الأمم السابقة على الرغم من إرسال عدد من الأنبياء والمرسلين إليهم، وإنذارهم من مغبة الكفر بالله أو الشرك به أو معصيته ﷻ، أو الانحراف عن المنهج الذي وضعه الله - تعالى - لاستقامة الحياة على الأرض.

وللتدليل على ذلك استعرضت السورة المباركة سير عدد من أنبياء الله ورسله وموقف أقوامهم من دعوتهم، وكان من هؤلاء الأنبياء نوح، إبراهيم وولداه إسماعيل وإسحٰق، وكل من موسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس - على نبينا وعليهم من الله السلام -. وفي هذا القصص تتجلى معيَّة الله - تعالى - لكل من أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وتتضح رحمته بهم، ويتأكد تعهده بنصرهم وبدحر أعدائهم من الكفار والمشركين، والطغاة الظالمين، ويتحقق التنكيل بهؤلاء الكافرين الظالمين في الدنيا قبل الآخرة، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات: 71-74].

وتعاود الآيات في سورة «الصافات» توجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ليقوم بالرد على عدد من خرافات أهل الزيغ والضلال وعلى أساطيرهم المبتدعة والتي منها الادعاء الباطل بوجود نسب بين الله - تعالى - والجن، وبناءً على تصديقهم لهذه الفرية تخيلوا الملائكة نتاجاً لها، وادعى المبطلون بأن الملائكة كلهم إناث، وهو ادعاء ساقط، وخيال مريض. وأقبح من ذلك كله الادعاء الباطل والكاذب على الله - تعالى - بنسبة الصاحبة والولد إليه، وواضح أن هذه من صفات المخلوقين، والخالق ﷻ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله ولذلك قال - تعالى - مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ

شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات: 149–159] .

ثم تكرر الآيات وعد الله - تعالى - لأنبيائه ورسله ولجنده المؤمنين بالنصر والتمكين، ووعد الله حق لا يتخلف، ولذلك تطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باعتزال الكفار والمشركين لأنهم يستعجلون نزول عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الصافات: 171–179] .

وتختتم سورة الصافات بقول الحق - وهو أصدق القائلين -:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: 180–182] .

من ركائز العقيدة في سورة «الصافات»:

1 - الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

2 - التصديق بوحدانية الله - تعالى - وتنزيهه عن الشريك، والشبيه، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وتحريم الشرك بالله تحريماً قاطعاً ومساواته بالكفر.

3 - اليقين بأن الله - تعالى - هو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب، ورب كل شيء ومليكه.

4 - التسليم بأن الإنسان قد خلق من طين لازب.

5 - الإيمان بحقيقة البعث، بل حتميته وضرورته.

6 - التصديق ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

7 - اليقين بحقيقتي الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها.

8 - التسليم بأن مجرد اتباع دين الآباء دون تمحيص ليس عذراً كافياً للإنسان في يوم الحساب.

9 - التصديق بما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين.

10 - الإيمان بعالم الغيب وما فيه من ملائكة وجن.

11 - اليقين بنصر الله - تعالى - لكل من أنبيائه ورسله وجنده المؤمنين وأنهم هم الغالبون في كل معركة يدخلونها بإذن الله.

من الإشارات العلمية في سورة «الصافات»:

1 - الإشارة إلى ما بين السمٰوات والأرض على ضخامة السمٰوات والضآلة النسبية للأرض مما يشير إلى مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون وهو ما لا يقوى علم الإنسان على إثباته. ومن العجيب أن رسول الله ﷺ قد أشار إلى هذا الأمر في أكثر من حديث، وأن وجود إشارات في التراث القديم إلى ذلك قد يكون من بقايا الوحي السماوي القديم للأمم السابقة على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

2 - وصف الله الخالق بوصف رب المشارق، والرب هو المالك، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لأنه لا توجد مشارق بلا مغارب، وهي مشارق الشمس ومغاربها على الأرض، مما يشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى مركزية الأرض بالنسبة للكون لأن الله - تعالى - هو رب الكون ومليكه، وإطلاق وصف رب المشارق على الإلٰه الخالق لا يمكن أن يقتصر على مشارق الأرض وحدها بل على مشارق ومغارب الكون كله، فإذا كانت مشارق الأرض تعبر عن مشارق الكون فلا بد من كون الأرض في المركز من الكون.

3 - الإشارة إلى أن زينة السمٰوات الدنيا هي الكواكب، وفي مقام آخر يشير القرآن

الكريم إلى أن زينة السماء الدنيا هي المصابيح أي النجوم [الملك: 5]، والجمع بين النجوم والكواكب والشهب والنيازك (أو رجوم الشياطين) فيه تأكيد على وحدة البناء في الكون، فالنجوم تتخلق من دخان السماء، وتنفجر لتعود إلى دخان السماء، والكواكب تنفصل أصلاً عن النجوم، ونهاية الكواكب الانشطار والانتثار، فينتج عن ذلك الانشطار كل من الكويكبات والشهب والنيازك، وهذه كلها حقائق لم يدركها الإنسان إلا في القرن العشرين.

4 - وصف الشهاب بأنه «ثاقب» يشي بثقبه للغلاف الغازي للأرض وذلك بتحركه فيه بسرعات كونية فائقة، تعاونها الجاذبية الأرضية، قبل احتراقه بالكامل باحتكاكه بجزئيات الهواء.

5 - الإشارة القرآنية الكريمة إلى خلق الإنسان من طين لازب.

6 - الإشارتان القرآنيتان إلى التقام الحوت لنبي الله يونس بن متى - على نبينا وعليه من الله السلام - دون غيره من حيوانات البحر، وإلى حمايته عليه السلام بشجرة من يقطين أنبتها الله - تعالى - عليه، تعتبران من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله كما سبق وأن أوضحنا في كل من الجزأين المعنونين «النبات في القرآن الكريم»، و«الحيوان في القرآن الكريم» من هذه السلسلة.

7 - ذكر عدد كبير من الأنبياء والمرسلين السابقين على بعثة خاتمهم بمئات إلى آلاف السنين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وسرد جوانب من قصصهم، ومن تفاعل أقوامهم معهم، وذلك في أمة لم تكن أمة تدوين.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الخامسة من القائمة السابقة والتي تصف خلق الإنسان من طين لازب كما جاء في الآية الحادية عشرة من سورة «الصافات»، وقبل الدخول إلى شرح دلالتها العلمية أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: «يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيهما أشد خلقاً هم أم السمٰوات والأرض، وما بينهما...؟ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم. وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا... ثم بيّن أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾. قال مجاهد والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض...».

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسمٰوات والأرض وما بينهما... كلها من خلق الله فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق؟ ولا ينتظر منهم جواباً، فالأمر ظاهر، إنما هو سؤال للاستنكار والتعجب من حالهم العجيب، وغفلتهم عما حولهم، والسخرية من تقديرهم للأمور، ومن ثم يعرض عليهم مادة خلقهم الأولى، وهي طين رخو لزج من بعض هذه الأرض، التي هي إحدى تلك الخلائق..».

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

في سبع عشرة آية قرآنية كريمة جاء ذكر خلق الإنسان عبر عدد من المراحل، منها المراحل التالية:

1 - ﴿مِن تُرَابٍ﴾ وجاء ذلك في خمس آيات [(آل عمران: 59)، (الحج: 5)، (الروم: 20)، (فاطر: 11)، (غافر: 67)].

2 - ﴿مِّن طِينٍ﴾ وجاء ذلك في ست آيات: [(الأنعام: 2)، (الأعراف: 12)، (الإسراء: 61)، (السجدة: 7)، (صٓ: 71-76)].

3 - ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ وجاء ذلك في آية واحدة: [(الصافات: 11)].

4 - ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وجاء ذلك في آية واحدة: [(المؤمنون: 12)].

5 - ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وجاء ذلك في ثلاث آيات: [(الحجر: 26، 28، 33)].

6 - ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ وجاء ذلك في آية واحدة: [(الرحمٰن: 14)].

وهذه المراحل يمكن استعراض جزء منها فيما يلي:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].



ومن الناس مختلف ألوانه

ذكر الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر، والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»[1].

وهذا الحديث الشريف جاء مطابقاً لقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 27-28].

وهذه الألوان الثلاثة تمثل الأقسام الرئيسية للصخور الأولية الحامضية وفوق

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

الحامضية (بيض وحمر)، والمتوسطة (مختلف ألوانها)، والقاعدية وفوق القاعدية (وغرابيب سود) والمجموعة الأخيرة تشمل الصخور الخضراء إلى السوداء لأن العرب تسمي الأسمر أخضراً وتربة الأرض تتكون بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها، كما تتكون نتيجة تفكك الصخور تفككاً فيزيائياً بواسطة عوامل التعرية المختلفة التي تؤدي في النهاية إلى تكون غطاء رقيق لصخور الغلاف الصخري للأرض من فتات وبسيس الصخور على هيئة حطام مفروط يعرف باسم «**عادم الصخور**» أو «**تربة الأرض**»، أو «**تراب الأرض**»، سواء كان ذلك ناتجاً من تحلل الصخور التي يعلوها مباشرة، أو كان منقولاً إليها بواسطة عوامل النقل المختلفة، وهو عادة ما يأخذ ألوان الصخور التي تحلل عنها.

وتربة الأرض تمثل الحلقة الوسطى بين غلافها الصخري وكل من أغلفتها المائية والهوائية والحيوية، وذلك لأنها تتكون أساساً من خليط من المعادن التي تفككت من صخور الأرض بفعل عوامل التعرية المختلفة، ومن المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل بين تلك النطق الثلاثة من نطق الأرض ونطاقها الحيوي، أي كلاً من الكائنات التي تعمر قطاع التربة وفضلاتها وبقاياها، بالإضافة إلى الفضلات الناتجة عن بلايين البلايين من الكائنات الحية التي تعمر اليابسة.

ومن المكونات العضوية للتربة البكتيريا بمختلف أنواعها، والطحالب، والفطريات، وبقايا مختلف النباتات الأرضية، التي تمثل التربة مصدر كل من الغذاء والماء اللازم لحياتها بما تمثله من وسط تتراكم فيه بقايا العديد من العمليات الأرضية والسلاسل الغذائية التي تتحلل بواسطة الكائنات الدقيقة التي تزخر بها التربة والتي تجهز بنشاطاتها كل العناصر اللازمة لنمو النباتات الأرضية.

وتتكون التربة الأرضية أساساً من المعادن الصلصالية (وهي أكثر من عشرة معادن)، ومن حبيبات المرو (الرمل)، وأكاسيد الحديد، وكربونات كل من الكالسيوم والمغنيسيوم، بالإضافة إلى آثار طفيفة من عناصر الأرض الأخرى.

وبالإضافة إلى التركيب الكيميائي والمعدني لتربة الأرض فإن كلاً من حجم حبيباتها ونسيجها الداخلي له دور مهم في تصنيفها إلى أنواع عديدة. وتقسم التربة حسب حجم حبيباتها إلى **التربة الصلصالية**، **والطميية (الغرينية)**، **والرملية**، **والحصوية**، وأكثر أنواع

التربة انتشاراً هو خليط من تلك الأحجام، بالإضافة إلى العديد من المواد الدبالية التي تتراوح نسبتها بين 30% وأكثر من 50%. وتمثل **البكتيريا** أكثر من 90% من مجموع الكائنات الحية في التربة وتنقسم إلى **بكتيريا ذاتية التغذية**، **وغير ذاتية التغذية**، ومن الصنف الأول **بكتيريا العقد الجذرية** والتي أعطاها الله - تعالى - القدرة على تثبيت غاز النيتروجين وتحويله إلى مركبات نيتروجينية مهمة في التربة ولذا تعرف باسم **بكتيريا النيتروجين**، وهناك من أنواع البكتيريا ما يقوم بتثبيت عناصر أخرى في تربة الأرض وذلك من مثل **بكتيريا الهيدروجين**، **وبكتيريا الكبريت**، **وبكتيريا الحديد**، وغيرها، وهي تلعب أدواراً مهمة في تزويد التربة بالمركبات الكيميائية المناسبة.

أما البكتيريا **غير ذاتية التغذية** فإنها تقوم بتكسير المواد العضوية المعقدة من مثل المواد السيليولوزية وغيرها من المواد الكربوهيدراتية. ومن مثل الزيوت والدهون وغيرهما من المواد البروتينية، وتحويل ذلك كله إلى مواد عضوية بسيطة.

وقد يضاف إلى تربة الأرض بعض فضلات الكائنات الحية وإخراجاتها وبعض نواتج الثورات البركانية، ورذاذ أملاح البحار، وحبوب اللقاح، وبعض نواتج الاحتراق من الأدخنة والرماد، وبعض الدقائق الكونية من مثل غبار الشهب والجسيمات الكونية، وغيرها.

و(الطين) هو التراب والماء المختلطان، و(الطينة) أخص منه، يقال (طيَّن) السطح (تطييناً) أي: غطاه بالطين، وبعض اللغويين يفضل (طانه) فهو (مطين). و(الطينة) كذلك هي: الخلقة والجبلة.

و(الطين) الرقيق يقال له: (الوحل) ومصدره (موحَل) بفتح الحاء ومكانه (موحِل) بكسر الحاء، وفعله (وَحِلَ) (يُوحِلُ) (وَحْلاً) و(مَوْحِلاً) أي: وقع في (الوحل)، وهي لفظة لم ترد في كتاب الله - تعالى -.

ومع وجود الماء يتأيَّن العديد من ذرات العناصر الموجودة على أسطح رقائق معادن الصلصال المكونة الأساسية لتراب الأرض (أي تحمل كل منها شحنة كهربائية). وكان بعض المتكلمين يعترض على إمكانية خلق الإنسان من طين بدعوى أن الطين يتكون أساساً من سيليكات الألومنيوم وهي مادة لا تذوب في الماء، ومن ثم لا يمكن لها أن تدخل في تركيب جسم الإنسان، ولكن تعقيد التركيب الكيميائي لتراب الأرض، يشير

إلى أنه عند اختلاط الطين بالماء فإن المسافات بين دقائقه تمتلئ بالمواد المذابة، وبأيونات العناصر المختلفة، ومن هنا أشار القرآن الكريم إلى **الخلق من سلالة من طين**، فقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]. هذا فضلاً عن أن قدرة الخالق سبحانه وتعالى لا تحدها حدود.

و(**سلالة**) الشيء ما (استل) منه في خفاء وتستر، وهو ما يسلت من شيء آخر ويفصل عنه، ويقال: (انسلَّ) من بينهم بمعنى خرج في خفاء وتستر، و(تسلَّلَ) مثله، و(سَلَّ) الشيء و(أَسَلَّه) بمعنى نزعه وأخرجه مما كان فيه، و(السليل) الولد، والأنثى (سليلة) لأنهما يستلان من موروثات الوالدين.

ودلالة الآية الكريمة أن الله - تعالى - خلق الإنسان من خلاصة من الطين وليس من الطين كله، ويبدو - والله تعالى أعلى وأعلم - أن المقصود بذلك هو نسل الإنسان الوليد، وليس الإنسان الأول، حيث يستل النبات من طين الأرض عناصر خاصة يحولها إلى ثماره ومحاصيله، التي يأكلها الإنسان، فتتحول في جسده إلى طاقة، وإلى خلايا حية، بها ينمو ويعيش ويتناسل ويتكاثر، أو يأكلها الحيوان ثم يأكل منها الإنسان، (من لبنه أو بيضه أو لحمه) فيتحول ذلك في جسده أيضاً إلى طاقة، وإلى خلايا حية بها ينمو ويعيش ويتكاثر، وعلى ذلك فالإنسان مخلوق من سلالة من طين. وعند انتهاء الأجل يموت الإنسان فيتصلب جسده ويتحول إلى حالة شبيهة بالتمثال الجامد ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، ثم يبدأ الجسد في التحلل فَيَرِمُّ وينتن ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، ثم يبدأ الجسد المتفسخ في فقد جزء من مائه فيتحول إلى الطين، ثم يفقد مزيداً من الماء فيصبح طيناً لازباً، وبفقده كل مائه يتحول الطين إلى تراب الأرض ويضيع فيه إلا عظمة واحدة في حجم حبة الخردل تتركز في نهاية العصعص سماها رسول الله ﷺ: «**عجب الذنب**» ووصفها بأنها لا تبلى أبداً، وقال: إن الإنسان خلق منها، وهي الشيء الوحيد الذي يبقى منه بعد تحلل جسده، فإذا جاءت ساعة البعث أنزل الله سبحانه وتعالى ماء خاصاً من السماء ينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها أو كما قال ﷺ.

من هذا الاستعراض تتضح روعة التعبير القرآني الكريم الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - عن خلق بني آدم: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11].

وطين (لازب) أي: لاصق (أو لازق) بعضه ببعض لاشتداده، و(اللازب): الثابت الشديد الثبوت. يقال: (لَزِبَ) الشيء (يَلزِبُ) (لَزباً) و(لَزْباً) بمعنى دخل بعضه في

بعض، و(لَزِب): لصق وصلب، ويعبر بـ(اللَّازِب) عن الواجب الثابت فيقال: صار الشيء ضربة (لازب) وهو أفصح من قول ضربة لازم، و(اللزبة): السنة الجدبة الشديدة، وجمعها (اللّزبات). **ويقصد بالطين اللازب الطين الذي فقد جزءاً من مائه فأصبح لزقاً.**
ويبدو - والله تعالى أعلم - أن المقصود بالخلق في هذه الآية الكريمة هو خلق الأحياء المخاطبين بالوحي في وقت تنزله، ومن جاء بعدهم ومن سوف يجيئون من بعدهم إلى يوم الدين. وقد ينسحب ذلك على خلق أبينا آدم عليه السلام ولخلقه قصة لها تفاصيلها في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

ويدعم هذه الرؤية أن الخطاب في الآية الكريمة موجَّه إلى رسول الله ﷺ ليقول لكفار قريش: هل أنتم أشد خلقاً من السمٰوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، ومن مختلف صور المادة والطاقة وقد خلقكم الله من أمر حقير ألا وهو الطين اللازب؟

ويدعم هذه الرؤية أيضاً التقارب الشديد بين التركيب الكيميائي لكل من جسم الإنسان



تحلّل جسد الإنسان بالتدريج حتى لا يبقى منه إلا «عجب الذنب».

والطين اللازب أي المتماسك رغم مرونته لشدة لصوق جزيئاته ببعض، كما يؤكد ذلك تحول جسد الإنسان بعد الوفاة ليمر بعكس مراحل الخلق كما وصفها القرآن الكريم حتى ينتهي إلى التراب، مروراً بمرحلة ﴿صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ حين يتخشب الجسد ويتصلب وكأنه تمثال من صخر، ثم ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ حين تبدأ خلاياه في التعفن والتحلل، ثم مرحلة (الطين اللازب) حين تأخذ الجثة في التفسخ الكامل، وطمس المعالم، ثم مرحلة (الطين)، ثم يفقد هذا الطين محتواه من الماء بالتدريج حتى يصبح ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فإذا فقد ماءه بالكامل تحول إلى تراب يتيه في تراب الأرض، ولا يبقى منه إلا عظمة دقيقة مثل حبة الخردل يبعث منها يوم القيامة بعد إنزال ماء خاص من السماء كما جاء في أحاديث رسول الله ﷺ، وكما أسلفنا من قبل.

فالحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه اللغة العربية على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد - سبحانه - بهذا الحفظ المطلق حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الخلق إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

17 - ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

[المؤمنون:12-14]

هذه الآيات القرآنية الثلاث جاءت في أوائل العشر الثاني من سورة «المؤمنون»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ثماني عشرة ومائة (118) بعد البسملة، ويدور محورها الرئيس حول قضية العقيدة شأنها في ذلك شأن كل السور المكية، وقد سميت بهذا الاسم الكريم لإشادتها بالمؤمنين من خلق الله المكلفين، وقد استعرضت شيئاً من صفاتهم في مطلعها لتقول:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: 1-11].

ويروي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال بعد نزول هذه الآيات: «. . . **لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**»[1].

وهذا الدستور الأخلاقي الرفيع أُتْبعَ باستعراض عدد من آيات الله في الخلق للدلالة على ألوهيته، وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه، وطلاقة قدرته في إبداع الخلق، وجاء في مقدمة ذلك خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله نطفة في قرار مكين، وتتابع الآيات وصف مراحل الجنين البشري في أطواره المتعاقبة من النطفة إلى العلقة فالمضغة فالعظام وكسوتها باللحم (العضلات والجلد)، ثم إنشائه خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

وتنتقل الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن الموت وحتميته، وعن البعث وضرورته، وآيات الخلق شاهدة للخالق العظيم بقدرته على البعث، والحساب والجزاء، وإخلاد الناس إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً.

ثم استعرضت الآيات قصص عدد من أنبياء الله منهم نوح، وهود، وصالح، وموسى، وهارون، وعيسى ابن مريم - على نبينا وعليهم جميعاً من الله السلام -، مؤكِّدة وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، وأن دعوتهم جميعاً كانت إلى عبادة الله - تعالى - وحده (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد، لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والله الخالق منزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله)، ومنطق التوحيد الذي أُمِر هؤلاء الأنبياء جميعاً بتبليغه إلى أممهم كان واحداً: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: 23]، ولكن للأسف الشديد انصرف أغلب هؤلاء الأقوام عن رسل ربهم، وقاوموهم، وحاربوا أتباعهم، وحتى هؤلاء الأتباع سرعان ما اختلفوا فيما بينهم، وابتدعوا في دينهم، وحرَّفوا رسالات ربهم حتى أخرجوها عن إطارها الرباني، وأفقدوها القدرة على هدايتهم فَضَلُّوا وأضلوا، وغرقوا إلى آذانهم في الدنيا وشهواتها ظانين أن ما يمدهم الله - تعالى - به من مال وبنين هو خير لهم، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون (الحديث: 3173)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 34).

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 53–56].

ثم تعاود الآيات إلى إضافة عدد آخر من صفات المؤمنين فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: 57–62].

وبالمقابل تعاود السورة الكريمة إلى ذكر عدد من صفات الكفار والمشركين ممثلين في كفار ومشركي قريش، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، عارضة جانباً مما سوف يعانون منه من حسرة وندم في يوم القيامة فتقول:

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾ [المؤمنون: 63–74].

وتردُّ السورة الكريمة على كل من منكري البعث والمتطاولين على وحي السماء، وخَلُصَتْ إلى تنزيه الذات الإلٰهية عن كل وصف لا يليق بجلال الله، فتقول:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: 91،92].

وبعد ذلك تنتقل الآيات إلى وصف صورة من إكرام المؤمنين الصالحين وذُلّ الكافرين والمشركين والظالمين في ساعات الاحتضار وعند البعث وبعد الحساب فتقول:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: 99–111].

وبعد هذه المقارنة بين موقف المؤمنين الذين يطلبون المغفرة والرحمة من رب العالمين، وموقف كل من الكفار والمشركين الذين يقفون من المؤمنين موقف السخرية والاستهزاء في الدنيا، تشير الآيات إلى مصير هؤلاء وأولئك في الآخرة وقد انتقم الله - تعالى - من الكفار والمشركين، وجزى المؤمنين بأن جعلهم الفائزين.

وتختتم السورة الكريمة بالتأكيد على أن البشر لم يُخلَقوا عبثاً، وأنهم راجعون حتماً إلى الله الملك الحق الذي لا إله إلا هو رب العرش الكريم، وتعاود استنكار شرك المشركين الذين أنذرتهم بعقاب الله الشديد، ونعتتهم بالكافرين، وقضت بعدم فلاحهم

أبداً. وفي المقابل وجهت الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - ومن ورائه جميع المؤمنين ببعثته الشريفة إلى يوم الدين - أن يطلب كل منهم المغفرة والرحمة من الله الذي هو خير الراحمين، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 115-118].

من ركائز العقيدة في سورة «المؤمنون»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبأن الجنة حق، وأن النار حق، وبأنه لن يرث الجنة خلوداً إلا المؤمنين الذين عددت السورة الكريمة بعضاً من صفاتهم ولذلك سميت باسمهم.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - قد خلق الإنسان من سلالة من طين، وقدّر مراحله الجنينية مرحلة بعد أخرى حتى تتم تسويته في خلقته الكاملة، وأن له بعد هذه الحياة الموت، ثم عليه من بعد الموت البعث والحساب لأن الإنسان لم يخلق عبثاً، وأنه حتماً عائد إلى خالقه ليجزيه على عمله في الحياة الدنيا إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

3 - التصديق بأن الله - تعالى - هو خالق السمٰوات السبع والأرضين السبع وما فيهن، وأنه - سبحانه- منزل الماء بقدر من السماء،فأسكنه في الأرض، وأنه سبحانه وتعالى قادر على الذهاب به وإفنائه، وأنه منشئ الزروع، ومبدع الأنعام وخالق كل شيء، وهو بكل شيء عليم.

4 - الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبدعوتهم الواحدة إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى، وتنزيهه - تعالى - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

5 - اليقين بأن الله - تعالى - هو عالم الغيب والشهادة، وأنه - سبحانه - هو خير

الرازقين، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وأن له اختلاف الليل والنهار، وأنه هو رب العرش الكريم، وأن الشرك به كفر، وأنه لا يفلح الكافرون.

6 - التسليم بأنه لا عودة بعد الموت إلا في يوم البعث، لأن الأموات من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون، وبأنه عند نفخة الصور الأولى يصعق كل حي إلا ما شاء الله، وعند النفخة الثانية يبعث كل ميت.

7 - الإيمان بأن من ثقلت موازينهم في حساب الآخرة فأولئك هم المفلحون، وبأن من خفت موازينهم فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون.

من ركائز العبادة والسلوك في سورة «المؤمنون»:

1 - المحافظة على الصلاة، والخشوع فيها وأداء الزكاة بقلوب وجلة رجاء قبولها عند الله تعالى.

2 - الإعراض عن اللغو بكل أشكاله وصُوَره، ورفض الشرك بكل ألوانه وأطيافه.

3 - المحافظة على الأعراض الخاصة والمغايرة (أعراض الغير) محافظة كاملة.

4 - مراعاة الأمانات والعهود.

5 - تقوى الله - تعالى - وخشيته في السر والعلن، والمسارعة في الخيرات، والسبق بها.

6 - النهي عن التكبر والدعوة إلى النظر في كل أمر بشيء من التدبر والحكمة والعقل.

7 - الحرص على طيب المطعم والعمل الصالح، والدفع بالتي هي أحسن.

8 - العمل على توحيد صف المؤمنين في أمة واحدة.

9 - عدم التكذيب بأي من آيات الله، وعدم الاغترار بكثرة المال والبنين، فقد يكون ذلك من قبيل الاستدراج أو الابتلاء والاختبار.

10 - الحرص على حب الحق، والعمل على إشاعته بين الناس، والانتصار له، ودعوة الخلق إلى صراط الله المستقيم.

11 - النهي عن الظلم بمختلف أشكاله وصوره.

12 - الحرص على مداومة التضرع إلى الله - تعالى - بالدعاء الذي هو مخ العبادة، وعلى مداومة الاستعاذة به من همزات الشياطين، وسؤاله المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين.

من الإشارات الكونية في سورة «المؤمنون»:

1 - الإشارة إلى خلق الإنسان من سلالة من طين، ووصف مراحل الجنين البشري المتتالية بدقة بالغة في زمن لم يتوفر فيه أي من وسائل التكبير أو الكشف، ووصف كل من الرحم والغدد التناسلية بوصف القرار المكين.

2 - التأكيد على خلق السمٰوات السبع وما بينها من طرائق (فواصل).

3 - ذكر إنزال الماء من السماء بقدر وإسكانه في الأرض مما يؤكد على حقيقة أن أصل الماء المخزون في صخور القشرة الأرضية هو ماء المطر وهي حقيقة لم تدرك إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

4 - الإشارة إلى الارتباط الوثيق بين إنزال الماء من السماء وإخراج النبات من الأرض، وإنشاء جنات من نخيل وأعناب وغير ذلك من أشجار الفواكه والثمار ونباتات المحاصيل المختلفة.

5 - وصف شجرة الزيتون بأنها تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، والإشارة إلى شجر الزيتون الذي ينبت في طور سيناء بصفة خاصة.

6 - الإشارة إلى أن في خلق الأنعام عبرة للمعتبرين، وأن فيما يخرج من بطونها من لبن، وما يؤكل منها من لحم، وفي اتخاذها وسيلة للركوب والحمل في البر كما تُتخذ الفلك في البحر، وفي غير ذلك من منافعها الكثيرة لآيات للمتدبرين.

7 - ذكر حاسة السمع قبل كل من الأبصار والأفئدة، وإيرادها بصيغة المفرد وإيراد ما بعدها بصيغة الجمع، والدراسات العلمية في العقود المتأخرة تؤكد على سبق حاسة السمع لجميع الحواس الأخرى في تخلقها. وفي مراكزها من المخ، وأنها تعمل كوحدة واحدة بينما تعمل أجزاء المراكز الأخرى منفردة.

8 - الإشارة الضمنية الرقيقة بتعبير اختلاف الليل والنهار إلى حقيقة كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس.

9 - ذكر عدد من أنبياء الله وتفاعل أقوامهم معهم بدقة بالغة تؤكد دراسات الآثار صدق كل ما جاء فيها، منهم نوح، وموسى وهارون، وعيسى ابن مريم - على نبينا وعليهم من الله السلام -، وغير ذلك كثير ممن تمت الإشارة إليهم بصورة مجملة ولا تزال آثارهم شاهدة على صدق ما روت آيات سورة «المؤمنون» عنهم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأولى من القائمة السابقة.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12].

● ذكر ابن كثير - يرحمه الله - ما مختصره: يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.. وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين.. وذلك مخلوق من التراب.. وقال النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»[1].

● وجاء في الظلال - رحم الله كاتبها برحمته الواسعة - ما مختصره: وفي أطوار هذه النشأة وتتابعها بهذا النظام، وبهذا الاطراد ما يشهد بوجود المنشئ أولاً، وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيراً. فلا يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة، ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير، وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها، فيفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة من الطين إلى الإنسان. فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول، والإنسان هو الطور الأخير.. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقاً من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان أو نشأة الأحياء. إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله

---

(1) أخرجه الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري كما أخرجه كل من الإمامين أبي داود في الحديث: (4693) والترمذي الحديث: (2955) عن عوف الأعرابي.

ولتأمل النقطة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة.

● وجاء في صفوة التفاسير - جزى الله كاتبها خيراً - ما نصه:... اللام جواب قسم أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلاصة استلّت من الطين. قال ابن عباس: هو آدم لأنه انسل من الطين..

من الدلالات اللغوية للآية الكريمة:

(**الطين**): هو التراب المختلط بالماء، ومن ذلك قوله - تعالى -:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2] ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61] ﴿سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: 38].

والفعل من الطين (طَانَ) فهو (مُطَيَّن) أو (طُيِّن) (تطييناً) وبعض علماء اللغة ينكره، و(الطينة): الخلقة والجبلة.

و(**سلالة**) الشيء ما (استُلَّ) منه في خفاء وتستر، وهو ما يسلت من شيء آخر ويفصل عنه، ويقال: (انْسلَّ) من بينهم بمعنى خرج في خفاء وتستر، و(تَسلَّل) مثله، و(سَلَّ) الشيء و(أَسَلَّه) بمعنى أخرجه مما كان فيه، و(السَّليلُ) الولد، ويقال للأنثى (سليلة).

قال تعالى:

﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا...﴾ [المؤمنون: 14].

وقال - عز من قائل -:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...﴾ [الحج: 5].

جاءت لفظة (**مضغة**) في القرآن الكريم ثلاث مرات إحداها في الآية الخامسة من سورة «الحج»، والمرتان الأخريان جاءتا في الآية الرابعة عشرة من سورة «المؤمنون».

واللفظة تعني في اللغة العربية القطعة من اللحم غير الناضج قدر ما يمضغ، ولذلك جعلها ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه اسماً للمرحلة التي ينتهي إليها الجنين بعد العلقة.

و(**المضاغة**) ما يبقى عن المضغ في الفم، (**الماضغان**) هما الشدقان لمضغهما الطعام أو لمساعدتهما في مضغه، وقلب الإنسان **مضغة** من جسده. و(**مضغ**) الأمور هي صغارها.

وقيل في (**المضغة**) إنها شيء لاكته الأسنان وتركت آثارها عليه، وهي آثار متغيرة نظراً لتكرر مضغها حين لوكها.

من الدلالات العلمية للآيات:

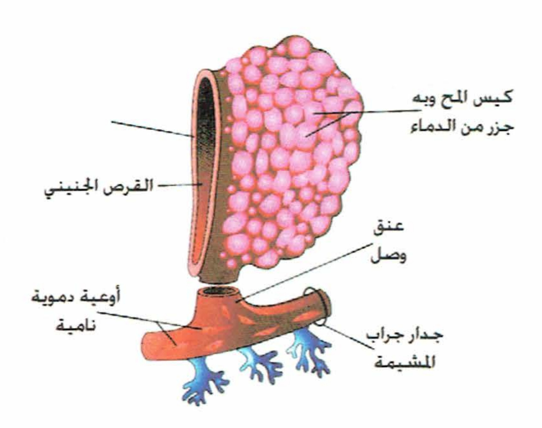
في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً...﴾ [المؤمنون: 14].

لطول الفترة الزمنية من لحظة الإخصاب إلى تمام تعلق **الكيسة الأرومية** (النطفة الأمشاج المنقسمة إلى أقسام كثيرة) والتي تصل إلى الأسبوعين (من اليوم الأول إلى الرابع عشر) استخدم القرآن الكريم حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي.

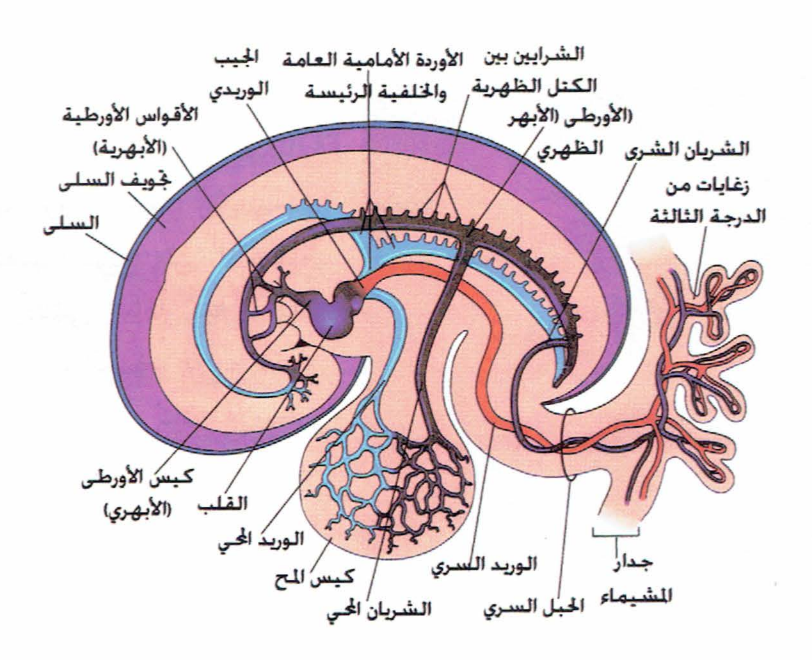
ففي خلال أسبوعين من بدء الإخصاب تتم عملية تعلق الكيسة الأرومية بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري. وباطراد النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكوُّن الأجهزة (وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلاً بأنابيب القلب وحزمة من الأوردة والشرايين) يستطيل الجنين في نهاية الأسبوع الثالث (من اليوم الحادي والعشرين إلى اليوم الخامس والعشرين من عمره) ليأخذ شكل **دودة العلق** (**Leech**) في هيأتها، وفي تعلقها بجسم العائل، وفي طريقة تغذيتها على دم الحيوان العائل الذي تعلق به. وعلى ذلك فإن الوصف القرآني لهذا الطور من أطوار جنين الإنسان بتعبير (**العلقة**) في زمن لم يكن متوافراً فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لطور يتراوح طوله (بين 0,7 مم و3,5 مم) يعتبر أمراً معجزاً حقاً.

في قوله تعالى: ﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا...﴾ [المؤمنون: 14].

هذه مراحل ثلاث في تطور الجنين البشري، ميزها القرآن الكريم وربطها مع بعضها



رسم تخطيطي للجنين في اليوم الرابع عشر من عمره ويلتصق به كيس المح الذي يمتلئ حائطه بالدم على هيئة جزر منتشرة، وينتشر الدم كذلك في الساق الموصلة وفي حائط الكتلة الخارجية - (الكوريون)، وبعد حوالي يومين يتخلق تدريجياً إلى نهاية الأسبوع الثاني أوعية دموية وقلب بدائي لدى الجنين.

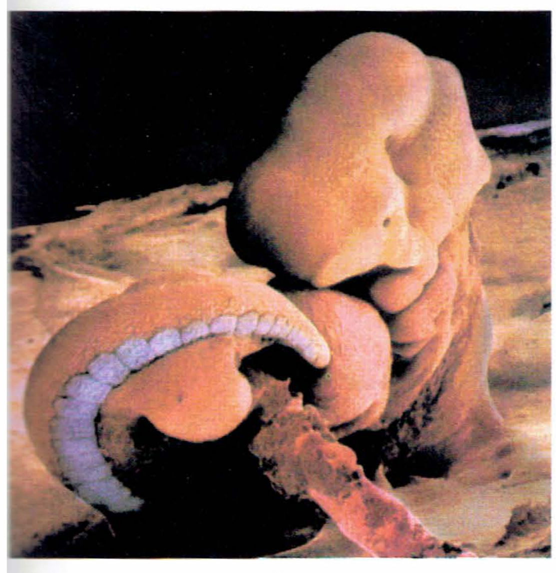


ويوضح أنه في اليوم الحادي والعشرين - أي قبل نهاية فترة العلقة بثلاثة أيام - يكون الجهاز الدوري للجنين قد تخلق، ويبدأ القلب البدائي بالضخ، وفي اليوم الثاني والعشرين يمتص الجنين الغذاء من دماء الأم بواسطة خملات المشيمة.

البعض بحرف العطف (ف) الذي يدل على الترتيب مع التعقيب والاشتراك، وذلك لتتابعها المرحلة تلو الأخرى في تعاقب سريع على النحو التالي:

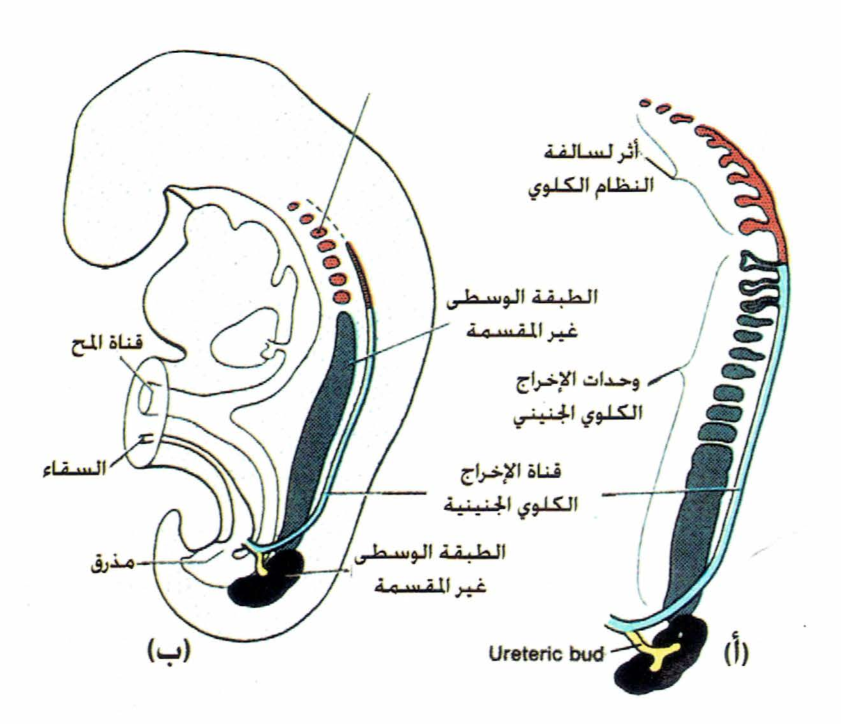
1 - **تحول العلقة إلى مضغة:** يستمر طور العلقة من نهاية الأسبوع الثاني إلى ما قبل نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين (أي من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين) وفي منتصف الأسبوع الرابع من عمر الجنين (أي في حدود اليوم الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين من بدء الإخصاب) تنتقل العلقة إلى طور جديد سماه القرآن الكريم باسم **المضغة** وذلك ببدء ظهور عدد من الفلقات عليها تعرف باسم **الكتل البدنية** (Somites) والتي تبدأ بفلقة واحدة ثم تتزايد في العدد حتى تصل إلى ما بين 40 و45 فلقة، وذلك مع تمام الأسبوع الرابع وبدايات الأسبوع الخامس من عمر الجنين (أي في اليوم الثامن والعشرين إلى الثلاثين من تاريخ الإخصاب).

ونظراً إلى تعدد تلك الكتل البدنية فإن الجنين يبدو كأنه قطعة صغيرة من اللحم الممضوغ بقيت عليها طبعات أسنان الماضغ واضحة كما تبقى مطبوعة على قطعة من العلك الممضوغ.



صورة حقيقية لجنين بشري في أسبوعه الرابع والنصف، وقد ظهرت عليه الفلقات (Somites) التي جعلته يبدو وكأنه قطعة صغيرة ممضوغة من اللحم عليها طبعات أسنان ماضغها، ومن هنا كانت التسمية القرآنية بتعبير المضغة.

ومع استمرار نمو المضغة تبدو فلقاتها في تغير مستمر في أشكالها وأحجامها ومواضعها، ويصحب ذلك التغير شيء من الانتفاخ والتغضن والتثني تماماً كما يحدث مع قطعة العلك الممضوغة مع تكرار مضغها. ومن هنا كان الإعجاز القرآني في تسمية تلك المرحلة الدقيقة (والتي لا يتعدى طولها سنتيمتراً واحداً في نهاية تلك المرحلة) باسم **المضغة**، والمضغة - لغة - هي: القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، أو التي مضغت ولاكتها الأسنان تاركة طبعاتها عليها.



(أ) رسم تخطيطي لمنظر جانبي لجنين بشري في طور المضغة في عمر خمسة أسابيع.
(ب) رسم تخطيطي لجنين بشري في طور المضغة.

لاحظ علماء الأجنة أنه في خلال الأسبوعين الأولين من حياة الجنين البشري تتم عملية انغراس الكيسة الأرومية (**Blastula**) الناتجة عن تعدد انقسام ونمو النطفة الأمشاج (المختلطة) والمعروفة باسم اللقيحة (**Zygote**) في جدار الرحم وذلك بدءاً من اليوم السادس إلى السابع من تاريخ الإخصاب، ويتم تعلقها بواسطة المشيمة الابتدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري وبذلك يبدأ طور العلق الذي يستمر من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين من عمر الجنين، وتتكون العلقة أساساً من خلايا خارجية آكلة وهبها الله تعالى القدرة على أن تنشب بجدار الرحم كي تتعلق به، وكتلة داخلية من الخلايا التي يتخلَّق منها الجنين. ولهذه الكتلة طبقة خارجية تسقف تجويف السلي، وطبقة داخلية تسقف كيس المح. وهذه الكتلة تكون مستديرة في بادئ الأمر ولكن لا تلبث أن تستطيل في نهاية الأسبوع الثاني حتى تأخذ شكل حبة الكمثرى تقريباً. وفي اليوم الخامس عشر من الإخصاب يظهر على الجزء الخلفي من العلق خط دقيق للغاية

يعرف باسم **الشريط الأولي** (The primitive streak) ويخلق ربنا - تبارك وتعالى - من هذا الشريط الأولي السريع الانقسام مجموعة من الخلايا التي تتحرك لتكوّن طبقة وسطى بين الطبقتين الخارجية والداخلية. ويستمر الشريط الأولي في نشاطه إلى نهاية الأسبوع الثالث من عمر الجنين عندما تبدأ الكتل البدنية (Somites) في الظهور، وهذه الكتل يخلق منها كل أجهزة الجسم، وتظهر منها كتلة واحدة إلى أربع كتل قبل نهاية الأسبوع الثالث، وتتزايد في العدد بالتدريج حتى تصل إلى قرابة العشرين (17–20) بنهاية اليوم الخامس والعشرين من عمر الجنين، وتعتبر الفترة من اليوم العشرين إلى الخامس والعشرين من لحظة الإخصاب مرحلة انتقالية بين طوري العلقة والمضغة لبدء تكوّن الكتل البدنية فيها، **وتستمر مرحلة المضغة من اليوم السادس والعشرين إلى الثاني والأربعين من عمر الجنين**. وبنهاية الأسبوع الثالث يبدأ الشريط الأولي في الانحسار التدريجي حتى يختفي في نهاية الأسبوع الرابع تقريباً بعد أن كان في ذروة نشاطه طوال الأسبوع الثالث من عمر الجنين (بين اليوم الخامس عشر والحادي والعشرين) حينما تبدأ الكتل البدنية في التخلق.

والشريط الأولي ينمو من مؤخرة العلقة لينتهي بعقدة تسمى باسم «**العقدة الأولية**» (The Primitive Node) التي ينمو منها شريط من خلايا الطبقة الخارجية يتجه إلى مقدمة العلقة. ويشجع الشريط الأولي العلقة على النمو السريع والانقسامات المتتالية التي تتكون منها كل أجهزة الجسم وأولها الجهاز العصبي، ثم ينحسر الشريط الأولي على هيئة أثر لا يكاد يرى في العظم العصعصي، وقد سماه رسول الله ﷺ باسم عجب الذنب الذي قال فيه: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب**»[1].

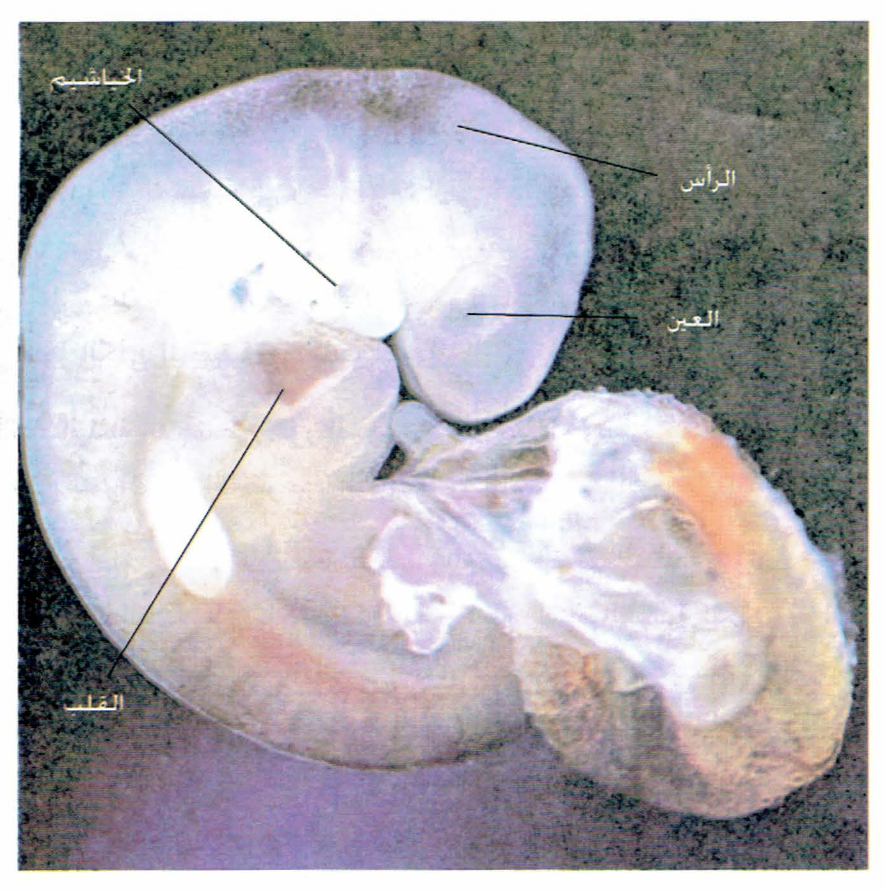
وطور المضغة يتميز بتزايد عدد الكتل البدنية حتى يصل إلى أكثر من (20) كتلة، على كل جانب، ويبلغ عدد الكتل البدنية عند اكتمالها إلى ما بين (42)، (45) كتلة على كل جانب من جوانب المضغة من مقدمتها إلى مؤخرتها، ولا يكاد عددها يكتمل حتى تبدأ هذه الكتل في التمايز من القمة في اتجاه المؤخرة إلى قطاع عظمي، وقطاع عضلي، وقطاع جلدي، وهذه الكتل البدنية هي أبرز ما يميز الجنين في هذه المرحلة، ويمكن

---

(1) تقدّم تخريجه سابقاً.

التعرف عليها من النظر إلى السطح الخارجي للجنين، ويمكن تحديد عمر الجنين عن طريق عدد هذه الكتل البدنية الظاهرة على سطحه، وهي تبدأ في الظهور من نهاية الأسبوع الثالث إلى نهاية الأسبوع الخامس، وتتحول إلى العظام والعضلات في الأسبوعين السادس والسابع، وإن كان الهيكل العظمي لا يكتمل إلا في نهاية الأسبوع السابع، والهيكل العضلي لا يكتمل إلا بنهاية الأسبوع الثامن.

ومن الأمور المبهرة حقاً تسمية القرآن الكريم لهذه المرحلة من مراحل نمو الجنين البشري باسم المضغة لأن الجنين فيها يتراوح طوله بين (4 مم) في نهاية الأسبوع الرابع من عمره إلى (13مم) بنهاية الأسبوع السادس وهو في هذا الطور كتلة من اللحم النيئ في حجم ما يمكن مضغه وهو من المعاني اللغوية للفظة المضغة. كذلك تبدو المضغة



صورة حقيقية لجنين بشري في طور المضغة (في الأسبوع الرابع من عمره) وطوله سبعة مليمترات.

وكأنها مادة قد لاكتها الأسنان وتركت طبعاتها واضحة عليها، ومع النمو السريع للمضغة فإنها تتغير باستمرار في الشكل، وفي مواضع الفلقات فتتغضن في أماكن، وتنتفخ في أماكن أخرى، وتتثنى في أماكن ثالثة تماماً، كما تتغير المادة الممضوغة بتكرار مضغها وبتغير مواقع طبعات الأسنان عليها.

وتتخلق جميع أجهزة الجنين على هيئة براعم في طور المضغة ويتم نموها في الأطوار التالية، فينمو الجهاز العصبي للجنين من شق عصبي (**Neural Groove**) إلى قناة عصبية (**Neural canal**) تنمو في منطقة الرأس لتكون المخ بنتوءاته المختلفة: المتقدمة (**Forebrain**) والمتوسطة (**Middlebrain**) والمتأخرة (**Hindbrain**).

كذلك تنمو انحناءات الرأس، وتظهر فتحة الفم البدائية، ثم تظهر حويصلة العينين كامتداد من مقدمة المخ، ثم حويصلة السمع، ولوح قرص الشم، ويظهر الحبل السري، وتتحول الأوعية الدموية إلى أنبوب مُلْتَوٍ للقلب على شكل حرف (**S**) ثم تظهر غرف القلب متصلة ببعضها (الأذينان والبطينان) وتبدأ الدورة الدموية في الاكتمال، وفي الاتصال بالدورة المشيمية في رحم الأم. وفي هذا الطور أيضاً تبدأ القناة الهضمية في التكوُّن، ويظهر برعما البنكرياس والكبد، وحويصلتا الإبصار والسمع، وبدايات الجهاز التنفسي على هيئة كل من القصبة الهوائية وبرعما الرئة، كما تظهر أنابيب أولية للكلى تتشكل منها الكلى الحقيقية وبدايات الجهاز البولي فيما بعد.

والكتل البدنية التي تعطي طور المضغة صفته وشكله وتميِّزه تنقسم في الأسبوع الرابع إلى قسمين ينموان في الأسبوعين الخامس والسادس إلى المراحل التالية:

أ - قسم أمامي يكوِّن الأنسجة الليفية والغضروفية ثم العظمية؛ وتنمو خلايا الكتل البدنية في هذا القسم من كل جانب لتلتقي أمام القناة العصبية لتكوِّن فقرات العمود الفقري، وتمتد من جهة مؤخرة الرأس حيث تلتحم أربع كتل بدنية مكوِّنة كلاً من قاع الجمجمة ومؤخرة الرأس، ثم تأتي بعدها ثماني فقرات عنقية، واثنتا عشرة فقرة صدرية، وخمس فقرات قطنية، وخمس عجزية، وثماني إلى عشر فقرات عصعصية تلتحم في عظم العصعص الذي يندثر فيه عجب الذنب.

ب - قسم خلفي (ظهري) على هيئة كتلة من الخلايا التي تظهر بعد تكوُّن

الفقرات الأولية، ثم تتمايز بعد ذلك إلى طبقة خارجية تكوِّن الأدمة وما تحت الأدمة (Dermis and Hypodermis)، وطبقة داخلية تكوِّن العضلات.

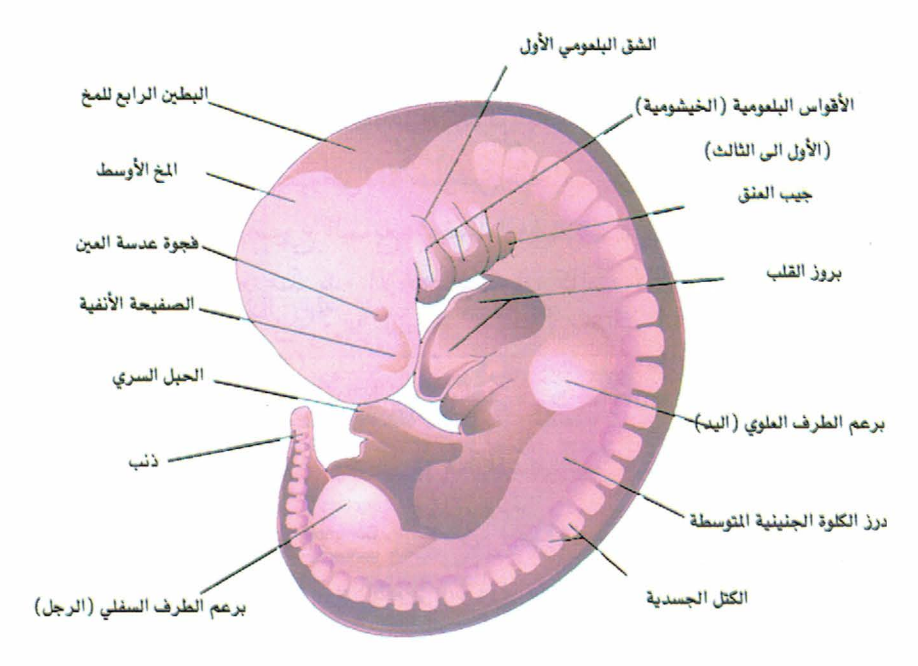
وتبدأ عملية تكلس الغضاريف في الأسبوعين الخامس والسادس وإن كان الهيكل العظمي لا يكتمل إلا في الأسبوع السابع، وتبدأ العضلات في كسوة العظام باللحم في الأسبوعين السادس والسابع منذ بدء الإخصاب وإن كانت لا تكتمل إلا في الأسبوع الثامن، لذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12-14].

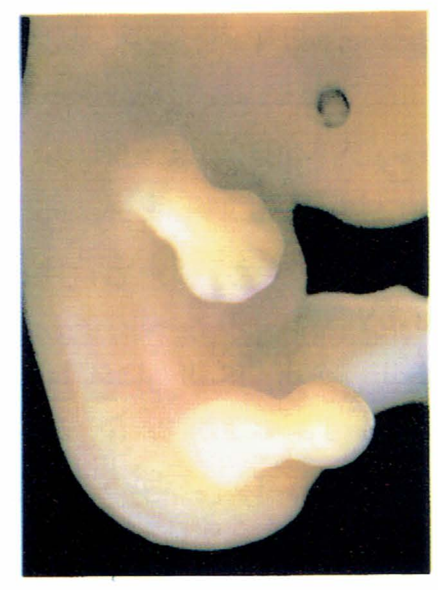
وهذا السبق القرآني في زمن سيادة الاعتقاد بخلق الإنسان جملة واحدة من دم الحيض أو من ماء الرجل يعتبر أمراً خارقاً للعادة، وقد استمر هذا السبق لأكثر من عشرة قرون كاملة في كتاب أنزل على نبي أمي ﷺ، وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ولا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق.

2 - **تحول المضغة إلى العظام**: يستمر طور المضغة من نهاية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين (أي من حوالي اليوم السادس والعشرين إلى اليوم الثاني والأربعين من تاريخ الإخصاب) ثم ينتقل إلى طور آخر سماه القرآن الكريم باسم **طور العظام** ويتم في خلال الأسبوع السابع من عمر الجنين (في حدود الأيام43 إلى 49 من تاريخ الإخصاب)، وفي هذه الفترة **يبدأ انتشار الهيكل العظمي للجنين** وذلك بالتكلس التدريجي للغضاريف التي تم تكونها في مرحلة المضغة حول عدد من المنابت العضوية. وبتكون العظام يبدأ الجنين (الذي يتراوح طوله بين 14مم و20مم)، في تحقيق استقامة جذعه، وبروز أطراف أصابعه، وظهور حويصلات مخه، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وعظامها، ولحمها، وجلدها...**»[1].

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي (الحديث: 6665) و(الحديث: 6666)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (4708).

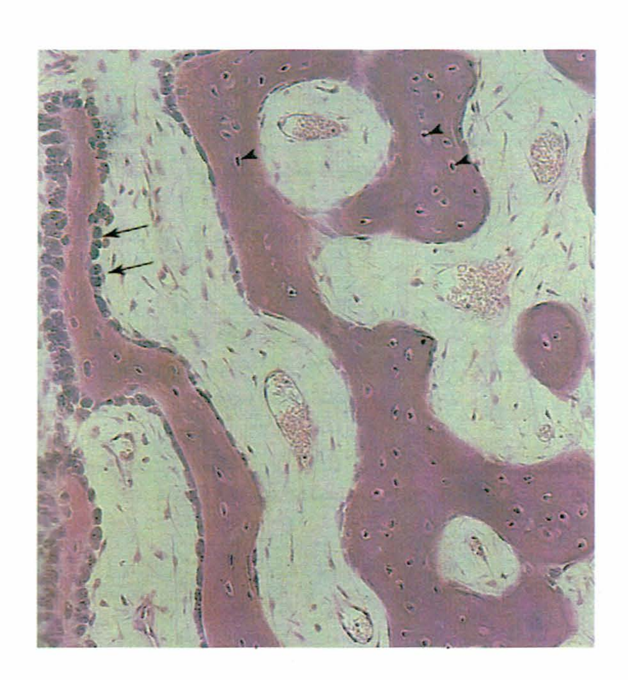






في الأعلى رسم لجنين بشري في اليوم الثاني والثلاثين من عمره (طور المضغة) وقد تم خلق الكثير من أعضائه الأولية.

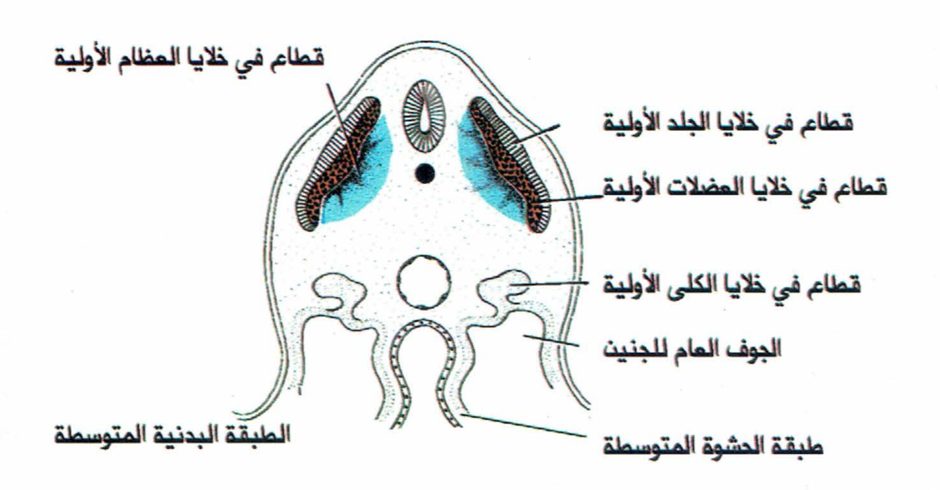
في الأسفل صور حقيقية لجنين في مرحلة المضغة يرى تطور نمو الأطراف العليا (اليدين) والسفلى (الرجلين) من مرحلة التبرعم إلى مرحلة متوسطة من النمو.



صورة بالمجهر الإليكتروني الكاسح لعملية تكلس الأغشية لتحولها إلى عظام أو ما يعرف باسم التعظم لما بين الأغشية (Intramenbranous ossification) حيث تشير رؤوس الأسهم إلى بانيات العظم (Osteoblasts) وإلى نقاط قد تعظمت.

3 - كسوة العظام باللحم: بعد اكتمال تحول طور المضغة إلى طور عظام في نهاية الأسبوع السابع من عمر الجنين تبدأ عملية كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) في خلال الأسبوع الثامن (من اليوم الخمسين إلى السادس والخمسين بعد الإخصاب)، ويكون طول الجنين في هذه المرحلة بين 22 مم إلى 31 مم. وتنشأ خلايا العضلات عادة من الطبقة المتوسطة للمضغة وتخرج من بين فلقاتها ولذلك فإنها تنشأ مجزأة، وتنتقل بعيداً عن منطقة الفلقات ثم تنمو وتتصل مع بعضها البعض مكونة أعداداً من الخيوط والألياف الأنابيب العضلية التي تنتظم بالتدريج في حزم مميزة تتصل بغشاء العظام مكونة النسيج العضلي الذي يكسوها، والذي يتميز إلى كل من الجهاز العضلي للظهر، والجهاز العضلي للبطن والصدر، والرأس والأطراف ويزود كلاً منها بفرع من العصب الشوكي.

هذا وقد أثبتت دراسات علم الأَجِنَّة أن طور المضغة في الإنسان يتميز باكتمال خلق الكتل البدنية (The Somites)، وأنه في الفترة الممتدة من الأسبوع الخامس إلى الثامن فإن هذه الكتل البدنية تأخذ في التحوُّل بالتدريج من أنسجة غشائية إلى غضاريف ثم إلى عظام أو إلى عظام مباشرة، ثم تأخذ تلك العظام في الاكتساء باللحم (العضلات ثم



رسم تخطيطي لقطاع طولي في جنين بشري يظهر فيه موقع الفلقات (Somites) على جانبي المكان الذي سيتخلق فيه العمود الفقري. ويبين أن الخلايا التي ستتخلق منها العظام (Sclerotome cells) تقع تحت الخلايا التي سيتخلق منها العضل (Myotome cells)، وتلك الأخيرة تقع تحت الخلايا التي سوف يتخلق منها الجلد (Dermatome cells).

الجلد). وتصاحب هذه العملية بظهور براعم الأطراف ونموها إلى الأطراف الكاملة، وذلك في عدداً من المراحل المتتالية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

أ - تكوّن العمود الفقري:

في الأسبوع الخامس من عمر الجنين تبدأ الكتل البدنية الأربع الأولى والموجودة بالقرب من قمة الجنين في الالتحام لتكوّن جزءاً من قاع الجمجمة، أما باقي الكتل البدنية وهي في حدود (40 إلى 45) كتلة فتتحرك لتكوين فقرات العمود الفقري الأربعين وتوزيعها كما يلي: (8 فقرات عنقية، 12 صدرية، 5 قطنية، 5 عجزية، 8-10 عصعصية) والفقرات العصعصيّة يندثر أغلبها ليبقى منها ثلاث فقرات فقط تضم بداخلها سر حياة الإنسان المعروف باسم «عجب الذنب» كما سماه رسول الله ﷺ، كما تكوّن ضلوع القفص الصدري، وعظام الأطراف، ثم تكسوها باللحم (العضلات والجلد). وذلك لأن كل واحدة من هذه الكتل البدنية تتكون من **قسم بطني وسطي** (Ventromedial Part) خصّصه الخالق المبدع سبحانه وتعالى لتكوين الهيكل العظمي للجنين

ولذلك يعرف باسم «**القطاع الهيكلي من الكتلة البدنية**» (**Sclerotome**)، وقسم **ظهري جانبي** (**Dorsolateral part**) خصَّه الله - تعالى - بتكوين الكساء اللحمي للهيكل العظمي (العضلات والجلد) ولذلك يسمى باسم «**القطاع العضلي/ الجلدي من الكتلة البدنية**» (**Myo-Dermatome**). ويبدأ تكوُّن الهيكل العظمي للجنين بتحرُّك القطاع الهيكلي من كل كتلتين بدنيتين متقابلتين في اتجاه **الحبل العصبي الظهري** (**The Notochord**) وما حوله من **الميزاب العصبي** (**The Neural Groove**) ليحيطاه إحاطة كاملة مُكَوِّنين إحدى فقرات العمود الفقري (**The Vertebral Column**)، ويتكوَّن لكل فقرة قوسان ينموان ليكوِّنا ضلعين من ضلوع القفص الصدري. وتبدأ فقرات العمود الفقري بالتخلُّق من خلايا غضروفية (**Chondro blasts**) ثم تتكلَّس بالتدريج بترسيب ثالث فوسفات الكالسيوم فيها بواسطة الدم حتى يتحوَّل أغلبها إلى خلايا عظمية (**Osteoblasts**) تاركة أقراصاً غضروفية فاصلة بينها لتعطي للعمود الفقري قدراً من مرونة الحركة.


صورة لجزء من العمود الفقري في الإنسان

- ويؤدي تكوُّن العمود الفقري من القطاعات الهيكلية للكتل البدنية إلى استثارة بقية تلك الكتل وهي القطاعات المخصَّصة لبناء الكساء اللحمي فتتحرك للقيام بدورها في كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) وقد أكَّد القرآن الكريم هذا التتابع من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا...﴾ [المؤمنون: 14].

وكان ذلك في زمن لم يتوافر للإنسان أي علم بمراحل الجنين ولا بتتابع الخلق في مثل هذه الأطوار مما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق سبحانه وتعالى، ويشهد للنبي والرسول

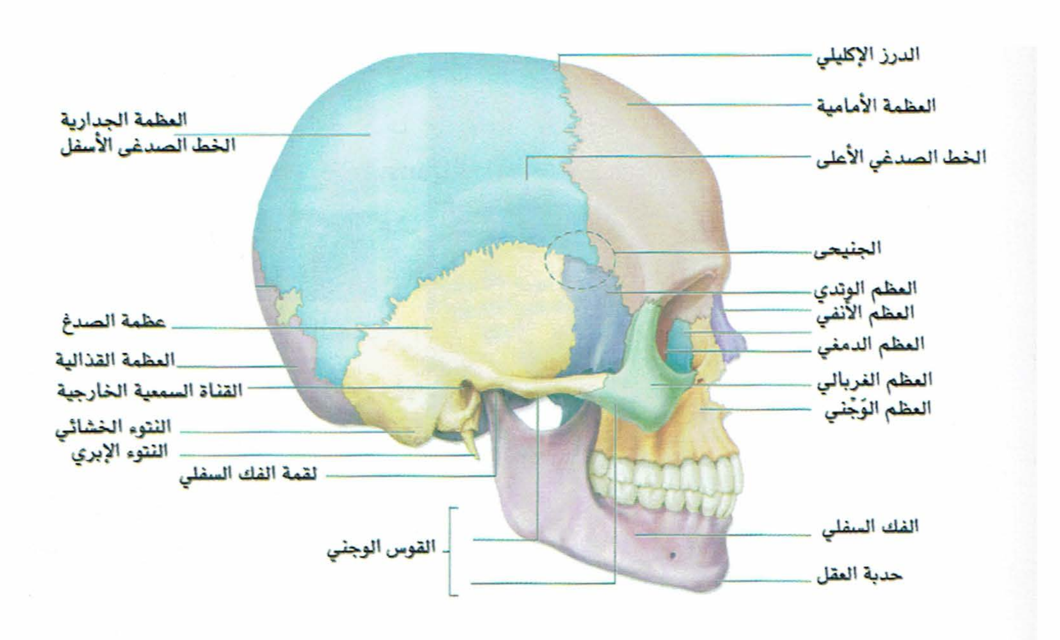
الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض ومن فيهن.

ويبدأ تكوُّن العظام عادة بمرحلة غشائية تتخلَّق في الأسبوعين الخامس والسادس من عمر الجنين، ثم تتحوَّل هذه الأغشية إلى مرحلة غضروفية في أواخر الأسبوع السادس، ثم تأخذ هذه الغضاريف في التكلس التدريجي بدءاً من الأسبوع السابع ويتم ذلك في مراكز محددة تعرف باسم مراكز التصلب (Ossification Centers) أو التمعظم (Scleritization Centers) تنتشر منها الخلايا العظمية لتحل بالتدريج محل الخلايا الغضروفية، ويمتد فرع عصبي من الحبل العصبي الظهري إلى كل فقرة من فقرات العمود الفقري بحيث يكون في مستواها تماماً.

والعظام الناتجة عند تكلس الغضاريف تعرف باسم العظام غضروفية الأصل (Bones of cartilaginous origin) وتشمل غالبية عظام الجنين من مثل العمود الفقري، والقفص الصدري، والأطراف، وقاع الجمجمة، ولكن في بعض أجزاء الهيكل العظمي مثل أغلب عظام الجمجمة تتكوَّن العظام بواسطة تكلس الأنسجة الغشائية مباشرة دون المرور بمرحلة الغضاريف وتعرف هذه العظام باسم العظام غشائية النشأة (Bones of membraneous origin) وتتكوَّن بترسيب ثلاثي فوسفات الكالسيوم من الدم الذي تحمله الأوعية الدموية إلى قبوة الرأس بالتدريج في الطبقة الغشائية الرقيقة المحيطة بالمخ فتتكلس.

ب - تكون الجمجمة:

تتكون غالبية عظام الجمجمة المعروفة باسم علبة الدماغ (Neurocranium) من عظام غشائية النشأة، أما الصفيحة القاعدية للجمجمة (Cranial basal plate) فتتكون من عظام غضروفية النشأة، وتستمد هذه العظام من أعلى زوجين متقابلين من الكتل البدنية الموجودة بالقرب من قمة الجنين حين يتحرك النصف الخاص ببناء الهيكل العظمي من تلك الكتل في اتجاه الحبل الظهري، وتلتحم الكتل الثلاث الباقية مكونة الصفيحة القاعدية لقاع الجمجمة (Cranial Base) مكونة فتحة عظمية (Foramen magnum) يمر منها النخاع الشوكي المتصل بالمخ عبر ما يعرف باسم النخاع المستطيل (Medulla oblongata) وتتصل عظام قاع الجمجمة بالعظام الحافظة للحواس من مثل

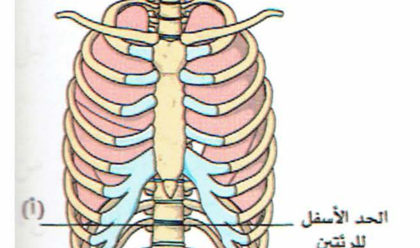


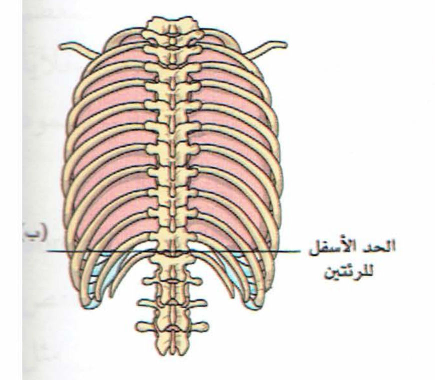
صورة لجمجمة إنسان توضح أجزاءها المختلفة وكم الدقة والتعقيد في بنائها.

السمع والبصر والشم، وهي عظام غضروفية النشأة، كما تتصل بعظام الوجه التي تتكون أساساً من القوسين البلعوميين فيكون الأول منهما الفك السفلي، ويتكوَّن الفك العلوي من بروز منه. وكذلك تتكون عظام الوجنتين، وجزء من العظم الصدغي. وتتكون عظيمات الأذن الوسطى (المطرقة، والسندان، والركاب) من النتوء الفكي، وهي أول ما يتكون من عظام الجمجمة، ويكون الوجه صغيراً في أول الأمر بالنسبة إلى القحفة، وذلك لأن الجيوب الأنفية لم تكن قد تكوَّنت بعد، فإذا ما تكونت فإن الوجه يبدأ في أخذ شكله الإنساني.

ويبقى عدد من الفراغات بين عظام الجمجمة الرقيقة نسبياً حتى يسهل تشكل الرأس أثناء عملية الولادة، وتعرف هذه الفراغات أو الفتحات باسم اليوافيخ (جمع يافوخ)، وتبقى مع الوليد لفترة تصل إلى عام ونصف العام بعد الولادة قبل أن تغلق تماماً.

جـ - تكوّن القفص الصدري:





رسم تخطيطي للقفص الصدري من الأمام (أ) ومن الخلف (ب).

تتكون ضلوع القفص الصدري من نمو النتوءات المستعرضة (Transverse Processes) التي تظهر على الفقرات الصدرية الاثنتي عشرة للعمود الفقري وبذلك يتكون 24 ضلعاً للجنين، اثنا عشر منها على كل جانب من جانبي القفص الصدري. وتنمو الضلوع أوّلاً على هيئة غضروفية ثم تبدأ مراكز التكلس في الظهور عليها لتحويلها إلى عظام بالتدريج ففي الأسبوع السادس من عمر الجنين يظهر على الجزء الهيكلي (Sclerotome) من الكتل البدنية الصدرية الاثنتي عشرة ثلاثة أزواج من المراكز الغضروفية في كل كتلة تعمل على تكوين فقرة غضروفية وتتوزع هذه المراكز على النحو التالي:

1 - مركزان للقوس الفقري (The Vertebral Arch).

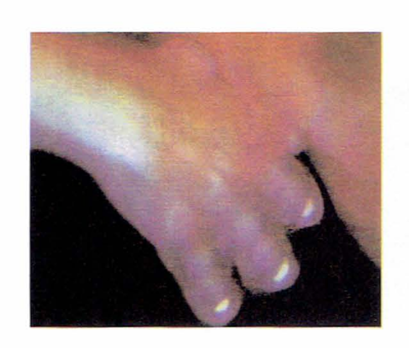
2 - مركزان للنتوء المستعرضة (The Transverse Process).

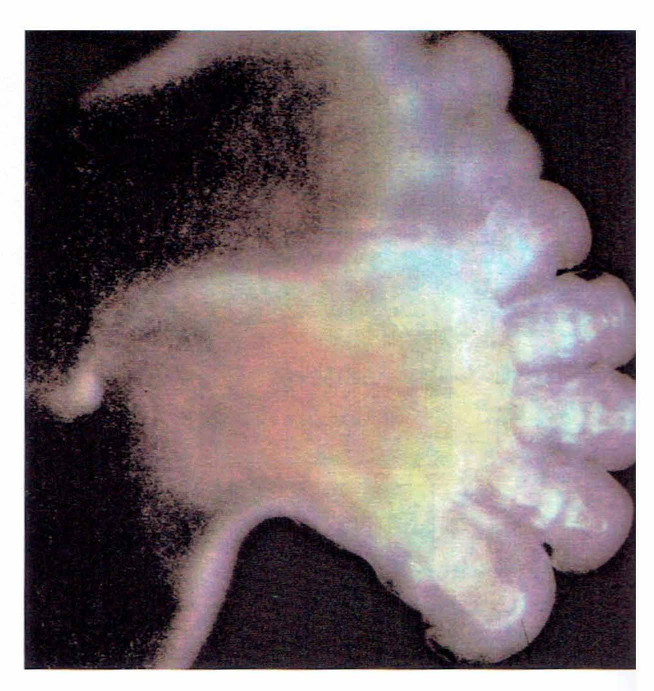
3 - مركزان لجسم الفقرة (The Body of the Vertebra).

وفي الأسبوع السابع من عمر الجنين تبدأ هذه الفقرات الغضروفية في التمعظم بظهور عدد من مراكز التصلب (Ossification Centers) على جسم كل فقرة، وفي الأسبوع الثامن تظهر مراكز التمعظم على كل قوس فقري. ومن النتوءات المستعرضة تنمو ضلوع القفص الصدري، اثنا عشر من كل جانب.

د - تكوّن الأطراف:

يبدأ نمو الأطراف في جسم الجنين مع بداية الأسبوع الخامس من عمره حين تبدأ براعم تلك الأطراف في الظهور بالأطراف العلوية أولاً (الذراعين)، ثم بالأطراف السفلية (الساقين) بعد ذلك ببضعة أيام وفي كل برعم من هذه البراعم الغشائية يبدأ تحوُّل



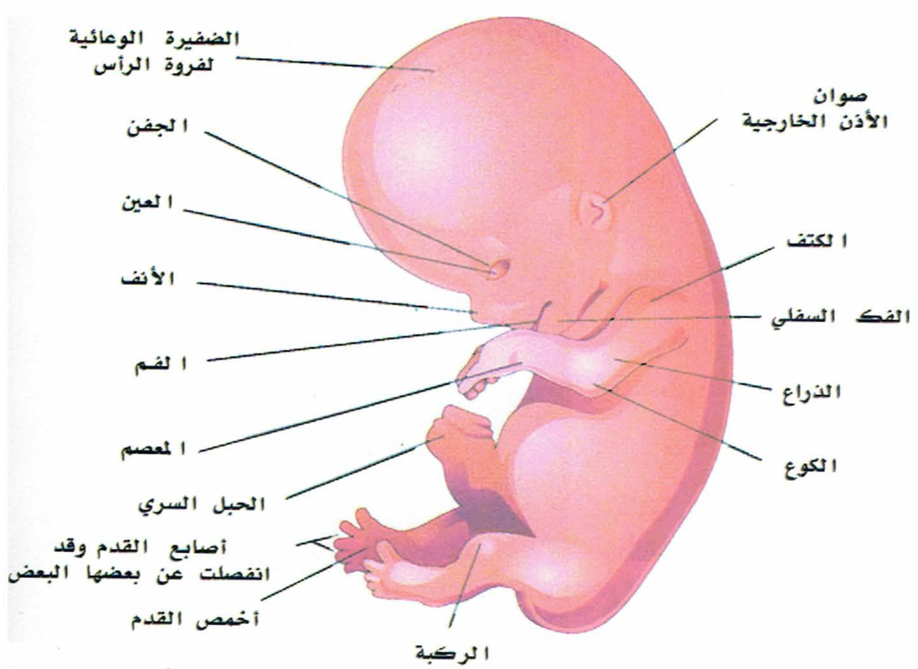


«صورة رائعة ليد وقدم لجنين بشري في الأسبوع الثامن من عمره... وتبدو غضاريف الأصابع من خلال الجلد الشفاف، ثم تمتص هذه الغضاريف تدريجياً ليحل محلها العظم وهكذا تبنى معظم عظام الجسم التي يخطط لها أولاً ثم توضع اللبنات الأولى على هيئة غضاريف ثم تبنى العظام في موضع الغضاريف بالتدريج. وتسمى هذه العظام بالعظام الغضروفية، وهي عظام الأطراف والعمود الفقري وجزء من قاع الجمجمة... أما العظام الغشائية فتنمو مباشرة على رقائق غشائية، دون أن يسبقها نمو غضروفي، وأهم ما يمثلها عظام الجمجمة.

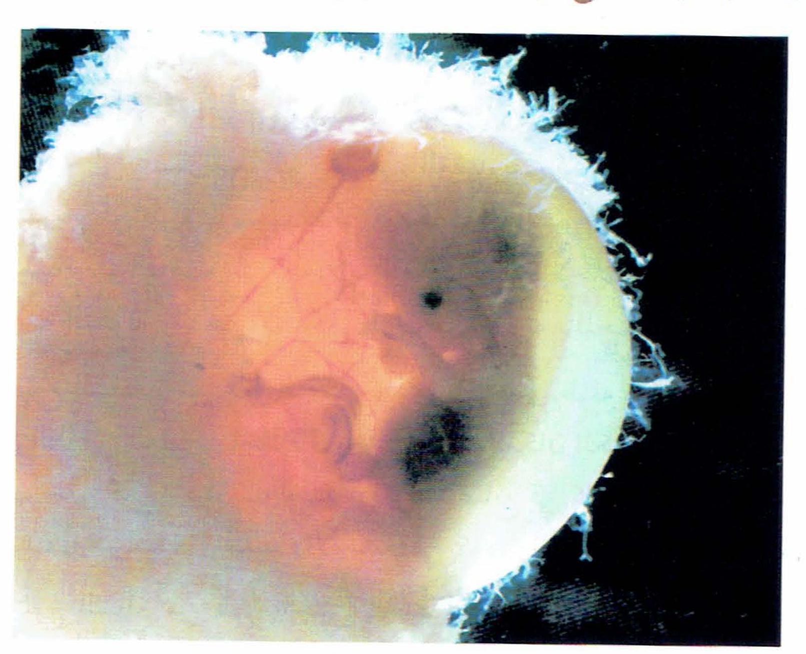
الأنسجة الغشائية إلى غضاريف، ثم تبدأ هذه الغضاريف في التكلس والتصلُّب لتتحول إلى عظام بالتدريج عن طريق ترسيب ثلاثي فوسفات الكالسيوم المنقول إليها بواسطة الدم في جميع المسافات الفاصلة بين الخلايا الغضروفية وبالإحلال محلها، وذلك نتيجة لامتداد الأوعية الدموية والأعصاب لكل طرف مع كسوته باللحم (العضلات والجلد).

وفي الأسبوع السادس من عمر الجنين (الذي لا يتعدى طوله 12 ميليمتراً) يظهر على كل طرف من الطرفين العلويين اختناقان يحدد أحدهما مكان الكوع، ويحدد الآخر مكان الرسغ، وتظهر على كل يد ميازيب تحدد أماكن الأصابع في كل منها وبذلك يتحدد مكان كل من العضد، والساعد، واليد، والأصابع في كل ذراع.

وفي الأسبوع السابع من عمر الجنين يتحدد مكان كل من الركبة والكاحل فيتحدد بذلك مكان كل من الفخذ والساق والقدم، في كل طرف من الطرفين السفليين في وقت



رسم تخطيطي لجنين بشري في أسبوعه الثامن (عمره 56 يوماً)
يبين أن سائر أعضائه قد تخلقت، وقد اتخذ هيئة إنسان،
واكتسب الوجه الملامح الإنسانية وبدأ الظهر في أخذ وضعه القريب من الاستقامة.



صورة حقيقية لجنين بشري في أسبوعه الحادي عشر.

لا يتعدى طول الجنين (15 ميليمتراً)، وبعد تكوُّن الهيكل العظمي للأطراف تكسى باللحم (العضلات ثم الجلد)، ويتصل كل ذلك بامتداد كل من الأعصاب والأوعية الدموية.

ويتكون الطرفان العلويان للجنين (الذراعان) من الكتل البدنية (4-8) الواقعة في المنطقة العنقية، ويشاركهما في ذلك الكتلة الصدرية الأولى من الكتل البدنية، وأحياناً الكتلة الثانية من كل جانب، بينما يتكوَّن الطرفان السفليان (الساقان) من الكتل البدنية القطنية الخمس من كل جانب والعجزية (1-4).

من ذلك الاستعراض يتضح أنه في الأسبوع السادس من عمر الجنين فإن الكتل البدنية (The Somites) التي ميَّزت مرحلة المضغة تتحول بالتدريج إلى الغضاريف، وتظهر براعم الأطراف وتتحول كذلك إلى غضاريف، وفي الأسبوعين السابع والثامن تبدأ هذه الغضاريف في التكلس لتتحول إلى العظام بالتدريج، وتكسى العظام باللحم (العضلات والجلد). وتبدأ مراكز التمعظم في الظهور في الأطراف في الأسبوع السابع من عمر الجنين، ويلي ذلك تكون عضلات تلك الأطراف، مما يؤكد سبق تكون العظام لتكون اللحم (العضلات والجلد) وقد سبق القرآن الكريم جميع المعارف الإنسانية المكتسبة في تحديد هذه الحقيقة وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا...﴾ [المؤمنون: 14].

وفي أثناء تحول الهياكل الغضروفية إلى هياكل عظمية عبر مراكز التصلب (Ossification Centers) تترسب أملاح ثلاثي فوسفات الكالسيوم في المسافات الفاصلة بين الخلايا الغضروفية، ثم تتخلَّق خلايا آكلة للخلايا الغضروفية (Chondroclasts) تلتهمها وتحل محلها الخلايا العظمية (Osteoblasts or Osteocytes) التي تنمو بالتدريج لتكوين الهيكل العظمي للجنين.

في قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وبذلك يقسم القرآن الكريم مراحل تخلُّق الجنين البشري إلى الأطوار الخمسة التالية:

1 - **طور النطفة الأمشاج**: أو طور اللقيحة (Zygote) وهو طور البييضة المخصبة (The Fertilized Ovum Stage) التي تنشط في الانقسام حتى تكون ما يسمى باسم التوية

(Morula) أو الأرومة الجرثومية (Blastula). وهذا الطور يستمر لمدة الأسبوع تقريباً من تاريخ بدء الإخصاب.

2 - طور العلقة: ويبدأ بتعلُّق الأرومة الجرثومية بجدار الرحم في اليوم السادس بعد الإخصاب وحتى نهاية اليوم الخامس والعشرين، أي يستمر لمدة تتراوح بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع يشبه فيه دودة العلق في شكلها وفي تعلُّقها بجدار العائل الذي تتطفل عليه، وفي طريقة تغذيتها على دم العائل.

3 - طور المضغة: ويبدأ في اليوم السادس والعشرين بعد الإخصاب تقريباً وذلك باكتمال تخلق الكتل البدنية (Somites) التي تعطي الجنين شكل قطعة اللحم النيئ الممضوغة والتي لاكتها الأسنان وتركت طبعاتها عليها وينتهي هذا الطور في حدود اليوم الثاني والأربعين بعد الإخصاب ببدء تكوُّن الهيكل العظمي للجنين.

4 - طور تخلُّق العظام وكسوتها باللحم: يستغرق طور تخلق الأعضاء (The organogenesis Stage) الفترة من نهاية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن، ويبلغ ذروة نشاطه بنهاية الأسبوع السادس (اليوم الثاني والأربعين بعد الإخصاب).

وعلى الرغم من أن تخلقه يبدأ في فترة مبكرة من حياة الجنين البشري إلا أنه لا يأخذ الشكل الآدمي إلا بعد تخلق العظام وكسوتها باللحم.

وتبدأ العظام الغضروفية في التكوُّن لتستكمل انتشارها في حجم الجنين بنهاية الأسبوع الثامن، وتكسى باللحم (العضلات والجلد) بدءاً من نهاية الأسبوع السابع وتنتهي بنهاية الأسبوع الثامن. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله مَلكاً فصوَّرها، وخلق سمعها وبصرها، وعظامها، ولحمها، وجلدها، ثم قال يا رب: ذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتبه الملك**»[1].

ويقول - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم -:

«**وكَّل الله بالرحم ملكاً يقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد**

---

(1) تقدّم تخريجه سابقاً.

الله أن يقضي خلقاً قال الملك: يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه»(1).

ويقول ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أم سعيد»**(2).

ومع بداية الأسبوع السابع يبدأ الهيكل العظمي الغضروفي بالانتشار في الجسم كله فيعطي للجنين بدايات الهيئة البشرية، وتكوُّن العظام هي أبرز الأحداث في هذه المرحلة التي يزداد فيها طول الجنين إلى حوالي23 مم وتبدأ أعداد من العلامات الخارجية في الظهور عليه منها:

1 - تكوُّن الهيكل العظمي وكسوته باللحم (العضلات والجلد).

2 - الاعتدال في تقوُّس الجسم.

3 - بدء تشكُّل الوجه وما فيه من العينين، والأذنين، والأنف.

4 - بدء تحديد منطقة العنق وتخلُّق الأقواس البلعومية على جانبيها.

5 - بدء ظهور براعم الأطراف العلوية ثم السفلية وبدء تشكُّل كل منها.

6 - استطالة المعلاق ليكوِّن الحبل السري.

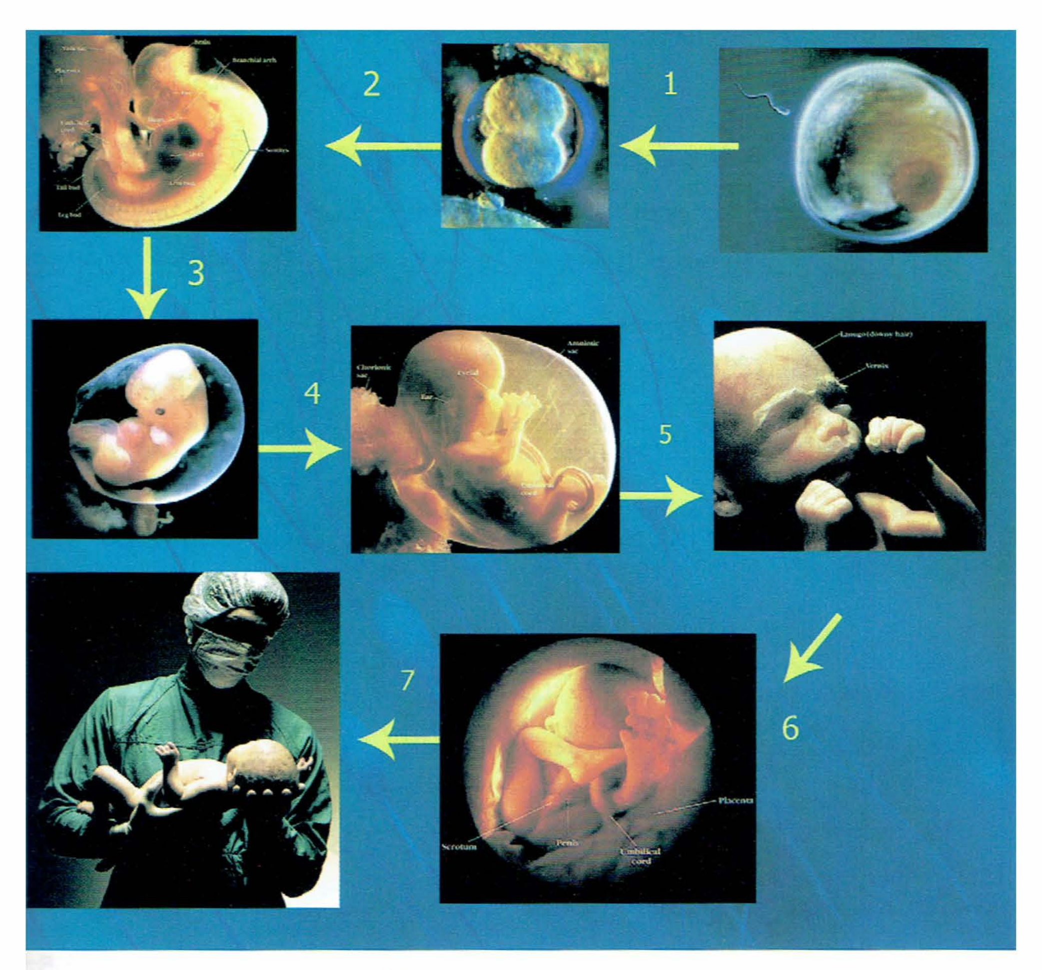
7 - بدء تخلُّق الغدد التناسلية وإن كانت غير مميزة الجنس حتى نهاية هذه المرحلة.

5 - طور النشأة: باكتمال الأسبوع الثامن يصل طول الجنين إلى حوالي (30 مم) ويكون تخلق الهيكل العظمي قد اكتمل وتمت كسوته باللحم (العضلات والجلد) وتكاد الأعضاء الداخلية كلها أن تكون قد اكتملت بشكل أولي، وقد اتخذت مواضعها من جسد الجنين (**Embryo**) فينتقل إلى طور الحميل (**Fetus**) الذي يبدأ مع بداية الأسبوع التاسع (أي بداية الشهر الثالث للحمل) وينتهي بالولادة أي يستغرق أغلب فترة الحمل وتقدَّر بسبعة أشهر كاملة، ولذلك عبَّرت عنه الآية الكريمة باستخدام حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

---

(1) متفق عليه عن أنس رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفيّة الخلق الآدمي... (الحديث: 6667).



مراحل الخلق للجنين البشري من النطفة الأمشاج إلى الولادة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]

ويتميَّز هذا الطور بالنمو السريع المتواصل وببدء اكتساب الملامح البشرية بنها
الشهر الثالث ومن أهم هذه الملامح ما يلي:

1 - زيادة طول الحميل إلى حوالي 90 مم.

2 - اكتمال تخلُّق الوجه والعنق، مع نمو شبكية العين إلى أربع طبقات، مع التصا
الجفنين.

3 - اكتمال تخلق الأطراف وبداية ظهور الأظافر في نهايات الأصابع.

4 - اكتمال تميز أجسام الفقرات.

5 - اكتمال تخلق كل من القلب وغشائه التاموري، والطحال والغدتين فوق الكلوتين (الغدتين الكظريتين).

6 - تمايز الجهازين البولي/التناسلي والشرجي بتمايز غشاء المذراق (**Cloaca**).

ويستمر نمو الحميل في الشهر الرابع باكتمال تغذية العضلات والجلد بالأعصاب المتصلة بالمخ لاستلام الأوامر والتعليمات منه وتنفيذها، وبذلك تبدأ العضلات الإرادية في التحرك، ويبدأ وجه الحميل في اكتساب الملامح الإنسانية المميزة، وتبدأ عضلات الوجه في التعبير عن حالة الحميل الصحية والنفسية. كذلك تتمايز أعضاء التناسل الظاهرة، ويتم استقلال المشيمة بوظيفتها، وتبدأ الأمعاء في التراجع من منطقة الحبل السري إلى تجويف البطن، وتكتمل حاسة السمع حتى يتمكن الحميل من الاستماع إلى الأصوات من حوله وهو في بطن أمه، ويتخلق كل من بصمات الأصابع وخطوط الجبين، ويبدأ زغب خفيف في الظهور على كل من الرأس وبعض أجزاء الجسم.

ومع بداية الشهر الخامس (أي بعد حوالي 120 يوماً من بدء الإخصاب) يتم الاتصال بين المناطق المخية العليا الموجودة في قشرة الدماغ والمناطق السفلية من المخ وبقية الجهاز العصبي، ويكتمل تخلق كل من القلب والكبد، والجهاز التناسلي، كما يكتمل انسحاب الأمعاء إلى تجويف البطن ويبدأ ظهور الشعر بكل من فروة الرأس والحاجبين، وتتم تغطية الجسم بالزغب، وتبدأ الأم الحامل في الإحساس بتحرك حملها في بطنها.

ويزداد معدل نمو الحميل في الشهر السادس لسرعة ملحوظة حتى يصل طوله الكلي إلى حوالي350 مم، ووزنه إلى كيلو جرام كامل، ويغطى جسمه بطبقة دهنية ويزداد حجم السائل الأمنيوسي (الرهل) حوله زيادة كبيرة.

وفي الشهر السابع يكتمل نمو شبكية العين إلى تسع طبقات، ويكتمل تخلق العصب البصري الذي يتصالب في مساره ليكوِّن ما يعرف باسم «التصالب البصري» حتى يصل إلى مؤخر المخ، وتضمر المحفظة الوعائية العدسية وتشق في وسطها مكوِّنة حدقة العين (البؤبؤ)، وتشق الجفون إلى علوية وسفلية وتنمو رموشهما بعد أن يكون قد يتم تخلق كل من مشيمة العين، والقرنية (**Cornea**)، والصلبة (**Sclera**)، والملتحمة (**Conjunctiva**)،

والغدد الدمعية. ويبدأ جسم الحميل في الامتلاء بازدياد سمك الطبقة الدهنية المتجمعة تحت جلده، ويكتمل نمو جهازيه العصبي والهضمي.

وفي الشهر الثامن يغزر شعر فروة الرأس، ويمتلئ الجسم ويزول الزغب عنه، ويتغطى بطبقة دهنية متجبنة، وتصل الأظافر إلى أطراف الأصابع ويكتمل النمو في بقية الـ (266) يوماً من فترة الحمل في زيادة نمو الجسم حتى اكتماله خاصة جهازه التنفسي (الرئتان والجيوب الهوائية).

هذه الفروق الهائلة التي تظهر على الحميل بين نهاية الأسبوع الثامن (**طور تخلُّق العظام وكسوتها باللحم**) ونهاية فترة الحمل (نهاية الأسبوع الثامن والثلاثين من عمر الحميل) عبرت عنها الآية الكريمة التي نحن بصددها باستعمال حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿. . . ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

هذه المراحل المتتالية في خلق جنين الإنسان لا يعرف علم الأجنة لأي منها اسماً محدداً، ولا وصفاً محدداً، ولا يميزها إلا بأيام العمر. وسبق القرآن الكريم بوصفها وتسميتها في مراحلها المتتالية بهذه الدقة العلمية المذهلة، وبهذا الشمول والكمال في زمن لم يكن متوافراً فيه أي من وسائل التكبير أو الكشف المستخدمة اليوم، لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد ﷻ بهذا الحفظ إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها حتى يكون القرآن الكريم حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، وشاهداً للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. وبأنه كان دوماً موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

18 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾ [الحج: 5]

هذا النص القرآني المعجز جاء في أوائل سورة «الحج»، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها ثمانية وسبعون (78) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها بالأمر الإلٰهي إلى نبي الله إبراهيم - على نبينا وعليه من الله السلام - بالأذان في الناس بالحج، وهي السورة الوحيدة من بين سور القرآن الكريم كلها التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة. ويدور المحور الرئيس للسورة حول عدد من التشريعات الإسلامية بالإضافة إلى ركائز العقيدة. وهذه التكاليف يصحبها وعد من الله - تعالى - بنصرة المجاهدين في سبيله، وبالتمكين لهم في الأرض.

وتؤكِّد الآيات في سورة «الحج» تعاظم قوة الله التي لا تحدها حدود، وضعف البشر مهما كان لهم من عدد وعدة، وهزال شركائهم المزعومين أمام قوة رب العالمين. وتستدل الآيات على ذلك بمصارع الغابرين من الكفار والمشركين، والبغاة الظالمين، وبسنن الله فيهم، وهي سنن لا تتوقف، ولا تتبدل، ولا تتخلف، فويل للطغاة الظالمين المتجبرين في الأرض من غضب الله- تعالى -..!

وتبدأ سورة «الحج» بدعوة الناس جميعاً إلى تقوى الله - تعالى -، وتحذرهم من هول الساعة وما يصاحبها من أحداث جسام، وفي ذلك تقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: 1-2].

ثم تحذِّر الآيات من الخوض في الذات الإلٰهية بغير علم، كما تحذر من اتباع الشيطان لأنه يضل من يتبعه، ويقوده إلى عذاب السعير، وتؤكد على حقيقة البعث، بل على حتميته، مستشهدة على ذلك بخلق الإنسان من تراب، ومشبهة بعثه من التراب بإنبات الأرض بعد إنزال الماء عليها، واتخاذ ذلك دليلاً على إمكانية إحياء الموتى، مؤكِّدة أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وتعاود الآيات في سورة «الحج» الحديث عمن يضلهم الشيطان فيدفعهم إلى المجادلة في الذات الإلٰهية بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير ليضلوا غيرهم عن سبيل الله، وتؤكد أن هؤلاء المتجاوزين لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب شديد.

وتشير الآيات إلى أن من الناس من يعبد الله - تعالى - على حرف طمعاً في كريم عطائه فقط، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن ابتلي بفتنة انقلب على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وتحذر الآيات في سورة «الحج» من الشرك بالله - تعالى -، واصفة هذه الجريمة الشنعاء بالضلال المبين، ومؤكدة عجز الشركاء المزعومين عن نفع أو ضر من أشركوهم - زوراً وعدواناً - في عبادة الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

وتؤكد السورة الكريمة أن الله - تعالى -:

﴿... يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: 14].

كما تؤكد تعهُّد الله - تعالى - بنصرة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وبنصرة كل من آمن به في زمانه ومن بعده إلى قيام الساعة، رغم كيد الكائدين، وحقد الحاقدين، وتآمر المتآمرين من الكفار والمشركين في كل وقت وفي كل حين.

وفي التأكيد على قيمة القرآن العظيم يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: 16].

وفي الفصل بين أصحاب المِلل والنِّحل المختلفة في يوم القيامة تفوض الآيات الأمر إلى الله - تعالى -، مؤكدة أن جميع ما في الوجود ومن فيه يسجد لله - تعالى - في عبودية كاملة، وخضوع تام إلا عصاة الإنس والجن، وتوضح الآيات أن هذه العبودية لله والخضوع لجلاله يمثلان قمة التكريم للمخلوقات لأن من يُعرِض عن عبادة ربه من أصحاب الإرادة الحرة فليس له من مكرم في الدنيا ولا في الآخرة. ولذلك مايزت الآيات بين عذاب الكافرين في الآخرة، ونعيم المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأكَّدت أن من ألوان الكفر بالله - تعالى - الصد عن سبيله، وعن المسجد الحرام، والظلم والإلحاد فيه، وقد هدى الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم عليه السلام إلى مكانه، وأمره برفع قواعده، وإعادة بنائه، وعبادة الله - تعالى - فيه، وإفراد الخالق العظيم بالتوحيد الخالص، والعمل على تطهير بيته للطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود كما أمر الله - تعالى - عبده ورسوله إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحج إلى بيت الله يأتوه من كل فج عميق، وبذلك أسست سورة «الحج» لهذا الركن من أركان الإسلام: حج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً، وشرعت لما في هذه الفريضة من تعظيم للبيت الحرام ولشعائر الله - تعالى -.

وحذَّرت الآيات في سورة «الحج» من انتهاك حرمات الله، وأمرت بالحلال من الطعام، وباجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، ودعت إلى الحنيفية السمحة، وحذرت المشركين بالعذاب المهين، وأكدت أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب.

وتعاود الآيات في سورة «الحج» التأكيد على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلى ضرورة الخضوع الكامل لجلاله بالإسلام له، وتأمر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يبشر بخيري الدنيا والآخرة: المتواضعين لله - تعالى -، المطمئنين إلى عدالة حكمه، والذين تخشع قلوبهم بذكره، والصابرين على قضائه، والمقيمين للصلاة في عبادة خالصة له، والمنفقين في سبيله مما رزقهم سراً وعلانية.

وأشارت الآيات في هذه السورة المباركة إلى أن من شعائر فريضة الحج النحر لله - تعالى - إيماناً به، وتقرباً إليه، وتقوى له، فإذا ذبحت البدن بعد ذكر اسم الله - تعالى - عليها أكل منها مقدمها وأطعم السائل وغيره، ولذلك سخرها الله سبحانه وتعالى لهم ومن قبيل شكره - تعالى - على وهب تلك البدن لهم، وعلى هدايته إياهم إلى الدين الحق، قدَّموها خالصة لله - تعالى - وبشَّرهم ربهم بالقبول بقوله - عز من قائل -:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: 37].

ويتكرَّر في سورة «الحج» الإذن بالقتال الدفاعي للذين ظُلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله كما حدث ولا يزال يحدث مع إخواننا الفلسطينيين على مدى قرن من الزمان، ومع كل من إخواننا الأفغان والعراقيين، ومسلمي البلقان، والشيشان، وكشمير، وأراكان، وجنوب الفليبين، وفي شرقي تيمور، وجزر الملوك في إندونيسيا، وفي غرب وجنوب السودان، وفي كل من الصومال، وسبتة، ومليلة، وجزر ليلى من أراضي المغرب العربي، وفي غير ذلك من أراضي المسلمين المستباحة اليوم بالمعتدين الظلمة وأبناء أمة المليار ونصف المليار مسلم يتفرجون، وهم غافلون عن حقيقة أن المخطط الشيطاني حتماً لاحق بهم.. وعلى الرغم من ذلك كله تؤكد الآيات أن الله - تعالى - سوف ينصر من ينصره وهو القوي العزيز، فإذا أردنا دحر كل المعتدين علينا - مهما تعاظمت أسلحتهم، وخبث مكرهم - فعلينا بالرجوع إلى الله - تعالى - بصدق، وهو القادر على أن يرينا فيهم عجائب قدرته، والله على كل شيء قدير.

وفي المقابل تصف الآيات في سورة «الحج» أخلاق أنصار الله - تعالى - إن مُكّنوا في الأرض فتقول:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

ثم توجّه الآيات الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في مواساة رقيقة من رب العالمين، تشد من أزره في مواجهة تكذيب الكفار والمشركين لنبوته الخاتمة ولبعثته الشريفة كما تهون عليه ﷺ استهانة الكفار والمشركين بعذاب الله - تعالى - إلى الحد الذي يدفعهم إلى استعجاله، مؤكدة أن الله - تعالى - لا يخلف وعده، وأن الأمم التي كذبت من قبل أرسل الله - تعالى - إليهم فأهلكهم، وفي ذلك يقول له رب العالمين:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

[الحج: 42-48].

وتطالب الآيات خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأن يعلن للناس جميعاً طبيعة بعثته الشريفة أنه نذير مبين لهم من لدن رب العالمين فتقول آمرة إياه بأمر الخالق العظيم:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

[الحج: 49-51].

وتحذّر الآيات في سورة «الحج» من غفلة الكفار والمشركين - خاصة الذين أوتوا العلم منهم - عن الكم الهائل من الحقائق العلمية والدينية والغيبية في القرآن الكريم،

ومن ترددهم في قبوله، وشكهم وقلقهم من حجيته حتى يوافيهم الموت فجأة وهم في ضلالهم القديم أو يأتيهم عذاب الله في الدنيا وهو عذاب يوم عقيم فتقول:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج: 55،54].

ثم تكرر الآيات في سورة «الحج» التفريق بين جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من نعيم مقيم في الآخرة، وجزاء الذين كفروا وكذبوا بآيات الله أو أشركوا به من عذاب مهين وجحيم دائم، وتؤكد ثواب المهاجرين في سبيل الله، والمجاهدين من أجل إعلاء دينه وإقامة عدله في الأرض، مؤكدة مرة أخرى ما أخذه الله - تعالى - على ذاته العلية من عهد بنصرة كل مظلوم، والقصاص من الظالم مهما أملى له الله سبحانه وتعالى .

واستشهدت سورة «الحج» بعدد من آيات الله في الكون على حقيقة الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله الخالق فوق جميع خلقه، كما تؤكد على شيء من صفات هذا الخالق العظيم لتخلص إلى القول القاطع:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62].

وتؤكِّد الآيات في هذه السورة المباركة على أن خروج بعض الأمم عما جاءهم من الحق، جعل ما بقي من ذراريهم يكرهون الاستماع إلى الحق الذي أنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وفي ذلك يتهددهم الله سبحانه وتعالى بقوله العزيز:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: 72،71].

وتختتم سورة «الحج» بوصية من الله - تعالى - لعباده المؤمنين يوضح لهم فيها حقيقة

الوحي، ويعرض عليهم شيئاً من صفاته العليا، ومن حقوقه - تعالى - عليهم فيقول - عز من قائل -:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 75، 78].

وبذلك تختتم سورة «الحج» التي احتوت قدراً من العبادات والتشريعات المفروضة بالإضافة إلى التأكيد على قدر من ركائز العقيدة الإسلامية كما علَّمها ربنا - تبارك وتعالى - لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأنزلها على فترة من أنبيائه ورسله، وجمعها وحفظها في رسالته الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

من العبادات المفروضة في سورة «الحج»:

1 - إقامة الصلاة.

2 - إيتاء الزكاة.

3 - حج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً، وتعظيم شعائر الله فيه.

4 - الجهاد في سبيل الله دفعاً لظلم الظالمين وحفاظاً على حقوق الناس أجمعين، وإقامة لعدل الله في الأرض.

5 - التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبتقوى الله حق تقاته، والاعتصام بحبله المتين.

6 - التخلص من الشرك بكل صوره وألوانه ومراتبه.

7 - الامتناع عن قول الزور أو العمل به.

8 - محاربة الشيطان ووساوسه، وأعوانه، وجنوده.

9 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان ومكان.

من ركائز العقيدة الإسلامية في سورة «الحج»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً، خالقاً، واحداً أحداً، فرداً صمداً (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد لأن هذه كلها من صفات المخلوقين، والله - تعالى - منزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله)، والتسليم بالغيب المطلق دون الخوض فيه إلا بعلم من الله - تعالى - أو من خاتم رسله ﷺ.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو الحق، وهو القوي العزيز، السميع، العليم، البصير، مالك الملك، الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، والذي يفعل ما يشاء، وهو على كل شيء شهيد، وهو الذي يدافع عن الذين آمنوا، والذي تعهد بنصرة كل من ينصر دينه، وكل من يجاهد من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، وإقامة عدله فيها.

3 - التسليم بأن لله يسجد كل ما في السمٰوات والأرض وكل من فيهما ما عدا عصاة الجن والإنس وإن سجدت ذرات أجسادهم لله - تعالى - رغم أنوفهم، والتسليم كذلك بأن من يُهِن الله فما له من مُكْرِمٍ، وأن إلى الله ترجع الأمور، ثم يفصل بين أصحاب المِلل المختلفة في يوم القيامة.

4 - الإيمان بأن الله - تعالى - يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، وأن من حقه على عباده الإيمان به - جل شأنه - وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان على وجه الخصوص بخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وبالكتاب الخاتم الذي أنزل إليه (القرآن الكريم) والتسليم بأن هذا الكتاب الخاتم مهيمن على جميع الكتب السابقة وناسخ لها بلا استثناء.

5 - اليقين في حقيقة البعث، وحتميته، وبما يتبعه من حساب وجزاء وخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

من الإشارات الكونية في سورة «الحج»:

1 - التأكيد على خلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة

مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقة إلى آخر تلك المراحل - التي لم تعرف إلا بعد اختراع المجاهر في أواخر القرن السابع عشر الميلادي - حتى يخرج إلى الحياة طفلاً، يحيا ما شاء الله - تعالى - له أن يحيا، ثم يتوفَّاه الله سبحانه وتعالى عند نهاية أجله، وإذا امتد به الأجل إلى أرذل العمر ضعفت ذاكرته في أغلب الأحوال حتى لا يعلم من بعد عِلْم شيئاً وفي ذلك كسر لغرور الإنسان بشبابه وعجبه بقوته فيه، وتذكير له بالضعف بعد القوة، وبالحاجة إلى رعاية الله ورحمته في كل وقت وفي كل حين.

2 - الإشارة إلى اهتزاز التربة، وارتفاعها وإنباتها من كل زوج بهيج بمجرد إنزال الماء عليها، وتشبيه بعث الإنسان من قبره بعملية خروج النبات من تربة الأرض، والشبه بينهما قريب جداً.

3 - إثبات نسبية كل من المكان والزمان في منظور الإنسان وما في ذلك من إشارة إلى ضخامة الكون وقدمه انطلاقاً من قول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿... وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].

4 - التعبير عن كروية الأرض، وعن دورانها حول محورها أمام الشمس بولوج كل من الليل والنهار في الآخر.

5 - الإشارة إلى اخضرار الأرض بمجرد إنزال الماء عليها من السماء.

6 - تأكيد حقيقة أن الله - تعالى - يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وأن جميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله - تعالى - طوعاً أو كرهاً، وأن كل ما في الأرض مسخر للإنسان، وكذلك جري الفلك في البحر بأمر الله - تعالى -.

7 - إثبات أن كل المخلوقين أفراداً ومجتمعين، وكل ما عبدوا من دون الله من الأصنام والأوثان يعجزون عجزاً كاملاً عن خلق ذبابة، فضلاً عن عدم إمكانهم استنقاذ ما يسلبه الذباب منهم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأولى في القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الخامسة من سورة الحج والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ

مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾

[الحج: 5].

من الدلالات العلمية للنص الكريم:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿. . . فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ. . .﴾:

هذا النص القرآني المعجز يشمل خلق أبينا آدم عليه السلام من تراب، ونسله جميعاً حتى قيام الساعة كانوا في صلبه لحظة خلقه، ولذلك فإن خلقه من تراب ينسحب على خلق كل فرد من ذريته، لأن كل فرد من بني آدم يرث عن أبويه شيئاً من هذا التراب الأولي الذي خلق منه أبوه الأول، وهذا الشيء الموروث ينمو على دماء أمه وهو في بطنها، والدماء مستمدة من غذائها، المستمد أصلاً من عناصر تراب الأرض، ثم بعد ولادته يفطم على لبن أمه أو على لبن غيرها من المرضعات وهو مستمد أيضاً من غذاء الأم المستمد من عناصر تراب الأرض؛ وبعد فطامه يتغذى الطفل على كل من نبات الأرض والمباحات من المنتجات الحيوانية وكلها مستمدة أصلاً من تراب الأرض. ولذلك فهناك تشابه واضح بين التركيب الكيميائي لكل من جسم الإنسان وتربة الأرض الزراعية، مع زيادة واضحة بجسم الإنسان في كل من عناصر الأوكسجين والهيدروجين المكونين للماء الذي يكون ما بين 60%، 90% من جسم الإنسان - في مختلف مراحل حياته - وعناصر الكربون والفوسفور، والعنصر الأول مستمد بواسطة النبات من الجو لبناء سلاسل الغذاء، والعنصر الثاني مستمد من قدرة كل من النبات والحيوان والإنسان على تركيز عنصر الفوسفور في الجسم لدوره في عملية النمو. من هنا كانت الإشارة القرآنية:

﴿. . . فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ. . .﴾ إشارة معجزة بحق لأنه لم يكن لأحد من البشر إدراك لهذه الحقيقة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ...﴾

بسبب استطالة الزمن بين الخلق من التراب والخلق من النطفة استخدم القرآن الكريم حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي مما يقتضي تأخر ما بعده عما قبله، تأخراً بالذات أو بالمرتبة أو بالوضع. و(**النطفة**) في اللغة العربية هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة أو بضع قطرات، يقال: (نَطِفَ) الرجل (يَنْطِفُ) و(يَنْطُفُ) (نُطفاً) و(نُطَفاناً) بمعنى: يتقاطر منه الماء بعد وضوئه أو غسله. ويقال: (نَطِفَتْ) القربة إذا قطر منها الماء من (النَّطُفِ) بمعنى التقاطر للماء قطرة قطرة. و(النطفة) أيضاً هي الماء الصافي القليل من مثل قليل الماء الذي يبقى في الدلو أو في القربة، ويعرف باسم (النَّطَافَة) وجمعها (نُطَف) و(نِطَاف). ويقال: ليلة (نَطُوفٌ) أي باتت تمطر حتى الصباح. و(النَّطْفُ) الدلو، والواحدة منه (نُطْفَة). وتسمى صغار اللؤلؤ باسم (النُّطَف) تشبيهاً لها بقطرات الماء.

ويستعار (النَّطْف) للكرم وفعل الخير فيقال: فلان (منطف) المعروف أي يتقاطر المعروف منه بمعنى أنه دائم المعروف، و(ينطف) بالخير أي: يندي به إشارة إلى ديمومة ذلك منه.



صورة للحيامين وهي تتوجه نحو البييضة في محاولة لإخصابها.

واستخدم القرآن الكريم لفظة (النُّطْفَة) للتعبير عن خلية التكاثر (**Gamete**) سواء كانت من الأنثى أي: البييضة (**Ovum**) أو من الذكر أي: الحيمن (**Sperm**)، وجمعها (نُطَف) و(نِطَاف). وجاءت بهذا المعنى في اثنتي عشرة آية قرآنية كريمة هي: [النحل: 4، الكهف: 37، الحج: 5، المؤمنون: 13، 14، فاطر: 11، يسٓ: 77، غافر: 67، النجم: 46، القيامة: 37، الإنسان: 2، وعبس: 19].

كذلك سمى القرآن الكريم اتحاد النطفتين التكاثريتين من كل من الأنثى والذكر باسم «**النطفة الأمشاج**» **أي المختلطة** (**Zygote**) في الآية الثانية من سورة الإنسان، وهو أول تعبير علمي دقيق عن تخلُّق الجنين باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، وفي ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله: «... **من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»[1]، وهي حقيقة لم يتوصل العلم المكتسب إلى معرفتها إلا في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي (1775 م/ 1186 هـ). حين أدرك علماء الغرب لأول مرة أنَّ الجنين لا يتكون من ماء الرجل فقط، ولا من ماء المرأة فقط كما كان سائداً منذ عهود الحضارة اليونانية القديمة بل من التقاء المائين، وأوضح لنا علم الوراثة في القرن العشرين أنه بالتقاء النطفتين الذكرية والأنثوية تتكوَّن النطفة الأمشاج (**Zygote**) التي يتكامل فيها عدد الصبغيات المحدد لنوع الإنسان (46 صبغي في23 زوجاً فيها 22 تحمل الصفات الجسدية وزوج يحمل الصفات الجنسية وهما (**X+X**) في الأنثى، و(**X+Y**) في الذكر.

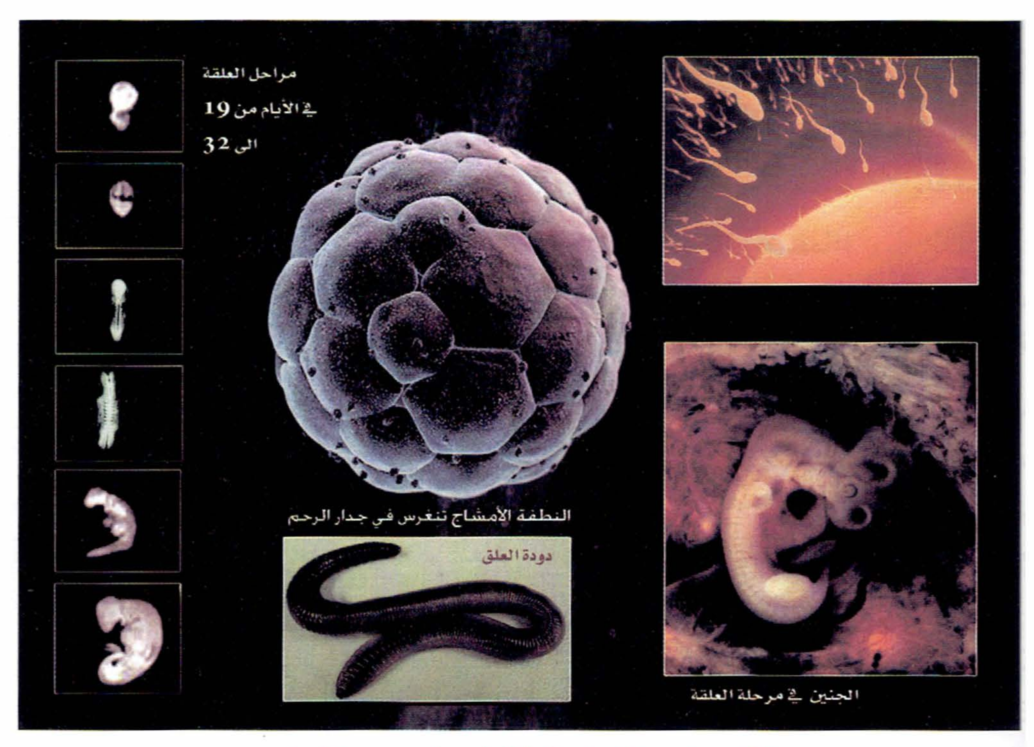
و«النطفة» المقصودة في الآية الخامسة من سورة «الحج» هي «النطفة الأمشاج» أي المختلطة والناتجة من اتحاد نطفتي الأب والأم وذلك لذكر المراحل المتتالية من خلق الجنين بعدها مباشرة.

ويتم إخصاب النطفة المؤنثة (البييضة) في الغالب بنطفة ذكرية واحدة (أي بحيوان منوي واحد) وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**ما من كل الماء يكون الولد**»[2]. وبعد إتمام عملية الإخصاب تبدأ النطفة الأمشاج بالانقسام السريع إلى خلايا أصغر فأصغر حتى تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا الأرومية تعرف باسم «**التويتة**» أي التوتة الصغيرة (**Morula**)، ثم تنشط التويتة مُكَوِّنة ما يعرف باسم «**الكيسة الأرومية**» (**Blastocyst**) التي

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).



شكل يوضح المراحل المتتالية في خلق جنين الإنسان.

تبدأ بالانغراس في جدار الرحم مع اليوم السادس من الإخصاب، وتعرف هذه المرحلة باسم «**مرحلة الغرس أو الحرث**» (**Implantation**) وتستغرق أسبوعاً كاملاً حتى يتم انغراس النطفة الأمشاج العديدة الانقسام (الكيسة الأرومية) في جدار الرحم فتنتقل من طور النطفة إلى «طور العلقة»، وطول النطفة يتراوح بين 0,1 من المليمتر إلى 0,68 من المليمتر؛ ووَصْف كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لهذا الطور الدقيق جداً الذي سماه: «النطفة» في زمن لم يكن متوافراً للإنسان أي وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف، يعتبر سبقاً علمياً لم يتوصل إليه العلم المكتسب إلا بعد اثني عشر قرناً من تنزل القرآن الكريم، (في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي أوائل القرن الهجري الثاني عشر).

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿...ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾:

في حوالي اليوم الخامس عشر من تاريخ الإخصاب يبدأ ظهور خيط دقيق على ظهر النطفة الأمشاج المنقسمة والمتعلقة بجدار الرحم (الكيسة الأرومية) والمتكونة من طبقتين فقط: طبقة خارجية وطبقة داخلية. ومن هذا الخيط الدقيق الذي عرف فيما بعد باسم

«الشريط الابتدائي» (The Primitive Streak) أو «الشريط الأولي» (The Primary Streak) تتخلق الطبقة الوسطى وهي منشأ كل أجهزة الجسم التي تبدأ في التخلق بالتدريج حتى يتم تكون كل أعضاء وأجهزة الجنين، وعند ذلك ينسحب الشريط الأولي إلى نهاية العمود الفقري.

وفي خلال أسبوعين تتم عملية التعلق بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري، وباطراد النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكون الأجهزة وفي مقدمتها كل من الجهاز العصبي (ممثلاً بالحبل الظهري) والجهاز الدوري، يستطيل الجنين في بدء الأسبوع الثالث من عمره (في اليوم الحادي والعشرين إلى الخامس والعشرين من تاريخ الإخصاب) ليأخذ شكل دودة العلق في هيئتها، **وفي تعلقها بجدار** الرحم (تماماً كما تتعلق الدودة بجسم العائل الذي تتطفل عليه)، **وفي تغذيته** على دم الأم (تماماً كما تتغذى دودة العلق على دم الحيوان الذي تعلق به في مياه البرك حيث تعيش). ولذلك فإن الوصف القرآني لهذا الطور بكلمة «**العلقة**» في زمن لم يكن متوافراً للإنسان أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لطور يتراوح طوله بين 0,7 من المليمتر إلى 3,5 مليمتر يعتبر أمراً معجزاً حقاً. ومن المعجز أيضاً استخدام القرآن الكريم لحرف العطف (**ثم**) الذي يفيد الترتيب مع التراخي، **وذلك للتعبير عن الفترة الزمنية المنقضية ما بين** طور «**النطفة الأمشاج**» و«**طور العلقة**» (من اليوم السادس إلى الخامس عشر في طور «النطفة الأمشاج» وحتى الخامس والعشرين في طور «العلقة»).

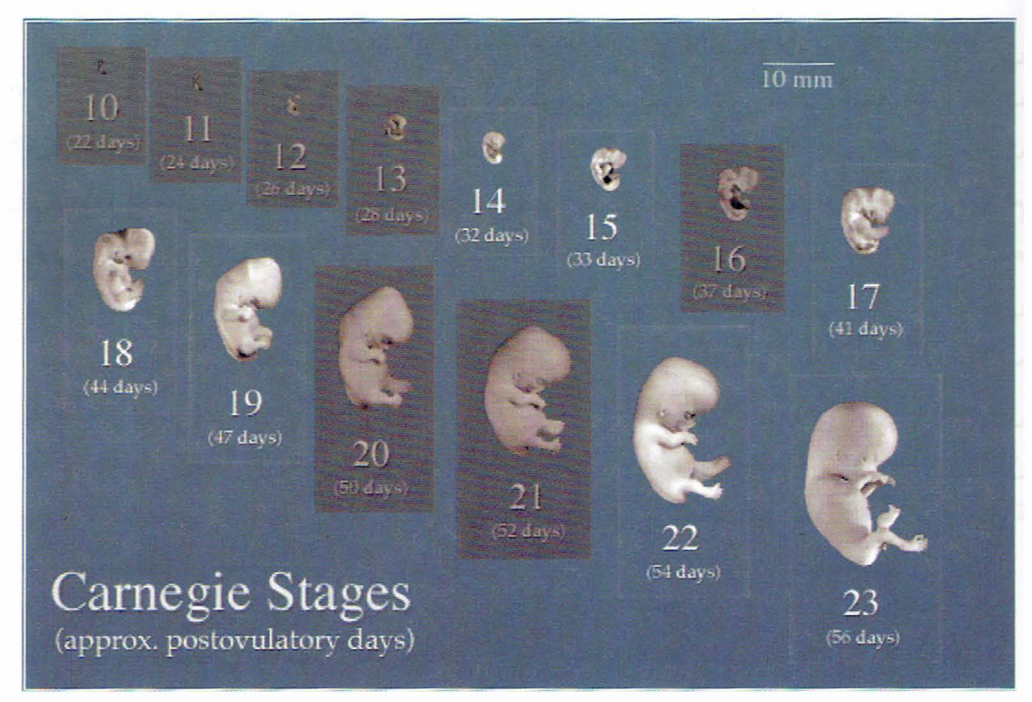
رابعاً: في قوله - تعالى -: ﴿... ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾:

في منتصف الأسبوع الرابع (في اليوم 24 - 26 من تاريخ عملية الإخصاب) تبدأ «**العلقة**» في التحول إلى طور جديد سماه القرآن الكريم باسم «**المضغة**»، وذلك ببدء ظهور الفلقات المعروفة باسم «**الكتل البدنية**» (**Somites**) والتي تبدأ بفلقة واحدة ثم تتزايد إلى ما بين 40، 45 فلقة وذلك مع تمام الأسبوع الرابع إلى بداية الأسبوع السادس من تاريخ الإخصاب (في اليوم 26-42 من عمر الجنين). ونظراً إلى تعدد تلك الكتل البدنية فإن الجنين يبدو وكأنه قطعة لحم ممضوغة بقيت عليها طبعات الأسنان واضحة، كما تبقى على قطعة من العلك الممضوغ. ومع استمرار نمو الجنين تبدو هذه الفلقات في تغير مستمر مثلما تتغير طبعات الأسنان في المادة الممضوغة باستمرار مضغها، ويصحب ذلك شيء من الانتفاخ والتغضن والتثني **في الجنين الذي لا يكاد يتعدى طوله 13 مم**.

في نهاية مرحلة «**المضغة**»، تماماً كما يحدث في قطعة العلك الممضوغة، ومن هنا كان الإعجاز القرآني في تسمية هذا الطور باسم «**المضغة**»، لأن المضغة لغة: هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، أو التي مضغت ولاكتها الأسنان تاركة طبعاتها عليها.

وعمر **طور** «**المضغة**» يتراوح بين26 يوماً و42 يوماً، ويتراوح طول الجنين في هذا الطور بين3 مم، 13 مم.

ومن الملاحظ أن جميع أجهزة الجسم تتخلق على هيئة براعم في طور المضغة، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ والمقصود بتعبير (**المخلقة**) أي: التي بدأت الأعضاء تتخلق فيها، وبتعبير (غير المخلقة) هو السقط، أو الجنين الذي لم يكتمل نموه، أو الذي يعاني شيئاً من التشوه الخلقي، كما قال بعض المفسرين وبعض الأطباء المعاصرين، وإن فسر البعض الآخر تعبير (**غير المخلقة**) بالخلايا الخارجية المحيطة بالجنين والمعروفة باسم (الأرومة المغذية) وهي مجموعة من الأنسجة تتحدد وظيفتها في التعلق بجدار الرحم وتغذية الجنين، وليست جزءاً من الجنين، وفسرته مجموعة ثالثة بما يعرف باسم «**الحمل غير الجنيني**» الذي توجد فيه



شكل يوضح مراحل الجنين البشري وحجمه التقريبي بالمليمترات في الأسابيع الثمانية الأولى من عمره.

حويصلة الحمل بعيداً عن الجنين فتضمر المضغة وتنكمش حتى تموت، وتصنف هذه الحالة ضمن حالات السقط أو الإجهاض، وفسر آخرون تعبير (**غير المخلقة**) بغير ذلك، ولكن يكاد الإجماع أن يكون على أنه السقط استناداً إلى قول ابن مسعود ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة، وقذفها الرحم دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: يا رب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ وما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأي أرض تموت؟**»[1].

ومن أروع صور الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله عن حذيفة بن أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وعظامها ولحمها وجلدها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»[2].

وما أخرجه كذلك عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»[3].

وتثبت دراسات الأَجِنَّة البشرية أن وجه الجنين لا تبدو عليه الملامح الإنسانية إلا في اليوم الثاني والأربعين من عمره، وأن الخطوات الرئيسة التي تعطي المضغة بدايات الشكل الإنساني تكتمل بين الأيام الأربعين إلى الخامس والأربعين من عمر الجنين حيث يتم تكوُّن الأعضاء وانتشار الهيكل العظمي بصورة واضحة مع استمرار النمو بالانقسام الخلوي والتمايز الدقيق للأعضاء والأجهزة. فبعد اكتمال طول المضغة يبدأ طور «**إنشاء الهيكل العظمي**» ويتم ذلك بين اليومين الثالث والأربعين والتاسع والأربعين ويكون طول الجنين بين 14مم، 20مم، ثم يبدأ طور «**كساء الهيكل العظمي باللحم**» (**العضلات والجلد**)، ويتم ذلك بين اليوم الخمسين والسادس والخمسين، ويكون طول الجنين بين 22، 31مم. وتمثِّل الفترة من اليوم الأربعين إلى السادس والخمسين من عمر الجنين مرحلة «**التصوير**» بالهيئة الإنسانية ومرحلة «**التسوية**». وتتمايز فيها كل أعضاء وأجهزة

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6668).
(2) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6670).
(3) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6667).

الجسم ما عدا غدد التكاثر التي يتم تكوينها من بداية الأسبوع التاسع إلى آخر فترة الحمل، ويتراوح فيها طول الجنين بين 58مم، 500مم، وقد سماها القرآن الكريم باسم **(مرحلة النشأة)**، ويبدأ فيها الجنين النمو ببطء حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، ثم يتسارع معدل النمو والتغير في الهيئة حتى نهاية الأسبوع الثاني والعشرين.



شكل يوضح جنين في أسبوعه السابع (49 يوماً).

خامساً: في قوله تعالى: ﴿... لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى...﴾

سادساً: في قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ...﴾

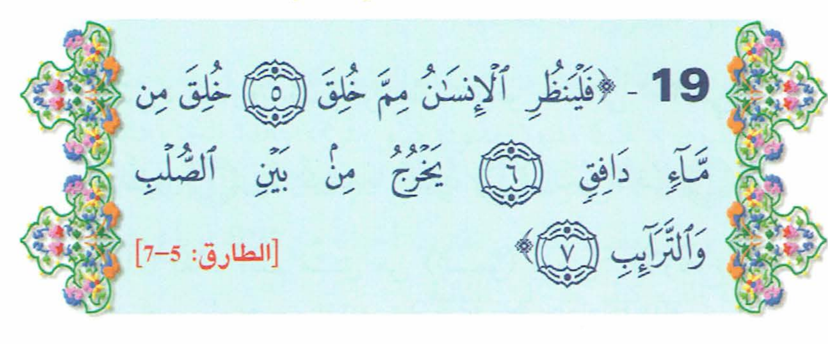
سابعاً: في قوله تعالى: ﴿... وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ...﴾

وفي ذلك تقول الآية الخامسة من سورة «الحج»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: 5].

وهذه الحقائق لم تدرك إلا مع نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، ولم تستكمل إلا مع نهايات القرن العشرين، وسبق كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بها، وبهذه الدقة العلمية المتناهية في زمن لم تتوفر للإنسان أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لممّا يقطع بربانية القرآن الكريم وبنبوة الرسول الخاتم الذي تلقاه فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



19 - ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾ [الطارق: 5-7]



هذه الآيات القرآنية الكريمة الثلاث جاءت في أواخر النصف الأول من سورة «الطارق»، وهي سورة مكية، وآياتها سبع عشرة (17) بعد البسملة، وقد سمّيت بهذا الاسم لورود القَسَم في مطلعها بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: 1]، ويبدو - والله أعلم - أن المقصود بالطارق هو: النجم الراديوي من مثل النجوم النيوترونية النابضة، وأشباه النجوم، وكل واحد من هذين النوعين من أجرام السماء يطلق كمية هائلة من الإشعاعات الراديوية التي تطرق صفحة الغلاف الغازي للأرض بطرقات متلاحقة تشبه صوت ضربات الطارق على الباب، وتثقب صمت هذا الغلاف الغازي بنبضاتها السريعة المترددة. وكل من النجوم النيوترونية وأشباه النجوم هي من مراحل احتضار النجوم وانكدارها التي لم تكتشف إلا في الستينيات من القرن العشرين (1963م بالنسبة لأشباه النجوم، 1968م بالنسبة للنجوم النيوترونية النابضة). وسَبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الطوارق (النجوم الراديوية) من قبل ألف وأربعمائة سنة لهو بحقٍّ من الشهادات الناطقة بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد سبحانه بحفظ كتابه الخاتم (القرآن الكريم) حفظاً مطلقاً حتى يكون هادياً للعالمين وحجة على

الناس كافة إلى قيام الساعة، وذلك بعد انقضاء النبوة وانقطاع الوحي السماوي عن الأرض.

وتبدأ سورة الطارق بقَسَمٍ من الله - وهو - تعالى - الغني عن القسم - يقول فيه:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: 1-3].

و(السماء) لغة: اسم مشتق من (السموّ) بمعنى: الارتفاع والعلو. وعلى ذلك فإن (سماء) كل شيء أعلاه، ولذلك قيل: كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ويقال: فلان لا (يسامي) أي: لا يباري، وقد علا من (ساماه) أي: سبق الذي باراه، ويقال: (تساموا) أي: تباروا في اكتساب المعالي (عادة). ولفظة (السماء) في العربية تذكَّر وتؤنَّث، وإن اعتبر تذكيرها شاذاً. وجمعها (سمٰوات) و(أسمية) و(سماوٍ) و(سِمِيّ)، وإن كان أشهرها ذيوعاً هو: (سمٰوات) الذي جاء في القرآن الكريم. وانطلاقاً من هذا التعريف قيل لسقف البيت: (سماء) لارتفاعه، وقيل للسحاب: (سماء) لعلوه.

و**(السماء)** هي كل ما يقابل الأرض من الكون، والمراد بها ذلك العالم العلوي من حول الأرض، الذي يضم مختلف الأجرام السماوية من الكواكب، والكويكبات والأقمار، والمذنبات، والنجوم، وأشباهها، ومختلف تجمعاتها، وغير ذلك من مختلف صور المادة والطاقة (الواضحة الجلية، أو المستترة الخفية) المنتشرة بينها وفي كل من المكان والزمان المحيطين بنا من السماء الدنيا. أمّا باقي السمٰوات السبع فلولا أن الله - تعالى - قد أخبر عنها في محكم كتابه، ولولا أن خاتم أنبيائه ورسله ﷺ قد جابها في ليلة الإسراء والمعراج؛ ما كان أمام الإنسان من سبيل إلى التعرف عليها. وقد خلق الله - تعالى - السمٰوات وهو خالق كل شيء ورفعها بعمد غير مرئية، وجعل لها عُمَّاراً من الملائكة، وممّا لا نعلم من الخلق غيرهم، وحرسها من كل شيطان مارد من الجن أو الإنس، فهي محفوظة بحفظه سبحانه وتعالى إلى أن يرث الكون بجميع من فيه وما فيه.

وقد جاءت لفظة **(السماء)** في القرآن الكريم في ثلاثمائة وعشرة موضعاً، منها مائة وعشرون بالإفراد **(السماء)**، ومائة وتسعون بالجمع **(السمٰوات)**، كذلك جاءت الإشارة إلى البينية الفاصلة للسمٰوات عن الأرض بتعبير **(السمٰوات والأرض وما بينهما)** في عشرين موضعاً من تلك المواضع مما يؤكد مركزية الأرض من السمٰوات، وهو ما لا

تستطيع العلوم المكتسبة أن تقول فيه شيئاً بالإثبات أو النفي لضخامة أبعاد الكون من حولنا بصورة لا يكاد العقل البشري أن يتخيلها.

ويقدِّر علماء الفلك قطر الجزء المدرك من السماء الدنيا بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية (24 بليون × 5,9 مليون مليون كيلو متر)، وهذا الجزء دائم الاتساع إلى نهاية لا يعلمها إلا الله ﷻ، وبسرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها، وذلك لأن سرعة تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية.

والجزء المدرك من السماء الدنيا يضم ما بين مائتي ألف مليون مجرة وثلاثمائة ألف مليون مجرة من أمثال مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبنى والتي تضم أكثر من مليون مليون نجم كشمسنا)، وبعض هذه المجرات أكبر من مجرتنا كثيراً، وبعضها أصغر قليلاً، وكما أن لشمسنا توابع من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنبات، وغير ذلك من الأجرام، فلا بد أن يكون لكل نجم من بلايين البلايين من نجوم السماء الدنيا توابعه. **وتترتب النجوم بتوابعها في المجرات**، وتترتب هذه في **التجمعات المحلية**، والتي تترتب بدورها في **الحشود المجرّية**، ثم في **تجمعات محلية للحشود المجرّية**، ثم في **حشود مجرّية عظمى**، ثم في **تجمعات محلية للحشود المجرية العظمى** إلى ما هو أكبر من ذلك حتى نهاية السماء الدنيا التي لا يعلمها إلا الله ﷻ. من هنا كانت أهمية القَسَمِ بالسماء في مطلع سورة «الطارق» لأن الله - تعالى - غنيٌّ عن القسم لعباده.

وتعطف الآية الأولى من سورة «الطارق» على القسم بالسماء قسماً آخر بالطارق. و(**الطارق**) اسم فاعل من الطَّرْقِ بمعنى الضرب بشدة، وأصل (الطَّرْق) الدَّقّ، ومنه سميت (المِطْرَقة) التي يُطْرَق بها، وجمع (الطارق) (الطُّرُق) و(الأطراق)، ومؤنثه (الطارقة)، وهي أيضاً الداهية، وجمعها (الطارقات) و(الطوارق). و(طَرَقَ) الحديد أي مدّه ورقّقه، وهذا هو الأصل، ولكن استخدمت اللفظة مجازاً لتدل على (الطريق) أي السبيل. لأن السابلة تطرقه بأقدامها، ثم صارت اسماً لسالك الطريق باعتبار أنه يطرقها بقدميه أيضاً، ولفظة (الطريق) تذكَّر وتؤنَّث، وجمعها (أَطْرِقة) و(طُرُق).

كذلك استخدم لفظ (الطريقة) بمعنى الوسيلة أو الحالة، واستخدم (الطرق) و(المطروق) للإشارة إلى ماء المطر الذي (تطرقه) الإبل بأقدامها بعد سقوطه على

الأرض. واستخدم لفظ (الطارق) على سبيل المجاز للتعبير عن كل قادم بليل، فسمي قاصدِ الليل: (طارقاً) لاحتياجه إلى طرق الأبواب المغلقة. يقال: (طَرق) فلان القوم (طَرْقاً) و(طُروقاً) أي: أتاهم ليلاً. ويؤيده قول رسول الله ﷺ: «....**إلَّا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن**»[1]. ثم اتسع هذا الاستعمال المجازي ليشمل كل ما ظهر بليل، وقيل: إنما سمي النجم (طارقاً)، لأنه يُرى بالليل، ويختفي بالنهار. ثم زيد في توسيعه حتى أُطلق لفظ (الطوارق) على الصور الخيالية البادية لبعض الناس بالليل. و(طريقة القوم) و(طرائقهم) أماثلهم وخيارهم، و(الطرائق) و(الطُّرق) هي الفرق، و(الطَّرق) أيضاً هو الضرب بالحصى وهو من الكهانة والتكهّن، و(الطرّاق) هم المتكهنون، و(الطوارق) هن المتكهنات.

والوصف القرآني بـ (**الطارق**) ينطبق على نجوم في صفحة السماء الدنيا تعتبر مصادراً للإشعاع الراديوي المنتظم الذي يطرق غلافنا الغازي بشدة. ومن أهمها: **النجوم النيوترونية النابضة (النابضات أو النوابض)** وهي نجوم ذات أحجام صغيرة، ولكنها ذات كثافة عالية جداً وجاذبية فائقة، تدور حول محورها بسرعات مذهلة لتتم دورتها فيما يتراوح بين أقل من واحد من ألف من الثانية وبضع ثوانٍ معدودة، مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية وغيرها من صور الطاقة ولذلك تعرف باسم «**النوابض الراديوية**» (**The Radio Pulsars**). وقد يصل عدد نبضات بعض هذه الطوارق إلى قرابة الألفين (1968) نبضة في الثانية. ويعتقد أن النابض الراديوي يطلق نبضة واحدة من تلك النبضات أو الموجات الراديوية في كل دورة كاملة حول محوره. ومن رحمة الله بنا أن أقرب النوابض الراديوية إلينا يبعد عنا بمسافة خمسة آلاف من السنين الضوئية، ولو كان على نصف هذه المسافة منّا لكان لنبضاته المتسارعة آثارها المدمرة على الأرض.

ومن مصادر الإشعاع الراديوي المتميز أيضاً ما يعرف اليوم في علم الفلك باسم «**أشباه النجوم**» (**The Quasars**)، وهي أجرام سماوية شديدة الرقة، متناهية البعد عنا، وضعيفة الإضاءة جداً (ربما لبعدها الفائق عنا) ومنها ما يطلق أقوى الموجات الراديوية التي تصل إلى الأرض، ولذا تعرف باسم «**أشباه النجوم المصدرة للموجات الراديوية**».

(1) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» في كتاب: الشعر، باب: ما يؤمر به من التعوذ (الحديث: 1822).

وأشباه النجوم هذه هي أجرام سماوية ذات كثافة رقيقة جداً تقدر بحوالي واحد من ألف تريليون من الجرام للسنتيمتر المكعب، وهي تتباعد عنا بسرعات فائقة، وتعتبر أبعد ما قد تمَّ رصده من أجرام السماء بالنسبة لنا حتى اليوم، وتبدو وكأنها على أطراف الجزء المدرك من السماء الدنيا تطرق أبوابها بنبضاتها لتوصل إشاراتها الراديوية إلينا كطرقات منتظمة على الغلاف الغازي للأرض، **وقد تم الكشف عن حوالي ألف وخمسمائة من أشباه النجوم على أطراف الجزء المدرك لنا من الكون، ويتوقع الفلكيون وجود آلاف أخرى منها لم تُكتَشف بعد.**

وكل من «**النجوم النيوترونية النابضة**» و«**أشباه النجوم الراديوية**» يعتبر من أهم المصادر الراديوية التي تمطر سماء أرضنا بنبضاتها المتلاحقة وبسرعاتها الفائقة، وكأنها الطرقات المدوّية التي تقطع صمتها، وتثقب تماسكها وظلمتها ومن هنا كان الاستنتاج بأنها المقصودة بتعبير (**الطارق النجم الثاقب**) والله - تعالى - أعلم.

وبعد القسم بكل من: «والسماء والطارق»، وفي القسم بهما تفخيم لشأنهما لدلالة كل منهما على بديع صنع الله الخالق في الكون، وعلى إحاطة علمه، وكمال حكمته، وعظيم قدرته، بعد ذلك مباشرة تتوجه الآية الثانية من هذه السورة المباركة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - بالسؤال التالي: (**وما أدراك ما الطارق؟**) والسؤال كما هو موجّه إلى رسول الله ﷺ، موجّه إلى كل قارئ للقرآن الكريم، ومعناه: أيُّ شيء وصل إلى إدراكك عن الطارق؟ لأنه لم يكن لأحد من الخلق قبل الستينيات من القرن العشرين إلمام بشيء عن هذه الأجرام السماوية العجيبة التي ترسل بموجات من الإشعاعات الراديوية إلى سماء الأرض تطرق صفحتها كما يطرق قادم بليل الباب المغلق كي يفتح له، ولذلك فسرت الآية الثالثة طبيعة هذا الطارق بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] أي: الذي يثقب صمت السماء بطرقاته المنتظمة السريعة المتلاحقة، أو يثقب ظلمة السماء بما ينفثه فيها من مختلف صور الطاقة الأخرى المصاحبة للموجات الراديوية، فحدد صفة الطارق بأنه نجم، وأنه ثاقب، وهاتان صفتان تتطابقان مع كل من النجوم وأشباه النجوم الراديوية والتي لم تدرك إلا في أواخر الستينيات من القرن العشرين، وسَبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إليها هو من معجزاته العلمية القاطعة، ومن الشهادات المقنعة بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، والمثبتة للنبوة والرسالة لسيدنا محمد الذي تلقاه - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين -.

وبعد ذلك يأتي جواب القسم: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4]. أي: إن كل نفس عليها من الله - تعالى - حافظ من الملائكة موكل بها، يحفظها بأمر الله ﷻ، ويحفظ عنها أعمالها وأقوالها بأمر الله كذلك، ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر، في مراقبة دائمة من لحظة الرشد إلى لحظة الممات. وعدى اسم الفاعل (حافظ) بحرف الجر (على) ليفيد معنى القيام الشامل، والإحصاء التام. و(لمّا) تستعمل علماً للظرف، والتشديد في (لمّا) فيه (ما) زائدة للتوكيد، و(إنْ) مخففة من الثقيلة (إنّ)، واسمها محذوف.

ولتأكيد هذه الحقيقة الغيبية دعت الآيات - بعد ذلك - الإنسان إلى النظر في أول نشأته حتى لا يطغيه شيء من الكبر أو التعالي على الخلق، وحتى يعلم أن من أنشأه هذه النشأة قادرٌ على أن يجعل عليه حافظاً من الملائكة، وقادر على إعادة بعثه بعد موته، وعلى محاسبته وجزائه في يوم تُكَشَّفُ كل المكنونات مما أُسِرَّ في القلوب من العقائد والنيات، وما أُخْفِيَ من الأعمال والأقوال والتصورات. وابتلاء السرائر هو الكشف عن خفاياها وإظهارها مهما أخفيت، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)﴾ [الطارق: 5-10].

وخـلق الإنسان: ﴿... مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)﴾ من الحقائق العلمية التي لم تكشف عنها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في سياق الاستشهاد على حتمية البعث والرجوع إلى الله - تعالى - هو من قبيل تأكيد طلاقة القدرة الإلٰهية على تحقيق ذلك في الحالين: وقت خلق الإنسان ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)﴾ ووقت رجوعه إلى ربه حين الاحتضار، وأثناء رقدة القبر، وحين البعث ووقت الحساب وكلها أوقات لا يمتلك الإنسان أثناءها قوة في نفسه ولا يجد له ناصراً من حوله يمكن أن يتصوره عوناً له في الامتناع عن قدر الله وحكمه.

ثم تتبع الآيات بقَسَمَيْن آخرين من الله - تعالى - وهو الغني عن القَسَم لعباده يقول فيهما: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12)﴾ [الطارق: 11،12] ورَجْع السماء هو قدرتها على إرجاع النافع المفيد من مختلف صور المادة والطاقة التي ترتفع إليها من الأرض إلى ذلك الكوكب المبارك مرة أخرى وذلك من مثل: صدى الصوت، المطر، الرجع الحراري بعد غروب الشمس، عودة الغبار المرتفع بواسطة الرياح من الأرض

إليها، وانعكاس موجات البث الإذاعي والتلفازي على سطح النطاق المتأين من الغلاف الغازي للأرض ورجوعه مرة أخرى إلى أماكن توجيهه ولولا ذلك ما تمكن الإنسان من أي بث إذاعي أو تلفازي أو اتصال أو لاسلكي، وغير ذلك من صور الرجع الداخلي. . وقدرة سماء الأرض أيضاً على إرجاع الضار المهلك من صور المادة والطاقة التي تهبط من السماء في اتجاه الأرض إلى فسحة السماء مرة أخرى وذلك من مثل: الزائد من حرارة الشمس الذي ترده السحب، والأشعة فوق البنفسجية وتردها طبقة الأوزون، والأشعة الكونية ويردها كل من النطاق المتأيّن وأحزمة الإشعاع الموجودة فيه وغيرها. وتحصي العلوم المكتسبة اليوم أكثر من عشر صور لرجع السماء بشكليه الداخلي العائد إلى الأرض، والخارجي المندفع بعيداً عنها جمعتها هذه السورة الكريمة في كلمة واحدة هي (الرَّجْع)، وقد يرى القادمون من بعدنا في هذه اللفظة (الرجع) ما لا نراه نحن الآن.

والقَسَم بـ: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12] يشمل انصداع التربة عن النبات وعن أجساد الأموات يوم البعث، كما يشمل شبكة الصدوع التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة والتي يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس، ممتدة لعشرات الآلاف من الكيلومترات في مختلف الاتجاهات، وبأعماق تتراوح بين 60 كم - 65 كم في صخور قيعان جميع محيطات الأرض وقيعان أعداد من بحارها، وبين 100 كم - 150 كم في صخور اليابسة لتشكل صمّام أمن للأرض تنطلق منه الطاقة الزائدة عن حاجتها والناتجة من تحلل العناصر المشعّة الموجودة في داخل الأرض. ولولا تلك الشبكة الهائلة من الصدوع والمتصلة ببعضها البعض وكأنها صدع واحد لانفجرت الأرض على هيئة قنبلة ذرية كبيرة منذ اللحظة الأولى لتيبس قشرتها؛ ومن هنا كانت أهمية ذلك الصدع لاستقامة وجود الأرض وجعلها صالحة للعمران بالحياة، ولذلك جاء هذا القسم الإلٰهي المغلظ به - والله تعالى غني عن القسم لعباده - جاء تنبيهاً لنا إلى أهمية الأمر المُقْسَم عليه ألا وهو صدع الأرض. ويأتي جواب القسم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق: 13، 14].

أي إن القرآن الكريم المشتمل على هذه السورة المباركة، وعلى ما جاء فيها من أمور الغيب، وحقائق الكون، هو (قول فصل) يفصل بين الحق والباطل، بل هو الفصل ذاته، الذي ليست فيه شائبة من شوائب الهزل، لأنه قاطع في فصله، جاد، حازم في حكمه، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله،

وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ الإلٰهي إلى ما شاء الله، في حين ضاعت كل أصول صور الوحي السابقة ضياعاً تاماً، وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى قدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الربّاني، وجعلها عاجزة كل العجز عن هداية أتباعها الذين تسببوا في أغلب الحروب والمآسي والكوارث والانهيارات الإنسانية التي عانت منها البشرية كلها ولا تزال، باسم أديانهم، والدين منهم بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

وتختتم سورة «الطارق» بأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وللقلة التي آمنت به في مكة المكرمة، وللمؤمنين به من بعد ذلك في مختلف بقاع الأرض وحتى قيام الساعة أن يمهلوا الكافرين قليلاً، وألا ييأسوا من النصرة عليهم. وقد كان ﷺ وكان المؤمنون به ولا يزالون يعانون كيد الكفار والمشركين ومؤامراتهم الحقيرة ودسائسهم الخفية والمعلنة، وعقاب الله - تعالى - واقع بالكافرين لا محالة، وانتقامه منهم نازل بهم دون أدنى شك. فالله القادر، القاهر، العزيز، الجبار، المنتقم، المهيمن على الكون بأسره وعلى كل من فيه وما فيه يقابل كيد الكافرين الهزيل بكيد منه متين، وشتان بين كيد الكفار والمشركين والطغاة المتجبرين في الأرض مهما تعاظم، وكيد رب العالمين الذي لا رادّ له ولا دافع، والله يمد لأعدائه من قبيل استدراجهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر من حيث لا يعلمون فيهلكهم كما أهلك أمثالهم من قبل، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - في ختام سورة الطارق:


﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

[الطارق: 15-17].

وهذا الخطاب الإلٰهي إلى رسول الله ﷺ وإلى جميع المؤمنين به - في زمانه ومن بعده إلى يوم الدين - فيه من دواعي التثبيت على الحق، والتطمين بالنصر والتمكين لعباد الله الصالحين ما فيه، وفيه من مبررات التهوين من كيد كل الطغاة المتجبرين في الأرض من أمثال الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، ومن أمثال الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين ومؤيديه من الأشرار - مهما تعاظم كيدهم، وعلا صوتهم - لأنه كيد واهن ضعيف مؤقت إلى حين. وفي كل ذلك ما يدفع المؤمنين في كل زمان ومكان إلى اليقين بقدرة الله الغالبة لكل قدرة، والاعتماد عليه وحده دون غيره، بعد الأخذ بكل ما

في الإمكان من أسباب، والثقة بنصره لعباده المؤمنين لأن الله -تعالى - بيده وحده مقاليد كل شيء، وهو وحده رب هذا الكون ومليكه، ومدبر أموره ومصرف شؤونه، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة به إلى أحد، ولا إلى الصاحبة والولد، وكيده متين، وكيد أعدائه واهن ضعيف حزين أمام سلطان رب العالمين، ولكن الناس يستعجلون.

من الدلالات العلمية للآيات القرآنية الثلاث:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: 5].

جاءت الإشارة إلى خلق الإنسان في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم منها:

1 - ما جاء في خلقه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59، الحج: 5، الروم: 20، فاطر: 11، غافر: 67، الكهف: 37].

2 - و﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2، السجدة: 7، الأعراف: 11 -12، الإسراء: 61، صٓ: 71 - 76].

3 - و﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12–14].

4 - و﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: 11].

5 - و﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26–33].

6 - و﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14].

7 - و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [طه:55، النجم:33، نوح:18 –17، هود:61].

8 - و﴿مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:20].

9 - و﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6].

10 - و﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الفرقان: 54].

11 - و﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل:4، النجم:45 – 47، القيامة :37 – 40، عبس:17 – 19].

12 - و﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 2].

13 - و﴿مِّن نَّفْسٍ﴾ [النساء:1، الأعراف:189، الروم:21، الزمر:6، لقمان:28].

وهذه كلها مراحل في الخلق من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى آخر إنسان يخلق على سطح

الأرض، وهي مراحل يتمم بعضها بعضاً، وتشهد لله الخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

وهذه المراحل تؤكد في نفس الوقت حقارة نشأة الإنسان الأولى التي لا تزول عنه إلا بالارتباط الصادق بخالقه وعبادته بما أمر، وبالقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها وإقامة عدل الله فيها. وتذكير الإنسان بحقارة نشأته الأولى لجام فطري لغروره واستعلائه ومحاولاته لتجاوز حدوده، بحكم أنه مخلوق ذو إرادة حرة. وفي تذكير الإنسان بحقارة نشأته الأولى بهذا التفصيل الذي يعرضه القرآن الكريم، حد من نزغات الشيطان التي تسوّل للإنسان أحياناً حب التنكر لحقيقة الخلق، والخروج عن الدينونة لله الخالق بالغرق في أوحال الادعاء الخاطئ بنظرية الخلق العشوائي كما نادت به فكرة التطور العضوي، أو الشرود بالخيال الجامح الضال كتصور أبوين لآدم عليه السلام دون أدنى حجة منطقية. وقضية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الإنسان من القضايا الغيبية غيبة كاملة ولذلك إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية من القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة دخل نفقاً مظلماً لا يخرج منه أبداً مهما كان بيديه من الشواهد الحسية ولذلك قال ربنا - جل شأنه -:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

ولذلك فصّلَ القرآن الكريم مراحل خلق الإنسان في أكثر من مائة آية قرآنية صريحة، وأمرنا في الآيات الثلاث التي نحن بصددها بالنظر في ممَّ خُلِقنا، وفسّره بالماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وفسّره في مقام آخر بالماء المهين حتى لا يركب الغرور أحداً من المخلوقين.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6].

في الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الجنين يتخلق من دم حيض المرأة فقط، أو من ماء الرجل فقط كما ساد منذ أيام الحضارة اليونانية القديمة، نزل القرآن الكريم بقول الحق - تبارك وتعالى - مقرراً أن الإنسان خلق من نطفة أمشاج (أي مختلطة) فقال - تعالى -: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان: 2].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده: أن يهودياً مر برسول الله ﷺ وهو يحدّث أصحابه،

فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسألَنّه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! ممَّ يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي: من كل يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»(1).

ولم تعرف هذه النطف إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حين علم دورها في تخلُّقِ الإنسان.

ومن الواضح أن كلًّا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة قد مايز بين نطف التكاثر والماء الذي يحملها، فيقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه عن الإنسان: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6].

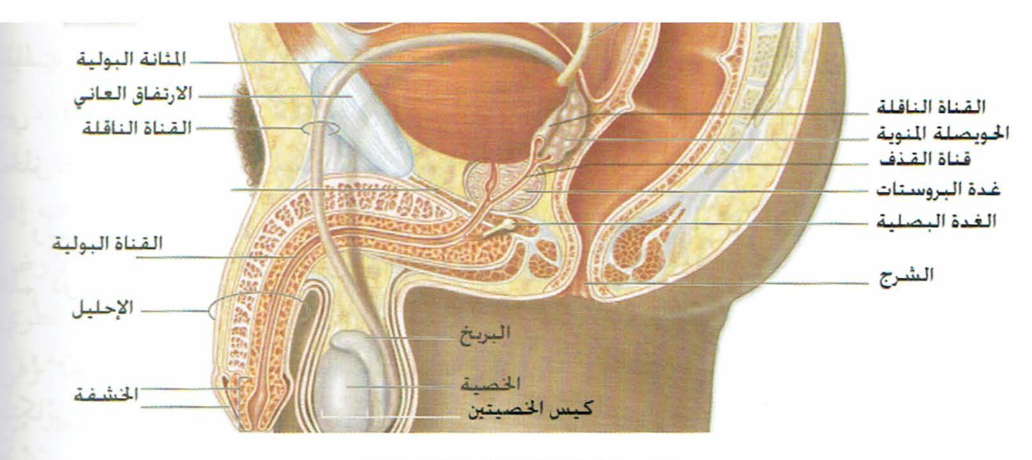
ويقول - عزّ من قائل -: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36-40].

وفي الحديث الشريف جاء قول رسولنا ﷺ: «**ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**»(2).

من ذلك كله يتضح أن الماء الدافق الذي يُخْلَقْ منه الإنسان يقصد به كل من ماء الرجل وماء المرأة، وسمي دافقاً لأن كلاً منهما يخرج من مصدره متدفقاً. فماء الرجل يخرج من غدّتيه التناسليتين (أي من خصيتيه) وهما الغدتان المسؤولتان عن تخلّق خلايا التناسل (النطف أو الحيوانات المنوية أو الحيامن) وعن إفراز هرمونات الذكورة، والخصيتان توجدان خارج جسم الرجل في كيس الصفن، وذلك لأن حرارة الجسم العالية (37 درجة مئوية في المتوسط) لا تسمح بتخلق النطف أو ببقائها حية، والخصية غدة بيضية الشكل، مكونة من مجموعة من الفصوص التي يصل عددها إلى أربعمائة، وفي كل واحد منها ثلاثة أنابيب منوية دقيقة وملتفة على ذاتها، يبلغ طول كل منها حوالي نصف متر مما يصل بطولها الإجمالي إلى أكثر من خمسمائة متر (400 X 3 X 5 ,0 - متر = 600 متر تقريباً)، وهي مكدسة في حيِّز لا يزيد على 60 ميليمتراً مكعباً. وفي هذه

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).



يوضح الجهاز التناسلي للذكر البشري.

القنوات تتولد النطف وتفرز هرمونات الذكورة، وبتقلصات كل من جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عدد من عضلات الجهاز التناسلي بأمر من الجهازين العصبيين الودي واللاودي يندفع السائل المنوي عبر الإحليل وهو يحوي في كل دفقة أكثر من مائتي مليون حيمن (حيوان منوي)، لا يصل منها إلى البييضة إلا بضع مئات قليلة، ويهلك أغلبها في طريقه إليها، ولا يخصبها إلا حيواناً منوياً واحداً يختار بدقة فائقة من بين مئات الحيامن التي تصل إلى البييضة، والتي تموت كلها بعد إتمام عملية الإخصاب، وهذا الاختيار لا يتحكم فيه إلا إرادة الخالق ﷻ الذي بعلمه وحكمته وقدرته تم اختيار الزوجين، وبعلمه وإرادته وحكمته تمَّت عملية الإخصاب لبييضة محددة بحيوان منوي محدد، يحمل كل منهما صفات محددة قدرها الخالق - سبحانه - سلفاً بعلمه وحكمته وقدرته يوم خلق أبانا آدم عليه السلام .

أما ماء المرأة فهو الماء المحيط بالبييضة في داخل حويصلتها المعروفة باسم حويصلة جراف، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق هذا الماء ليدفع بالبييضة إلى بوق قناة الرحم التي تعرف أيضاً باسم: «قناة فالوب» حيث تلتقي بالحيمن المقسوم لإخصابها وتكوين النطفة الأمشاج (أي المختلطة).

والغدتان التناسليتان في المرأة هما المبيضان القابعان في حوضها في حفرتين صغيرتين كل واحدة منهما على جانب من جانبي الحوض، وكل مبيض عبارة عن غدة

شبه مستديرة (بحجم في حدود 25 مم^2 - 35 مم^2) تقع بالقرب من بوق قناة الرحم، ومثبتة في موضعها بعدد من الأربطة. وكل مبيض يتكون من نسيج ليفي غني بأوعيته الدموية يعرف باسم **سداة المبيض** ويحيط بها عدد من **الحويصلات المبيضية** المعروفة باسم **حويصلات جراف**، تحتوي كل منها على بييضة واحدة محاطة بكمية من الماء الأصفر، وعدد البييضات في جنين الأنثى يتراوح بين أربعمائة ألف وستة بلايين بييضة، لا يبقى منها عند سن البلوغ سوى بضعة آلاف قليلة، تنمو منها حويصلة واحدة في كل شهر طوال الفترة التناسلية للأنثى من سن البلوغ إلى سن اليأس بمجموع لا يتعدى الأربعمائة بييضة على طول هذا العمر. وأكثر من 50% من عمليات الإخصاب تسقط قبل أن تعلم المرأة أنها قد حملت، ولا يستمر إلى نهاية فترة الحمل أكثر من حوالي 22% من الباقي (أي في حدود 44 بييضة على الأكثر) وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب مخلّقة أم غير مخلّقة؟ فإن قال: غير مخلقة مجتها الأرحام دماً**»(1).

ويقول الله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8].

وماء المرأة الدافق يخرج مرة واحدة في كل شهر من الحويصلة الحافظة له عندما يدفع المبيض بتلك الحويصلة من حافته إلى بوق قناة الرحم فتنفجر عند تمام نضجها، ويندفع ماؤها الأصفر اللون متدفقاً بالبييضة إلى داخل قناة الرحم تماماً كما يتدفق ماء الرجل بالحيامن وعلى ذلك فكلاهما ماء دافق كما قررت الآية السادسة من سورة الطارق، وكما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه: «**... ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر**»(2).

وهذا الماء الدافق عند المرأة يختلف عن سوائل المهبل، وهي سوائل لزجة، تسيل ولا تتدفق، تفرزها مجموعة من الغدد المتصلة بالمهبل وهي سوائل مطهرة للجهاز التناسلي للأنثى ولا دخل لها بتكوين الجنين.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم، أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: خلق آدم وذريته... (الحديث: 6672).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: بيان صفة مني الرجل، والمرأة (الحديث: 714).

وقد سألت إحدى «النساء» المسلمات (واسمها أم سليم) رسول الله ﷺ قائلة: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال ﷺ: «**نعم إذا رأت الماء**»[1].

وعلى ذلك فإن في قول ربنا - تبارك وتعالى - عن الإنسان:

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: 6] سبق علمي للمعارف المكتسبة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق ﷻ.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: 7].

تتكون الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة (الخصيتان والمبيضان) مما يعرف باسم «**الحدبة التناسلية**» والتي تقع بين صلب الجنين (أي عظام ظهره الفقارية أو عموده الفقاري)، وترائبه (أي عظام صدره أو ضلوعه) وتنزل الخصيتان بالتدريج حتى تصلا إلى خارج الجسم (كيس الصفن) في أواخر الشهر السابع من عمر الحميل. وينزل المبيضان إلى حوض المرأة في نفس الفترة الزمنية تقريباً ليستقرا في داخل الحوض. وتبقى تغذية تلك الغدد التناسلية الذكرية والأنثوية بالدم والسوائل اللمفاوية والأعصاب من مركز نشأة كل منهما من موقع الحدبة التناسلية بين الصلب والترائب إلى آخر العمر، ومن هنا تأتي ومضات الإعجاز العلمي في هذه الآيات الثلاث التي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5-7].

ففي هذه الآيات الثلاث تأكيد على خلق الإنسان من كل من مائي الرجل والمرأة، وعلى أن كلًّا من المائين يخرج دافقاً مندفعاً، وأن كليهما يخرج من بين الصلب والترائب لنشأة الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة من نفس هذا الموقع، ولاستمرار تغذيتها طيلة حياتها بالدماء والسوائل الليمفاوية والأعصاب من الموقع ذاته، مما يجعل هذا الماء يخرج فعلاً من بين الصلب والترائب. ورحم الله فضيلة الإمام الشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي أدرك ببصيرته هذا السبق القرآني المعجز فكتب في تفسيره الصادر من قبل سبعين سنة تعليقاً على هذه الآيات جاء فيه ما يلي:

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الغسل، باب: إذا احتلمت المرأة (الحديث: 282)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة... (الحديث: 710).

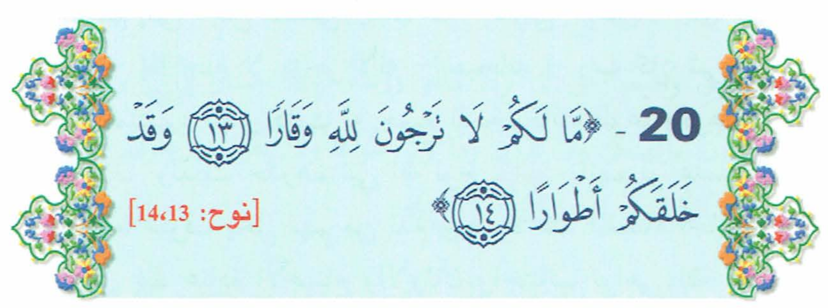
«وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيّرت الألباب، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتي كل منهم من علم، ذاك أنه في الأسبوع السابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمى جسم «وولف» وقناته على كل جانب من جانبي العمود الفقري. ومن جزء من هذا تنشأ الكلى وبعض الجهاز البولي، ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة».

فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع. ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخصية والمبيض يعتمدان في نموهما على الشريان الذي يمدهما بالدم، وهو يتفرع من الشريان الأورطي في مكان يقابل مستوى الكلى الذي يقع بين الصلب والترائب، ويعتمدان على الأعصاب التي تمد كلاً منهما وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدري العاشر وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادي عشر، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها في الجسم فيما بين الصلب والترائب. فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب، قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك الكتاب العزيز.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - اللّهم آمين آمين آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



20 - ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: 13، 14]

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في منتصف سورة «نوح»، وهي سورة مكية، وآياتها ثمان وعشرون (28) بعد البسملة، وقد سميت باسم نبي الله نوح عليه السلام لأن المحور الرئيس للسورة يدور حول قصته مع قومه من بدء دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده حتى إغراق المكذبين منهم بالطوفان، ونجاة نوح عليه السلام والذين آمنوا معه، وما في ذلك من الدروس المستفادة من هذه الواقعة الفاصلة في تاريخ البشرية.

استعراض سريع لسورة «نوح»:

تبدأ هذه السورة الكريمة بالتأكيد على حقيقة الوحي الإلهي إلى نبي الله نوح عليه السلام، والمتضمن إنذار قومه ببأس الله قبل نزوله بهم، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح: 1-4].

وبعد خطابه إلى قومه، وشرح حقيقة رسالته إليهم بأنه نذير مبين من رب العالمين، يأمرهم نبيهم نوح عليه السلام بعبادة الله وحده،

وبتقواه، وبطاعة أوامره، وبعد تبيان أن ذلك يستتبع غفران الله - تعالى - لذنوبهم، وتأخيرهم إلى أجل مسمى جعله الله - تعالى - طويلاً جداً في أعمارهم فإن أمر الله - تعالى - إذا جاء لا يؤخر لأنه - سبحانه - رب كل شيء ومليكه، وهو العزيز، الجبار، المنتقم، الذي دانت له جميع المخلوقات طوعاً وكرهاً، وقهر كل شيء بإرادته ومشيئته ﷻ ولذلك حذرهم نبي الله نوح عليه السلام بأنهم لو علموا ما سوف ينزل بهم من عذاب، وما سوف يحل بهم من ندم وحسرة عند انقضاء آجالهم لسارعوا إلى الإيمان بالله، وإلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان واجتناب نواهي الله كلها، ومجانبة محارمه، والقيام على عبادته - تعالى - وحده بإخلاص وتفانٍ تامين.

وبعد هذا الإنذار يتوجه سيدنا نوح - على نبينا وعليه من الله السلام - بالشكوى إلى ربه من معاصي قومه، واستكبارهم وعنادهم في الكفر، على الرغم من تشويقه لهم بأفضال الله بعد دعوته لهم لفترة استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً فتقول الآيات:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: 5-12].

ثم يعاود نبي الله نوح عليه السلام معاتبة قومه على عدم خضوعهم بالطاعة لله تعالى، مستشهداً بعدد من آيات الله في الكون على حقيقة ألوهية هذا الخالق العظيم وربوبيته، ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه فيقول:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: 13-20].

ويكرر نبي الله نوح عليه السلام الشكوى إلى ربه ﷻ من عصيان قومه له، وانصرافهم

عنه، وإصرارهم على عبادة الأوثان، واتباعهم لأهل الضلال، ومكرهم به، واستخفافهم بدعوته، فدعا الله - تعالى - عليهم، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: 21-24].

وعند انطلاق لسان نبي الله نوح بالدعاء على عصاة قومه، يستجيب الله - تعالى - لدعاء نبيه فيقضي على القوم الظالمين بالهلاك، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 25-27].

وتختتم السورة الكريمة بدعاء من نبي الله نوح عليه السلام من نوع آخر يقول فيه:

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28].

هذه التجربة المريرة التي عاشها نبي الله نوح عليه السلام تعرض على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كما تعرض على كل مؤمن برسالته من بعده ليتيقن الجميع من عناد البشر في غالبيتهم للحق، وانصرافهم عنه، واستكبارهم عليه، ولتدعو حملة اللواء إلى ضرورة الصبر في الدعوة إلى دين الله، وتحمل المشاق في سبيل نصرته وإعلاء رايته في الأرض، مهما كلف ذلك من جهاد، ومهما احتاج إلى تضحيات، فإنه الطريق إلى جنات الخلد والنعيم.

من ركائز العقيدة في سورة نوح:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة له إلى الصاحبة أو الولد. والإيمان كذلك بملائكة الله وكتبه، ورسله، وعلى رأسهم خاتمهم أجمعين، والتصديق

بكل من اليوم الآخر وبما فيه من بعث وحساب وجزاء، واليقين بالجنة والنار، وبأنها لجنة أبداً أو نار أبداً.

2 - الإيمان بحقيقة وحي السماء، وبالأخوّة بين الأنبياء والتصديق بالرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ.

3 - اليقين بالآخرة، وبأن الأجل الذي حدَّده الله - تعالى - لها لا يؤخر، والتسليم بإمكانية وقوع عذاب الله - تعالى - في الدنيا قبل الآخرة.

4 - التصديق بأن الله - تعالى - غفار للذنوب جميعاً إلا أن يشرك به - سبحانه - أو أن تكون الذنوب حقوقاً مغتصبة من العباد لأن حقوق العباد مقدّسة عند رب العباد، والتسليم بأنه - تعالى - هو الذي ينزل المطر من السماء، ويرزق خلقه بما يشاء من المال والبنين ومختلف أشكال الرزق.

5 - التصديق بقصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه كما جاءت في القرآن الكريم، وبإغراق الكفار والمشركين، والعصاة الملاحدة الظالمين منهم، ونجاة عباد الله الصالحين من بينهم وهم أسلاف أهل الأرض من بعدهم إلى يوم الدين.

من ركائز العبادة في سورة «نوح»:

1 - ضرورة عبادة الله - تعالى - بما أمر، وتقواه وطاعته، وتوقيره وخشيته، ورجاء ثوابه، والخوف من عقابه.

2 - وجوب الدعوة إلى دين الله - تعالى - بمختلف الأساليب المشروعة مهما لقي الإنسان في سبيل ذلك من عنت.

3 - النهي عن الظلم، وعن اتباع العصاة، وعن معاداة الصالحين أو الكيد لهم.

4 - الأمر بضرورة التعرف على الخالق العظيم، وعلى شيء من صفاته العليا وذلك بالتأمل في بديع صنعه في خلقه، وباستخلاص الدروس والعبر من ذلك.

5 - الحرص على التوجه إلى الله - تعالى - بالدعاء للنفس، وللوالدين وبقية الأهل، والمعارف والأصدقاء، وللمؤمنين والمؤمنات جميعاً بظهر الغيب لعل الله تعالى أن يستجيب لذلك الدعاء.

من الإشارات الكونية في سورة «نوح»:

1 - التأكيد على مرحلية الحياة الدنيا مهما طالت، وعلى حتمية الآخرة مهما بعدت.

2 - الإشارة إلى ضرورة تنويع أساليب الدعوة وطرائقها بما يتناسب والظروف النفسية للمدعوين، وحسب الظروف المتاحة للداعين، وذلك من القواعد الأساسية في علم النفس الحديث.

3 - تقرير أن الله - تعالى - هو الذي ينزل المطر بعلمه وحكمته وقدرته، وهو - سبحانه - الرزاق ذو القوة المتين الذي يمد خلقه بالمال والبنين، ويحيل الأرض القاحلة إلى جنات تجري من بينها الأنهار، إذا أراد ذلك.

4 - الإشارة إلى خلق الناس وهم أجنة في بطون أمهاتهم عبر عدد من الأطوار المتتالية وهو ما تؤكده العلوم المكتسبة مؤخراً.

5 - التأكيد على أن الله - تعالى - خلق سبع سمٰوات طباقاً، ولولا هذا التأكيد ما استطاع الإنسان معرفة ذلك أبداً، وهو المحبوس في حدود السماء الدنيا.

6 - التفريق العلمي الدقيق بين كل من الضياء والنور، وذلك بوصف القمر بأنه نور، ووصف الشمس بأنها سراج، والتصريح بأن القمر نور في السمٰوات السبع مما يشير إلى شفافية وتطابق تلك السمٰوات حول مركز واحد يشمل كلاً من الأرض والقمر.

7 - الإشارة إلى إنبات الخلق من الأرض، ثم إعادتهم فيها بعد الموت، ثم إخراجهم منها يوم البعث.

8 - وصف تمهيد سطح الأرض بجعله في معظمه كالبساط، وذلك بتكوين السهول المنبسطة، عن طريق شق الفجاج والسبل بين سلاسل الجبال والهضاب الأرضية، ثم تسويتها بالتدريج حتى تصل إلى مستوى سطح البحر وذلك بواسطة مختلف عمليات التعرية.

9 - الإشارة إلى واقعة طوفان نوح الذي تؤكده الدراسات العلمية الحديثة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الرابعة من القائمة السابقة والتي جاءت في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من سورة نوح.

بعض الدروس المستفادة من قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه:

1 - التسليم بحاجة البشرية إلى الهداية الربانية والتي بدونها لا تستقيم الحياة على الأرض، ولا يتعرف الإنسان على حقيقة رسالته في الدنيا، ولا على مصيره من بعدها.

2 - اليقين بأن من رحمة الله - تعالى - بعباده إرسال الأنبياء الواحد تلو الآخر من أجل هداية الناس إلى دين الله الحق، على الرغم من إعراض الغالبية الساحقة من البشر عنهم، ومحاربتهم لهم، واضطهادهم إياهم، ومطاردة الذين آمنوا بهم وبرسالاتهم في كل أرض.

3 - الإيمان بالوحي المنزل من الله تعالى على فترة من الرسل والذي تكامل في بعثة الرسول الخاتم ﷺ، والتأكيد على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوّة بين الأنبياء، وعلى اكتمال رسالاتهم جميعاً في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

4 - تثبيت الرسول الخاتم ﷺ، وجميع المؤمنين برسالته إلى قيام الساعة على طريق الحق، وتشجيعهم على تحمل تبعات الدعوة الإسلامية ومسؤولية التبليغ عن الله سبحانه وتعالى.

5 - التأكيد على أن الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال هو سنة من سنن الحياة الدنيا، وحتمية من حتميات الوجود على الأرض، والتسليم بأن أغلب أهل الأرض ليسوا بمؤمنين إيماناً صحيحاً بالله - تعالى - وذلك لأن الإنسان مخلوق ذو إرادة حرة، وأن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وامتحان واختبار.

6 - القناعة بحتمية نزول عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة إذا كثر الخبث، وانتشر الفساد في الأرض، وعمت المظالم الناس وكثر بينهم الفجور.

7 - تأكيد عناية الله - تعالى - بالقلة المؤمنة وتجسيد تعهده بنصرهم، مهما تضافرت جهود أهل الباطل، ومهما بلغت إمكاناتهم المادية، ومهما تطاولوا على الحق وأهله، وتجاوزوا كل الحدود في حربه فلا بد من تنزل نصر الله الموعود على القلة المؤمنة، المجاهدة الصابرة ، المحتسبة بإذن الله فإن جند الله هم الغالبون.

8 - النهي عن الشرك بالله سبحانه وتعالى نهياً قاطعاً، بكل أشكاله وصوره، والتأكيد على تنزيه الله - جل وعلا - عن الشريك والشبيه، والمنازع، والصاحبة ، والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والتحذير من عواقب الشرك الوخيمة في الدنيا قبل الآخرة.

9 - التأكيد على مسؤولية الدعاة وعلى شيء مما يجب أن يتحلوا به من أخلاق ومنها الصبر على المدعوين، والاستعداد للتضحية في سبيل تبليغ دعوة الله، وإنذار الخلق من مغبة مخالفة أوامره، وتحمل نتائج ذلك، وتأكيد ضرورة التوجه إلى الله - تعالى - بالدعاء في كل شدة، وبالحمد والثناء في كل رخاء وسعة.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13].

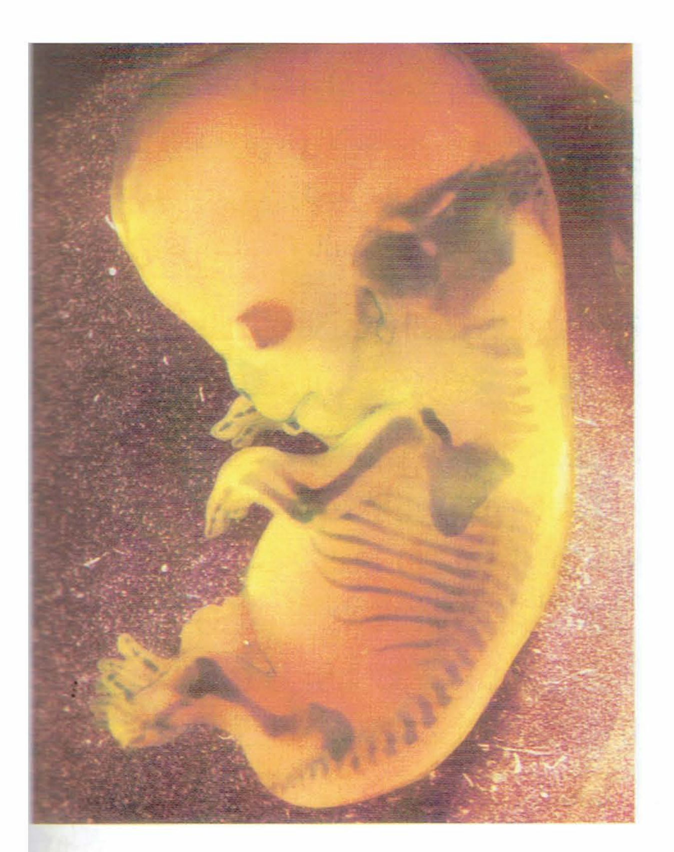
و«الرجاء» و«الرجو» من الأمل وهو ظن يقتضي حصول ما فيه الخير والمسرة، وهو هنا بمعنى الخوف، وذلك لأن الرجاء والخوف يتلازمان. والفعل (رَجَا) و(رجَّأ) و(أرجأ) أصله التأخير، فيقال (أرجأته) أو (أرجيته) بمعنى أخّرته. قال - تعالى -: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106].

ومعنى (مُرْجَوْن) في الآية الكريمة (مرجئون) أي: مؤخرون حتى ينزِّل الله - تعالى - فيهم ما يريد، ومن هنا جاء وصف (المرجئة) أو (المرجية).

و(الوقار) هو السكون والجلال والحلم والعظمة، يقال: (وقور) و(وقار)، و(متوقر)، و(التوقير) هو التعظيم والتبجيل والخشية. وعلى ذلك فإن من معاني قوله - تعالى - ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13]. هو: ما لكم لا تعظمون الله سبحانه وتعالى حق عظمته، ولا تخافون من بأسه ونقمته؟ والاستفهام إنكار لوقوع ذلك من المخاطبين من الكفار والمشركين، والعصاة الغافلين عن ذكر الله وعن طاعته وحسن عبادته من عصاة قوم نوح، وممن على شاكلتهم إلى يوم الدين. وجواب الاستفهام هو: فتطيعون أوامره، وتجتنبون نواهيه، وتخشون حسابه وعقابه في الدنيا قبل الآخرة. والحكمة من السؤال أن نبي الله نوح عليه السلام قد أنكر على كفار ومشركي قومه أن يعبدوا غير الله - تعالى - من الأوثان والأصنام، ويتجاوزوا حدوده بالمعاصي والآثام، ولا يستشعروا في أنفسهم توقيراً لهذا الإله العظيم الذي بدأ خلقهم من الطين، وصوَّرهم فأحسن صورهم، ورزقهم من الطيبات، وأفاض عليهم من نعمه، وفضّلهم على كثير من خلقه.

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 14].

(الطَّوْرُ) لغة: هو الحد، يقال: عدا فلان (طَوْرَه) أي: جاوز حده. و(الطَّور) أيضاً هو التَّارة أو المرة، فيقال: فعل فلان كذا (طَوْراً) بعد (طَوْرٍ) أي: تارة بعد تارة، أو مرة



صورة حقيقية لجنين بشري عمره 57 يوماً وطوله 27 مم توضح تخلق العظام فيه.

بعد مرة، وعلى ذلك فـ (الأطوار) هي التَّارات أو المرات، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن رجب الحنبلي في كتابه: «جامع العلوم والحكم» من أن قوماً كانوا عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: إن قوماً زعموا أن العزل هو الموءودة الصغرى، فقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا تكون موءودة حتى تمر على التارات السبع: تكون سلالة من طين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظاماً، ثم تكون لحماً، ثم تكون خلقاً آخر»، كذلك يقال في اللغة: الناس (أَطْوار) أي: أخياف على حالات شتى.

ويشمل لفظ (أطوار) في الآية الكريمة التي نحن بصددها مراحل الخلق المتدرجة التي يمر فيها جنين الإنسان من النطفة، إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى خلق العظام، ثم كسوتها لحماً، حتى إنشائه خلقاً آخر. وانطلاقاً من عتاب الله تعالى لكفار ومشركي قوم نوح ولأمثالهم من الكفار والمشركين في كل زمان ومكان إلى يوم الدين يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: أفلا تدركون عظمة الله، وطلاقة قدرته، فتطيعونه وتخشون عقابه، ولقد خلقكم في عدد من التّارات المتعاقبة التي لا يكاد بعضها أن يُرى بالعين المجردة؟ والخروج عن طاعة هذا الخالق العظيم الذي بيده مقاليد خلقكم ورزقكم وسعادتكم أو شقائكم لا يمكن أن يصدر عن ذي بصيرة أبداً!!

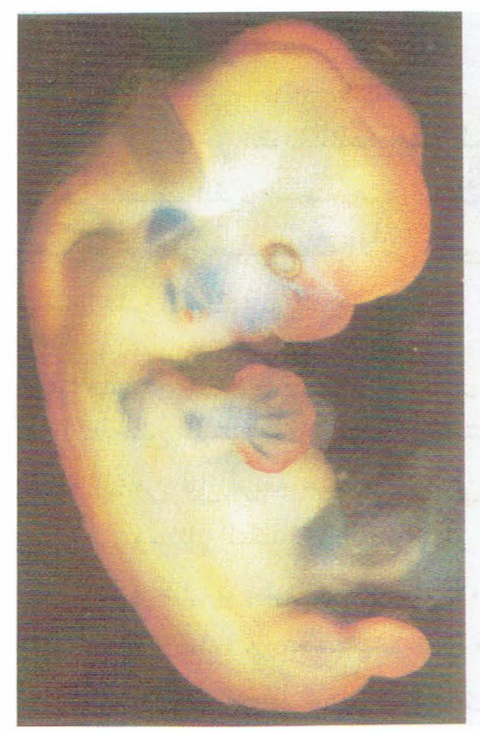
وقد جاء ذكر أطوار خلق الإنسان هذه في مراحله الجنينية المتتالية مرتبة ترتيباً دقيقاً، وموصوفة وصفاً شاملاً لم تصله بعد العلوم المكتسبة في قمتها الحالية، وذلك في عدد من آيات القرآن الكريم منها [النحل: 4؛ الكهف: 37؛ الحج: 5؛ المؤمنون: 13 -14؛ فاطر: 11؛ يسٓ: 77؛ غافر: 67؛ النجم: 45 - 46؛ القيامة: 37؛ الإنسان: 2؛ عبس: 19].

وهذا الوصف القرآني المعجز جاء في زمن ساد فيه الاعتقاد بأن الجنين البشري يُخْلَق خلقاً كاملاً في صورة متقزمة جداً لا تكاد ترى بالعين المجردة، وذلك من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، ثم يزداد في الحجم تدريجياً حتى لحظة الميلاد. فلم تكتشف العلوم المُكْتسبة، كلًّا من نطفة الرجل ونطفة المرأة إلا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي بعد بناء المجهر. وحتى بعد اكتشافهما فإن دورهما في تكوين الجنين لم

صور حقيقية لجنين بشري توضح طورين من أطوار خلقه.



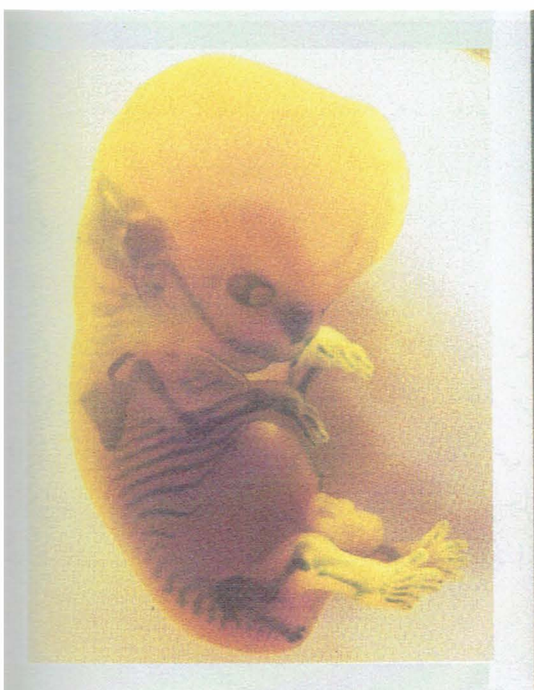
(أ) جنين بشري عمره 44 يوماً وطوله 13 مم



(ب) جنين بشري عمره 45 يوماً وطوله 14 مم.



(أ) جنين بشري عمره 48 يوماً وطوله 17 مم



(ب) جنين بشري عمره 57 يوماً وطوله 27 مم

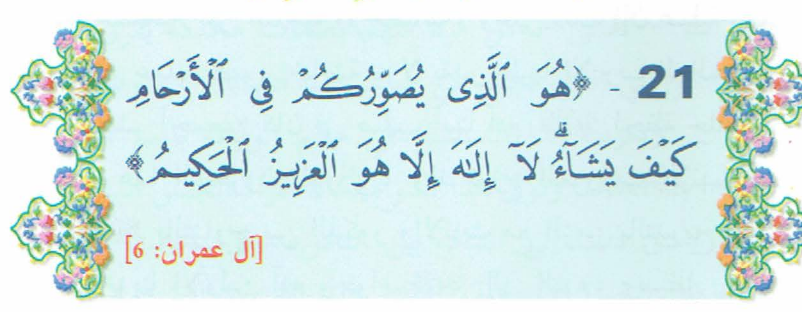
يدرك إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يعرفا على أنهما من الخلايا الحية إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (1859 م)، ولم تعترف العلوم المكتسبة أن الجنين يتخلق بإخصاب نطفة الأنثى (البييضة) بواسطة نطفة الذكر (الحيمن) إلا في القرن التاسع عشر الميلادي.

وعلى ذلك فإن التأكيد على دور كل من الذكر والأنثى في تخلّق الجنين، ووصف أطوار الجنين البشري في مراحله المتتالية بدقة متناهية في كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من قبل أربعة عشر قرناً، وفي زمن بدائي لم يتوافر لأي من الخلق طواله أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الفحص، لممّا يؤكد لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -، وحفظه حفظاً كاملاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد سبحانه وتعالى بذلك الحفظ الدقيق إلى قيام الساعة حتى يبقى القرآن الكريم إلى أن يرث الله - تعالى -

الأرض ومن عليها شاهداً على جميع الخلق في كل زمان ومكان بأنه كلام الله الخالق وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي والرسول الخاتم الذي تلقاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.







هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ تحوي مائتي آية بعد البسملة، وبذلك تأتي في المقام الثالث بعد سورتي البقرة والأعراف من حيث عدد الآيات. وقد سمّيت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قصة امرأة عمران وابنتها السيدة مريم أم عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام، كما تروي معجزة ميلاده من أم بغير أب، وتذكر عدداً من المعجزات التي أجراها الله - تعالى - على يديه لتشهد له بالنبوة وبالرسالة. ويدور جزء كبير من هذه السورة المباركة حول حوار أهل الكتاب، بينما يدور باقي السورة حول تحديد ركائز العقيدة الإسلامية وعدد من تشريعاتها. وسورة «آل عمران» مليئة بالإشارات الكونية وسوف أفصل ذلك في المقال رقم «31» من هذا الكتاب، وهنا سوف نركز على الدلالات العلمية للنص القرآني وتدور قضيته حول أن الله تعالى هو الذي يصور الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

من الثابت علمياً أنه لم يخلق فردان من بني الإنسان (أو من غيرهم من مختلف صور الأحياء الحيوانية والنباتية) وصفاتهما الحيوية متشابهة تشابهاً كاملاً إلا في حالات التوائم الصحيحة وهي حالات نادرة. وحتى في هذه الحالات يبقى التوأمان مختلفان في الطبائع الشخصية، والصفات الذاتية، والنوازع النفسية، والميول والرغبات، والقدرات العقلية، والمهارات اليدوية وإن تشابها من الناحية الشكلية.

واحتمال التشابه الحيوي بين فردين من بني البشر غير التوائم الصحيحة هو أمر يكاد أن يكون مستحيلاً من الناحية الإحصائية، وعلى ذلك فإن عملية تخلّق كل فرد في مراحله الجنينية هي عملية تصوير خاصة به لا يقدر عليها إلا رب العالمين. وذلك لأن المخزون الوراثي للبشر أجمعين كان في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أعطيت أمُّنا حواء شطراً من هذا المخزون الوراثي، وقد توزع الموروث الإنساني في صلب أبوينا آدم وحواء عليهما السلام بالتزاوج بين الذكور والإناث مع الزمن بالتدريج ليعطي البلايين من البشر من زمن أبوينا الأولين آدم وحواء عليهما السلام إلى اليوم، وسيظل يعطي كل نفس منفوسة، أي: قدر الله - تعالى - لها الوجود إلى قيام الساعة.

فالبلايين السبعة من البشر الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والبلايين التي عاشت من قبل وماتت، والبلايين التي سوف تأتي من بعدنا إلى قيام الساعة كانت كلها في عالم الذر في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وقد أشهدهم الله - تعالى - جميعاً على حقيقة الربوبية فقال - عز من قائل -:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172].

وأخرج كل من الإمامين البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به، قال: فيقول: نعم، فيقول الله تعالى له: أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألّا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي**»[1].

فكل إنسان - مقدّر له أن يحيا على سطح هذه الأرض ولو للحظة واحدة - معروف بصفاته المحددة عند خالقه، وكان موجوداً في عالم الذر في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم تقاسمت أمّنا حواء معه هذا المخزون الوراثي، وبالتزاوج الذي جعله ربنا - تبارك وتعالى - سنة من سننه لإعمار الأرض بالحياة، بدأ هذا المخزون الوراثي الذي

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته (الحديث: 3334) وأخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: طلب الكافر الفداء... (الحديث: 7014).

وهبه الله - تعالى - لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام في الانفراد مع الزمن ليعطي بلايين البلايين من بني آدم الذين خص الله - تعالى - كل فرد منهم بصفات محددة يقررها نصيبه المفروض له من المخزون الوراثي الذي تجمع في صلب أبينا آدم عليه السلام، والذي قسمه لنا الخالق سبحانه وتعالى منذ الأزل. ويعرف هذا التسلسل في عالم الوراثة باسم التنوع من الأصل الواحد (Diversity from unity) ولولا هذا التنوع لكان أفراد الجنس البشري على نمط واحد من الخلقة، ولأدى ذلك إلى التنافر بين الناس، ولاستحالت الحياة أو أصبحت ثقيلة كريهة لا تطيقها النفس الإنسانية، لذلك خلق الله - تعالى - لآدم زوجه وقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

ولذلك أيضاً خص الخالق سبحانه وتعالى كل نوع من أنواع الحياة بعدد محدد من الصبغيات، وخص الإنسان بستة وأربعين صبغياً في نواة خلاياه الجسدية، وخص خلايا التكاثر بنصف هذا العدد (ثلاثة وعشرين صبغياً فقط) حتى إذا التقت النطفتان من الزوج والزوجة، واتحدتا بمشيئة الله - تعالى - لتكوين النطفة الأمشاج (المختلطة) تكامل عدد الصبغيات، وجاء نصفها من الأب وأسلافه، والنصف الآخر من الأم وأسلافها فيأتي الجنين على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين، ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم**»(1).

فإذا علمنا هذه الحقيقة، وأضفنا إليها أن الدفقة الواحدة من مني الرجل تحمل ما بين مائتي مليون وألف مليون نطفة (حيمن أو حيوان منوي)، وأن الحد الأدنى للإخصاب يحتاج إلى كثافة لا تقل عن عشرين مليون نطفة في كل ميليلتر من المني الذي يتكون من تلك النطف ومن سائل يشترك في إفرازه كل من الغدتين التناسليتين وعدد من الغدد الأخرى. وإذا علمنا أن من بين تلك البلايين من نطف الرجل التي تتحرك في اتجاه

---

(1) أخرجه الطبري في «تفسيره» (30/ 56)، وذكره السيوطي في «جمع الجوامع» (الحديث: 5986).



شكل يوضح تدفق ماء الرجل بكثافة لا تقل عن عشرين مليون نطفة.

البييضة من أجل إخصابها لا يصل أكثر من خمسمائة نطفة، وأن هذه النطف يتحلل أغلبها من أجل المساعدة على ترقيق جزء من جدار البييضة لتمكن نطفة واحدة منها - تختارها الإرادة الإلهية - من الولوج إلى داخل البييضة من أجل إخصابها وتكوين النطفة الأمشاج.

وإذا علمنا أن الرجل يمكن أن يبقى نشيطاً جنسياً من لحظة بلوغه إلى لحظة مماته، وأن هذه الفترة تمتد لأكثر من خمسين سنة في المتوسط، فإن عدد النطف المنتجة من رجل واحد طيلة حياته تقدر ببلايين البلايين، لا ينجح منها في إتمام عملية الإخصاب إلا آحاد قليلة، وقد لا يفلح أيٌّ منها في ذلك أبداً، ولذلك قال - تعالى -:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49، 50].

وبالإضافة إلى هذه القيود العديدة، التي هي كلها من صنع الخالق العظيم، وبين إصبعين من أصابعه، فإن هناك قيوداً أشد في الجانب الآخر، فبينما للأنثى - وهي جنين في بطن أمها - ما بين أربعمائة ألف وستة ملايين بييضة في مراحل تكوينها الأولى، فإنها إذا وصلت إلى مرحلة البلوغ لا يبقى في غدتيها التناسليتين سوى بضعة عشرات الآلاف إلى ثلاثين ألف بييضة، تنمو منها بييضة واحدة كل شهر طوال فترة خصوبة المرأة المقدرة بحوالي عشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة في المتوسط، وعلى ذلك فإن مجموع البييضات التي يفرزها جسم المرأة البالغة طوال مدة خصوبتها لا يزيد على الأربعمائة، يهلك جزء كبير منها قبل الزواج، وفي غير فترات الحمل بعد الزواج. فإذا أراد الله ﷻ

الجنين أن يخلق حسب برنامج خلق بني آدم والذي وضع في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، اختارت يد القدرة الإلٰهية بييضة محددة من البييضات الناضجة ومكّنتها من الخروج من خدرها في الزمان والمكان المحددين، لملاقاة نطفة محددة من رجل معين كان الله - تعالى - قد اختاره لها، وذلك من أجل إخصابها وتخلق جنين محدد منهما بصفات وراثية محددة في علم الخالق العظيم، سواء قدّرت لهذا الجنين الحياة أم لم تقدّر.

فإذا لم يكن الله - تعالى - قد أراد لهذا الجنين أن يخلق، فإن البييضة لا توفّق إلى لقاء النطفة فتموت، لأن عمرها محدد بأربع وعشرين ساعة فقط، وخصوبتها محددة بنصف عمرها أي باثنتي عشرة ساعة فقط.

وتذكر الدراسات الطبية أنه في مقابل كل نطفة أنثوية (بييضة) تفرزها الزوجة، فإن الزوج يفرز بليون نطفة ذكرية (حيمن) على الأقل، وتصطفي القدرة الإلٰهية المبدعة من هذا الكم الهائل من النطف نطفة مؤنثة محددة، بصفات وراثية معينة لتلتقي بنطفة مذكرة محددة بصفات وراثية خاصة في زمان ومكان محددين ليتخلق في رحم الأم جنين بصفات وراثية معينة قدَّر الله - تعالى - له أن يكون، وهذا التقدير منذ الأزل.

ومن الثابت أن البييضة قد تلقّح ولا تخصب، وقد تخصب ولكن لسبب ما لا تستمر إلى مراحل التخلق التالية، فليست كل بييضة مخصبة مؤهلة للوصول إلى طور الجنين الكامل، خاصة وأن الإحصاءات الطبية تشير إلى أن 78% من كل حمل يجهض ويتم إسقاطه، وأن نحو 50% من حالات الحمل يفشل ويسقط قبل أن تدرك الأم أنها حملت بالفعل. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ:

«إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال يا رب: مخلّقة أو غير مخلّقة، فإن قال: غير مخلقة مجتها الأرحام دماً»[1].

ومن صور الاصطفاء الإلٰهي للجنين تحديد جنسه، فإن كانت النطفة المحددة التي اختارها الله - تعالى - لإخصاب بييضة محددة تحمل شارة التذكير (**Y**) جاء الجنين ذكراً بإذن الله، وإن كانت تحمل شارة التأنيث (X) جاء الجنين أنثى بإذن الله، ولذلك قال - تعالى -:

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: خلق آدم وذريته... (الحديث: 6672).



صورة للنطفة تتعلق بجدار الرحم، وهي إحدى أطوار خلق الإنسان.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45، 46].

ويأتي بعد تحديد الصفات والجنس تحديد كل من الرزق، والأجل، والعمل، والشقاء أو السعادة، بأمر من الخالق سبحانه وتعالى . وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك. ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»[1].

ومن أروع صور الاصطفاء للجنين البشري وهو في بطن أمه هو ذلك الاصطفاء من مخزون الصفات الوراثية لكل من الأب وأسلافه، والأم وأسلافها، حتى يأتي الجنين

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته (الحديث: 3332)، وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: القدر (الحديث: 4708).

حسب تقدير الله - تعالى -. وذلك لأن عدد المورثات البنائية في الشيفرة الوراثية للإنسان يتراوح بين ثلاثين ألفاً وخمسة وثلاثين ألفاً مورثة، وقد عرف من هذه المورثات ما يتحكم في تشكل الجنين ولذلك أصبحت تعرف باسم خاص هو: «مورثات التكوين والبناء» (Formation and Structure Genes)، ومنها ما يتحكم في تسوية أعضاء الجنين حتى يصل إلى شكله الكامل ولذلك أصبحت تعرف باسم: «مورثات التنظيم والتسوية» (Regulation and Fashioning Genes)، كما عرف من هذه المورثات ما يتحكم في الشكل والصورة (Form and Image Genes) وما يتحكم في لون كل من البشرة، والشعر، والعينين، وما في طول القامة وقصرها، وفي غير ذلك من الصفات، وهذه المورثات وغيرها - وهي من خلق الله تعالى واختياره - هي التي تتحكم في تحديد كل صفات الجنين الشكلية والتشريحية التي تميزه عن غيره من المخلوقين، ولذلك قال - تعالى -:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 6].

وبالإضافة إلى هذه العمليات التصويرية للأجنة في أرحام الأمهات فإن هذه الآية الكريمة تشير كذلك إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في أن **النطفة الأمشاج** (البييضة المخصبة) وهي كيان لا يتعدى قطره خمس (1/ 5) المليمتر (200 ميكرون) تتحول إلى الحميل الكامل في فترة تتراوح بين (180) يوماً (وهي أقل مدة للحمل)، و(266) يوماً (وهي أطول مدة للحمل) ليصل طوله إلى نصف متر تقريباً، وليحوي جسده ملايين الخلايا المتخصصة التي تنتظمها أنسجة متخصصة، في أعضاء وأجهزة محددة تعمل في توافق تام من أجل هذا المخلوق الجديد، وذلك عبر مراحل محددة وصفها القرآن الكريم في عشرات الآيات: من **العلقة إلى المضغة** (المخلّقة وغير المخلّقة) **إلى خلق العظام، ثم كسوتها باللحم (العضلات والجلد)، ثم إنشائه خلقاً آخر**.

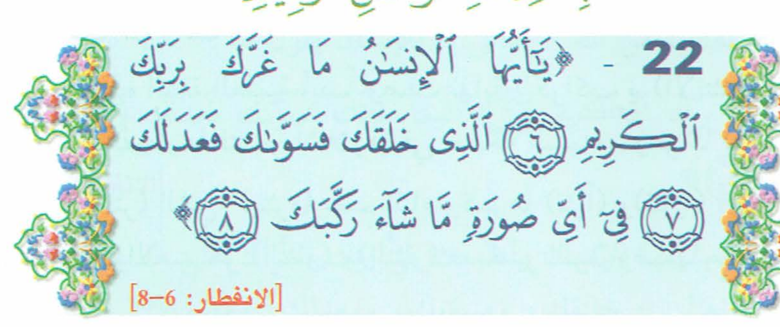
فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذي أنزل في محكم كتابه - من قبل ألف وأربعمائة سنة - حقيقة أنه - تعالى - هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء، وهي حقيقة لم تدركها العلوم المكتسبة إلا بعد تطور كل من علوم الأجنة والوراثة، وقراءة الشيفرة الوراثية للإنسان، وإدراك الضوابط العديدة التي تتحكم في تخلُّق الأجنة

في أرحام الأمهات مما يشير إلى أنها لا يمكن أن تتخلق بعفوية أو صدفة، بل لا بد لها من خالق عليم حكيم له من صفات الألوهية والربوبية والوحدانية ومن طلاقة القدرة، وشمول العلم وكمال الحكمة ما يمكنه من تحقيق ذلك.

وسَبْقُ القرآن الكريم بالتأكيد على هذه الحقيقة، وبوصف تلك المراحل وصفاً يفوق دقة وشمولاً وكمالاً، ما حققته العلوم المكتسبة - في عصر تفجر المعرفة العلمية الذي نعيشه -، لممّا يقطع بأن هذا الكتاب الخالد لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ الكامل لكتابه الخاتم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حتى يبقى هذا الكتاب المجيد شاهداً على الناس كافة إلى يوم الدين بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



22 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

[الانفطار: 6-8]

هذه الآيات القرآنية الثلاث جاءت في أواخر النصف الأول من «سورة الانفطار»، وهي سورة مكية، وآياتها (19) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بتحذير من الله - تعالى - بانفطار السماء في يوم القيامة، أي تصدعها وانشقاقها كعلامة من علامات تهدم النظام الكوني في الآخرة وقبل البعث وهو حدث رهيب رهيب.

وابتدأت السورة الكريمة بوصف أربع من مظاهر يوم القيامة يقول عنها ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار: 1-4].

وانفطار السماء هو انشقاقها وتصدعها، لأن أصل (الفَطْرِ) هو الشق طولاً. يقال: (فَطَرَ) (فَطْراً)، و(أفطر) (فطوراً)، و(انفطر) (انفطاراً)، و(تفطر) (تفطراً) وكلها بمعنى الانشقاق والتصدع، لأن (الفطور) هو الاختلال والضعف.

كذلك يقال: (فطر) الشيء أي: أبدعه وأوجده، لأن (الفِطْرَ) هو الابتداء والإبداع، و(الفطرة) هي الخلقة ولذلك وصف الله - تعالى - ذاته العلية بوصف (فاطر السمٰوات والأرض).

ومن روعة التعبير القرآني في وصف نهاية السماء بالانفطار أن العلوم المكتسبة تدرك اليوم أن الجاذبية هي من القوى الممسكة

بأجرام السماء وبمختلف صور المادة والطاقة فيها، فإذا زالت تلك القوى انشقت السماء وتصدعت ثم زالت.

ومن هذه الدقة العلمية أيضاً وصف نهاية الكواكب بـ (الانتثار) لأن (انتثار) الكواكب ينتج عند انفجارها فتتناثر أشلاؤها في صفحة السماء، وهو ما تؤكده اليوم علوم الفلك.

يقال (نثر) الشيء (ينثره) بضم الثاء وكسرها (نثراً) و(نثاراً) أي: رماه متفرقاً فـ (تناثر) و(انتثر). والاسم هو (النِّثار) و(النُّثار) - بكسر النون وضمها مع التشديد - وهو ما تناثر من الشيء.

ويوجد في مجموعتنا الشمسية جسيمات متناثرة عديدة تدور في أفلاك لها حول الشمس، ويعتقد بأنها تناثرت نتيجة لانفجار عدد من الكواكب.

ويتركز أغلب هذه الجسيمات المتناثرة في مدار محدد بين مداري المريخ والمشتري، وتعرف باسم الكويكبات (Asteroids)، ويعرف مدارها باسم حزام الكويكبات الرئيس (The Main Asteroid Belt).

وقد أحصي في هذا المدار نحو ستة آلاف كويكب، وإن كان المرئي منها حوالي عشرة آلاف فقط. ويعتقد أنها ناتجة عن انفجار الكوكب الخامس بعداً عن الشمس التي يدور حولها أحد عشر كوكباً، بما فيها هذا الكوكب المتناثر.

ويقدر عدد الكويكبات في مجموعتنا الشمسية بنحو مائة ألف كويكب، ويعتقد أغلب الفلكيين بأنها ناتجة عن انفجار واحد أو أكثر من كواكب هذه المجموعة وتناثر أشلائه أو أشلائها في صفحة السماء، وإن كان بعض الفلكيين يعتقد بأن هذه الكويكبات قد تكونت من نشأة مجموعتنا الشمسية.

وتفجير البحار قد يعني تفجر قيعانها بمزيد من الصدوع والخسوف حتى يغور ماؤها إلى نطاق الضعف الأرضي من حيث أخرجه الله - تعالى - أول مرة، وبعثرة القبور يعني شقها وتناثر ما فيها من رفات تهيئة لبعثها. ويأتي جواب الشرط (إذا) في الآيات الأربع الأولى من السورة بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: 5].

أي ما أسلفت من خير أو شر، وما سنت من سنن حسنة أو سيئة، وما عملت مما كلفت به وما لم تعمل.

وبعد هذا الاستهلال بالحديث عن عدد من الأحداث الكبرى التي سوف تتقدم الآخرة، تنتقل الآيات بعتاب من الله - تعالى - للإنسان يقول فيه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: 6-8].

أي: ما الذي خدعك يا أيها الإنسان وأطمعك في ربك فجرّأك على عصيان أوامره، وتجاوز حدوده وهو - تعالى - خالقك، ومسوّيك، ومعدلك، ومصورك؟

والخطاب هنا موجه إلى كل كافر، ومشرك، وعاصٍ من بني آدم، وهم من الخلق المكلفين، أصحاب الإرادة الحرة، ولكن غرّهم الشيطان، وزاد الجهل والكبر في غرورهم.

ويستشعر القارئ لهذه الآيات القرآنية الكريمة وعيداً وتهديداً من الله - تعالى - في ثنايا هذا العتاب الرقيق، يتهدد أصحاب القلوب الغافلة، والضمائر الغائبة، وتذكرهم بنعم الله - تعالى - عليهم، وهي نعم لا تحصى ولا تعد، وعلى رأس تلك النعم خلق الإنسان في أحسن تقويم، في هيئة سوية معتدلة تميزه عن بقية الخلق، وتفضله عليهم. وهي معجزة المعجزات لما فيها من إيجاد من العدم، ومن طور تلو طور، وما صاحب ذلك من تسوية وتعديل وتركيب حتى يجيء الفرد من بني آدم في هذه الخلقة الحسنة التي فضله الله سبحانه وتعالى بها على سائر خلقه.

وبعد ذلك توجه الآيات الخطاب إلى المكذبين بالدين، مؤكدة أن الإنسان محصية عليه أقواله وأعماله بواسطة الملائكة الحفظة الكرام البررة الموكلين والمكلفين بكل فرد من بني آدم، والذين يكتبون كل شيء عنه فتقول:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: 9-12].

و(كلا) كلمة زجر وردع، و(بل) حرف عطف وإضراب عما مضى من حديث، والاستعداد للدخول في قضية جديدة، وهي هنا قضية التكذيب بالدين. والدين هو بيان من الله - تعالى - للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها وذلك من مثل: قضايا العقيدة،

والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهي ركائز الدين، ومن ضرورات استقامة الحياة على الأرض. فلا يمكن للإنسان أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بغير دين، وفي نفس الوقت لا يمكن للدين أن يكون صناعة بشرية. وإذا سلمنا بهذه المقدمات ظهرت لنا علامة فارقة نستطيع أن نميز بها بين دين صحيح ودين غير صحيح، وهذه العلامة الفارقة هي دقة حفظ الوحي السماوي الذي أنزل مع الدين.

والدين الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظه فحفظ حفظاً كاملاً، هو الدين الإسلامي، كما تكامل في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ ولذلك تعهد ربنا - سبحانه - بحفظ وحيه في نفس اللغة التي أوحي بها - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا - جل شأنه - بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً إلى ما شاء الله، ولذلك فالإسلام هو «الدين» المقصود بأداة التعريف في هذه السورة الكريمة، وفي غيرها من سور القرآن الكريم.

كذلك فإن اليقين بمراقبة الله لعباده، وبتدوين ملائكته لجميع أقوالهم وأفعالهم هو من أعظم ضوابط السلوك البشري، ولذلك وصفه المصطفى ﷺ بالإحسان، واعتبره أعلى مراتب التدين.

وتختتم سورة الانفطار بالتحذير من أهوال يوم الدين الذي لا تملك نفس لنفس شيئاً فيه. وتقرر مصائر كلٍّ من الأبرار والفجار في هذا اليوم العصيب فتقول:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: 13-19].

والأبرار هم المؤمنون الصادقون، الذين برّوا إيمانهم بالله - تعالى - فالتزموا أوامره، واجتنبوا نواهيه. والفجار هم نقائض الأبرار فمنهم من ينكر الدين جملة وتفصيلاً، أو ينكر معلوماً منه بالضرورة، ومنهم مقترفو المظالم والمتجبرون على الخلق بغير الحق، والآكلون لحقوق الغير بالباطل، ومنهم الغارقون في الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن، والمجاهرون بالمعاصي في غير حياء ولا خجل.

وتؤكد هذه السورة الكريمة كما يؤكد كل القرآن الكريم خلود الأبرار في جنات

النعيم، وخلود الكفار في نار الجحيم، التي يصلَوْنها يوم الدين، دون إمكانية للفرار منها، أو النجاة من عذابها ولو للحظة واحدة.

ولما كان التكذيب بيوم الدين هو حجة الكفار، فإن السياق القرآني يعود إليه في ختام سورة الانفطار بسؤال مكرر مرتين لمزيد من التأكيد، فتقول هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ والسؤال موجه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولكل مؤمن برسالته من بعده ليؤكد أن أهوال يوم الدين لا يقوى خيال البشر على تصورها، فالأمر أخطر وأعظم من أن يحيط به إدراك الناس، لأنه فوق كل تصور، وتوقع، واحتمال بشري لأنه فوق كل مألوف عندهم، ويكفي في وصف ذلك أن نفساً لا تملك لنفس شيئاً، وأن الأمر كله لله.

وبذلك فإن مطلع سورة الانفطار وما فيه من أهوال التدمير الكوني يلتقي بخواتيمها وفيها تقرير مصائر كلٍّ من الأبرار والفجار في يوم الدين، والعجز البشري الكامل في هذا اليوم الذي لا يملك الأمر فيه إلا الله سبحانه وتعالى، وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة، ولكنه - تعالى - سمح لعباده المكلفين في الدنيا بهامش من الإرادة الحرة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

وبذلك تختتم سورة الانفطار التي قال عنها رسول الله ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى القيامة رأي العين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ **[التكوير: 1]**، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ **[الانفطار: 1]**، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ **[الانشقاق: 1]**».

من ركائز العقيدة في سورة «الانفطار»:

1 - الإيمان بحتمية الآخرة، وبما فيها من تدمير للنظام الكوني الحالي وإعادة خلقه، وما بعد ذلك من البعث، والحساب، والجنة والنار.

2 - اليقين بأن الإنسان سوف يخبر يوم القيامة بما قدم وأخّر، وأن أعماله محصية عليه بدقة فائقة، وأنها سوف تعرض كاملة يوم القيامة، وأن كل إنسان موكل به ملكان كريمان يحفظانه بأمر الله، ويحفظان عنه بأمر الله كذلك كل ما ينطق به من كلام، وما يقوم به من أعمال، حتى يشهدا عليه في يوم الحساب.

3 - التسليم بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وهو كريم بعباده، ومن

مظاهر كرمه خلق بني آدم في أحسن تقويم، وأفضل تسوية، وأكمل خلقة، وذلك لأن الله - تعالى - هو الذي يركب كل فرد من أفراد خلقه في الصورة التي يشاء.

4 - الإيمان بالدين الخاتم الذي بعث به الرسول الخاتم ﷺ والذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه.

5 - التصديق بأن الأبرار سوف يخلدون في جنات النعيم، وأن الفجار سوف يخلدون في الجحيم الذي لا يستطيعون الخروج منه، ولا الفرار عنه.

6 - التسليم بأهوال يوم الدين كما يصفها القرآن الكريم.

7 - اليقين بأنه في يوم الدين لا تملك نفس لنفس شيئاً وأن الأمر كله بيد الله - تعالى - وحده.

من الإشارات العلمية في سورة «الانفطار»:

1 - الإشارة إلى أن نهاية السماء في تصدعها وانشقاقها بأمر من الله - تعالى -، والعلوم المكتسبة تشير إلى إمكانية ذلك بانهيار القوى المتعددة الممسكة بمختلف صور المادة والطاقة فيها.

2 - إثبات أن نهاية الكواكب تأتي بانفجارها وانتثار أشلائها، ووجود كل من الكويكبات والنيازك والشهب دليل على ذلك.

3 - ذكر تفجير البحار في يوم القيامة، والعلوم المكتسبة تثبت أن جميع محيطات الأرض وأعداد من بحارها بدأت بخسوف أرضية عميقة تصل إلى نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة بملايين الأطنان لتدفع جانبي تلك الخسوف يمنة ويسرة حتى تتحول إلى بحار طولية من مثل البحر الأحمر، ثم يظل قاعه في الاتساع حتى يصل إلى مرحلة المحيط وإذا فجر قاع المحيط بمعدل أكبر فسوف تغور مياه المحيطات إلى نطاق الضعف الأرضي الذي أخرج الله - تعالى - ماء الأرض منه أول مرة.

4 - الإشارة إلى بعثرة القبور في يوم البعث أي شقها وتناثر ما فيها حتى ينكشف ما تحويه بما في ذلك من عجب الذنب فيطوله ماء السماء الذي ينبت به كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها فيتحقق قول الله - تعالى -:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ [نوح: 17، 18].

ويتحقق قول رسولنا ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»**[1].

5 - التأكيد على خلق الإنسان، وتسويته، وتعديله، وتركيبه في صورة محددة حددها الله - تعالى - لكل فرد من بني آدم قبل خلقه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على ما جاء في النقطة الخامسة من القائمة السابقة عن خلق الإنسان وتسويته وتعديله وتركيبه في الصورة التي حددها له الله ﷻ والتي جاءت في الآيات الثلاث (6-8) من سورة الانفطار.

من الدلالات العلمية للآيات الثلاث الكريمة:

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾:

جاء الفعل (خَلَقَ) بمشتقاته في القرآن الكريم (252) مرة للتأكيد على حقيقة أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، ولذلك قال - عز من قائل -: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

وجاءت الإشارة إلى خلق الإنسان في أكثر من مائة موضع من كتاب الله في مراحل محددة سبق لنا ذكرها، ولا أرى داعياً لإعادتها هنا.

وهذه الآيات القرآنية الكريمة تصف خلق الإنسان من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى آخر إنسان، وهي مراحل يتمم بعضها بعضاً، فصّلها القرآن الكريم لأنها قضية غيبية بالنسبة إلى الإنسان، ولذلك فإن الخوض فيها بغير هداية ربانية هو ضربٌ من التيه الذي لا سبيل للإنسان إلى الخروج منه مهما توافر لديه من أدلة مادية. وذلك لأن النقلة من طين الأرض إلى الخلية الحية لا يمكن لها أن تتم بغير قدرة الخالق البارئ المصور الذي وصف ذلك بقوله العزيز:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن

---

(1) تقدّم تخريجه سابقاً.

سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7-9].

وجسم الإنسان مكون من تريليونات الخلايا التي تتنوع بتنوع وظائفها. وأغلب هذه الخلايا على قدر من الضآلة بحيث لا يتعدى قطر الخلية الواحدة منها 0,03 من المليمتر، وهي على الرغم من ذلك بناء معقد غاية التعقيد، وتعمل بإحكام تعجز عن محاكاته أضخم المصانع التي بناها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد، ويتضح ذلك من استعراض مكونات الخلية الحية والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

مكونات الخلية الحية:

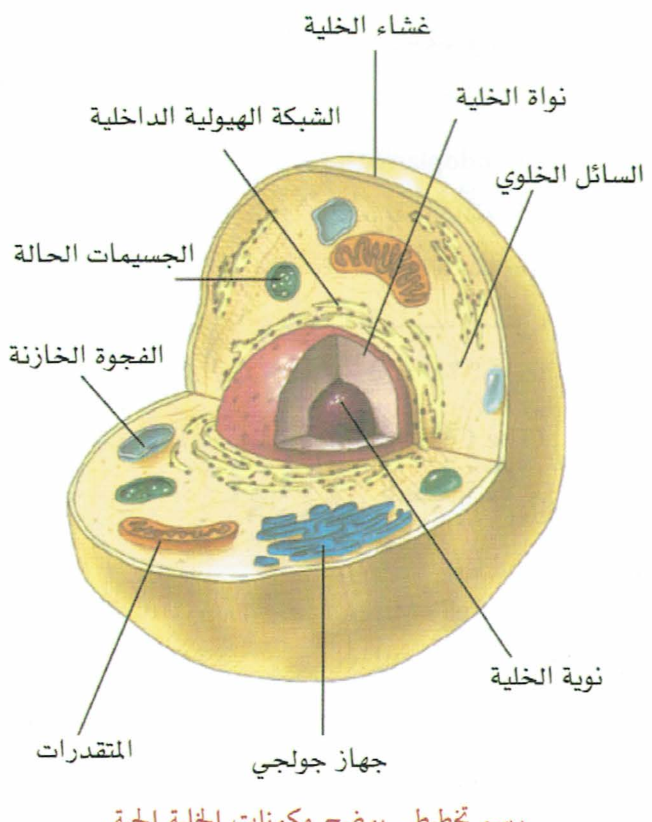
1 - **جدار الخلية (Cell Wall)**: وهو جدار غشائي، مرن، حي، مكون من أعداد من البروتينات والشحميات الفوسفاتية، أعطاه الله - تعالى - القدرة على التحكم في كل ما يدخل إلى الخلية أو يخرج منها، وعلى التفاعل بحيوية مع الخلايا المجاورة التي يتبادل معها الغذاء والمخرجات.

2 - **السائل الخلوي أو الهيولى (Cytoplasm)**: وهو سائل كثيف القوام جيلاتيني، ذو تركيب معقد، يملأ جدار الخلية، ويحوي العديد من العضيات (Organelles) التي لكل واحدة منها وظائفها الحيوية الخاصة بها، ومنها ما يقوم بإنتاج جميع البروتينات المختلفة التي تحتاجها الخلية في نموها وفي ترميم ما يعطب من أجزائها المختلفة، ومنها ما يقوم بإنتاج الطاقة الخاصة بنشاط الخلية الحية، ومنها ما يقوم بتدعيم الخلية، ومنها ما يقوم بخزن المواد المنتجة في داخل الخلية ومنها ما هو غير ذلك.

3 - **الحبيبات (Granules)**: وهي حبيبات دقيقة منتشرة في السائل الخلوي ولها العديد من الوظائف الحيوية فيه.

4 - **الريباسات أو الجسيمات الريبية (Ribosomes)**: وهي عضيات دقيقة جداً، منتشرة في السائل الخلوي، ومكونة من مواد بروتينية بالإضافة إلى الحمض النووي الريبي (RNA) وهي مراكز إنتاج البروتينات التي تحتاجها الخلية.

5 - **جهاز جولجي (The Golgi Apparatus)**: وهو عبارة عن تكتلات غشائية عائمة



رسم تخطيطي يوضح مكونات الخلية الحية.

في السائل الخلوي تقوم بإفراز أعداد من العصائر لتنشيط دور الإنزيمات في داخل الخلية الحية.

6 - **الجسيمات الحالة (Lysosomes)**: وهي خزانات غشائية تقوم بخزن الإنزيمات المنتجة وعزلها عن بقية سوائل الخلية.

7 - **المتقدرات (Mitochondria)**: أو منتجات الطاقة وهي مطويات غشائية أعطاها الله - تعالى - القدرة على تحويل جزء مما يصل إلى الخلية من غذاء إلى طاقة.

8 - **الفجوات الخازنة بداخل الخلية (Intra cellular storage vacuoles)**: وهي أكياس غشائية دقيقة جداً تقوم بخزن عدد من المركبات الكيميائية الخاصة.

9 - **الفجوات المنقبضة بداخل الخلية (Intra cellular contractile vacuoles)**: وهي

خزانات غشائية تقوم بطرد السوائل الزائدة على الحاجة، والفضلات الناتجة عن مختلف أنشطة الخلية الحية إلى خارجها.

10 - **الشبكة الهيولية الداخلية (The Endoplamic Reticulum)**: وهي طيات غشائية دقيقة تكوّن عدداً من الراقات والأنابيب الشعرية الفائقة الدقة التي تشكل أسطحاً وممرات خاصة للتفاعلات الكيميائية المعقدة، ثم تقوم بنقل نواتج تلك التفاعلات إلى مختلف أجزاء الخلية، وبعض هذه الراقات والأنابيب أملس، والبعض الآخر خشن السطح ولكلٍّ وظائفه الخاصة به.

11 - **الأنيبيبات الدقيقة للخلية (The Cell's Microtubules)**: وهي أنابيب أدق من الشعرية، فارغة، مكونة من مواد بروتينية تعطي للخلية قدراً من التدعيم، وتسمح لها بالحركة.

12 - **الشعيرات الدقيقة للخلية (The Cell's Microfilaments)**: وهي خيوط أدق من الأنيبيبات الدقيقة، ومكونة من مواد بروتينية كذلك، وتساعد في عملية تدعيم الخلية وتسمح لها بشيء من الحركة أيضاً.

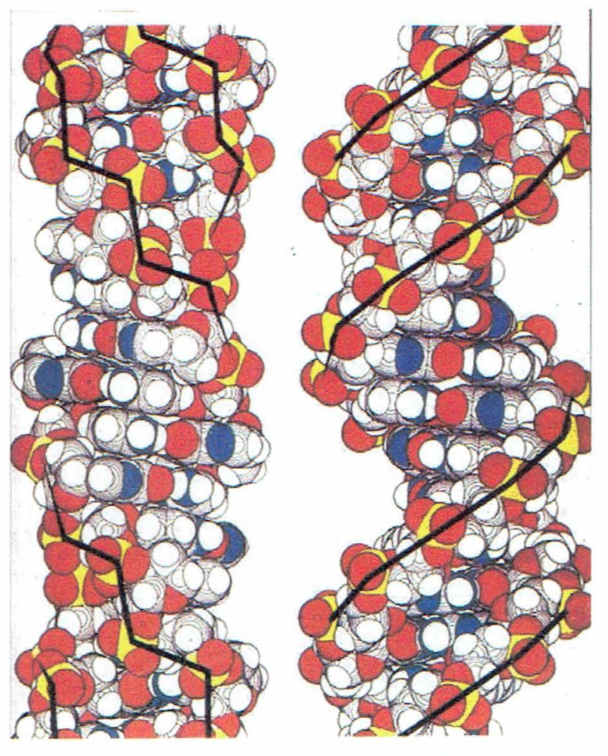
13 - **مريكزات الخلية (The Cell's Centrioles)**: وهي شعيرات أنبوبية فائقة الدقة يبدو أن لها علاقة بعملية انقسام الخلية.

14 - **نواة الخلية (The Cell's Nucleus)**: وهي أكبر جسيمات الخلية حجماً، وأرفعها قدراً، لأنها تحكم كل أنشطة الخلية وتنظمها، وتنسق بينها. ونواة الخلية محاطة بغشاء خاص يفصلها عن السائل الخلوي، وهي تحوي عدداً محدداً من الجسيمات الصبغية (الصبغيات) وعددها في خلية الكائن الحي محدد للنوع. وهذه الصبغيات تحمل المورثات (Genes) التي تحدد الصفات الوراثية للخلية، وللكائن المبني جسده من مثل تلك الخلية، ولنسله من بعده إلى قيام الساعة.

15 - **نوية الخلية (The Cell's Nucleolus)**: وهي عبارة عن تجمع كثيف لجزيئات الحمض النووي الريبي (RNA) مكدس في داخل النواة، ووظيفته إنتاج وتخزين الجسيمات الريبية أو الريباسات (Ribosomes).

16 - **الجسيمات الصبغية أو الصبغيات (The Chromosomes)**: وهي جسيمات دقيقة جداً في نواة الخلية، سميت بهذا الاسم لتلونها بالأصباغ التي تضاف إلى الخلية الحية

بشدة أكثر من غيرها من مكونات الخلية، وعددها في نواة الخلية محدد لكل نوع من أنواع الحياة، وعددها في الخلية البشرية (46) مرتبة في (23) زوجاً في نوى كل الخلايا التي تحمل نواة، ما عدا خلايا التكاثر التي يحمل كل منها نصف هذا العدد (أي 23 صبغياً فقط)، فإذا اتحدت نطفتا الزوج والزوجة تكامل عدد الصبغيات إلى (46) في النطفة الأمشاج (المختلطة)، وبذلك يأتي الأبناء على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين، مما يحقق هذا التنوع البديع في الخلق.



رسم تخطيطي يوضح أن الحمض النووي يتكون من لفائف دقيقة الحجم لافة على ذاتها بشكل حلزوني.

وتتكون الصبغيات من تجمعات الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين (DNA) ومن البروتينات بنسب متساوية تقريباً.

17 - جزيء الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين (DNA) ويتكون من لفائف متناهية الدقة في الحجم، تتكون كل لفافة منها من سلسلتين ملتحمتين في الوسط بواسطة جسيم مركزي (centromere) وتتكون كل سلسلة منهما من عدد من القواعد النيتروجينية وجزيئات السكر والفوسفات. وتلتف السلسلتان حول محور وهمي على هيئة حلزونية مطوية طياً شديداً تعرف باسم «اللفائف الحلزونية مزدوجة الجدار للحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين» (The Double Helix DNA Strands). ويبلغ قطر هذا الحلزون واحداً من نصف مليون جزء من المليمتر، ويبلغ حجمه وهو مكدس على ذاته في داخل الجسيم الصبغي واحداً من المليون من المليمتر المكعب، ويبلغ سمكه واحداً من خمسين مليون من المليمتر.

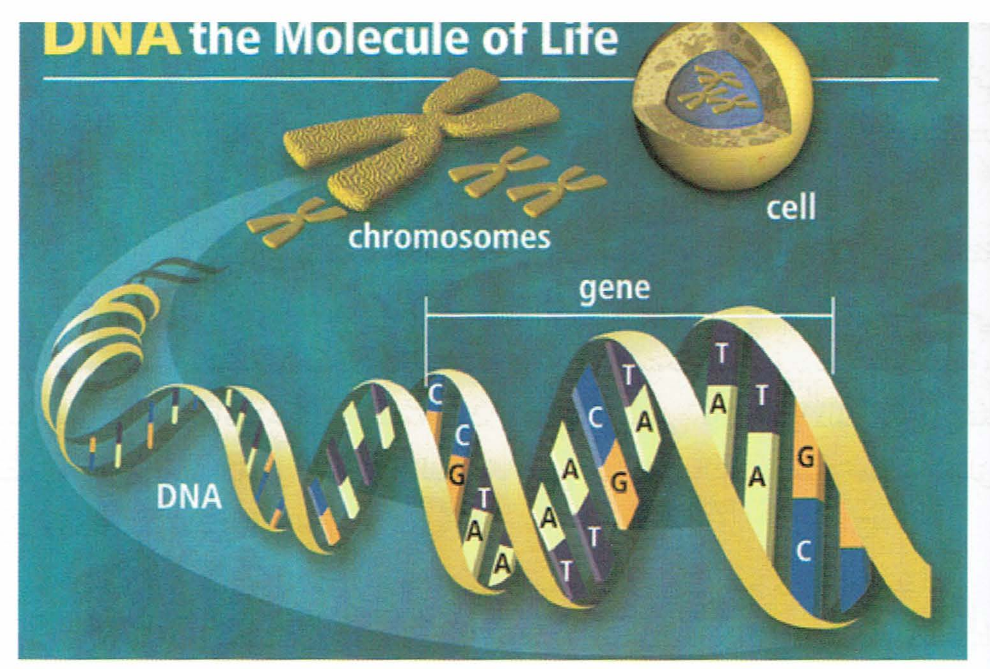
وإذا فرد هذا الحلزون فإن طول جزيء الحمض النووي المكون له يصل إلى حوالي الأربعة سنتيمترات تحوي أكثر من أربعمائة مليون جزيء من القواعد النيتروچينية والسكر والفوسفات (404,347,800 جزيئات)، وهذه الجزيئات مرتبة ترتيباً دقيقاً مبهراً يعطي لكل فرد من بني آدم بصمة وراثية خاصة به تميزه عن غيره، ومعنى ذلك أنه إذا تم فرد جميع الصبغيات في خلية بشرية واحدة، وتم رصها بجوار بعضها البعض فإن طولها يصل إلى حوالي المترين (46 صبغياً × 4 سم = 184 سم)، وإذا تم ذلك بالنسبة للصبغيات الموجودة في جسم فرد بالغ متوسط الحجم من بني آدم يحمل جسمه حوالي التريليون خلية في المتوسط، فإن طول شيفرته الوراثية يزيد على طول المسافة بين الأرض والشمس (والمقدرة بحوالي المائة وخمسين مليون كيلو متر) بأكثر من عشر مرات (12,3 مرة تقريباً).

وإذا كان الصبغي الواحد يحتوي على أكثر من أربعمائة مليون جزيء من القواعد النيتروچينية والسكر والفوسفات فإن صبغيات خلية بشرية واحدة تحتوي على 18,6 بليون جزيء من تلك الجزيئات المرتبة ترتيباً في غاية الدقة والإحكام، وإذا اختل وضع جزيء واحد من هذه الجزيئات فإن الكائن الذي يحمله إما أن يشوه أو ألا يكون. وعلى الرغم من التشابه الشديد للتركيب الكيميائي للحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين (DNA) بين جميع بني آدم إلى 99,9%، فإن النسبة الباقية وهي 0,1% كافية لإعطاء كل فرد من بني آدم بصمة وراثية مميزة له عن غيره.

18 - المورثات (Genes): يقسم كل صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة (Markers) إلى وحدات طولية في كل منها عدد من المورثات التي يتحكم كل منها في صفة واحدة أو في عدد من صفات الخلية الحية، وبالتالي في صفات الجسد الذي يحملها. والمورث هو جزء من جزيء الدنا (DNA) يتحكم في إصدار الأمر بإنتاج بروتين أو بيبتيد (Peptide) معين. وتوجد المورثات في زوجية واضحة يحتل كل مورث منهما مكانه على أحد جداري اللفيفة مزدوجة الجدار.

19 - الشفيرات (Codons): يتكون كل مورث من عدد محدد من الشفيرات، تتكون كل واحدة منها من ثلاث نويدات.

20 - النويدات (Nucleotides): تتكون النويدة من زوج من القواعد النيتروچينية تستند كل قاعدة منهما إلى جزيئين أحدهما من السكر والآخر من الفوسفات، حيث



رسم تخطيطي يوضح وجود الصبغيات في نواة الخلية في حالة زوجية وبناؤها من الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين.

تكوّن جزيئات السكر والفوسفات جداري اللفيفة الحلزونية المزدوجة الجدار للحمض النووي الريبي منزوع الأوكسيجين (DNA) وتنتشر بينها أزواج القواعد النيتروچينية على هيئة درجات السلم الخشبي المتوازي الجانبين في علاقات تبادلية محكمة.

21 - بروتينات الخلية الحية (The Living Cell Proteins): **أعطى الخالق ﷻ الخلية الحية من خلايا جسم الإنسان القدرة على إنتاج أكثر من ثمانين ألف نوع مختلف من البروتينات**، وهذه البروتينات تتكون من عشرين نوعاً فقط من الأحماض الأمينية التي تترتب ذراتها ترتيباً يسارياً في أجساد كل الكائنات الحية، وتترتب ترتيباً يسارياً كذلك في بناء جزيئات جميع البروتينات، وترتبط مع بعضها البعض برباط واحد اسمه الرباط الببتيدي (The Peptide Bond)، ولكن بمجرد وفاة الخلية الحية يعيد كل ذلك ترتيب ذراته ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة تمكن الدارسين من تحديد لحظة الوفاة للخلية التي عاشت ثم ماتت بدقة بالغة وذلك بنسبة الترتيب اليميني إلى اليساري في الأحماض الأمينية المحفوظة في أي جزء من أجزاء الخلية.

هذا التعقيد المذهل في بناء الخلية الحية، وفي الوظائف التي تقوم بها لا يترك مجالاً لعاقل إلا أن يسلم بحقيقة الخلق، وعظمة الخالق، وذلك لأن النقلة من طين الأرض إلى هذا البناء المذهل للخلية الحية لا يمكن لها أن تتم إلا بتدبير من الله القادر العليم الخبير الحكيم.

وإذا كان المنطق السوي يستبعد إمكانية تكون خلية حية واحدة من طين الأرض بطريقة تلقائية، عفوية، فإن خلق إنسان بالغ بجسد يضم تريليوناً من الخلايا في المتوسط، وهي خلايا متخصصة، تنتظمها أنسجة متخصصة، في أعضاء متخصصة، في نظم متخصصة، تعمل جميعها في توافق عجيب لخدمة ذلك الجسد الإنساني فإن خلق ذلك يكون أشد استحالة على العشوائية أو العفوية والصدفة، ومن هنا كان التأكيد على حقيقة الخلق بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ. . .﴾ [الانفطار: 6،7].

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾:

إذا كان المقصود بالخلق هو التقدير المستقيم في إبداع شيء على غير مثال سابق، فإن ذلك يشمل خلق الإنسان الأول كما يشمل خلق النطف، وإذا كان المقصود بالخلق هو إيجاد شيء من شيء آخر فإن ذلك يشمل كل مراحل الجنين الإنساني، أما التسوية فتشمل تهيئة النطفة الأمشاج تهيئة كاملة لكي تكون جنيناً ناجحاً بصفات محددة. والتسوية هي مرحلة بعد طور النطفة الأمشاج وقبل نفخ الروح الذي يتم بعد طور المضغة بدليل قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 28،29].

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن

سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7-9].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71،72].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾
[القيامة: 36-40].

● ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: 1،2].

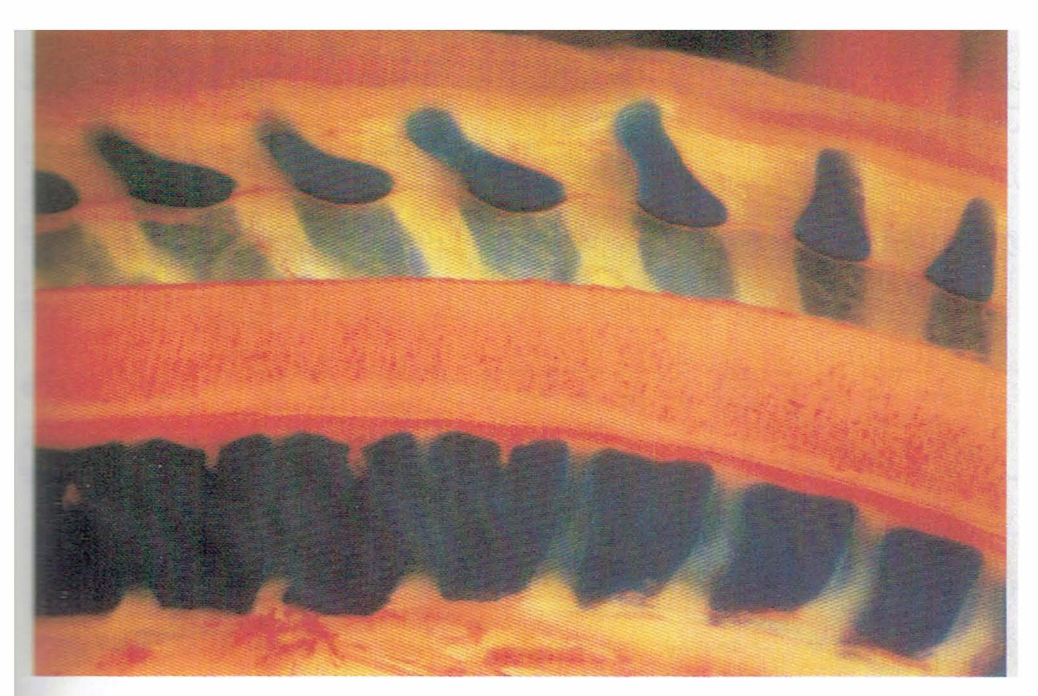
وتتأكد حقيقة أن نفخ الروح في الجنين يتم بعد طور المضغة من أقوال رسول الله ﷺ التي منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»(1).

ومنها ما رواه عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»(2).

ومعنى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المذكورة أعلاه أن **تسوية خلقة الجنين تتم في مرحلتي العلقة والمضغة، وطور العلقة يبدأ في اليوم الخامس عشر بعد الإخصاب ويستمر إلى اليوم الثالث والعشرين أو الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من عمر الجنين، بينما يبدأ طور المضغة من اليوم الرابع والعشرين إلى**

---

(1) تقدم تخريجه سابقاً.
(2) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).



صورة حقيقية لقطاع طولي في العمود الفقري لجنين (عمره 12 أسبوع) تظهر الغضاريف الفقرية باللون الأزرق، والقناة النخاعية باللون الأحمر.

السادس والعشرين ويستمر إلى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين أي إلى اليوم الثاني والأربعين كما حدده رسول الله ﷺ. وإلى هذه المرحلة والجنين ليست له أية ملامح بشرية، ولكن مع بداية الأسبوع السابع من عمر الجنين فإن الهيكل الغضروفي يبدأ في الانتشار في المضغة، ثم يتكلس معظم هذه الغضاريف فتتحول بإرادة الله - تعالى - إلى العظام ومن ثم تكسى العظام باللحم (العضلات والجلد).

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿فَعَدَلَكَ﴾:

تعتبر مرحلة العظام وكسوتها باللحم نهاية فترة التخلق، ولذلك يبدأ الجنين في اتخاذ المظهر الآدمي، ولعل هذه النقلة النوعية هي المقصودة بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: 7].

وقد أطلق القرآن الكريم على طور العظام وكسوتها باللحم (العضلات والجلد) تعبير «التعديل» وذلك بسبب الاستواء الطارئ على مظهر الجنين، وما يصاحب ذلك الاستواء من علاقات جديدة بين مختلف خلايا وأنسجة وأعضاء وأنظمة جسد ذلك الجنين،

فيأخذ في الاعتدال واكتساب الهيئة الآدمية الأولية التي تتميز بكثير من التناسق مما يمكّن الجنين من البدء في التحرك في بطن أمه.

وتبدأ كسوة العظام باللحم في الأسبوع الثامن من عمر الجنين (من اليوم الخمسين إلى السادس والخمسين من عمر الجنين) وتعتبر نهاية الأسبوع الثامن (اليوم السادس والخمسين من عمر الجنين) حداً فاصلاً بين مرحلتي الجنين (Embryo) والحميل (Foetus).

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾:

جاء ذكر تصوير الجنين البشري في خمس آيات قرآنية كريمة على النحو التالي:

1 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 6].

2 - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11].

3 - ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: 64].

4 - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 3].

5 - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: 7،8].

ومن أسماء الله الحسنى (المصور) كما جاء في قوله - تعالى -:

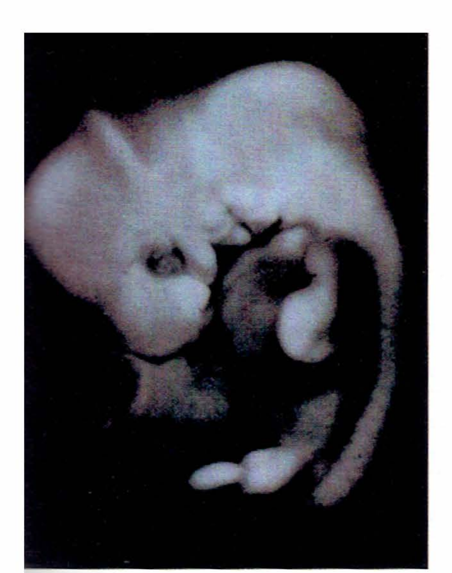
﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24].

وجاء ذكر تصوير الجنين البشري في أحاديث رسول الله ﷺ وذلك من مثل قوله الشريف: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب: ذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء ويكتبه الملك**»[1].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).

وواضح من هذا الحديث الشريف أن عملية تصوير الجنين تتم بعد نهاية الأسبوع السادس من عمره (أي بعد الليلة الثانية والأربعين)، وهي لحظة الانتقال من طور المضغة إلى طور الغضاريف والعظام، فتبدأ الغضاريف في الانتشار في جسم الجنين مع بداية الأسبوع السابع من عمره، وسرعان ما يتكلس أغلبها على هيئة العظام في الأسبوع الثامن من عمر الجنين (من الليلة الخمسين إلى السادسة والخمسين)، وبنهاية الأسبوع الثامن تكتمل مرحلة الجنين (Embryo)، وتبدأ مرحلة الحميل (Fetus or Foetus) التي سماها القرآن الكريم باسم **مرحلة النشأة**، وتبدأ هذه المرحلة من الليلة السابعة والخمسين بعد الإخصاب وتستمر إلى نهاية فترة الحمل وأقلها ستة شهور قمرية (أي 177 ليلة)، وأكملها تسعة شهور قمرية (أي 266 ليلة تقريباً).



صورة حقيقية لجنين بشري في يومه الثاني والأربعين.



صورة حقيقية لجنين بشري في يومه الثاني والخمسين.

وفي خلال مرحلة النشأة يبدأ الحميل في اكتساب الملامح البشرية التي بدأها بنهاية الأسبوع السادس بعد نفخة الروح مباشرة، وذلك بالتدريج بعد أن تكون جميع الأعضاء والأجهزة الداخلية قد اتخذت مواضعها المحددة أو كادت.

وأبرز سمات هذه المرحلة هو النمو المتصل والمتسارع حتى يصل نمو الحميل إلى اكتماله، ويزداد حجمه بازدياد نموه وبزيادة سمك الطبقة الدهنية تحت الجلد، ويتغطى جسده بطبقة دهنية متجبنة بعد أن يكون قد كتب على جبينه قدره، وقد سوى بنا

أصابع يديه ورجليه، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ في حديث طويل رواه البزار عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**إذا خلق الله النسمة قال ملك الأرحام: أي رب: ذكر أم أنثى؟ قال: فيقضي الله أمره.. ثم يقول: أي رب: شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثم يكتب بين عينيه ما هو لاق حتى النكبة ينكبها**»(1).

وقال ﷺ: «**النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك فأخذها بكفه فقال: أي رب: مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة، لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي رب: ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرض تموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال: اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق، فتعيش في أجلها، وتأكل في رزقها، وتطأ في أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك**»(2).

وقد ثبت علمياً أنه لا يتشابه فردان من بني الإنسان تشابهاً كاملاً أبداً، ففي حالات التوائم الصحيحة يتشابه التوأمان في صفاتهما الشكلية، ولكن يبقى لكل واحد منهما صفاته الذاتية، ونوازعه النفسية، وميوله ورغباته ومهاراته وقدراته الخاصة به.

وعلى ذلك فإن عملية خلق وتسوية وتعديل وتركيب كل فرد من بني آدم هي عملية خاصة به، تعطيه بصمة وراثية محددة، وبصمة إبهام مميزة لشخصه، وبصمة بصرية وجبهية كذلك، ولا يقدر على ذلك إلا الله الخالق البارئ المصور، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، لا إلٰه إلا هو.

فالمخزون الوراثي للبشر أجمعين من لدن أبينا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة خلقه الله - تعالى - وأودعه صلب أبينا آدم لحظة خلقه، ثم أعطيت أمنا حواء شطراً من هذا المخزون الوراثي، الذي أخذ في الانفراد بالتزاوج بين الذكور والإناث مع الزمن ليعطي البلايين من البشر إلى قيام الساعة، مع الاحتفاظ لكل فرد منهم بصفات محددة تميزه عن غيره، يقررها الله - تعالى - بعلمه وحكمته وقدرته، وتتضح في نصيبه من المخزون الوراثي الذي جمعه الله - تعالى - في صلب أبينا آدم عليه السلام وقدره في اللوح المحفوظ

---

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (الحديث: 2149).
(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 374).

لكل فرد من بني آدم. وفي ذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله - تعالى - كل نسب بينها وبين آدم**»[1].

ولعل هذا هو المقصود بالتركيب الذي ذكره الله ﷻ في قوله العزيز:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6-8].

ومن المعلوم اليوم أن الدفقة الواحدة من ماء الرجل تحمل ما بين مائتي مليون وألف مليون نطفة، ولكن لا يصل إلى البييضة من هذا العدد الهائل من النطف أكثر من خمسمائة نطفة، وأن البييضة لا تسمح إلا لنطفة واحدة بإخصابها، وهذه النطفة مختارة بواسطة العناية الإلٰهية لتحقيق صفات محددة لا تتكرر.

وإذا علمنا أن للأنثى وهي جنين في بطن أمها ما بين أربعمائة ألف بييضة وستة ملايين بييضة في مراحل تكوينها الأولى، ولكنها عند البلوغ لا يبقى في غدتيها التناسليتين سوى بضعة عشرات الآلاف من البييضات، تنمو منها واحدة كل شهر طوال فترة خصوبتها المقدرة بحوالي الثلاثة والثلاثين سنة في المتوسط، فإن مجموع ما يفرزه جسم المرأة البالغة من بييضات لا يتعدى الأربعمائة طوال مدة خصوبتها. ويهلك أغلب هذا العدد قبل الزواج، وفي الفترات التي لا يتم حمل خلالها بعد الزواج.

وعلى ذلك فإن القدرة الإلٰهية هي التي تختار نطفة ذكرية محددة من بين ملايين الملايين من النطف التي يهبها الله - تعالى - لرجل محدد، ليلتقي مع بييضة محددة من امرأة محددة اختارها الله - تعالى - له في مكان وزمان محددين ليخرج منهما مولود بصفات وراثية (شكلية ونفسية) محددة.

وتذكر الدراسات الطبية أنه في مقابل كل نطفة أنثوية (بييضة) تفرزها الزوجة فإن الزوج يفرز بليون نطفة ذكرية على الأقل، وتصطفي القدرة الإلٰهية المبدعة من هذا الكم الهائل من النطف نطفة مؤنثة محددة تحمل شيفرة وراثية محددة لتلتقي بنطفة مذكرة معينة تحمل شيفرة وراثية محددة في زمان ومكان محددين ليتخلق منهما جنين بصفات وراثية قدرها الله ﷻ سلفاً في علمه الأزلي.

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 5/ 72) وأخرجه ابن كثير في «تفسيره» (8/ 365).

وإذا علمنا أن كلاً من النطفتين الذكرية والأنثوية يحمل23 جسيماً صبغياً، وأن كل صبغي يحمل حوالي 35 ألف مورث (جين)، وأن التقاء الجسيمات الصبغية الستة والأربعين في النطفة الأمشاج يعطي مجالاً هائلاً لاصطفاء صفات الجنين الظاهرة عليه، والمستترة كي تظهر أو لا تظهر في نسله من بعده، بحيث يحدد لكل جنين بصمته الوراثية المحددة وصفاته التشريحية والشكلية المميزة. وقد عرف من هذه المورثات ما يتحكم بأمر الله - تعالى - في شكل الجنين، ومنها ما خصص للتحكم في تسوية أعضائه حتى تصل إلى شكلها الكامل، وما يتحكم في غير ذلك من الصفات الشكلية من مثل لون كلٍّ من البشرة، والشعر، والعينين، ومن مثل طول القامة، ونحافة القد أو ضخامته، وفي غير ذلك من الصفات.

وهذه المورثات هي من خلق الله ﷻ ومن اختياره، وهي التي تتحكم بإذن الله الخالق البارئ المصور في تحديد كل صفات الجنين التي تميزه عن غيره من المخلوقين، ولذلك قال - تعالى - معاتباً الكفار والمشركين والعصاة المتجاوزين حدود الله من بني آدم، وهم من خلقه المكلف صاحب الإرادة الحرة، يعاتبهم ربهم على كفرهم أو شركهم أو عصيانهم فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6-8].

وقوانين الوراثة التي تتحكم في تركيب مجموع صفات الحميل هي من العلوم المستحدثة التي لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده. وإفصاح القرآن الكريم عن أن الله - تعالى - هو الذي يخلق، ويسوي الخلقة، ويعدلها، ويركبها في الصورة التي اختارها لها؛ هو سبق علمي واضح.

وبالمثل فإن هذه المراحل المتتالية من الخلق، والتسوية، والتعديل، والتصوير والتركيب والتنشئة لم تدرك إلا بعد تطور علم الأجنة في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها في هذه السورة المباركة، وتسميتها بأسمائها المحددة في أكثر من مائة موضع من مواضع كتاب الله الكريم لممّا يقطع لكل ذي بصيرة بأن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه

على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ﷻ بذلك الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الناس كافة إلى يوم الدين.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بالدين الخاتم الذي ختمت به رسالات السماء، وانقطعت النبوة فلا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مطلع الثلث الأخير من سورة «الواقعة»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ست وتسعون (96) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بذكر الآخرة أو القيامة، و(الواقعة) من أسمائها، ومن دلالات هذا الاسم: حتمية وقوع الآخرة ووجوبها بنزول صيحة القيامة وذلك حين تنفخ النفخة الثانية في الصور.

ويدور المحور الرئيس لسورة «الواقعة» حول قضية البعث، والتأكيد على حتمية وقوعه، والرد على منكريه، ولذلك تبدأ بقول ربنا - تبارك وتعالى-:

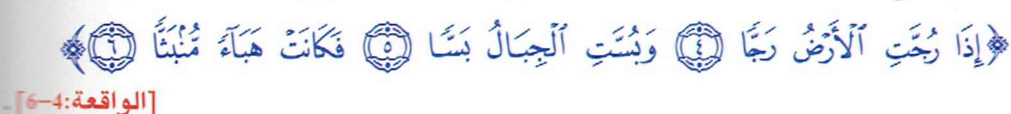
﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

[الواقعة:1-3].

ومن معاني ذلك: أنه إذا وقعت صيحة القيامة - وهي حتماً واقعة - وذلك حين ينفخ في الصور النفخة الأولى فيدمر الكون، ويهلك كل حي، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية فيبعث كل من في القبور بعد إعادة بناء أرض غير أرضنا، وسمٰوات غير السمٰوات المحيطة بنا، ويقوم الموتى بعد أن كانت أجسادهم قد تحللت وبليت، وحينئذٍ لا يمكن لأحد تكذيب ما أخبر به ربنا - تبارك وتعالى - عن حقيقة القيامة. ومن معاني وصفها بأنها: (خافضة رافعة) أي أن الآخرة سوف تخفض أقواماً كانوا في الدنيا من أصحاب الجاه والسلطان، وذلك لكفرهم

بالله - تعالى - أو شركهم به، أو ظلمهم لعباد الله وتجبرهم على خلقه، أو تكبرهم على عبادة الخالق سبحانه وتعالى وتطاولهم على أوامره؛ وفي المقابل فإن الآخرة سوف ترفع أقواماً آخرين كانوا في الدنيا من البسطاء المغمورين، ولكنهم كانوا من أهل الله وخاصته، أهل القرآن الكريم، المؤمنين بالله ورسوله، الواقفين عند حدوده، القائمين على عبادته بما أمر، والمجاهدين في سبيل الله - تعالى - من أجل عمارة الأرض وحسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها وإقامة عدل الله عليها.

ثم تتابع سورة «الواقعة» بوصف عدد من الأحداث الكبرى المصاحبة للقيامة فتقول:



﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

[الواقعة:4-6].

أي: إذا زلزلت الأرض زلزلة الساعة التي تفوق أقوى الهزات الأرضية المعروفة بمعدلات مهولة، وأصبحت الجبال هباءً منبثاً كرهج الغبار الذي ذرته الريح فصار متفرقاً، أو نسفت نسفاً فأصبحت كالعهن المنفوش، أو فتتت تفتيتاً فصارت كالدقيق المبسوس أي: المبلول والذي يعرف باسم (البسيس).

وتصنّف الآيات الناس في هذا اليوم العصيب إلى مجموعات ثلاث كما يلي:

1 - ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ . . .﴾ [الواقعة: 10]: وهم ثلة من الأولين؛ أي: فرقة أو جماعة منهم، وقليل من الآخرين، وثوابهم من الله عظيم.

2 - ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ . . .﴾ [الواقعة: 27]: وهم الأبرار المؤمنون، ومنهم جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين، وهم عند الله - تعالى - من المكرمين بالجنة، الناجين بإذنه من نار الجحيم.

3 - ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: 41]: وهم أهل النار الذين سوف يُسْتَذَلُّون في الآخرة، ويُعَذَّبون ويُهَانون بسبب كفرهم أو شركهم بالله - تعالى - أو تجاوزهم لحدوده دون توبة، أو بسبب إنكارهم لبعثة الرسول الخاتم ﷺ، أو للبعث والحساب والجنة والنار، أو بسبب ظلمهم للعباد وتجبرهم على الخلق، وإفسادهم في الأرض وإشاعتهم للفواحش بين الناس، أو غير ذلك من موجبات غضب الله وسخطه.

وهذا الاستعراض القرآني يؤكد حتمية مصائر الموصوفين كما وصفهم رب العالمين، بأسلوب منطقي رصين، يجعل الآخرة هي الواقع القائم الخالد، ويجعل الدنيا كأنها

الماضي الفائت الزائل، احتقاراً لشأنها، وتهويناً من أمرها. وذلك مما يؤكد أيضاً أن الزمن من خلق الله، والمخلوق لا يحد الخالق أبداً، فالماضي والحاضر والمستقبل كله عند الله سبحانه وتعالى حاضر، فلا يغيب شيء عن علمه سبحانه وتعالى أبداً.

وتفصل الآيات جزاء كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث، مؤكدة حقيقة أن الله - تعالى - هو خالق الإنسان، ومدبر الأكوان، وصاحب الأمر في كل شيء وشأنه، ومستعرضة عدداً من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الوجود للتأكيد على كل ذلك، ومن هذه الآيات: خلق الإنسان من مني يمنى، ثم تقدير الموت عليه، ثم إعادة بعثه بعد موته، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: 57-62].

وتشير هذه الآيات إلى حقيقة خلق الإنسان، وإلى حتمية موته وبعثه، مما يشهد لله الخالق سبحانه وتعالى، بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، كما تشهد له - سبحانه - بعبودية جميع خلقه له، وخضوعهم لقدره إما بإرادة أو بغير إرادة في الخلق المكلف وغير المكلف.

وتستدل الآيات على ذلك بخلق خلايا التكاثر التي تحمل في الإنسان صفات البشر من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى آخر نفر من نسله؛ كما تستدل عليه بحتمية الموت الذي فرضه ربنا - تبارك وتعالى - على جميع خلقه، وهو الحي، الباقي، الدائم، الذي لا يموت ولا يفوت أبداً.

ومن الآيات التي استشهدت بها سورة «الواقعة» في هذا المضمار إنبات الزروع، ولو شاء الله - تعالى - ما أنبتت أو أهلكها بعد إنباتها وخروج ثمرها، وفي ذلك تقول:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة:63-67].

ومن هذه الآيات دورة الماء حول الأرض بعد إخراجه من داخلها، وذلك بإنزال الماء

من السحاب عذباً زلالاً سائغاً للشاربين - من رحمة الله وفضله - ولم يجعله ملحاً أجاجاً - بذنوب الناس ومعاصيهم -، ولو شاء الله - تعالى - لجعله مراً زعافاً، لولا شكر بعض الصالحين، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى-:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة:68-70].

ومن آيات الله الدالة على إبداعه في خلقه إعطاؤه للشجر الأخضر القدرة على تخزين قدر من طاقة الشمس على هيئة عدد من الروابط الكيميائية التي تربط بها ذرات الكربون المستخلصة من ثاني أوكسيد الكربون الموجود في الجو، بذرات الإيدروجين المستخلصة من ماء الأرض في عدد من الكربوهيدرات من مثل مختلف أنواع السكر والنشا والسيليولوز وغيرها التي تتحول بعد جفاف النبات أو تفحمه أو تفحيمه إلى مصدر من مصادر النار (أي الطاقة) من مثل القش والحطب، والفحم النباتي، والفحم الحجري، والغازات المصاحبة له، وعندما يأكل الحيوان هذه الكربوهيدرات تتحول في جسده إلى دهون وزيوت تتحول عند الدفن بمعزل عن الهواء إلى النفط وما تصاحبه من غازات، وكلها من مصادر الطاقة، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:71-74].

ثم يقسم ربنا - تبارك وتعالى - وهو الغني عن القسم - بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها - على عظم شأن النجوم - لأن الإنسان لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً من على سطح الأرض، ولكن يرى مواقع للنجوم، وذلك نظراً لفخامة أبعاد النجوم عنا، ولأن الضوء - كباقي صور الطاقة ومختلف صور المادة - لا يمكنه التحرك في خطوط مستقيمة في صفحة السماء، ويأتي هذا القسم بصياغة مفخمة لتأكيد عظمته - لو يعلم الناس قدره - على أن القرآن كتاب كريم، محفوظ بحفظ الله، ومن سمات تكريمه أن الله - تعالى - قد تعهد بحفظه، وأمر بألا يمسه إلا المطهرون، وأنه تنزيل من رب العالمين الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وفي ذلك يقول - وهو أحكم الحاكمين -:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠)﴾ [الواقعة:75-80].

وبعد ذلك مباشرة تتوجه الآيات بالخطاب إلى الكفار والمشركين الذين كذبوا بالقرآن الكريم، وببعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ، وتتهددهم بلحظة الاحتضار، وحشرجة الصدر، وانتزاع الروح من البدن، والمحتضر - في هذه اللحظة الحرجة وقد بلغت روحه الحلقوم - عاجز كل العجز عن دفع قدر الله، ومن حول المحتضر الأهل والأبناء، والإخوان والأصدقاء وهم لا يملكون له شيئاً سوى الوقوف العاجز، وهم جميعاً مشدوهون، مذهولون، حائرون، خائفون، وجلون. ويخلص الأمر كله إلى الله - تعالى - الذي يسترد أمانته في وقتها الذي حدده لها، وتعجز الدنيا كلها عن تغيير ذلك القرار الإلهي الحازم الجازم ولو لجزء من الثانية تقديماً أو تأخيراً، وفي ذلك يقول ربنا - وهو أصدق القائلين -:

﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (٨٣) وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ (٨٥) فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة:83-87].

ومعنى هذه الآيات الكريمة الموجهة إلى منكري البعث والحساب والجنة والنار: فلولا إن كنتم غير محاسبين على أعمالكم، وغير مجزيين عليها كما تزعمون فحاولوا أن تردوا روح هذا المحتضر إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم، وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر كله بيد الله - تعالى - الذي له وحده الأمر ولا رادّ لقضائه.

وكما بدأت سورة «الواقعة» بتقسيم الناس في يوم القيامة إلى: **السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال** وأوضحت جزاء كل فريق منهم، فإنها كذلك قسمتهم في لحظة الاحتضار إلى: **المقربين وأصحاب اليمين ثم المكذبين الضالين**، وأوضحت جزاء كل منهم، ذلك الجزاء الذي يدركه ساعة احتضاره، وفي ذلك تقول:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ (٩٣) وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة:88-96].

وهكذا تختتم سورة «الواقعة» بتأكيد أن ما جاء بها من أنباء الآخرة وما فيها من البعث والحساب والجزاء، ومصائر مختلف مجموعات الناس والأفراد هو حق مطلق، وأن ما جاء بها من الإخبار عن هول الاحتضار وصعوبة سكرات الموت، وعجز الخلق فرادى ومجتمعين عن رد قضاء الله به، كل ذلك حق مطلق كذلك، كما أن معرفة المحتضر بمصيره في الآخرة الباقية وهو يغادر هذه الدنيا الفانية، ويفرح لهذا المصير أو يفزع منه، هذا كله من حق اليقين الذي أنذر الله - تعالى - به كل حي حتى لا يدعي أحد أنه كان جاهلاً به أو غير مدرك له. ولذلك تختتم سورة «الواقعة» بأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وهو أمر إلى كل مؤمن به ومؤمنة أن يسبح باسم ربه العظيم تسبيحاً يليق بجلاله، وتنزيهاً له عن كل وصف لا يليق بهذا الجلال من مثل ادعاء الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة والولد، وكلها من صفات المخلوقين، والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

من ركائز العقيدة في سورة «الواقعة»:

1 - الإيمان بحقيقة الآخرة، بل بحتميتها، وأهوالها، وبما أكدته السورة الكريمة من تمايز الناس فيها إلى السابقين، وأهل اليمين، وأهل الشمال، ولكل منهم جزاؤه المحدد. والبعث يؤكده الخلق الأول، وإن كان الناس سوف يبعثون فيما لا يعلمون من هيئة.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، ومدبر كل أمر من أمور الكون وفي مقدمة ذلك تقدير الآجال، وفرض الموت على جميع الخلائق - كل عند أجله - والله سبحانه وتعالى وحده هو الحي الباقي، المحيي المميت، المستحق للتسبيح، والتمجيد، والتقديس بتنزيهه - تعالى - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والمستحق للذكر الدائم بكل اسم ووصف أثبته لذاته العلية، وذلك من قبيل الشكر له على فيوض نعمه.

3 - التصديق بالوحي الذي نزل بالقرآن الكريم، وبأن هذا الكتاب المجيد هو كلام رب العالمين، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة من قبل أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا

الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق بأنه كلام الله الخالق، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة وذلك إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

4 - التسليم بأن كل ما جاء بالقرآن الكريم حق مطلق، لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

5 - اليقين بأن الموت حق على جميع المخلوقين، وهو قرار إلٰهي لا يستطيع أحد من الخلق إيقافه أو تأجيله، وبأن المحتضر يرى مكانه عند ربه في لحظة احتضاره وهو يغادر الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، وذلك رغم تشكك الكثيرين في إمكانية البعث وهم في هذه الحياة الدنيا.

من الإشارات الكونية في سورة «الواقعة»:

1 - التأكيد على حقيقة الخلق، وعلى أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء والإشارة إلى خلق الإنسان من مني يمنى، ثم في مراحل متتابعة حتى ميلاده ونموه، ثم احتضاره ووفاته.

2 - تأكيد حتمية الموت على جميع الخلائق، وتسلسل الحياة والموت، إلى يوم الدين، وأن الخلق دليل على إمكانية البعث، بل على حتميته وضرورته. والعلوم المكتسبة قد أثبتت مؤخراً أن بداخل كل خلية حية آلية خاصة تحدد حتمية وفاتها.

3 - التنويه بأن إنبات الأرض بمختلف الزروع هو صورة من صور إبداع الخلق من تراب الأرض بيد القدرة الإلٰهية الفاعلة، والتي لولاها ما أنبتت الأرض، ولا أثمرت النباتات، وذلك لأن الله - تعالى - لو شاء إفناء النبات بعد نموه وإثماره لفعل ذلك قبل أن تطاله يد الإنسان - وما ذلك على الله بعزيز -.

4 - الإشارة إلى إنزال الماء من السحاب المشبع ببخار الماء (المزن)، وإلى إنزاله عذباً، زلالاً، طيباً من رحمة الله - تعالى - ولو شاء لأنزله مالحاً، مراً، أجاجاً، لا يصلح للحياة، ولا تصلح به الحياة.

5 - تأكيد حقيقة ما وهب الله - تعالى - النبات الأخضر من قدرة على تخزين جزء من طاقة الشمس التي يحلل بواسطته كلاً من ثاني أوكسيد الكربون الذي يأخذه من الجو، والماء الذي يمتصه من الأرض إلى مكوناتهما الأساسية، ثم ربط ذرات الكربون

والإيدروجين في سلاسل من الكربوهيدرات من أمثال مختلف أنواع السكريات والنشا والسيليولوز، والتي عند تيبسها، أو تفحمها بمعزل عن الهواء، أو تناولها بواسطة الحيوانات فإنها تتحول إلى مختلف مصادر الطاقة المعروفة ومن أشكالها النار.

6 - الإشارة إلى أن الإنسان لا يمكنه رؤية النجوم من مكانه على الأرض أبداً، ولكنه يرى مواقع للنجوم، وهو ما أثبتته العلوم المكتسبة مؤخراً. وذلك نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل بيننا وبين أقرب النجوم إلينا، ولسرعة جريها في مداراتها، ولتعذر سير الضوء في خطوط مستقيمة في صفحة السماء ولتعذر رؤية عين الإنسان للأشياء في غير خطوط مستقيمة، أي على استقامة إبصار العين.

7 - التأكيد على عجز الخلق مجتمعين عن إنقاذ محتضر يعاني سكرات الموت، وذلك برد روحه إليه أو تأخير أجله لحظة أو تقديمه لحظة.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأولى من القائمة السابقة والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -:

● ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 58، 59].

من الدلالات اللغوية لألفاظ الآيتين الكريمتين:

أولاً: (المني) في اللغة هو التقدير، يقال: (مني لك الماني) أي: قدر لك المقدر، و(المني) هو السائل أو السوائل الحاملة للنطف (خلايا التناسل) التي قدرت بها استمرارية الحياة، وجاءت هذه اللفظة بتصريفاتها المختلفة في كتاب الله المجيد أربع مرات في أربع آيات قرآنية مجيدة منها الآية التي نحن بصددها، والآيات الثلاث التالية:

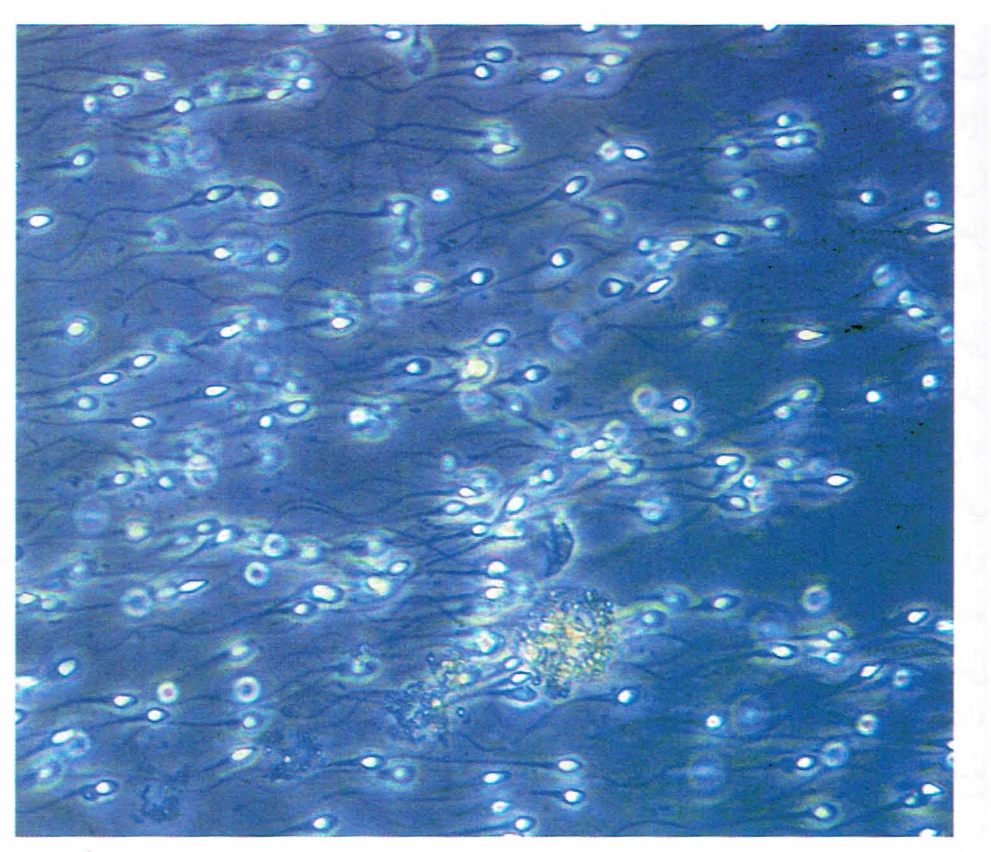
1 - ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45، 46].

أي: من نطفة إذ تقدرها العزة الإلٰهية أي تخصبها بنظيرها من نطفة مقابلة، فتعطيها من الصفات ما يميزها عن غيرها.

2 - ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 58، 59].

أي: ما تنتجون من النطف، أو ما تخصبون منها.

3 - ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: 37-39].



صورة حقيقية لدفقة من ماء الرجل بها حوالي خمسمائة مليون حيمن تتدفق في قناة الرحم بحثاً عن هدفها وهو البييضة التي قدر الله - تعالى - أن يخصبها واحد فقط من بين هذه الملايين والباقي يموت.

ومن (المَنِيّ) جاءت لفظة (المَنِيّة) وهي الأجل المقدر للكائن الحي بالموت، وجمعها (المَنَايا)، و(المَنُون)؛ يقال: (مُنِيَ) له؛ أي: قُدِّر له، لأن الموت مقدر بأمر من الله - تعالى - على كل حيّ.

(المُنية) واحدة (المنى)، و(الأُمنية) واحدة (الأَماني) وجمعها (أمانٍ) و(أمانيّ) بالتخفيف والتشديد.. و(تمنّيْتُ) الشيء أي: قدرته وأحببتُ أن يصير إلي. يقال: (تمنّى) الشيء أي: طلبه في نفسه وصوّره فيها من قبيل التخمين والظن، أو عن رويّة وبناء على أصل، وإن كان أغلب (التمني) تصور ما لا حقيقة له، و(الأمنية) هي الصورة الحاصلة في النفس من تمنّي الشيء. يقال: (منّيْتَني) كذا أي: جعلْتَ لي أمنية في كذا بما شبهت لي. قال تعالى: مخبراً عن الشيطان الرجيم في محاولته إغواء بني

الإنسان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ . . .﴾ [النِّساء: 119].

ويقال: (مَنَّى) غيره (تَمْنِيَة) أي وعده بما يطلبه في نفسه ويرجوه. ويقال (تمنَّى) الكتاب أي: قرأه، و(يتمنى) الأحاديث أي يفتعلها وهو مقلوب من (المَيْن) وهو الكذب.

ثانياً: **(خلق)**: أصل (الخَلْق) التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، كما يستعمل في إيجاد شيء من شيء آخر، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله - تعالى - وحده، أما الخلق الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله - تعالى - لغيره في بعض الأحوال. و(الخَلْق) لا يستعمل في الناس إلا على وجهين: أحدهما: في معنى التقدير، والثاني: في معنى الكذب أو (الاختلاق والافتراء).

و(الخَلْق) و(الخُلُق) في الأصل واحد، ولكن خُصَّ (الخَلْقُ) بالهيئات والأشكال، والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ (الخُلُق) بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، وعلى ذلك فإن (الخَلَاق) هو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه. يقال: فلان (خليق) بكذا، أي: جدير به، كأنه مخلوق فيه ذلك، فـ (الخِلْقة) و(الخَليقَة) هي الفطرة والجمع (الخلائق).

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: أن الله - تعالى - هو خالق كل شيء:

تشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في خلق الإنسان الذي خلقه الله - تعالى - بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وكان من هذا التكريم أن خلق له من نفسه زوجاً، وجعل بقاء نوعه إلى أن يشاء الله - تعالى - قائماً على التكاثر بالتناسل، وهي عملية معجزة تشهد لهذا الإلٰه الخالق بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

فمن خليتين ضئيلتين لا تريان بالعين المجردة حيث لا يزيد طول الواحدة منها في الرجل على (0,005 مم) وفي المرأة عن (0,2 مم) يخلق ربنا - تبارك وتعالى - الإنسان اليافع الذي يتكون جسده من ألف تريليون خلية في المتوسط، تنتظمها أنسجة متخصصة

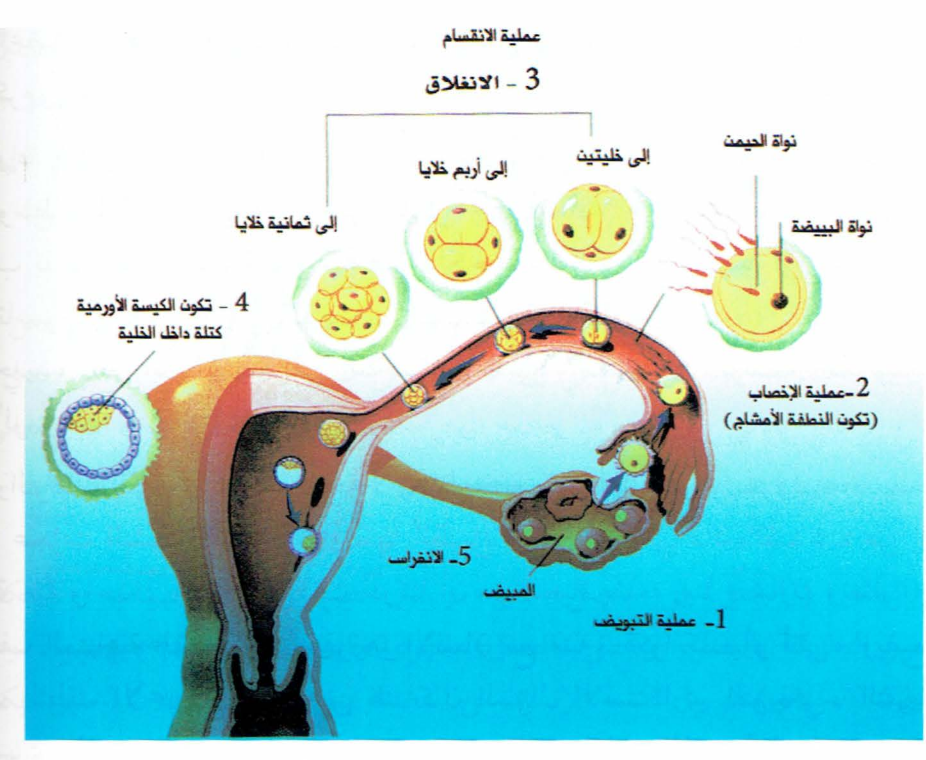
في أعضاء متخصصة في أنظمة متخصصة، تعمل في تناسق عجيب لخدمة هذا المخلوق المكرم.

وإذا علمنا أن جسم الإنسان يتكون أساساً من الماء بنسبة تصل إلى 70% في المتوسط، بالإضافة إلى مواد صلبة تشكل حوالي 30% من كتلة جسم الإنسان، وأن أغلب تلك المواد الصلبة يكونه عنصرا الكالسيوم والفوسفور يليهما في الكثرة عناصر البوتاسيوم، الصوديوم، الكبريت، المغنيسيوم، الكلور، الفلور، البروم، اليود، والحديد، مع آثار ضئيلة من عناصر النحاس، المنجنيز، الزنك، الموليبدينوم، والألومنيوم، وهي في مجموعها مستمدة من عناصر الأرض.

والتركيب الكيمائي للخلية الحية لا يكاد يختلف عن ذلك، وهو معروف مائة بالمائة، وقد عجزت البشرية كلها عبر تاريخها الطويل المقدر بحوالي مائة ألف سنة عن إيجاد خلية حية واحدة. وإذا علمنا ذلك أدركنا أن سر الحياة يضعه ربنا - تبارك وتعالى - في النطف المتناهية الضآلة والتي يفرزها الإنسان مع منيه، ذكراً كان أو أنثى، ويضع في ذلك النطف الأجل المحدد ومن هنا كان السؤال الاستنكاري التوبيخي، التقريعي، التقريري الموجه للكفار والمشركين في كل زمان ومكان والذي يقول الحق - تبارك وتعالى- فيه:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: 58-62].

ويتكون جسم الفرد البالغ من البشر من ألف تريليون خلية في المتوسط - كما سبق وأن أشرنا - وبعض هذه الخلايا يمكن رؤيته بالعين المجردة، ولكن أغلبها على قدر من الضآلة بحيث لا يتعدى قطر الخلية 0,03 من المليميتر، وتتنوع الخلايا بتنوع وظيفة كل منها فهناك خلايا العظام، وخلايا اللحم (من مثل خلايا كل من العضلات والأنسجة الضامة، والجلد)، وخلايا المخ والأعصاب، وخلايا كل من الدم والليمف، وخلايا الأنسجة فائقة التخصص من مثل خلايا كلٍّ من القلب، الرئتين، الكبد، الكلى، وخلايا كل من الجهاز الهضمي، والجهاز التناسلي، وغيرها، وكل ذلك مختزن في الشيفرة الوراثية للخلايا الناسلة.



شكل: يوضح مراحل إخصاب البييضة في أنثى البشر.

ثانياً: أن التزاوج هو سنة الله في الخلق:

يبدأ تخلق الإنسان من اندماج نطفتي الزوج والزوجة اندماجاً ناجحاً ينتج عنه الإخصاب الذي يتمثل في **النطفة الأمشاج (أي المختلطة)**، والتي اختلطت فيها الشيفرة الوراثية في نطفة الزوج مع الشيفرة الوراثية لنطفة الزوجة فيأتي الجنين على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين وأسلافهما إلى أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، ولذلك جاء في الحديث الذي أخرجه كل من الإمامين ابن جرير وابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله - تعالى - كل نسب بينها وبين آدم**»[1].

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 5/ 72)، وأخرجه ابن كثير في «تفسيره» (8/ 365).

والحكمة الظاهرة لنا من ذلك هي التنوع البديع في الخلق الذي يعطي لكل فرد من بني آدم شيفرة وراثية خاصة به، ترسم ملامحه الشخصية وتحدد صفاته وملكاته واستعداداته التي تميزه عن غيره، ولولا هذا التنوع البديع في الخلق لكان الناس كلهم جميعاً على هيئة واحدة متكررة يملها الجميع، وتضيع معها بهجة الحياة.

وهذا التنوع الذي أودعه الله - تعالى - في الشيفرة الوراثية لكل إنسان وترابطها مع شيفرة زوجه بالاقتران من أعظم الأدلة على طلاقة القدرة الإلٰهية المبدعة في الخلق ولذلك قال ربنا - وهو أصدق القائلين -:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرُّوم: 22].

ولتحقيق ذلك شاءت إرادة الخالق ﷻ أن تنقسم الخلايا الناسلة انقساماً انتصافياً (Meiosis) يعطي لكل واحدة منها نصف عدد الصبغيات المحدد للنوع حتى يتكامل العدد بالتزاوج الذي جعله الله - تعالى - سنة من سننه من أجل استمرارية الحياة على الأرض إلى أن شاء الله. وهذا يدفع كل الانحرافات المادية المعاصرة من دعاوي الشذوذ الجنسي، والدعوة إلى هدم مؤسسة الأسرة بأنه باطل مخالف للفطرة الإنسانية ولسنن الله في خلقه، وكل مخالفة للفطرة فيها هلاك للإنسان وتدمير لمجتمعاته.

الشيفرة الوراثية للإنسان:

في 26/ 6/ 2000م تم الإعلان عن إتمام قراءة المسودة الأولية للشيفرة الوراثية للإنسان بعد مجاهدة استمرت لأكثر من عشر سنوات، وبمشاركة عشرات المئات من العلماء، وبكلفة فاقت الثلاثة بلايين من الدولارات الأمريكية.

وبتاريخ 14/ 4/ 2003م أعلنت منظمة الشراكة الدولية لدراسة ترتيب بناء الشيفرة الوراثية للإنسان إكمال المشروع بنجاح. وقد اعتبرت عملية قراءة ثلاثة بلايين ومائة مليون حرف من حروف الحمض النووي الريبي غير المؤكسد (DNA) والذي تكتب به هذه الشيفرة، إنجازاً علمياً لا يقل عن النجاح في تحقيق شطر الذرة أو وصول الإنسان إلى القمر.

وقد تمت هذه القراءة بخطأ تجريبي لا يتعدى واحداً من كل عشرة آلاف حرف من حروف ذلك الحمض النووي، وبذلك تمت تغطية حوالي 99% من المناطق الحاوية على المورثات في الجينوم البشري.

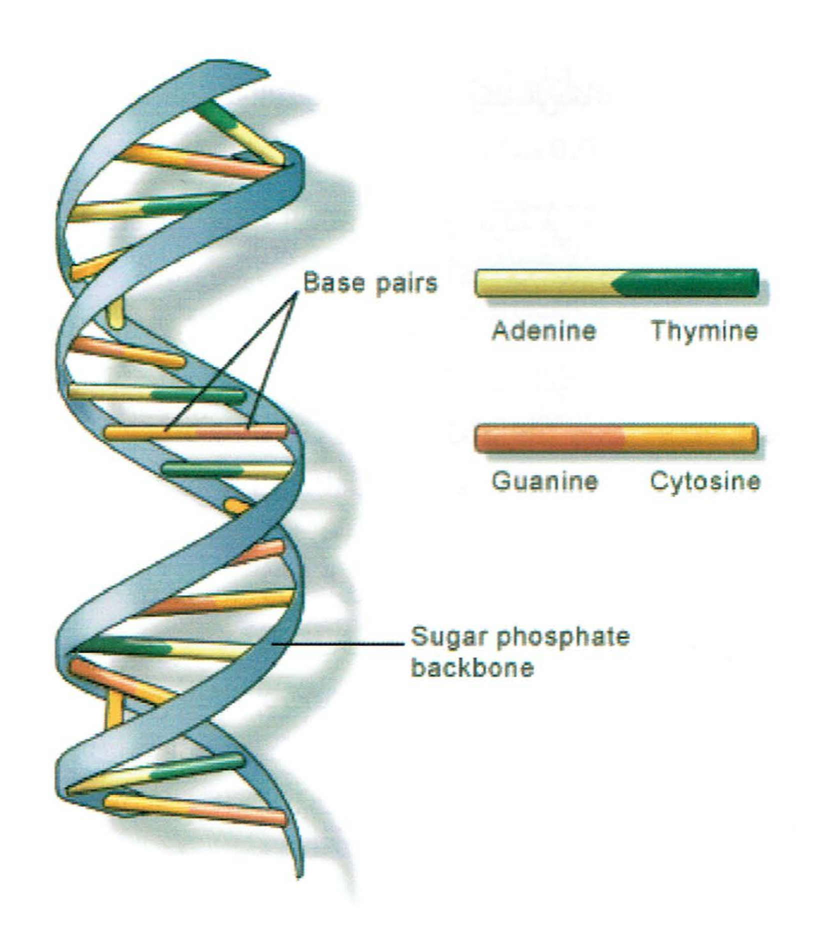
ولكل خلية حية - ما عدا بعض الأنواع القليلة مثل خلايا الدم الحمراء - جسم مركزي يسمى نواة الخلية، يمثل العقل المفكر لها الذي ينظم جميع أنشطتها من مثل عمليات النمو، والانقسام، وغيرها. وإذا ماتت نواة الخلية ماتت الخلية.

وتحتوي نواة الخلية على شيفرتها الوراثية المحمولة على عدد محدد من الصبغيات، وهي جسيمات غاية في تناهي الدقة مكونة من تجمعات للأحماض النووية، ومن لفائف مزدوجة الجانب من الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين، وكل واحدة من هذه اللفائف تدور حول محور وهمي على هيئة حلزونية متناهية الدقة، يقدر سمك جدارها بجزء من خمسين مليون جزء من الميليميتر.

ويتكون الجسيم الصبغي من شريط من هذه اللفائف المرتبطة بعدد من البروتينات، ويبلغ قطر لفيفة الحمض النووي الريبي منزوع الأوكسجين جزيئين من مليون جزيء من الميليميتر، ويبلغ طوله إذا فرد قرابة المترين.

والجسيم الصبغي يحوي - بالإضافة إلى المعلومات اللازمة لبقاء الخلية حية - عدداً من الهرمونات، وجزيئات الاستقبال، والبروتين الناقل، والمضادات الحيوية وغيرها. ويقسم كل جسيم صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية تعرف باسم المورثات (حاملات الصفات الوراثية)، ويتحكم كل مورث في عدد من الصفات الطبيعية والكيميائية والحيوية للخلية.

وينقسم كل مورث إلى عدد من العقد المتناهية في الصغر تعرف باسم النويدات، يتكون كل منها من زوج من القواعد النيتروچينية تستند كل قاعدة منهما إلى زوجين من جزيئات السكر والفوسفور، وتكوّن تلك الجزيئات جداري جزيء الحمض النووي (DNA)، وتنتشر القواعد النيتروچينية بينهما بهيئة مماثلة لدرجات السلم الخشبي المتوازي الساقين، في ترتيب دقيق محكم، وتتابعات محددة، وعلاقات تبادلية منضبطة بالنسبة لبعضها البعض على طول جزيء الحمض النووي.



رسم تخطيطي يوضح شكل اللفائف المكونة للحمض النووي الريبي المنزوع الأكسيجين (D.N.A) تدور حول محور وهي بشكل حلزوني.

ومن الغريب أن هذه القواعد النيتروچينية هي أربع قواعد فقط تعطي علاقاتها التبادلية لكل فرد من البشر - الذين عاشوا وماتوا، والذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة - تعطي لكل واحد منهم شيفرة وراثية خاصة به تميزه عن غيره من البشر.

وتكوّن كل ثلاث من القواعد النيتروچينية شيفرة مصغرة (شفيرة)، وكل واحدة من هذه الشفيرات مسؤولة عن إصدار التعليمات لتحضير حمض أميني معين في داخل الخلية. وهذه الأحماض الأمينية والتي تقع في عشرين نوعاً هي لبنات لبناء الجزيئات البروتينية التي تنبني منها أجساد كل الأحياء. وقد وهب الله - تعالى - كل خلية من خلايا جسم

الإنسان الحاملة للشيفرة الوراثية القدرة على إنتاج أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من البروتينات.

والقواعد النيتروچينية في جزيء الحمض النووي مرتبة في أزواج يبلغ عددها أكثر من ثلاثة بلايين زوج (3,1 بليون زوج) تتوزع في أكثر من بليون شيفرة، تحمل ما بين (30,000، 35,000) مورث. ويتكوّن الحرف المتوسط من حروف جزيء الحمض النووي من طول يغطي أكثر من27 مليوناً من القواعد النيتروچينية في غاية الدقة من الترتيب والتنسيق وترابط العلاقات، ولا يمكن لعاقل أن يتصور عشوائية ذلك أبداً. والأحماض النووية عبارة عن مركبات فوسفورية معقدة قابلة للتكسر كيميائياً إلى حمض الفوسفوريك والسكريات. وتتم التفاعلات الكيميائية في جسم الإنسان - وفي أجسام غيره من المخلوقات - بمساعدة الإنزيمات التي تعين على تحويل المواد الأولية الواصلة للخلية إلى البروتينات وغيرها من المركبات المعقدة التي يحتاجها جسم الإنسان، وذلك في جزء من ألف جزء من الثانية إلى أقل من جزء من مليون جزء من الثانية. وكل تتابع للنويدات في المورث هو الذي يحدد تتابع الأحماض الأمينية المكونة للجزيء البروتيني وترابطها مع بعضها البعض. وبذلك تنتج البروتينات التي يحتاجها الجسم بتوجيه من المورثات المأمورة بأمر الله.

ومن العجيب حقاً أن تكون لبنات بناء أجساد الكائنات الحية كلها واحدة، وهي عشرون نوعاً من الأحماض الأمينية تتركب بتوجيه من المورثات في أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من البروتينات. ومن المبهر حقاً أن تترتب ذرات الأحماض الأمينية ترتيباً يسارياً في جميع أجساد الكائنات الحية، وتترتب الأحماض الأمينية ذاتها ترتيباً يسارياً كذلك في الجزيئات البروتينية وأن ترتبط فيها برباط كيميائي واحد محدد هو الرباط البيبتيدي. ثم إذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات المكونة للأحماض الأمينية ترتيب ذاتها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة تمكن الدارسين بتحديد لحظة وفاة الكائن الذي كان حياً ثم مات بدقة شديدة وذلك بتحديد نسبة الترتيب اليميني لذرات الأحماض الأمينية إلى الترتيب اليساري في أية فضلة عضوية تبقى عن ذلك الكائن. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من غير الله الخالق وضع كل هذه الأسرار في كل من الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية التي تنبني منها أجساد الكائنات الحية؟ ومن غير الله الخالق مايز بين الخلايا الجسدية وخلايا التناسل هذا التمايز الذي يجعل من التزاوج سنة إلهية

وفطرة إنسانية؟ ومن غير الإله الخالق وضع هذا الكم الهائل من الأسرار في نطفة الزوج التي لا يتعدى طولها (0,005 مم) ونطفة الزوجة التي لا يتعدى قطرها (0,2 - مم) وقدّر لنطفة محددة إخصاب بييضة محددة لينتج عنها نسل محدد؟ ومن غير الإله الخالق الذي هدى النطفة الأمشاج إلى الانقسام الدقيق المبرمج لإنتاج هذا القدر الهائل من الخلايا؟ ومن الذي هدى الخلايا المتشابهة في التعرف على بعضها البعض لتكوين الأنسجة المتخصصة؟ ومن الذي جمع تلك الأنسجة المتخصصة في أعضاء، ثم في نظم، تعمل بتوافق عجيب مع بعضها البعض، وبسرعات واستجابات فائقة السرعة والدقة من أجل صالح الجسد الحي؟

ويعجب العلماء أشد العجب من كيفيات عمل جهاز المناعة في جسم الإنسان، ومن كيفية إدراك هذا الجسد لأي جسم غريب يدخل إليه، ومن كيفيات تفاعله معه بالرفض أو القبول، ومن كيفية تحول الطاقة الكيميائية إلى طاقة حركية، ومن كيفية تحكم الهرمونات في تنشيط عمليات النمو أو تثبيطها، ومن غير ذلك من الأنشطة الحيوية العديدة والتي أودع الخالق ﷻ قدرات التحكم فيها في الشيفرات الوراثية التي تحملها نطف الزوج التي تندفع بمئات الملايين في الدفقة الواحدة، والشيفرات التي تحملها نطف الزوجة التي تخلق بالملايين وهي في رحم أمها، ثم يتناقص هذا العدد إلى ما بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف عند البلوغ، تنتج منها ما بين 300 - 500 بييضة لا يصل منها إلى مرحلة الإخصاب إلا بضع بييضات قليلة، ولا يصل إلى مرحلة الإنجاب إلا آحاد منها، ولذلك جاء هذا السؤال التقريري، التوبيخي الاستنكاري لمواقف الكفار والمشركين الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة:58،59].

ولما كانت علوم الوراثة من أحدث المعارف الإنسانية، وكانت النطف لم تكتشف إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين بعد اختراع المجاهر، ولم تعرف حقيقتها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كانت هذه الإشارة القرآنية إليها سبقاً يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



24 - ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾

[عبس: 17-19]



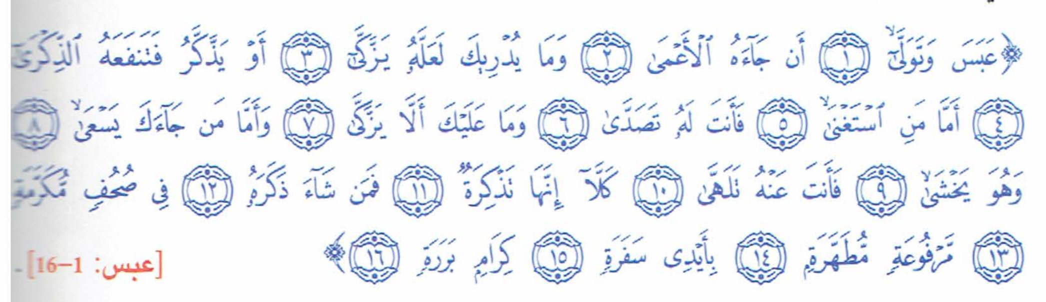
هذه الآيات الثلاث جاءت في نهاية النصف الأول من سورة «عبس» وهي سورة مكية، وآياتها اثنتان وأربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لإعراض رسول الله ﷺ عن صحابي كفيف هو عمرو بن قيس المعروف باسم ابن أم مكتوم رضي الله عنه حين جاء يسأل في أمر من أمور الدين ورسول الله ﷺ منهمك في دعوة نفر من زعماء قريش، وألحَّ الصحابي الكريم في سؤاله كثيراً مما دفع برسول الله ﷺ - وهو أحلم الناس - إلى العبوس في وجهه، وعلى الرغم من أن الصحابي الكريم لم يدرك ذلك نظراً لأنه كان مكفوف البصر، إلا أن الله - تعالى - أنزل هذه السورة الكريمة عتاباً لخاتم أنبيائه ورسله، ولأحب خلقه إليه، تأكيداً على قيمة إسلامية عليا يرضاها ربنا - تبارك وتعالى - من عباده مؤداها: ألا يكون التفاضل بين الناس إلا على أساس من تقواهم لله، وخشيتهم لجلاله، ومراقبتهم لأوامره ونواهيه، ويقينهم بلقائه، وانتظارهم لحسابه، لا على أساس حسب كل واحد منهم ونسبه، أو جاهه وسلطانه، أو جنسه ولونه، أو غير ذلك من معايير الأرض الفاسدة التي نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عنها بقوله العزيز:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

ومن أجل إقرار هذه القيمة الإسلامية - التي لا يمكن للمجتمعات الإنسانية أن تنصلح بغيرها - أنزل ربنا سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات

هذا العتاب لأحب خلقه إليه، وأقربهم من رضوانه، وذلك لتبقى هذه القيمة حاكمة للمجتمعات الإسلامية في كل زمان ومكان إذا أرادت أن تحيا على هذه الأرض حسب منهج الله، وأن تحقق رسالتها بنجاح في هذه الحياة، وأن تفوز بمرضاة الله.

والمجتمعات الإسلامية لم تتخلف إلا حينما تخلت عن هذا المعيار الرباني الصحيح، فقدمت الرعاع المتسلقين الوصوليين أصحاب الشهوات، وحاربت أهل الإسلام العظيم، أهل التقوى والورع والثبات على دين الله، فوصلت إلى ما وصلت إليه من تشرذم وتفرق وهوان وإذلال، لأن هذه سنة من سنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدل، ولا تتوقف من أجل إعمار الحياة على هذه الأرض، وإقامتها على أساس من عدل الله، وفي ذلك تقول الآيات:


﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ [عبس: 1-16].

وبعد نزول هذه الآيات - بما فيها من عتاب إلٰهي - حرص رسول الله ﷺ على إكرام هذا الصحابي الجليل (ابن أم مكتوم) كلما رآه، لأنه كان من أوائل من بادر بالإسلام في مكة المكرمة، ومن أوائل من هاجر إلى المدينة المنورة. وكان من ذلك الإكرام استخلافه على المدينة المنورة مرتين، ثم كان إكرام الله - تعالى - له بالشهادة في معركة القادسية، وهو الكفيف الذي لم يتخلف عن الجهاد في سبيل الله رغم كف بصره فرضي الله - تعالى - عنه وأرضاه.

كذلك يروى عن رسول الله ﷺ أنه ما عبس في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني قط بعد هذه الواقعة. ويروي لنا سفيان الثوري رضي الله عنه أن الفقراء كانوا أمراء في مجلس رسول الله ﷺ.

ولقد كان في إعلان رسول الله ﷺ لهذا العتاب الإلٰهي الموجَّه لشخصه الكريم أبلغ شهادة على صدق نبوته، وكمال عبوديته لله - تعالى -، وعلى نبل خلقه، فلا يقوى على إبراز مثل هذا العتاب إلا نبي كريم، يدرك معنى الألوهية فيخضع لله الخالق بالطاعة

والعبادة، خضوعاً يدرك معنى مراقبة الله - تعالى - ويعرف قدسية الوحي الذي يتنزل إليه بكلمات الله التامات المنزهة عن كل نقص، والمقدسة عن أي إضافة أو حذف، والملزمة بالتبليغ.

كذلك كان في إعلان هذا القرار الإلٰهي في وجه زعامات قريش - والمسلمون في بدء الدعوة لم يكونوا سوى قلة مستضعفة، وسط محيط جاهلي تسوده العصبيات العرقية العمياء، والأعراف الظالمة الجائرة، والاستعلاء بالجاه والسلطان على الحق والإغراق في الشهوات والملذات، وعبادة الأصنام والأوثان، والغرق في الخرافات والأساطير - وسط هذا كله كان في إعلان عتاب الله - تعالى - لخاتم أنبيائه ورسله أعظم شهادة على أن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم كان موصولاً بالوحي، ومؤيداً من قبل خالق السمٰوات والأرض.

وتستمر الآيات في تأييد هذا القرار الإلٰهي تذكرة من الله - تعالى - لمن شاء أن يتذكر من الخلق، خاصة وأن التذكرة مُدَوَّنة في صحائف القرآن الكريم، وهي صحف مكرمة، مرفوعةَ مطهرة بتطهير الله سبحانه وتعالى لها، وحفظه إياها، وتكريمها بأمر منه، فهي مطهرة من أية مداخلات بشرية، أو تحريفات وضعية، أو محاولات للتزييف، لأنها محفوظة بأيدي الملائكة المكرمين ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: 15،16].

وتتابع الآيات بعد ذلك في تعجُّب من موقف الإنسان الذي يكفر بالله، ويرفض الإيمان به، ويُعْرِض عن هدايته، ويستعلي على الخضوع لجلاله بالطاعة والعبادة، فتذكره بأصله ومنشئه، وضعفه في وجوده، وحاجته إلى رعاية ربه وخالقه في مختلف مراحل وجوده الإنساني، خاصة في المراحل الأولى منه. وفي ذلك تقول الآيات:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: 17-23].

أي أن الإنسان - على ضعفه - أعطاه الله - تعالى - عدداً من المواهب والقدرات، ويسَّر له سبل الحياة، وطرق الهداية، والإنسان غافل عن ذلك كل الغفلة فلا يؤدي ما عليه لله تعالى من حقوق، ولا يقوم بواجبات الاستخلاف في الأرض من عمارتها إلى إقامة عدل الله فيها، حتى إذا جاءه الموت وجد الله عنده فَوَفَّاه حسابه في القبر قبل البعث

والعرض الأكبر أمام الله - تعالى - ثم بعد البعث والحشر وحساب الآخرة، والخلود فيها إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، فما أكفره بنعم الله، وما أجحده بأفضال خالقه عليه، وما أغفله عن حقيقة رسالته في هذه الحياة!!

ولفظ (قُتِلَ) هو دعاء على الكافر، ولعن له، وغضب من الله - تعالى - عليه، وتوعُّد له بالعذاب والمهانة في الآخرة، فمهما يطل عمره في الدنيا فهو حتماً ميت، ومآله القبر تحت الأرض في ظلمة، ووحدة، ووحشة، والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران كما أخبر الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه.

لذلك صاغ ربنا - تبارك وتعالى - هذه الآية السابعة عشرة من سورة «عبس» بصيغة الاستفهام الاستنكاري، التوبيخي، التقريعي للإنسان الكافر استنكاراً لكفره بالله مع كثرة إحسان الله - تعالى - إليه، وسؤالاً عن أسباب كفره وسبل الإيمان ميسَّرة لديه، وتعجُّباً من شدة كفر الكافرين، وتأكيداً على استحقاقهم العذاب بأشد ألوانه...!! ولذلك ختمت هذه الآيات السبع بقول الحق - تبارك اسمه -: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: 23] ولفظة (كلا) هنا بمعنى (حقاً) إن الإنسان الكافر لم يفعل ما أمره به الله - تعالى - فاستحق العذاب الذي حذَّره منه عن طريق ما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين وحفظ في الرسالة الخاتمة من رب العالمين.

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى استعراض واحدة من آيات الله الكبرى ألا وهي إعداد الطعام المناسب، والكافي، واللازم للأحياء جميعاً - ومنهم الإنسان وأنعامه - وتلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة بقول الحق - تبارك وتعالى-:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: 24-32].

والأمر بالنظر هنا ليس لمجرد الإبصار ولكنه النظر للاعتبار، لأن الطعام ضرورة من ضرورات الحياة، ولازمة من لوازمها، ولا يملك عاقل الادعاء بأن له يداً في دورة الماء حول الأرض، ولا في إنبات البذور، ولا في شق الأرض لإخراج البادرات النباتية من داخلها، ولا في عمليات التمثيل الضوئي التي يهيئ الله - تعالى - لنا بها مختلف أنواع الثمار والبذور والمحاصيل التي يحيا عليها كل من الإنسان والحيوان.

ولا يستطيع عاقل كذلك الادعاء بأن له يداً في إخراج نوع واحد من أنواع النبات

والتي يُقدَّر المعروف لنا منها بأكثر من ثلاثمائة ألف نوع. يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد التي يتميز كل منها بصفاته الشكلية والتشريحية، وتتميز ثماره بألوانها وأشكالها وطعومها المختلفة التي تشهد للخالق ﷻ بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

وقد ضرب الله - تعالى - لنا في هذه السورة المباركة من نماذج النباتات ومحاصيلها وثمارها كلاًّ من: الحبوب، والأعناب، والعلف الرطب للبهائم، والتبن الجاف، والزيتون، والنخل، والحدائق الغُلْب أي ذات الأشجار العظيمة الغليظة الملتفة، وأشجار الفاكهة، والكلأ، والمرعى. وهذه النماذج تكاد تغطي كل ما يحتاجه الإنسان وأنعامه ودوابه من مجموعات النبات الرئيسة.

وخاتمة رحلة الإنسان في هذه الحياة الدنيا - مهما طالت - وخاتمة تمتعه بمباهجها وزخرفها - إن طال شيئاً من ذلك - هي الموت، والقبر، ثم البعث، والحشر، والعرض الأكبر أمام الله - تعالى - للحساب والجزاء، وما يصاحب ذلك من أهوال وفزع أو رحمة وسكينة، ثم الخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وفي ذلك تختتم هذه السورة المباركة بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: 33-42].

و(**الصاخة**) هي النفخة الثانية في الصور، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان من شدتها، وقد استخدمت هذه اللفظة كاسم من أسماء يوم القيامة، الذي يجبر الإنسان على الفرار من أقرب الناس إليه، وألصقهم به من شدة أهواله، وتعاظم الأحداث وتتابعها فيه!!

وبعد انتهاء الحساب ينقسم الناس إلى: أصحاب الوجوه المسفرة، المشرقة، المضيئة، المستبشرة بتكريم الله - تعالى - لها بالجنة وقد بُشِّروا بها؛ وهي وجوه المؤمنين بالله الذين عبدوه في الدنيا بما أمر، وجاهدوا من أجل عمارة الأرض وإقامة عدل الله فيها، ووجوه أخرى للكفرة الفجرة الجاحدين، والغلاة المتجبرين الظالمين، الذين كفروا بالله وبأنبيائه ورسله وبخاتمهم أجمعين، وجحدوا بالرسالة الخاتمة،

فخرجوا على أوامر الله، وتجاوزوا حدوده، وانتهكوا حرماته، وملأوا الأرض ظلماً وجوراً وفساداً واستعلاء على الخلق، وعندما ووجهوا بأعمالهم السيئة عند الحساب علا وجوههم الندم والحزن، وارتسمت على قسماتها بوادر الحيرة والحسرة واليأس، وغشيتها ملامح الفزع والهلع والذُّلّ والعار وقد علم أصحابها أن مصيرهم إلى النار!!

ومصائر العباد ترتسم على وجوه أصحابها في الآخرة فيعرف أصحاب الجنة من أصحاب السعير، وبذلك يلتقي أول سورة «عبس» بخواتيمها في تزاوج عجيب يجمع بين معيار من معايير الحق في الدنيا استهلت به هذه السورة الكريمة، وبين الجزاء في الآخرة، إما في الجنة وإما في النار مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، فحفظ حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -، وسيبقى محفوظاً بحفظ الله إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

من ركائز العقيدة في سورة «عبس»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً.

2 - التسليم بالأخوة الإنسانية، ومن ثم عدم جواز المفاضلة بين الناس إلا على أساس من تقوى الله - تعالى - وخشيته، وترك كل المعايير المادية جانباً، من مال وجاه وسلطان، وغير ذلك من المعايير الاجتماعية الخاطئة التي فرَّقت الناس شيعاً بدون أدنى حق.

3 - اليقين بوحي السماء، وبوحدة رسالة الأنبياء التي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ، ولذلك تعهد الله - تعالى - بحفظها فحفظت في نفس لغة وحيها على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد الله - تعالى - بحفظها إلى يوم الدين.

4 - الإيمان الكامل بأن الله - تعالى - يخلق الإنسان من نطفة فيُقدِّر له صفاته، وجنسه، وأجله ورزقه، وشقاوته أم سعادته، وييسر له سبل الخروج إلى الحياة، ويوضح له أساليب الهداية والنجاح فيها، تاركاً له حرية الاختيار.

5 - التسليم بأن الموت حق على العباد، وأن البعث والنشور والحشر والحساب والجزاء، والخلود في الآخرة حتمي عليهم جميعاً.

6 - اليقين بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء ومليكه، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يرزق كل حي، ويهيئ له طعامه. ومن الأحياء الإنسان وأنعامه، والنباتات التي أنبتها لهم من الأرض بمختلف أنواعها، وأشكال ثمارها، وأحجامها، وألوانها، وطعومها، بقدرة تشهد له - سبحانه - بالألوهية، والربوبية، والخالقية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

7 - الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، وأهوالها التي تجعل المرء يفر من أقرب الناس إليه وألصقهم به، وبانقسام الناس فيها بين مؤمن مستبشر سعيد، وكافر شقي تعيس، وشتان بين المصيرين.

من الإشارات الكونية في سورة «عبس»:

1 - التأكيد على خلق الإنسان من نطفة تحمل جميع صفاته، وكل المُقدَّر له.

2 - الإشارة إلى انتهاء فترة الحضانة الرحمية بولادة الجنين، وإلى تذليل طريق خروجه من بطن أمه بيسر إلى الحياة الدنيا من حولهما.

3 - الجزم بحتمية الموت، وضرورة القبر، وحتمية البعث والحساب والجزاء.

4 - الإشارة إلى حقيقة أن كثيراً من الناس تمضي بهم الحياة دون أن يعرفوا الغاية من وجودهم فيها، أو أن يحققوا شيئاً من واجباتهم على سطحها. فتنتهي آجالهم وكل واحد منهم صفر اليدين من الحسنات، مثقل الكاهل بالذنوب، ولذلك قال - تعالى -:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: 23].

5 - لفت أنظار الناس إلى معجزة توفير الطعام لجميع الكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان وأنعامه.

6 - الإشارة إلى دورة الماء حول الأرض بوصف إنزاله من السماء.

7 - وصف شق الأرض بواسطة إنزال الماء عليها أو ريها بواسطة من أجل استزراعها، أو شقها بواسطة البادرات النباتية الخارجة منها، وكله صحيح.

8 - الإشارة إلى خلق مختلف أنواع النباتات، وإعطاء النماذج الأساسية منها التي تُشكِّل الغذاء الرئيس لكل من الإنسان وأنعامه من مثل الحبوب، والأعناب، والبقول والخضراوات، والزيتون، والنخل، والحدائق ذات الأشجار الغلاظ العظام المتشابكة،

وأشجار الفاكهة، وعلف الدواب الرطب كالبرسيم (القضب) والكلأ والمرعى (الأب) وغيرها.

9 - تشبيه إحياء الأجسام بعد تحلُّلها وتحوُّلها إلى تراب بإحياء النبات من الأرض الهامدة بعد إنزال الماء عليها، ووصف ما يصيب الناس من هلع في يوم القيامة بفرار المرء من أقرب الناس إليه وألصقهم به.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة الأولى من القائمة السابقة والتي تتعلق بخلق الإنسان من نطفة مقدَّرة، يقدِّرها الله - تعالى - بعلمه وحكمته وقدرته كما جاء في الآيات (17-19) من سورة «عبس»، وقبل الوصول إلى ذلك لا بد من استعراض أقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح دلائل هذه الآيات المباركات.

من أقوال المفسرين:

في تفسير قوله - تعالى -: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: 17-19].

● ذكر ابن كثير رحمه الله ما مختصره: يقول - تعالى - ذامًّا لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، قال ابن عباس: لعن الإنسان، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً أي ما حمله على التكذيب بالمعاد؟ وقال قتادة: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ ما ألعنه، ثم بيَّن - تعالى - له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي قدَّر أجله ورزقه وعمله كما قدر كونه شقياً أم سعيداً.

● وجاء في تفسير الجلالين - رحم الله كاتبيه - ما نصه: «﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لعن الكافر ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استفهام توبيخ أي: ما حمله على الكفر [أو ما أشد كفره] ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهام تقريري ثم بيَّنه فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ علقة ثم مضغة، إلى آخر خلقه».

● وذكر صاحب الظلال - رحمه الله رحمة واسعة - ما نصه: «﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرُّفه، فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره، وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته، ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ ما أشد كفره وجحوده ونكرانه

لمقتضيات نشأته وخلقته. ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه، ولتواضع في دنياه، ولذكر آخرته. وإلا فَعَلام يتكبَّر ويستغني ويُعْرِض؟ وما هو أصله وما هو مبدؤه؟ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. إنه أصل متواضع زهيد، يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته، ومن تقديره وتدبيره ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ من هذا الشيء الذي لا قيمة له، ومن هذا الأصل الذي لا قوام له ولكن خالقه هو الذي قدَّره. قدَّره: من تقدير الصنع وإحكامه، وقدَّره: من مَنْحِهِ قَدَراً وقيمة فجعله خلقاً سوياً، وجعله خلقاً كريماً، وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع، إلى المقام الرفيع الذي تُسَخَّر له فيه الأرض وما عليها».

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة:

(النطفة) في اللغة العربية هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة أو بضع قطرات. يقال: (نَطَفَ) الرجل (يَنْطِفُ) و(يَنْطُفُ) (نَطْفاً) و(نُطْفَاناً) بمعنى تقاطر منه الماء بعد وضوئه أو غسله. ويقال: (نَطَفَتْ) القربة إذا قطرت من (النُّطْفِ) بمعنى تقاطر الماء قطرة قطرة، و(النُّطْفَة) أيضاً هي الماء الصافي القليل من مثل قليل الماء الذي يبقى في الدلو أو في القربة ويعرف باسم (النَّطَافَة) وجمعها (نُطَفٌ) و(نِطَافٌ). و(النُّطَف) أيضاً الدلو، والواحدة منه (نُطفَة). ويقال: ليلة (نطوف) أي: ممطرة باتت تمطر حتى الصباح.

وتسمى صغار اللؤلؤ باسم (النُّطَف) تشبيهاً لها بقطرات الماء.

ويستعار لفظ (النطف) للتعبير عن الكرم وفعل الخيرات فيقال: فلان (مُنْطِف) المعروف أي: يتقاطر المعروف منه بمعنى أنه دائم المعروف، و(يَنْطِفُ) بالخير أي: يندى به إشارة إلى ديمومة ذلك منه.

وقد استخدم القرآن الكريم لفظة (النطفة) للتعبير عن **خلية التكاثر** (**Gamete**) سواء كانت مؤنثة أي **بييضة** (**Ovum**) أو مذكرة أي **حيمن** (**Sperm**) وذلك في اثنتي عشرة آية على النحو التالي:

1 - ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4].

2 - ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37].

3 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٖ...﴾ [الحج: 5].

4 - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةٗ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمٗا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12–14].

5 - ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجٗا...﴾ [فاطر: 11].

6 - ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: 77].

7 - ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٖ...﴾ [غافر: 67].

8 - ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: 45، 46].

9 - ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: 36–40].

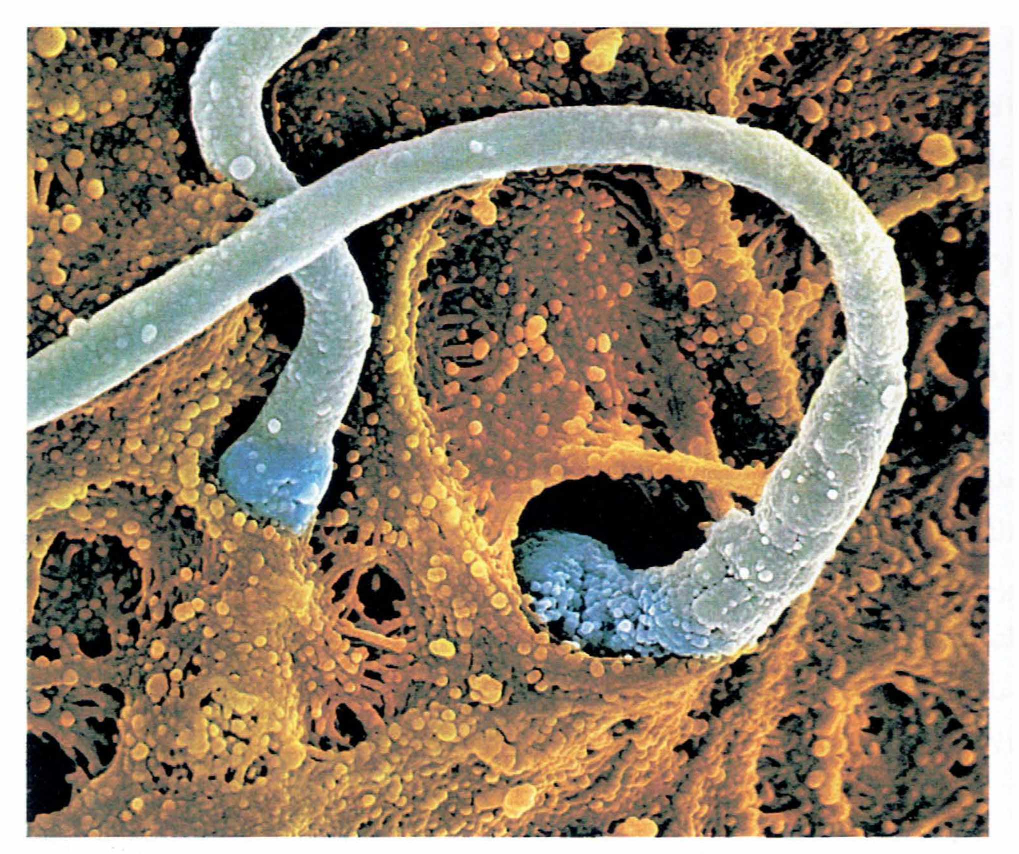
10 - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٖ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

11 - ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: 17–19].

ومن الآية الثانية في سورة الإنسان يتضح أن القرآن الكريم يسمي اتحاد نطفتي التكاثر الذكرية والأنثوية باسم «**النطفة الأمشاج**» أي المختلطة، وتُعرف باسم **اللقيحة المخصبة** (**Zygote**) إشارة إلى إتمام عمليتي التلقيح والإخصاب، و«النطفة» المشار إليها في سورة «العلق» هي هذه النطفة الأمشاج، لأن الخلق لا يتم من إحدى النطفتين المفردتين إلا بمعجزة إلهية كالتي حدثت في ميلاد السيد المسيح عيسى ابن مريم - على نبينا وعليه من الله السلام.

وتعتبر الإشارات القرآنية الكريمة في كل من سورتي [النجم: 45، 46] و[الإنسان: 2] أول تعبير علمي دقيق وصريح عن تخلُّق الجنين باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، وهي حقيقة لم يتوصَّل إليها العلم المكتسب إلا في نهاية القرن الثاني عشر الهجري أي الثامن عشر الميلادي (1186هـ/ 1775م).

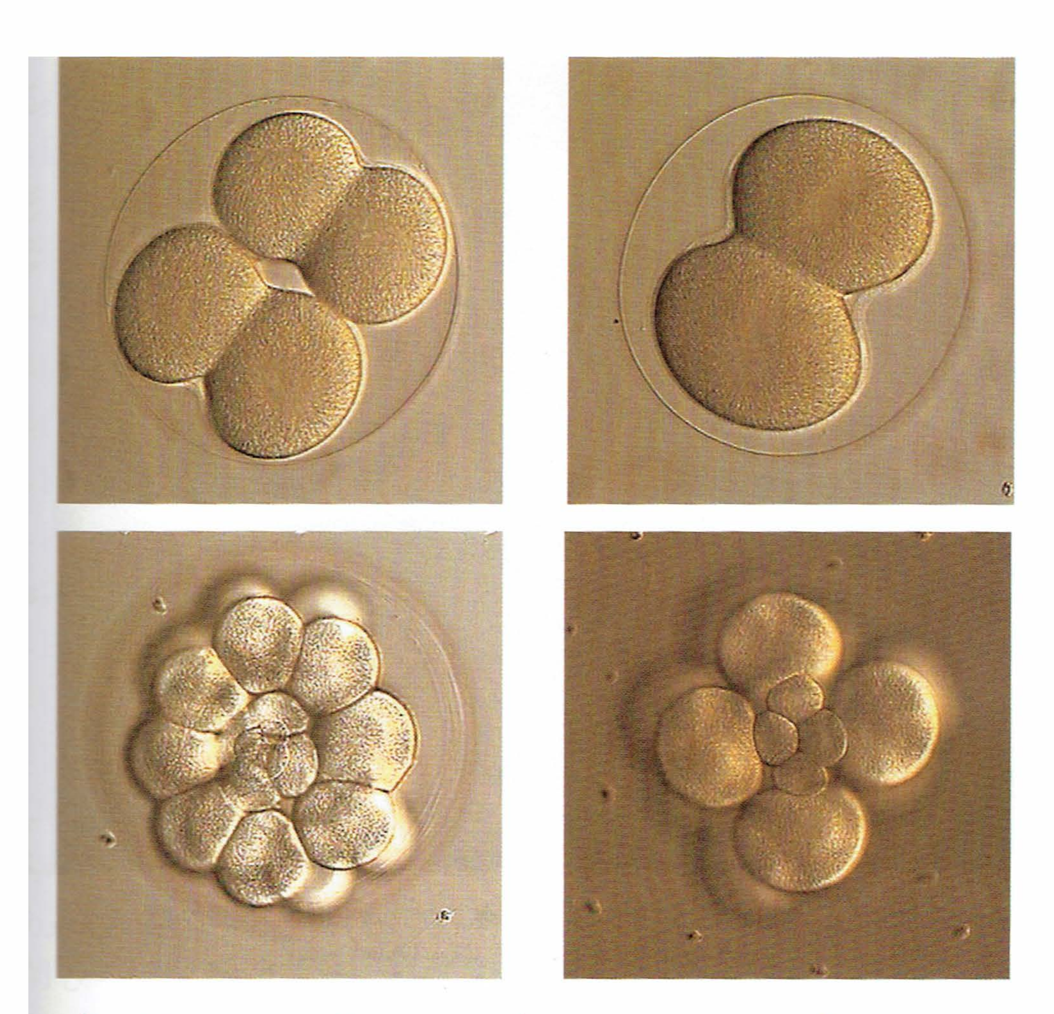
فمنذ عهد أرسطو (384-322 قبل الميلاد) إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ساد الاعتقاد في أوروبا بأن الجنين الإنساني يتكوَّن عند إحدى المدارس من ماء الرجل فقط، وأن رحم المرأة ليس سوى محضن له، وعند مدرسة أخرى يتكون من دم الحيض فقط، وأن ماء الرجل ليس سوى عامل مساعد (عاقد) له.



صورة حقيقية لاثنين من الحيامن يتنافسان على اختراق الغشاء البلوري للبييضة فيفلح أحدهما ويغلق الغشاء بإحكام أمام الآخر.

وبعد تصنيع المجهر في سنة 1677م (Hook & Hamm) تم اكتشاف الحيوان المنوي (الحيمن)، وانتشرت خرافة أن الجنين يخلق كاملاً في هيئة مصغرة جداً عند رأس الحيمن، ثم تزداد أبعاده بمرور فترة الحمل (Hartsoeker, 1694)، وعلى الرغم من التعرُّف على حويصلة البييضة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي (Regnierde Graaf de, 1672) إلا أن البييضة لم تُكْتَشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يعرف أن كلاً من الحيمن والبييضة من خلايا الجسم إلا في سنة 1859م، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي تمت ملاحظة عملية إخصاب البييضة بواسطة الحيمن (Hertwig, 1875; Van Beneden,1883).

وهذه الحقيقة كان رسول الله ﷺ قد قررها قبل اثني عشر قرناً من اكتشافها. فقد



صورة حقيقية توضح أنه بالتقاء النطفتين الذكرية والأنثوية تتم عملية الإخصاب فتنقسم النطفة الأمشاج (اللقيحة) المخصبة إلى قسمين ثم تتضاعف إلى أربعة ثم تتضاعف وهكذا.

أخرج الإمام أحمد في مسنده أن يهودياً مر برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي! إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنَّه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي: من كلٍّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»[1].

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).

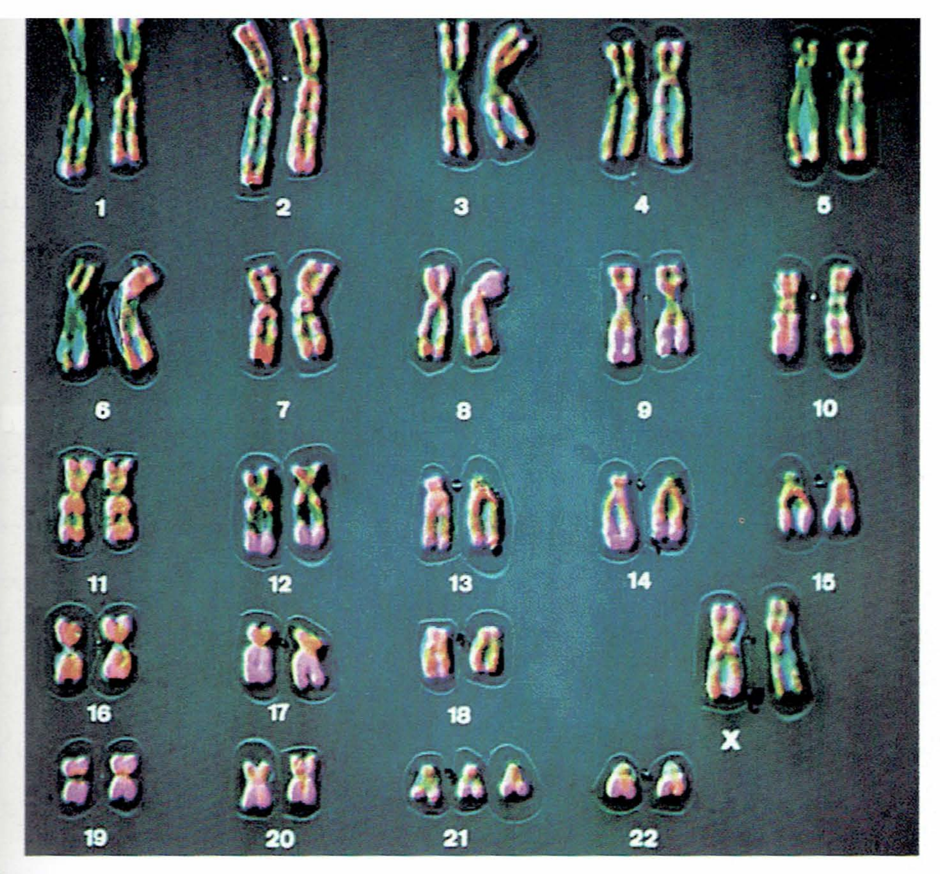
وعلى ذلك فإن النطفة المقصودة في آيات سورة عبس [17-19] هي «**النطفة الأمشاج**» أي المختلطة، وهي الناتجة عن التقاء النطفتين الذكرية والأنثوية ، والمعروفة علمياً باسم **اللقيحة المخصبة (Zygote)**. وقد يكون المقصود هو نطفة المرأة وحدها (البييضة) التي خلق منها الله - تعالى - عبده ونبيه عيسى ابن مريم من أم بلا أب بمعجزة لا يقدر عليها إلا رب العالمين. وإن كان الإنسان قد حاول منذ أكثر من نصف قرن استنساخ الضفادع والفئران، والقردة، وفي سنة 1998م تمكَّن الإسكتلندي «ويلموت» وفريقه من استنساخ النعجة «دوللي» بطريقة غير جنسية أي بدون إتمام عملية التزاوج بين الذكر والأنثى، وقد تم له ذلك بعد فشل أكثر من280 محاولة على مدى عدد طويل من السنين، مما يشير إلى أن الأصل في عملية التكاثر هي النطفة المؤنثة، وأن النطفة المذكرة يمكن الاستغناء عنها بأية خلية جسدية كاملة عدد الصبغيات تقوم بإخصاب البييضة المنزوعة النواة بوضعهما معاً تحت مجال كهرومغناطيسي شديد لتحفيز اندماجهما معاً، كما حدث في إنتاج النعجة «دوللي» التي ما لبثت أن ظهرت عليها علامات الشيخوخة المبكرة ثم قتلت لاعتلال صحتها وإصابتها بالعديد من الأمراض.

لأن مثل هذا الاستنساخ عبث بالخليقة وكل عبث بالخليقة حاله الدمار، ويبقى التزاوج بين الذكر والأنثى هو السنة الفطرية التي وضعها الله - تعالى - لخلقه.

التقدير في داخل النطفة:

(القدر) و(التقدير) تبيين كمية الشيء يقال (قَدَّرته) و(قَدَرته) أي: أعطيته قدره، و(قَدْر) الشيء مبلغه، و(قَدَّر) غيره أي: أعطاه قدره أو (القُدْرة)، و(المَقْدِرَة) بكسر الدال وفتحها هي (القدرة) المادية والمعنوية ومنها اليسار، و(القَدْر) و(القَدَر) ما يُقَدِّره الله من القضاء.

و(تقدير) الله - تعالى - الأشياء على وجهين **أحدهما**: أن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت حكمته، بصورة لا يتأتى منها غير ما قدره لها، **وثانيهما**: إعطاؤها القدرة على القيام بما هيأها الله - تعالى - لها. ومن ذلك قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]. ومنه الآيات التي نحن بصددها والتي يقول فيها ربنا سبحانه وتعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: 19].



صورة حقيقية للصبغيات في نواة خلية من خلايا أنثى بشرية سليمة تتكون من ثلاثة وعشرون زوجاً من الصبغيات منها (22) تحمل الصفات الجسدية وزوج واحد يحمل الصفات التكاثرية.

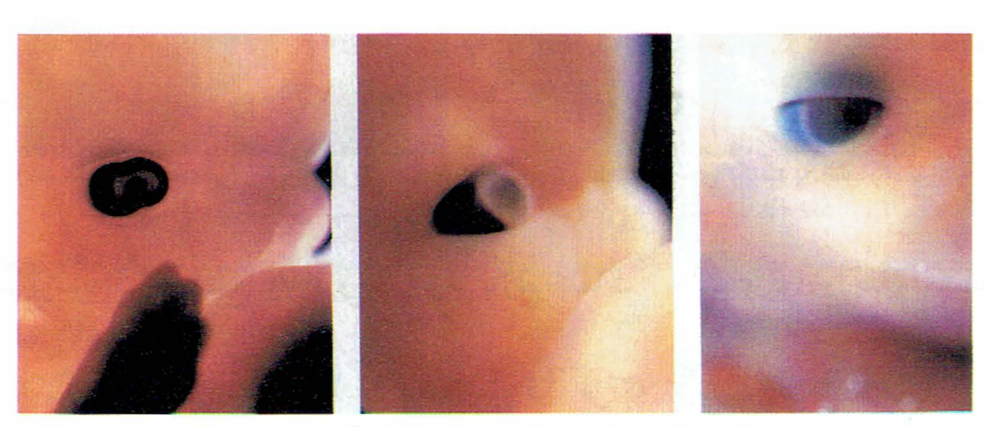
أي: أوجده فيه بعلمه وحكمته وقدرته، ومن ذلك تحديد كلٍّ من الصفات السائدة التي سوف تظهر على الجنين، والمتنحية التي يورثها لأجياله اللاحقة، ومن ذلك أيضاً تحديد الجنس (ذكراً كان أم أنثى). فَبِالتقاء النطفتين الذكرية (وتحمل من الصبغيات 23 صبغياً فقط) والأنثوية (وتحمل 23 صبغياً كذلك) تتكون «النطفة الأمشاج» التي يتكامل فيها عدد الصبغيات إلى (46) صبغياً مرتبة في (23) زوجاً، منها (22) تحمل الصفات الجسدية، وزوج واحد يحمل الصفات الجنسية وهما (x+x) في الأنثى، (X+Y) في الذكر.

ويتم إخصاب النطفة المؤنثة (البييضة) بنطفة ذكرية واحدة، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**ما من كل الماء يكون الولد..**»[1].

وفي ذلك روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يا رب! مخلَّقة أم غير مخلَّقة؟ فإن قيل: غير مخلَّقة لم تكن نسمة، وقذفها الرحم دماً، وإن قيل: مخلَّقة، قال: يا رب! ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ وما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟ وبأي أرض تموت؟**»[2] والمقصود بالنطفة هنا النطفة الأمشاج المختلطة بالتلقيح والإخصاب.

وروى حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصوَّرها وخلق سمعها وبصرها وعظامها ولحمها وجلدها ثم قال: يا رب! أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»[3].

وروى ابن مسعود كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك،**



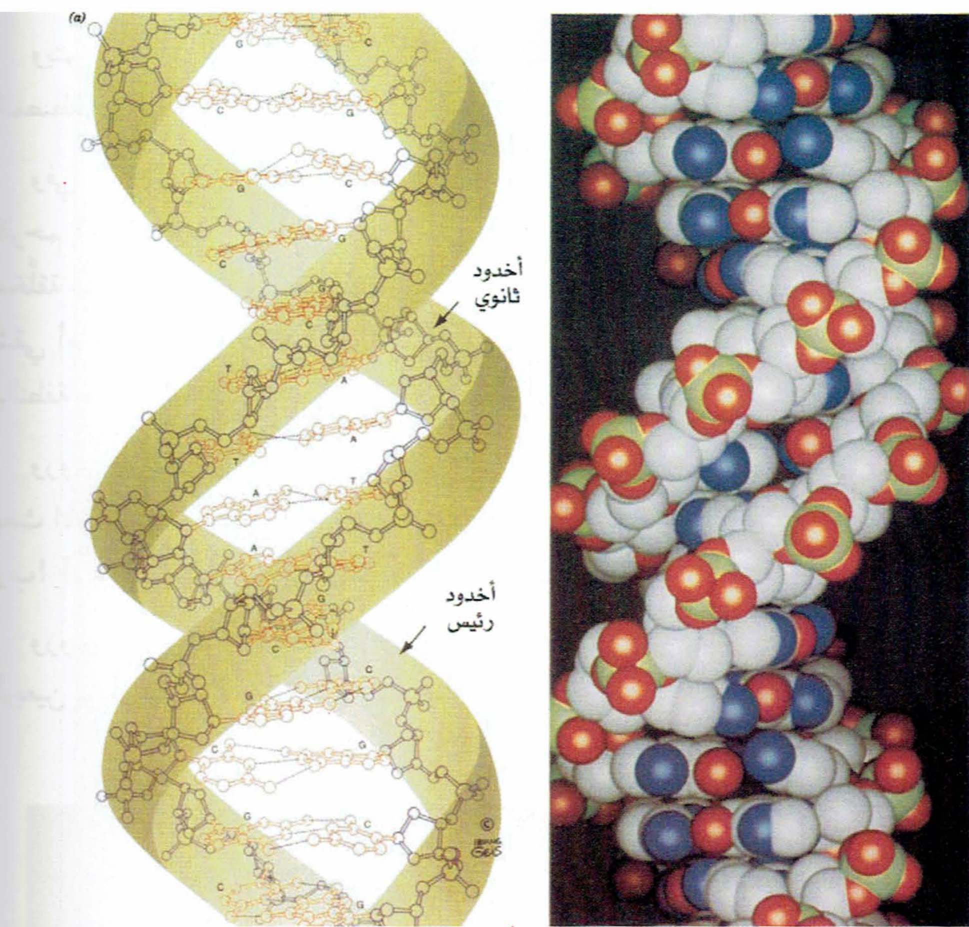
مجموعة من الصور لجنين بشري توضح كيف أن عينيه ترتسمان ابتداءً من الأسبوع الخامس لتتخذا شكلهما المعهود في الأسبوع الثامن.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).

(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 374).

(3) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6668).



رسم تخطيطي للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (D.N.A) الذي تكتب به الشيفرة الوراثية.

ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»(1).

وتأتي دراسات علم الأجِنَّة بعد أربعة عشر قرناً من كلام رسول الله ﷺ لتثبت أن وجه الجنين لا تبدو عليه الملامح البشرية إلا في اليوم الثاني والأربعين من عمره، وأن الخطوات الرئيسة التي تعطي المضغة بدايات الشكل الإنساني تكتمل بين اليوم الأربعين والخامس والأربعين من عمر الجنين حين يتم تكوُّن الأعضاء، وانتشار الهيكل العظمي بصورة واضحة، مع استمرار النمو بانقسام الخلايا، وتمايز الأعضاء والأجهزة.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).

وقد أثبتت دراسة الصبغيات أنها مكونة من جزيئات الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين أو «الدنا» (Deoxyribonucleic Acid or DNA) الذي تكتب بمكوناته الشيفرة الوراثية لكل كائن حي. (Francis Crick & James Watson. 1955).

وهذا الحمض النووي هو مركب كيميائي شديد التعقيد، وإذا تكسَّر كيميائياً ينتهي إلى حمض الفوسفوريك، وإلى عدد من السكريات والقواعد النيتروچينية. ويتكوَّن من شريط مزدوج الجدار بسلميات فاصلة بين الجدارين، لافٍّ على ذاته بهيئة الحلزون المزدوج الجدار (Double Helix DNA Molecule)، وتقاس أبعاد هذا الحلزون بالأجزاء من الميكرون (والميكرون يساوي جزءاً من ألف من الميليمتر) ولكن إذا تم فرده فإن طوله يصل إلى حوالي الأربعة سنتيمترات.

ويقسم كل صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية يحمل كل منها عدداً من المورثات أو الناسلات (Genes)، يكتب كل منها بعدد من الشفيرات (Codons) وتتكوَّن كل شفيرة من ثلاث نويدات (Nucleotids)، وتتكون النويدة من زوج من القواعد النيتروچينية (A Pair of Nitrogenous Bases) مرتبطين برباط وسطي دقيق، وتستند كل قاعدة نيتروجينية في جهتها الخارجية إلى جزيء من السكر، وآخر من الفوسفات في ترتيب محكم دقيق تكون فيه جزيئات السكر والفوسفات الجدارين المتقابلين لحلزون الحمض النووي، وتنتشر بينهما القواعد النيتروچينية في علاقات تبادلية شديدة الإحكام تحدد الصفات الوراثية للكائن الحي.

وهذه القواعد النيتروچينية هي أربع قواعد فقط تكتب بتبادلاتها الشيفرات الوراثية لجميع بني آدم، فتعطي لكل فرد بصمته الوراثية الخاصة به والتي تُميِّزه عن غيره، وتجعله فريداً في صفاته المنظورة والخفية.

وعدد كل من القواعد النيتروچينية وجزيئات كل من السكر والفوسفات في الجزيء الواحد من جزيئات الحمض النووي الريبي منقوص الأوكسيجين = 6,2 بليون جزيء × 3 = 18,6 بليون جزيء، ولو اختل وضع جزيء من هذه البلايين من الجزيئات عن مكانه أو اختل وضع أي من الذرات فيه فإما أن يؤدي ذلك إلى تشويه الجنين أو إلى القضاء عليه قضاءً تاماً.

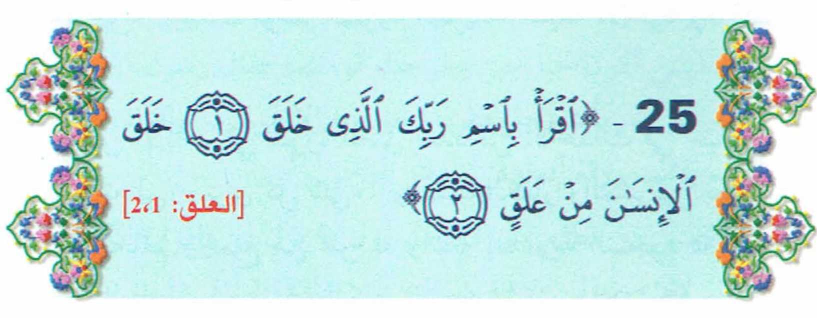
وتعتبر النويدات (Nucleotides) هي الحروف التي تكتب بها كلمات الشفيرة الوراثية (DNA Codon)، وتعتبر الأخيرة هي الكلمات التي تكتب بها جمل المورثات (حاملات

الوراثة أو الناسلات المعروفة باسم الجينات **Genes**) والتي يطلق عليها أحياناً اسم الوحدة الوظيفية الوراثية (**Cistron**).

وهنا تتضح طلاقة القدرة الإلٰهية في روعة تقدير الله ﷻ لصفات كل جنين لحظة التقاء الخليتين التكاثريتين أي النطفتين الذكرية والأنثوية (الحيمن والبييضة) لِيُكَوِّنا معاً «النطفة الأمشاج» أي المختلطة فيتكامل عدد الصبغيات، وتتكون بذرة الجنين، حيث تتحد كل الصفات الموروثة السائدة منها والمتنحية عن خطي الأب والأم في تكامل عجيب؛ ولعل ذلك هو المقصود من قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: 19]. وهذه حقائق لم تدرك إلا خلال القرن العشرين، وسبق كل من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ بها مما يقطع بأن القرآن العظيم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وتعهد بهذا الحفظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على الدوام، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



25 - ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 1،2]

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مطلع سورة «العلق»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها تسع عشرة بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة، وهي آخر سجدة تلاوة في المصحف الشريف. والآيات الخمس الأولى من هذه السورة المباركة هي أول ما نزل من القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وهو يتعبد في غار حراء.

وقد سميت السورة باسم «العلق» لورود الإشارة في مطلعها إلى هذه المرحلة من مراحل خلق الإنسان، والتي يشبه فيها الجنين دودة العلق في شكلها وطريقة غذائها. وتسمى سورة «العلق» أيضاً باسم مطلعها «اقرأ» لاستهلالها بالأمر بالقراءة والكتابة وبتعظيم العلم وأدواته.

ويدور المحور الرئيس لسورة «العلق» حول بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وما صاحبه من أمر بالإيمان بالله - تعالى - وتأكيد على أنه خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه جل جلاله خلق الإنسان من علق، وأمر باكتساب العلم والمعرفة، وأشاد بالقراءة والقلم، وأكد أن الله - سبحانه - هو مصدر كل علم مفيد، ومعرفة صحيحة فهو - تعالى - ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: 4،5]. وكان من مقتضيات ذلك أن يعبد الإنسان ربه، ويلتزم أوامره، ويتجنب نواهيه، ولكن الإنسان كثيراً ما يطغيه الثراء والجاه والسلطان فينسى أنها من نعم الله المنعم المتفضل على عباده، ويطغيه ذلك بدلاً من أن يسجده

لله - تعالى - عبودية وحمداً، وينسيه المال حتمية الرجوع إلى الله - تبارك وتعالى - مهما طال الأجل، وبذلك تؤكد السورة الكريمة حقيقة الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء.

وتعرض الآيات في سورة العلق لعدد من الأحداث في حياة رسول الله ﷺ، مؤكدة أن الله - تعالى - يرى كل شيء، ومهددة الكفار والمشركين بعذاب من الله أليم، وآمرة الرسول الخاتم وجميع من آمن به واتبعه بمداومة السجود لله - تعالى - والتقرب إليه بالعبادة والطاعة رغم أنوف الكافرين والمشركين والمتشككين.

عرض موجز لسورة «العلق»:

بعد «بسم الله الرحمٰن الرحيم» يقول ربنا - تبارك وتعالى - في مطلع سورة العلق:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 1-5].

وهذه الآيات الخمس هي أول ما نزل من القرآن الكريم باتفاق العلماء. وفي ذلك يروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة أم المؤمنين فيتزود لمثلها حتى فاجأه الوحي، وهو في غار حراء فجاءه المَلَك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «**فقلت: ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾»، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**» فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال: «**يا خديجة: ما لي**»؟! وأخبرها الخبر، وقال: «**قد خشيت على نفسي**». فقالت له: كلا! أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به حتى أتت (ورقة بن نوفل) بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي

أبيها، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[1].

فكانت هذا الآيات الخمس من مطلع سورة العلق أول ما نزل من القرآن الكريم. هذا الوحي الخاتم الذي أكمل الله - تعالى - فيه رسالته إلى خلقه، وأتم عليهم نعمه بنزوله وحفظه، ورضي لهم الإسلام ديناً.

وكان من أبلغ الشهادات على أن هذا الوحي هو كلام الله الخالق تلك اللفتة المعجزة إلى خلق الإنسان من علق، وهي مرحلة من مراحل خلق الجنين البشري، يتراوح طول الجنين فيها بين (0,7 مم، 3,5 مم)، ولم يتعرف الإنسان عليها إلا في القرن العشرين، ووصف القرآن الكريم لها من قبل أربعة عشر قرناً بهذا النعت الذي يتسم بالدقة والشمول والكمال، وفي زمن لم يتوافر للإنسان أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الكشف يعتبر من أوضح المعجزات العلمية في كتاب الله العزيز، خاصة وأن هذا الزمن قد ساد الاعتقاد فيه بالعديد من الخرافات والأساطير من مثل خلق الإنسان من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، خلقاً متكاملاً في حجم متناهي الضآلة يزداد في أبعاده بالتدريج حتى يصل إلى حجم الجنين البالغ النضج قبل الميلاد.

وكان في ذلك البرهان الساطع لكل ذي بصيرة على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

وكان في تأكيد هذه الآيات على قيمة العلم، والإشادة بأهم أدوات اكتسابه - وهي القراءة والكتابة - تعظيم لأقدار العلماء، ودعوة من الله - تعالى - إلى الخلق كافة

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (الحديث: 4953)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي... وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 6/ 233).

لاكتساب المعرفة والحرص عليها، وإثبات أن الإسلام العظيم لا يبني على جهالة أبداً، ولكن على علم والتزام، وأن العلم النافع يهبه الله ﷻ لمن يشاء من عباده كما وهبه لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه. وكان هذا العلم الوهبي هو الأساس الذي بنيت عليه كل المعارف البشرية. ومن هنا كان هذا النداء الإلٰهي إلى رسول الله ﷺ في أولى لحظات اتصاله بالملأ الأعلى أن يقرأ باسم الله الخالق، الذي خلق كل شيء فأتقنه، وجعل من مراحل خلق الإنسان مرحلة العلق التي منها خلق هذا المخلوق المُكَرَّم الذي وهبه الله - تعالى - القدرة على اكتساب المعرفة والعلم.

وكانت إرادة الله أن يكون هذا النبي والرسول الخاتم من غير الكاتبين بالقلم، ومن هنا كانت هذه الإشارة من الدلائل الناصعة على صدق نبوته، وعلى صدق الوحي الذي أوحى إليه، لأن أهمية القراءة والكتابة بالقلم ما كانت لتبرز هذا البروز لو كان القرآن الكريم من صناعته هو ﷺ كما يدَّعي المبطلون.

وبهذه الآيات الخمس التي كانت أول ما نزل من القرآن الكريم وُضِعت أول قاعدة من قواعد الإيمان بالله الخالق: رب هذا الكون ومليكه، الذي يجب أن تكون كل حركات الإنسان وسكناته باسمه ومتوجهة إليه، وطالبة لمرضاته، ومنتهية إليه فهو الذي خلق فسوّى، وهو الذي قدّر فهدى، وهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكان من مقتضيات هذه الأفضال الإلٰهية أن يعرف العبد ربه، وأن يخضع لجلاله بالطاعة والعبادة والتقوى الخالصة، ولكن كثيراً من الناس لا يشكرون، تبطرهم النعمة فينسون المنعم، ويطغيهم الجاه والسلطان فيتجاوزون حدود الرحمة والعدل، وينسون حتمية الرجوع إلى الله، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: 6-8].

وهذا الحكم شاءت إرادة الله - تعالى - أن تتبعه بواقعة تاريخية وقعت لرسول الله ﷺ في بدء دعوته، فقد أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لَأَطَأَنَّ على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**لئن فعل لأخذته الملائكة عياناً**»[1].

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا ...﴾ (الحديث: 4958) وذكره الطبري في «تفسيره» (30/ 65).

وأخرج كل من الإمامين أحمد والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد ألم أنْهَكَ عن هذا؟ وتوعَّده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله - تعالى - قوله العزيز: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: 17،18]، وقال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه (أي يصلي) بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى (أبو جهل) رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال أبو جهل: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة!!! قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»، قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: 6] إلى آخر السورة[2].

وتسجل سورة «العلق» هذه الواقعة بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾

[العلق: 9-19].

وهذه الآيات تتعلق بحادثة نهي أبي جهل لرسول الله ﷺ عن الصلاة عند البيت الحرام، والذي وصف بأنه ﴿كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ هو رسول الله ﷺ، والذي وصف بأنه ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ هو أبو جهل - لعنه الله - فوعظه الله سبحانه وتعالى أولاً بالتي

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة اقرأ باسم ربك (الحديث: 3349)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 256).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: 6] (الحديث: 6996).

هي أحسن، ثم هدده وتوعده بأنه - تعالى - يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على إجرامه أشد الجزاء فيقول له: إن لم ترجع عن غطرستك وتكبرك على الحق لنأخذنَّ بناصيتك، ولنسحبنَّك بها إلى نار جهنم سحباً، ولنذلنَّك بذلك أشد الإذلال. (والسفع) هو القبض على الشيء بشدة وجذبه، وهو الاحتراق بالنار إلى حد السواد والتفحم. و(الناصية) هي شعر مقدم الرأس، ووصف الناصية بأنها ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ تأكيد على أنها كاذبة في بيانها، متعمدة الخطأ في أفعالها. والاستفهام هنا بتعبير (أرأيت) هو للتقريع والتوبيخ وهو بمعنى أخبرني. و(كلا) هي كلمة ردع وزجر لأبي جهل توطئة للعقاب الذي فسره قوله - تعالى - ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ وفي ذلك إشارة إلى وجود الفص الجبهي من المخ تحت الناصية مباشرة، وهو مركز الوظائف العقلية العليا من مثل التقدير والتدبير، والاختيار بين البدائل، ووضع الخطط، واتخاذ القرارات، والتواؤم مع الواقع، وهذه الحقيقة لم تتوافر للعلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسَبْقُ القرآن الكريم بالإشارة إليها هو بالقطع من معجزاته العلمية القاطعة والشاهدة بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ووصف ناصية (أبي جهل) بأنها ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ هو تقرير بأن صاحبها كاذب وخاطئ يستحق العقاب الذي تهدده به الله - تعالى -. والخاطئ هو الذي يفعل الذنب متعمداً، والمخطئ هو الذي يعمله عن غير قصد. وفي قوله - تعالى -: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: فليدع أهله وذويه لنصرته إن استطاعوا، وذلك لأن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتهددني وأنا أكثر الوادي نادياً؟ وترد عليه الآيات بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ وهم خزنة جهنم من الملائكة الغلاظ الشداد، أولي القوة والبطش من (الزبن) وهو الدفع. وواحد الزبانية (الزابن) أو (الزبنية) أو (الزباني) وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه.

وختمت سورة العلق بأمر من الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بألا يطيع طاغية مثل (أبي جهل) في نهيه له عن الصلاة عند البيت الحرام، وتأمره بالمداومة على عبادة الله - تعالى - وحده، وبإكثار السجود له - سبحانه - ومداومة التقرب إليه، وإقام الصلاة له حيث يشاء دون أدنى مبالاة من جبابرة الأرض وطغاتها أمثال (أبي جهل) المشرك - وما أكثر أمثاله في هذه الأيام - وذلك لأن الله - تعالى - حافظُ خاتم أنبيائه ورسله، وناصره، ومؤيده، ومؤازره، وعاصمه من الناس - والخطاب من الله تعالى إلى نبيه ورسوله الخاتم هو خطاب إلى كل مؤمن به وبرسالته ولذلك ختمت سورة العلق بقول ربنا - تبارك وتعالى-:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: 19].

وفي التأكيد على فضل السجود لله - تعالى - يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»(1).

من ركائز العقيدة في سورة «العلق»:

1 - ضرورة بدء كل عمل باسم الله - تعالى - لأن كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو ناقص انطلاقاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر**»(2).

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وهو - سبحانه - رب كل شيء ومليكه وعلى ذلك فهو وحده المستوجب الخضوع لجلاله بالعبادة والطاعة (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد).

3 - التسليم بأن الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان في عدد من الأطوار المتتالية التي من أوائلها (طور العلق)، وهي أطوار متناهية الضآلة في الحجم، والذي هذا أصله لا يجوز له التطاول على الله - تعالى - بالمعاصي ولا على خلقه بالتجبر والمظالم.

4 - الإيمان بأن الله الخالق هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه - تعالى - أكرم الأكرمين، فلا يجوز اللجوء إلا إليه، ولا يجوز السؤال إلا منه، ولا تجوز الاستعانة إلا به جل جلاله.

5 - اليقين بأن العلم من فيض الله العليم الحكيم على عباده، علَّمه لأبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، وعلَّمه آدم لنسله من بعده.

6 - التسليم بأن الله - تعالى - علَّم الإنسان ما لم يعلم.

7 - الإيمان بالآخرة وبما فيها من بعث، وحشر، ورجوع إلى الله، وحساب وجزاء، ثم خلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

8 - اليقين بأن الله تعالى هو السميع، البصير، العليم الحكيم الذي يرى كل شيء، ويسمع كل همس فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث: 1083).
(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 359).

9 - التسليم بأن المال والجاه والسلطان من مغريات الإنسان بالطغيان إلا من رحم الله - تعالى -.

10 - التصديق بأن النهي عن عبادة الله - تعالى - من الجرائم التي يعاقب عليها رب العالمين.

11 - اليقين بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن عبادة الله - تعالى - بما أمر، والحرص على التقرب إليه بالطاعات من واجبات الإنسان في هذه الحياة.

من ركائز العبادة في سورة «العلق»:

1 - ضرورة استفتاح كل عمل باسم الله - تعالى - فكل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه وتعالى فهو أبتر.

2 - الحرص على تعلُّم العلم النافع، ووسيلة الإنسان في ذلك القراءة والكتابة.

3 - التحذير من أن يكون الغني بالمال أو الجاه أو السلطان مدعاة للطغيان على عباد الله والتجبر عليهم.

4 - النهي عن تعطيل عبادة من العبادات المفروضة واعتبار ذلك من الجرائم التي يعاقب عليها الله سبحانه وتعالى.

5 - الأمر بالإكثار من السجود لله - تعالى - والضراعة إليه بالدعاء في هذا المقام فأقرب ما يكون العبد بين يدي الله وهو ساجد.

من الإشارات الكونية في سورة «العلق»:

1 - التأكيد على حقيقة الخلق، وعلى أن الله الخالق البارئ المُصوِّر هو خالق كل شيء، ورب كل شيء ومليكه:

2 - الإشارة إلى خلق الإنسان من طور يشبه دودة العلق تماماً في شكله وفي طريقة تغذيته.

3 - التأكيد على أن الله - تعالى - هو مصدر كل علم نافع ومعرفة صحيحة، وأنه سبحانه وتعالى ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 4، 5].

4 - الإشارة إلى أن من طبائع النفس البشرية الميل إلى الطغيان عند الغنى، إلا من رحم الله.

5 - التأكيد على حتمية البعث والحشر والرجوع إلى الله - تعالى- .

6 - الإشارة إلى أن الناصية هي موضع اتخاذ القرار.

7 - التلميح إلى قيمة السجود في صلة العبد بالله - تعالى -.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثانية من القائمة السابقة والتي جاءت في الآية الثانية من سورة العلق والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 2].

من الدلالات اللغوية لألفاظ الآية الكريمة:

أولاً: (خلق): أصل (الخَلْق) هو الإبداع والتقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء على غير مثال سابق، أي من غير أصل ولا احتذاء، وذلك من مثل قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أبدعهما بدلالة وصفه لذاته العلية بصفة ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ويستعمل الفعل (خَلَقَ) في التعبير عن إيجاد شيء من شيء آخر، وذلك من مثل قوله - تعالى -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا. . .﴾

[النساء: 1].

و(الخلق) الذي يقصد به الإبداع لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى ولذلك وصف ذاته العلية بـ(الخالق) و(الخلّاق)، وقال في محكم كتابه:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17].

و(الخلق) لا يستعمل في حق المخلوقين إلا على وجهين: أحدهما بمعنى التقدير، والثاني في التعبير عن الكذب بمعنى الاختلاق والافتراء وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17] فإن قيل في قوله - تعالى -: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] إمكانية الدلالة على أنه يجوز أن يوصف غير الله بالخلق، قلنا إن ذلك معناه أحسن المقدِّرين.

و(الخلق) يقال في معنى المخلوق، والخَلق و(الخُلق) في الأصل واحد، ولكن خص (الخَلْقَ) بالهيئات والأشكال والصُوَر المدركة بالبصر، وخص الخُلُقَ بالصفات والسجايا

المدركة بالبصيرة، و(الخلاق) هو ما يكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه؛ و(الخليقة) و(الخلائق) هم خلق الله، و(الخِلقة) هي الفطرة.

ويقال: فلان (خليق) بكذا: أي جدير به، كأنه مخلوق فيه ذلك، أو كأنه مجبول على ذلك، أو مدعو إليه بالفطرة. والخلوق ضرب من الطيب، و(الخلاق) هو النصيب.

ثانياً: **(الإنسان)**: (الإنس) خلاف الجن، وكلاهما من الخلق المكلف، و(الإنس) هو مجموع البشر، والواحد (إنسي)، بكسر الألف وسكون النون، أو (أنسي) بفتحتين، والجمع (أناسي)، قال تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 49]، وكذا (الأناسية) مثل الصيارفة والصياقلة.

يقال للمرأة (إنسان)، ولا يقال لها (إنسانة). وهو وصف لمن (يؤنس) به أو يكثر أنسه ولذلك قيل إن (الإنسان) سمي (إنساناً) لأنه (يؤنس) به، حيث أنه خلق خلقة لا قوام لها إلا بـ (أنس) بعضهم ببعض، ولهذا قيل: (الإنسان) مدني بالطبع، حيث لا يمكنه القيام بجميع أسبابه بمفرده، لاحتياج بعض الناس بعضاً. وقيل: إنه سمي (إنساناً) لأنه (يأنس) بكل ما يألفه. وقيل: إن أصل التسمية (إنسيان) على وزن (إفعلان) من النسيان لأن آدم عليه السلام عهد إليه فنسي، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

وتصغير لفظة (إنسان) هو (أنيسان)، و(الأُناس) بالضم لغة في (الناس) وهو الأصل. و(الإيناس) و(التأنيس) خلاف الإيحاش، و(الأنس) خلاف الوحشة. يقال: (أنس) به و(أنس) به (يأْنِس) بالكسر (أُنساً) بالضم.

و(الأناسي)، و(الناس)، و(الإنس)، هم الخلق المكلف من نسل أبينا آدم عليه السلام، وهم المقابل للمخلوقات الغيبية المكلفة مثل الجن، والعاقلة المسخرة مثل الملائكة. وبهذا نزل القرآن الكريم، وعلى هذا بنيت عقيدة الأمة سلفاً وخلفاً. فالبشر والإنسان وصفان لموصوف واحد. وقد عُبِّر عن (الإنسان) بـ (البشر) لظهور جلده، بخلاف الحيوانات التي يغطي جلدها بالشعر أو الصوف أو الوبر، و(البشرة) ظاهر الجلد، والأدمة باطنة.

والمقصود بـ (الإنسان) في القرآن الكريم هو نوع الإنسان أي جميع بني آدم، وخصه ربنا - تبارك وتعالى - بالذكر لكونه أشرف المخلوقات وأحسنها بناءً جسدياً، وقدرات

عقلية وحسية وعاطفية، وإمكانيات لكسب المعارف والمهارات وتعليمها، وعلى الانفعال، والتعبير عن الذات وغير ذلك مما ميزه به الخالق سبحانه وتعالى.

ثالثاً: (علق): يقال (عَلِقَ) بالشيء (عُلُوقاً) أي: تعلق أو تشبث به، و(العَلَق) التشبث بالشيء، و(المِعْلاق) و(المُعَلَّق) ما (يعلق) به، و(العلقة) ما يتمسك به، وكل شيء (علق) به شيء فهو (معلاقة)، و(العُلّيق) نبت يتعلق بالشجر. و(العَلَقَة) دودة مائية تعيش في البرك متطفلة على غيرها من الحيوانات، تعلق بها لتتغذى بامتصاص دمائها، والجمع (علق)، و(الإعلاق) إرسال دود العلق على موضع محدد من الجسم ليمص الدم منه. ويقال: (علقت) الدابة إذا نشبت بها دودة العلق أثناء شربها للماء. و(العلقة) من الأطوار الابتدائية للجنين البشري.

وجاءت لفظة (**علق**) في الآية الكريمة التي نحن بصددها بالجمع لتتوافق مع بلايين البشر من بني آدم الذين عاشوا وماتوا، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض اليوم، والتي سوف تأتي من بعدنا إلى قيام الساعة، وهذا من دقة الصياغة القرآنية المعجزة وشدة إحكامها.

لفظتا (علقة) و(علق) في القرآن الكريم:

الآيتان اللتان نحن بصددهما جاءتا في سورة العلق التي يقول ربنا - تبارك وتعالى - في مطلعها:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: 1،2].

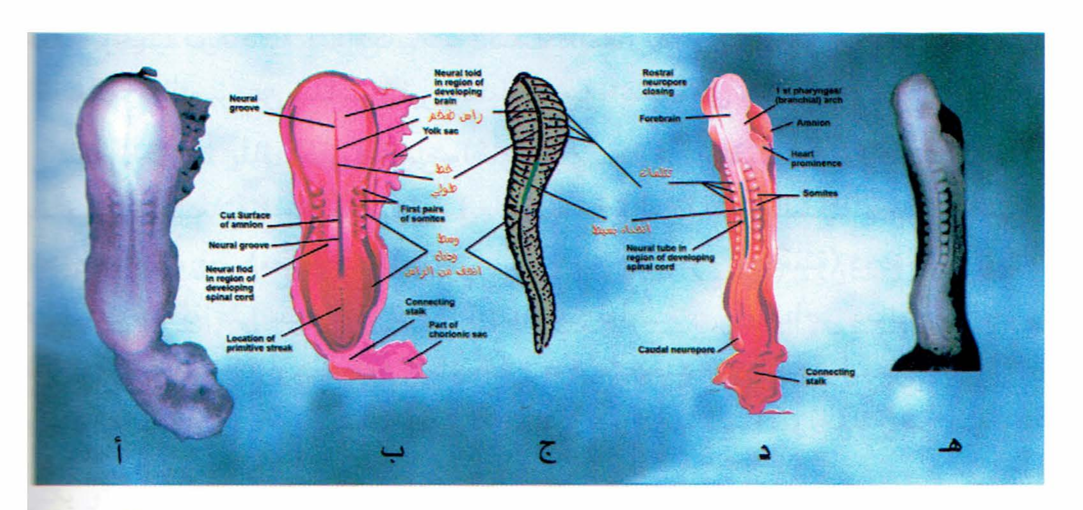
وهي المرة الوحيدة التي جاء فيها ذكر اللفظة (علق) بصيغة الجمع في القرآن الكريم كله، ولكن جاء لفظ (علقة) بالإفراد خمس مرات على النحو التالي:

1 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [الحج: 5].

2 - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً...﴾ [المؤمنون: 14].

3 - ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [غافر: 67].

4 - ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: 37-39].



صور حقيقية ورسومات توضيحية للجنين البشري في اليوم الرابع والعشرين من عمره (أ، ب) وفي اليوم الثاني والعشرين (د، هـ) تؤكد شبه هذه المرحلة من مراحل جنين الإنسان بدودة العلقة.

وفي جميع هذه الحالات الست قصد باللفظ (**علقة**) و(**علق**) مرحلة محددة من مراحل تطور الجنين البشري، يأخذ فيها الجنين (الكيسة الأرومية) شكل دودة **العلق** (**Leech**)، ويتعلق بجدار الرحم تماماً كما تتعلق الدودة بعائلها، ويتغذى الجنين في مرحلة العلقة على دم الأم، كما تتغذى دودة العلق على دم عائلها تماماً.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

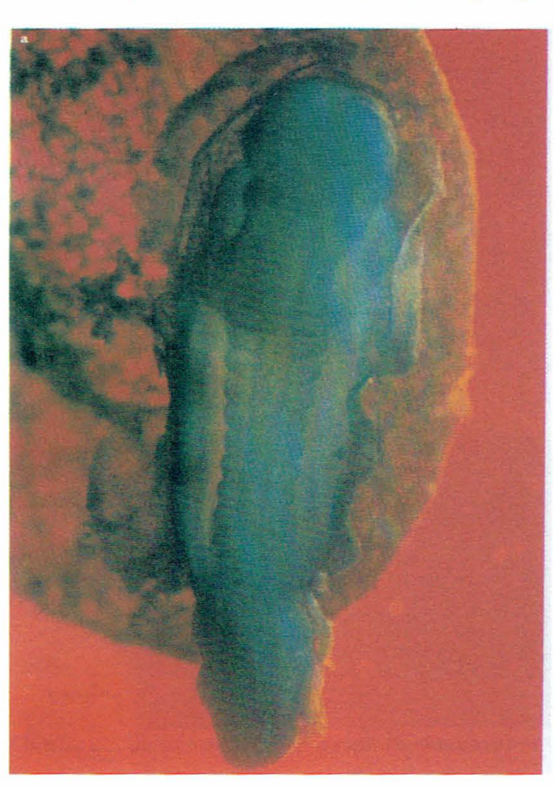
تشير الآيتان الكريمتان في مطلع سورة «العلق» إلى خلق الإنسان (أي جميع بني آدم) عبر مرحلة جنينية محددة سماها ربنا - تبارك وتعالى - باسم مرحلة العلق، والعلق من الديدان الحلقية (**Annelida**) أو ما يعرف باسم العلقيات (**Class Hirudinia**) والتي عادة ما تحيا في الماء العذب وإن كانت أنواع قليلة منها تحيا في الماء المالح أو حتى على اليابسة في الغابات الاستوائية وشبه الاستوائية الرطبة.

وتعيش ديدان العلق متطفلة على العديد من العوائل (جمع عائل) الفقارية بإلصاق نفسها بجسم العائل بقرصين ماصَّين قويين عند كل من طرفيها تمتص بواسطتهما شيئاً من دمه، وقد تعيش كحيوانات مفترسة أو رمية على غير الفقاريات من القواقع، وقد زوَّد الخالق ﷻ ديدان العلق الماصَّة للدماء بعدد من المركبات الكيميائية التي تمنع تجلُّط

الدم حتى تتمكن من امتصاص القدر اللازم لاحتياجاتها، وتعرف باسم مركبات الهيرودين (**Hirudin**) والتي اشتق منها اسم طائفة العلقيات (**Class Hirudinia**).

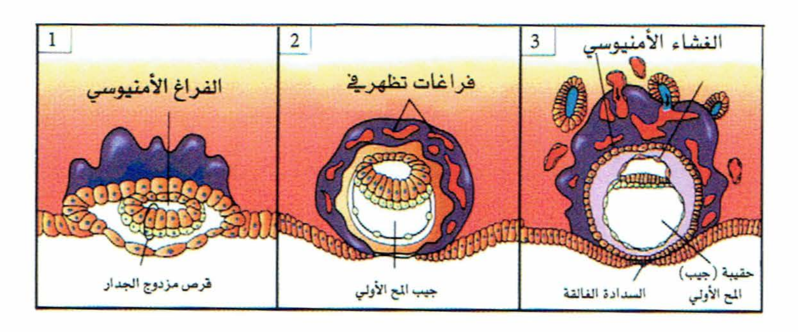
وقد استخدمت هذه الديدان الماصة في القديم، ولا تزال تستخدم في علاج العديد من الأمراض، وذلك بامتصاص الدم الزائد عن حاجة المريض.

ومن العجيب أن يكتشف دارسو علم الأجنة البشرية في القرن العشرين أنه في خلال الأسبوعين الأولين من حياة الجنين تتم عملية تعلق **الكيسة الأرومية** بجدار الرحم بواسطة المشيمة الابتدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري. وباطراد عملية النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكون الأجهزة المختلفة (وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلاً بأنابيب القلب، وحزمة من الأوردة والشرايين) فإن الجنين يستطيل في مطلع الأسبوع الثالث (من اليوم الخامس عشر إلى اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من عمره) ليأخذ هيئة دودة العلق (**Leech**) في شكلها، وفي تعلُّقها بجسم العائل (لأن الجنين يتعلق بجدار الرحم)، وفي تغذيتها على دم العائل (لأن الجنين يتغذى على دم الأم). وعلى ذلك فإن الوصف القرآني لهذا الطور من أطوار الجنين البشري بتعبير ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ في زمن لم يكن هناك وجود لأي وسيلة من وسائل الكشف أو التكبير أو التصوير لطور يتراوح طوله بين (0,7 مم، 3,5 مم) يعتبر أمراً معجزاً حقاً.



صورة حقيقية لجنين بشري
(25 يوماً من العمر) بقياس 3ملم - مرحلة العلقة.

وتعرف هذه المرحلة من مراحل الجنين البشري باسم مرحلة الالتصاق والانغراز أو الحرث (**The Attachment and Implantation Stage**).



يوضح كيفية تغور البييضة داخل بطانة الرحم
ومن ثم تنغلق الفتحة التي تسببها بالسدادة النسيجية (Closing Plug).

ويحدث فيها اقتراب الأرومة الجرثومية (**Blastula**) من الغشاء المخاطي المبطن للرحم حتى تلتصق في جزئه العلوي، بعد ستة إلى سبعة أيام من تاريخ الإخصاب ثم تقوم الخلايا الخارجية للأرومة الجرثومية بقضم جدار الرحم والانغراز فيه بواسطة عدد من الخملات الدقيقة، الغارقة في بحر من الدماء، وبذلك يكون الاتصال بين الجنين ودماء الأم اتصالاً مباشراً فتتغذى عليه العلقة وعلى لبن الرحم الذي تفرزه آلاف من الغدد الرحمية.

وفي حوالي اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من تاريخ الإخصاب تقفل الفتحة التي دخلت منها الأرومة الجرثومية في غشاء جدار الرحم بعدد من الخلايا الليفية والدموية، ثم تغطى بعدد من الخلايا الطلائية المكونة لبطانة الرحم الغشائية.

وبعد هذه المرحلة الأولى من تعلق الجنين بجدار الرحم، وانغراسه فيه، يبدأ الغشاء المشيمي (**Chorion**) في التكون من الخلايا الخارجية للأرومة الجرثومية، كما يتكوَّن معلاق موصل بين الجنين وبين الغشاء المشيمي، تنشأ فيه الأوعية الدموية السُّرية المغذية للجنين لتأكيد تعلق الجنين بجدار الرحم.

ويستمر **طور العلقة** من اليوم الخامس عشر إلى اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين تقريباً بعد إتمام عملية الإخصاب، وعلى الرغم من ضآلته فإن هذا الطور يتميز بصفات عدة منها: التكاثر المتسارع للخلايا، ونشاطها في تكوين أجهزة الجسم، وبدء ظهور شق عصبي عميق عند نهاية الطرف الخلفي للجنين، وتكوُّن عدد قليل من

الفلقات، ووضوح ثنية الرأس، لينتقل هذا الطور إلى الطور الذي يليه وهو **طور المضغة**.

وسَبْقُ القرآن الكريم بوصف مراحل الجنين في الإنسان بهذه الدقة الفائقة من قبل أربعة عشر قرناً، (وهي مراحل متناهية الضآلة في الحجم) في زمن لم يتوافر للإنسان أي وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف أو التصوير يعتبر من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في كتاب الله، خاصة وأن هذه المراحل لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى معرفتها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ووصفتها بعمر كل مرحلة بالأيام والأسابيع، حيث لم تتمكن بعد من وصفها الوصف الكامل، وطول العلقة يتراوح بين (0,7 مم، 3,5 مم)، وهي



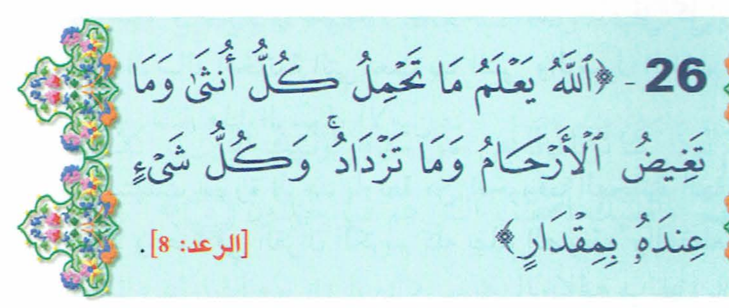
Figure 5.4 Scanning electron micrograph of a 34–36-day-old embryo with limb buds

صورة حقيقية لجنين بشري في عمر بين 34، 36 يوماً تظهر فيه براعم الأطراف مأخوذة بالميكروسكوب الإليكتروني الكاسح وهو في طور المضغة.

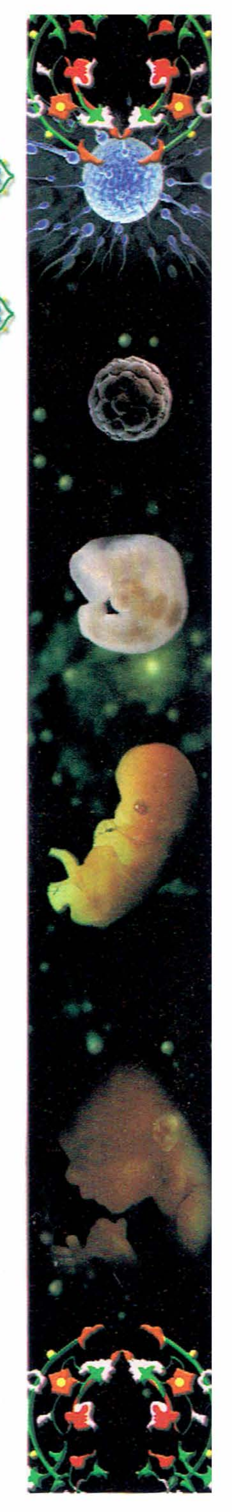
أطوال لا يمكن أن تراها العين المجردة في السقط الذي ينزل من المرأة مغموراً بالدماء وبأشلاء الأنسجة، ومن هنا كانت الإشارات القرآنية الكريمة إلى مراحل الجنين في الإنسان بأوصاف محددة، ومراحل متتالية منتظمة من أعظم الشهادات على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً بن عبد الله ﷺ هو خاتم أنبيائه ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لهذا العلم الراقي، المحكم، الدقيق في هذا الزمن القديم غير الله الخالق الذي أحاط بكل شيء علماً.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



26 - ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: 8].



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في نهاية الخمس الأول من سورة «الرعد» وهي سورة مكية/مدنية، وآياتها (43) بعد البسملة، وبها سجدة تلاوة واحدة وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى حقيقة أن الرعد - وهو من الظواهر الجوية المصاحبة للسحب الركامية - يمثل صورة من صور تسبيح تلك الظواهر لله - تعالى - انطلاقاً من قوله ﷻ:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: 12-13].

وقوله - عز من قائل -:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

ويدور المحور الرئيس لسورة «الرعد» حول ركائز العقيدة الإسلامية ومن أولاها الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، وتنزيهه ﷻ عن الشريك والشبيه، والمنازع، والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله،

والخضوع له وحده بالعبودية الكاملة، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبما فيه من بعث، وحشر، وحساب وجنة ونار، كما جاء في كل رسالات السماء، وتكامل وحفظ في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ، والمتمثلة في القرآن الكريم وفي سنة هذا الرسول الأمين.

وقد استهلت سورة الرعد بأربعة من الحروف الهجائية المقطعة هي (ا ل م ر) والتي جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم كله بهذه الصيغة، والمقطعات التي استهلت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم هي من أسرار هذا الكتاب العزيز التي توقف الكثير من علماء المسلمين عن الخوض في تفسيرها، موكلين الأمر فيها إلى الله سبحانه وتعالى، وحاول البعض تفسيرها فقيل فيها إنها قد تكون رموزاً إلى كلمات أو معانٍ أو أعداد معينة في السور التي افتتحت بها، أو أنها أسماء لتلك السور، أو أنها جاءت في مقام التحدي للعرب بالقرآن الكريم الذي لم يتجاوز حروف لغتهم، وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم ولن يستطيعوا الإتيان بشيء من مثله.

وقيل في هذه المقطعات أنها وسيلة من وسائل قرع الأسماع وتحريك القلوب كي تتنبه لتلقي كلام رب العالمين، أو أنها شهادة على صدق نبوة رسول الله ﷺ لنطقه فيها بأسماء الحروف وهو الأمي، والأمي لا يعرف أسماء الحروف وإن نطق بأصواتها، أو هي كل ذلك وغيره مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذا الاستهلال انتقلت السورة الكريمة مباشرة إلى مخاطبة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مؤكِّدة أن القرآن الكريم هو الحق الذي أنزل إليه من ربه وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون بذلك فتقول:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: 1].

ثم استشهدت سورة «الرعد» بعدد من الحقائق الكونية على وجود الله، وعلى طلاقة قدرته في إبداع خلقه، وعلى هيمنة سلطانه فوق هذا الخلق، وذلك من أجل إقناع الناس بحتمية العودة إلى ربهم ولقائه، وطالبتهم بالتفكر في آيات الله المبثوثة في الكون، وباستخدام العقل في تدبرها من أجل الإيمان بالخالق العظيم واليقين بطلاقة قدرته وإحاطة علمه، وعظيم حكمته، والتصديق بحتمية الآخرة وضرورتها.

واستنكرت الآيات موقف الكفار من قضية البعث، واستبعادهم لإمكانية تحققه بعد تحلل الأجساد وتحولها إلى تراب، وتخاطب خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في ذلك لتقول:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: 5].

وتعرض الآيات لشيء من عقاب هؤلاء المكذبين بالبعث في يوم القيامة، والذين كانوا من فرط ضلالهم يستعجلون وقوع عذاب الله بهم بدلاً من طلب الهداية والرحمة منه، وقد مضت عقوبات أمثالهم من الأمم التي كفرت من قبل بربها فأهلكها الله - تعالى - بذنوبها. ولا يزال الإيمان والكفر يعتوران البشرية ويقسمانها إلى فسطاطين متمايزين إلى يوم الدين، والله - تعالى - غفار للذنوب ولكنه في الوقت نفسه شديد العقاب، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6].

كذلك تنعي سورة «الرعد» على الكافرين طلبهم للمعجزات الحسية من رسول الله ﷺ بدلاً من القرآن الكريم، جحوداً به، وإنكاراً لفضله، وترد عليهم الآيات بأن رسالة الرسول الخاتم ﷺ كانت هي رسالة كل نبي وكل رسول من قبله، ألا وهي الدعوة إلى دين الله والإنذار بعذابه فتقول:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7].

وبعد ذلك تستعرض سورة الرعد جانباً من صفات الله - تعالى - لتقول:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: 8،9].

وتؤكد الآيات أنه لا يغيب شيء عن علم الله مهما حاول صاحبه الاستئثار به لنفسه والاستتار عن المخلوقين به، فهو - تعالى - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور،

ويعرف جميع أحوال خلقه، ويسمع كل أقوالهم ويرى أفعالهم، ما يسرون به وما يعلنون، وما يحدثونه بالليل أو بالنهار، فعلمه محيط بكل شيء. وبالإضافة إلى علمه المحيط أوكل ربنا - تبارك وتعالى - بكل فرد من الناس ملائكة تحفظه بأمر الله، وتحفظ عنه، وتتناوب على حفظه من أمامه ومن خلفه في كل وقت وفي كل حين ولذلك تقول الآيات:

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 10، 11].

وتضيف الآيات جانباً آخر من صفات الله ﷻ منها أنه خالق البرق، يخيف به عباده ويمنيهم به، وهو - تعالى - منشئ السحاب الثقال، وهو الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، والذي يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهو صاحب دعوة الحق، وكل ما سواه باطل، وهو الذي يسجد له من في السمٰوات ومن في الأرض طوعاً وكرهاً، وظلالهم بالغدو والآصال، ومع ذلك يجادل الكافرون في الله ﷻ وهو القوي الذي لا يرد بأسه، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: 12-15].

وفي التأكيد على نفي الشرك طلبت الآيات من رسول الله ﷺ أن يسأل الكفار والمشركين عن رب السمٰوات والأرض، وأن يؤكد لهم أنه هو الله، خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، وساقت الآيات عدداً من الأمثال لكل من الحق والباطل فتقول:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: 16].

واستمرت الآيات في سَوق الأمثال على كل من الحق والباطل، ووصف مصائر أهل كلٍّ منهما فتقول:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

[الرعد: 18].

وفي وصف أهل الحق تؤكِّد الآيات أنه لا يستوي المهتدون المؤمنون وأهل الضلال تقول الآيات:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: 19–24].

وبالمقابل تصف الآيات أهل الباطل من الكفار والمشركين وتنعتهم ببعض صفاتهم الذميمة فتقول:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد: 25–27].

ومرة ثانية تعاود الآيات مدح المؤمنين فتقول:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد: 28،29].

وكذلك تعاود الآيات توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ فتقول:

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد: 30].

كما تعاود مدح القرآن الكريم فتقول: لو ثبت أن كتاباً يقرأ فتتحرك به الجبال من أماكنها، أو تتصدع به الأرض فتتباعد أجزاؤها عن بعضها البعض، أو يخاطب به الموتى لكان ذلك هو القرآن الكريم، ولكن الكافرين والمشركين معاندون في الإيمان به، ومتشككون في صدق وحيه، ولله الأمر الذي لو يشاء لهدى الناس جميعاً، ولكن لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى سوف يبقى الكافرون في معاصيهم حتى تصيبهم القوارع أو تحل قريباً من دارهم، وهذا هو وعد الله الذي لا يخلف الميعاد.

وفي مواجهة صلف الكفار والمشركين وتجاوزاتهم في حق الله ورسوله، تتوجه الآيات بالخطاب مرة أخرى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مواسية له ومطمئنة لخاطره فتقول:

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرعد: 32–34].

وفي إيجاز معجز وصفت الآيات الجنة وجعلتها عقبى الذين اتقوا، وجعلت عقبى الكافرين النار. وتشير إلى أن من المفروض أن يفرح أهل الكتاب بالقرآن الكريم الذي تكاملت فيه كل الرسالات السماوية السابقة، ولكن من متعصبيهم من ينكره أو ينكر

بعضه. وتوجِّه السورة الكريمة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن يرد على مشركي قريش وقد تعجبوا من كونه نبياً وله أزواج وذرية، وطالبوه بمعجزة غير القرآن الكريم فتقول له:

﴿... قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: 36-40].

أي أن الله - تعالى - يمحو ما يشاء من شرائع ويثبت ما يشاء، وأن أصل ذلك كله عنده سبحانه وتعالى، وما على رسول الله ﷺ إلا البلاغ، وحساب العباد يبقى على رب العباد.

وتؤكد الآيات بعد ذلك على حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها، وأن الله - تعالى - ﴿... يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41].

ثم في صيغة من صيغ التهديد الإلٰهي تشير الآيات إلى مكر الكفار والمشركين من الأمم السابقة على زمن قريش وكيف كان عقابهم فتقول:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 42].

وتختتم سورة «الرعد» بخطاب كريم من رب العالمين إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مؤكداً له أنه إذا كان من مراء كلٍّ من الكفار والمشركين، وصلفهم، وعنادهم، إنكار نبوته ﷺ، فإن الله - جلت قدرته - شاهد على صدق هذه النبوة الخاتمة و﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، ثم إنَّ كل من عنده بقية علم مما أنزل الله في الكتب السماوية السابقة يجد عنده ما يؤكد ذلك، ولكنه الكبر والصلف والعناد الذي يدحضه قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: 43].

من ركائز العقيدة في سورة «الرعد»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا إلٰه غيره، ولا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا صاحبة له ولا ولد، وأنه - تعالى - هو خالق السمٰوات والأرض، وخالق كل شيء، وأنه - سبحانه - هو الذي رفع السمٰوت بغير عمد مرئية، ثم استوى على العرش (استواء يليق بجلاله) وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، وأنه - تعالى - يدبر أمور الكون، وهو ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وهو في نفس الوقت شديد العقاب، وأنه على كل شيء قدير، وأنه يفصل الآيات للناس لعلهم يوقنون بلقائه، وأنه يعلم ما تكسب كل نفس ويعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، وأنه هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

2 - اليقين بالقرآن الكريم وحياً خاتماً منزّلاً من رب العالمين على خاتم أنبيائه ورسله، وأنه كتاب معجز في كل أمر من أموره، لأنه كلام رب العالمين، وأنه الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية وإلى قيام الساعة، وما سواه الباطل.

3 - التسليم بحتمية البعث بعد الموت، وبضرورة الحساب والجزاء، وبكل من الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، والاستعاذة بالله من أخطارها. واليقين بأن الحياة الدنيا ليست إلا متاعاً مؤقتاً يعقبه الموت، والآخرة حياة بلا موت وبضرورة التوكل على الله وحده والتوبة إليه قبل الموت.

4 - التصديق بحقيقة النبوة والرسالة، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة رسالة السماء.

5 - الإيمان بأن كل إنسان موكل به عدد من الملائكة الذين يحفظونه بأمر الله - تعالى -، ويحفظون عنه جميع أقواله وأفعاله، وأن الله - تعالى - ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] وأنه - تعالى - إذا أراد بقوم سوءاً فلا مردَّ له، وما للخلق من دونه من والٍ.

6 - التسليم بأن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

7 - اليقين بأن الله - تعالى - يرينا البرق خوفاً وطمعاً، وينشئ السحاب الثقال، وأن كل ما في الوجود من ملائكة، وأحياء، وجمادات، وظواهر كونية كالرعد، كل ذلك

يسبح بحمد الله ومن خيفته (إما تسبيحاً فطرياً اختيارياً لا إرادة فيه، أو تسبيحاً اختيارياً إرادياً يؤجر فاعله عليه)، وأن الله - تعالى - هو الذي يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وأن جميع من في السمٰوات والأرض يسجد لله طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو أي: بالظهيرة، والآصال أي: وفي وقت الأصيل (عندما تقصر الظلال إلى أقل أطوالها، وحين تطول إلى أقصى حدودها) خشية لله ﷻ وخوفاً من حسابه.

8 - التسليم بأن لله ﷻ دعوة الحق، وأن دعوة كل من المشركين والكافرين في ضلال، وأن الله - تعالى - ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ وأن من يضلل الله فما له من هاد ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]، مع اليقين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، وأن الشرك بالله - سبحانه - كفر به، وأن للذين استجابوا لربهم الحسنى، وأن الذين لم يستجيبوا لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد، لأنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، بينما للمؤمنين بالله جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

9 - الإيمان ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وأن لهذه البعثة الشريفة العديد من البشارات في جميع الكتب السماوية السابقة على تنزّل القرآن الكريم.

من الدلالات اللغوية للآية الكريمة:

(ما) في قوله - تعالى -: (ما تحمل)، و(ما تغيض)، و(ما تزداد) اسم وصل بمعنى: (الذي)، أي: عَلِمَ الذي تحمله كل أنثى علماً شمولياً قاطعاً غير مقصور على الذكورة أو الأنوثة، والصحة أو المرض، ولكن يشمل الأجل، والرزق، والشقاوة أو السعادة، ومكان الموت إلى غير ذلك من الأحوال الآنية والمستقبلية فضلاً عن حقيقة أنه سيكون أو لا يكون، وبمعنى الذي تنقصه الأرحام بالتحلل أو الإسقاط أو تزيده باكتمال الحمل ونموه.

وقد تكون (ما) هنا مصدرية بمعنى يعلم حمل كل أنثى، وغيض كل رحم وازدياده نباتياً كان أو حيوانياً، أو إنسياً، وذلك بنجاح عملية الإخصاب فيزداد حجمه، أو فشلها فيتناقص حجمه.

يقال (غَاضَ) الماء (غَيْضاً) و(مَغاضاً) و(مُغيضاً) أي: قلَّ ونضبَ، و(انغاضَ) مثله،

و(غِيَض) الماء فُعل به ذلك، ويقال (غَاضَه) و(أَغَاضَه) بنفس المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: 8] أي: ما ينقص من الأرحام بسقوط الجنين أو بتحلله وإذابته في سوائل الجسم وامتصاصه فيجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض؛ ومن هنا كان الإعجاز في استعمال الفعل (تَغيضُ)، أو ما تزداد من اكتمال نمو الجنين إلى مرحلة الحميل الكامل.

فـ (الغيضة) و(المغيض) هي المكان الذي يجتمع فيه الماء ويقف حتى تبتلعه الأرض، والجمع (غياض) و(غياض). وليلة (غائضة) أي: مظلمة، وذلك لأن (الغين) و(الياء) و(الضاد) أصل يدل على النقصان والغموض والقلة كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿. . . وَغِيضَ ٱلْمَآءُ. . .﴾ [هود: 44]، وجاء في الآية التي نحن بصددها: ﴿. . . وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ. . .﴾ [الرعد: 8].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يقدَّر متوسط طول نطفة الرجل بحوالي (0,005) من الميليمتر أو (5 ميكرون) ويقدر متوسط ما يخرج مع كل دفقة من المني مائتي مليون نطفة (حيمن أو حيوان منوي) أو أكثر قليلاً، لا يصل منها إلى البييضة إلا بضع مئات قليلة (لا تتعدى الخمسمائة في المتوسط)، ويهلك أغلب هذه النطف الذكرية في طريقها إلى البييضة التي لا تسمح إلا لواحد منها فقط بالولوج إلى داخلها، وقد يوفَّق في إخصابها أو لا يوفّق. والمعروف طبياً أن أقل كثافة للنطف الذكرية الصالحة للإخصاب هي عشرين مليون نطفة في كل ميليلتر من المني. ولذلك يروى عن المصطفى ﷺ قوله: «**ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**»[1].

أما نطفة المرأة - البييضة - فيبلغ قطرها (0,2) من الميليمتر (أي مائتي ميكرون أو أربعين ضعف طول نطفة الرجل). وعدد البييضات في جنين الأنثى يتراوح بين أربعمائة ألف وستة ملايين، وهذا العدد الهائل لا يبقى منه إلى سن البلوغ سوى بضعة آلاف قليلة، تنمو منها واحدة في كل شهر طوال الفترة التناسلية للأنثى (من سن البلوغ إلى سن اليأس) بمجموع لا يتعدى الأربعمائة بييضة على طول هذا العمر. ومن الثابت طبياً أنه

(1) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3539).

بالتقاء النطفتين: نطفة الزوج ونطفة الزوجة تتكون **النطفة الأمشاج (المختلطة)** التي تمثل مرحلة الإخصاب بإذن الله - تعالى - وفي ذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده أن يهودياً مر برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهودي: من كل يخلق: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**»(1).

وتبدأ النطفة الأمشاج في الانقسام السريع حتى تشبه حبة التوت الصغيرة ولذا تعرف باسم **التويتة (Morula)**. ثم تتحول إلى **كيسة أرومية (Blastocyst)**، ثم تبدأ في الانغراس في بطانة جدار الرحم في اليوم السادس من تاريخ الإخصاب إلى اليوم الرابع عشر، وتستطيل هذه الكيسة الأرومية لتأخذ شكل دودة العلق هيئة ووظيفة (**طور العلقة**)، الذي يستمر إلى حوالي اليوم الخامس والعشرين من عمر الجنين، ثم يبدأ في (**طور المضغة**) الذي يستمر إلى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين (اليوم الثاني والأربعون تقريباً)، ثم يبدأ (**طور تخلق العظام**) الذي يستمر إلى حوالي اليوم التاسع والأربعين، ثم يبدأ (**طور كسوة العظام لحماً**) أي بالعضلات والجلد الذي يستمر إلى نهاية الأسبوع الثامن من عمر الجنين (اليوم السادس والخمسون تقريباً) ثم ينشئه الله - تعالى - خلقاً آخر (**طور النشأة**) الذي يستمر إلى نهاية فترة الحمل (نهاية الأسبوع الثامن والثلاثين أو اليوم السادس والستين بعد المائتين) إذا قدر الله - تعالى - له ذلك.

وتقسم هذه الفترة إلى **مرحلة الجنين** التي تنتهي بنهاية الأسبوع السادس من تاريخ الإخصاب وهي فترة التعضي أي: تخلق الأعضاء المختلفة، والتي لا يزيد طول الجنين في نهايتها عن (15 مم)، ويصفها المصطفى ﷺ بقوله الشريف:

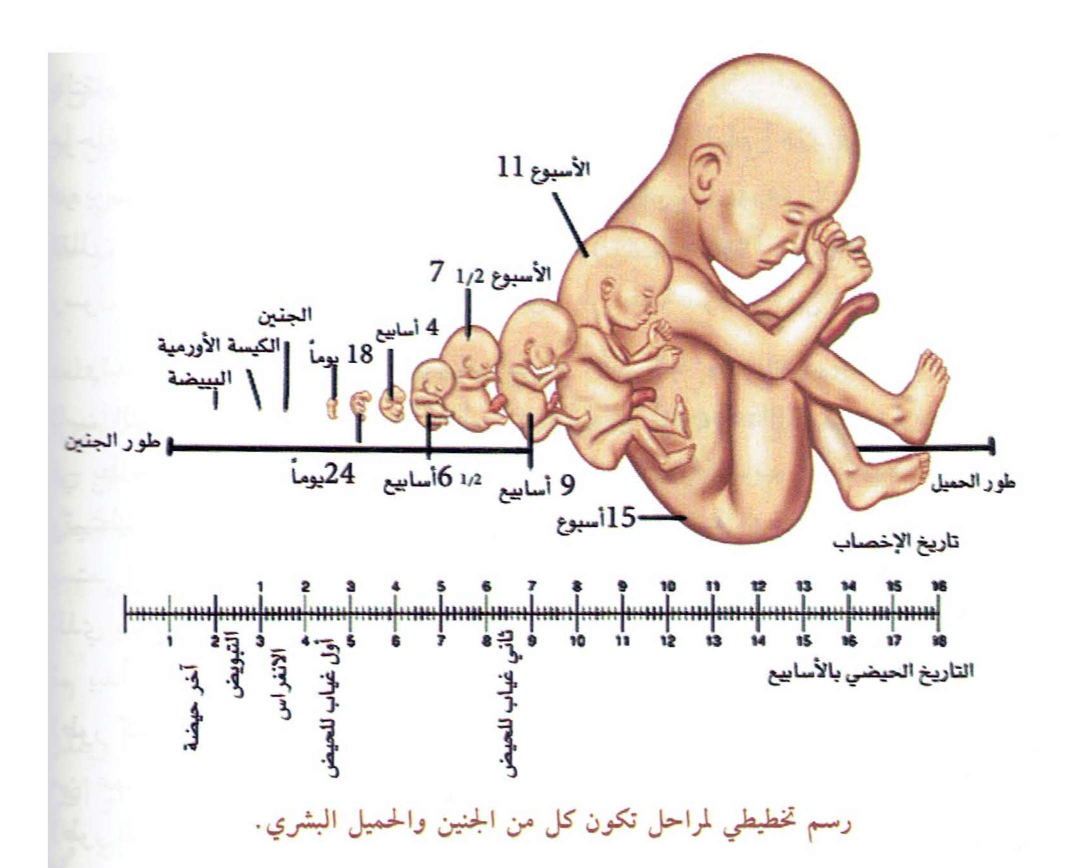
«**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يا رب: ذكر أو أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء**»(2).

أما الفترة التالية فتعرف باسم **فترة الحميل** ويزداد كل من حجمه ووزنه خلالها بالتدريج حتى يصل طوله إلى حوالي 500 مم، ويصل وزنه إلى ثلاثة كيلوجرامات ونصف في المتوسط.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 465).

(2) أخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).



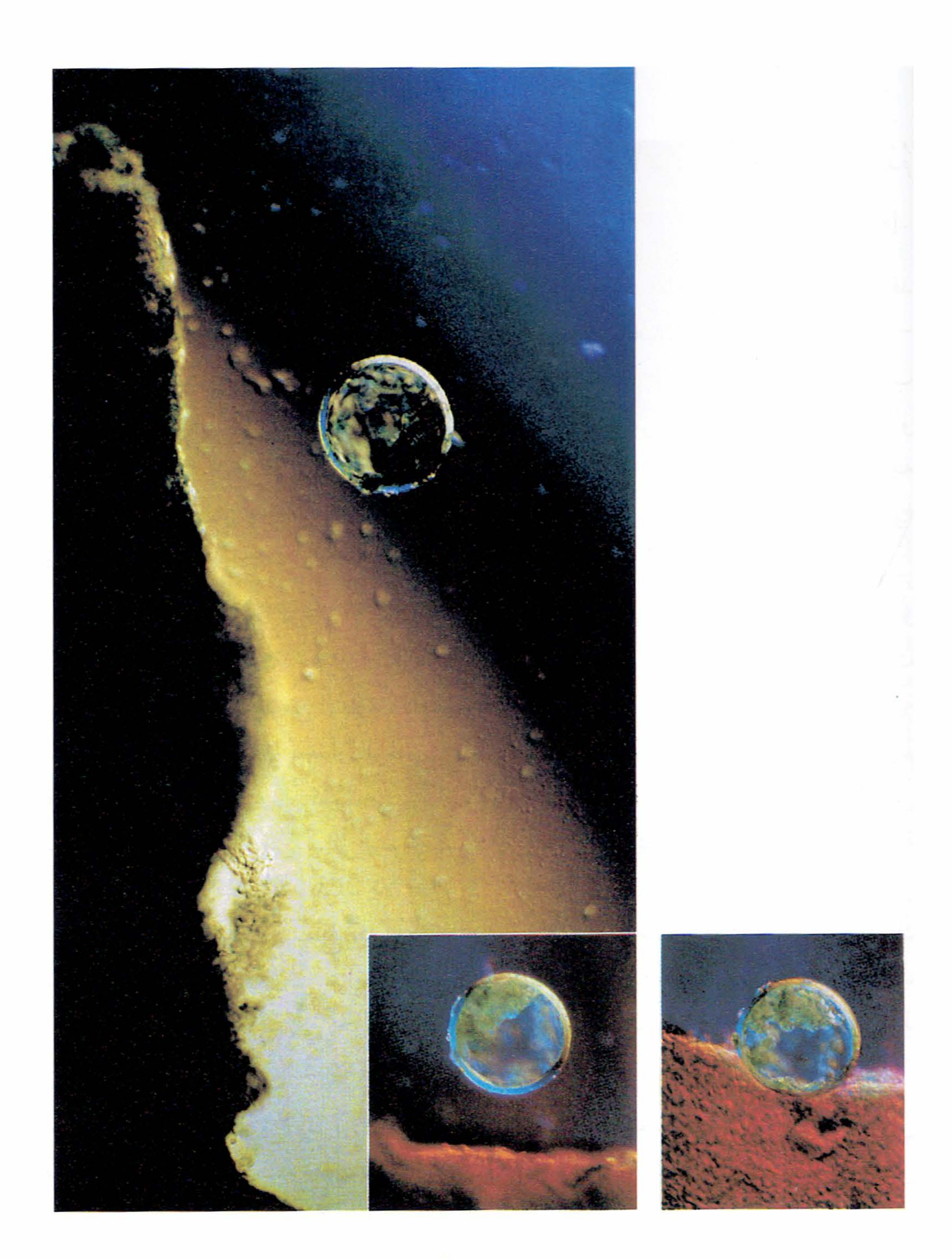
رسم تخطيطي لمراحل تكون كل من الجنين والحميل البشري.

ومرحلة الجنين هي أخطر المراحل في حياة كل من الأم وجنينها، فعلى الرغم من هذا الاصطفاء الإلٰهي لكل من الزوجين، والاصطفاء للنطفتين اللتين تنجحان في إتمام عملية الإخصاب من بين ملايين النطف حتى يتم تكوين النطفة الأمشاج، فإن الدراسات الطبية تشير إلى أن حوالي **78%** من كل حمل يجهض ويتم إسقاطه، أو يتم تحلله وامتصاصه في داخل الرحم، وإن قرابة **50%** من هذه الحالات تفشل قبل أن تعلم الأم أنها قد حملت بالفعل، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ:

«إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة. فإن قال: غير مخلقة مجتها الأرحام دماً وإن قال مخلقة قال: أي رب شقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ وبأي أرض تموت؟»[1].

---

(1) (أخرجه الإمام ابن أبي حاتم وغيره عن عبد الله بن مسعود). أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 374)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (الحديث: 442).



صورة حقيقية للنطفة الأمشاج (المختلطة)
وهي مارة بقناة فالوب في طريقها إلى الانغراس في الرحم.

ومن هنا كان الإعجاز في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

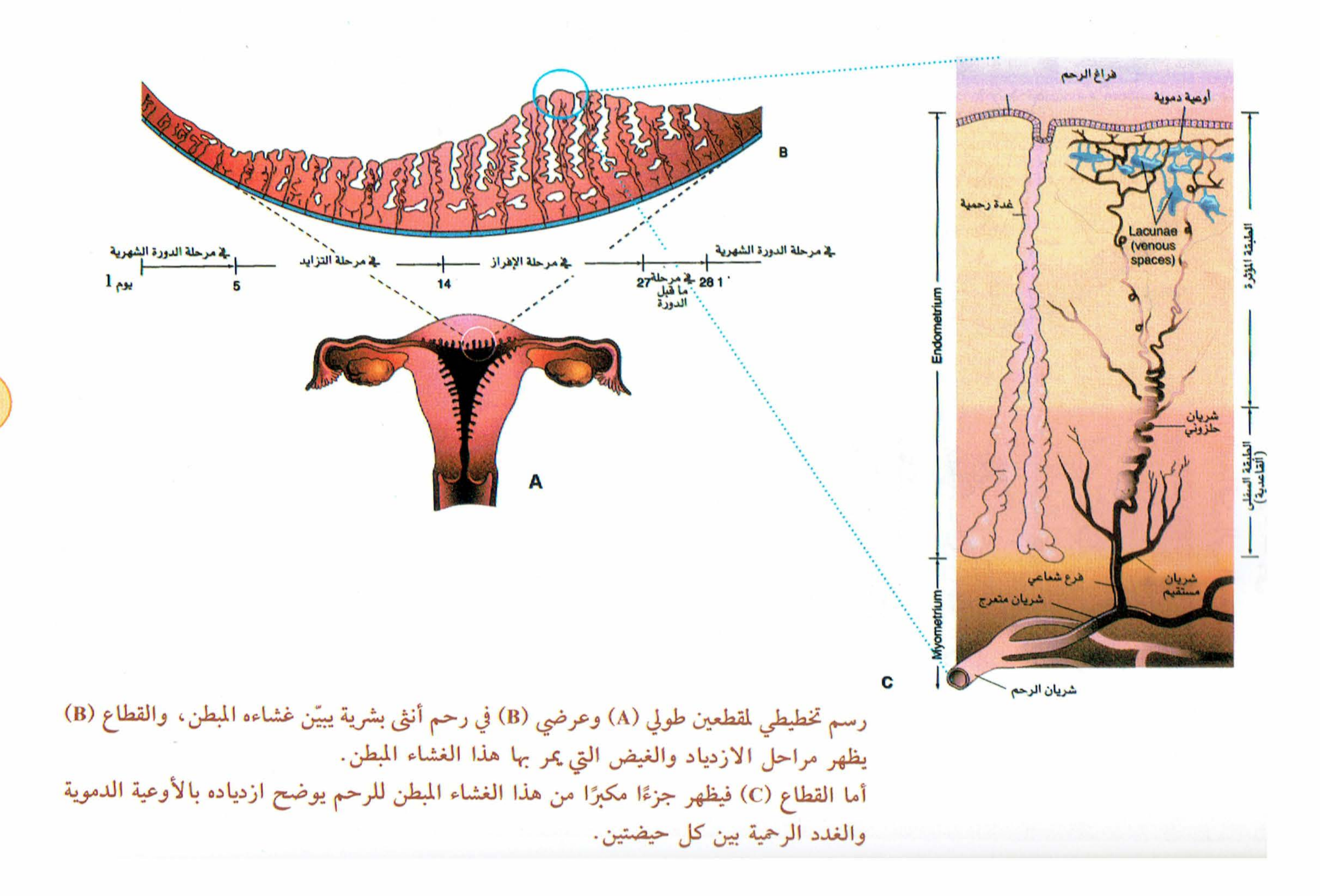
﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: 8].

وإن استطاع الطب معرفة جنس الجنين، ومعرفة بعض الأمراض الوراثية التي قد تصيبه منذ الشهر الرابع للحمل في زمن تفجر المعرفة الذي نعيشه فإن علم الله - تعالى - أكثر إحاطة وشمولاً من ذلك، فالله يعلم كل صفات الجنين الآنية كما يعلم كل الغيب الذي يتعلق بهذا الجنين إلى لحظة مماته، والطب يقرأ شيئاً من الصفات الآنية للجنين أو لعدد من الأجنة إن استطاع ذلك، **والله - تعالى - يعلم ما تحمل (كل) أنثى على وجه الأرض من الإنسان والحيوان والنبات** ولا يستطيع كل أطباء وعلماء الأرض أن يعلموا ذلك ولو اجتمعوا له.

والتعبير بجملة ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ تعبير معجز، دقيق وشامل عن ظاهرة التحلل أو الإسقاط التلقائي للأجنة خلال أطوارها المبكرة، ففي عدد من الإحصائيات الطبية ثبت أن 15% إلى 50% فقط من النطف الأمشاج المنقسمة والتي يعرف باسم الكيسة الأرومية تثبت في عملية انغراسها بجدار الرحم، والباقي يفشل في عملية الانغراس بجدار الرحم فيحدث الإجهاض، وأن كثيراً من عمليات الإجهاض قد يصاحبها تحلل الجنين في داخل الرحم وتحوله إلى سائل يتم امتصاصه، تماماً كما يغيض الماء في التربة عالية المسامية وعالية النفاذية، وبذلك فلا يعلم إلا الله - تعالى - ما تغيضه بلايين الأرحام في اللحظة الواحدة، ولا يستطيع كل أطباء وعلماء الأرض إحصاء ذلك لاستحالة إدراك سقوط أو تحلل الأجنة في مراحلها الأولى للضآلة المتناهية لأحجامها، وكثرة كميات الدم التي يمجها الرحم في حالات الإسقاط الإنساني والحيواني فضلاً عن الإسقاط النباتي والإسقاط في الكائنات البدائية.

وفي التعبير القرآني ﴿وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ إعجاز آخر لأن وزن الجنين في نهاية الشهر الثاني من عمره لا يتعدى خمسة جرامات، ولا يزيد طوله على 3 - 5 سم، بينما يصل وزنه في نهاية الشهر التاسع إلى حوالي ثلاثة كيلوجرامات ونصف في المتوسط، ويصل طوله إلى قرابة نصف متر.

وفي قوله - تعالى -: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ إشارة إلى تقدير كل شيء بدقة

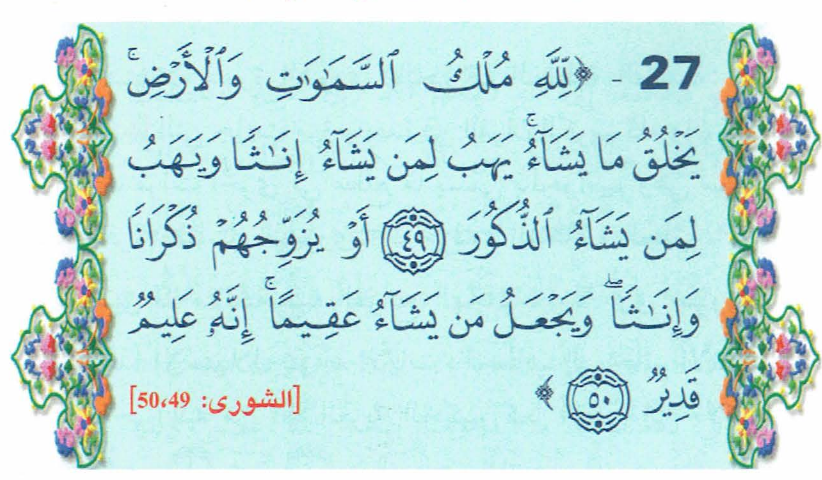


رسم تخطيطي لمقطعين طولي (A) وعرضي (B) في رحم أنثى بشرية يبيّن غشاءه المبطن، والقطاع (B) يظهر مراحل الازدياد والغيض التي يمر بها هذا الغشاء المبطن.
أما القطاع (C) فيظهر جزءًا مكبرًا من هذا الغشاء المبطن للرحم يوضح ازدياده بالأوعية الدموية والغدد الرحمية بين كل حيضتين.

بالغة بما في ذلك عدد وصفات المخلوقين، ونسب الإناث إلى الذكور، ونسب المرضى بأمراض خلقية موروثة إلى الأصحاء، ونسب المعاقين إلى المعافين من هؤلاء، وأنواع الإعاقات المختلفة، ونسب الشفاء منها إلى عدم الشفاء، وغير ذلك من أسرار ما تغيض به الأرحام أو تزداد، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يقر في الأرحام ما يشاء.

فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية -، وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بذلك الحفظ إلى أن يرث الأرض ومن عليها. ومن هنا فإن على كل مسلم ومسلمة أن يحمد الله - تعالى - حمداً كثيراً على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن الكريم، وعلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

27 - ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49، 50]

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في خواتيم «سورة الشورى»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (53) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم تأكيداً على مكانة الشورى في الإسلام، وإرشاداً للمسلمين كي يقيموا حياتهم على أساس منها.

ويدور المحور الرئيس للسورة حول عدد من عقائد الدين الإسلامي الحنيف، وفي مقدمتها: توحيد الخالق سبحانه وتعالى. ومن ركائز العقيدة الإسلامية أيضاً: الإيمان بوحي السماء، وباصطفاء الأنبياء، وبوحدة رسالاتهم أجمعين على الإسلام العظيم الذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده ديناً سواه، والإيمان بالبعث والجزاء، وبربانية القرآن الكريم، وبأنه الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه، محفوظاً كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً بحفظ الله، وتحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العليّة - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - والإيمان كذلك بإذعان الملأ الأعلى لرب العالمين، وبضرورة دعوة الناس أجمعين إلى دين الله قبل أن تفاجئهم الآخرة بأهوالها.

ومن صميم العقيدة الإسلامية استنكار تكذيب المكذبين بالدين وبكل من القرآن الكريم، وبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم

وسخريتهم من الآخرة واستهزائهم بحتميتها، واستعجالهم بالساعة وهي لاحقة بهم لا محالة.

وقد استهلت سورة الشورى بالحروف المقطعة الخمسة: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى: 1،2] التي جاءت مرة واحدة في القرآن الكريم كله وإن كان الحرفان الأولان منها تكرّرا ست مرات أخرى في مطلع ما يسمى بالحواميم وهي سبع من سور القرآن الكريم (هي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف).

وقد سبق لنا مناقشة هذه الفواتح الهجائية، ولا أرى ضرورة لتكرار ذلك هنا.

وبعد هذا الاستهلال تتوجّه الآيات بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مؤكدة حقيقة الوحي إليه من الله العزيز الحكيم كما أوحى إلى الأنبياء والمرسلين من قبله فتقول: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ [الشورى: 1–4].

ثم تستنكر الآيات بشدة شرك المشركين فتقول:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى: 5،6].

وتستمر الآيات في توجيه الخطاب إلى النبي والرسول الخاتم ﷺ مؤكدة صدق الوحي الإلٰهي بالقرآن الكريم فتقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7].

وتكرر الآيات في سورة الشورى التحذير من الشرك بالله - تعالى - فتقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

[الشورى: 8،9].

وتؤكد الآيات على لسان رسول الله ﷺ أن الحكم لله - تعالى - وحده، وتورد عدداً

من صفات هذا الخالق العليم الذي أنزل الدين على فترة من الرسل وأتمه في بعثة النبي والرسول الخاتم فتقول:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: 10-13].

وتدعو الآيات رسول الله ﷺ بالثبات على الحق بعد أن تفرقت الأمم عما جاءهم من العلم فتقول:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: 14-16].

وتعاود الآيات في سورة الشورى التأكيد على أن الله - تعالى - هو الذي أنزل القرآن الكريم بالحق والعدل، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن المرتابين فيها في ضلال بعيد، فتقول:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى:17-19].

ثم تؤكِّد الآيات أن من كان يريد بعمله ثواب الآخرة فإن الله - تعالى - سوف يزيد له بركة في عمله الدنيوي، وأجراً في الآخرة، ومن كان يريد أجر الدنيا فسوف يؤتيه منها، ولن يكون له في الآخرة من نصيب.

وتعاود الآيات إلى استنكار شرك المشركين، مؤكدة أنه لولا أن الله - تعالى - قد أجّل الفصل بين العباد إلى الآخرة لقضي بين العباد في الدنيا، وإن الظالمين لهم عذاب أليم. وتفرق الآيات بين موقف كلٍّ من الضالين الظالمين، والصالحين المؤمنين في يوم القيامة، وشتان بين الموقفين. وتكرر التأكيد على أن القرآن الكريم هو وحي الله الخالق إلى خاتم أنبيائه ورسله الذي لا يستطيع أن يقول على الله إلا الحق، وأن الله - تعالى - قادر على أن يحق الحق بكلماته: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24]، وتورد جانباً من صفات الله ﷻ فتقول:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:25،26].

ثم أشارت الآيات إلى عدد من الشواهد الحسية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق فتقول:

﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى:27-34].

ثم تدافع الآيات عن كلام رب العالمين، مؤكدة أن ما عند الله خير وأبقى من كل مِتَع الحياة الدنيا، وتورد عدداً من صفات المؤمنين فتقول:

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى: 35-43].

وتستمر الآيات في استعراض مواقف كلٍّ من الكفار والمشركين والعتاة الظالمين في يوم القيامة وما سوف يكونون فيه من مهانة وذل، وتنصح الناس أن يستجيبوا لنداء الله فتقول:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧)﴾ [الشورى: 47].

ثم تتوجَّه الآيات بالخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مؤكدة له أن ما عليه إلا البلاغ فتقول:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشّورى: 48].

وتشير الآيات إلى هيمنة الله تعالى على كل شيء في الوجود، وأنه - تعالى - خالق كل شيء فتقول:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى:49،50].

وتختتم سورة الشورى بالتأكيد على ما بدأت به من أن القرآن الكريم هو الهداية الربانية الموحى بها من لدن رب العالمين، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين لهداية الناس أجمعين إلى صراط الله المستقيم فتقول:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: 51–53].

من ركائز العقيدة في سورة «الشورى»:

1 – الإيمان بالله – تعالى – رباً واحداً أحداً، فرداً صمداً، (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

2 – اليقين بحقيقة الوحي من الله العزيز الحكيم إلى من يصطفي من عباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين، كما أوحى بالقرآن الكريم بالحق والعدل، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأنزله بلسان عربي مبين لينذر أم القرى ومن حولها، وينذر يوم الجمع الذي لا ريب فيه، وأن وحي الله إلى العباد سوف ينتهي بالخلائق إلى فريق في الجنة وفريق في السعير، وأن الله – تعالى – يدخل من يشاء في رحمته، وأن الظالمين ما لهم من ولي ولا نصير.

3 – التسليم بأن الله – تعالى – هو ربُّ كل شيء ومليكه، وأن له ما في السمٰوات وما في الأرض، وهو العلي العظيم، الغفور الرحيم، والودود الشكور، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، والذي تسبح الملائكة بحمده، وهو العليم بذات الصدور، الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعل كل واحد من الخلق.

4 – التصديق بأن الشرك بالله – تعالى – ظلم عظيم، ومآله وخيم في الدنيا والآخرة، وأن طوق النجاة من الوقوع فيه هو توحيد الله ﷻ توحيداً كاملاً، خالصاً، وتنزيهه – تعالى – عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

5 - الإيمان بحتمية البعث بعد الموت، وبضرورة الحشر والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبأن الساعة لا مرد لها من الله ﷻ.

6 - اليقين بضرورة رد الأحكام إلى الله - تعالى - والتوكل عليه، والإنابة إليه ﷻ فالله ﷻ له مقاليد السمٰوات والأرض، وهو فاطرهما، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو بكل شيء عليم. وهو اللطيف بعباده، وهو الذي يرزق من يشاء وهو القوي العزيز.

7 - التسليم بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبضرورة إقامة الدين كما أنزله رب العالمين لأن أتباع الرسالات السابقة لم يتفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. وأن الذين ورثوا الكتاب من بعدهم هم أنفسهم في شك مريب مما وصل إلى أيديهم من كتابات مزورة على الله.

8 - التصديق بأن الدعوة إلى دين الله الواحد وهو الإسلام العظيم، والاستقامة على منهجه، والانصراف عن أهواء الكافرين، والإيمان بجميع رسالات السماء، والأمر بالعدل بين الناس كانت من دعاوى كل أنبياء الله وعباده الصالحين.

9 - الإيمان ببطلان كل معارضة لدين الله (الإسلام) بعد انتشاره في الأرض، وقبول البلايين من عباد الله - تعالى - له، وثبات صدق وحيه، وحفظ ذلك الوحي بحفظ الله على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية بنفس لغة الوحي - اللغة العربية -، دون إضافة أو نقصان.

10 - اليقين بأن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن متاع الدنيا قليل إذا ما قورن بنعيم الآخرة، وأن الذي يجتهد في الدنيا من أجل الآخرة يبارك الله - تعالى - له في عمله ورزقه وأجله، ويضاعف له الأجر في الدارين، وأن الذي يركز جهده على الدنيا وحدها لن ينال إلا ما كتبه الله - تعالى - له منها، ﴿. . . وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20] ﴿. . . وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 21]. ﴿. . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22].

11 - التسليم بأنه لا يصح لأحد من البشر أن يكلمه الله - تعالى - إلا وحياً، أو بإرسال ملك يكلمه فيوحي إليه بإذن الله - تعالى - ما يشاء، واليقين بأن القرآن الكريم يهدي إلى صراط الله المستقيم، وأنه ما على الرسل إلّا البلاغ، وذلك واجب كلِّ مؤمن

برسالة الله الخاتمة، فالله قاهر فوق عباده، بالغ الحكمة في كلِّ أمر من أموره، وهو رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، ورب كل شيء ومليكه، وأن إليه وحده تصير الأمور.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشّورى: 49].

لا يدرك كثير من الناس العمليات المعقدة التي تمر بها عملية الإنجاب، ولا المخاطر العديدة التي تعترضها لولا رحمة الله - تعالى - ورعايته، ومن هنا يصفها هذا النص القرآني الكريم بأنها هبة من الله ﷻ، ومن هنا أيضاً كان واجب كل والدَيْن أن يسجدا لله شكراً على خروج كل مولود يولد لهما سليماً معافى من هذه الرحلة الطويلة الشاقة، والمحفوفة بالمخاطر. والتي تبدأ بتخلق النطف على النحو التالي:

1 - تخلق النطف (Gametogenesis): تتخلَّق النطف بعملية انقسام خاصة للخلايا تعرف باسم عملية الانقسام الانتصافي (Meiosis).

وتتخلق النطف الذكرية (Spermatogenesis) في داخل الغدتين التناسليتين للرجل، والتي تتكون كل واحدة منهما من نحو الأربعمائة من الفصوص، يحوي كل واحد منها ثلاثة من الأنابيب المنوية الدقيقة، يبلغ طول كل واحدة منها نحو نصف متر، وهذه الأنابيب متعرجة وملتفة حول ذاتها بطول يتعدى نصف كيلومتر في المتوسط: (400 فص × 3 أنابيب × نصف متر=600 متر).

وهذه الأنابيب مكدسة في حيز لا يزيد على بضعة سنتيمترات مكعبة لتكوّن ما يعرف باسم البربخ (Epididymis) الذي يقع في أعلى الخصية من الخلف، والذي تختزن فيه النطف الذكرية بمئات الملايين حتى تمام النضج.

وقبل البلوغ تمتلىء الأنابيب المنوية بالخلايا العادية (كاملة عدد الصبغيات) والمعروفة باسم «**الخلايا الضعفانية**» (Diploid Cells) والتي تنقسم بنظام الانقسام الفتيلي (Mitosis) لتعطي أمثالها.

وعند البلوغ (من عمر 11 - 13 سنة) تبدأ هذه الخلايا في التخصص فتأخذ في الانقسام انقساماً انتصافياً (Meiosis) لتعطي «**خلايا فردانية**» (Haploid Cells) بها نصف

عدد الصبغيات المميزة للخلية العادية (الخلية الجسدية) وذلك من أجل تخليق **خلايا النطف الذكرية الأولية** (**The Primary Spermatocytes**) والتي تنقسم بدورها لتكون **خلايا النطف الذكرية الثانوية** (**The Secondary Spermatocytes**) والتي تنقسم ثانية لتكون أربعاً من **أرومات النطف الذكرية الناضجة** ((**Spermatids**) التي تفقد جزءاً من محتواها من السائل الخلوي (السيتوبلازم) لتكون ذيلاً طويلاً ممتلئاً بالمتقدرات التي تساعدها على الحركة لتتحول إلى **النطف الذكرية** (**Sperms**)، ونظراً لقلة محتواها الغذائي فإن هذه النطف الذكرية لا تستطيع العيش لأكثر من (72) ساعة، إلا إذا تم تجميدها فيمكن الاحتفاظ بها خارج الجسم لعدة سنوات.

والرجل يُخرج مائة مليون إلى ثلاثمائة مليون نطفة في الدفقة الواحدة لكي يتمكن من إتمام عملية الإخصاب. وإنتاج النطف الذكرية يستمر طيلة حياة الرجل، والنطف إذا لم تنطلق إلى خارج الجسم فإنها تموت وتتحلل وتمتص بواسطة الأنسجة المحيطة بها، وأي توقف في هذه العملية المعقدة يوقف عملية الإنجاب مرحلياً أو كلياً.

أما نطف الأنثى فتتخلق بعملية تعرف باسم «**إنتاج البييضات**» (**Oogenesis**) وهي لا تزال في بطن أمها، ويبلغ عددها قرابة المليوني نطفة (بييضة)، ويتناقص هذا العدد عند البلوغ إلى ما بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف بييضة تختزن في كل من المبيضين تحت غطاء خاص. وتبدأ «**الخلايا البييضية الأولية**» (**Primary Oocytes**) عند البلوغ بالانقسام الانتصافي الأول ولكن عند الطور الانتهائي الأول (**Telophase-1**) تنقسم الخلية إلى نصفين غير متساويين يعرف الأصغر منهما باسم «**الجسم القطبي الأولي**» (**The Primary Polar Body**) ويعرف الجزء الأكبر باسم «**الخلية البييضية الثانوية**» (**The Secondary Oocyte**).

وتعاود الخلية البييضية الثانوية الانقسام الانتصافي، إلى «**جسم قطبي ثانوي**» صغير وإلى «**أرومة البييضة**» (**Ootid**) وتتلاشى جميع الأجسام القطبية تماماً.

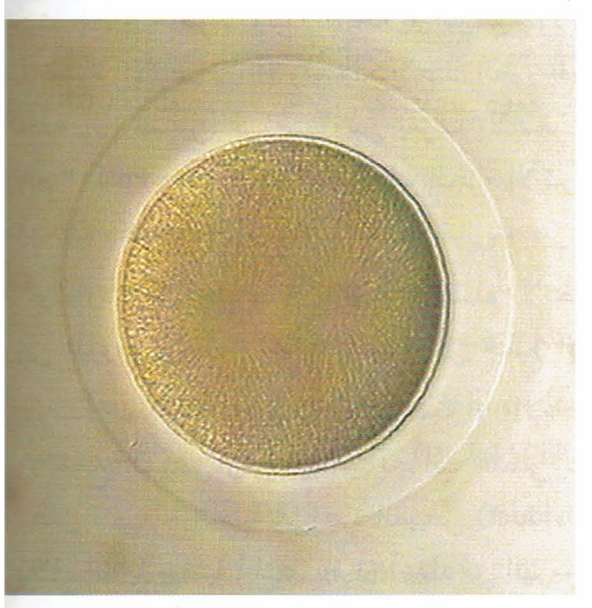
وتبدأ عملية إنتاج البييضات الناضجة أو «**الإباضة**» (**Ovulation**) بتحرك أرومة البييضة إلى سطح المبيض وهي محاطة بجراب غشائي دقيق (**Follicle**) ثم ينفجر هذا الغشاء، وتنطلق منه هذه الخلية إلى قناة المبيض (**Oviduct**) متحركة في اتجاه الرحم. ويتوقف إطلاق خلايا بييضية أخرى بإفراز أعداد من الهرمونات حتى تخصب هذه البييضة وتستمر في تكوين الجنين أو تطرد إلى خارج الجسم في بحر من الدم أثناء الدورة الشهرية.

وتنتج الأنثى في حياتها (300-500) بييضة تصل آحاد منها فقط إلى مرحلة الإخصاب، ويصل الأقل من ذلك إلى مرحلة الإنجاب، وأي خلل في طريق هذه الرحلة الطويلة قد يعوق عملية الإنجاب مرحلياً أو كلياً.

2 - تزاوج النطف أو عملية الإخصاب والحمل: (Fertilization and Pregnancy):

سبق أن أشرنا إلى أن أقل عدد من النطف الذكرية قادر على إخصاب البييضة الواحدة هو مائة مليون حيمن في الدفقة الواحدة، وهذه الحيامن لا بد وأن تكون صحيحة وسليمة ونشطة حتى يتمكن أحدها من الوصول إلى البييضة وإخصابها.

وهذه البييضة لا بد وأن تكون ناضجة وسليمة وصحيحة حتى يمكن إخصابها، وذلك لأن بعض النساء قد يَكُنَّ غير قادرات على الحمل لتعذر عملية الإباضة (Ovulation) لديهن، أو لعدم انتظام تلك العملية أو عدم إتمامها في الوقت المناسب، وفي هذه الحالات يلجأ بعض الأطباء إلى النصح بتناول عدد من الهرمونات الخاصة كأدوية للإخصاب تعين على استحثاث عملية الإباضة وتنظيمها. ولكن استخدام هذه الهرمونات قد يؤدي إلى انغراس أكثر من جنين في جدار الرحم مما يعوق تمام نمو أيٍّ منها. كذلك قد تستخدم هرمونات أخرى مضادة في عملية تنظيم النسل، وهذه أيضاً قد يكون لها من الأضرار ما يعوق الحمل في المستقبل.

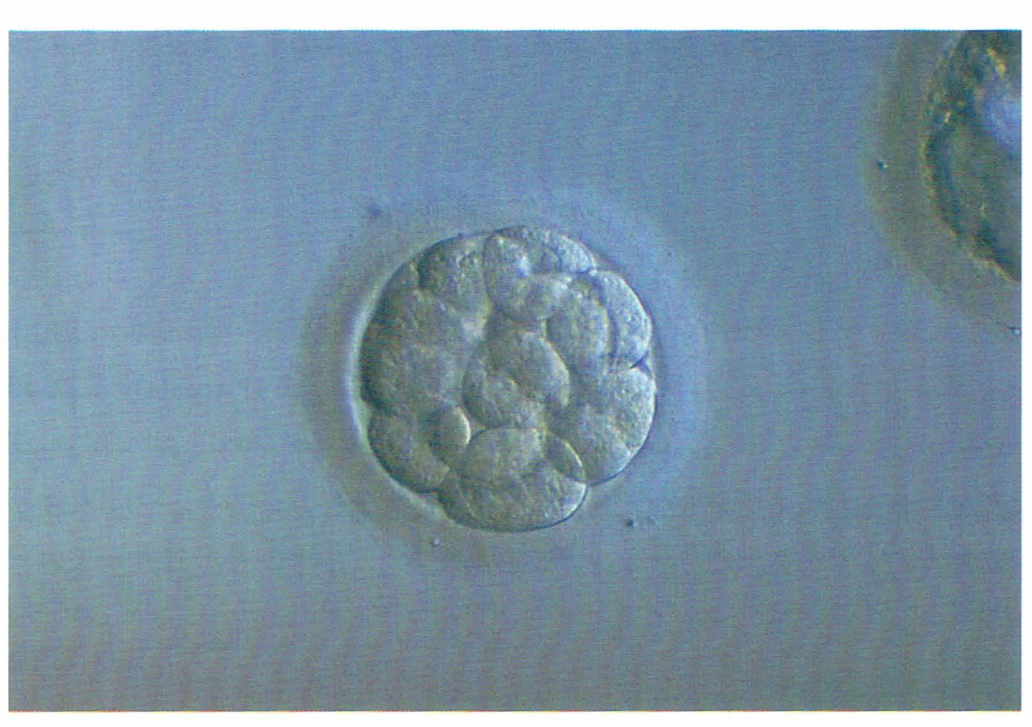

صورة حقيقية للبييضة المخصبة «النطفة الأمشاج».

وعادة ما **تفرز المرأة بييضة واحدة في منتصف دورتها الشهرية،** وإن كانت هذه الدورة غير منتظمة عند عدد من النساء لسبب أو آخر. ولكن عندما تفرز البييضة فإنها تدفع إلى قناة المبيض متحركة في اتجاه الرحم، فإذا تواجدت الحيامن في هذه اللحظة فإنه أحدها فقط قد يتمكن من اختراق جدار البييضة في محاولة لإخصابها. وبنجاح هذه العملية

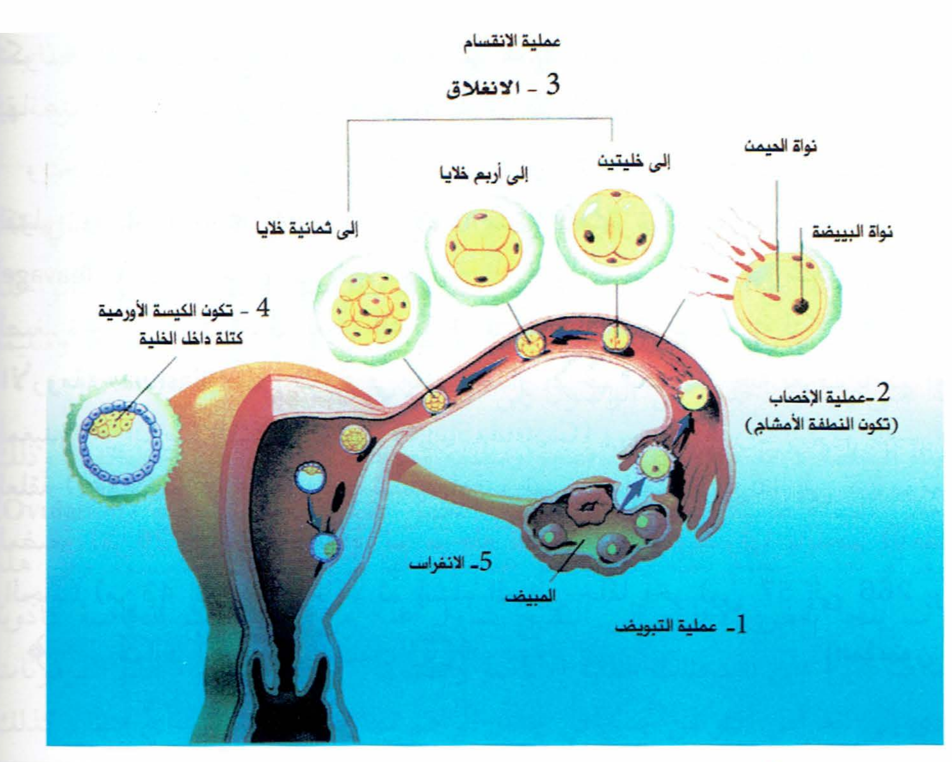
تتكون «**النطفة الأمشاج**» أي المختلطة التي تعرف باسم اللقيحة (**Zygote**) التي يتكامل فيها عدد الصبغيات إلى العدد المحدد لنوع الإنسان (46 صبغياً).

وبتحرك النطفة الأمشاج عبر قناة المبيض في اتجاه الرحم فإنها تأخذ في **الانقسام الفتيلي** (**Mitosis Division**) إلى خلايا أصغر فأصغر بعملية تسمى عملية **الانفلاق** (**Cleavage**) حتى تتحول إلى كرة مكدسة بالخلايا الصغيرة تشبه في شكلها ثمرة التوت الصغيرة جداً ولذلك تعرف باسم **التويتة** (**Morula**) ثم تتجوف التويتة لتكون «**الأريمة**» أو «**الأرومة**» (**Blastula**) التي تنزرع في بطانة جدار الرحم مكونة مرحلة تعرف باسم «**مرحلة المعيدة**» أو المعدة الضئيلة الحجم (**Gastrula Stage**) ويسميها القرآن الكريم باسم **مرحلة العلقة** (**Leech-like-Stage**) وهي تسمية أدق، ثم تنمو العلقة (من15 إلى 25 يوماً) إلى المضغة (من26 إلى 42 يوماً)، ثم مرحلة تخلق العظام وكسوتها باللحم (العضلات والجلد) (من43 إلى 56 يوماً)، ثم إنشاء الجنين خلقاً آخر (من 57 إلى 266 يوماً).

﴿... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14].



صورة لبويضة في مرحلة الانفلاق «التويتة».



رسومات تخطيطية لعملية التبويض والإخصاب والانغراس في جدار الرحم.

وخلال هذه المراحل جميعاً يكون الجنين محاطاً بغشاء مليء بالسوائل المائية يعرف باسم «**غشاء السلي**» (**Amnion**) الذي يحفظه من الصدمات ويبقيه رطباً، وهناك غشاءان آخران يحيطان بغشاء السلي هما: «**الغشاء المشيمي**» (**Chorion**) ثم «**الغشاء الساقط**» (**Allantois**) وهذان الغشاءان الأخيران يلتحمان مع بطانة جدار الرحم ليكوّنا «**المشيمة**» (**Placenta**) التي تمد الجنين بحاجاته الغذائية والأيضية، وتفرز أعداداً من الهرمونات التي توقف عملية الإباضة طوال فترة الحمل، كما توقف نزيف الدورة الشهرية. ولكي يتم نمو الجنين لا بد له من التغذية المستمرة التي تزوده بها أمه عن طريق المشيمة، ذلك الجهاز العجيب الذي ينظم تبادل التغذية والدم والأوكسجين، وكلًّا من ثاني أوكسيد الكربون وغيره من المخرجات بين الجنين وأمه عن طريق دورتها الدموية.

ومع تغذية الجنين يتم نمو وانقسام خلاياه وتخصصها إلى مختلف الخلايا المكونة



«صورة حقيقية لجنين بشري عمره 42 يوماً محاطاً بغشاء السلي، ويليه زغابات الغشاء المشيمي (الكوريون) وفي الصورة الحبل السري الذي ينقل الغذاء والأوكسجين من دم الأم إلى الجنين».

لأنسجته المتخصصة (الخلايا العصبية، والعضلية، والعظمية، والجلدية، وخلايا الدم واللمف وغيرها). وأي خلل في هذه الرحلة الطويلة قد يعوق الإنجاب أو يشوهه.

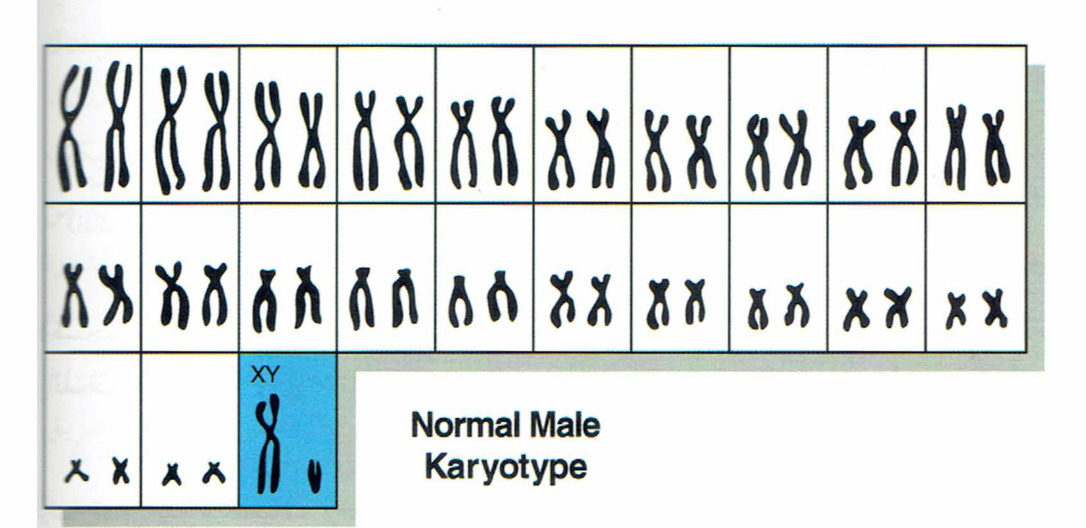
3 - **جنس الجنين**: على الرغم من أن الخلايا التناسلية متناهية الضآلة في الحجم، فإنها تمثل ينبوع الحياة، ومصدر تنوعها الذي يستمر بها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد بدءًا بأبوينا آدم وحواء عليهما السلام إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها.

وفي الإنسان تحتوي الخلية الجسدية على (46) صبغياً مرتبة في (23) زوجاً تتشابه في الشكل وتختلف في التركيب، وفيما يحمله كل صبغي فيها من المورثات، وهذا العدد ثابت في خلايا كلٍّ من الذكر والأنثى، وإن اختلفا في الصبغيات المحددة للجنس، فالخلية الجسدية للذكر تحمل (44) صبغياً جسدياً بالإضافة إلى صبغيين لتحديد الجنس غير متشابهين لأن أحدهما يحمل شارة التذكير (Y) والآخر يحمل شارة التأنيث (X)، وأثناء عملية الانقسام الانتصافي من أجل تكوين النطف (خلايا التكاثر) ينتج حيمن يحمل شارة الذكورة وآخر يحمل شارة الأنوثة.

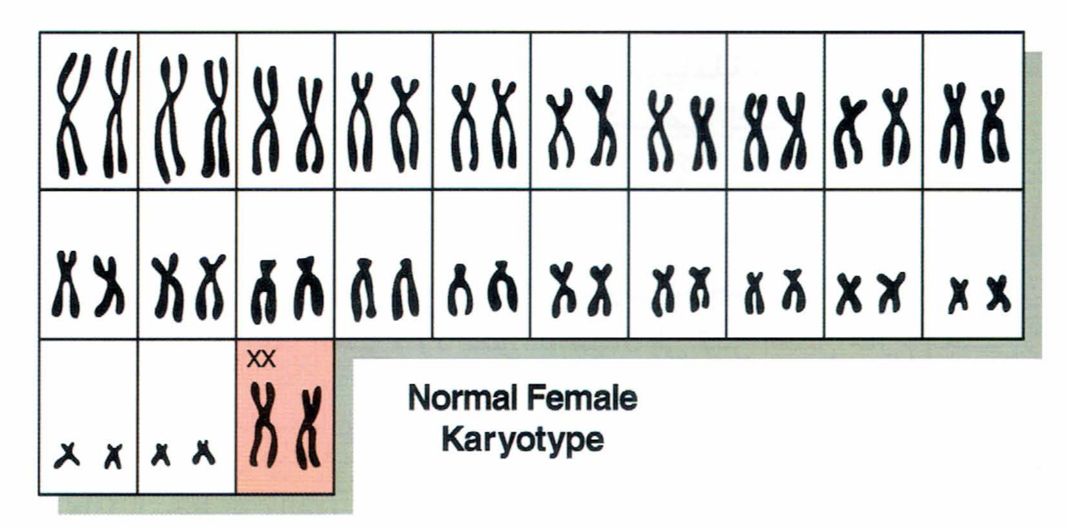
وعلى العكس من ذلك فإن الصبغيين المحددين للجنس في الخلية الجسدية للأنثى متشابهان وكلاهما يحمل شارة الأنوثة (X) فإذا انقسمت الخلية الجسدية للأنثى انقساماً انتصافياً لتكوين البييضات تكون كلها متشابهة في إشارتها الجنسية.

وعلى ذلك فإذا كان الحيمن الذي يخصب البييضة حاملاً للشارة المذكرة (Y) جاء الجنين ذكراً بإذن الله الخالق ﷻ ، وإذا كان حاملاً للشارة المؤنثة (X) جاء الجنين أنثى بإذن الله - تعالى -.

ولذلك يقول علماء الوراثة بأن جنس الجنين (ذكراً أو أنثى) يتحدد في اللحظة الأولى التي يلتقي فيها الحيمن بالبييضة في النطفة الأمشاج، ولكن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ



رسم تخطيطي يوضح الصبغيات الخاصة بالذكر العادي من بني الإنسان.



رسم تخطيطي يوضح الصبغيات الخاصة بأنثى عادية من بنات حواء.

يقول في حديثه الصحيح الذي رواه حذيفة بن أسيد: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب ذكر أو أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك**»[1].

وكلام علماء الوراثة ينطبق على مرحلة الصبغيات، وهي مرحلة غير مشاهدة لأن الشيفرة الوراثية للإنسان المحمولة على الصبغيات أمر شديد الضآلة في الحجم، وبالغ التعقيد في البناء، فهي تشغل حيزاً في نواة الخلية لا يزيد على واحد من مليون من الميليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت يزيد طولها على المترين، يضمان 18,6 بليون قاعدة كيميائية من السكر والفوسفور والقواعد النيتروجينية التي لو اختل وضع قاعدة واحدة منها عن مكانها في هذا البناء الدقيق فإما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون.

أما على مستوى الأنسجة فإنه لا يمكن تمييز جنس الجنين قبل بداية الأسبوع السابع من عمره، حين تبدأ غدده التناسلية في التمايز، ولو نزل سقطاً وتم تشريحه تشريحاً كاملاً. وذلك لأن الأعضاء التناسلية الظاهرة - وإن بدأت في التخلق مع نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين - إلا أنه يصعب التمييز بين الذكر والأنثى قبل بداية الشهر الرابع من بدء عملية الإخصاب. وقد لا يتطابق التكوين الظاهري للأعضاء التناسلية مع

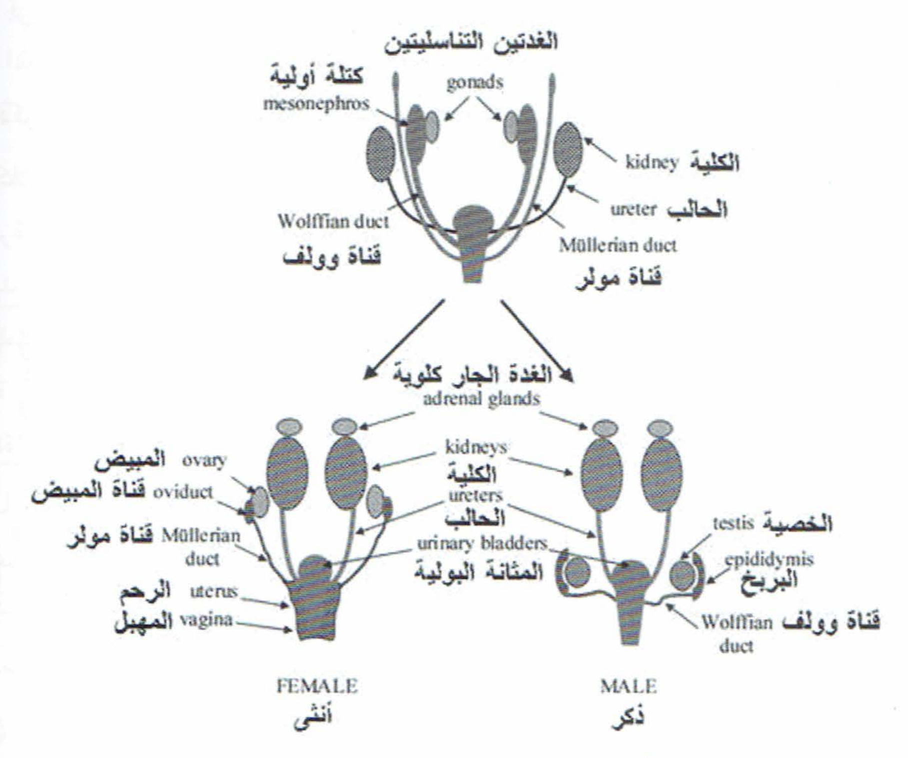
---

(1) أخرجه الإمام مسلم، كتاب: القدر باب: كيفية الخلق الآدمي... (الحديث: 6665).

حقيقة الغدد التناسلية، هذا بالإضافة إلى أن الأعضاء التناسلية الخارجة عن الجسم تنشأ من نتوءات جلدية، ولا يتم تخلق الجلد إلا بين الأسبوعين الثامن والثاني عشر من عمر الجنين.

والغدد التناسلية تنمو من الحدبة التناسلية بين العمود الفقري والأضلاع (أي: بين الصلب والترائب كما أكد القرآن الكريم) ثم تنزل تدريجياً إلى الحوض ابتداء من الأسبوع العاشر من عمر الجنين، ولا تصل الخصيتان إلى كيس الصفن خارج الجسم إلا في الشهر التاسع.

وعلى الرغم من ذلك فيمكن معرفة جنس الجنين بتحليل عينة من السائل الأمينوسي (الرهل) المحيط به والذي تتناثر فيه بعض خلاياه، وذلك بفحص الصبغيات في تلك الخلايا ابتداء من الأسبوع الخامس عشر من عمره، كما يمكن معرفة ذلك بالموجات فوق الصوتية بعد الشهر الرابع من عمر الجنين.



رسومات تخطيطية تمثل تطور الأعضاء التناسلية الداخلية للجنين، حيث تكون متشابهة في بادئ الأمر، ثمّ تتطور لتصبح أعضاء أنثوية، أو أعضاء ذكرية حسب مشيئة الخالق سبحانه وتعالى.

من ذلك كله يتَّضح أن الذي يهب الإناث لمن يشاء ويهب الذكور لمن يشاء هو الله - الخالق، البارئ، المصور - ولا أحد سواه، ولذلك قال - تعالى -: ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49].

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ...﴾ [الشّورى: 50].

أجمع المفسرون على تفسير هذا النص القرآني بمعنى: أو يعطي لمن يشاء الزوجين: الذكر والأنثى، على اعتبار أن معنى يزوجهم هو يجعلهم، ولكن ما المانع من اعتبار يزوجهم ذكراناً وإناثاً بمعنى يزوج الإناث منهم ذكراناً ويزوج الذكران منهم إناثاً؟ وذلك انطلاقاً من حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**...ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة**»(1).

ومعنى هذا الحديث الشريف أن الله - تعالى - الذي أحصى نفوس بني آدم من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة مدون عنده كل فرد بشيفرته الوراثية وأبويه فهو - تعالى - الذي يزوج النفوس، ويعلم من مِن هذه النفوس يتزوج من؟ وفي أي زمان ومكان؟ وماذا سيكون نسلهم أو لا يكون.

ثالثاً: في قوله - تعالى -: ﴿... وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشّورى: 50].

معنى هذا النص القرآني الكريم أن الله - تعالى - يجعل من يشاء بلا ولد، ذكراً كان أو أنثى. يقال: رجل عَقِيمٌ، وجمعه عُقَمَاء وعِقَام، وامرأة عقيم وجمعها عَقَائِم وعقم. ويقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا جعل الله - تعالى - بعض خلقه عقماء وعقم؟ وللإجابة على ذلك أقول: لعلّ من مبررات ذلك أن يستبين فضل نعمة الذرية على من لا ذرية له، فيحمد صاحب الذرية ذلك لله، ويصبر من لا ذرية له فينال بذلك أجرَي الدنيا والآخرة.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: بيع الرقيق (الحديث: 2229)، وأخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: حكم العزل (الحديث: 3529).

ويحمد صاحب الذرية المعافاة، الصحيحة، السليمة، الصالحة إذا رأى عند غيره ذرية مخالفة، كما يحمد من لا ذرية له أنه لم يرزق ذرية معاقة. فمن المعروف أن تفاعل الشيفرتين الوراثيتين لكل من الأب والأم قد ينتج عنه العديد من الطفرات الوراثية المسببة للعديد من الأمراض الخلقية الناتجة عن التلف في مادة الحمض النووي الريبي المنزوع الأوكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية، أو في حيود عدد الصبغيات بالزيادة أو بالنقصان مما يؤدي إلى أمراض مستعصية مثل الأورام السرطانية، والتخلف العقلي والخرف والعته، والشيخوخة المبكرة، والتشوهات الخلقية والعصبية العديدة، ولذلك أكَّدت الآيتان الكريمتان اللتان نحن بصددهما حقيقة عدل الله - تعالى - بتمييز عباده إلى أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يهبه البنين، ومنهم من يعطيه الذكور والإناث، أو يزوج كلاً منهم بما يناسبه، ومنهم من يجعله عقيماً لأنه - تعالى - عليم بما يناسب كل فرد من عباده، قدير على تحقيق هذا التفاوت بين بني آدم بعلمه، وحكمته وإرادته، والذين يؤمنون بالله - تعالى - يدركون أن قدر الله هو الخير كله، وهو العدل كله، ولو اطلع الواحد منهم على الغيب ما اختار غير ما قدَّر له الله العليم القدير.

هذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الناس في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده، ولم يكن ممكناً لأحد من الخلق أن يصل إلى ذلك العلم بوسائط العلوم المكتسبة أبداً، ولذلك فإن سبق القرآن الكريم بذكرها بهذا الوضوح والجلاء لِمَّا يقطع لكل ذي بصيرة بأن القرآن المجيد لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً - وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الناس إلى قيام الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام، سيدنا وسيد الأولين والآخرين، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

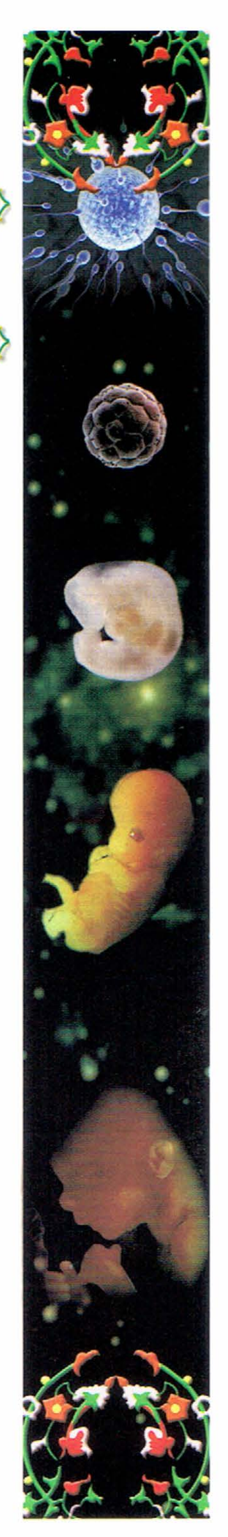


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



28 - ﴿... وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ...﴾

[لقمان: 34]



هذا النص القرآني الكريم جاء في ختام سورة «لقمان»، وهي سورة مكية، وآياتها أربع وثلاثون (34) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى «لقمان الحكيم».

ويدور المحور الرئيس لسورة لقمان حول عدد من ركائز العقيدة الإسلامية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية التي تتطلبها في العبد المؤمن، وجزاءً كلٍ من المحسنين الملتزمين بمنهج الله، والخارجين عن هدايته، واستشهدت السورة الكريمة في هذا السياق بعدد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية المُبدِعة في الخلق، والشاهدة للخالق سبحانه وتعالى بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبحتمية البعث، والحشر، والحساب، والجزاء، وخُتِمَت بالإشارة إلى عدد من أمور الغيب التي استأثر بها علم الله.

عرض موجز لسورة لقمان:

تبدأ سورة لقمان بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: 1-5]. والاستهلال بالحروف المقطعة الثلاثة (آلمّ) تكرر في مطلع ستٍّ من سور القرآن الكريم (هي: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة). وجاء بإضافة الحرف (صٓ) في مطلع سورة الأعراف (آلمّصٓ) وبإضافة الحرف (ر) في مطلع

سورة الرعد (الٓمٓر). وقد سبق لنا التعليق على هذه المقطعات ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك. وبعد هذا الاستهلال جاء الثناء على القرآن الكريم بأنه هو الكتاب الحكيم، وأنه هدى ورحمة للمحسنين الذين هم المفلحون لأنهم استقاموا على هداية ربهم وأقاموا شرائع دينه.

وفي المقابل تحدثت الآيات عن طائفة من الناس، الذين أعرضوا عن سماع كلام الله، وأُغرِقوا في اللهو واللعب والطرب والأغاني والموسيقى والألحان بهدف صرف الناس عن التفقه في الدين، استهزاءً به وتكبراً عليه، وهؤلاء التعساء يبشرهم الله بعذاب مهين، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان: 6-7].

وفي التعليق على هاتين الآيتين الكريمتين قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل بيع المغنيات، ولا شراؤهن، وأكل أثمانهن حرام، وفيهن أنزل الله** عزَّ وجلَّ **عليّ**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 6] »[1].

ثم تُعاود الآيات إلى وصف جزاء المؤمنين فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [لقمان: 8-9].

وبعد استعراض عدد من آيات الله في الكون (الآيات: 10، 11)، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن لقمان الحكيم ونصائحه لابنه في ثماني آيات كاملة (لقمان: 12-19).

وبعد ذلك تُنبّه الآياتُ الناسَ إلى نعمة تسخير ما في السمٰوات وما في الأرض لصالحهم، وإلى إسباغ الله - تعالى - غير ذلك من نِعَمِه ظاهرةً وباطنة عليهم، وهم على الرغم من ذلك يجحدون - في غالبيتهم - تلك النعم، ويجادلون بدون علم ولا هداية ربانية في توحيد الله سبحانه وتعالى وفي صدق وحيه، وفي ذلك تقول الآيات:

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن جرير.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: 20–21].

ثم تنتقل الآيات لتقارنَ بين المسلم وغيره – في مواساة رقيقة لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه) – مؤكدة رجوع الخلق جميعاً إلى الله – تعالى – وأن حسابهم وجزاءهم جميعاً عليه فتقول:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

[لقمان: 22–24]

وفي خطاب مُطمئِن إلى رسول الله ﷺ تؤكد الآيات أن خلق السمٰوات والأرض يشهد لله – تعالى – بالألوهية والربوبية، حتى عند المشركين الذين استزلهم الشيطان فأوقعهم في أوحال الشرك فتقول:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان: 25–26].

وتعاود الآيات إلى امتداح علم الله – تعالى – الذي لا حصرَ له فتقول:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

وفي التأكيد أن الله – تعالى – هو الحق، وأن ما يعبد المشركون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير، استشهدت الآيات (28–31) بعدد من سنن الله في الخلق والبعث، وفي تبادل الليل والنهار، وتسخير كلٍّ من الشمس والقمر يجري إلى أجل مسمى، وفي جريان الفلك في البحر بنعمة من الله – تعالى شأنه –.

ثم تنتقل الآيات إلى استعراض جانب من طبائع النفس البشرية فتقول:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: 32].

ولفظة (مقتصد) هنا تعني الجاحد أو المُقصِّر أو المتوسط في العمل، و(الختَّار) هو الغدَّار الذي كلما عاهد نقض عهده؛ لأن (الختر) هو أتمُّ الغدر وأبلغه، ولذلك وُصف (الختَّار) بـ (الكفور) أي الجاحد للنعم الذي يتناساها ولا يذكرها. ثم تأتي الآيات بوصية من الله - تعالى - إلى الناس بضرورة تقواه وخشيته والاستعداد ليوم القيامة، فوعد الله به حق، وتحذِّرهم من أن تلهيَهم الدنيا عن الآخرة، أو أن يستسلموا لوعود الشيطان، فيصرفهم عن عبادة الله - تعالى - وفي ذلك تقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33].

وخُتمت سورة لقمان بذكر عدد من الغيوب التي استأثر الرحمٰن بعلمها فتقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].

من ركائز العقيدة في سورة لقمان:

1 - الإيمان بأن آيات القرآن الكريم هي كلام الله المُوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، وأن هذا الكتاب الحكيم قد جعله الله - تعالى - هدى ورحمة للمُحسِنين، وأن علم الله - تعالى - لا حصر له، وهو علم شموليّ كامل لا تغيب عنه غائبة.

2 - اليقين بأن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، وهو رب كل شيء ومليكه، وأن غير الله سبحانه وتعالى لا يخلق شيئاً.

3 - التصديق بأن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على القيام بذلك، والدعوة إليه هو من الهداية الربانية التي تحقق لصاحبها الفلاح في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

4 - التسليم بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدين فيها أبداً، وأن من كفر فعليه كفره، وأن مآله إلى جهنم وبئس المصير.

5 - الإيمان بأن الشرك بالله - تعالى - هو من أخطر درجات ظلم النفس، وهو من الكفر البواح الذي يجرّ صاحبه إلى أحطّ دركات الجحيم.

6 - اليقين بحتمية الآخرة، وبما فيها من أهوال البعث، والحشر، والحساب، ثم الخلود إمّا في الجنة أبداً أو في النار أبداً، وأن في الآخرة لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود عن والده.

7 - التصديق بالغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله - تعالى -، ومنها علم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تكسب كل نفس في مستقبل عمرها، وبأي أرضٍ تموت.

من مكارم الأخلاق في سورة لقمان:

1 - تحريم كلّ صور اللهو الماجن الذي يتجاوز فيه الإنسان حدود الأدب، والاحتشام، والذوق السليم.

2 - بِرّ الوالدين وإن كانا غير مسلمَيْن، خاصّةً الأم، والشكر لهما والثناء عليهما.

3 - التأسّي بالصالحين والحرص على صحبتهم.

4 - النهي عن التكبر على الخَلْق، وعن الاستعلاء في الأرض، لأن الله - تعالى - لا يحب كل مختال فخور. ومن هنا كانت الدعوة إلى القصد في المشي، والغضّ من الصوت، والتذكير بأن أنكر الأصوات هي تلك الحادة المرتفعة النبرة كصوت الحمير.

5 - الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المكاره، وعلى كلّ ما يصيب الإنسان من شدائد.

6 - التأكيد على قيمة العقل في الحكم على الأشياء، وعدم قبولها بمجرد الميراث أو الإِلْف والعادة.

7 - اليقين بمراقبة الله للعباد كضابطٍ لسلوكهم، والتأكيد على تقوى الله وخشيته في السر والعلن.

من الإشارات الكونية في سورة لقمان:

1 - يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10] . وفي هذه الآية القرآنية الكريمة عدد من الإشارات العلمية الدقيقة، منها: إشارة إلى خلق السمٰوات بغير عمد مرئيّة، وأخرى إلى إلقاء الجبال في الأرض رواسي لها، حتى لا تميد وتضطرب بما عليها من الخلائق فتستحيل الحياة عليها، ومنها بث الحياة في الأرض (أي نشرها) من كل دابة، ومنها الإشارة إلى إنزال الماء من السماء (أي من السحاب في دورة الماء حول الأرض)، وإحياء الأرض بواسطته حتى أنبت الله - تعالى - بقدرته فيها من كل زوج كريم من النباتات. وهذه كلها من الحقائق التي أثبتتها العلوم المكتسبة بعد تنزّل القرآن الكريم بقرون عديدة.

2 - ويقول الحق ﷻ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14] . وفي هذه الآية الكريمة جاءت الإشارة إلى ثلاثٍ من القضايا العلمية المهمة، أولاها: توصية الإنسان بوالديه؛ لأن الوالدين لا يحتاجان إلى توصية على أبنائهما؛ لأن العاطفة تجاه الأبناء أمر فطري غريزي لا يحتاج إلى تعليم أو تنبيه. وثانيتها أن جنين الإنسان يبقى في بطن أمه فترة تتراوح بين الستة والتسعة أشهر قمرية، معتمداً اعتماداً كلياً على جسدها في غذائه، وريّه، وتنفسه، وخلايا مناعة جسده، وإخراجه، وباقي أنشطته الجسدية والنفسية. وتضحي الأم الحامل لجنينها بكامل احتياجاته على حساب احتياجات جسدها هي، مما يؤدي إلى إضعاف هذا الجسد ووهنه، وهو ما أثبتته الدراسات المكتسبة. وثالثتها الإشارة إلى أن فصال الرضيع في عامَيْن، أي أن المدة الكاملة للرضاعة هي عامان قمريان.

وقد ثبت بالتجربة أنه كلما اقتربت مدة الرضاعة الطبيعية من العامَيْن قَلَّ تركيز الأجسام المناعية الضارة بجسم الجنين . وإذا أضفنا إلى هذه الآية الكريمة قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: 15]، اتضح لنا بجلاء أن أقلّ مدة للحمل البشري هي ستة شهور قمرية (أي: 177 يوماً)، وأن أطول مدة للحمل البشري هي تسعة شهور قمرية (أي: 266 يوماً)، وعلى ذلك فلابد من استكمال فترتَيْ الحمل والفطام معاً إلى ثلاثين شهراً قمرياً (أي إلى885 يوماً)، فكلما قلّت فترة الحمل زادت فترة الرضاعة، والعكس صحيح، وهذا كله ما أثبتته الدراسات المكتسبة.

3 - ويقول ربنا - تبارك اسمه - عن إحدى وصايا لقمان الحكيم لولده: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

وقد ثبت بالتجربة أن شدة صوت نهيق الحمار تجاوز 100 ديسيبل (Decibel) والديسيبل وهو عشر البل، والبل (Bel) هو وحدة قياس كلٍ من شدة الصوت والقدرة على السمع، وهي منسوبة إلى جرهام بل (Graham Bell) مخترع التليفون.

وثبت علميًّا أن أذن الإنسان لا تتحمل صوتاً شدته 100 ديسيبل لأكثر من ساعتين، فإذا وصلت شدة الصوت إلى 110 ديسيبل لا يمكن لأذن الإنسان أن تتعرض لسماع هذا الصوت بأمان لأكثر من نصف ساعة، فإذا وصلت شدة الصوت إلى 160 ديسيبل حدث لأذن الإنسان صمم تام، هذا بالإضافة إلى العديد من الأمراض الصحية والنفسية والتي قد تعتري هذا الإنسان. والآية الكريمة جاءت في مقام الأمر بالتوسط في المشي بين البطء والإسراع في شيء من السكينة والوقار الذي لا يشوبه شيء من التبختر والاختيال والعجب بالذات، كما توصي بالغض من شدة الصوت أي خفضه إلى مستوى الحاجة، وكفه عن إيذاء مسامع الآخرين، وكل ذلك من أخلاق المؤمنين، ومن قواعد الأدب في التعامل معهم، والثقة بالنفس والاطمئنان إلى صدق القول، والإشارة إلى أن ﴿أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19] هي حقيقة علمية أثبتتها المعارف المكتسبة بالقياس المتكرر.

4 - يقول الخالق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: 20]. وتسخير ما في السمٰوات وما في الأرض لبني آدم، وإسباغ نِعَم الله ظاهرة وباطنة عليهم، وجدال الجهلة والضالّين من الكافرين والمشركين في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير من حقائق الوجود التي تكررت ولا تزال تتكرر في كل جيل من أجيال الناس، وما أكثرَ هؤلاء المجادلين في زمن الفتن الذي نعيشه!.

5 - ويقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28]. وهذه الآية الكريمة تثبت يسر عملية الخلق والإفناء والبعث على الله سبحانه وتعالى، ولكن فيها بالإضافة إلى ذلك إشارة واضحة إلى تسلسل خلق بني آدم جميعاً من مخزون الصفات الوراثية أودعه الله - تعالى - صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وهو ما

تشير إليه الدراسات الوراثية المستحدثة. وكما خَلَقَ ربنا بهذه الطريقة فهو قادر على بعث خلقه بطريقة مشابهة أو بغيرها (والله على كل شيء قدير).

6 - ويقول الحق - عز سلطانه - مُخاطِباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ والخطاب إليه هو خطاب لكل مؤمن به وبرسالته إلى يوم الدين، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 29].

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى عدد من الحقائق العلمية التي منها أولاً: حقيقة كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وثانياً: حتمية فناء الكون، وثالثاً: أن علم الله - تعالى - مُحيط بكل شيء، فلا يخرج شيء عن علمه.

7 - ويقول ربنا - وقوله الحق -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: 31].

وفي ذلك إشارة إلى الصفات الطبيعية الخاصة التي أودعها الله - تعالى - في الماء حتى جعله قادراً على حمل الفلك التي تجري فيه بنعمةٍ من الله وفضل.

8 - وفي ختام السورة المباركة، تأتي الإشارة إلى عدد من الأمور الغيبية غيبةً مطلقة من أجل التأكيد على شمول علم الله، ومحدودية علم الإنسان، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: 34].

وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى الغيبة المطلقة لعلم الساعة، وإلى حقيقة أن الإنسان بكل ما أوتي من أسباب التقدم العلمي والتقني، لا يمكنه التحكم في إنزال الغيث لا زماناً ولا مكاناً، ولا كمًّا ولا كَيْفاً، ولا يمكنه معرفة ما في جميع الأرحام كمًّا وكيْفاً ومصيراً وزمناً، ولا يمكنه معرفة مكاسبَ الغد، ولا مكان وزمان الموت، وهذه كلها من الحقائق التي تعترف بها جميع العلوم المكتسبة أخيراً. وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث على النقطة الخامسة من القائمة السابقة، وقبل الوصول إلى ذلك، أرى ضرورة استعراض أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: 34].

- ذكر صاحب «الظلال» رحمه الله رحمة واسعة - ما مختصره: «.... والله - سبحانه - قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه، ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي.....، والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه، والنص يقدر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكونه والتي تنظمه...، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾... اختصاص بالعلم كالاختصاص بأمر (الساعة) فهو سبحانه الذي يعلم وحده - علم يقين - ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور من غيض وفيض، ومن حمل حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم يدرك، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظات الأولى لاتحاد الخلية الذكرية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته؛ فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى....».

- وجاء في «صفوة البيان لمعاني القرآن» - رحم الله كاتبه رحمة واسعة - ما مختصره: «...هذه الأمور الخمسة من المغيبات، وقد استأثر الله تعالى بعلمها اليقيني على وجه الإحاطة والشمول، لأحوال كل منها وتفصيله على الوجه الأتم المطابق للواقع.....، وليست المغيبات محصورة في الخمسة، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله هو على النحو المذكور...»

- وجاء في بقية التفاسير كلام مشابه لا حاجة إلى تكراره.

من الدلالات العلمية للنص الكريم

أولاً: التأكيد على شمول علم الله تعالى:

في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾ إشارة إلى شمول علم الله تعالى لكل شيء، ومن ذلك ما في الأرحام. ويصف القرآن الكريم هذا الشمول في العديد من آياته التي منها قوله سبحانه وتعالى:

1 - ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

2 - ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: 3].

3 - كذلك جاءت الإشارة إلى الفارق الهائل بين شمول علم الله - تعالى - وجزئية علم البشر بالتعبير القرآني ﴿... اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أربع مرات في كتاب الله (البقرة: 232، 216، آل عمران: 66، النحل: 74).

4 - كذلك جاء التعبير القرآني ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 78] مرة واحدة، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [(المائدة:97،الحجرات:16، التغابن:4] ثلاث مرات، وجاء نفس المعنى بتعبير ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: 4] مرة واحدة؛ وبتعبير: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 6] مرة واحدة؛ وبتعبير: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65] مرة واحدة؛ وبتعبير ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحجرات: 18] مرة واحدة، وبتعبير: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجرات: 16] مرة واحدة وبتعبير: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التغابن: 4] مرة واحدة.

5 - وجاء التأكيد الجازم بهذه الحقيقة في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

6 - وجاءت هذه الحقيقة في قول ربنا - تبارك وتعالى - عن ذاته العلية: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

وفي قوله عز من قائل: ﴿... إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: 7].

7 - وجاء التأكيد على نفس النص الذي اخترناه عنواناً لهذا المقال في قول ربنا تبارك اسمه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرّعد: 8].

والإسلام العظيم يؤكد على أن طلاقة القدرة وشمول العلم من صفات الألوهية، وعلى أن الخالق سبحانه وتعالى منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل نقص لا يليق بجلاله، فلا يغيب شيء عن علم الله - تعالى - أبداً.

والعلم - في قمة من قممه اليوم - يؤكد على أن كل ما يدركه علماء الفلك لا يتعدى عشرة بالمائة (10%) مما هو موجود بالفعل في الجزء المدرك من السماء الدنيا، وأن هذا الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المنضبط الحركة، والمحكم في كل أمر من أموره لا بد له من مرجعية في خارجه لا تحدها قوانين المكان والزمان، والمادة والطاقة، وهذه المرجعية الكونية بالنسبة لنا نحن معشر المسلمين هي تعبير المعارف المكتسبة عن الذات الإلٰهية، ووجود تلك الذات العلية فوق الكون كله يجعل الكون من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، وبكل ما فيه ومن فيه خاضعاً لجلال الله، داخلاً في علمه الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك شمول علم الله تعالى لجميع الأرحام النباتية، والحيوانية، والإنسية، في كل زمان ومكان، وبكل طور وحدث، في إحاطة تتصف بالكمال المطلق الذي لا يكون إلا لله الخالق سبحانه وتعالى رب هذا الكون ومليكه، ومدبر أمره.

ثانياً: الإشارة إلى أن في الأرحام ما لا يعلمه إلا الله - تعالى -:

في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿... وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ...﴾ إشارة واضحة إلى أن في الأرحام من الأسرار والغيوب ما لا يعلمه إلا الله - تعالى -، وأن من هذه الغيوب ما هو مرحلي يمكن للإنسان - بتطور أجهزته ومعارفه المكتسبة - أن يصل إلى شيء منه في يوم من الأيام، وما هو مطلق لا سبيل للإنسان في الوصول إليه، إلا ببيان من الله تعالى لأن الله تعالى قد حجبه عن خلقه.

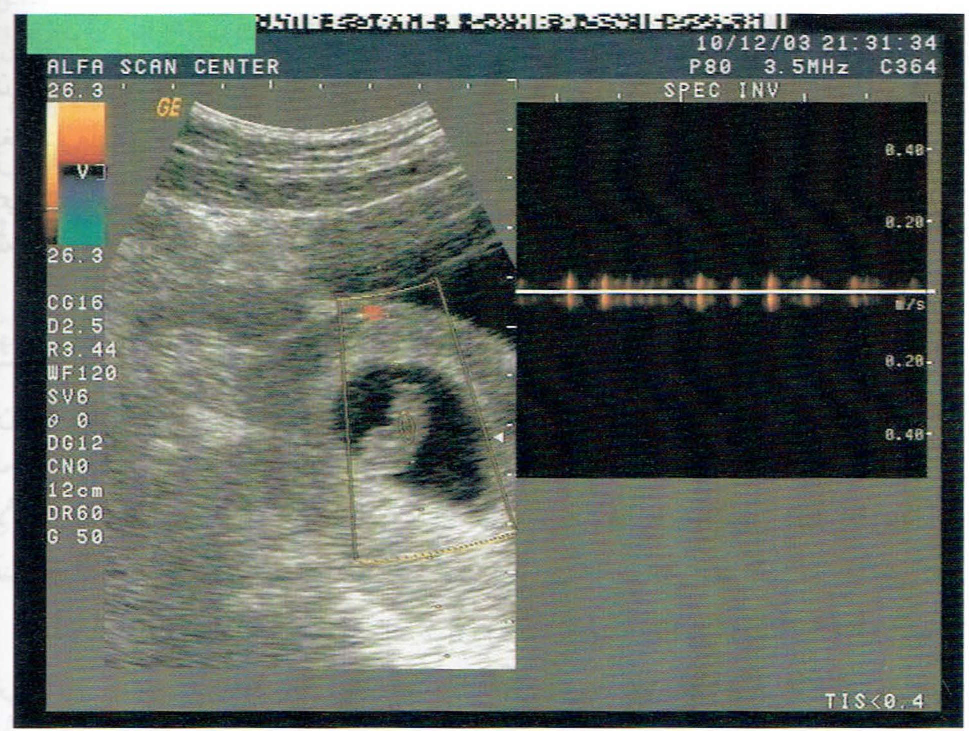
ومن الغيوب المرحلية التي تم الكشف العلمي عن شيء منها مؤخراً أن كثيراً من النساء يحملن ثم يفقدن حملهن في الأسابيع الأولى من الحمل أي في المراحل الأولى من تخليق الجنين دون أدنى دراية منهن، وتعرف هذه الظاهرة باسم «السقوط التلقائي للحمل» (Spontaneous Abortion or Miscarriage). وعادة ما يتم ذلك في الأسابيع الأربعة الأولى من تاريخ الإخصاب، وقد يمتد إلى الأسبوع العشرين دون أدنى دراية من صاحبة الأمر.

وهذه الظاهرة شائعة الحدوث إذ تتراوح نسبتها بين (40%)، (60%) قبل الأسبوع الرابع من تاريخ الإخصاب، وبعد ذلك تتناقص إلى ما بين (15%) (20%)، ولم يدرك الأطباء ذلك إلا مؤخراً.

وفي حالات السقوط التلقائي للحمل قد ينزل الجنين وهو في حدود (1,5) مم إلى

(5) مم في الطول مع الدورة الشهرية مصاحباً بكمٍّ من الدماء الغزيرة دون أدنى دراية من صاحبته. وفي حالات أخرى قد يتحلل الجنين ويمتصه جدار الرحم بالكامل، وتشيع هذه الحالة فيما يعرف باسم «ظاهرة التوائم المتلاشية» (**The Vanishing Twin Syndrome**).

وقد لا يسقط كيس الحمل الفارغ بعد موت أحد هذه التوائم أو بعد موتها جميعاً، وتعرف هذه الحالة باسم السقط أو الإجهاض المخفي (**The Missed Miscarriage or The Missed Abortion**)، وهذه مجرد واحدة من الأحداث والدورات العديدة التي تقع في داخل الأرحام، ولا تدري بها صاحبة الأمر المباشر، وتشمل كلاًّ من الأجنة التي يلفظها الرحم دماً، والتي تتحلل بداخله وتغور مادتها في جداره كما يغور الماء في الأرض تماماً، ولذلك عبّر القرآن الكريم عن هذه الظاهرة من قبل أربعة عشر قرناً بتعبير ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ [الرّعد: 8] وهو تعبير يشمل الحالتين السابقتين كما يشمل غيرهما من أحداث رحمية؛ وهو تعبير غاية في الدقة



صورة بالأشعة فوق الصوتية تكشف ظاهرة التوائم المتلاشية داخل الرحم في الأسابيع الأولى من الحمل

اللغوية والعلمية، وفي غاية الإعجاز، وذلك لأن هذه الظاهرة لم تعرف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين بعد تصنيع أجهزة الكشف بالأشعة فوق الصوتية (The Ultrasonic Wave Detectors)، والتي باستخدامها أمكن إثبات أن حوالي (50%) من حمل التوائم يفقد جزئياً أو كلياً في داخل الرحم في الأسابيع الأولى من الحمل، فإذا هلك أحد التوأمين أو كلاهما ترك مكانه على هيئة كيس صغير ممتلئ بمادة كثيفة ما يلبث أن يختفي، وباختفائه يزول تماماً الأثر الدال على وجود جنين آخر، أو وجود حمل على الإطلاق إذا هلك الجنينان.

أما باقي صفات الجنين من رزق وأجل، وعمل، وأثر، ومصير، وشقاء أو سعادة، وبأي أرض يموت، فمن الغيوب التي اختص بها الله - تعالى - ذاته، وحجبها عن غيره.

كذلك يعلم الله - تبارك اسمه - هل هذا الجنين سيعبر رحلة الحمل بسلام أم سوف لا يخرج للحياة؟ وإذا عبرها بسلام هل سيكون كامل الصفات أم سيكون مبتلى بشيء من العجز في بعضها؟ وهل سيهلكه هذا الابتلاء أم سوف يتعايش معه؟ وهل سيعقب من بعده أم لا، ومن سيكون نسله؟ وماذا ستكون صفات كل فرد منهم ومصيره إلى يوم الدين...؟!

وفي حالة الجنين البشري بالذات يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط حقيقة نسبه إلى أبينا آدم عليه السلام ونسله إلى يوم الدين، وجنسه، وصفاته الجسدية والنفسية، وقدراته العقلية وعواطفه ومشاعره بالتفصيل الذي لا يعلمه إلا الله - تعالى -.

فعلم البشر عن بعض صفات الجنين من ناحية الذكورة والأنوثة، أو من ناحية السلامة من بعض الأمراض الوراثية أو الإصابة بشيء منها، أو من ناحية النسب المباشر إلى الوالدين بواسطة تحليل الحمض النووي (DNA) فليس من علم الغيب لأن الجنين بمجرد تخلقه صار جزءاً من عالم الشهادة، ولو بقي مستتراً في الرحم محجوباً عن المشاهدة المباشرة بما يحيطه من ظلمات ثلاث.

ومن هنا يتضح الفارق الهائل بين جزئية معارف البشر - فرادى ومجتمعين -، وشمول علم الله سبحانه وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ كما يتضح كم تضم الأرحام من الغيوب والأسرار، والأحداث، والدورات.

ثالثاً: الإشارة إلى كثرة الأحداث التي تتم في داخل الرحم خاصة أثناء تخلق الأجنة:

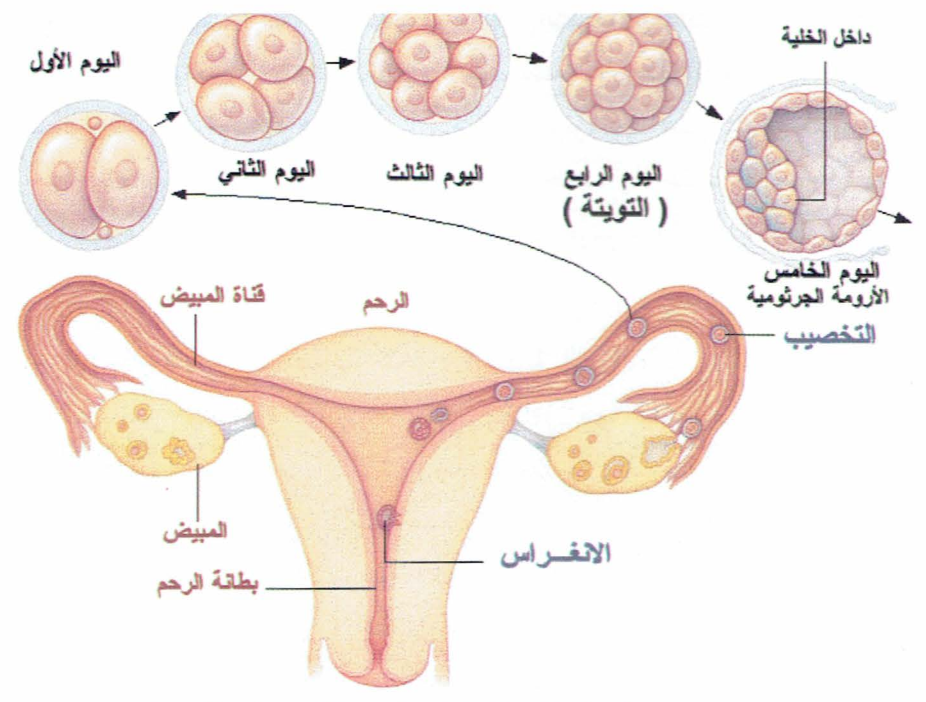
في قول ربنا - تبارك وتعالى: - ﴿... وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ...﴾ إشارة إلى ملايين العمليات المعقدة التي تتم في داخل الرحم خاصة أثناء تخلق الأجنة. ومن هذه العمليات العديدة والمعقدة عملية إنتاج البييضات الناضجة أو ما يعرف باسم (عملية التبييض) (Ovulation)، وتبدأ هذه العملية بتحرك الأرومة البييضية (Ootid) إلى سطح المبيض، وهي محاطة بجراب غشائي رقيق (Follicle) ينفجر فتنطلق منه البييضة إلى قناة المبيض (Viduct) متحركة في اتجاه الرحم على أمل مصادفة الحيمن الذي كتب له إخصابها.

وعملية تخلق الجهاز التناسلي للأنثى تتم في الأسبوع الثاني عشر من عمرها الجنيني، وتخلق النطف الأنثوية (Oogenesis) يتم والأنثى لا تزال جنيناً في بطن أمها، ويبلغ عددها قرابة المليونين من النطف الأنثوية الابتدائية، ويتناقص هذا العدد عند البلوغ إلى ما بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف خلية ابتدائية للنطف الأنثوية (The Primary Oocytes) ثم تبدأ هذه الخلايا الابتدائية في الانقسام الانتصافي الأول (Meiosis -1) لتكون الخلايا البييضية الثانوية (The Secondary Oocytes) التي تعاود إلى الانقسام الانتصافي الثاني (Meiosis-11) لتكون أرومة البييضة (Ootid).

وكلٌّ من المبيضين ينتج بييضة ناضجة واحدة كل شهرين بالتبادل من بداية سن البلوغ وحتى سن اليأس وبذلك تستمر عملية إنتاج بييضة واحدة شهرياً بالتبادل بين المبيضين طوال فترة خصوبة المرأة حتى تستهلك رصيدها بالكامل فتدخل في سن اليأس من الإنجاب.

وبمجرد إفراز البييضة الناضجة تتوقف عملية التبييض نتيجة لإفراز أعداد من الهرمونات الخاصة حتى يتم إخصاب هذه البييضة المختارة أو إسقاطها مع دماء الدورة الشهرية.

وحتى إذا تمت عملية الإخصاب فإن هذه النطفة الأمشاج إما أن يكتب لها الانغراس في جدار الرحم بنجاح أو لا يكتب لها ذلك فتطرد إلى خارج الجسم في بحر من الدماء والأشلاء أثناء الدورة الشهرية.



رسم توضيحي لرحلة البييضة داخل الرحم أثناء عملية الإخصاب

وتنتج أنثى الإنسان طوال فترة خصوبتها ما بين (300) ثلاثمائة و(500) خمسمائة بييضة ناضجة يبلغ قطر الواحدة منها (0,2) مم، ولا يصل إلى مرحلة الإخصاب من بينها إلا آحاد منها، ولا يصل إلى مرحلة الإنجاب إلا القليل من هذه الآحاد. وذلك لأن أي خلل يحدث أثناء هذه الرحلة الشاقة لكل من البييضة والحيامن والتي تستغرق (266) يوماً في المتوسط قد يعيق عملية الإنجاب ويفشلها تماماً، وهنا يتضح لنا دور الخالق سبحانه وتعالى ورحمته وإرادته.

وتحتاج البييضة الناضجة السليمة، الصحيحة، الواحدة إلى مائة مليون حيمن على أقل تقدير بشرط أن تكون هذه الحيامن كلها صحيحة وسليمة، ونشطة حتى يتمكن أحدها من إخصاب تلك البييضة المختارة بصفات وراثية خاصة، بهذا الحيمن المختار كذلك بصفات وراثية خاصة والذي لا يتعدى طوله في المتوسط (0,005 -) مم لكي يبقى لكل فرد من بلايين البشر (الذين عاشوا وماتوا، والذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى يوم قيام الساعة) بصمة وراثية خاصة تميزه عن

غيره. وهنا أيضاً يتضح لنا كمُّ الغيوب والدورات والأحداث التي تتم في داخل الأرحام، والتي لا يعلمها إلا الله تعالى، كما يتضح دور هذا الخالق العظيم في نشر الصفات الوراثية التي أودعها صلب أبينا آدم عليه السلام وتوزيعها على بنيه وأحفاده مع مرور الزمن حتى قيام الساعة بعلم الله وحكمته وقدرته، خاصة إذا علمنا أن الرجل يخرج في الرفقة الواحدة ما بين مائة مليون إلى ثلاثمائة مليون حيمن، وأن هذه النطف الذكرية لا تستطيع العيش لأكثر من (72) ساعة.

وبمجرد إتمام عملية الإخصاب تتحول البييضة إلى النطفة الأمشاج أي المختلطة والتي تعرف باسم «اللقيحة» (**Zygote**) والتي يتكامل فيها عدد الصبغيات المحدد لنوع الإنسان وهو (46) صبغياً في (23) زوجاً، نصفها من البييضة، والنصف الآخر من الحيمن، وصبغيات البييضة منها (22) صبغياً تحمل الصفات الجسدية، وصبغي واحد يحمل الصفات الجنسية الأنثوية (x)، بينما صبغيات الحيمن الجنسية إما أن تحمل شارة التذكير (Y) أو شارة التأنيث (x) بالإضافة إلى الصبغيات الجسدية البالغ عددها (22) صبغياً. وذلك لأن الخلايا الأولية التي تنتج النطف الذكرية (**The Primary Spermatocytes**) قبل انقسامها يحوي كل منها (46) صبغياً في (23) زوجاً منها (22) زوجاً جسدياً وزوج واحد من الصبغيات الجنسية يحمل أحدها شارة التذكير (Y) ويحمل الآخر شارة التأنيث (x) ومن هنا كان من الحيامن ما يحمل شارة التذكير، ومنها ما يحمل شارة التأنيث فقط.

وهنا يقول علماء الوراثة أنه إذا نجح الحيمن الذي يحمل شارة التذكير في إخصاب البييضة كان الجنين ذكراً، بينما إذا نجح الحيمن الذي يحمل شارة التأنيث في ذلك كان الجنين أنثى. ولكن من الذي يختار هذا الحيمن أو ذاك من وسط الملايين من الحيامن ووسط ظلام الرحم الحالك؟

وهنا يتضح دور الخالق سبحانه وتعالى بعلمه وحكمته وقدرته وإرادته، وقد قال - وهو أحكم القائلين -: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:49، 50]. وقال - عز من قائل -: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرّعد: 8].

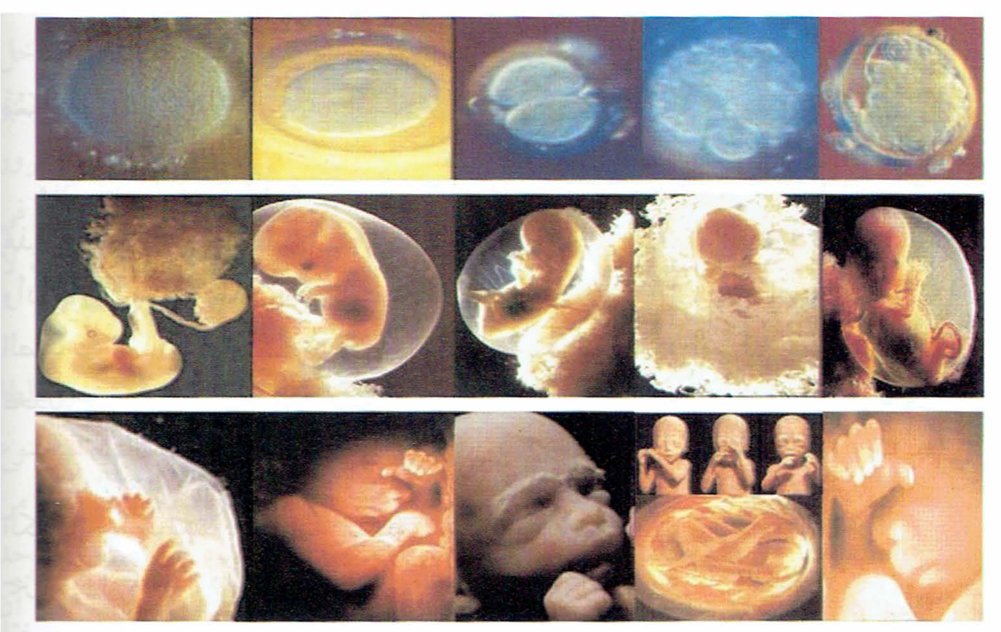
وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: 20 – 23].

وإذا علمنا أن كل صبغي يحمل عدداً خاصاً من المورثات (الجينات)، وأن مجموع هذه المورثات في الخلية البشرية الواحدة يتراوح بين (30) ألف،(35) ألف مورث، وأن كل واحد من هذه المورثات يحمل عدداً محدداً من الأوامر والصفات، وأن اختيار الصفات السائدة والمستترة لا يتم بصورة عشوائية أبداً،ظهر لنا دور الخالق ﷻ في تحديد صفات كل فرد من خلقه.

وإذا علمنا أن الشيفرة الوراثية في الخلية البشرية الواحدة مكتوبة بعدد من الجزيئات الكيميائية المعقدة يصل إلى (18,6) بليون جزيئاً،وأنه لو اختل وضع ذرة واحدة من جزيء واحد من هذه البلايين من الجزيئات إما أن يشوّه هذا المخلوق أو لا يكون، اتضح لنا جانب من غيوب الأرحام التي لا يعلمها، ولا يدبر أمرها إلا الله ﷻ ، وبان لنا جانب من طلاقة قدرته، وعظيم حكمته، وشمول علمه، وواسع رحماته بخلقه.

وبدراسة المراحل التي يمر بها الجنين من لحظة الإخصاب إلى التعلق بجدار الرحم: علقة ثم مضغة، ثم خلق العظام وكسوتها باللحم،ثم إنشائه خلقاً آخر حتى يتم وضعه بعد (266) يوماً في المتوسط، يتضح لنا أمام أعيننا كمٌّ هائل من الغيوب المرحلية والمطلقة التي علم الإنسان طرفاً منها وتبقى آلاف الأسرار مغلقة أمامه وقد اختص بها علم الله مما يوضح لنا جانباً من معنى قوله – تعالى –: ﴿... وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ...﴾ والذي جاء في مقام الاستدلال على حقيقة الألوهية.

ولكثرة ما يتم في الأرحام من أحداث، وما يكتنفها من غموض، وأسرار وغيوب شدّد الإسلام العظيم على حماية الإناث بشكل خاص، وفي التشريع للزواج والطلاق والعدة، وحرّم الزنا تحريماً قاطعاً، وشدد العقوبة عليه كما لم يشددها على حد آخر من حدود الله، وأحاط الأسرة بسياج آمن من التشريعات الإلهية، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: 1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32].



صور للمراحل التي يمر بها الجنين من لحظة الإخصاب إلى ما قبل الولادة

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور: 3 – 2].

كذلك حرص القرآن الكريم في تشريع العدة على ضرورة التأكد دوماً من «براءة الرحم» في جميع الأحوال التي يتم فيها الفراق بين الزوجين بالطلاق، أو الإيلاء، أو الترمل بوفاة الزوج، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: 226–228].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: 234].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطَّلَاق: 1].

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: 4 – 5] .

ويتضح من هذه الآيات الكريمة أن الهدف من تحديد العدة هو التأكد من «براءة الأرحام» صوناً لها من عبث العابثين، وصوناً لأنساب الناس من الاختلاط المشين، خاصة في زمن الفتن الذي نعيشه والذي اشتعلت فيه نيران السعار الجنسي والشذوذ الجنسي بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية كله، حتى طالت بعض بلاد المسلمين، واستهان الناس بالأرحام إلى درجة الابتذال والتفسخ، لذلك جعل ربنا – تبارك وتعالى – عدة المطلقة الشابة (التي لها دورة حيض منتظمة) ثلاثة قروء، أي: شهران إلى ثلاثة أشهر حسب مدة الدورة الشهرية والتي تتراوح بين ثلاثة وخمسة أسابيع في العادة. (والقرء) في اللغة هو الوقت المعتاد تردده أي المعلوم المتكرر بانتظام.

أما كلٌّ من المطلقة التي وصلت إلى سنِ اليأس (**Menopausal Syndrome**)، والصغيرة التي لم تصل بعد إلى سن الحيض فعدة كل منهما ثلاثة أشهر.

والزوجة التي مات زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشراً تأكداً من براءة الرحم، ووفاءً للزوج المتوفى، وتمتد العدة في حالة الحمل إلى لحظة الوضع فيبرأ الرحم، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿. . . وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ . . .﴾ [الطلاق: 4] .

والواضح من تشريع «العدة» هو المحافظة على «براءة الرحم» وهو مكان تخلق الإنسان بإذن الله، والتحقق من ذلك دوماً وفي جميع الحالات، وبالإضافة إلى هذه الغاية النبيلة، «فالعدة» في حالة الطلاق فرصة لترقب المراجعة بين الطرفين، صوناً للأسرة المسلمة من الانهيار، وحفظاً للنسل من الضياع إذا انهارت الأسرة. فإذا انتهت «العدة» ولم تحدث المراجعة كان للمطلقة حق الانطلاق من حرج الانتظار طوال مدة العدة. والطلاق للزوجة لا يقوم إلا إذا تم في طهر لم يمسسها فيه زوجها، والطهر الذي طلقها فيه هو بداية عدتها. أما إذا لم تحدث المعاشرة فلا «عدة» للزوج على زوجته لقول

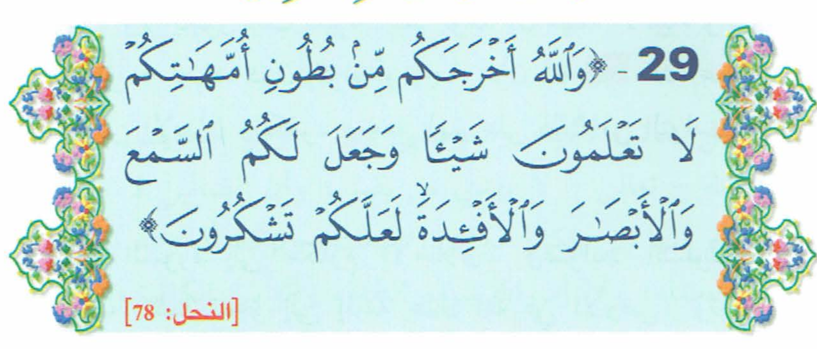
ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: 49].

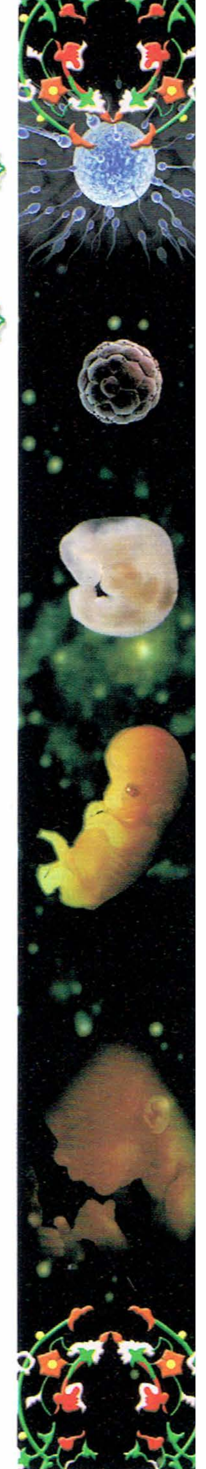
ومن هذه الاستعراض تتضح روعة تشريع «العدة» في القرآن الكريم محافظة على «براءة الأرحام» وما فيها من أسرار وغيوب، وما يتم فيها من أحداث جسام لا يعلم تفصيلها إلا رب العالمين، كما تتضح ومضة الإعجاز العلمي فيما ثبت من أن الحيضة الأولى تزيل (75%) من آثار المعاشرة الزوجية، وأن الحيضة الثانية تزيل (15%)، والحيضة الثالثة تزيل ما تبقى من أثر (10%)، كما تتضح في وصف ربنا - تبارك وتعالى - ذاته العلية بأنه من جملة الغيوب المطلقة التي استأثر علمه المحيط قوله العزيز: ﴿... وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ...﴾ ويأتي العلم المكتسب في وفرة عطائه اليوم مؤكداً على أن بالأرحام من الغيوب المطلقة ما لا يعلمه إلا الله - تعالى -، وبها من الغيوب المرحلية ما يجاهد العلماء من أجل إماطة اللثام عنها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿... وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ...﴾ [الإسراء: 85].

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام سيدنا محمد بن عبد الله - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ





هذه الآية الكريمة جاءت في بداية الثلث الثاني من سورة «النحل»، وهي سورة مكية، وآياتها (128) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى النحل.

وتعرض سورة «النحل» للركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية ومن أولاها: الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً، هو خالق كل شيء، ورب كل شيء ومليكه، لا يشاركه في ملكه أحد، ولا ينازعه في سلطانه أحد، ولا يشبهه في خلقه أحد، متفرد بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبالقدرة المطلقة التي لا تحدها حدود، وبالإرادة الغالبة التي لا يقف في طريقها عائق، وهذه من صفات الألوهية الحقة.

ومن ركائز العقيدة الإسلامية التي عرضت لها هذه السورة المباركة: الإيمان بملائكة الله، وكتبه، ورسله، وبحقيقة الوحي السماوي الذي أنزله الله - تعالى - هداية لخلقه على سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين، ثم أكمله وأتمه وختمه وحفظه في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم - صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -.

ومن ركائز العقيدة التي أكّدتها سورة النحل: الإيمان بحقيقة البعث وحتميته، وقد أنكرها الكفار والملحدون في القديم، كما ينكرها الكفار والملحدون في عالم اليوم في محاولة فاشلة للهروب من عذاب الله الشديد، وهو واقع بهم لا محالة.

وتؤكِّد سورة النحل أن الحكم لله وحده، ومن هنا كان له وحده الحق في التحليل والتحريم، ولا يجوز ذلك لغيره. كما تؤكد أن مهمة الأنبياء والمرسلين هي تبليغ أوامر الله - تعالى - لعباده دون إكراه أو إجبار لأن الله ﷻ قد أعطى عباده المكلفين حرية الاختيار بين الإيمان والكفر، وجعل لهم على ذلك من الثواب والعقاب ما يستحقه كل منهم.

وتدعو السورة إلى مكارم الأخلاق، وضوابط السلوك، والقواعد الصحيحة للمعاملات، كما تدعو إلى إقامة عدل الله في الأرض، وتؤكد جزاء الإحسان إلى الخلق، والوفاء بالعهد، والإنفاق في سبيل الله، والهجرة من أجل إعلاء دينه، والدعوة إليه، وتحذر من الوقوع في الفتن، ومن أخطرها الكفر بعد الإيمان، وتذكر بأحوال الناس في الضعف والقوة بدءاً بمراحل الأجنة في بطون الأمهات إلى مراحل الشباب والفتوة، ثم إلى الشيخوخة والهرم، كما تذكر بالتحول من الرخاء والنعمة إلى البلاء والشدة، وتعظ بمصارع الغابرين كما تعظ بلحظات الاحتضار قبل الموت.

وتبدأ سورة النحل بالتحذير من فجائية الآخرة وذلك رداً على الذين يستعجلونها، إنكاراً لإمكانية وقوعها، وهي واقعة لا محالة، وعلى الذين يستعجلون العذاب استبعاداً لـه وهـو واقـع بهـم دون أدنـى شك، لا فكاك لهم منه ولا مهرب، ثم تثني بتسبيح الله - تعالى - وتنزيهه عن الشريك، مؤكدة حقيقة إنزال الله الوحي على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين لينذروا الناس بأنه لا إلٰه إلا الله، وبضرورة طاعته، وعبادته، وتقواه.

وتعتب هذه السورة المباركة على الذين كفروا كفرهم بالله، وعلى الذين أشركوا شركهم به ومطالبتهم لرسله إليهم أن يأتوهم بالملائكة أو بإنذار الله ﷻ وتهديده لهم، وذلك انطلاقاً من صلفهم وعنتهم وكبرهم، مذكرة بعاقبة الذين طلبوا ذلك من قبل، ناعية على المشركين منهم ادعاءهم الكاذب بأن ذلك هو قدر الله عليهم، مؤكدة أن ما على الرسل إلا البلاغ المبين، وأن الله - تعالى - قد بعث في كل أمة من الأمم رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اجتناب الطاغوت فكان منهم المصدقون والمكذبون، وتذكر بعواقب المكذبين فتقول:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ

﴿... هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النّحل: 36] .

وتخاطب سورة النحل خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - وهو الحريص على هداية الخلق أجمعين - بأن الله - تعالى - لا يهدي من يضل، وأن الضالين لا نصير لهم، وتشير في أكثر من موضع منها إلى إنكار الكافرين للبعث، وتؤكد أن وعد الله الذي لا يخلف حتى يجازي كلاً بعمله، وأن أمر الله سريع النفاذ، وأنه بين الكاف والنون، كما تشير إلى الرسل السابقين وإلى رسالاتهم التي تكاملت كلها في القرآن الكريم الذي أنزله الله - تعالى - تبياناً لما اختلفوا، وتحذر من عقاب الله للذين يمكرون السيئات، وتؤكد حتمية الحساب والثواب والعقاب.

وتلمح هذه السورة الكريمة إلى حقيقة أن كل ما في السمٰوات والأرض من دواب وملائكة خاضعون لله بالطاعة والعبادة. يسجدون لجلاله في غير استكبار، وتعاود التحذير من الشرك بالله رب السمٰوات والأرض ومن فيهن، وصاحب النعم على جميع الخلق، وكاشف الضر عنهم. وتنكر على أهل الجاهليات القديمة كراهيتهم لخلفة البنات، تلك الكراهية التي كانت تدفع ببعضهم إلى وأد بناتهم أحياء، وتضرب عدداً من الأمثال لتقارن بين غير الفاعلين والفاعلين من البشر، وبين المتقاعسين عن نصرة المظلوم والذين يأمرون بالعدل وهم على صراط مستقيم.

وتؤكد سورة النحل أن الغيب المطلق في السمٰوات والأرض لا يعلمه إلا الله، ومنه أمر الساعة التي لا تأتي إلا بغتة، وأن الله - تعالى - على كل شيء قدير. وتستعرض هذه السورة المباركة، مواقف الظالمين من الكفار والمشركين في يوم القيامة، وما سوف يتعرضون له من المهانة والعذاب، مؤكدة أن الأنبياء سوف يشهدون على أممهم، وعلى رأسهم الرسول الخاتم ﷺ الذي سوف يشهد على أمته وعلى الذين كذبوا نبوته وجحدوا رسالته منهم ومن الأمم من بعدهم إلى قيام الساعة، وأن الله - تعالى - قد أنزل عليه القرآن العظيم: ﴿... تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النّحل: 89].

وتؤكد سورة النحل أن الله - سبحانه - يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتطالب المسلمين بالوفاء بعهد الله إذا عاهدوا، وبعدم نقض الأيمان بعد توكيدها، وتشير إلى أن الله - تعالى - لو شاء لجعل الناس

أمة واحدة، ولكن منهم الضال والمهتدي، والطالح والصالح، ويقرر ربنا - تبارك وتعالى - ثواب الصالحين في هذه السورة المباركة بقوله - عز من قائل-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: 97].

وتأمر الآيات بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل البدء في تلاوة القرآن الكريم، وتؤكد أن ليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا، والذين على ربهم يتوكلون، وإنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

وتشير سورة النحل إلى أن القرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام بالحق من لدن رب العالمين ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، كما تشير إلى الادعاء الكاذب من الكافرين بأن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يتلقى ما أفاء الله - تعالى - عليه به من علم على يد بشر، وتستنكر افتراء الكذب على الله، والكفر به إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وتقرر أن على الكافرين غضباً من الله، وأن لهم عذاباً عظيماً.

وتعرض السورة الكريمة لشيء من المحرمات في الطعام من مثل: الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهلَّ لغير الله به، إلا من اضطر غير باغ ولا عاد، فإن الله غفور رحيم. وتؤكد أن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده، ولا يجرؤ عليه من دون الله إلا كاذب، وتذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين، وأن الله - تعالى - قد اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتاه في الدنيا حسنة، وجعله في الآخرة من الصالحين. وتأمر الآيات رسول الله الخاتم ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً.

وتختتم سورة النحل بدعوة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - ومن بعده دعوة كل المؤمنين برسالته إلى أن يحملوا هذا الدين الخاتم المحفوظ بحفظ الله إلى غيرهم من الأمم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، وبالصبر على المتشككين، والعفو عما يلقونه منهم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الله إليهم، وإن عاقبوا فلا يجوز للعقاب أن يتعدى المثل، وأن الصبر خير للصابرين، وتنتهي السورة بالوصية إلى رسول الله ﷺ بأن يصبر وبألا يكون في ضيق مما يمكر الكافرون لأن الله - تعالى -: ﴿... مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: 128]، والوصية من بعد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - هي لكل مسلم يحمل راية الإسلام إلى يوم الدين.

الآيات الكونية في سورة «النحل»:

استشهدت سورة النحل على حقيقة الألوهية بالعديد من الآيات الكونية التي تتجلَّى فيها عظمة الخلق، وشمول النعم على العباد وتمام العلم، وعظيم الحكمة، ودقة التدبير ومن تلك الآيات ما يلي:

1 - خلق السمٰوات والأرض بالحق.

2 - خلق الإنسان من نطفة، وعلم الأجنة يؤكد هذه الحقيقة.

3 - خلق الأنعام وهي مصدر للعديد من المنافع للإنسان.

4 - خلق الخيل والبغال والحمير وغير ذلك من وسائل الركوب التي لم تكن معروفة في زمن الوحي، والتي ستظل في تطور مستمر مع تزايد علم الإنسان وقدراته التقنية، والله يخلق ما لا يعلمه الإنسان.

5 - تعدد معتقدات الناس بين الضلال والهداية، وهو ما تثبته قراءة التاريخ.

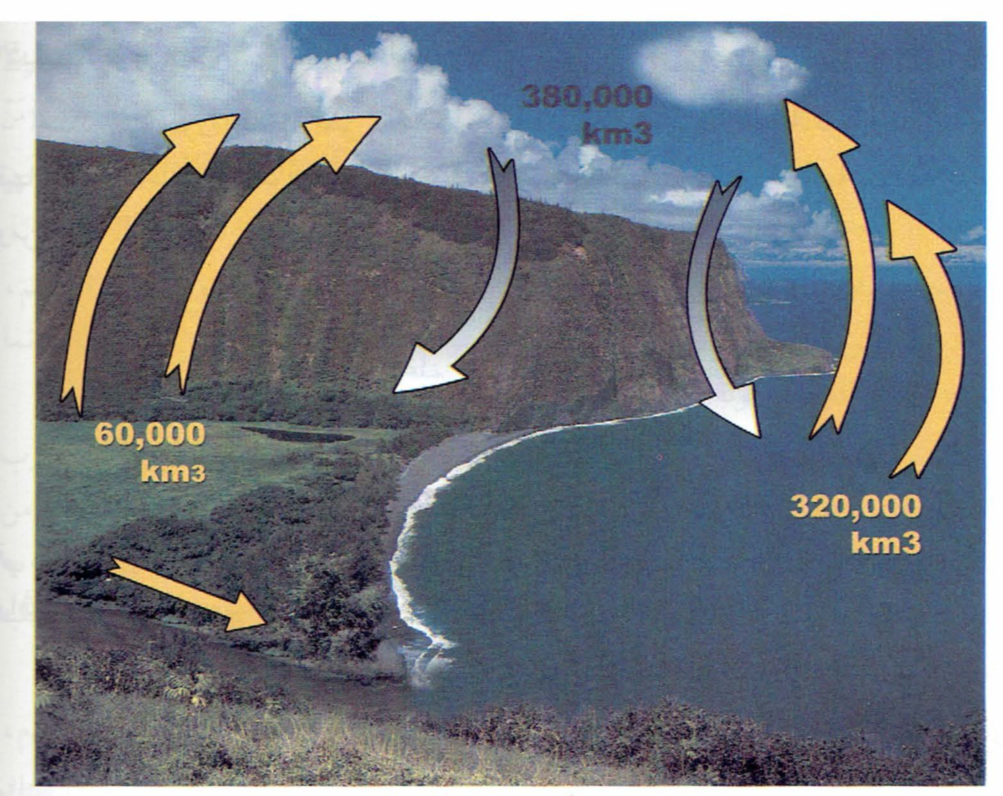
6 - إنزال الماء من السماء للشراب وإنبات الشجر والزرع ومن أهمها الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من الثمرات المباركات.

7 - تسخير الأرض (بتبادل ليلها ونهارها نتيجة لكرويتها ولدورانها حول محورها أمام الشمس) وكذلك تسخير كل من الشمس والقمر والنجوم بأمر الله لاستقامة الحياة في هذا الكون.

8 - نشر مختلف صور الحياة في الأرض، وتعدد أشكال سطحها وصخورها وعناصرها ومركباتها ومختلف الدورات فيها (دورة الماء، ودورة الحياة، ودورة الصخور.. إلخ).

9 - تسخير البحر للإنسان بما فيه من: أحياء ذات لحم طري، وهياكل تصلح لصناعة الحلي، وقدرة على حمل الفلك ذات الأحجام المختلفة جرياً بمصالح العباد تشق عباب مائه وما فوق الماء من هواء.

10 - إلقاء الجبال على الأرض رواسي لها كي لا تميد ولا تضطرب وإلا ما كانت صالحة للعمران، وارتباط تكونها بنبع الأنهار من قممها، وبتحرك تلك الأنهار من منابعها إلى مصابها ودور ذلك في تفتيت الصخور، وتكوين التربة، وتركيز العديد من



من مختلف دورات الحياة على الأرض دورة الماء وتجددها على سطح المعمورة، إذ تتعادل كميات الماء المتبخر مع كمية الأمطار.

المعادن والصخور النافعة والثروات الأرضية الأخرى، وفي تسوية سطح الأرض وشق الفجاج والسبل فيها.

11 - جعل تضاريس الأرض المختلفة علامات للاهتداء بها على اليابسة في وضح النهار، وجعل النجوم علامات للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

12 - إن الله - تعالى - هو خالق كل شيء، والمخلوقون لا قدرة لهم على الخلق.

13 - وصف عقاب بعض الأمم السابقة وصفاً ينطبق على ما تحدثه الزلازل في زماننا من قبل أن يدرك أحد من الخلق ميكانيكية حدوث تلك الهزات الأرضية.

14 - تأكيد أن الله - تعالى - خسف الأرض بالذين مكروا السيئات في الماضي وهو - سبحانه - قادر على أن يخسفها بهم في الحاضر والمستقبل، وفي ذلك تأكيد على أن

فهمنا لميكانيكية حدوث الكوارث الأرضية لا يخرجها عن كونها من جند الله، يسلطها على من يشاء من عباده عقاباً للعاصين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

15 - إن مد الظل وقبضه صورة من صور السجود التسخيري لله - تعالى - في خضوع وطاعة تامين.

16 - خلق اللبن في ضروع الأنعام من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

17 - جعل ثمرات النخيل والأعناب مصدراً للرزق الحسن، كما قد يسيء الإنسان استخدامها بجعلها مصدراً للسكر وفقدان الوعي.

18 - خلق حشرة النحل، ومنح إناثها القدرة على بناء بيوتها في الجبال، وفي الأشجار وفيما يعرش لها الناس، وعلى جمع كل من الرحيق وحبوب اللقاح من مختلف الزهور والثمار، وذلك عبر مسافات شاسعة دون أن تضل عن بيوتها، وعلى تحويل كل ذلك في بطونها إلى هذا الشراب المختلف الألوان والذي تقرر السورة الكريمة أن فيه شفاء للناس.

19 - الإشارة إلى دورة الحياة بين الخلق والوفاة (الموت)، والموت حق على كل حي، ومن الأحياء الإنسان الذي منه من يجري عليه القدر فيتوفى صغيراً، أو يافعاً، ومنه من يرد إلى أرذل العمر، ومن مظاهره الضعف والوهن وتناقص الذاكرة حتى فقدانها جزئياً أو كلياً.

20 - تقديم السمع على البصر في هذه السورة الكريمة وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم. والعلوم المكتسبة تثبت تقدم مراكز السمع في مخ الإنسان على مراكز البصر، حيث توجد مراكز السمع على جانبي المخ، وتوجد مراكز البصر في مؤخرة المخ.

21 - إن الله - تعالى - هو الذي يمسك الطيور مسخرات في جو السماء.

22 - الإشارة إلى أن من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده أنه جعل لهم مما خلق ظلالاً، وجعل لهم من الجبال أكناناً، وجعل لهم سرابيل تقيهم الحر وسرابيل تقيهم بأسهم، وكلها حقائق أثبتتها العلوم المكتسبة مؤخراً، وعبَّرت الآية الكريمة رقم (81) من سورة النحل بلفظة (الحَرّ) عن كل من الحر والبرد لأن كلاً منهما يمثل بدرجات حرارة إيجاباً أو سلباً.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الأخيرة من القائمة السابقة والتي عبرت عنها السورة الكريمة بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النّحل: 81].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

أولاً: في قوله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النّحل: 78]

على الرغم من أن جميع مراكز الحس تبدأ في التخلق في الجنين البشري منذ المراحل الأولى لوجوده إلا أنها لا تستخدم إلا بعد الميلاد؛ ولما كانت هذه هي وسائل التعلم عند الإنسان قال - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النّحل: 78].

فمن الثابت في دراسات الجنين البشري أن كلاً من قرص الأذن (The otic placode) والحويصلة البصرية يتخلقان في مرحلة العلقة في اليومين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من عمر الجنين، وطول الجنين في هذه المرحلة يتراوح بين (2,5) مم، (4,5) مم فقط، بينما يمكن تمييز بروز القلب بعد ذلك بيومين اثنين أي في اليوم السادس والعشرين والسابع والعشرين حين تظهر فتحتا الأذنين.

وبعد ذلك بيومين إلى ثلاثة أيام (أي في اليومين الثامن والعشرين إلى الثلاثين) تتخلق حويصلتا الأذنين، ويمكن تمييز قرصي عدستي العينين، وبعد ذلك بفترة مماثلة (أي في اليومين الحادي والثلاثين إلى الثاني والثلاثين من عمر الجنين) تظهر فتحتا عدستي العينين وينمو قرصاهما؛ وبعد يومين إلى أربعة أيام (أي بين اليومين الثالث والثلاثين والسادس والثلاثين من عمر الجنين) تتخلق حويصلتا عدستي العينين. وبعد ذلك بيوم واحد إلى سبعة أيام (أي في اليوم السابع والثلاثين إلى الأربعين من عمر الجنين) تتخلق الصبغة في شبكتي العينين، وتنمو برزتي الأذنين.

وفي حوالي الأسبوع السادس من عمر الجنين [اليوم (40) إلى (43)] وطوله يتراوح بين (11) مم - (14) مم يتم بروز الأذنين بشكل يحدد ملامح صوان الأذن، وتبرز الحويصلات المخية.



جنين في الأسبوع السادس من عمره وتبدو (في الأعلى) حويصلات المخ بارزة وقد تخلفت حويصلات الأذنين وتظهر فتحتا العينين بوضوح.

وبنهاية الشهر الخامس من عمر الجنين تكون أذناه الداخليتان قد تم تخلقهما بالكامل وأصبحتا قادرتين على القيام بكل وظائف السمع ومنها تلقي المؤثرات الصوتية وإرسالها إلى مراكز السمع في المخ لإدراكها بدون حاجة إلى كل من زوجي الأذنين الوسطى والخارجية واللتان يتم تخلقهما في الأسابيع من العاشر إلى العشرين من عمر الجنين حين ترتبطان بالأذنين الداخليتين. أما صوان الأذن فيكتمل تخلقه في الأسبوع الثاني والثلاثين من عمر الجنين.

وعلى ذلك فإن الحاسة الوحيدة التي تنشط والجنين لا يزال في بطن أمه هي حاسة السمع، ويبقى ذلك محدوداً بحدود سماع نبضات قلب أمه أو حركات كل من رئتيها وأمعائها دون أدنى وعي حقيقي بذلك، خاصة أن السوائل المحيطة بالجنين وهيكله العظمي - خاصة عظام الجمجمة - موصلة جيدة للموجات الصوتية فلا يسمع الجنين منها إلا طنيناً مضخماً لتلك الأصوات.

وبعد الميلاد فإن بقايا الأنسجة الظهارية (**Epithelial tissues**) والسوائل التي كانت تملأ كلاً من الأذنين الخارجية والوسطى، والجنين في بطن أمه سرعان ما تمتص بالكامل في خلال أيام قليلة يبدأ الوليد بعدها في سمع كل ما يدور حوله.

أما حاسة البصر فمن الثابت أن طبقة الشبكية الحساسة بالعينين فلا تكتمل صبغتها بالصباغ اللازمة للرؤية إلا في الأسبوع الخامس والعشرين من عمر الجنين، الذي لا تشق جفون عينيه إلا بعد وصوله إلى الأسبوع السادس والعشرين من عمره، ولا تتمكن ألياف الأعصاب البصرية من توصيل النبضات العصبية (أي النبضات العصبية للرؤية) إلى مراكز الإبصار في المخ إلا بعد إحاطة كل مليون منها بغمد خاص، ولا يتم ذلك إلا في الأسبوع العشر بعد الميلاد.

ولذلك فإن حديثي الولادة لا يستطيعون التمييز بين الظلام والنور، ولا يدركون إلا صوراً مهزوزة للأشياء التي ينظرون إليها.

وتتحرك عينا حديث الولادة دون أن يتمكن من تركيزهما على شيء محدد، ولا يستطيع إدراك ما ينظر إليه أو يتتبعه ببصره إلا في حدود الشهر الثالث بعد الميلاد، ولا يستطيع التعرف على ما ينظر إليه إلا في حدود الشهر السادس بعد الميلاد، وتستمر حاسة البصر في النمو حتى يصل الوليد إلى سن العاشرة بعد الميلاد.

كذلك يولد الإنسان بذاكرة ناصعة البياض، خالية من المعلومات، وتبدأ هذه الذاكرة في تلقي المعلومات السمعية حتى الشهر الثالث بعد الميلاد حين تبدأ هذه الذاكرة في تلقي المؤثرات الضوئية التي لا تستطيع وعيها تماماً إلا في الشهر السادس بعد الميلاد. ولذلك قال - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 78].

ثانياً: في قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: 78]

جاءت لفظة (سمع) بمشتقاتها في القرآن (185) مرة، وجاءت لفظة (بصر) بمشتقاتها (148) مرة، منها (88) مرة بمعنى رؤية الضوء، (60) مرة بمعنى التفكر والتعقل واستخدام البصيرة. كذلك جاءت لفظة (فؤاد) بمعنى «قلب القلب» بمشتقاتها (16) مرة؛ وجمع السمع البصر (39) مرة، وجمعت هذه الحواس الثلاث (7) مرات في القرآن الكريم.

وقد أثبتت دراسات علم الأجنة البشرية أن هذا الترتيب للحواس الثلاث هو نفس ترتيب استخدامها بواسطة الإنسان من مراحله الجنينية الأولى حتى مرحلة البلوغ.

فتخلق الجهاز السمعي في جنين الإنسان يمكن إدراكه بين الأسبوعين الثالث والرابع من عمر الجنين كما سبق وأن أشرنا، وذلك بظهور قرصي الأذنين في اليوم الرابع

والعشرين إلى الخامس والعشرين والجنين لا يزال في طور العلقة الذي لا يزيد طوله عن (2,5) مم إلى (4,5) مم.

ومن قرصي الأذنين تتخلق الأذنان الداخليتان، ثم يبدأ تخلق القوقعتين الغشائيتين بين الأسبوعين الرابع والثامن من عمر الجنين، ثم تحاط كل منهما بغلاف غضروفي يتم تخلقه في الأسبوع الثامن عشر، وبين الأسبوعين العشرين والحادي والعشرين من عمر الجنين تكون الأذنان الداخليتان قد تخلقتا بالكامل، وأصبحتا قادرتين على تلقي المؤثرات الصوتية ونقلها إلى منطقتي السمع بالمخ بدون حاجة إلى كل من الأذنين الوسطى والخارجية على كل جانب، وبتم تخلقهما في الفترة ما بين الأسبوعين العاشر والعشرين كما سبق وأن أشرنا، ثم يتصلا من كل جانب بالأذن الداخلية المقابلة لكل منهما. أما صوانا الأذنين فلا يكتمل نموهما حتى الأسبوع الثاني والثلاثين من عمر الجنين، وإن تحددت معالمهما منذ نهاية الأسبوع السادس.

وفي المقابل فإن الحويصلتين البصريتين تظهران مع تخلق قرصي الأذنين في منتصف الأسبوع الرابع من عمر الجنين، ويمكن تمييز قرصي عدستي العينين في أوائل الأسبوع



صورة حقيقية لوجه جنين في الأسبوع الثامن - ويبدو الأنف مفلطح وقد تحددت ملامح صوان الأذن وأيضاً فتحة العين.

الخامس وبنهايته يتم ظهور حويصلتي عدستي العينين. ومع بداية الأسبوع السادس يبدأ ظهور الأصباغ في شبكتي العينين، ولا يكتمل ذلك إلا في الأسبوع الخامس والعشرين من عمر الجنين، وتبقى جفون العينين مغلقتان غلقاً كاملاً حتى يبلغ الجنين أسبوعه السادس والعشرين حين تشق تلك الجفون عن العينين اللتين لا تريان شيئاً في الظلمة الكاملة المحيطة بهما، ولعدم اكتمال نمو الأعصاب البصرية التي لا تتمكن من توصيل نبضات الرؤية بكفاءة إلى منطقة الإبصار بالمخ إلا في الأسبوع العاشر بعد الميلاد، حين يتم جمع كل مليون من الألياف البصرية في غمد واحد لتكون عصباً بصرياً واحداً، مما يجعل الأعصاب البصرية أكثر تعقيداً من الأعصاب السمعية التي لا يضم الواحد منها أكثر من ثلاثين ألف خيط عصبي.

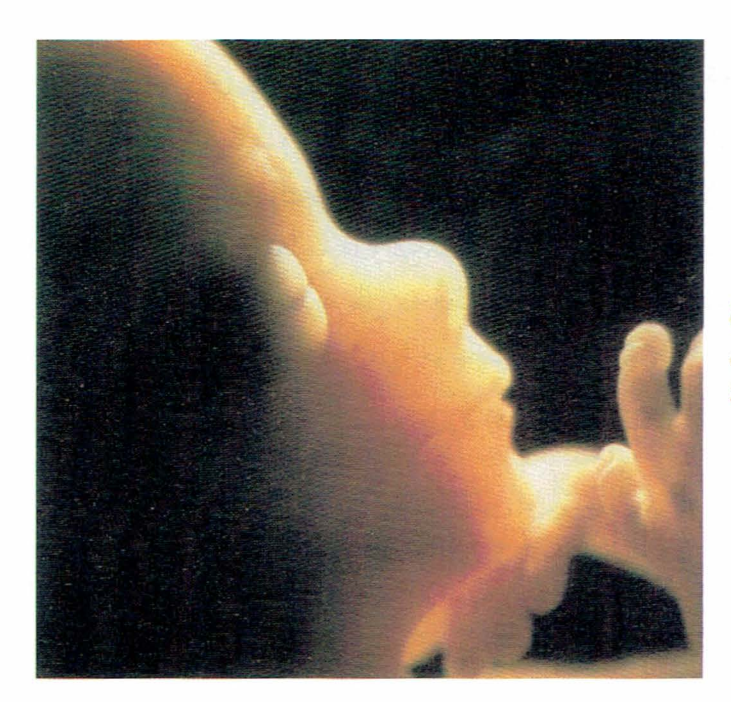
ومن الثابت أن الأعصاب البصرية تشكل ثلث مجموع الأعصاب الحسية في جسم الإنسان، وتقوم بحوالي (70%) من مجموع وعيه الحسي، بينما تقوم الأعصاب السمعية بحوالي 12 % فقط من ذلك المجموع الحسي.

من هذا الاستعراض يتضح ما يلي: الحكمة من الإشارة إلى السمع باستمرار قبل الإبصار في جميع آيات القرآن الكريم فيما عدا آيات العقاب، والآيات التي تشير الكفار والمشركين وذلك للأسباب التالية:

1 - لأن حاسة السمع يتم تخلقها وعملها قبل حاسة الإبصار بفترة طويلة. فبينما يبدأ الجنين بالسمع في الشهر الخامس من عمره وهو لا يزال في بطن أمه، فإنه لا يستطيع أن يميز الظلام من النور إلا في الأسبوع العاشر من بعد الميلاد، ولا يستطيع أن يتقن الإبصار إلا في سنته العاشرة من العمر.

2 - ثبت بالتجربة أن الطفل يتعلم بالسمع قبل أن يستطيع القراءة بوقت طويل، وأن تعلمه بالسمع أيسر من تعلمه بالنظر والقراءة، وأن المعلومات السمعية أبقى في الذاكرة من المعلومات المقروءة والمنظورة.

3 - أن البصر هو أول ما يغيب عن الإنسان من حواسه عند النوم، وفي حالات الغيبوبة ونقص الأوكسجين والتخدير وعند الغرغرة بالموت وأن آخر ما يغيب عنه من حواسه هو السمع، وحتى في الحركات الفجائية والخاطفة يفقد الإنسان البصر قبل السمع مرحلياً.



صورة لوجه جنين في الأسبوع الثالث عشر - وقد اكتمل تخلق العينين والجفون التي تبقى مغلقة لبضعة أشهر

4 - يستطيع الإنسان تلقي الأصوات (الموجات الصوتية) من جميع الاتجاهات والارتفاعات عبر (360) درجة من حوله، بينما يتلقى الموجات الضوئية إذا ثبَّت رأسه في مستوى واحد عبر (180) أفقية، (145) رأسية فقط، وتقل قدرته على تمييز الألوان كلما اتسعت دائرة الرؤية. والموجات الضوئية لا تستطيع اختراق الأجسام المعتمة ولا الالتفاف حولها، بينما تتحرك الموجات الصوتية في كل الاتجاهات، وحول الزوايا والأركان، وعبر العديد من الغازات والسوائل والجوامد، تبعاً لشدة الصوت.

5 - إن منطقتي السمع في المخ موزعتان فوق الأذنين مباشرة بالتساوي تقريباً وهما بذلك يتقدمان منطقة الإبصار التي توجد في مؤخرة المخ، فإذا أصيب أحد جانبي المخ فإن الإنسان لا يفقد السمع من أي من الأذنين، بينما يتوزع ارتباط نصف كل عين من العينين بالنصف المعاكس له من منطقة الإبصار في المخ، فإذا أصيب أي من جانبي المخ تأثرت العينان كل بنسبة النصف.

6 - من الثابت أن كلَّ من يولد بعاهة الصمم لا يستطيع الكلام أبداً، بل يبقى أبكماً طوال حياته، بينما الذي يولد كفيفاً يتعلم الكلام بسهولة ويسر عن طريق استخدام حاسة السمع، وقد ينبغ في ذلك نبوغاً يفوق فيه الإنسان العادي بدرجات كثيرة، وذلك بتحول

منطقة الإبصار في المخ إلى نشاط آخر من مثل قوة الذاكرة، شدة الذكاء، حدة النشاط العقلي، والقدرة على التفكير. ومن هنا يتضح فضل حاسة السمع على حاسة الإبصار.

7 - كذلك ثبت بالتجربة أن المعلومات التي يتلقاها الإنسان عن طريق السمع تصل إلى مراكز الوعي في المخ، وإلى مراكز الذاكرة فيه بطريقة أفضل من المعلومات التي يتلقاها بالنظر، ومن هنا حرص محفّظ القرآن الكريم في القديم والحديث على استخدام حاسة السمع في حفظه أكثر من حرصهم على استخدام حاسة البصر.

ب - الحكمة من ذكر السمع بالإفراد وذكر الأبصار بالجمع:

فعلى الرغم من وجود منطقتين للسمع في المخ تقع كل منهما فوق الأذن المقابلة لها مباشرة، فإن ارتباط الأذنين بكل من المنطقتين يجعل الإنسان يسمع بأذنيه شيئاً واحداً في الوقت الواحد، ومن هنا جاءت الإشارة إلى السمع بالإفراد. وقد أجريت تجارب كثيرة بوضع سماعتين فوق أذني شخص واحد، ثم الانطلاق من هاتين السماعتين بكلمتين قريبتي الجرس في آن واحد فلم يسمع إلا كلمة واحدة منهما، مما يؤكد على أن الإشارة إلى السمع (بالنسبة للإنسان الواحد) دوماً بالإفراد في القرآن الكريم هو من المعجزات العلمية العديدة في هذا الكتاب العزيز.

وعلى الرغم من وجود منطقة واحدة للإبصار في مؤخرة المخ، فإن ارتباط كل نصف عين من العينين بالنصف المعاكس له من منطقة الإبصار يمكن العين الواحدة من رؤية الشيء الواحد والعديد من الأشياء في آن واحد. ومن هنا جاءت كلمة الأبصار بالجمع والإفراد في القرآن الكريم، وذلك من معجزاته العلمية كذلك.

ج - الحكمة من ذكر كل من السمع والأبصار قبل ذكر الفؤاد:

(الفؤاد) هو «قلب القلب»، وهو مركز الإدراك والتمييز، وكان الأطباء يعتقدون إلى عهد قريب أن القلب هو مجرد مضخة تقوم بضخ الدم الفاسد إلى الرئتين لتنقيته، ثم تستقبل منهما الدم المؤكسد لإعادة توزيعه على جميع أجزاء الجسم وأولها المخ الذي لو تأخر ضخ الدم إليه لثوان معدودات لهلك صاحبه.

ولكن القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمئة سنة يصف القلوب بأوصاف عديدة توحي بأن لها وظائف كبرى غير ضخ الدم، ومنها الوصف بالسلامة، والإنابة، والاطمئنان، والخشوع، والإيمان، والهداية، واللين، والتقى، والصفاء، والطهارة،

والرأفة، والرحمة، والخير، والسكينة، والقدرة على التعقل والفهم، والفقه، وتلقي الروح والإلهام، كما يصفها بالقسوة، والإثم، والعمى،والزيغ، والغفلة، والمرض، والغل، والتقلب، والحسرة، والحمية، والنفاق، والرياء، والإنكار، والغيظ، والرعب، والاشمئزاز، والخوف، والوجل، والتعمد، والإقفال، والختم، أو الطبع عليها، وبغير ذلك من الصفات التي تستوجب قدراً من الوعي، والذاكرة، والشعور، والانفعال، والتعبير، والعاطفة، والقدرة على اتخاذ القرار، وهو ما لم يستطيع الأطباء فهمه من قبل. ثم جاءت الأبحاث الطبية في نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين لتثبت أن كل جراحة بالقلب أفقدت صاحبه قدراً من الذاكرة، ثم جاءت عمليات نقل القلب لتؤكد حدوث تغيرات في شخصية كل فرد تمت له عملية زرع قلب اكتسبها من القلب المنقول إليه كما فصل ذلك (بول بيرسال) في كتابه المعنون «شيفرة القلب»:

[Pearsall, paul (1998), (2002): "The Hearts Code" Broadway Books, N.Y., New York, U.S.A] .

ومن قبله أشار «أندرو آرمور» في سنة (1991م) إلى أن هناك عقلاً صغيراً في القلب، يتكون من شبكة من الخلايا العصبية والناقلات الكيميائية والبروتينات والخلايا الأخرى الدائمة، وأن هذا القلب الصغير (أو الفؤاد) يعمل باستقلالية عن خلايا المخ في التعلم والتذكر والإحساس. وعلى ذلك فإن الخلايا العصبية في القلب المنقول إلى شخص آخر، وكذلك المستقبلات في غشائه البروتيني (الصفاق) ترسل إشارات من ذاكرتها القديمة إلى مخ الشخص الذي تم نقل القلب إليه فتعطيه من الذاكرة والعواطف والمشاعر والأحاسيس والمواهب ما لم يكن عنده من قبل.

ثم ظهر سيل من الكتابات بعد ذلك منها المرجعان التاليان:

1 - Claire, Sylvia (1997): "A Change of Heart" Little Brown and Co., Bouston, U.S.A.

2 - Linton, Kate Ruth (2003): "Knowing By Heart: Cellular Memory in Heart Transplan" Montgomery College Journal of Science and Mathematics vol.z, September, 2003.

وتحدثت هذه الأبحاث عن أن القلب يرسل إلى المخ من الإشارات أكثر مما يتلقى منه، وذلك من خلال كل من النبضات والناقلات العصبية، والهرمونات، وكل من المجال المغنطيسي والكهربي للقلب واللذان يفوقان المجال الكهرومغناطيسي للمخ بعدة عشرات المرات. وقد أثبتت هذه الدراسات أن المعلومات تنتقل بين القلب والعقل

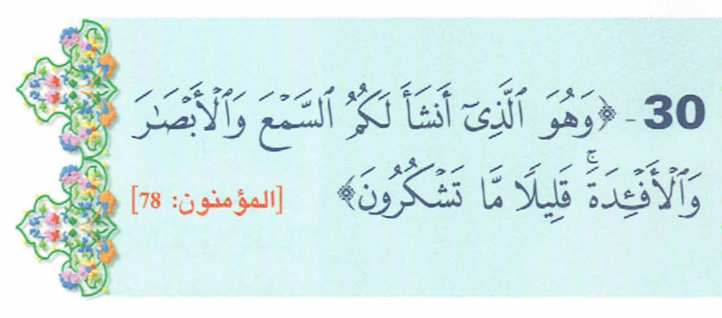
بانتظام مما يجعل من هذه الصلة ما يمكن التعبير به عن «الفؤاد» أو «قلب القلب»، وما يثبت جميع الأوصاف القرآنية التي أثبتها هذا الكتاب العزيز للقلب.

ولما كانت هذه الأوصاف هي نتاج المعرفة التي من وسائلها كل من السمع والبصر تتضح ومضة الإعجاز العلمي في قول ربنا تبارك - وتعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

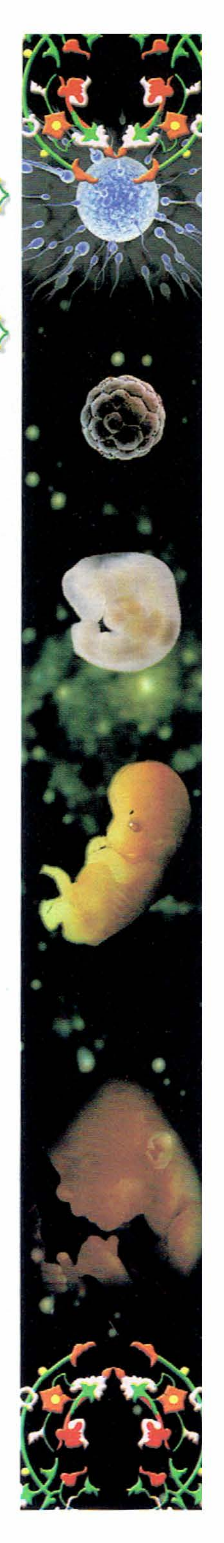
فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام الذي بعثه الله - تعالى - بالحق بشيراً ونذيراً إلى الخلق أجمعين حتى يوم الدين، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



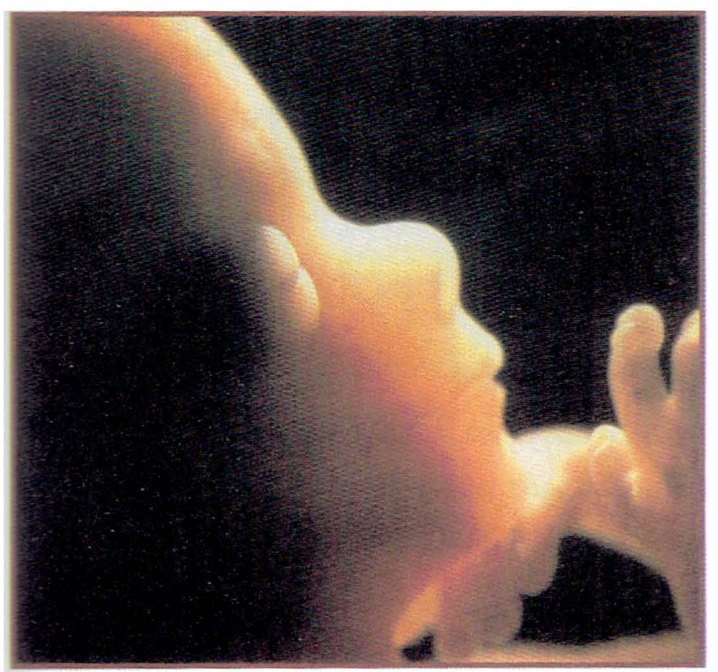
30 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78]



هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من «سورة المؤمنون»، وهي سورة مكية، وعدد آياتها ثماني عشرة ومائة (118) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم الكريم لإشادتها منذ مطلعها بالمؤمنين من خلق الله المكلفين، وقد استعرضت عدداً من صفاتهم النبيلة تجسيداً للنموذج الذي يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده الصالحين، وقد سبق لنا استعراض سورة «المؤمنون» ولا أرى حاجة إلى تكرار ذلك هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

من نعم الله - تعالى - على الإنسان الحواس التي وهبه إياها، وفي مقدمتها نعم السمع والإبصار والأفئدة والتي يمتن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بإنشائها في هذه الآية الكريمة، وفي العديد غيرها من آيات القرآن الكريم وقد جاءت بهذا الترتيب في سبعة مواضع من القرآن الكريم هي: [الإسراء: 37؛ النحل: 78؛ المؤمنون: 78؛ السجدة: 9، الأحقاف: 26 مكررة؛ الملك: 23]. كذلك جاء ذكر كلمة (**السمع**) بمشتقاتها وتصاريفها في القرآن الكريم (185) مرة، بينما جاء ذكر كلمة (**البصر**) بمشتقاتها وتصاريفها (148) مرة، وجاء ذكر لفظة (الفؤاد) **بمشتقاتها وتصاريفها (16) مرة. وترافقت كلمتا (السميع)** و(**البصير**) في (38) آية كريمة، كذلك تلازمت كلمتا (العمى) و(الصم) في ثماني آيات.

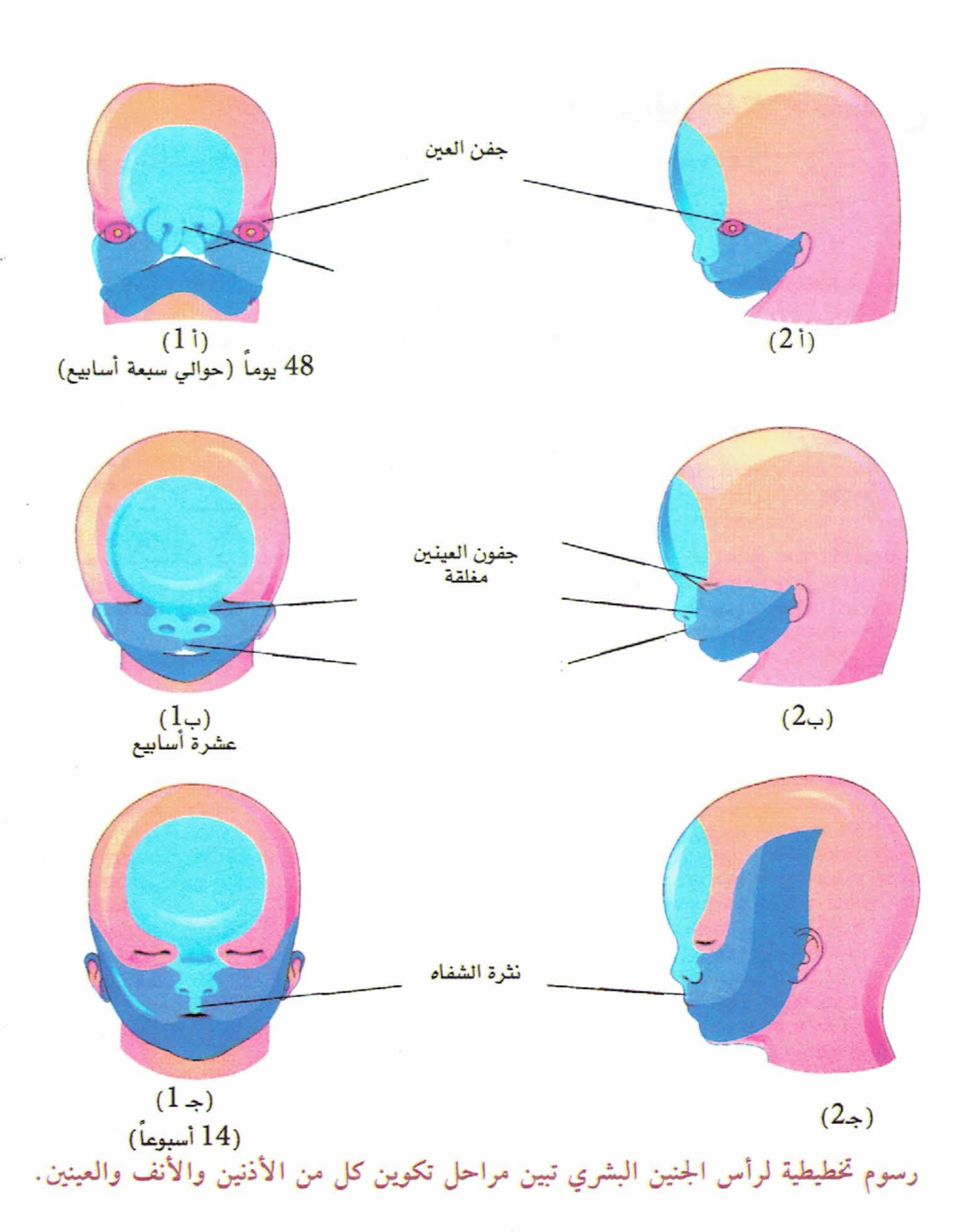


في الأسبوع الثالث عشر من عمر الجنين البشري يكتمل تكوين العينين وتبقى الجفون مغلقة لعدة شهور.

وفي كل هذه الحالات جاء ذكر (السمع) قبل (البصر) كما جاء ذكرهما قبل (الفؤاد) وذلك فيما عدا عدداً قليلاً من آيات العذاب أو الإنذار به أو آيات وصف الكفار والمشركين دون إشارة إلى خلق هاتين الحاستين أو وصف لوظيفة كل منهما فتقدم فيها ذكر (البصر) على ذكر السمع. ولتعليل ذلك قال عدد من المتخصصين منهم: الأستاذ الدكتور صادق الهلالي، د. حسين اللبيدي، د. عدنان الشريف، د. محمد علي البار، د. عبد السلام المحسيري وغيرهم. ما يلي:

1 - إنه على الرغم من أن تكوّن حاستي السمع والبصر متزامن تقريباً في المراحل الجنينية الأولى إلا أن الأذن الداخلية للحميل تصبح قادرة على السمع في شهره الخامس تقريباً، بينما العين لا تفتح، ولا تتكون طبقتها الحساسة للضوء إلا في الشهر السابع من عمره، وحتى في هذا الوقت لا يستطيع الحميل أن يرى لعدم اكتمال تكون العصب البصري، ولكونه غارقاً في ظلمات ثلاث.

2 - كذلك يمكن للجنين أن يسمع الأصوات بعد بضعة أيام من ولادته، وذلك بعد امتصاص كل السوائل وفضلات الأنسجة المتبقية في أذنه الوسطى والمحيطة بعظيماتها. أما حاسة البصر فتكون ضعيفة جداً عند الولادة أو معدومة، وتتحسن هذه الحاسة



رسوم تخطيطية لرأس الجنين البشري تبين مراحل تكوين كل من الأذنين والأنف والعينين.

بالتدريج في الشهرين الثالث والرابع بعد الولادة وحتى الشهر السادس، وتستمر حاسة البصر في النمو عند الوليد حتى سن العاشرة.

3 – إن المنطقة السمعية في المخ تتكامل عضوياً قبل المنطقة البصرية في مراحل الحميل وحتى بعد الولادة، ولذلك يكتسب الطفل المعارف الصوتية قبل المعارف المرئية.

4 - إنه من الثابت علمياً أن الإنسان يفقد حاسة البصر قبل فقدانه حاسة السمع عند بدء النوم أو التخدير أو الاختناق، أو عند الاحتضار.

5 - اتساع الساحة السمعية إلى 360°، واقتصار الساحة البصرية على 180° في المستوى الأفقي، 145° في الاتجاه العمودي. وكذلك فإن الموجات الصوتية تسير في جميع الاتجاهات، ويمكنها الالتفاف حول الزوايا، والانتقال عبر السوائل والأجسام الصلبة، بينما أشعة الضوء على الأرض تسير في خطوط مستقيمة، ولكنها لا تستطيع اختراق الجوامد، وتتحلل إلى أطيافها في السوائل وتمتص طيفاً بعد الآخر.

6 - إن مراكز السمع لكل أذن موجودة في جهتي المخ الجانبيتين فوق الأذنين تقريباً، فإذا أصيب الإنسان في أحد نصفي الدماغ فلن يفقد السمع في أي من أذنيه، وعلى العكس من ذلك فإن كل من نصفي العين الواحدة تقع مراكزه على جهة المخ الخلفية المعاكسة لها، فإذا ما أصيب الدماغ في أحد نصفيه ضعف البصر في نصفي عينيه المعاكسين لجهة الإصابة.

7 - إن المولود الذي يولد فاقداً لحاسة السمع لا بد له من أن يصبح أبكماً بالإضافة إلى صممه، أما الذي يولد فاقداً لحس البصر فإن ذلك لا يعوقه عن تعلم النطق، ومن هنا كان تلازم الوصف: (صم، بكم) في أكثر من آية قرآنية كريمة من مثل [البقرة: 17، 18].

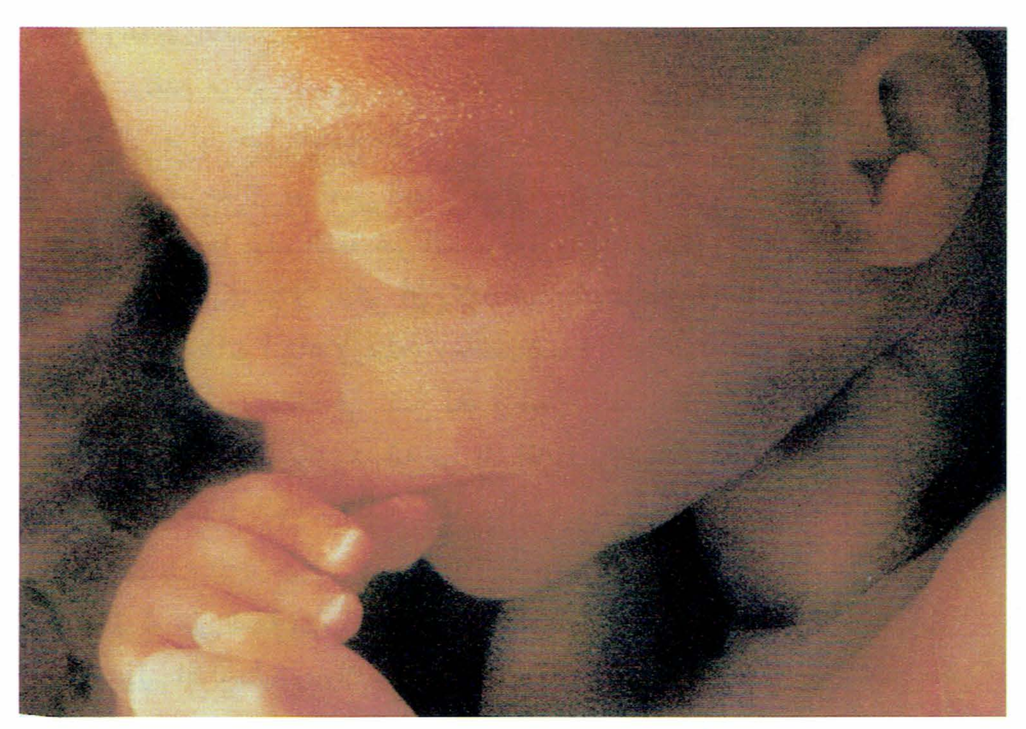
8 - إن المولود الفاقد لحاسة البصر يتميز عادة بذاكرة واعية وذلك لأن مراكز الإبصار في المخ ترتبط وظيفياً مع المناطق الارتباطية الأخرى فتزيد من قابلية الدماغ على الحفظ والتحليل والاستنتاج والتذكر. ولأسباب غير معروفة لا تقوم مراكز السمع في المخ بعمل ذلك، ولذلك نَبَغَ كثيرون ممن فقدوا حاسة البصر، ولم ينبغ أحد ممن فقدوا حاسة السمع إلا نادراً، مما يدل على أهمية حاسة السمع، وأهمية مراكزها في المخ.

9 - إن الأحاسيس الصوتية تصل مستوى الوعي عند الإنسان بأفضل مما تصله عن طريق حاسة أخرى كالبصر، وذلك لأن الذاكرة السمعية في الإنسان أرسخ من الذاكرة البصرية، وتعطي من المدلولات والمفاهيم ما لا تعطيه الذاكرة البصرية ورموزها.

10 - إن الآيات القرآنية الكريمة دوماً ترتب العين قبل الأذن، وذلك للسبق المكاني لكل من العينين للأذنين في موضعهما من وجه الإنسان، بينما تقدم الآيات ذكر حس

السمع على حس البصر، وذلك لتقدم مركزي السمع في مخ الإنسان على مراكز البصر حيث يوجد مركزا السمع في فصين جانبيين من المخ، بينما توجد مراكز البصر خلف المخ. وبذلك فرَّق القرآن الكريم بين أعضاء التلقي ومراكز الحس في المخ، وذلك لأن وظيفة أعضاء التلقي كالعين والأذن هي نقل المؤثرات الحسية إلى مراكزها في المخ حيث تدرك.

11 - يستخدم القرآن الكريم حاستي السمع والبصر بمعنى ما يحملانه إلى العقل من معلومات يترتب عليها الفهم، وتقليب الفكر حتى يصل إلى إدراك ما لا يمكن إدراكه إلا بذلك، ومن هنا كانت الإشارة من بعد السمع والبصر إلى الفؤاد وهو رباط القلب بالعقل، مما يعين على التفهم والتروي والوصول إلى شيء من الحكمة إذا أحسن الإنسان الاستخدام لحواسه، أو الوصول إلى الخلط والارتباك وسوء الاستنتاج إن لم يحسن المرء استخدام ما وهبه الله - تعالى - من حواس.



صورة حقيقية لجنين بشري في الأسبوع الرابع عشر من عمره توضح تزامن تكوّن كل من الأذنين والعينين إلا أن المنطقة السمعية تكتمل عضوياً قبل المنطقة البصرية، مع بقاء جفون العينين مغلقة تماماً.

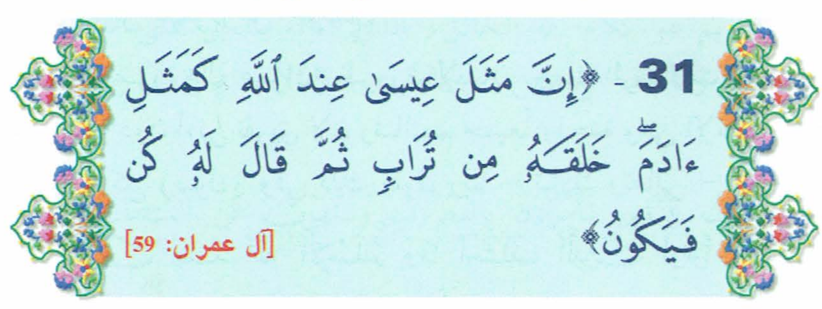
فسواء كان للإنسان أذن تسمع، وعين ترى أو لم يكن له فإنه قد يكون سامعاً مبصراً متى كان له فؤاد يتبصر به أموره، وينظر فيها بشيء من التروي والترتيب وحسن الحكم. أما إذا فسد قلبه أو تلف عقله فإنه يخرج عن شروط الإنسان المكلف فيسقط عنه التكليف ولو كانت له أذن تتلقى المؤثرات الصوتية، وعين تنظر إلى الضوء وإلى الأشياء التي يسقط الضوء عليها، ولذلك جاءت كلمة الفؤاد في القرآن الكريم دوماً بعد السمع والبصر بينما تأتي الإشارة إلى القلب بغير ترتيب ثابت. وتعبير (الفؤاد) يشير إلى عدد من المعاني التي تدور حول العواطف والغرائز والأحاسيس، بينما تعبير (القلب) يشير إلى معاني العقل والتفقه والنظر وتقليب الفكر.

12 - أن الرؤى المنامية يسمع فيها النائم الأصوات، ويرى المشاهد بغير وسائط الأذنين والعينين، مما يشير إلى قوى إدراكية أخرى غير أعضاء ومراكز الحس المعروفة.

هذه النقاط تبين بوضوح دقة القرآن الكريم في التمييز بين **أعضاء التلقي** كالأذن والعين، و**مراكز الإحساس** في العقل والقلب. كما تبين الحكمة من تقديم العين على الأذن، وتقديم السمع على البصر، وذلك لتقدم العين في موقعها المكاني من وجه الإنسان، وتقدم مراكز السمع على مراكز البصر في مواقعها المكانية من المخ. هذا بالإضافة إلى مزايا حس السمع على حس البصر، ولأسبقيته في التطور العضوي والأداء الوظيفي، وهذه حقائق لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها بهذه الدقة غير المسبوقة، وهذا التفصيل الدقيق مما يثبت لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه حفظاً كاملاً: كلمة كلمة وحرفاً حرفاً بكل ما فيه من إشراقات نورانية، وعلوم ربانية، وحقائق كونية حتى يشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، ويبقى شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن والحمد لله على بعثة سيد الأنام - صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



31 - ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]



هذه الآية الكريمة جاءت في نهاية الثلث الأول من سورة «آل عمران»، وهي سورة مدنية، ومن طِوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها مائتي آية بعد البسملة. وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى قصة امرأة عمران، وابنتها السيدة مريم أم عبد الله ونبيه عيسى عليه السلام، كما تروي معجزة ميلاده من أم بغير أب، وتذكر عدداً من المعجزات التي أجراها الله - تعالى - على يديه، شهادة له بالنبوة وبالرسالة.

ويدور المحور الرئيس لسورة «آل عمران» حول حوار أهل الكتاب لتحديد عدد من ركائز العقيدة الإسلامية وتشريعاتها.

وتستفتح السورة الكريمة بالحروف المقطعة الثلاثة «الٓمٓ» التي جاءت في مطلع ست من سور القرآن الكريم - وقد سبق التعليق على هذه المقطعات -.

ويدور أكثر من ربع السورة (من الآيات 18 - 85) **في حوار أهل الكتاب** ممثَّلين في وفد نصارى نجران الذي كان قد قدم المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة من أجل محاورة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. وبالإضافة إلى تفنيد عقيدة النصارى، فإن هذه الآيات الكريمة تتضمن الإشارة إلى اليهود، وإلى خبث نواياهم، وكراهيتهم للحق وأهله، وتآمرهم على غيرهم من الأمم، ومكرهم وخداعهم، كما تتضمن تحذير المسلمين منهم ومن دسائسهم

ومؤامراتهم، ومؤامرات غيرهم من أهل الكفر والشرك والضلال الذين يدعمونهم، وأهل النفاق الذين يلتفون من حولهم.

وتؤكد سورة «آل عمران» ضرورة الإيمان بجميع الرسالات السماوية، وبجميع أنبياء الله ورسله دون أدنى تفريق لأن رسالتهم جميعاً واحدة وهي الإسلام العظيم الذي بُعِثَ به كل نبي وكل رسول، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].

ويقول - عز من قائل -:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

ومن خطابه إلى أهل الكتاب في هذه السورة المباركة نختار قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

وبعد ذلك تحدثت الآيات عن عقاب المُرتدِّين، وحكم الله - تعالى - فيهم، ودعت إلى الإنفاق في سبيل الله، وحذرت من تحريف اليهود للتوراة، وأمرت باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

وأشارت السورة الكريمة إلى **الكعبة المشرفة** بصفتها أول بيت وضع للناس، وأكدت **فريضة الحج** على المستطيع من المسلمين، **وكررت من عتاب أهل الكتاب، كما عتبت على كفار قريش كفرهم وضلالهم** بينما آيات الله تتلى عليهم وفيهم خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، **وأوصت بتقوى الله** ﷻ في السر والعلن، وبضرورة **الاعتصام بحبله جميعاً**، ونهت عن فرقة الكلمة، **وذكَّرت العباد بِنِعَم الله - تعالى - عليهم، ودعت إلى نفرة أمة الإسلام للدعوة إلى الخير**، وإلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفت الذين يستجيبون لهذا النداء الإلهي بأنهم هم المفلحون.

وتحدثت سورة «آل عمران» عن مصير وجزاء كلٍّ من المؤمنين والكافرين في الآخرة، وأكدت أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بالحق على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأنه هدى وموعظة للمتقين. وخاطبت أمة الإسلام بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .﴾ [آل عمران: 110] .

وبعد ذلك انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة أحد، وما أصاب المسلمين فيها من انكسار بسبب مخالفتهم لأوامر رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، وذكَّرت بانتصارات بدر، وبمبررات ذلك الانتصار، وصاغت تلك الأحداث صياغة ربانية معجزة لا تتوقف عند حدود وصف المعركتين وصفاً مجرداً، ولكن تتجاوز ذلك إلى توجيهات ربانية دائمة في بناء الجماعة الإسلامية، وتوضيح سنن الله في النصر والهزيمة إلى يوم الدين، مؤكدة أن ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 109]، وأن الله تعالى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وأنه غفور رحيم. **وتنهى هذه السورة الكريمة عن أكل الربا، وتحذر من عذاب النار، وتأمر بطاعة الله ورسوله، وبالمسارعة إلى طلب المغفرة من الله، وسؤاله الجنة** التي أعدت للمتقين الذين أوردت شيئاً من صفاتهم، وتوصي بالسير في الأرض من أجل الاعتبار بعواقب المكذبين الذين كذبوا رسل الله وحاربوا دينه وأولياءه.

ثم تعاود سورة «آل عمران» إلى **التذكير بغزوة أحد** في مواساة رقيقة للمسلمين، مؤكدة لهم أنهم هم دائماً الأعلون ما داموا على إيمانهم بالله، على الرغم من تعرُّضهم لشيء من النكسات في بعض الأوقات، **لأن النصر والهزيمة من سنن الله في الحياة لكل منها قوانينه**، وأن الأيام دول يداولها الله ﷻ بين الناس لحكمة يعلمها بعلمه المحيط لعل منها أن يتخذ من المؤمنين شهداء، وأن يميِّز المؤمنين من المنافقين، وأن يطهر المؤمنين بشيء من الابتلاء والتمحيص مما قد يقعون فيه من الذنوب، ويهلك كلاً من الكافرين والمشركين والطغاة المُتَجَبِّرين بذنوبهم، والله - تعالى - لا يحب الظالمين المعتدين على غيرهم، كما لا يحب المتخاذلين في الدفاع عن دمائهم، وأعراضهم، ومقدساتهم، وممتلكاتهم، وأراضيهم، وعن الحق وأهله. وهذا الخطاب كما كان لرسول الله ﷺ وأصحابه وأهل زمانه، هو خطاب لكل من آمن به من بعده إلى يوم الدين.

وتؤكِّد هذه السورة الكريمة بشرية سيدنا محمد ﷺ وأنه «رسول قد خلت من قبله الرسل» لا يجوز لأي ممن آمن به واتبعه أن يرتد عن ذلك بعد موته، فرسالته خالدة، باقية إلى يوم الدين لأن الله - تعالى - قد تعهد بحفظها حفظاً مطلقاً. وتؤكد الآيات أن من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، ولكنه يهلك نفسه بتعريضها لسخط الله وعذابه.

وتنتقل الآيات إلى الحديث عن قضية الأجل مؤكدة أن الله - تعالى - قد جعل لكل نفس أجلاً محدداً لا تموت إلا عنده، وقد جعل الله - تعالى شأنه - الأجل غيباً لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى حتى لا تتوقف عجلة الحياة، وحتى يتجاوز المسلم حاجز الخوف من الموت فيتقدم إلى مواكب الشهادة في سبيل الله دون وجل أو مهابة.

وتؤكد الآيات في سورة «آل عمران» أن من قصد بعمله أجر الدنيا أعطاه الله إياه، وليس له في الآخرة من نصيب، وأن من قصد بعمله أجر الآخرة أعطاه الله - تعالى- أجري الدنيا والآخرة. وأن الله سبحانه وتعالى يجزي عباده بحسب شكرهم لنعمه، واعترافهم بعظيم فضله، وإن كانت هذه أحكاماً عامة إلا أن فيها تعريضاً واضحاً بمن رغبوا في غنائم الحرب أثناء شدة القتال في غزوة أحد فتسببوا في عدم إتمام النصر الذي بدا في أول الأمر محققاً للمسلمين.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن العلماء الربانيين، والمجاهدين الصادقين الذين قاتلوا مع أنبياء الله ورسله من أجل إعلاء دين الله وإقامة عدله في الأرض، فقُتِل منهم من قُتِل شهيداً، وأُصيب من أصيب، ولكنهم لم يذلوا لعدوِّهم أبداً، ولم يخضعوا له، واحتسبوا وصبروا في كل ما مر بهم من الشدائد والمِحَن ولذلك امتدحهم القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: 146-148].

وتعاود السورة المباركة إلى التحذير من موالاة أي من الكافرين أو المشركين، مؤكدة أن الله - تعالى - هو مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين الذي يَعِدهُم النصر بقوله الحق:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] .

ومرة أخرى تستعرض الآيات (152 - 175) من سورة «آل عمران» أحداث معركة أحد بهدف تربية المسلمين، وتحذيرهم من مزالق الطريق، وتنبيههم إلى ما يمكن أن يحيط بهم من كيد الكفار والمشركين كالذي أحاط بهم في القديم، والذي يحيط اليوم بجميع المسلمين، وفي ذلك يحاول الشيطان أن يعين أولياءه كي يجعل منهم مصدر إرهاب وتخويف للمؤمنين، والخوف لا يجوز أن يكون إلا من رب العالمين.

وتطلب الآيات من رسول الله ﷺ ألا يحزن على الذين يسارعون في الكفر لأنهم لن يضروا الله شيئاً في الوقت الذي يضرون أنفسهم ضرراً بليغاً، ويريد الله سبحانه وتعالى ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، ولهم عذاب عظيم. وإمهالهم في الدنيا، والتمكين لهم فيها ليس من صالحهم وإنما هو العكس من ذلك تماماً لازديادهم في المعاصي والآثام مما يجعلهم أهلاً لمضاعفة العذاب في الآخرة. وعلى النقيض من ذلك فإن ابتلاء الله لصفوف المؤمنين إنما هو ليميز الخبيث من الطيب (والله - تعالى - أعلم بهم)، وليظهر ذلك لمن يشاء من عباده كي يكون فيه العبرة والدرس لهم، كما فعل في معركة أحد، وفي ذلك يقول:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179] .

وتدعو الآيات إلى الإيمان بالله وتقواه، وببذل المال في سبيل الله، وتتوعَّد الذين يبخلون بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180] .

ثم تعاود الآيات إلى ذكر شيء من جرائم اليهود المروِّعة، ودسائسهم الخبيثة،

وأساليبهم الملتوية، وتطاولهم الكاذب على الله - تعالى - وعلى غيرهم من الخلق، ومحاربتهم لدين الله، وأوليائه وأنبيائه، ورسله، ونقضهم العهود والمواثيق، ونشرهم المعلومات الكاذبة والأباطيل والأساطير، والإشاعات المختلقة المزيفة، والادعاءات الباطلة - قاتلهم الله -.

وتنطلق الآيات إلى تأييد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في وجه المكذبين لدعوته ولبعثته الشريفة فتقول:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184].

وتؤكد السورة الكريمة أن الفناء هو مصير الخلائق، وأن الموت مكتوب على كل نفس، وأن جزاء الأعمال سوف يُوفَّى كاملاً يوم القيامة، وأن الابتلاء من سنن الحياة، ولا يملك الإنسان في مواجهته أفضل من الصبر والاحتساب عند الله وتقواه، وذلك كله من عزم الأمور.

وتعاود الآيات للمرة الثالثة إلى استعراض بعض مخازي بني إسرائيل ومنها كتم ما أُنزل عليهم، ونبذه وراء ظهورهم، وبيعه بالحقير من حطام الدنيا الفانية.

وتختتم سورة «آل عمران» بتوجيه الناس جميعاً إلى التأمل في خلق السمٰوات والأرض، واستخلاص شيء من صفات الخالق العظيم بالتعرف على بديع صنعه في خلقه، وتدعوهم لتكثيف الدعاء إلى الله - تعالى - والرجاء من فضله بالنجاة من النار، ومن خزي يوم القيامة، والضراعة إليه - تعالى - بطلب المغفرة من الذنوب، وتكفير السيئات، ورفع الدرجات، والاستجابة إلى كل ذلك من فيض كرمه سبحانه وتعالى.

وفي ختام هذه السورة المباركة أيضاً يأتي الخطاب إلى رسول الله ﷺ وإلى جميع المسلمين من بعده ألا يغتروا بتقلب الذين كفروا في البلاد في شيء من النعم المادية والجاه والسلطان، وذلك لأن متاع الدنيا قليل، ومن ثم لا بد أن ينتهي بهم إلى جهنم وبئس المصير، بينما الصالحون المتقون قد يعيشون في الدنيا عيشة الفقراء، وحياة الابتلاء ثم تنتهي بهم هذه الحياة إلى نعيم الآخرة الأبدية الخالدة وما أعد الله - تعالى - لهم فيها من خير كثير.

وتعاود السورة الكريمة في ختامها إلى التذكير بأن الذين اهتدوا من أهل الكتاب، وآمنوا بخاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وبالقرآن الكريم الذي أُنزِل إليه، فمنَّ الله سبحانه وتعالى عليهم

بالخشوع لجلاله، والخضوع لأوامره، واجتناب نواهيه، والاعتزاز به وتعظيمه، فأكرمهم بأن لهم أجرهم عند ربهم.

وتقفل سورة «آل عمران» بوصية من الله - تعالى - إلى عباده المؤمنين يقول لهم فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

[آل عمران:200].

وصدق الله العظيم لأن هذه الوصايا الربانية هي عدة المؤمن في مواجهة أهل الباطل في كل عصر وفي كل حين.

من ركائز التشريع في سورة «آل عمران»:

أولاً: تحريم ما يلي:

1 - اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وهو محرم تحريماً قاطعاً.

2 - افتراء الكذب على الله - تعالى - أو الاستهانة بعهوده وأيمانه وهو محرم كذلك.

3 - الردة عن الإسلام لأنها كفر بالله ورسوله، وللمرتد أن يستتاب فإن تاب بصدق قَبِلَ الله توبته، وإن لم يتب فإنه يموت على الكفر، ويخلد في النار أبداً، وما له من ناصرين.

4 - أكل الربا لأنه من السبع الموبقات المهلكات المعروفات بالكبائر.

5 - التولي يوم الزحف لأنه من الكبائر كذلك.

6 - الأخذ من الغنيمة خلسة (الغلول) لأن من يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة.

7 - النفاق لأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً.

ثانياً: إيجاب ما يلي:

1 - الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله قدر الاستطاعة.

2 - الأمر بحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً دون تراخ أو تأخير.

3 - تحكيم الشورى كقاعدة إسلامية للحكم في كل أمر من أمور المسلمين.

4 - مداومة الحث على الجهاد في سبيل الله - تعالى - والترغيب في الاستشهاد من أجل إعلاء شأن الدين، وإقامة عدل الله في الأرض.

من ركائز العقيدة في سورة «آل عمران»:

1 - الإيمان بالله - تعالى - رباً واحداً أحداً (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد)، وتنزيهه تنزيهاً كاملاً عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، واليقين بأن الله ﷻ هو الحي القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنّه - تعالى - هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء، وأنه هو العزيز الحكيم، وهو البصير بالعباد، ومالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأن النصر منه وحده، يؤيد بنصره من يشاء، وأن الهدى هداه، وأن الفضل العظيم بيده يؤتيه من يشاء، وأنه واسع عليم، يختص برحمته من يشاء، وهو رؤوف بالعباد، وهو عزيز ذو انتقام، وأنه لا يخلف الميعاد.

2 - التصديق بالوحي الذي أنزله ربنا - تبارك وتعالى - على فترة من الرسل، وأتمه، وأكمله، وحفظه في رسالته الخاتمة المصدقة لما سبقها من صور الوحي والمهيمنة عليها، وعلى ذلك فإن الإيمان بها وبالرسول الخاتم الذي جاء بها مكمل للإيمان بوحي السماء.

3 - التسليم بأن القرآن الكريم يضم بين آياته المحكم والمتشابه.

4 - اليقين بأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الله - تعالى - جامع الناس ليوم لا ريب فيه، مما يجسد حقيقة الآخرة بل حتميتها، وحقيقة ما ذكر القرآن الكريم عنها وعما سوف يصاحبها من مشاهد وأحداث منها البعث، والحساب، والجنة والنار، وأن الجنة مثوى المتقين الذين تبيضُّ وجوههم في الآخرة، وأن النار مثوى الكافرين الذين تسودُّ وجوههم في هذا اليوم العصيب.

5 - الإيمان بأن الدين عند الله الإسلام، وأن أهل الكتاب لم يختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، وأنه من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

6 - التسليم بضرورة طاعة الله - تعالى - والاعتصام بحبله المتين، وطاعة خاتم أنبياء الله ورسله ﷺ، والالتزام بسنته وهديه.

7 - التصديق بأن أمة الإسلام هي خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله - تعالى - فإن لم تلتزم بذلك فقدت هذه الخيرية.

من الآيات الكونية في سورة «آل عمران»:

1 - الإشارة إلى أن الله - تعالى - هو الذي يصوِّر الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء.

2 - التعبير عن كلٍّ من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بظاهرتي ولوج الليل في النهار، وولوج النهار في الليل.

3 - تشبيه دورة الحياة والممات والبعث بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في حياتنا الدنيا.

4 - التأكيد على خلق كلٍّ من آدم وعيسى ابن مريم عليهما السلام من تراب، ثم قيام كل منهما بالأمر الإلٰهي: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47].

5 - ذكر حقيقة أن.. ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 96]، بمعنى أول بيت على الإطلاق، وأنه لم يضعه الناس، بل وضعته الملائكة انتظاراً لخلق أبينا آدم عليه السلام.



صورة حقيقية للأرض من الفضاء تظهر نصفها المنير وجزءاً من نصفها المظلم وكرويتها الواضحة

6 - التأكيد على أن لله ما في السمٰوات وما في الأرض، وأن إليه ترجع الأمور.

7 - الإشارة إلى حقيقة أن كل نفس ذائقة الموت، وأن الموت كتاب مؤجَّل لا يحل إلا بإذن الله، الذي وحده يعلم أجل كل حي.

8 - التلميح إلى قضية نفسية مهمة لم تعرف إلا مؤخراً وهي معالجة الغم بغم جديد من أجل تخفيفه، والتهوين من وقعه.

9 - التأكيد على أن خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار فيهما آيات لأولي الألباب، وأن التفكير في مثل هذه القضايا من وسائل التعرُّف على الخالق العظيم، وعلى شيء من صفاته العليا، وقدراته التي لا تحدها حدود.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الرابعة من القائمة السابقة والتي تتعلق بالتأكيد على خلق كلٍّ من آدم وعيسى ابن مريم عليهما السلام من تراب ثم قيام كلٍّ منهما بالأمر الإلٰهي: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

يؤكِّد ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه أن خلق أبينا آدم عليه السلام قد تم بمعجزة وذلك بالأمر الإلٰهي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولحكمة يعلمها الله - تعالى - تم هذا الأمر على عدد من المراحل المتتالية كما يلي:

1 - ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59؛ الكهف: 37؛ الحج: 5؛ الروم: 20؛ فاطر: 11؛ وغافر: 67].

2 - و﴿مِّن طِينٍ﴾ وهو التراب المعجون بالماء [الأنعام: 2؛ الأعراف: 12؛ السجدة: 7؛ صٓ: 71، 76؛ الإسراء: 61].

3 - و﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أي: ليس من كل الطين، بل من خلاصة منتزعة من الطين برفق [المؤمنون: 12].

4 - ثم ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: من هذا الطين بعد تركه ليتخمر فيصبح لاصقاً بعضه ببعض [الصافات: 11].

5 - ثم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: من الطين المتخمر الذي ييبس فيصبح صلصالاً أسود منتناً، له صليل إذا تم طرقه. [الحجر: 26، 28، 33].

6 - ثم ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ بعد أن يتم يبس هذا الصلصال الأسود المنتن فيصبح صلصالاً يابساً كالفخار [الرحمٰن: 14].

7 - ثم نفخ الله - تعالى - فيه من روحه فأنشأت نسمة الروح مراد الله سبحانه وتعالى من خلقه.

8 - ويُجْمِلُ القرآن الكريم هذه المراحل كلها بالإشارة إلى خلق الإنسان من الأرض [هود: 61؛ طه: 55؛ النجم: 32؛ نوح: 17، 18].

9 - و﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي من الماء العادي باعتبار أن الله - تعالى - خلق كل شيء من الماء الذي يكوّن أغلب أجساد كل الأحياء، أو من «ماء التناسل» الذي جعله الله القادر مصدراً للتكاثر بعد الخلق الأول. [الفرقان: 54].

ويتحدث القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته عن تسلسل النسل بالتكاثر بواسطة ماء التناسل. والمادة أصلاً هي تراب الأرض ونفخة الروح، ويجمل ذلك في تعبير «من ذكر



طين الأرض الذي خلق منه الإنسان بالأمر الإلٰهي «كن فيكون»، وإليه يعود الإنسان بعد انتهاء أجله.

وأنثى» [الحجرات: 13] كما يجمله في «الماء»، وفي «الماء الدافق» [الطارق: 6]، وفي «الماء المهين» [المرسلات: 20]، وفي «سلالة من ماء مهين» [السجدة: 8]، و«من نطفة» [النحل: 4؛ يسٓ: 77؛ عبس: 19]، و«من نطفة إذا تمنى» [النجم: 46]، و«من نطفة أمشاج» [الإنسان: 2]، «ومن علقة» [القيامة: 38؛ العلق: 2]، و«من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة» [الحج: 5]، ويجمع المراحل كلها حتى إنشاء الجنين خلقاً آخر [الحج: 5؛ المؤمنون: 12-14] ويضمها في تعبير «خَلْقاً من بعد خلق» [الزمر: 6]، وفي تعبير «أطواراً» [نوح: 14]، و«في أحسن تقويم» [التين: 4]. ويَرُدُّ الخلق كله إلى الخلق الأول لأبينا آدم عليه السلام في تعبير ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1، الأعراف: 189، الزمر: 6]، ويشير إلى خلق أمنا حواء من هذه النفس الواحدة (أبينا آدم عليه السلام) بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وقوله - عز من قائل -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . .﴾ [الأعراف: 189].

وقوله - جلت قدرته -: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . .﴾ [الزمر: 6].

والنفس الواحدة هي أبونا آدم عليه السلام الذي خلقه الله - تعالى - أصلاً من تراب، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك**»[1].

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، هي عملية غيبية غيبة كاملة عنا حيث لم يشهدها أي من الإنس أو الجن وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (الحديث: 4693)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (الحديث: 2955).

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: 51].

ولكن الله – تعالى – الذي قرر هذه الحقيقة يطالبنا في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم بأن نتفكَّر في كيفية الخلق، ومن ذلك قوله – عز من قائل –:

- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].
- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 190،191].
- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: 19،20].
- ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: 57].
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: 29].

والجمع بين هذه الآيات يشير إلى أنه على الرغم من أن عملية الخلق قد تمت في غيبة الإنسان، إلا أن الله – تعالى – من رحمته بنا – قد ترك لنا في أنفسنا، وفي صخور أرضنا، وفي صفحة السماء من حولنا من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان – بإمكاناته المحدودة – على الوصول إلى تصوُّر ما عن كيفيات الخلق. ولكن هذه التصوُّرات تبقى قاصرة، عاجزة، ومنقوصة في غيبة الاستهداء بالنصوص الواردة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ عن عمليات الخلق.

وللتدليل على ذلك نقول بأن تدرُّج عمارة الأرض بالخلق عبر فترة زمنية طويلة تقدر بحوالي 3,8 بليون سنة قد أغرت عدداً من الكفار والمشركين وممن على دربهم من المنافقين بالمناداة «**بنظرية التطور العضوي**» التي تنادي بمادية الخلق الأول الذي نشأ

نتيجة لتفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض بعفوية كاملة، ثم التطور الذاتي العشوائي وغير الواعي لهذا الخلق الأول حتى وصل إلى الإنسان. ولكن تعقيد بناء الخلية الحية ينفي إمكانية إيجادها بغير تدبير حكيم مسبق. وتعقيد بناء العضيات المختلفة في الخلية الحية وبناء الشيفرة الوراثية التي تحكم جميع أنشطتها ينفي ذلك نفياً مطلقاً. وكذلك فإن كل نشاط طبيعي أو كيميائي أو حيوي وكل منتج عن تلك الأنشطة يؤكد على حقيقة الخلق، وعلى رعاية الخالق ﷻ لخلقه. فالشيفرة الوراثية سِجِل مُحْكَم من المعلومات والأوامر المنظمة تنظيماً مذهلاً، والتي تنفذ بدقة مبهرة على مستوى أدق التفاصيل، مما يعطي الخلية الحية في أبسط صورها مستوى من عظمة التصميم، وتعقيد البناء، والقدرة على التنفيذ لا يمكن أن يصل إليها أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد؛ فيستحيل على أكثر التقنيات تقدُّماً اليوم إنتاج واحدة من أبسط الخلايا الحية على الرغم من معرفتنا بتركيبها الكيميائي الدقيق مائة بالمائة.

ليس هذا فقط، بل إن لَبِنَة بناء الخلية الحية وهي الجزيء البروتيني العملاق عبارة عن بناء معقد من جزيئات الأحماض الأمينية المحددة التي يبلغ عدد المعروف منها العشرين حمضاً أمينيًّا. وهذه الأحماض الأمينية تترتب ترتيباً معيناً، ترتبط مع بعضها البعض بروابط كيميائية محددة، في تتابعات خاصة، وبنسب مُقدَّرة بدقة فائقة. ولارتباط تلك الأحماض الأمينية برابطة واحدة هي الرابطة الببتيدية (**Peptide Bond**) فإن البروتينات



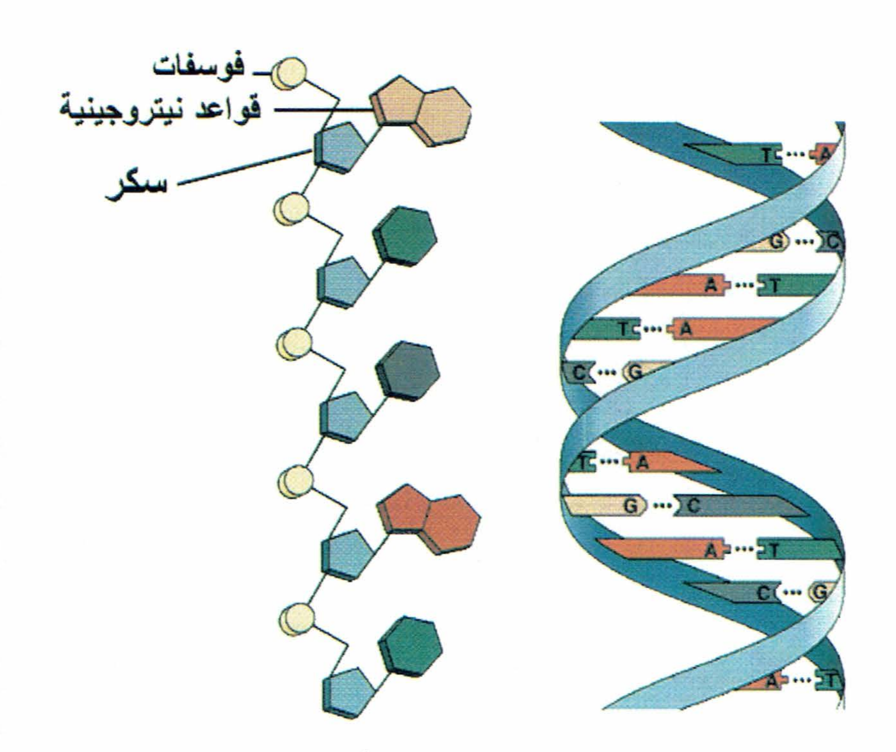
صورة حقيقيّة للصبغيات في أزواج.

تُعْرَف باسم عديدة الببتيدات (Poly peptides). وقد يشترك عدد كبير من مختلف الأحماض الأمينية في تكوين السلسلة الببتيدية للبروتين الواحد، وهذا لا يمكن أن يتم بمحض الصدفة أبداً، وذلك لأن جميع البروتينات في أجساد كل الكائنات الحية مبنية من العشرين نوعاً المحددة من أنواع الأحماض الأمينية، وكلها من أنموذج واحد من نماذج هذه الأحماض الأمينية يعرف باسم أنموذج: (AlphaType)، وكلها مرتبط ببعضه البعض برابطة محددة هي الرابطة الببتيدية. وأبسط جزيء بروتيني معروف يتكون من خمسين جزيئاً من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المحددة. وبعض البروتينات يتكون الجزيء الواحد منها من آلاف جزيئات الأحماض الأمينية. وجميع هذه الضوابط والقيود - وغيرها كثير - تجعل احتمال تكوُّن جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة من أكبر المستحيلات.

فإذا أضفنا إلى ذلك تعقيد بناء جزيء الحمض الأميني نفسه من ستة عناصر أساسية هي: **الكربون، الإيدروجين، الأوكسجين، النيتروجين، الكبريت، والفوسفور**، وأن مجرد اختيار تلك العناصر الستة من بين أكثر من مائة عنصر معروفة لنا بمحض الصدفة يجعل الأمر أشد استحالة. ويزيد الأمر تعقيداً أن الذرات تترتب في الأحماض الأمينية حول ذرة الكربون إما ترتيباً يسارياً أو ترتيباً يمينياً، وهي في أجساد جميع الكائنات الحية مرتبة ترتيباً يسارياً، ولكن بمجرد موت الكائن الحي فإنها تعيد ترتيب ذاتها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة مما يعين على تحديد لحظة وفاة الكائن الحي بحساب نسبة الترتيب اليميني إلى اليساري للذرات حول ذرة الكربون في جزيئات الأحماض الأمينية الموجودة في أية فضلة تبقى عن ذلك الكائن الحي.

ليس هذا فقط بل إن جزيئات الأحماض الأمينية تترتب في داخل الجزيئات البروتينية العملاقة المكوِّنة للخلية الحية ترتيباً يسارياً كذلك في جميع الأحياء، بينما تترتب الذرات في النويدات (Nucleotids) ترتيباً يمينياً، والنويدات هي الحروف التي تكتب بها الشيفرة الوراثية (DNA codon).

وإذا أضفنا إلى كل ذلك إحكام بناء الخلية الحية على ضآلة أبعادها فإن أية إمكانية للعشوائية أو الصدفة تنتفي تماماً، فالخلية الحية لها جدار رقيق من غشاء حي في كل من الإنسان والحيوان يتبادل الغذاء والنفايات والأوكسجين مع الخلايا المجاورة، ولها جدار من غشاء سميك غير حي في النباتات، والخلية لها السائل الخلوي الذي يتكون



رسوم تخطيطية توضح بنية شريط الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية.

أساساً من البروتينات، والدهنيات، والسكريات، والعديد من العناصر الذائبة، ويسبح في هذا السائل الخلوي العديد من العضيات، والنواة التي لها جدار حي كذلك وتحتوي على الشيفرة الوراثية المحمولة على عدد من الصبغيات المحدَّد لكل نوع من أنواع الحياة، وتتكون الصبغيات من جزيئات الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسجين وهو بناء غاية في التعقيد ودقة البناء. وبالنواة كذلك الحمض النووي الريبي المراسل، والبروتينات (ومنها الهرمونات والإنزيمات)، والكربوهيدرات، والدهون (**Lipids**)، والفيتامينات، والإليكتروليتات، وغيرها من المركبات الكيميائية المرتبة ترتيباً محكماً وبنسب محددة، واختيار دقيق، وتَناسُق عجيب ليقوم كل منها بدوره على أكمل وجه.

وللخلية الحية مصادرها المختلفة من الطاقة، ومصانعها، ومختبراتها، ومحطات التكرير الخاصة بكل منتج تنتجه، ووسائل الانتقال المحددة بداخلها وأعظم وأخطر وأعقد ما في الخلية هي شيفرتها الوراثية، وهي بناء شديد التعقيد يضم الصبغي الواحد من بين 46 صبغياً في الخلية الواحدة من خلايا جسم الإنسان 6 ,18 بليون جزيء

كيميائي موزعة بالتساوي على السكر والفوسفات والقواعد النيتروجينية، ولو اختل وضع ذرة واحدة من ذرات أي من هذه الجزيئات فإن الخلية إما أن تشوه أو تموت، وكل ذلك ينفي الصدفة، ويؤكد الخَلْق المُتْقَن، والتدبير الحكيم الذي لا يقوى عليهما إلا رب العالمين.

وإذا استحالت الصدفة على إيجاد خلية حية واحدة، فالأمر أشد استحالة بالنسبة للكائن الحي الكامل، وهو أبلغ بالنسبة إلى الإنسان الذي يتكون جسده في المتوسط من ألف مليون مليون خلية، تنتظمها أنسجة متخصصة، في أعضاء محددة، في أجهزة منظمة، تعمل كلها في توافق عجيب يخدم هذا الجسد المُكرَّم، ولذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].

﴿... قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: 16].

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[غافر: 62].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 24].

فإذا قال الخالق البارئ المُصوِّر أنه خلق الإنسان من تراب، أو من طين، أو من سلالة من طين، أو من طين لازب، أو من صلصال من حمإ مسنون، أو من صلصال كالفخار فلا يملك المؤمن بالله - تعالى - إلا أن يقول: آمين، لأن هذا هو الخالق يتحدث عن خلقه، ومن أدرى بالخلق من خالقه!!

وإذا خلق الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى ابن مريم من أم بلا أب بأمره فهو نفس الأمر الإلهي بـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الذي خلق به آدم من تراب. والإنسان - في ضعفه - قد استطاع استنساخ عدد من الحيوانات من أم بلا أب فهل يُعْجِزُ ذلك خالق الإنسان؟

والخلق من تراب ينطبق في الحالين: حال أبينا آدم عليه السلام الذي بدأ الله - تعالى - خلقه من تراب كما ينطبق على جميع نسله - ومنهم عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم -. وقد كانوا جميعاً في صلبه لحظة خلقه. كما ينطبق الخلق من تراب على المسيح عيسى ابن مريم نفسه كما ينطبق على كل إنسان مثله لأنه نشأ من بييضة أمه الموروثة عن أبوينا آدم وحواء عليهما السلام، وتغذّى وهو جنين على دمائها المستمدة من غذائها وهو مستمد من عناصر الأرض، وتغذى وهو رضيع على لبنها، وهو مستمد من نفس المصدر، وتغذى بعد ذلك على نباتات الأرض، وعلى لحوم ومنتجات المستباح من حيواناتها، وكل ذلك مستمد أصلاً من عناصر تراب الأرض ومائها وهوائها ولذلك قال ربنا - وهو أحكم القائلين -:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

ولا يملك عاقل أن يقول بعد كلام الله الخالق البارئ المُصوِّر قولاً...!!

ولعل في ذلك ما يردُّ نفراً من أبناء المسلمين الذين فُتِنوا بالغرب ومنجزاته، وانبهروا بمعطياته المادية البحتة المنطلقة من بوتقة الكفر والشرك والإلحاد، فتحدثوا عن التطور العضوي وزينوه في عقول نفر من غير المتخصصين، ومن المنهزمين نفسياً أمام الحضارة المادية المزيفة فانطلقوا بخيال جامح يؤوّلون كلام الله تأويلاً مرفوضاً، وينكرون نصوصاً قرآنية كريمة، وأحاديثاً نبوية شريفة قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، وهم يعلمون جيداً حكم من ينكر معلوماً من الدين بالضرورة، فافترضوا - دون أدنى دليل علمي أو منطقي - وجود بشر قبل آدم، والنصوص القرآنية الكريمة والنبوية الشريفة لا تفرِّق بين الآدمية والبشرية، بل تصف أشرف الخلق أجمعين بالبشرية فتقول آمرة إياه: ﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 93].

ويبقى في قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

يبقى في ذلك سبق علمي حقيقي أثبتته الدراسات المتأخرة في علم الوراثة والتي أكدت أن انقسام الصبغيات الحاملة للشيفرة الوراثية ينتهي بنسب بلايين الأفراد الذين

يعمرون أرض اليوم، والبلايين الذين جاؤوا من قبلنا ثم ماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، هؤلاء جميعاً ينتهي نسبهم إلى أب واحد وأم واحدة هما أبوانا آدم وحواء عليهما السلام. ولما كان عيسى عليه السلام من نسل آدم المخلوق أصلاً من تراب الأرض فإن جسد عيسى ابن مريم يحوي بالقطع جزءاً من التراب الموروث عن أبيه آدم، وقد غُذِّي بدم ولبن أمه وهو أيضاً مستمد من عناصر تراب الأرض، فهو مخلوق من تراب كما خلق أبوه آدم من تراب. كذلك أثبتت محاولات الاستنساخ في كل من عالمي النبات والحيوان إمكانية إنتاج جنين من أم بلا أب، وإذا استطاع الإنسان - على ضعفه - تحقيق ذلك فإنه لا يعجز خالق الإنسان..!!

فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً، حتى يبقى حجة على الخلق جميعاً إلى قيام الساعة، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي والرسول الأمين الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الثَّقلَيْن حتى أتاه اليقين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





خاتمة

جاء ذكر «الإنسان» في كتاب الله في أكثر من ثمانمائة وإحدى وثلاثين (831) موضعاً على النحو التالي:

1 - منها إحدى وتسعين (91) مرة بلفظة (إنسان) ومشتقاتها [(إنس) 18 مرة، (إنسان) 65 مرة، (أناس) 5 مرات، ومرة واحدة بكل من الألفاظ (أناسي)، و(إنسياً) و(مستأنسين)].

2 - في مائتين وواحد وأربعين (241) موضعاً بتعبير (الناس).

3 - في سبعة وثلاثين (37) موضعاً بتعبير (بشر) وتصريفاته.

4 - في خمسة وعشرين (25) موضعاً بتعبير (آدم) والنسبة إليه بتعبير (بني آدم).

5 - في سبعة وخمسين (57) موضعاً بتعبير (رجل) وتصريفاته.

6 - في أحد عشر (11) موضعاً بتعبير (امرأة) وتصاريفها.

7 - في ستة وعشرين (26) موضعاً بتعبير (المرء) وتصاريفها.

8 - في تسعة وخمسين (59) موضعاً بتعبير (النساء) و(نسوة) وتصاريفهما.

9 - في مائتين وخمسة وتسعين (295) موضعاً بتعبير (النفس) وتصاريفها.

وقد اخترنا من هذه الآيات القرآنية الكريمة واحداً وثلاثين نصاً من النصوص المتعلقة بخلق الإنسان الأوّل، وبوصف مراحل الجنين في نسله من بعده، وهذه الآيات الكريمة نثبتها فيما يلي:

1 - ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

2 - ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ [ص: 71].

3 - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31].

4 - ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف:11،12].

5 - ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172].

6 - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر:6].

7 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ . . .﴾ [النساء: 1].

8 - ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة: 7–9].

9 - ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

10 - ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾

[القيامة: 36،37].

11 - ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ۝٢٢﴾

[المرسلات: 20–22]

12 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

[الفرقان: 54].

13 - ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧﴾ [النجم: 45–47]

14 - ﴿. . . هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ . . .﴾ [النجم: 32].

15 - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾

[الروم: 20]

16 - ﴿. . . إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: 11].

17 - ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾

[المؤمنون:12–14].

18 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: 5].

19 - ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5–7].

20 - ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: 13،14].

21 - ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

22 - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6–8].

23 - ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: 58، 59].

24 - ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ [عبس: 17–19].

25 - ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 1،2].

26 - ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: 8] .

27 - ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ [الشورى: 49،50].

28 - ﴿... وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ...﴾ [لقمان: 34].

29 - ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

30 - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

[المؤمنون: 78].

31 - ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

[آل عمران: 59]

ومن الحقائق العلمية التي سبقت بها هذه الآيات القرآنية الكريمة جميع المعارف المكتسبة بقرون عديدة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

1 - أن الله - تعالى - قد توج خلقه للحياة الأرضية بخلق الإنسان، وعلى ذلك فإن جميع المخلوقات الأرضية من الجمادات والنباتات والحيوانات سابقة في وجودها لخلق الإنسان، لأن الله - تعالى - قد سخرها له وجعلها في خدمته، والإنسان يحتاجها في حياته، وهي لا تحتاج إلى الإنسان [الإنسان: 1].

2 - الجزم بخلق الإنسان من تراب، ومن طين، ومن طين لازب، ومن سلالة من طين، ومن صلصال من حمإ مسنون، ومن صلصال كالفخار، في مراحل متتالية، وتحول الإنسان بعد الموت إلى المرور بعكس تلك المراحل يؤكد على دقة الوصف القرآني [آل عمران: 59، النحل: 4، المؤمنون: 12 - 16، السجدة: 7 - 9، الرحمٰن: 14، الروم: 20 - 27، صٓ: 71، الحج: 5 - 7، الكهف: 37، الصافات: 11].

3 - وصف المراحل التي يمر بها جنين الإنسان بدقة بالغة من النطفة إلى النطفة الأمشاج (أي المختلطة)، إلى العلقة ثم المضغة، ثم خلق العظام وكسوتها باللحم، ثم إنشائه خلقاً آخر، ينمو خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، حتى يخرج إلى الحياة وليداً. وهي مراحل لم تبدأ العلوم المكتسبة في التوصل إلى إدراك شيء منها إلا بعد بناء المجهر في القرن السابع عشر الميلادي [النحل: 4، المؤمنون: 12 - 16، السجدة: 7 - 9، يسٓ: 77، الزمر: 6، الإنسان: 2، القيامة: 36 - 39، العلق: 1 - 5، الحج: 5 - 7، عبس: 17 - 19، نوح: 13 - 14].

4 - التأكيد على اشتراك كل من الأب والأم في تخلق الجنين، بعد جدل طال على دور كل منهما في الماضي غير البعيد [الحجرات: 13، النحل: 72، الشورى: 11، النجم: 45 - 47، الإنسان: 2].

5 - الجزم بأن الله - تعالى - هو الذي يخلق الخلق في الأرحام، ثم يصوره كيف يشاء ويعلم جميع أموره [آل عمران: 6، لقمان: 34، النجم: 32، الرعد: 8، الواقعة: 57 - 62، الانفطار: 6 - 8، عبس: 17 - 19].

6 - الإشارة إلى الخلق من ماء مهين، يجعله ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه، وحكمته، وقدرته وإرادته في قرار مكين [المرسلات: 20 - 23].

7 - التأكيد على أن الخلق يتم من اختلاط ماءيْن دافقين يخرج أحدهما من الزوج والآخر من الزوجة، وكلاهما يَخْرُجُ من بين الصلب والترائب [الفرقان: 54، الطارق: 5 - 8].

8 - تقرير حقيقة أن الله - تعالى - هو الذي يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، وهو الذي يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً [الشورى: 49 - 50].

9 - الجزم بأن جميع المخلوقين من بني آدم إلى قيام الساعة كانوا في صلب أبيهم آدم عليه السلام لحظة خلقه، أي أنهم خلقوا من نفس واحدة خلق الله - تعالى - منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، والله على كل شيء قدير [النساء: 1، الأعراف: 172، 189، الأنعام: 98، لقمان: 28، الزمر: 6، الحجرات: 13].

10 - أن حمل الأم لجنينها عملية صعبة تستنزف من دم الأم وأجهزتها وأعصابها وباقي جسدها الشيء الكثير ومن هنا كانت التوصية بالأم والإشارة بفضلها [لقمان: 14، الأحقاف: 15].

11 - تحديد أقصر مدة للحمل بستة شهور [لقمان: 14، الأحقاف: 15].

12 - التأكيد على أن آدم عليه السلام خُلِقَ عالماً عابداً، وأن الله - تعالى - علّمه الأسماء كلها، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي علّم الإنسان اللغة والبيان والدين، والكتابة بالقلم، وعلمه ما لم يعلم [البقرة: 31، الرحمٰن: 1 - 4، العلق: 1 - 5].

13 - أن الله - تعالى - خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيُّهم أحسن عملاً [آل

عمران: 145 - 168، المؤمنون: 12 - 16، الواقعة: 57 - 62، الملك: 2].

14 - أن الله ﷻ خلق الإنسان من الأرض، ثم يعيده فيها بعد موته، ثم يخرجه منها تارة أخرى عند بعثه [آل عمران: 59، الأعراف: 11 - 12، طه: 55، الحجر: 26 - 33، المؤمنون: 12 - 16، السجدة: 7 - 9، الرحمٰن: 14، الروم: 20 - 27، صٓ: 71 - 67، الحج: 5 - 7، الكهف: 37، نوح: 17، 18، النجم، 32، الصافات: 11].

15 - الإشارة إلى إبداع الله ﷻ في خلق حواس الإنسان، وجعلها وسيلة لكسب المعارف والمهارات، ولفهم رسالة الإنسان في هذه الحياة، وتمكينه من تحقيقها، والتأكيد على سبق السمع على كل من الأبصار والأفئدة، وذكره بالإفراد وذكر الأبصار والأفئدة بالجمع [النحل: 78، السجدة: 97، المؤمنون: 78 - 80، الملك: 23].

16 - الإشارة إلى خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم إلى تهدم هذا البناء بالتدريج مع تقادم العمر أو استمراء المعاصي ومفارقتها بلا انقطاع عنها [التين: 4 - 6].

17 - التأكيد على حقيقة الروح وعلى غيبيَّتها عنا [السجدة: 7 - 9، صٓ: 71 - 76، الحجر: 26 - 33].

18 - التأكيد على الزوجية في الخلق حتى يبقى في ذلك دليل قاطع على الوحدانية المطلقة للخالق ﷻ فوق جميع خلقه [الشورى: 49، 50، النمل: 64].

هذه هي بعض الحقائق المستقاة من عدد من الإشارات القرآنية الكريمة إلى خلق الإنسان الأول، ووصف المراحل الجنينية لنسله من بعده إلى يوم الدين، وهذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون عديدة من بعده، وورودها في كتاب الله بهذه الصياغة المعجزة لغوياً ودينياً وعلمياً لمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة سابقة أبداً، وحفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - في الوقت الذي ضاعت فيه أصول الرسالات السابقة جميعها، وحفظه على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، دون أن يضاف إليه أو أن ينتقص منه حرف واحد، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - إلى ما شاء الله حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق بأنه كلام الله

الخالق، وشاهد بهذا الحفظ للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت بالمصادر والمراجع

أولاً: علوم القرآن الكريم والسنة المطهرة:

1 - ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل (ت 774هـ): «تفسير القرآن العظيم»، الأجزاء 1 - 4؛ مطبعة الاستقامة - القاهرة (ط 2) 1373هـ/ 1954م.

2 - الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ/ 1267م). «مختار الصحاح» عني بترتيبه السيد محمد خاطر، وزارة المعارف العمومية - مصر (1322هـ/ 1904م) طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - بولاق - القاهرة - الطبعة العاشرة (1384هـ/ 1964م).

3 - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 503هـ/ 1108م): «معجم مفردات القرآن الكريم»: تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكاتب الغزلي، (1392هـ/ 1972م).

4 - الراغب الأصفهاني، «المفردات في غريب القرآن» تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني، دار المعرفة - بيروت - لبنان. (1418هـ/ 1998م).

5 - الصابوني، محمد علي (1397هـ/ 1976م). «صفوة التفاسير» الأجزاء 1 - 3؛ دار القرآن الكريم - بيروت.

6 - الصابوني، (1402هـ/ 1981م): «مختصر تفسير ابن كثير» (الأجزاء 1 - 3)؛ دار القرآن الكريم - بيروت.

7 - عبد الباقي، محمد فؤاد (1364هـ/ 1945م): «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»؛ دار ومطابع الشعب - القاهرة - مصر.

8 - قطب؛ سيد، (ت 1965م/ 1385هـ): «في ظلال القرآن»؛ الأجزاء 1 - 6؛ دار الشروق (1393هـ/ 1973م).

9 - الكتب الستة (1420هـ/ 1999م) «موسوعة الحديث الشريف»؛ دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية.

10 - كنعان، محمد أحمد (1404هـ/ 1984م): «قرة العينين على تفسير الجلالين»، المكتب الإسلامي - بيروت.

11 - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1393هـ/ 1973م): «المنتخب في تفسير القرآن الكريم» ط 3؛ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (لجنة القرآن والسنة) - القاهرة - مصر.

ثانياً: المراجع العربية:

1 - البار، محمد علي، (1401 - 1112هـ/ 1981 - 1992م): «دورة الأرحام»؛ الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص 1 - 93.

2 - البار، محمد علي، (1420هـ/ 2000م): «التارات السبع: من الطين إلى الجنين، أطوار الخلق في القرآن والسنة المطهرة»، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص: 1 - 68.

3 - البار، محمد علي، (1423هـ/ 2002م): «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ص: 1 - 528.

4 - جور نجر، ج. س؛ عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد (1408هـ/ 1987م): «علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة»، من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، (إسلام آباد - باكستان 25 - 28 صفر 1408هـ/ الموافق 18 - 21 أكتوبر 1987م).

5 - حامد، حامد أحمد (1417هـ/ 1996م): «الآيات العجاب في رحلة الإنجاب» دار القلم، دمشق، ص: 1 - 335.

6 - حامد، حامد أحمد (1423هـ/ 2002م): «رحلة الإيمان في جسم الإنسان»؛ دار القلم، دمشق، دار البشير - جدة، ص: 1 - 548.

7 - حسنين، كريم (1420هـ/ 2000م): «دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن»؛ «نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع»، ص: 1 - 231.

8 - دياب، محمود (1408هـ/ 1988م): «الإعجاز الطبي في القرآن الكريم» مطابع دار الشعب بالقاهرة، ص: 1 - 94 (مع الترجمة إلى اللغة الإنجليزية).

9 - الديب، صفوت (بدون تاريخ): «الإعجاز العلمي في القرآن: نظرة على علم الأجنة» (بدون ناشر).

10 - الشريف، عدنان (1416هـ/ 1997م): «من علم الطب القرآني: الثوابت العلمية في القرآن الكريم»؛ دار العلم للملايين - بيروت (لبنان)؛ ص: 1 - 336.

11 - العطيفي، محمود (1416هـ/1997م): «القرآن الكريم والحروق» من أعمال مؤتمر جراحة التجميل والحروق الدولي بالبحرين، ص: 1 - 9.

12 - عيد، محمد السقا (1418هـ/ 1998م): «مختارات من الإعجاز الطبي في القرآن»؛ طبعة خاصة بدون ناشر ص: 1 - 180.

13 - فياض، محمد (1420هـ/ 1999م): «إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان»، دار الشروق، ص: 1 - 141.

14 - كورباليس، مايكل (2006): «نشأة اللغة: من إشارة اليد إلى نطق الفم»: ترجمة محمود ماجد عمر المعرفة (325) ص: 1 - 320.

15 - الهلالي، صادق؛ حسين اللبيدي (1414هـ/ 1993م): «الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم»؛ هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص: 1 - 56.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

1 - Abrahams P.H.; S.C. Marks Jr. & R.T. Hutching (2003): Mc Minn's Colour Atlas of Human Anatomy; MOSBY, An Imprint of Elsevier Science Ltd., 378 pp.

2 - Corballis, Michael C. (2002): "from Hand to Mouth: the Origins of Language" Princeton University Press.

3 - Gianaroli, Luca; Michelle Plachot& M. Cristina Magli (2000): "Atlas of Embryology"; Human Reproduction vol. 15 (Suppl. 4), December 2000, European Society of Humam Reproduction and Embryology ESHRE; Oxford University Press, pp. 1 - 79.

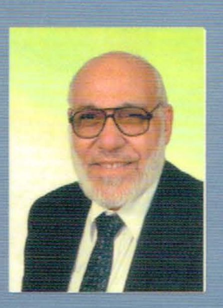
4 - Jirasek, Jan E. (2001): "An Atlas of the Human Embryo and Fetus" A Photographic Review of Human Prenatal Development (The Encyclopedia of Visual Medicine Series); The Parthenon Publishing Group. U.K., PP. 1 - 144.

5 - Moore, Keith l. (1973 - 1982): "The Developing Humam: Clinically Oriented Embryology"; 3rd edtion with Islamic Additions by Abdul - Majeed A zzindani; Dar Al - Qiblah, Jeddah, Saudi Arabia with special permission from W.B Saunders Company, pp. i xvii +1 - 479

6 - Moore, Keith L. & T. V. N. Persaud (1998):" The Developing Human: Climically Oriented Embryology"; W.B. Saunders Campany; pp. i xii + 1 - 563.

7 - Nilsson, Lennart (2002): "Borders of Science" Bibliotheca Alxandrina, 77 pp., Alexandria, Egypt.





الدكتور زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والغربية
زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها
ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة



للطباعة والنشر
هاتف: 834301 - 834332 - 858830(01) فاكس: 835614(01)
ص ب: 11/7876 بيروت ـ لبنان ـ البريد الإلكتروني e.mail: info@marefah.com
http://www.marefah.com

ISBN 9953-85-138-7
0 009953 851387 >